

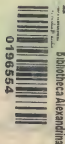
تاريخ المغرب في العصر الإسلامي



الناشر

مكتبة شمس الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٤٨٣٩ ٤٧٤ الإسكندرية

مكتبة الآداب - جامعة الإسكندرية
مكتبة الآداب - جامعة الإسكندرية



اهداءات ١٩٩٩

١.د/ السيد محمد العزيز جا

استاذ القاريخ الاسلامي

جامعة الاسكندرية

تاريخ المغرب في العصر الإسلامي

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز بنظم
أستاذ التاريخ الإسلامي والمطالعة الإسلامية
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ق ٤٨٢٩٤٧١، الإسكندرية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

كان المغرب العربي في العصر الاسلامي يرتبط حضاريا بالأقطار الاسلامية الشرقية ارتباطا وثيقا ، على الرغم من انفصاليه سياسيا عن المشرق الاسلامي ، منذ أن تعرضت أطراف المغرب الشرقية للغزوة الحلالية في سنة ٤٣٣ هـ . ولم تنقطع الصلات الحضارية بين شقي العالم العربي بصفة نهائية إلا بعد أن نجحت الدولة العثمانية في القضاء على دولة المماليك في مصر والسيطرة على البلاد التابعة لدولة المماليك . ولم يلبث المغرب العربي كله ، باستثناء المغرب الأقصى أن نكب بدوره بالسيطرة العثمانية ، ودعم الاستعمار الأوروبي للعالم العربي منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر هذا الانفصال السياسي والحضاري . ولم يبق للعرب من الصدمة الاستعمارية الجديدة إلا بعد أن مضى ما يقرب من قرن ونصف من الزمان ، فتوالت ثوراتهم التحررية ، وحطموا سريجيما القيود والأصفاد التي كبلهم بها المستعمرون .

وعلى هذا النحو كانت معرفة عرب المشرق بتاريخ المغرب العربي وحضارته في العصر الاسلامي حتى عهد قريب محدودة ، تعتمد أساسا على بحوث المستشرقين من الفرنسيين بوجه خاص ودراساتهم عن المغرب ، فقد كان الاستعمار الفرنسي يقيم ستارا حديديا حول هذه الأقطار المغربية بقصد عزلها تماما عن الأقطار الشرقية ، فلا تصل إليها أصدااء المعارك التي كان يخوضها العرب في مصر والشام والعراق في سبيل التحرر والاستقلال ، ولا تصل إليها شررات من نيران الثورات المحتدمة في قلب العالم العربي . وظلت أبواب المغرب العربي موصدة أمام عرب المشرق ، لم يدخلها منهم إلا

نفر قليل ، وعلى هذا النحو احتكر علماء الدول المستعمرة للمغرب وعلى رأسها فرنسا ميدان الدراسات المغربية لأنفسهم ، وهذا يفسر تخلف مؤرخي المغرب في مجال هذه الدراسات .

وعلى الرغم من أن نفرا من المستشرقين المشتغلين بتاريخ وحضارة المغرب في العصر الاسلامي قد جانبا الناحية العلمية ، فعمدوا إلى التويه والتضليل في أبحاثهم لتعمية الوطنيين عن أعجادم التاريخية ، أو أبرزوا الأخطاء التي وقع فيها العرب إبان حكمهم للمغرب ، ومجدوا الثورات التي قام بها أهل البلاد ضد العزب ، وبالفوا في تصوير مقاومة اليربر وهم سكان البلاد للعرب الحاكمين ، رغبة في التفريق بين عنصرى السكان ، فانه لا ينبغي أن نجد فضل الأبحاث القيمة التي قام بها جمهور كبير من المستشرقين من الفرنسيين والاسبان والإيطاليين والبرتغاليين في تاريخ المغرب العربي وحضارته، نخص بالذكر منهم الأستاذة ليفى بروفنسال ، وإيلي لامبير ، وجورج مارسيه ، ووليم مارسيه ، وهنرى تراس ، وتوريس بلباس ، وخواكين فالقى ، وخواكين جتالت ، وبوريس ماسلو ، وهنرى ياسيه وغيرهم ، فقد اتسمت بحوث هؤلاء العلماء بالنزاهة العلمية والصدق والدقة في تحرى الحقائق ، والاعتماد على المصادر العربية التي بذلوا في نشرها وتحقيقها جهودا مضيئة . كما لا ينبغي أن ننسى الدراسات والبحوث الأصيلية في حضارة المغرب وتاريخه في العصر الاسلامي التي قام بها المستشرق الفرنسى الكبير الأستاذ ليفى بروفنسال الذى قضى حياته في خدمة التراث الاسلامي في أرض المغرب والاندلس .

وبينا كان المستشرقون وخدم يستأثرون بالبحث في تراث المغرب

النفى والفكرى ، كان هناك فريق من العلماء العرب يعملون من جانبيهم على تحقيق بعض المخطوطات المغربية ودراسة بعض مظاهر حضارة الاسلام في المغرب . هؤلاء العلماء هم الطليعة العربية في الدراسات المغربية منذ النصف الاول من القرن العشرين ، نذكر منهم من المقاربة الاساتذة حسن حسنى عبد الوهاب ، والسيد علال الفاسى ، وأحمد توفيق المدني ، وعبد الله كنون ، وعبد الحكيم ، ومحمد بن تاويت الطنجى ، وعبد الهادى التازى . ونذكر من المصريين الاساتذة الدكتور أحمد فكرى أول باحث عربي في مصر يقوم بدراسات أثرية علمية عن مساجد البلاد التونسية وآثارها ، والدكتور حسين مؤنس الذى قام بأبحاث مغربية موفقة ، والمرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى الذى تعمق في دراسة تاريخ المغرب العربى في العصر الاسلامى وكان يدرسه في الجامعات المصرية . وبدأت الدراسات المغربية تتقدم تقدماً ملموساً منذ أن تحررت أقطار المغرب العربى من الاستعمار الاوروبى ، وتحطم الحاجز الوهمى الذى وضعه الاستعمار بين عرب المشرق والمغرب ، وفتح المغرب أبوابه الموصدة للباحثين من أبناء العروبة ، وأخذ هؤلاء يساهمون في البحث والتنقيب عن تاريخ المغرب وآثاره في العصر الاسلامى ، ومن هؤلاء الباحثين الاساتذة : الدكتور سعد زغلول عبد الحميد الذى قام بأبحاث أصيلة عن المغرب الاسلامى وحضارته ، والدكتور أحمد مختار العبادى الذى ساهم بتصويب واقر في نشر مصنفات لسان الدين بن الخطيب ورسائله ، والدكتور حسن محمود الذى اهتم بتاريخ المغرب في عصر دولة المرابطين بوجه خاص ، والاستاذ محمد عبد الله عتار الذى بذل جهوداً موفقة في دراسة تاريخ المغرب والاندلس في العصور الاسلامية ، والدكتور عثمان عثمان إسماعيل الذى ساهم في التنقيب عن آثار شالة الاسلامية وجعلها موضوعاً لرسالة دكتوراه في جامعة الإسكندرية .

وعلى الرغم من هذه الجهود التي بذلها الباحثون من المشرقين والمغرب، فإن الدراسات المغربية الإسلامية تعتبر أحدث بكثير من الدراسات المشرقية، وما زال تاريخ المغرب وحضارته في العصر الإسلامي يحتاج إلى المزيد من هذه الجهود .



وهذا الكتاب الذي أقدمه لقراء العربية، وهو عرض سريع لتاريخ المغرب العربي في العصر الإسلامي، وخلاصة دراسات قمت بها في بلاد المغرب والأندلس، يؤلف الجزء الثاني من تاريخ كامل للمغرب العربي منذ أقدم العصور اشترك في تأليفه زميلان عزيزان هما الأستاذ الدكتور رشيد التناضوري عن المغرب في العصر القديم حتى نهاية العصر الروماني، واشتركت فيه بهذا الجزء الثاني عن المغرب في العصر الإسلامي، وقبلت كتابة فصلين في بدايه الكتاب عن تاريخ المغرب في ظل الوندال والبيزنطيين، تكملة للقسم الذي وضعه الدكتور التناضوري وبسبب العلاقة الوثيقة لهذه الفترة بالعصرين القديم والإسلامي، بحيث تعتبر تمهيدا لا بد منه للعصر الإسلامي . وأخيرا اشترك الأستاذ الدكتور جلال يحيى بالجزء الثالث عن تاريخ المغرب في العصر الحديث .

وقد قسمت العصر الإسلامي إلى أربعة أبواب، كل منها يتضمن عدداً من الفصول وتوقفت في حديثي إلى نهاية دولة الموحدين، واختتمت موضوع القمم الإسلامي بدراسة موجزة عن الدول التي ورثت دولة الموحدين في المغرب . ولقد حرصت على تسجيل التراث المادي للحضارة المغربية في العصر الإسلامي، فخصصت فصولاً لدراسة آثار كل أسرة من الأسرات الحاكمة

— ز —

للمغرب ، ولم أغفل الناحية العمرانية ، وهى جانب هام للحضارة المغربية ،
فضمنت الكتاب تاريخ المدن المغربية التى أنشئت فى العصر الإسلامى .

أرجو أن أكون قد حققت للقارئ العربى رغبته فى الإلمام بتاريخ المغرب
للعربى فى العصر الإسلامى جملة واحدة ، والله أسأله التوفيق .

السيد عبد العزيز سالم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية (المصورة)

حقق صدور الجزء الثانى من موسوعة المغرب الكبير ، ويتمثل بتاريخ المغرب فى العصر الاسلامى ، نشر الدار القومية للطباعة والنشر الاسكندرية سنة ١٩٦٦ ، الهدف الذى كنا نسمى اليه ، فقد افاد الباحثون والدارسون فى تاريخ المغرب الاسلامى من مادته العلمية ، اذ فتح لهم ابوابا جديدة للبحث العلمى ، ويسر عليهم التكامل فى عرض حوادث المغرب الاسلامى منذ المحاولات الاولى لفتح العرب للمغرب حتى نهاية عصر دولة الموحدين ، والشمولية والترابط الواضح فى المادة التاريخية . مهمة التعرف على حضارة المغرب فى العصر الاسلامى . ووضع اليد على النقاط التى يمكن ان يفيد منها الباحث فى استنباط الانكار الجديدة . والحق ان كتاب المغرب الاسلامى اسدى خدمات جليلة لطلاب العلم والباحثين فى سائر انحاء الوطن العربى لا يمكن انكارها ، وليس اقل على ذلك من تزايد الاقبال على اقتناء هذا الكتاب بحيث نفذ خلال سنوات قليلة من ظهوره ، وترتب على ذلك ازدياد الطلب على اقتنائه الامر الذى دعائى الى التفكير فى اعادة طباعته وتعديل موضوعاته ، وهو امر قد يطول امام الضغوط الشديدة على المطابع نتيجة انصراف هذه المطابع لطباعة الكتب الجامعية . وقد وافقت اخيرا امام الالتحاح المتواصل على اصدار طبعة مصورة من هذا الكتاب بعد حذف الفصلين الاولين ويتناولان تاريخ المغرب فى ظل الوندال والبيزنطيين ، والاختصار على العصر الاسلامى ، بحيث يصدر هذا الجزء كتابا مستقلا عن الموسوعة التى كان يؤلف الجزء الثانى منها وذلك تيسيرا على الباحثين فى الامادة من مادته . ومع ذلك فثانى يصدر اعداد طبعة جديدة معدلة ومنقحة من هذا الكتاب مسترشدا بما صدر حديثا من مخطوطات محققة وابحاث علمية عن بلاد المغرب .

والله ولى التوفيق ...

السيد عبد العزيز سالم

يونيو ١٩٨٢

المغرب في العصر الاسلامي

تمهيد

دراسة لأهم مصادر تاريخ المغرب في العصر الإسلامي

أولاً - الآثار الإسلامية في المغرب :

تعتبر الآثار الباقية ، سواء الثابتة منها كالمعابر ، أو المنقولة كالصحف والعملات ، من أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤرخون في كتاباتهم عن المغرب الإسلامي ، ذلك لأن الوثائق التاريخية لا تكفي وحدها لهذا الغرض ، إما لتدريتها ، أو لتناقض ما جاء فيها ، أو لاختلاط الحقائق التاريخية فيها بالقصص والأساطير . ثم إن الآثار تعتبر سجلا تاريخيا حيا للأعمال التي قام بها الولاة والأمراء في العصور الإسلامية المختلفة ، وشاهد ماديا ماثلا لحضارة الاسلام في المغرب ، فمن هذه الآثار استطعنا أن نقف على مدى ما وصل إليه رجال الفن والصناعات من تقدم في المجال الحضاري ، ومن نقوشها استطعنا أن نصحح كثيرا من الأخطاء التاريخية التي وقع فيها بعض المؤرخين ، ونميط الثام عن حقائق تاريخية جديدة ، فالنقوش الكتابية التي تدور بقباب المحراب والبهو بجامعي القيروان وتونس ، والكتابات التي نطالها فيما تبقى من آثار المغرب في العصر الإسلامي من أبواب أثرية وأسوار وقلاع وحمامات وفنادق وقصور وقناطر وجسور تتضمن تواريخا دقيقة لهذه المنشآت ، كما تتضمن في كثير من الأحيان أسماء منشئها من الأمراء والسلاطين ، وفي بعض الأحيان أسماء المرءاء والمهندسين الذين أشرفوا على إنشائها ، وهي أمور غفلت الوثائق التاريخية عن ذكرها على هذا النحو من الدقة . وهكذا تبدو لنا الآثار المغربية بنقوشها الكتابية ، وأساليبها الفنية المختلفة وكأنها أحياء تنطق بلغة

يفهمها الناس جميعا . كذلك تحدد لنا العملات تواريخا هامة قد ترد خططا في المصادر المكتوبة أو المتقولة ، ثم هي تشتمل على ألقاب السلاطين والأمراء وتتضمن أيضا أسماء المدن التي سكنت فيها . ودراسة العملات نفيدنا في دراسة الأحوال الاقتصادية للمغرب في العصر الاسلامي .

والآثار الاسلامية في المغرب تصور لنا جانبا هاما من جوانب الحضارة العربية الاسلامية في هذا الجزء من الوطن العربي الكبير ، وهي خير ما ينطق بما كانت عليه هذه الحضارة من تقدم وازدهار ، والوثائق الحقيقية الصادقة التي نستند عليها في كتابة تاريخنا عن المغرب العربي ، فالنقود الأندلسية على طلي المغرب الأقصى في العصر الأموي يتجلى بصورة واضحة في آثار فاس (مسجد القرويين والأندلسيين) ، وسيطرة المرابطين والموحدين على الأندلس يعبر عنها الأسلوب الفني المشترك السائد في كل من المغرب والأندلس في هذين العصرين ، وغلبة الطابع الغرناطي على آثار المغرب كله منذ أوائل القرن الرابع عشر يعبر عن أثر العلاقات السياسية بين بني مرين وبني الأحمر في الفنون المعمارية ، كما يعبر أيضا عن حقيقة تاريخية ثابتة ، هي هجرة الفن الأندلسي الغرناطي إلى المغرب بعد انتهاء دولة الاسلام في الأندلس .

فدراسة الآثار الاسلامية ببلاد المغرب تعتبر ضرورة لازمة لدراسة تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، كما أنها تعتبر كذلك ضرورة لازمة لدراسة تاريخ العمران الاسلامي في إفريقية: فمدينة القيروان أسست عند الفتح العربي لتكون قاعدة ارتكاز للجيش العربي في أرض المغرب ، كما أن تونس أسست أيضا لتكون دار صناعة ومحرا للساحل التونسي في ولاية حسان ابن النعمان، ومدينة فاس أقيمت في سنة ٩١١ هـ لتكون مركزا لدولة الادارسة

الشيعية ، أما مراکش فقد أقامها المرابطون في أيام أبي بكر عمر اللتوني ،
والرباط أسسها الموحدون في عهد المنصور لتكون رباطاً للمشاغرين من أهل
المغرب ينتقلون منه للجهاد في أرض الأندلس . وما زالت آثار تونس ،
والقيروان ، ووهران ، وتلمسان ، وفاس ، والرباط ، ومراكش ، وغيرها
من مدن المغرب تعبر عن الدور الكبير الذي قام به الأمراء والملحاء والولاة
في العمران المغربي ، ولا يخفى أهمية ذلك بالنسبة للحضارة المغربية ، لاتصاله
الوثيق بالنواحي الاقتصادية والاجتماعية : فالمدن تتضمن بؤرات اقتصادية
 واجتماعية من أسواق ، ومصانع ، وحمامات ، وفنادق ، ودور للصناعة ، لعبت
دورا هاما في الاقتصاد المغربي في العصر الوسيط .

وبلاد المغرب تزخر بالآثار الإسلامية التي يمتد تاريخها من الفتح العربي
سنة ٥٠ هـ إلى سقوط غرناطة ، آخر معقل للمسلمين في الأندلس ، سنة
٤٩٢ هـ . وبهنا من دراسة الآثار المغربية ، الآثار المعمارية بالذات ، لأنها
آثار مادية تاجزة . وتنقسم المنشآت الانثوية إلى ثلاثة أنواع :

١ - المنشآت الدينية ، وهي أكثر العمارات القائمة في أرض المغرب ،
وتشتمل على المساجد ، والزوايا ، والأضرحة . وتعتبر أهم أنواع الآثار
المعمارية لما تتضمنه من نقوش زخرفية وكتابية تعد ذخيرة تاريخية طيبة ،
ولما تضمه بين جدرانها من أساليب فنية ذات مستويات مختلفة ، تعكس روح
العصر الذي أقيمت فيه ، وتعبّر عن طيبة الحياة السياسية والاجتماعية
في هذا العصر .

٢ - المنشآت الحربية ، ونعني بها أعمال التحصينات من قلاع ، وقصبات ،
وأسوار تحصن بها المدن ، وترد هجمات الغازين والمعتدين . ونلاحظ أن

معظم مدن المغرب مازال يحفظ بهذه الأسوار والقلاع، كما أن أبوابها مازالت تحمل أسماءها القديمة، وهو أمر يساعد على دراسة طبوغرافية المدن المغربية في العصر الإسلامي.

٣- المنشآت المدنية، وتشتمل على عمائر المنافع العامة من خزانات وجسور وقناطر ومواصل، كما تشتمل على العمائر الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية من حمامات ودور وقصور ومصانع وقنادق.

ونرجو أن يتسع المجال لدراسة بعض أمثلة من هذه المنشآت بأنواعها الثلاثة في بلاد المغرب في العصور الإسلامية المختلفة.

ثانيا - أهم المصادر العربية :

نعني بالمصادر العربية التواليف والمصنفات المطبوعة، والمدونات المخطوطة التي صنفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم القدامى في تاريخ الفتح العربي للمغرب، أو في تاريخ الدول الإسلامية التي قامت في المغرب، أو في دراسة مدنه ووصف المغرب. وسنستعرض أهم هذه المصادر.

١- مصادر تاريخ الفتح العربي للمغرب :

١- عبد الرحمن بن عبد الحكم (ت. ٢٥٧هـ (٨٧١م)) : كتاب فتوح

مصر والمغرب والأندلس :

هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم القرشي المصري ، ولد بمصر فيما يقرب من سنة ١٨٧هـ ، وتوفي بالتسخطاط في عام ٢٥٧هـ ، ودفن إلى جوار قبر الإمام الشافعي بمأبى القبة . وكان ابن عبد الحكم

من أسرة اشتهرت بمعرفة علوم الحديث والفقه ، وكان أبوه عبد الله بن عبد الحكم^(١) من كبار المحدثين في مصر ، وله مصنفات كثيرة في الفقه والحديث . وورث ابنه عبد الرحمن عنه هذا العلم ، فكان من أهل الحديث ، عالما بالتواريخ . وقد انعكست دراسات ابن عبد الحكم القائمة على الحديث في كتابه فتوح مصر والمغرب والاندلس ، فقد اعتمد في رواياته التاريخية على الأسانيد الكاملة ، فعاد الرواية في أشكالها التي حفظت بها في ذاكرة الناس^(٢) . ويتضح هذا المنهج في كثرة عدد الروايات غير الموثوق بها ، عرضها ابن عبد الحكم على هذه الأشكال المختلفة من الرواية ، حرصا على بيان روايتها ، وأمانة في النقل ، دون أن يعني بتقدها ، فهو يذكر مثلا عند تعرضه لغزوة عمرو في الخيل إلى برقة : « ... حدثنا عثمان بن صالح ، حدثنا ابن لميعة أن أنطابلس فتحت بعهد من عمرو بن العاص . حدثنا عبد الملك ابن مسلمة ، حدثنا ابن لميعة عن يزيد بن عبد الله الحضرمي ، أن ابن دياس حين ولي أنطابلس أتاه بكتاب عهدهم . حدثنا عبد الملك بن مسلمة ، حدثنا ابن لميعة ، عن يزيد بن عبد الله الحضرمي ، عن أبي قنان أيوب بن أبي العالاية الحضرمي ، عن أبيه قال : سمعت عمرو بن العاص على المنبر يقول لأهل أنطابلس عهد يوفي لهم به »^(٣) . ونفهم من هذا النص أن ابن عبد الحكم

(١) ولد عبد الله بن عبد الحكم بالاسكندرية في سنة ١٥٥ ، وتوفي بانصباط في

سنة ٢١٤ هـ .

(٢) مقدمة كتاب فتوح مصر والمغرب ، تحقيق الأستاذ عبد المنعم عامر ، القاهرة ١٩٦٩

صفحة ٤ .

(٣) Ibn 'Abd al - Hakam, Conquête de l'Afrique du Nord et de

l'Espagne, texte et trad. par Albert Gateau Alger, 1947, p. 36.

اعتمد على روايات شغوبة تناقلها الرواة ، ومعلومات مكتوبة نقلها عن طريق المشايخ الذين رأوا السجلات الرسمية الخاصة بفتح مصر والمغرب ، أو نسخوها قبل احتراق ديوان القسطنطين (١) ، هذه المعلومات المكتوبة التي نقلها ابن عبد الحكم تمثل فيما كتبه الواقدي (المتوفى سنة ٢٠٧) ، وابن لهيعة (المتوفى سنة ١٧٤ هـ) . وكان ابن لهيعة حجة في الحديث ، ومصدرا هاما في التاريخ المصري . ونستنتج أيضا من النص السابق ، ومن غيره من النصوص أن ابن عبد الحكم اعتمد كثيرا في تأريخه للحوادث على عثمان بن صالح المتوفى سنة ٢١٩ هـ ، وهو مصدر مصري هام كان له فضل كبير في التأريخ العربي لفتح العرب للمغرب والاندلس . فرواية ابن عبد الحكم إذن تمثل الرواية الشرقية لقصة فتح العرب للمغرب (٢) .

ونلاحظ أن ابن عبد الحكم يقل من ذكر الإسناد كلما توسع في تأريخ حوادث الفتح ، لقلة الحقائق التي يجمعها أو لقلة الأحاديث ، وإن كان يصخذ من رواية عثمان بن صالح قاعدة أساسية لتأريخه ومن بين من ذكرهم ابن عبد الحكم من المحدثين . في فتوح المغرب ، بخلاف ابن لهيعة ، عبد الملك ابن مسلمة ، ويذكره ابن عبد الحكم دائما في نهاية الإسناد ، واليث بن سعد (المتوفى سنة ١٧٥) أعظم راوية للتاريخ ، ومنهم يزيد بن أبي حبيب ، أستاذ ابن لهيعة واليث ، وكان مصدراً أخباريا دقيقاً من أقدم مصادر الرواية التاريخية . ولا يخفى أن مصر كانت مركزا يمر عليه علماء المغرب وطلاب العلم ، يأخذون فيها عن علمائها ، وقد ذكر ابن عبد الحكم بعض

(١) سعد زغلول عبد الحليم . فتح العرب للمغرب بين الوثيقة التاريخية والأسطورة

التسمية ، ص ٨ . (٢) نفس المرجع .

أسماء لمسؤلا منهم هلال بن ثروان اللواتى الذى اشترك فى حملة حسان
ابن النعمان .

ويعتبر كتاب فتوح المغرب أقدم المصادر العربية فى تاريخ الفتح العربى
للمغرب ، وقد كتبه ابن عبد الحكم كسمة لفتح مصر . ويبدأ تاريخ فتح
المغرب بالمحاولات الأولى للفتح ، وذلك منذ قيام عمرو بن العاص بغزو برقة
وطرابلس ، ومعاودة عبد الله بن سعد ، ومعاوية بن حديج السكرة على
إفريقية . ثم يستمر فى سياق الروايات عن الفتح على أيدي عقبة بن نافع ،
وأبي المهاجر دينار ، وزهير بن قيس . وحسان بن النعمان ، ويستكمل روايته
مولاية موسى بن نصير على إفريقية . وقد اهتم المؤرخون بنشر فصول من
هذا الكتاب منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، فى الترجمة الفرنسية
لكتاب العرب لابن خلدون التى نشرها دى سلان بعنوان : *l' Histoire des*
Berbères t I. قطعة من فتوح المغرب لابن عبد الحكم تنتهى حتى إنشاء
القيروان . كذلك نشر جون هاريس جوتز سنة ١٨٥٦ ترجمة من فتوح
الأندلس لابن عبد الحكم ، وقد استعان السنيور لافونتي القنطرة المستشرق
الاسبانى بهذه الترجمة الفرنسية وترجم منها عدة صفحات إلى الاسبانية فى
مقدمته لكتاب « أخبار مجموعة فى تاريخ الاندلس » ، وفى سنة ١٩١٤ نشر
هنرى ماسيه الجزء الخاص بفتوح مصر . وفى سنة ١٩٢٢ صدر النص الكامل
لكتاب فتوح مصر وإفريقية نشره شارل تورى بعنوان *Kitab Futuh' Micr*.
ومنذ نحو ١٧ سنة تقريبا قام المستشرق الفرنسى الاستاذ البيرجاتو بنشر
القسم الخاص بفتوح المغرب والاندلس مع الترجمة الفرنسية ومقدمة نقدية
رائعة ، بعنوان :

Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne, dans :
Bibliothèque Arabe - Française, No II, Alger, 1977.

وأخيرا نشر الأستاذ عبد المنعم عامر النص التاريخي كله متضمنا فتوح
مصر والمغرب والأندلس بالقاهرة في ١٩٦١ ، عن نسخة من كتاب فتوح
مصر والمغرب محفوظة بمكتبة فاتح بالآستانة .

٢ - البلاذري (ت ٢٧٩) كتاب فتوح البلدان :

هو أحمد بن يحيى بن جابر بن داود المعروف بالبلاذري ، غير معروف
الأصل ، وإن كان الأستاذ سرفاجيه يميل إلى إرجاع أصله إلى الفرس .
ولد البلاذري في بغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة ، ونشأ في فترة من
أزهى عصور الحضارة العباسية في القرن الثالث الهجري ، وأخذ عن علماء
بغداد أمثال الحسين بن علي الأسود ، والقاسم بن سلام ، والمدائني ،
ومحمد بن سعد ، ثم رحل إلى الشام في صباه رغبة في التحصيل ، واكتساب
ثقافات جديدة ، وتنقل بين مدن الشام آخذاً على علمائها ، ففي دمشق سمع
على هشام بن عمار وأبي حفص الدمشقي ، وفي حمص سمع على محمد بن مصفى .
وعلى هذا النحو استطاع البلاذري أن يجمع بين علم أهل العراق وعلم أهل
الشام ، وكان لآساتذته وثقافته ورحلاته وتردده على قصور الخلفاء أثر
كبير في إنتاجه التاريخي (١) . وقد لازم البلاذري الخليفة المتوكل ، وارتفعت
مكانته عنده ، فتراه يجالسه ويناديه . وعاش البلاذري فترة من عصر النفوذ

(١) مقدمة كتاب فتوح البلدان ، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ، القاهرة

التركي الأول ، وشهد مقتل المتوكل سنة ٢٤٨ هـ ، والمتنصر سنة ٢٤٨ هـ أيضا ، ثم اتصل بالمستعين ، وعاش في كنفه ، ولكن المستعين لم يطل به المعز في الخلافة ، إذ قتل بعد أربع سنوات من خلافة ، وتولى المعز سنة ٢٥٢ ، وعهد إلى البلاذري بتأديب ابنه ، وكان مصير المعز أيضا نفس مصير أسلافه من خلفاء بني العباس ، ومنذ مقتل المعز أخذ البلاذري يتوارى عن حياة البلاط الخلفاء ، وقاسى شظف العيش في خلافة المعتد ، وتوفي أخيرا في آخر خلافة المعتد سنة ٢٧٩ هـ .

ويبدو أن البلاذري تأثر بما دونه الواقدي والمدائني وابن الحكم وغيرهم في الفتوح ، فألف كتابه « فتوح البلدان » على غرار كتب الفتوح التي صنفها المدائني والواقدي وأبو حذيفة وابن المتي ، واستقى معظم أخباره عن الواقدي ، والقاسم بن سلام ، والمدائني ، والعباس بن هشام ، كما أخذ بعض أخباره عن أشخاص من أجناس مختلفة ذكر أسماء بعضهم أحيانا ، وأغفلها أحيانا أخرى .

ويهمنا من كتابه ، القسم الخاص بفتح إفريقية ، وهو قسم موجز ، اعتمد فيه أكثر ما اعتمد على ما حدثه به محمد بن سعد عن الواقدي . وتتميز أخباره بملاحظات الشخصية التي يرجح فيها رواية علي . رواية ، غير أنه أخطأ في بعض أخباره التي رواها ، ولعل سبب وقوعه في هذه الأخطاء يرجع إلى اعتماده على مصادر شرقية لا تتضمن أخبار صحيحة عن إفريقية .

وقد نشر « فتوح البلدان » عدة مرات ، وأهم هذه النشرات ، نشرة دي غوبه ، الذي نشره كاملا في ثلاثة أقسام من سنة ١٨٦٣ إلى سنة

١٨٦٦ ، ومنها نشرة الدكتور صلاح الدين المنجد ، في ثلاثة أجزاء
سنة ١٩٥٦ .

٣ - ابن الأثير (ت ٦٣٠ هـ) ، الكامل في التاريخ :

يتناول تاريخ العالم عامة والعالم الإسلامي بوجه خاص ، وقد رتب
ابن الأثير هـ هذا التاريخ حسب السنين ، وضمن المؤرخ حولياته أحداث
المغرب حتى سنة ٦٢٨ هـ وهي السنة التي توفي فيها . وقد جرد المستشرق
Fagnan من هذا الكتاب الكبير كل ما يتصل بأحداث المغرب ، ونشره
بعنوان : *Annales du Maghreb et de l' Espagne du Tarikh d' Ibu*
al - Athir, Alger, 1901 . وتعتبر الأخبار الخاصة بفتح العرب للمغرب ، والواردة
في الكامل من أهم المصادر العربية ، وأكثرها دقة ، فقد اعتمد المؤرخ فيها
على مصادر أندلسية مغربية ، وكانت هذه المصادر متوفرة في عصر
ابن الأثير .

٤ - أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي (ت . بعد سنة ٤٥٣)

كتاب رياض النفوس :

من أهم مصادر تاريخ الفتح العربي للمغرب ، إذ يتضمن فصلا يستعرض
فيه المؤلف حوادث الفتح العربي كاملة وافية ، منذ المحاولات الأولى التي قام
بها عمرو بن العاص سنة ٢٩ هـ حتى استكمال حسان بن النعمان للفتح في سنة
٨٥ هـ . وقد اعتمد المالكي في هذا القسم التاريخي على مصادر شرقية
كالواقدي وابن اسحق^(١) ، بالإضافة إلى روايات اقتبسها من مصنفات

(١) أبو بكر عبد الله المالكي ، كتاب رياض النفوس ، تحقيق الدكتور حسين
مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ص ٢١ مقدمة .

مقربة قديمة ضاعت ولم تصل إلينا . وبقي الكتاب تراجم لعلماء إفريقية وفهمها ، طبعة بعد طبعة حتى سنة ٣٥٦ . وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس الجزء الأول من هذا الكتاب ، ويشمل الفقرة الواقعة ما بين الفتح العربي إلى آخر سنة ٣٠٠ هـ . وقد صدر الكتاب في القاهرة في سنة ١٩٥١ .

٥ - التوبرى (ت . ٧٣٢ هـ) ، نهاية الأرب في فنون الأدب :

هو شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الكريم البكرى المعروف بالتوبرى ، ولد سنة ٦٧٧ بمدينة قوص ، وتلقى العلوم الدينية في بلدته بالصعيد ، فسمع الحديث على عدد من كبار المحدثين . ونىخ في الإنشاء حتى أنه تولى كتابة الإنشاء في عصر الناصر محمد بن قلاوون ، ثم تدرج في سلك الدواوين ، وجمع كتابه الكبير « نهاية الأرب في فنون الأدب » في ثلاثين مجلدا (١) . وقد قسم التوبرى هذه الموسوعة إلى خمسة أقسام : الأول في الجغرافيا (في السماء والآثار العلوية والأرض والمعالن السفلية) ، والثاني في الإنسان وما يتعلق به ، والثالث في الحيوان الصامت ، والرابع في النبات ، والخامس في التاريخ (٢) . ويتضمن هذا القسم الأخير جزئين هما الخامس والسادس ، أفردهما لتاريخ إفريقية والأندلس . وفي هذين الجزئين يعتمد في أخباره اعتادا كبيرا على مؤرخ أندلسى اسمه الزهرى ، لعله المسور بن غزرة بن نوفل الزهرى ، ويتشابه ما كتبه التوبرى عن المغرب مع ما كتبه المالكى ، مما يؤكد اعتماد المؤرخين على مصدر واحد . ويعتقد الأستاذ

(١) نقولا زيادة ، الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢ ص ٩٥ .

(٢) التوبرى ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، القاهرة ، مطبوعات دار الكتب المصرية ،

حسن حسنى عبد الوهاب أن هذا المصدر هو كتاب بعنوان مغازى إفريقية
لمؤلف مجهول ، مات في حدود القرن الثانى للهجرة ^(١) ، ولعله نفس كتاب
المغازى الذى ينسب إلى الواقدى .

وكتابة النويرى عن الفتح العربى للمغرب تتضمن أخبارا تختلط فيها
الأقاصيص بالحقيقة . وقد نشر ماريانو جبار ريميو هذين الجزئين مع
الترجمة الاسبانية فى عامى ١٩١٧ ، ١٩١٨ (٢) .

ب - أهم المصادر العربية فى تاريخ المغرب فى العصر الاسلامى :

١ - ابن عذارى المراكشى (ت . فى أواخر القرن السابع الهجرى) :

البيان المغرب فى أخبار المغرب :

هو مؤرخ مغربى عاش فى عصر الموحدين ، ولا يعتبر كتابه المذكور
من أهم مصادر الفتح العربى للمغرب فحسب ، بل أهم مصادر تاريخ بلاد
المغرب والأندلس فى العصر الاسلامى على الإطلاق ، إذ يتميز بتضمنه
لأخبار عن تاريخ الفتح أكثر دقة من الأخبار التى أوردها ابن عبد الحكم
والبلاذرى . ويتناول ابن عذارى فى كتابه « البيان المغرب » تاريخ المغرب
والأندلس منذ الفتح حتى أواخر القرن السادس الهجرى . وقد اعتمد
ابن عذارى فيه على مصادر مغربية أندلسية ، ترجع إلى القرنين الخامس
والسادس الهجرى ، فروايته عن الفتح تمثل الروايتين الأندلسية المغربية

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٣١٠ .

(٢) آنخل جيتانا بالديا ، تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ،

القاهرة ١٩٥٥ م ٢٥١ .

والإفريقية (١). ويذكر ابن عذارى نفسه أنه نقل من عدد من المصادر منها تاريخ الطبري والبكري والرقيق والغضاعي ، وابن شرف ومن كتاب الأنوار الجلية في الدولة المرابطية ، ومن نظم الجمان ومن كتابي الأشعري والبيذق ، وكتاب يوسف الكاتب .. إلى آخره . وقد اعتمد ابن عذارى في تاريخ المغرب خاصة على كتاب صفة المغرب للبكري الذي نقل عن محمد الوراق ، وكتاب العبر لابن أبي الفياض وهو أندلسي من مدينة استجة ، وكتاب نظم الجمان لابن القطان وهو مؤرخ مغربي ، وكتاب الاستيعاب لابن عبد البر ، وهو قرطبي .

ويقسم ابن عذارى « البيان المغرب » إلى ثلاثة أجزاء : الأول يشتمل على أخبار إفريقية منذ الفتح الأول في خلافة عثمان ، وذكر أمراء المغرب في عصر الدولة الأموية ، والدولة العباسية حتى انتقال الفاطميين إلى مصر واستخلافهم صنهاجة على إفريقية ، ويعالج أيضا فتنة العرب وأسبابها وأخبار أمراء بني زيري وبني حماد حتى ظهور المرابطين . والجزء الثاني : خصمه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى دخول اللتوين (المرابطين) الأندلس في سنة ٤٧٨ . أما الجزء الثالث فيضم تاريخ دولتي المرابطين والموحدين حتى انقراض دولة الموحدين وقيام الدول الوارثة للموحدين في المغرب .

وقد نشر المستشرق الهولندي دوزي قسما من كتاب البيان المغرب فيما

- (١) ليفي بروفنسال ، نس جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة المهد للمري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ، عدد ١ ، ٢ ، مدريد ١٩٥٤ ص ١٩٨ .
- (٢) ابن عذارى ، البيان المغرب تحقيق ليفي بروفنسال ج ١ ، ١٩٤٨ ، ص ٢ ، ٣ .

بين عامي ١٨٤٧ ، ١٨٥١ ، بلیدن ، عن مخطوطة رقم ٦٧ بمكتبة ليدن ،
وتتكون من ١٦٠ صفحة مكتوبة بخط مغربي ، ولكن المخطوطة التي اعتمد
عليها دوزي مبتورة في بدايتها ونهايتها ، كما أن صفحاتها الأولى تأكلت بفعل
الرطوبة ، وتنتهي أخبارها إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، ويشتمل هذا
القسم المنشور من البيان على الجزء الأول من الكتاب وقسم من الجزء الثاني ،
نشرها دوزي في جزئين الأول : يتعلق بتاريخ المغرب منذ الفتح العربي حتى
ظهور المرابطين مرتبة حوادثه حسب الدول والعهود ، أما الجزء الثاني
فينتهي بوفاة المنصور محمد بن أبي عامر ، وقد أعيد طبع هذا الكتاب ببيروت
(دار صادر - بيروت) في عام ١٩٥٠ . ولكن هذه النشرة الجديدة هي
صورة مشوهة من طبعة ليدن ، إذ تكثر فيها الأخطاء والمآخذ . ثم أعاد المستشرقان
لينق بروفنسال و كولان طبع القسم الذي نشره دوزي من البيان ، وراعى
في هذه الطبعة الجديدة أن يصحح الأخطاء التي وردت في طبعة دوزي ، من
واقع مخطوطة جديدة عثر عليها الأستاذ لينق بالمغرب . وكان هذا المستشرق
الكبير قد نشر في سنة ١٩٣٠ ياريس القسم الخاص بملوك الطوائف في
الاندلس أي من وفاة ابن أبي عامر إلى سنة ٤٦٠ هـ . وقد اعتقد لينق
بروفنسال أن هذا القسم الذي نشره هو الجزء الثالث من البيان ، ولكن
اتضح فيما بعد أنه تنمة للجزء الثاني من هذا الكتاب .

ثم اهتم المستشرق الاسباني امبروسيو إريثي ميراندا بالجزء الثالث من
البيان ، وكان قد نشر هذا الجزء في سنة ١٩١٧ ظنا منه أنه لمؤرخ مجهول ،
وذلك من مخطوطة تعرف بمجهول مدريد و كوبنهاجن ، وقد تبين فيما بعد

أن هذا القسم هو نسخة مختصرة بعض الشيء من الجزء الثالث من البيان المغرب^(١).

وأخيراً قام هذا المستشرق نفسه فيما عامي ١٩٦٠ ، ١٩٦٣ بتحقيق هذا الجزء الثالث كاملاً ، مستعيناً في هذا بالأستاذين محمد بن تاويت ، ومحمد إبراهيم الكنانى ، ونشرته جامعة الرباط . وقد اعتمد المحققون في نشر هذا الجزء على عدة مخطوطات . وفي سنة ١٩٦٦ ، نشر السنيور امبروسيو إويش ميراندا قطعة من البيان تتعلق بتاريخ المرابطين في مجله Hesperis^(٢) .

٢ - عبد الرحمن بن خلدون ، كتاب العبر :

ينتسب عبد الرحمن بن محمد بن خلدون إلى بني خلدون من عرب اليمن الذين استقروا عند فتح الاندلس بمدينة إشبيلية ، وكانت لهم الرئاسة إبان عصر الاضمحلال الأول . وظل بنو خلدون يقيمون بهذه المدينة إلى أن كانت ثورة ابن الأحمر يحصن أرجونه ، وقيام الفتنة التي انتهت بسقوط قرطبة في أيدي النصارى سنة ١٤٩٢ هـ ، فارتحلوا إلى العدو ، ونزلوا سبتة . وكان محمد بن الحسن بن خلدون ، جد المؤرخ ، يعمل في خدمة بني حفص بافريقية ، فنشأ ابنه أبو بكر محمد في بلاط السلطان جونس ، وكان أبو بكر هذا على حد قول ابنه عبد الرحمن المؤرخ « مقدماً في صناعة العربية ، وله بصر بالشعر وفنونه » (٣) .

(١) آنخل جتاك بالنيا ، ص ٢٥٠ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار البادى ، والأستاذ محمد إبراهيم الكنانى ، الدار البيضاء ١٩٦٤ ص ٢٨٥ .

(٣) عبد الرحمن بن خلدون ، التعريف بابن خلدون ، ورحلته شرقاً وغرباً ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٤ .

ونشأ عبد الرحمن بن خلدون بتونس في بيئة علمية ، وقد عكف منذ نشأته على تحصيل العلم ، فقرأ على كبار أساتذته الأندلس والمغرب ، ودرس النحو وعلوم اللغة على يدى والده وأساتذته آخرين أمثال الشيخ أبو عبد الله محمد بن العربي ، وأبو عبد الله محمد بن الشواش الزرزالى والشيخ أحمد بن القصار ، ومحمد بن بجر ، كما لازم كبار المحدثين والفقهاء بتونس وفي مقدمتهم شمس الدين أبي عبد الله محمد بن جابر الواد ياشى ، ثم انصل بالسلطان المرينى أبي عنان ، فاستخدمه في كتابته سنة ٧٥٥ هـ ، ومنذ هذا التاريخ بدأ نجم ابن خلدون يلمع في سماء السياسة ، وكانت لتجاربه الطويلة وخبرته الفائقة في ميدان السياسة في المغرب والأندلس أثر كبير في تعرفه لطبيعة الظواهر الاجتماعية والسياسية ، وتطور التاريخ والمجتمع وقيام الأسر وسقوطها^(١) ، كما كانت لدراساته الطويلة على علماء عصره فضل كبير في تكوينه العلمى . وبعتبر كتابه « العبر » أعظم ما صنفه في تاريخ العرب والعجم والبربر ، ولا غناء لمن يبحث في تاريخ المغرب عن دراسة هذا المصنف العظيم الذى يعتبر أساساً لهذا التاريخ ، فهو موسوعة عظمى تتضمن خلاصة تجارب المؤلف . وقد قام بتأليفه في المغرب فيما بين عامى ٧٧٦ هـ ، ٧٨٠ هـ ، ورفع أجزاء منه إلى السلطان أبي العباس جونس سنة ٧٨٤ هـ ، أى في السنة التى رحل فيها إلى مصر ، ولكن يبدو أنه أضاف وعدل في هذا الكتاب أثناء مقامه في مصر ، بعد أن استوسع علمه لسكثرة ما قرأه وبحث فيه ، ولكثرة ملاحظاته في رحلاته وأسفاره . ويهمننا من هذا الكتاب

(٢) ولترج . هتل ، نشاط ابن خلدون في مصر المملوكية ، مقال في كتاب دراسات إسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريجة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٧٨ .

الجزء الثالث (طبعة بولاق سنة ١٢٨٤ هـ) إذ يضم ثلاثة فصول هامة :
الأول في ذكر مواطن البربر في المغرب ، والثاني في ذكر فضائلهم ، والثالث
في ذكر أخبارهم منذ الفتح العربي وقد نشر البارون دي سلان الجزء الخاص
بالبربر في مجلدين ، وذلك فيما بين عامي ١٨٤٨ ، ١٨٥١ ، بعنوان :
Histoire des Berbères, extraite du kitab al - Ibar
العربي إلى الفرنسية فيما بين عامي ١٨٥٢ ، ١٨٥٦ في ثلاثة أجزاء . كذلك
تولى دي فرجيد نشر الجزء التاريخي الخاص بتاريخ المغرب منذ الفتح حتى
بداية دولة بني الأغلب ، وذلك في سنة ١٨٤١ .

٣ - لسان الدين بن الخطيب (ت ٧٧٦) ، كتاب أعمال الأعلام ، القسم
الثالث الخاص بالمغرب :

هو لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد المعروف بابن
الخطيب السلماني . وأصل بيتهم من قرطبة (١) ، ولد في لوشة من مدن مملكة
غرناطة سنة ٧١٣ هـ ، ونشأ بقرطبة في بيئة يسودها العلم والأدب ، وشغف
منذ صباه بدراسة علوم الطب والفلسفة ، فأخذ عن الطبيب المشهور يحيى بن
هذيل ، كما برع في نظم الشعر والكتابة ، ولم يلبث أن دخل في خدمة سلطان
غرناطة أبي الحجاج يوسف بن محمد الخامس (٧٣٣ - ٧٥٥) ، واختير
وزيرا له بعد وفاة الوزير ابن الجياب في وباء سنة ٧٤٩ (٢) . ومنذ ذلك الحين

(١) ابن الخطيب ، الاطاحة في أخبار غرناطة ، المجلد الأول ، نشره الأستاذ محمد
عبد الله عتات ، القاهرة ١٩٥٥ ، المقدمة ص ٣١ .

(٢) آنخل جيثاك بالتيا ص ٢٥٢ . F. Pons Boigues, Ensayo bio -
bibliografico sobre los historiadores y Geografos arabigo espanoles,
Madrid, 1898, p. 335 .

ظهرت براعته في الكتابة والنظم ، وتلقى نجمه في الأدب والتاريخ والطب والفلسفة تألقا يشهد به وصوله إلى منصب الوزارة ، وإيفاده إلى المغرب سفيرا من سلطان غرناطة محمد الغني بالله سنة ٧٥٥ هـ إلى سلطانها أبي عنان المريني ، ليستنصره ، ويطلب معونته على ملك قشتالة . ونجح ابن الخطيب في مهمته ، ونال حظوة كبيرة عند السلطان الغرناطي . ثم نفي في سنة ٧٦٠ مع سلطانة محمد الخامس إلى المغرب على أثر الانقلاب الذي قام به أنصار اسماعيل ابن يوسف . وأقام ابن الخطيب في فاس زهاء ثلاث سنوات ، استأثر فيها بزعامة الفكر والكتابة ، وعكف خلالها على القراءة والتأليف والرحلة ، وقد كتب في فترة تهيء عدة كتب ، منها كتاب « اللوحة البدرية في الدولة النصرية » (١) ، وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٣٧٤ هـ ، وكتاب « نقاضة الجواب في علالة الاغتراب » ، سجل فيه مشاهداته في المغرب ، وضمنه ما وقع له من أحداث سياسية في تلك الفترة (٢) ، وكتاب « معيار الاختبار في ذكر المعاهد والديار » ، وهي رسالة كتبها ابن الخطيب في وصف بعض مدن المغرب والأندلس ، نشرها الأستاذ الدكتور مختار العبادي مع مجموعة من رسائل ابن الخطيب (٣) .

ثم انتهت فترة النفي باسترجاع الغني بالله ملكه سنة ٧٦٣ هـ ، فعاد إلى غرناطة وظل يقوم بوظيفته كوزير للسلطان حتى إذا ما أحس بتغير السلطان عليه

(١) أحمد مختار العبادي ، مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب ، مقال في مجلة Hespéria سنة ١٩٥٩ العدد ٣ ، ٤ ، ص ٢٥٢ .

(٢) أحمد مختار العبادي ، مقدمة لكتاب أعمال الأعلام ص ٥٠ ح .

(٣) أحمد مختار العبادي « مشاهدات لسان الدين بن الخطيب » بمجموعة رسائله ، الإسكندرية ١٩٥٨ ص ٦٩ .

بجائز وشايات الواشين ، وعلى رأسهم تليذه ابن زمرك الشاعر ، رحل إلى المغرب ، ولاد بالسلطان أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المربني في تلمسان ، الذي أحسن وفادته ، وأبى أن يسلمه إلى حكومة غرناطة . وظل ابن الخطيب مقبلاً في المغرب . ولم يتركه أعداؤه بنعم باقامته في المغرب ، فقد عملوا على تدميره في منفاه ، فاتهموه بالزندقة ، وأحرقوا كتبه في غرناطة ، وما زالوا به يتادون باعدامه ، حتى نكبه السلطان أبو العباس أحمد ابن أبي سالم المربني ، فاعتقله ، ودس عليه الوزير سليمان من قتله في السجن خنقا ، ثم حملت جثته وأحرقت .

ويعتبر كتابه « أعمال الأعلام » من الكتب الكبرى التي تناولت تاريخ الدول الإسلامية (١) ، وقد قسمه ابن الخطيب إلى ثلاثة أقسام كبرى : الأول ، وما يزال مخطوطا ، أفرده لتاريخ المشرق الإسلامي ، والثاني خصصه لتاريخ الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى عصر السلطان محمد بن يوسف بن اسماعيل ، وقد نشره الأستاذ ليفي بروفنسال في سنة ١٩٣٤ بالرباط ، وأعيد نشره في بيروت سنة ١٩٥٦ . والثالث أهم الأقسام الثلاثة بالنسبة لتاريخ المغرب ، إذ تناول فيه تاريخ المغرب منذ قيام دولة الأغالبة حتى قيام دولة الموحدين . ويبدو أن ابن الخطيب كان ينوي استكمال هذا القسم حتى عصره ، إذ نص على ذلك في فهرسه ، ولكن لم يتح له أن

(١) ينشر كتاب أعمال الأعلام آخر إنتاج علمي له قام بتأليفه قبل مقتله سنة ٧٧٦ ، وقد صنّفه في فاس حينما التجأ إليها بنسابة تولية أبي زياد محمد العبد بن عبد العزيز سلطان المغرب أي في الفترة ما بين عامي ٧٧٤ ، ٧٧٦ هـ ، وذلك رغبة في خطب ود السلطان الجديد .

يشمه بعد نكته . وكان هذا القسم مازال مخطوطا حتى عهد قريب ، فتولى نشره الأستاذان : الدكتور أحمد مختار العبادي ، ومحمد ابراهيم الكتاني ، بالدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .

٤ - محيي الدين عبد الواحد بن علي المراكشي ، (ت . النصف الثاني من القرن السابع) : كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب :

ولد عبد الواحد المراكشي في مراكش في سنة ٥٨١ هـ في عهد خليفة الموحدين أبي يوسف يعقوب المنصور ، وتلقى العلوم الدينية في مراكش وفاس ، على أيدي كبار علماء هذا العصر أمثال أبي بكر بن زهر ، ثم رحل في سن الثانية والعشرين إلى الأندلس حيث تلقى العلم على شيوخ الأندلس ، ففي قرطبة أخذ على أستاذه أبي جعفر الحميري . وفي إشبيلية اتصل بالسيد ابراهيم بن أبي يعقوب يوسف . فأحبه وقربه إليه . ثم عاد إلى مراكش بعد ذلك في سنة ٦١٠ هـ . وفي سنة ٦١٣ غادر المغرب الإسلامي إلى المشرق ، وطاف في أقطاره من مصر إلى الحجاز إلى الشام إلى العراق . وفي أثناء طوافه في هذه البلاد صنف كتابه المعجب ، استجابة لرغبة أحد الوزراء العباسيين ، وتم الفراغ من هذا الكتاب في سنة ٦٢١ .

وقد عني المراكشي في كتابه « المعجب » ، بتلخيص تاريخ الأندلس والمغرب منذ الفتح العربي حتى عصر الخليفة أبي محمد عبد العزيز بن أبي يعقوب يوسف ، واهتم بوجه خاص بعصر الموحدين ، ثم أضاف إلى كتابه فصلا عن سير المصامدة ، وأخبارهم ، وأحوالهم ، وفصلا آخر عن جغرافية

المغرب . ويعتبر هذا الكتاب من أهم مصادر التاريخ الاسلامى فى المغرب فى عصر الموحدين ، فقد عاصر المؤلف كثيرا من الأحداث التى وقعت فى هذا العصر ، واعتمد فى الأجزاء السابقة على أخبار الحميدى لم تصل إلينا .

وقد نشر العلامة دوزى هذا الكتاب للمرة الأولى سنة ١٨٤٧ عن المخطوطة الوحيدة المحفوظة فى مكتبة ليدن ، بعنوان *The history of the Almohads* ، وأعاد طبعه مرة ثانية فى سنة ١٨٨١ ، ثم ترجمه المستشرق الفرنسى فانيان Fagnan إلى الفرنسية ، بالجزائر فى سنة ١٨٩٣^(١) وفى مصر نشر مرتين بالقاهرة ، بعنوان تاريخ الأندلس ، عن طبعة دوزى الأولى ، دون أن يقوم الناشر بتحقيق النص . ثم أعاد الأستاذ محمد القاسى المراكشى طبعه بفاس سنة ١٩٣٨ ، وأخيرا نشره الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى بالقاهرة فى سنة ١٩٥٠^(٢) .

٦ - الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف مجهول :

ذكر صاحب الحلل أنه فرغ من تأليف هذا الكتاب فى ١٢ ربيع الأول سنة ٧٨٣ ، أى فى عصر محمد الغنى بالله سلطان غرناطة ، وأبى زيد بن عبد الرحمن بن أبى الحسن المرينى سلطان المغرب^(٣) .

(١) Pons Boigues, op. cit. p. 413.

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، حققه الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربى العلمى ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، أنظر المقدمة .

(٣) أحمد مختار البادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، وأهميته فى تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة تطوان ، العدد الخامس ، ١٩٦٠م ، ١٣٦٠ .

ويتناول صاحب الكتاب تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين في شيء من التفصيل ، وقد اعتمد في تصنيف كتابه على مصادر معاصرة ، ذكر أسماء أصحابها ، منهم ابن الصيرفي (المتوفى سنة ٥٧٠هـ) وكان كاتباً للامير تاشفين بن علي بن يوسف ، ألف كتاباً بعنوان الانوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية ، ومنهم ابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان في أخبار الزمان ، ومنهم الجغرافي عبيد الله البكري . كما اعتمد في عصر الموحدين على أبي بكر الصنهاجي الملقب بالبيذق ، صاحب كتاب أخبار المهدي بن تومرت ، وعلى ابن صاحب الصلاة . وكتاب «الحلل الموشية» من الكتب الهامة التي لا يمكن الاستغناء عنها ، في تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ، ويمتاز بدقة أخباره التاريخية وصحتها ، خاصة فيما يختص بقيام دولة المرابطين . كما يمتاز أيضاً بمعالجته للنظام الحربي وأساليب القتال ، وذكره لأنواع الأسلحة المستخدمة في عصر المرابطين والموحدين . وقد طبع هذا الكتاب لأول مرة في تونس سنة ١٩١٠ ، وأعيد طبعه للمرة الثانية بالرباط في سنة ١٩٣٦ ، ولكن هاتين الطبعتين مليئتان بالأخطاء والتحريف . وفي سنة ١٩٥٢ نشر المستشرق الأسباني امبروسيو إيوشى ميراندا الترجمة الأسبانية لهذا الكتاب بمدينة تطوان من بين منشورات معهد الجزائر فرانكو (١) .

A.Huici Miranda, " Al - Hulal al - Muw'siyya", Cronica (١)
arabe de las dinastias Almoravido, Almohade y Benimerin,
Tetuan, 1952

ج - بعض المصادر العربية في وصف مدن المغرب :

١ - البكري [عيد الله (تونس سنة ٤٨٧ هـ)] ، المغرب في ذكر بلاد

إفريقية والمغرب :

هو أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري ، من أهالي قرطبة ، ولد بها في سنة ٤٣٢ هـ وفيها توفي سنة ٤٨٧ هـ . وكان البكري من بيت معروف بالعلم مشهور بالشرف ، فنشأ البكري نشأة علمية في عصر ارتفعت فيه مكانة العلماء والادباء ، على الرغم من التفتت السياسي الذي منيت به بلاد الأندلس بعد سقوط الخلافة . أقام البكري في قرطبة ، في ظل بني جهور ، أصحاب هذه المدينة ، وهناك اتصل بالمؤرخ القرطبي الكبير ابن حيان ، وقد كان لهذا الاتصال أثره في تكوينه التاريخي . ثم رحل البكري بعد وفاة ابن حيان في سنة ٤٥٦ هـ إلى المربة ، ثم غادر المربة إلى إشبيلية ، واستقر فيها في كنف المعتمد بن عباد .

لم يغادر البكري في حياته أرض الأندلس ، ولذلك فإن كتبه الجغرافية لاتعدو أن تكون جمعا منظما لجهود من سبقه من المؤرخين والجغرافيين (١) . كذلك أفاد البكري من تواليف لاتينية معربة ككتاب : *Etimologia* لايذيدور الاشيلي (٢) . ويعتبر كتابه المسالك والممالك أعظم ما صنفه من تواليف جغرافية ، إلا أنه للأسف لم يصل إلينا منه سوى الجزء الخاص بوصف المغرب . ويضمن البكري دراسته للمسالك المؤدية إلى المدن نفا

Pons Boiguos, op. cit. p. 162 (١)

Ibid (٢) - آنخل جتاك بالثيا ، ص ٣١١ .

تاريخية وأخبارا هامة ، استقى قسما كبيرا منها من محمد بن يوسف الوراق ، وهو مؤرخ مغربي كان قد هاجر من القيروان واستقر بقرطبة .

وقد بدأ كاترمير بترجمة هذا القسم المغربي في الجزء الثاني عشر من كتابه :

“ Notices et extraits des manuscrits de la bibliothèque du Roi ”

ثم نشر دى سلان النص العربي لهذا الجزء في الجزائر سنة ١٨٥٧ بعنوان :

“ Description de l' Afrique Septentrionale ”

ثم أعاد نشره للمرة الثانية في سنة ١٩١١ ، ونشر الترجمة الفرنسية له في سنة ١٩١٣ .

٢ - الشريف الإدريسي (ت ٥٦٤) ، وصف المغرب وأرض السودان
ومصر والأندلس ، مأخوذة من كتاب « زهرة المشتاق في اختراق الآفاق » :

هو أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس ، ينتسب إلى بيت الأشراف الأدارسة الحموديين ، ويؤكد العلامة غزيري أن الإدريسي ولد بسبتة في سنة ٤٩٣ ، ولكن دوزي لا يوافق على ذلك ^(١) . وتلقى الإدريسي علومه الأولى في المغرب ، ثم انتقل إلى الأندلس ، حيث أقام فترة من الوقت في قرطبة ، أتم فيها دراساته ، ثم رحل إلى الأندلس والمغرب ومصر وآسيا الصغرى ، وزار صقلية ، واتصل بملكها رجار (Roger II) ، فقربه هذا

إليه ، وكان رجار مولعا بعلوم الفلك والجغرافيا ، ووجد في علم الإدريسي واتساع أفقه الجغرافي ، ما جعله يتمسك به ، ولم يزهّد الإدريسي الإقامة في الجزيرة في كنف هذا الملك ، وعندئذ عهد إليه رجار بصنيف كتاب في صفة الأرض من واقع مشاهداته ، فمكّن الإدريسي على تصنيفه حتى أتمه في سنة ٥٤٨ هـ . وأضاف إليه قسما سماه : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، ويعرف في كتب الجغرافيا للعربية باسم الكتاب الرجاري Libro Rogeriano . والكتاب يزخر بالمعلومات القيمة عن بلاد المغرب والاندلس ، ومعظمها معلومات شخصية استقاها من مشاهداته في رحلاته وأسفاره ، ومن مصادر أخرى .

وقد نشر دوزي ودي غوبه الجزء الخاص بأفريقية والاندلس من نزهة المشتاق ، في ليدن سنة ١٨٦٦ بعنوان : Description de l' Afrique et de l' Espagne .

وقد أعاد سافدرا نشر هذا الكتاب مصححا ، في مدريد سنة ١٨٨١ .

٣ - كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكتاب مراکش من

كتاب القرن السادس الهجري :

تدل المعلومات الوافية ، والتفصيلات الغزيرة التي وصف بها صاحب هذا الكتاب بلاد المغرب على أنه مغربي الأصل ، وأنه كان يعمل في ديوان الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور ، والكتاب يشتمل على معلومات تاريخية وجغرافية وأثرية وعمرانية دقيقة ، تبعده عن التواليف الجغرافية الخالصة . وينقسم الكتاب إلى ثلاثة أقسام مختلفة : الأول منها يتضمن وصفا للمدن المقدسة بالحجاز ، والثاني مخصص لوصف مصر ، والثالث ، وهو أهم

هذه الأقسام وأكثرها دقة ، إذ ضمنه المؤلف مشاهداته وملاحظاته في المغرب ، باعتباره مراكشيا أكثر إحاطة بمواضع بلادة من مدن المشرق التي طاف بها ، ولا تقف أهمية هذا القسم المغربي إلى هذا الحد ، فقد اهتم أيضا بثروات بلادة الزراعية والمدنية والمائية في كل مدينة من مدنه ، وقد نشر المستشرق فون كرامر هذا الجزء الخاص بالمغرب في فيينا في سنة ١٨٥٢ بعنوان : Description de l' Afrique, par un géographe arabe anonyme du VI e siècle de l' Hégira .

وقام فانان بترجمته إلى الفرنسية في سنة ١٩٠٠ بعنوان : L' Afrique Septentrionale au XII e siècle de notre ère; extrait du Recueil des notices et mémoires de la Société Archéologique de Constantine .

وأخيرا قام الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد سنة ١٩٥٨ ، بتحقيق الكتاب كله ، معتمدا في ذلك على ثلاثة مخطوطات^(١) .

٤ - ابن أبي زرع (ت . في منتصف القرن الثالث الهجري) : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس :

هو علي بن محمد بن أحمد بن عمر بن أبي زرع القاسي ، وكان كاتباً لأبي سعيد عثمان المريني (٧١٩ - ٧٣١) ، وكتابه « روض القرطاس » من أهم مصادر تاريخ المغرب الإسلامي كله ، إذ ضمنه المؤلف معلومات هامة لتاريخ هذه البلاد منذ قيام دولة الأندلس وتأسيس فاس حتى عصره .

(١) كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، لكتاب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري ، نقره وعلني عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الإسكندرية ، ١٩٥٨

ولكن هذه المعلومات يشوبها الخطأ في كثير من الأحيان ، ومن أمثلة ذلك ، أنه ينسب بناء مدينة مراكش خطأ إلى يوسف بن تاشفين ، في حين يفتق ابن عذارى وصاحب الحلل الموشية على أن مراكش من بناء أبي بكر صمر اللمتوني سنة ٤٦٢^(١) .

وقد نشر تورنبرج هذا الكتاب في رسالة سنة ١٨٤٣ ، فصدر في جزئين مع ترجمة لاتينية ، ثم ترجمه الأستاذ بومييه إلى الفرنسية في سنة ١٨٦٠ ، بينما تولى الأستاذ أميروسيو إويشي ميراندا نقله إلى الإسبانية في سنة ١٩١٨^(٢) . وطبع هذا الكتاب طبعة حديثة في الرباط سنة ١٩٣٦ ، ولكنها للأسف طبعة غير كاملة .

(١) أحمد مختار البادى ، دراسة حول كتاب الحلل الموشية ، ملاحظة رقم ٢١ ، ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

(٢) آنخل جتالت بالنتيا ، ص ٢٥١ .

الباب الأول

فتح العرب لبلاد المغرب

الفصل الأول

المرحلة الأولى من فتح المغرب

- (١) صعوبة البحث في تاريخ الفتح العربي للمغرب .
- (٢) جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية .
- (٣) مرحلة للفارات (٢١ - ٥٤٩ / ٦٤٢ - ٦٦٩ م) .
- ١ - المحاولات الأولى في زمن عمرو بن العاص : غزو برقة .
- ب - حملة عبد الله بن سعد : غزوة سيطة .
- ج - حملة معاوية بن حديج على إفريقية (٥٤٥ - ٦٦٦ م) .

الفصل الأول

المرحلة الأولى من فتح المغرب

(١)

صعوبة البحث في تاريخ الفتح العربي للمغرب

يعانى الباحثون في تاريخ الفتح العربي للمغرب صعوبات كبيرة في كتابة هذا التاريخ ، إذ أن معظم ما ورد في المصادر العربية من أخبار على قلتها ، يعوزها الدقة ، ويتقصها القرباط ، ويكتنفها الغموض ، بسبب ما يحيط بها من روايات خرافية ذات طابع أسطوري ، منقولة من مصادر مختلفة من حيث الزمان والمكان ، وأقدمها يرجع إلى عصر متأخر كثيرا عن حوادث الفتح . ولهذا فإن الباحث في تاريخ الفتح العربي يواجه مشكلة كبيرة للتوفيق بين هذه المعلومات المتناقضة فيما بينها ، في معظم الأحيان ، من حيث الترتيب الزمني ، ولضبط الحقائق التاريخية واستخلاصها من بين ما يحيط بها من قصص خرافية وأساطير . صحيح أن ما لدينا من معلومات يوضح لنا بصورة إجمالية المراحل التي تم بها فتح العرب للمغرب ، ولكن الباحث في تفصيلات هذا الفتح ، لا بد له أن يخوض وسط خليط متباين من الأخبار التي يخلب عليها الطابع الخرافي ، حتى يتيسر له تصفية هذه الأخبار مما يشوبها من عوامل الخرافة والتباين ، ومثل هذه المهمة الصعبة تتطلب من الباحث صبرا وجلدا في مقابلة الروايات بعضها ببعض ، وتمييز الفث من التمين ، والأصلى من الزائف .

ويرجع هذا الارتباك والغموض في أخبار الفتح إلى عدة عوامل : منها أن هذه الأخبار كانت تنقل شفاها قبل أن يتم تدوينها ، مما يجعلها عرضة للتحويل والتبديل أثناء تنقلها بين الرواة ، كما يتمثل فيما ورد في « فتوح إفريقية » للواقدي ، إذ أشار إلى فتح سيبة ، وجعل منها قعة من قصص البطولة ، في حين أن فتح سيبة لم يرد في سياق الحديث عن الفتوح المغربية في المصادر الموثوقة بها ، وإنما ورد ذكرها كوقعة كبرى بين العرب الهلالية ، وبين بني حماد الصنهاجيين ، وذلك سنة ٤٥٦ هـ ، مما يدل على وجود خلط واضح بين هذه الرواية وبين هجرة قبائل بني هلال إلى المغرب ^(١) . ومنها أن معظم هذه الأخبار ، على حد قول الأستاذ ليفي بروفنسال ، « تشوبه شوائب التحيز الظاهر » ^(٢) ، نتيجة لخضوعها للعامل القبلي الناتج من طبيعة تنظيم العرب القبلي ، حسبما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، فكل جماعة « تأخذ بالرواية التي ترضى نزعتها أو نعرتها القبلية ، بل وتغير فيها حتى تلائم مزعها هذا » ^(٣) ، ومن أمثلة هذا التحيز القبلي ، أن الواقدي نسب في كتابه فتوح إفريقية نحر فتح المغرب إلى قبائل اليمن ، وإلى قبيلة حمير بالذات ^(٤) . ومنها أن روايات الفتح كانت تخضع أيضا للسياسة

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والأسطورة الشعبية ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، المجلد ١٦ ، سنة ١٩٦٢ ، ١٩٦٣ ص ٤٠ .

(٢) ليفي بروفنسال ، نس جديد عن فتح العرب للمغرب ، صحيفة للمعهد العربي للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ م ١٩٣ .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ص ١ .

(٤) نفس المرجع ص ٣٦ .

والأهواء الحزبية ، فكل فريق يسعى جاهدا إلى تحطيم خصومه عن طريق الطعن ، والغمز ، وتشويه الواقع التاريخي ، فهناك من مؤرخي الفتح من يمجّد بنى الزبير كأبطال للفتح العربى لمصر والمغرب ، ومعظم هؤلاء المؤرخين استقى أخباره عن طريق ابن لميعة الذى أخذ عن عروة بن الزبير ، وهشام ابن عروة ، أو من نافع مولى آل الزبير الذى نقل عنه الواقدي . وهناك من تغنى بأعجاد العلويين ، فخلطوا المهديّة التى أسسها الفاطميون بالقبروان التى أسسها عقبة بن نافع ، ونسبوا بطولّة الفتح إلى أبطال علويين بدلا من أبطاله الحقيقيين^(١) . ومنها إطلاق العرب العنان للمكائهم الحسية والخيالية المنحصة فى تصويرهم للحوادث التاريخية .

ومع هذه الصعوبات التى تعترض سبيل الباحثين فى تاريخ الفتح العربى للمغرب ، توصل بعض المؤرخين المحدثين إلى معالجة تاريخ هذا الفتح بطريقة علمية منظمة ، فقابلوا بين النصوص ، واستخلصوا الحقائق الثابتة من سياق الروايات الأسطورية ، فظهرت أبحاث نقدية قيمة نذكر منها على سبيل المثال كتاب : *Georges Marçais, La Berberie musulmane et l' Orient au Moyen âge, Paris, 1946, pp. 19 - 40.*

وبحث الأستاذ برنشتيج عن ابن عبد الحكم وفتح العرب للمغرب :

Brunchvig, Ibn Abd alhakam et la conquête de l' Afrique du Nord, par les Arabes, étude critique, dans A. I. E. O. VI, 1945 - 1947.

والدراسة النقدية لمخطوط « فتوح مدينة إفريقية » للواقدي ، وهى دراسة قيمة قام بها الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، بعنوان

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

« فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة الشعبية » ، بمجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ سنة ١٩٦٣ - ١٩٦٤^(١) ، والبحث الكبير الذى قام به الأستاذ الدكتور حسين مؤنس عن فتح العرب للمغرب ، وهى دراسة متكاملة لكل جوانب الفتح منذ المحاولات الأولى حتى دور الاستقرار والتعريب ، قابل فيها المؤلف بين النصوص المختلفة ، والروايات المتعارضة ، واستخلص منها مادة علمية كبيرة ، تعتبر من المصادر الرئيسية فى هذا الموضوع .

ومع ذلك فما زالت بعض جوانب من تاريخ الفتح العربى للمغرب يكتنفها الغموض ، ويحتاج الأمر إلى معلومات تاريخية جديدة تلقى ضوءا على هذا الغموض ، فتبدده ، وتسد الفجوات التى تتخلل معلوماتنا عن هذا الفتح .

(١) الدكتور سعد زغلول كتاب حديث ما يزال نُحت الطبع خصمه لتاريخ الفتح العربى للمغرب ، ونعتقد أن هذا الكتاب سيوضح مواضع الغموض فى هذا التاريخ .

(٢)

جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية

١ - حدود افريقية والمغرب :

عرفت بلاد المغرب منذ أقدم العصور بأسماء مختلفة ، فكان الإغريق يسمون القسم الشمالى منها الذى كان يسكنه العنصر الأبيض باسم ليو أو ليبيا ، بينما كانوا يطلقون على الصحراء اسم بلاد الاحباش السود^(١) . أما لفظ إفريقية Africa ، فقد أطلقه الرومان على الإقليم الذى يقابل اليوم الجزء الشمالى الشرقى من الجمهورية التونسية ، ويشتمل على قرطاجنة وما حولها حتى نويدا غربا ، وكان يعرف باسم ولاية إفريقية القنصلية Africa Proconsularis^(٢) ، وهو الاسم الذى عرب فيما بعد إلى إفريقية ، وأطلقه العرب بادىء ذى بدء على كل ما بلى إقليم طرابلس غربا^(٣) . ثم تحدد مدلول إفريقية ، فاقصر على ما بلى إقليم طرابلس غربا حتى بجاية ، فإفريقية فى معظم المصادر العربية تعنى الإقليم الذى تتوسطه القيروان ، ويمتد من طرابلس حتى بجاية .

André Julien, Histoire de l'Afrique du Nord, Paris 1921, p.9 (١)

(٢) حين مؤنس، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠ .

(٣) ذكر ابن عبد الحكم أن عمرو كتب لى الخليفة عمر بتأذنه فى غزوة إفريقية فقال : « ان اقله قد فتح علينا طرابلس وليس يجزا وبين افريقية الاتسة أيام » (ص ٤٠ ط . البيهقاتو) . وتتم من هذا أن المقصود بإفريقية الاتظيم الذى بلى طرابلس من جهة الغرب .

أما المغرب فيشمن كل ما يلي مصر غربا حتى المحيط الاطلسي (١) ،
وتوسطه إفريقية . (٢) وعلى هذا النحو يمكننا أن نقسم بلاد المغرب إلى
أربعة أقسام هي :

١ - برقة وإطرابلس ، وهما أول كور المغرب من جهة الشرق ، وبعض
المؤرخين يدج هذه الكورة إلى إفريقية ، وبعضهم يفصلها عن المغرب (٣) .
ولكن الغالب أن برقة وطرابلس كانا جزءا لا يتجزأ من المغرب
الإسلامي .

٢ - إفريقية ، وهي الولاية الشرقية من مجموع بلاد أطلس وهي البلاد

(١) ذكر ابن حوقل أن المغرب « من مصر ويمر الى افريقية وناحية تنس الى
سبتة وطنجة » (أنظر كتاب صورة الأرض ، طبعه بيروت ١٩٦٢ ص ٦٤ ، والمندس
يجعل حدود المغرب من مصر الى السوس الأقصى وجزيرة صقلية والأندلس ، وأول
كورة من ناحية مصر برقة (أنظر المندس ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، طبعه لندن
سنة ١٩٠٦ ، ص ٢١٦) . كذلك يدسل اليعقوبي بلاد برقة من جهة أقاليم المغرب (كتاب
البلدان طبعه لندن ، ١٨٩١ ، ص ٣٠٢ - ٣٤٣) .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة افريقية ، المجلد الأول ، طبعه بيروت ، ١٩٥٥
ص ٢٢٨ . ويذكر ياقوت أن « افريقية اسم لبلاد واسعة ومملكة كبيرة قبالة جزيرة
صقلية ، وينتهي آخرها الى قبالة جزيرة الأندلس » ، ويذكر في موضع آخر « وحد
افريقية من طرابلس الغرب من جهة برقة والاسكندرية الى بجاية » . وينقل عن البيهقي
أنها سميت افريقية لأنها فرقت بين مصر والمغرب . ويحدد عبد الواحد المراكشي افريقية
من أنطابلس (برقة) شرقا الى قسطنطينة غربا وتدخل طرابلس في هذه الحدود
(المراكشي ، المسجب ، ص ٣٤٩) . أما المغرب ، فما بعد قسطنطينة الى المحيط (ص ٣٥٧) .

(٣) أبو العباس أحمد بن خالد الناصري البلادي ، الاستقصا لأخبار دول المغرب
الأقصى ، ج ١ ، الدار البيضاء ، ١٩٥٤ ، ص ٢١ .

التي تمتد من خليج سرت الكبير شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا ، وصحاحا العرب لذلك بالمغرب الأدنى لأنها أقرب إلى بلاد العرب ودار الخلافة بالحجاز والشام . وتمتد من إطرابلس شرقا حتى بجاية أو تاهرت غربا ، وقاعدة إفريقية هي مدينة القيروان .

٣ - المغرب الأوسط ، ويمتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازة غربا ، وقاعدته تلمسان وجزائر بني مزغنة .

٤ - المغرب الأقصى ، وسمى كذلك لأنه أبعد أقسام المغرب عن دار الخلافة ، ويمتد من وادي ملوية شرقا حتى مدينة آسفي على المحيط الأطلسي غربا ، وجبال درن جنوبا (١) .

ولفظ إفريقية مشتق من كلمة أفري Aphri التي أطلقها الفينيقيون على سكان أوتيكا Utica وقرطاجنة ، ثم عممه اليونان بعد ذلك ، فأطلقوه على سكان المغرب من حدود مصر الغربية إلى المحيط الأطلسي (٢) .

ب - جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية :

واجه العرب عند فتحهم لبلاد المغرب صعوبات كثيرة ، فاستغرق نحو سبعين سنة ، بينما استغرق فتحهم لمصر والشام والعراق وفارس أقل من عشر سنوات ، ويرجع سبب ذلك إلى ثلاثة عوامل : عامل جغرافي ناشئ من طبيعة بلاد المغرب الجبلية ، ووعورة مسالكها ، وعامل اجتماعي ، وهو النعرة .

(١) نفس المرجع - حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ م ص ١٣

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢٠

القبيلة؛ وعامل تسمى نتج عن ذلك من تكلل وتضامن بين قبائل البربر ضد القاطنين.

تؤلف بلاد المغرب، ابتداء من خليج سرت الكبير حتى المحيط الأطلسي، أى باستثناء بلاد برقة وطرابلس، بأقسامها السياسية الثلاثة، تونس والجزائر ومراكش، وحدة جغرافية واثولوجية مستقلة عن بقية أجزاء القارة، حتى أنها عرفت في القرن التاسع عشر لدى الجغرافيين باسم أفريقيا الصغرى، تميزا لها عن بقية القارة الإفريقية، أو ببلاد أطلس، توكيدا لسطحها الجبلي^(١)، ولارتباطها منذ أقدم العصور بروابط طبيعية وسياسية وثيقة. أما إقليم برقة وطرابلس الذى يعرف اليوم بالمملكة الليبية فكان امتدادا لمصر من الناحية الجغرافية، ولذلك فالتنا نجد المغرب بأقسامه الثلاثة المذكورة يقسم خلال عصور التاريخ بطابع خاص يميزه عن غيره^(٢)، وقد أثر ذلك على حضارته التى ظلت منزلة، منطوية على نفسها، محافظة على أصولها عبر التاريخ. فهو مغلق من الناحية التضاريسية أمام أى تأثيرات خارجية، بينما نجد القطر الليبي مفتوحا للتأثيرات الحضارية الشرقية التى كانت تندفق عليه من مصر والشام.

ويصير المغرب الأقصى أكثر أقطار المغرب عزلة، ولا يربطه ببقية المغرب إلا طريقان فقط، ولذلك كان المغرب الأقصى أقل أجزاء المغرب تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التى تمر عليه، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب

A. Julien, p. 9 (١)

(٢) لاحظ ابن خلدون ذلك، اذ يذكر أن المغرب قطر واحد مميز بين الأقطار.

(أنظر كتاب البربر وديوان المبدأ والمخبر ط. بولاق ١٢٨٤ هـ، ج ٦ ص ٩٨).

تأثرا بالأحداث السياسية الكبرى التي تمر عليه ، كما أنه كان أقل أجزاء المغرب تعرضا للغزوات القادمة من الشرق ، إذ لم تكن تصل إليه إلا بعد أن تكون قد استنفذت كل قواها . ودليل ذلك أن بني هلال الذين غزوا برقة وطرابلس وإفريقية والمغرب الأوسط في القرن الخامس الهجري ، وأتوا على معالم حضارة هذه الأقاليم ، لم يتمكنوا من النفاذ إلى المغرب الأقصى ، في الوقت الذي احتلوا فيه طرابلس وتونس والجزائر .

وارتباط بلاد المغرب جغرافيا وإثنولوجيا يرجع قبل كل شيء إلى امتداد جبال أطلس من المجموعة الألبية في قلب المغرب من أقصاء الغرب إلى أقصاء الشرق (أنظر خريطة رقم ٣) ، في سلسلتين :

إحدهما شمالية ، وتتفرع إلى فرعين ، فرع يمتد من الشمال الغربي ابتداء من طنجة إلى الشرق بحذاء ساحل العدو حتى مليلة ، ويعرف بجبال الريف ، وهي جبال متوسطة الارتفاع ، تتخذ شكل قوس يحضن الساحل الشمالي من سبتة إلى مليلة ، تاركا سهلا ساحليا ضيقا في هذه المنطقة (١) . والفرع الأساسي من هذه السلسلة يمتد من المحيط الأطلسي ، شمال وادي سوس نحو الشمال الشرقي ، ويعرف باسم أطلس التل . وتمتاز هذه الجبال بارتفاعها وانحدارها الشديد نحو السواحل الشمالية ونحو الأحواض الجنوبية المنخفضة بين أطلس التل وأطلس الصحراوي ، وعلى الأخص في القسم الغربي من

(٣) محمد عبد المنعم الترقاوي ، ومحمد محمود الصياد ، ملاح المغرب العربي ،

المغرب الأوسط (١) والجزء الشرقى من هذه الجبال أقل ارتفاعا ، وأكثر تقطعا ، وتنتهى هذه الجبال شرقا بجبل محير فى تونس .

أما السلسلة الجنوبية من جبال أطلس فتتمتد فى جوف الصحراء من جنوبى وادى سوس حيث تحمل اسم جبال أطلس الكبرى ، وإلى جنوب هذه السلسلة سلسلة أخرى صغيرة يسميها ابن خلدون بجبال درن (٢) . وتمتد جبال هذه السلسلة المسماة بأطلس الكبرى فى موازاة جبال أطلس التل ، وتنتهى جنوبى تونس بجبال زغوان . وجبال أطلس الكبرى أكثر جبال أطلس ارتفاعا ، ولا توجد بها ممرات تيسر الاتصال بين المغرب الأقصى والمغربين الأوسط والادنى ، ولذلك كان لهذه الجبال أثر كبير فى العزلة التى فرضت على المغرب الأقصى . وتشتمل هذه السلسلة من الجبال على جبال القصور ، وجبال العمور ، وجبال أولاد نايل ، وجبال الزاب ، وجبال أوراس ، ومعظم هذه الجبال تكسوه الغابات وتتوجه التلوج .

وتنحصر بين هاتين السلسلتين الجبليتين هضاب يشغل سكانها برعى الماشية ، وأغلبها يقع ما بين جبال أطلس التل وأطلس الكبرى فى المغرب الأوسط (٣) ، وتعرف الهضاب فى المغرب الأوسط باسم هضبة الشطوط ، أما هضاب الجنوب الغربى منها فأكثر ارتفاعا ، وتبدو حدودها الجنوبية القرية واضحة المعالم حيث تشرف على سهل تادلا ، وكذلك حدودها

(١) قس المرجع - Julien, p. 18

(٢) ابن خلدون ، البر ، ج ٦ ، ص ١٠٠ .

(٣) الأثرى ، تاريخ ابريقية الشمالية ، ص ١٣ - Julien, pp. 18, 19.

الشرقية حيث يجرى وادى ملوية ، وفي الشمال حيث يقع ممر تازة ، المدخل الوحيد إلى المغرب الأقصى . أما الحدود الجنوبية فيصعب تمييزها نظرا لاقترابها من جبال أطلس الصحراوي لدرجة الالتصاق .

وسهل المغرب تقع غالبا على ساحل المحيط الأطلسي وساحل العدو والبحر المتوسط ، وأشهرها سهل شاذية ودكالة وعبدة بالمغرب الأقصى . أما السهول الساحلية بالمغرب الأدنى فتكاد لا تذكر لضيقها ، وذلك بسبب اقتراب الجبال من الساحل التونسي . وهناك سهول تكونت حول وديان صغيرة تجري فيها الأنهار ، منها سهل ماكنة ، وسهل زيق بوهران ، وسهل وادى شليف في المغرب الأوسط ، وسهل وادى مجرد في المغرب الأدنى ، وسهلا فاس ومكناس في المغرب الأقصى . كما أن هناك مجموعتان من السهول الداخلية : الأولى تمتد من مصب نهر تنسيفت إلى وادى ملوية ، وتشتمل على السهل المطل على المحيط ، وسهل سبو ، وممر تازة ، وسهل ملوية الدنيا التي تؤلف الطريق الطبيعي ما بين جبال أطلس والمغرب الأوسط ، والآخرى تشتمل على سهل الحوز الذي يخترقه نهر تنسيفت^(١) ثم منخفض تادلا . أما المغرب الأدنى فيشتمل على سهول داخلية تقع حول الواحات نذكر منها نقطة وتوزر وقصبة ، وتسمى جميعا بلاد قسطيلة . أما الواحات فتوجد جنوبي إقليم طرابلس في منطقتي فزان وودان (٢).

وهكذا كان لطبيعة بلاد المغرب أثر حاسم في مصائرنا التاريخية ، فإن انقسامها إلى ولايات مستقلة ، قضى على وحدتها السياسية خلال العصور

Julien p. 18 (١)

(٢) ابن خلدون ، البر ، ج ٦ ، ص ١٠١ .

المختلفة ، وأتاح تكوين جماعات بشرية محافظة على تقاليدھا وتراثھا الإجتماعی والأدبی ، قاومت حتى وقتنا الحاضر أحداث التاريخ . ثم إن الاتجاه العام لسلاسل الجبال في صفوف موازية للساحل قد يرسب الاتصال بين شرق البلاد وغربھا حتى بداية المغرب الأقصى ، في الوقت الذي أقام فيه الحواجز المنیعة بين الساحل وجوف البلاد ، مما جعل بلاد المغرب بلادا مغلقة أمام التأثيرات الأوربية بوجه خاص . وتقتصر هذه التأثيرات على المناطق الساحلية ، إذ تقف أمامھا جبال أطلس التل أما التأثيرات الإفريقية فخطھا أعظم ، فهن تنفذ من جبال درن وتخرق المضیبة الواقعة بين سلسلتي جبال أطلس حتى تصل إلى داخل المغرب . وكما أثرت هذه الطیعة الجبلية الوعرة على حضارة المغرب ، فانھا أثرت أيضا على سكان المغرب ، فقد كان لغلبة الطابع الجبلی وبعد المسافات بين المراكز العمرانية المختلفة ، وصعوبة الاتصال فیا فینھا أثر عمیق في حياة السكان . فقد طبعهم بطابع الحشونة والشجاعة والجلد وحب القتال والاكتفاء بالغذاء الضروري ، وأثرت في أبدانهم ، فأكسبتھا النحولة والضمور مع القدرة على الاحتمال والسير مسافات طويلة دون كلل أو تعب ، كذلك أكسبتهم هذه البيئة الوعرة حدة الخلق والعتاد والمقاومة ، وهذا يفسر قيام السكان في العصور المختلفة بمقاومة الغازين والفاطميين ، وساعدتهم الطیعة على المقاومة ، فهم يحصنون في قمم الجبال ، وفي مناطق يصعب على الفاتحين الوصول إليها ، ثم ينحدرون من مضاربهم في الجبال والمضارب في موجات عاتية ، ويتدفقون على الغزاة ، ويقطعون غلیم خط الرجعة ، ويمزقون صفوفهم ، ثم يغیرون على الحواضر ، ويدمرون العمران . ولذلك تأخر فتح العرب للمغرب سنين طويلة ، فبینما أتم العرب فتح مصر والشام والعراق وفارس في فترة لا تزيد على عشر سنوات ، استغرق فتحهم للمغرب

ما يقرب من ستين سنة، وتم لهم ذلك بعد محاولات طويلة مضيئة، تعرضوا فيها لمقاومة لم يشهد العرب لها نظيراً في فتوحاتهم ولم يكدهم العرب يستقرون في بلاد المغرب ويعربونها حتى اشتعلت نيران الثورة عليهم في المغرب الأقصى، ولم ينجح خلفاء بني مروان في القضاء على هذه الثورة إلا بعد أن صأوا لها الجيوش على نحو ما ستفصله فيما بعد .

أما العامل الاجتماعي فأساسه سكان المغرب أنفسهم ، وكانوا يتألفون من ثلاث طوائف :

١ - الروم ، وهم البيزنطيون . ٢ - الألفارق أو الألفارقة ، وهم بقايا شعب قرطاجنة وأخلاق من المستعمرين اللاتين ، والوطنيين الذين تأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية ، وكانوا يدينون بالطاعة والولاء لساداتهم البيزنطيين ، ويشغلون لهم بالزراعة والصناعة (١) .

٣ - البربر وهم سواد سكان المغرب .

والبربر من Barbari ، وهو اسم أطلقه الرومان على سكان المغرب ، لأنهم كانوا يعتبرونهم أعاجم على حضارتهم ، فسموهم برابرة ، وعربت إلى بربر وبرابر (٢) . والبربر هم سكان المغرب الأصليون، وقد اختلف المؤرخون في إثبات وطنهم الأصلي ، فمنهم من يزعم أنهم وفدوا من أوروبا ، ومنهم

(١) يقول ابن عبد الحكم « الألفارق » وأقام الألفارق وكانوا خدما للروم على صلح يؤدونه إلى من غلب على بلادهم » (أنظر فتوح المريقية والأندلس ، ص ٣٤) . وقد يكون الألفارق من كه أفرى وهو الاسم الذي أطلقته البيزنطيون على سكان البلاد .

من يزعم أنهم قدموا من آسيا في عصر ما قبل التاريخ (١). ويعتقد بعض علماء الأنثروبولوجيا (علم دراسة الإنسان) أمثال سيرجي وسليجمان في وجود ثمة قرابة جنسية بين البربر والساميين ، معتمدين في ذلك على تقارب لغة البربر المدارجة مع اللغات السامية (٢) ، وعلى وجود بعض التشابه في الصفات الجثمانية ، ويعتقد هؤلاء أيضا أن تغفل السامية في بلاد المغرب لم يتم إلا في العصر النيوليتي ، لأن البربر ظهروا في التاريخ منذ ثلاثة آلاف سنة ، تحت اسم ليبو ، وكان هؤلاء الليبو يتميزون بشقرة لون الشعر وزرقة العينين وياض الوجه ، وهي صفات ما تزال تنطبق على بعض سكان المغرب في الريف وجبال جرجرة (قبيلي) بالمغرب الأوسط . على أنه لم تلبث أن تداخلت مع هؤلاء السكان عناصر جديدة قدمت في موجات متتابعة منذ أقدم العصور ، بعضها يهودية ، وبعضها سامية ، وبعضها هندو أوروبية ، كاللاتين والوندال والافريق ، وبعضها زنجية . ولعل هذا يفسر انقسام البربر من حيث الصفات البدنية إلى نوعين مختلفين : الاول ويشمل أغلبية سكان البلاد ، ويميز بلونه الأصفر ، وشعره الأسود ، ورأسه المستدير ، وخديه البارزين وأفق القصير ، وجهه المقوس . ويشبه هذا النوع من البربر سكان جنوبي إسبانيا وإيطاليا : والثاني يتميز بشقرة لون الشعر ، وزرقة العينين (٣) .

(١) Pollegin, p. 31 - المرقى ، ص ٢٥ .

(٢) هناك تشابه كذلك بين اللغة البربرية المدارجة وبين اللغة للمرية القديمة والتبليط

وبعض اللغات الزنجية .

(٣) Terrassa, Histoire du Maroc, t. I, Casablanca. 1949, p. 17

وينقسم البربر من الوجهة الاجتماعية إلى مجموعتين مختلفتين : البربر الحضري ، ويسكنون السهول الخصبة والمدن أو الهضاب المزروعة ، ويتصلون بالحضارة القرطاجنية واللاتينية ، ويعيشون على الزراعة والصناعة ؛ والبربر الرحل ، ويعيشون على الرعى ، ويميلون للاغارة على السهول وما يجاورهم من عمران (١) . فلما فتح العرب بلاد المغرب وفطنوا إلى التشابه الكبير بينهم وبين البربر في انقسامهم إلى قبائل وبطون وفي صفاتهم (الشجاعة ، والحشونة ، وحب القتال ، وحدة الخلق) قسموا البربر إلى جذمين عظيمين : برنس ومادغيس الأبر ، على نحو انقسامهم هم إلى قحطانيين وعدنانيين . وينتسب البتر إلى مادغيس بن بر الملقب بالأبر ، فسموا لذلك ببرا ، وينتسب البرانس إلى برنس بن بر فسموا لذلك برانسا (٢) . ويعتقد ابن خلدون أن البتر والبرانس من ولد مازيغ بن كنعان الذي يرتفع نسبه إلى حام بن نوح (٣) . وهناك من المؤرخين من يفسر تسمية البرانس والبتر على أساس اجتماعي ، فيقسمون البربر إلى قسمين : قسم يسكن المدن ، ويحضر بالحضارة اللاتينية ويسمون بالبرانس ، وقسم متبدى يسكن البادية ويسمون بالبتر . ويبدو أن أصحاب هذا الرأي يعتمدون على مصادر عربية ، منها ما ذكره اليعقوبي في البلدان عند تعرضه لقبائل البربر البرانس فيقول : « ثم مدن بعد ذلك سكانها صنهاجة وزواوة يعرفون بالبرانس ، وهم أصحاب عمارة وزرع وضرع » (٤) .

(١) حنين مؤنس ، فتح العرب للفرس ، ص ٦ وما يليها .

(٢) ابن خلدون ، البر ، ج ٦ ص ٨٩ - السلاوي ، ج ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٨٩ .

(٤) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، ص ٣٥٢ .

وهذا التقسيم لا يمكن الأخذ به لأن قبيلة زنانة البقرة الأصل كانت على حد قول ابن خلدون أكثر قبائل البربر حضارة وعمراتا (١)، ولذلك يجعلها فرعا مستقلا عن سائر البربر، ثم إن المتبدين من البربر كانوا يؤلفون السواد الأعظم من سكان المغرب، ولا يعقل أن ينقسم شعب البربر هذا التقسيم غير المتكافئ من ناحية النسبة العددية. وأما تفسير البتر بأنهم سموا كذلك لتجردهم من زى معين يعرف بالبرنس بعكس البرانس الذين يتدثرون به (٢)، فهو تفسير لغوى لا يقوم على أساس علمى متين، فليس لزاما على البترى أن يلبس البرنس، وليس شرطا على البرانس أن يرتديه. وقد أشار الدكتور حسن محمود إلى وجود خلاف عميق الجذور بين طائفتى البتر والبرانس جعل كل طائفة منها تقف للأخرى بالمرصاد، وتربص بها الدوائر لتنتقم منها، وهو لذلك لا يستبعد أن يكون «القسمان يمثلان موجتين بشريتين مختلفتين، واحدة تمثل أهل البلاد الأصليين، والأخرى تمثل الوافدين الجدد الذين اغتصبوا من أهل البلاد بلادهم، وخصوصا إذا لاحظنا أن أغلب المؤرخين يقولون أن صنهاجة البرنسية، تنسب إلى العرب، إلى حمير (٣). ويفسر صاحب التذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المربنية اسم البتر نسبة إلى مادغيس بن بر الذى كان يلقب بالآبتر، ولذلك سموا بالبتر، وهو أبو البتر من

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ٨٩ - حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ٣٠.

(٢) René Basset, Enc. de l' Islam - عبد الحيد البادى، الجبل فى

تاريخ الأندلس، المجلد الأول من سلسلة المكتبة التاريخية، القاهرة ١٩٥٨،

ص ٣٢.

(٣) حسن محمود، قيام دولة المرابطين، ص ٣١.

البربر وإليه يرفعون أنسابهم (١) .

ويتنقسم بربر البرانس إلى سبع قبائل كبرى هي: أوربة، وصنهاجة، وكتامة، ومصمودة، وأوريفنة، وأزداجة، وقيل عشرة، وهي السبعة السابقة، يضاف إليها لمطة، وهسكورة وجزولة (٢). وتعتبر قبيلة صنهاجة أكبر قبائل البربر حتى لقد زعموا أنهم يؤلفون ثلث شعب البربر، وكان منهم بنو زيري بن مناد أصحاب إفريقية بعد استقرار الفاطميين في مصر، والمثمنون (٣). وقد غلب على صنهاجة طابع التبدى، ففرقت في كثير من أنحاء المغرب، وكانت أكبر بطون صنهاجة قبيلة زناجة، وتعيش على جبال أطلس جنوبي تازة، كما احتلت بعض قبائل صنهاجية جزءا هاما من إقليم الريف، واختصت قبائل أخرى بمنطقة آزمور (٤).

وكتامة من القبائل البرانسية الكبرى التي لعبت دورا هاما في تاريخ المغرب، فعلى أكتافها قامت دولة الفاطميين بالمغرب ومصر. وتعتبر مصمودة من أهم قبائل بربر البرانس حتى أن بعض المؤرخين يجعلها فرعا قائما بذاته. ومن المصامدة غمارة التي تحتل منطقة العدو من الريف، وبرغواطة أهل تاسنت، وأهل جبل درن الذين قاموا بدعوة المهدي ابن تومرت، وكانوا يعيشون فيما بين بورجرج وأم الربيع، ومن المصامدة المستقرين في السهول

(١) اللخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، تحقيق محمد بن أبي شنب، الجزائر،

١٩٢٠ م ١٣ -

(٢) ابن خلدون، ج ٦، ص ٩٠ - الاستنسا، ج ١، ص ٦٥ .

(٣) الاستنسا، ج ١، ص ٦٥ .

(٤) Terrasse, op. cit. p. 23 (١)

دكالة جنوبى وادى أم الربيع ، ورجراجة ، على وادى تلسيفت . وجميع المصامدة متحضرون قد ألقوا حياة الاستقرار فى المدن ^(١) . ويزعم بعض نسابه العرب أن كتامة وصنهاجة من حمير ، وأن إفريقش الحميرى تركهم بافريقية ، فتناسلوا بها واستحال لسانهم إلى البربرية ^(٢) . ولكن المحققين من نساب البربر ينكرون ذلك ، ويؤكدون أنهما قبيلتان عريقتان فى البربر ^(٣) . وليس من المستبعد أن يكون انقساب صنهاجة لحمير نتيجة خضوعها لتأثيرات فينيقية قديمة ، جعلت النسابة يربطون بينها وبين حمير ، وهو رأى يؤيده جوتيه وفورنل ودى لاشابل ^(٤) .

وتنتشر قبائل البرانس فى كل بلاد المغرب ، ولكن بعض قبائلهم توغل فى قلب قازة أفريقيا حتى تصل إلى منحنى نهر النيجر ، ومصب السنغال ، ومعظمها يزل فى مواضع زراعية متحضرة .

أما بربر البر فينقسمون إلى أربع قبائل هى : ضريبة ، ونقوسة ، وأداسة ، وبنولوى أولواتة ، ^(٥) وتنقسم ضريبة إلى غلذين : مكناسة وزنانة . ويعتبر ابن خلدون قبيلة زنانة فرعاً من البربر قائماً بذاته . ومن

Ibid. p. 22 (١)

(٢) يؤكد هذا ما ذكره الإدريسي من أن قبائل العرب (صنهاجة) نزلت على قبائل البربر ، فنظوم إلى ألسنهم بطول الجواررة (أنظر الإدريسي ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، لندن ١٨٩٤ ص ٥٢) .

(٣) الاستنفا ، ج ١ ، ص ٦٥ .

(٤) حسن محمود ، المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٥) الاستنفا ، ج ١ ، ص ٦٦ .

زناتة جراوة ، ومغراوة ، وبنو يفرن ، وبنو زيان ، وبنو مرين ،
ولكل قبيلة بطون وأخاذ ، لا يمكن حصرها . وتنزل هذه القبائل في السهول
المرتفعة أو المنخفضة ، وعلى الهضاب التي تمتد من طرابلس إلى تازة ، كما
ينتشرون في أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس الأقصى ، ويؤلفون
أغلبية سكان القرى الصحراوية . كذلك توجد بطون بترية في أقاليم التل
قرب طرابلس ، وفي داخل سهول أفريقية ، وعلى سفوح جبال أوراس .
فقبيلة نفوسة تنزل بجبل نفوسة الواقع جنوبي طرابلس ، ومطاطة تنزل في
إقليم الجسر يد التونسي ، وزناتة تنزل في المغرب الأوسط وعلى سفوح
أوراس (١) .

والعداء بين البرانس والبر متأصل قديم ، ويتمثل هذا العداء بين قبيلة
زناتة أكبر قبائل البر ، وقبيلة صنهاجة أهم قبائل البرانس ، ويرجع سبب
هذا العداء بينهما ، إلى اختلاف أحوالها الاجتماعية ، وإغارة الرحل من زناتة
على مزارع صنهاجة ، واضطرار صنهاجة إلى الاستعانة بالرومان . وقد أدى
ذلك إلى ظهور الفوارق بين الطائفتين بشكل واضح ، راسخ الرومان هذا
الخلافا لمصالحهم الذاتية ، فوسعوا شقة الخلاف بينهما ، بأن ضربوا فريقا
بفريق ، وتمكنوا بذلك من السيادة وثبتت أقدامهم في البلاد ، وبذروا
بذور الشقاق بين عنصرى السكان البرانس والبر ، وضمّنوا بذلك لا تقسم
السيطرة على بلاد المغرب ، وهى نفس السياسة التي اتبعها المستعمرون
الفرنسيون في العصر الحديث عندما فرقوا بين العرب والبربر . وقد ازداد
العداء القائم بين البرانس والبر في العصر الاسلامي زيادة خطيرة ، عندما

(١) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٢ .

حالت قبيلة زنانة البعرة العرب الفاتحين منذ السنين الأولى للفتح ، بينما تولى البرانس عبء المقاومة وأيدهم في ذلك الروم ، وعندما حالت كتامة الفاطميين ، في حين حالت زنانة الأمويين في الأندلس ، وعندما اشتد النزاع بين زنانة وصنهاجة في الأندلس عقب سقوط الدولة الأموية .

وقد يكون تحالف البتر مع العرب ناتجا من تشابههم معهم في البداوة ، في حين يختلف البرانس عن العرب في كونهم متحضرين بالحضارة اللاتينية ، ومستقرين في المدن . ويستمر تحالف البتر للعرب بعد قيام الدولة الأموية بينما توالى صنهاجة البرانسية العلويين ، وهم الحزب المعارض للأمويين ، فتؤيد إدريس بن عبد الله بن الحسن ، وتخدم كتامة البرانسية مصالح الفاطميين ضد الأمويين . ثم ظهر البرانس ممثلين في صنهاجة مرة ثانية بعد رحيل الفاطميين من المغرب ، وظهروا مرة ثالثة عندما تغلبت صنهاجة على المغرب كله وأسست دولة اللتوتيين أو المرابطيين ، ثم ظهروا مرة رابعة عندما قامت دولة الموحدين على أكتاف المصامدة .

(٣)

مرحلة الفارات

(٢١ - ٢٤٩ / ٦٤٢ - ٦٦٩ م)

١ - المحاولات الأولى في زمن عمرو بن العاص : غزو برقة :

كان طبيعيا أن يفكر عمرو بن العاص جديا ، بعد أن استكمل فتح مصر ، في فتح برقة وطرابلس ، لعاملين :

الأول : أن برقة كانت تعتبر امتدادا لمصر ، وإقليمًا متما لها ، إذ هي تجاور لوبيا ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية^(١) . وكانت برقة وطرابلس قد انفصلتا عن ولاية إفريقية منذ عهد الامبراطور البيزنطي موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) وأصبحتا رسميا تابعتين لمصر ، وإن كانتا في حقيقة الأمر شبه مستقلتين . ولما اشتعلت نيران الثورة في المغرب ضد الامبراطور المعتصب فوكاس ، كانت برقة وطرابلس في مقدمة الولايات المغربية التي آزرت جريجوريوس على الانفصال عن الامبراطورية البيزنطية^(٢) . ولذلك كان لابد لعمرو بن العاص بعد أن استكمل فتح مصر ، من التأهب لفتح برقة وطرابلس ، تأمينًا لحدود مصر الغربية من خطر الروم .

والعامل الثاني ، هو رغبة عمرو في تطبيق سياسة الاستمرار في الفتح نحو الغرب ، وهو أمر يدل عليه خط سير الفتوحات العربية في فلسطين ومصر

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والاندلس ، ط - البيرجاتو ، ص ٣٤ .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للغرب ، ص ٥٠ .

وبرقة وإفريقية والمغرب والأندلس وجنوبي فرنسا ، ولم يكن المحاربون العرب يزهدون في مواصلة القتال بعد انتهاءهم من فتح مصر ، التماسا للمغانم التي كانت تعود عليهم من الغزو . ولم ينتظر عمرو حتى ينتهي تماما من فتح مصر ، ويغزو لفتح برقة ، فراه يادر بإرسال عقبة بن نافع الفهري على رأس حملة استطلاعية إلى برقة (أنطابلس) (١) .

ويذكر ابن عذارى أن عمرو بعد أن افتتح مصر سنة ٢٠ من الهجرة وجه عقبة بن نافع إلى زويلة وبرقة فافتحهما (٢) . ويؤيد ابن أبي دينار القيرواني هذه الرواية في كتابه المؤنس (٣) . ويبدو أن عمرو بن العاص اطمأن إلى تقرير عقبة بن نافع عن بلاد برقة ، فعجل بتسيير جيوشه لفتحها . سار عمرو بن العاص على رأس جيش من فرسانه غربا حتى قدم برقة ،

(١) ذكر ياقوت أن برقة « اسم صق كبير يشتمل على مدن وقرى بين الاسكندرية وإفريقية » واسم مديتها أنطابلس ، وتفسيره الحسن مدن « (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١ ص ٣٨٨ ، وانظر ما ذكره عن أنطابلس ص ٢٦٦) . وذكر الأستاذ الظاهر أحد الزاوي أن برقة كانت تسمى قبل الإسلام أنطابلس ، وكانت تضم خمس مدن هي طوتيرا (بالمرية طوسكرة) وقورين وردبرنيق ، وقد بنيت بني غازي على أنقاضها ، وأبولونيا ، وبارش (ونسى الآن المرج) (أنظر تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٢) . وذكر اليعقوبي في البلدان أن برقة مدينة تقع في مرج واسع ، ويضيف قائلا أن لبرقة أقاليم كثيرة يسكنها بطون من بربرة لوانة ، ولها من المدن برنيق (اليعقوبي ، ص ٣٤٣) . كذلك يشير ابن حوقل إلى أن برقة « مدينة وسطية ، ولها كور عامرة ، وهي في بقعة فسيحة » (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٦٩) .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ط . ليفي برونشال ص ٨ .

(٣) ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، ط . تونس

وكانت وقتئذ أشبه بولاية بربرية مستقلة عن الدولة البيزنطية، وكان يسكنها بطون من قبيلة لوانة البترية، وهى من أكبر قبائل البربر شأنا، وأشدّها بأسا، ومن هذه البطون قبيلة زواغة ولماة، وقد رأينا مدى قوة لوانة عندما تارت قبائلها بزعامة أنطالاس على الحكم البيزنطى، وانهت نورتهم بمقتل صولومون، القائد العام لجيوش ميزنة فى المغرب. وكان بربر لوانة ساطعين على البيزنطيين، كارهين لحكمهم الجائر، وتصنفهم فى جباية الضرائب، كما نعموا منهم لكثرة مظالمهم. ويبدو أيضا أنهم أرادوا التخلص من الحكم البيزنطى، وكانت قد بلغتهم الأخبار باستيلاء العرب على بلاد الشام ومصر، فظلموا إلى الخلاص على أيدي العرب، وهذا يفسر مبادرتهم بتقديم فروض الولاء للجيشى الغازى، واستسلامهم للعرب طائعين مختارين. فصالحهم عمرو نظير جزية يؤدونها إليه، وهى دينار على كل حاكم^(١). وذكر ابن عبدالحكم نقلًا عن عثمان بن صالح أن أهل برقة كانوا يعثون له الجزية إذا جاء وقتها، وأنه لم يدخل برقة يومئذ جاني خراج^(٢)، مما يدل على أنهم رحبوا بالعرب، واطمأنوا إليهم.

(١) ابن عذارى، البيان، ج ١، ص ٨٠. ويذكر مؤرخو العرب أنه صالح أهلها على ثلاثة عشر ألف دينار جزية، على أن يبيعوا من أبنائهم فى جزيهم (ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، ص ٣٤ - البلاذرى، فتوح البلدان، القسم الأول تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٥٦، ص ٢٦٤ - أبو عبيد الله البكري، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، الجزائر، ١٩١١، ص ٤ - ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ط - بولاق، ١٢٩٠ هـ، ج ٢، ص ١١). ويستبعد الدكتور حسين مؤنس أن يطلب العرب منهم بيع أبنائهم فى حالة عجزهم عن دفع الجزية، ويعتقد أنهم هم الذين اقترحوا على عمرو ذلك مبالغة منهم فى اظهار حسن نيتهم، وقد كان يبيع الفرارى والأبناء لوفاء بالجزية أمرا شامعا عند البربر فى ذلك الحين (فتح العرب للمغرب ص ٥٦).

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٣٦.

وما إن أتم عمر بن العاص فتح برقة ، حتى شرع في فتح طرابلس ، تمهيدا للدخول في إفريقية . وكان الأمر يستلزم أن يجهز جيشين ، أحدهما يسير بجذاه الساحل ، بقصد الاستيلاء على طرابلس ، وما يليها من مدن ساحلية ، والثاني يتجه نحو جوف البلاد حيث الواحات الداخلية التي تؤلف مراكز للمقاومة في قلب البلاد ، والتي لو تركت وشأنها ، لقطع عليه أهلها خط الرجعة ، وأم هذه الواحات واحة فزان . فبعث عمرو قائده عقبة بن نافع إلى فزان ، فافتتحها ، ثم واصل زحفه حتى بلغ زويلة^(١) . ويبدو أن عمل عقبة اقتصر على الاستيثاق من طاعة أهل هذه الواحات أو على الأقل من وقوفهم موقفا حياديا^(٢) . ونجح عقبة في مهمته ، وأصبحت المنطقة الممتدة ما بين برقة وزويلة مأمنة الجانب ، لا خوف على المسلمين من سكانها^(٣) . وعلى هذا النحو ضمن عمر بن العاص إخضاع هذه الواحات الداخلية التي كانت تهدد سلطان العرب على مدن الساحل . وبينما كان عقبة يفتح فزان ، كان عمر بن العاص يغزو إقليم إطرابلس . فبدأ بمدينة سرت^(٤) ،

(١) زويلة من مدن فزان القديمة ، وتقع على بعد ٧٧٠ كم جنوب شرق طرابلس ، وتعرف باسم زويلة السودان ، تميزها لها عن زويلة إفريقية التي بناها عبيد الله المهدي بالقرب من تونس (انظر أحد الراوي ، ص ٣٥) .

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٠ .

(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ، ص ٣٦ - البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٦٦ - البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص ١٠ .

(٤) « مدينة على ساحل البحر الرومي من برقة وطرابلس الغرب ، لا بأس بها وفي سنها من ناحية الجنوب في البر أجنادية » (باقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٣ ص ٢٠٦) وذكر ابن حوقل أنها مدينة ذات سور صالح كالتيب من طين وطايب ، وبها قبائل من البربر ، ولهم مزارع في قس السج ، قصد نواحيها ، لذا مطرت ، وتتبع مراعيها =

فاستولى عليها ، ثم زحف إلى لبة (١) ، فوجدها مدينة خربة ، قليلة العمران ، ولم يبد أهلها أى مقاومة بل استسلموا لهم طامعين .

ثم واصل سيره بعد ذلك حتى أدرك اطرابلس (٢) ، وكانت مدينة

== (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧) . ويضيف ابن حوقل قائلاً أنها غنية بالفلات والفواكه ، منها التمر والاعناب ، ومن منتجاتها الشب السرى والصوف واللحم المزم . ويشرب أهلها من مياه المواجه (قس المرجع ، ص ٧١) -

(١) مدينة بين برقة و إفريقية ، تقع على بعد ٩٠ كم شرق طرابلس ، أسسها الفينيقيون في أوائل القرن العاشر ق.م. وأطلقوا عليها اسم لبكى ، ثم حررها الإغريق للى لبسى ، ثم حررت بعد ذلك للى لبسى ، وأضيفت اليها لفظة ماجنا فأصبحت لبسى ماجنا أى لبة العظيمة . وكانت في أيام الفينيقين مدينة عامرة لحصوبة أرضها ، واعتدال مناها ، ولأن لها ميناء مأمونا صالحا لللاحة ، ولوقوعها على نهر عين كمام . وقد حكمها التوميديون ، ثم خضعت أخيرا للرومان . وتألفت في العصر الرومانى ، وخاصة في عهد سبتيموس سيفروس . ثم استولى عليها الوندال في سنة ٤٥٥ م . ومنذ ذلك الحين أخذت في الانحلال للى أن احتلها البيزنطيون في سنة ٥٣٣ ، فاستعادت بعض عظمتها القديمة ، وأقام فيها البيزنطيون الآثار الكثرة ، وجعلوها بمختلف أنواع الأبنية . لكنها تأثرت تأثرا بالانحلال بالاضطرابات العنيفة التى سادت هذه البلاد على أثر ثورة قبائل لوانة (أنظر : الظاهر احمد الزاوى ص ٣٩ - ٤٣) وذكر ابن حوقل أنها عربية ، بينها وبين طرابلس الجهة الشرق مرحلتان (ص ٧١) .

(٢) اطرابلس مدينة فينيقية البناء ، أسست بعد سرت ولبد ، وكانت تعرف باسم أويا أو أويس (أنظر ابن خرداذبة ، المسالك والممالك . المكتبة الجغرافية العربية ، العدد السادس ، تحقيق دى غوية ، ليدن ١٨٨٩ ص ٩١ - الاستبصار ، ص ١١٠) واطرابلس نسبة عربية لسكنة تريبوليس Tripolis التى أطلقها الرومان عليها وحتى المدن الثلاث ، فقد أقاموا في القرن الثالث الميلادى خطا دفاعيا لمواجهة غارات البدو الضاربين في الصحراء جنوب أويا ، وقد سماوا هذا الخط الدفاعى باسم ليمس تريبوليتانوس ، ومنذ ذلك الحين ==

حصينة مسورة من سائر الجهات ماعدا الجهة الشمالية التي تطل على البحر ، وذلك لتتلقى من هنالك الإمدادات ، ويذكر ابن عبد الحكم نقلا عن عثمان بن صالح أن عمرو « نزل على القبة التي عن الشرف من شرقها »^(١) ، وحاصر المدينة شهرا ، فامتنعت عليه ، ويذكر ابن عذارى ، أن أهل طرابلس استغاثوا بقبيلة قنوسة الليبرية^(٢) ، وهي قبيلة بقرية من أكبر قبائل الليبر وأعظمها ، وكانت مدينة سيرت (صيراتا) من أهم معاقلهم ، ونفسب إليهم^(٣) . ويبدو أن عمرو أراد أن يحول دون وصول هذه النجدة ، فأمر بارسال بعث من قواته إلى سيرت قبل أن يفتح طرابلس ، ولكن جنده ألقوا أهل سيرت متحصنين في أسوارهم^(٤) ، وقد أبقنوا استحالة فتح العرب لطرابلس ، فعاد الجند أدراجهم إلى طرابلس . ويتفق مؤرخو العرب على أن جماعة من جنود عمرو ، فاجأوا الروم من جهة ساحل طرابلس ، حيث انحسرت عنها مياه البحر ، واستولى المسلمون بذلك على

== أطلقوا اسم تريبوليتانوس على المنطقة الواقعة بين خليج قابس وخليج سرت ، وتضم ثلاث مدن هي لبة ، وأويا ، وسيرت . وقد أصبحت أويا (طرابلس) مركزا لولاية طرابلس في عصر دقلديانوس . واهتم الرومان بطرابلس اهتماما كبيرا ، فحطوها بسور متين ، وكان معظم سكانها عند الفتح العربي من الروم (أنظر الظاهر أحمد الزاوي ، ص ٤٥-٤٨) .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٣٦ . ويرجح الأستاذ الظاهر أن هذه القبة هي قبة الشيخ عبد الله الشاب المتوفى سنة ٢٤٣ (تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ٤٩) .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، ج ١ ص ٨

(٣) حسن محمود ص ٣٣ - الظاهر أحمد الزاوي ، ص ٢٢ . يقع جبل قنوسة جنوبي سيرت وعليه تقوم مدينة شروس (الادريسي ، ص ١٠٥) .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٣٨

المدينة^(١) . وفي ذلك يقول ابن عبد الحكم نقله عن عثمان بن صالح :
 « . . . فخرج رجل من بني مدلاج ذات يوم من معسكر عمرو متصيذا في
 سبعة نفر ، فمضوا غربى المدينة حتى أمعنوا عن المعسكر ، ثم رجعوا ،
 فأصابهم الحر ، فأخذوا على ضفة البحر ، وكان البحر لاصقا بسور المدينة ،
 ولم يكن فيما بين المدينة والبحر سور ، وكانت سفن الروم شائعة في مراسها
 إلى بيوتهم ، فنظر المدلى وأصحابه ، فإذا البحر قد غاض من ناحية
 المدينة ، ووجدوا مسلكا إليها من الموضع الذى غاض منه البحر ، فدخلوا
 منه حتى أتوا من ناحية الكنيسة وكبروا ، فلم يكن للروم مفزع إلا سفنهم ،
 وأبصر عمرو وأصحابه السيلة^(٢) في جوف المدينة ، فأقبل بجيشه حتى دخل
 عليهم ، فلم تفلت الروم إلا بما خف لهم من مراكبهم ، وغنم عمرو ما كان في
 المدينة »^(٣) .

ويستبعد الدكتور مؤنس قصة التكبير في فتح طرابلس ، ويعتقد أن
 رواية فتح طرابلس اختلط عليهم الأمر ، فوضعوا في هذا الفتح ما وضعوه
 في فتح حصن بابلليون بمصر ، الذى تشبه قصته قصة فتح طرابلس ، ويستند
 في ذلك إلى أن ابن عبد الحكم كتب تاريخ هذا الفتح بعد انقضاء قرنين
 ونصف من هذه الحوادث ، كما يستند إلى أن كثيرا من المصادر أشارت

(١) قس المرجع ص ٣٦ - البلازى ، توح البلدان ، قسم ١ ص ٢٦٦ - ابن الأثير ،
 الكامل ج ٣ ص ١١ - السلاوى ، الاستبصار ، ج ١ ص ٧٣

(٢) لعلها التلة أى جماعة المعسكر وهو أقرب إلى الصواب ، فقد كان من اليسير على عمرو
 الذى عسكر بأعلى التل الواقعة شرق المدينة أن يشاهد ما يجرى بداخلها بعد أن انقبه لئلى
 تكبير وجاله . فأدركهم ودخل المدينة من الجهة التى رآهم دخلوا منها .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٣٨

إلى أن عمرا قوتل حتى افتتح طرابلس عنوة^(١).

ولكننا لا نرى رأى الدكتور مؤنس في فتح طرابلس ، ولا نستبعد على الاطلاق ما رواه ابن عبد الحكم من قيام المسلمين بالتكبير ، فعادة التكبير من العادات المتأصلة عند المسلمين في أوقات القتال والحرب ، والأمثلة كثيرة على ذلك ، فقد كبر المسلمون عندما ارتقوا الباب الشرقي من دمشق ودخلوها عنوة^(٢) ، كذلك كبر أبو محجن الثقفي في القادسية^(٣) ، وكبر المسلمون في نهاوند^(٤) . وكبروا أيضا وعند فتح حصن بابليون^(٥) ، وكبر المسلمون في موقعة سبيلة^(٦) ، وكبر المسلمون كذلك عند فتح قرطبة^(٧) ، ولا شك أن عمرا عندما أدرك أصحابه بداخل المدينة اشتبك مع حامية المدينة وتغلب عليهم ، فليس في قتال عمرو تعارض مع قصة فتح طرابلس ، وفقا لرواية ابن عبد الحكم . وما إن دخل عمرو طرابلس حتى عاهد أهلها^(٨).

(١) حسين مؤنس . فتح العرب للمغرب ، ص ٦٢

(٢) الواقدي ، فتوح الشام ، ١٠٠ طبعة القاهرة سنة ١٣٦٨ ، ص ٤٣ ، ٤٤ -

عبد الوهاب النجار ، الحلفاء والراشدون ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٢٠٨

(٣) المسعودي ، مروج الذهب ، تحقيق الأستاذ عبي الدين عبد الحميد ، ٢ القاهرة ١٩٥٨ ص ٢٢٣ .

(٤) ابن الأثير ، الكامل ، ٣ ص ٤ - ٦

(٥) البلاذري ، ١٠٠ ص ٦٤ ، ٦٥

(٦) ابن الأثير ، ٣ ص ٤٤

(٧) فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، مترجمه Joaquín González ، الجزائر ١٨٨٩ ص ٩ من الترجمة .

(٨) البلاذري ، ١ ص ٢٦٦

ولما ظفر عمرو بمدينة طرابلس « جرد خيلا كثيفة من ليلته ، وأمرهم بسرعة السير ، فصبحت خيله مدينة سرت ، وقد غفلوا ، وقد فتحوا أبوابهم لتسرح ماشيتهم ، فدخلوها ، فلم ينبج منهم أحد ، واحتوى عمرو على ما فيها » (١) .

وكان عمرو قد بعث ، أثناء حصاره لطرابلس ، قائدة بسرين أرطاة إلى ودان ، فافتتحها سنة ٢٣ هـ (٢) ، وأعتقد أن المسلمين انتصروا ودان وسرت بقصد القضاء على أى محاولة من جانب بربر قوسة لنجدة أهل طرابلس ، وفى نفس الوقت لتأمين فتحهم للساحل ، على نحو ما فعله عمرو عند افتتاحه برقة ، إذ ضمن خضوع زويلة وفزان للمسلمين ، خشية أن ينقض أهل هذه المناطق الداخلية على جيوشه ، فيقطعون عليها خط الرجعة .

تم فتح العرب لبرقة والقسم الشرقى من ولاية طرابلس دون أن يتدخل جريجوريوس ويدافع المسلمين ، ذلك لأن إقليم طرابلس الممتد ما بين سرت ومصر لم يكن تابعا له رسميا ، وهذا يفسر موقفه السلبى من غزو العرب لهذه البلاد ، وأعتقد أن القسم الغربى من طرابلس كان تابعا له ، وكان هذا القسم المذكور يضم جزيرة جربة Meninx ومسلحة جرجس Girgis ، وحصن جيجتى Gigthi (بوغرارة) ، ومدينة تاكاباى Tacapae (قابس) (٣) . وكانت أخبار

(١) ابن عبد الحكم ص ٣٨ - ابن الأثير ' ٣ ، ص ١١

(٢) نفس المرجع ، ص ٦٠ - البكرى ، المغرب ص ١٢

(٣) قابس مدينة جبلية عامرة خلت من نواحيها جنات ملتفة ، وحدائق مصطنعة ، وفواكه عامة وخمسة ، وها من الثمر والزروع والمنتاع ما ليس بغيرها من البلاد ، وفيها زيتون وزيت وغلات ، وعليها سور منيع يحيط به من خارجه خندق (الإدريسى ، ص ١٠٦) .

انتصارات العرب في بركة وطرابلس وفزان وزويلة وودان قد وصلت إليه ، فاحتاط لنفسه ، وبادر بتحصين بلاده ، وإقامة المحارس ، والمسالج ، والحاميات ، فيأبلى سرت ، تعززا للدفاع عن إفريقية ، واستعداداً للإفاعة العرب ^(١) ، يدل على ذلك أن الادريسي ذكر أن الساحل الممتد ما بين قابس وسرت كثير القصور والحصون ومنها قصر زوجونة ، وقصر بني مأمون ، وقصر الجرف ، وجزيرة جربة ، وقصر بني خطاب ، وقصور الزارات ، وقصر بني ذكومين ، وقصر الهري ، وقصر جرجيس ، وقصر صالح ، وقصر كوطين ، وقصر بني ولول ، وقصر مركيا ، وقصر عفسلات .. إلى آخره ^(٢) .

وبستنجد الدكتور حسين مؤنس من تحاشي العرب مهاجمة قابس في حملة عبدالله ابن سعد ، واتجاههم مباشرة إلى سببلة ، أن جريجوريوس حصنها بقلع منيعة لانرام ، فتفادها العرب بعد ذلك ^(٣) . ويبدو أن عمرو بن العاص قد حاول فتح بعض هذه الحصون المتناثرة فيأبلى سرت غربا ، ولكنها استعصت عليه لتناعتها ، فكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بفتوحاته ، ويستأذنه في فتح إفريقية ، ويغلب على الظن أنه طلب منه مدداً لذلك الغرض ، وذكر له في جملة ما ذكره « إن الله قد فتح علينا إطرابلس ، وليس بينها وبين إفريقية إلا تسعة أيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يغزوها ويفتحها الله على يديه فعل » ^(٤) . ويضيف

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٦٧ - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٢٨ .

(٢) الادريسي ، ص ١٢٢ - ١٢٩ .

(٣) حسين مؤنس ، ص ٦٧ .

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٠ - البلاذري ، ص ٢٦٦ .

ابن عذارى عبارة تؤكد رأينا في أنه حاول فتح أحد الحصون ، فاصطدم بمقاومة عنيفة . يقول ابن عذارى: « وكتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، يخبره بما أفاء الله عليه من الفتح والنصر ، وأن ليس أمامه إلا بلاد إفريقية ، وملوكها كثيرة ، وأهلها عديدون وأكثر ركوهم الخيل ^(١) . »

ونستدل من رد الخليفة عمر بن الخطاب على كتاب عمرو بن العاص أن الخليفة كان مطالعا على الأحوال السياسية في إفريقية ، وكان محيطا بشورات أهلها ونكتهم باليهود ، وغدرهم بأصحاب السلطان ، وكان من الطبعي أن يرفض عمر طلب عمرو بمواصلة الفتح والتغريب بالمسلمين في مخاطرة لا يعلم نتائجها إلا الله ، فأثر أن يقف المسلمون إلى هذا الحد من الفتوحات وكتب إلى عمرو قائلا : « لا إنها ليست بإفريقية ، ولكنها المفرقة ، غادرة مغدورها ، لا يفزوها أحد ما بقيت » ^(٢) وقد أورد البلاذرى صيغة أخرى لرد عمر بن الخطاب ، تدل على معرفته بشؤون البربر ، جاء فيه : « فكتب إليه ينهاء عنها ويقول : ما هي بإفريقية ، ولكنها مفرقة ، غادرة مغدورها ، وذلك أن أهلها كانوا يؤدون إلى ملك الروم شيئا ، فكانوا يقدرون به كثيرا ، وكان ملك الأندلس صالحهم ، ثم غدر بهم ، وكان خبرهم قد بلغ عمر » ^(٣) .

(١) ابن عذارى ، ج ١ طبعة بيروت ص ٢٠٢ وقد ورد في طبعة ليني بروكس والوكولان ما يلى : « ملوكها كثير ، وأهلها في عدد عظيم ، وأكثر ركوهم الخيل » ص ٨

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٤٠

(٣) البلاذرى ، ص ٢٦٦

وكان لابد لعمر و من الاستجابة لرغبة عمر في عدم الاستمرار في الفتح، ولذلك اضطر إلى الانصراف عن إفريقية مرغما ، فعاد إلى مصر ، بعد أن أقام قائده عقبة بن نافع على هذه البلاد الصحراوية ، بركة ، يدعو للإسلام، ونجح عقبة في كسب كثير من سكان البلاد من قبائل لواتة ونفوسة ونفزاوة و هراوة وزواغة . فدخلوا في الإسلام .

ثم أصبحت بركة قاعدة لجيش المسلمين في غرب مصر ، أما عمرو ، فقد عاد إلى القسطنطينية مقر ولايته، وظل مقيما بها حتى استشهد الخليفة عمر بن الخطاب وخلفه عثمان بن عفان . وكان أول ما فعله عثمان أن عزل عمر بن العاص من ولاية مصر ، فقلدها لعبد الله بن سعد بن أبي سرح سنة ٢٤ هـ .

ب - حملة عبد الله بن سعد : غزوة سبيلة :

أحس البطرقي جريجوريوس بالخطر العربي يهدد بلاده من الشرق ، وكانت عاصمته قرطاجنة تقع في أقصى الطرف الشمالي الشرقي من ولاية إفريقية على البحر ، فرأى أن يتخذ عاصمة جديدة تقع في جوف البلاد حتى لا تتعرض لغزو العرب من الشرق ، وغزو البيزنطيين من البحر ^(١) . ثم إنه كان يعمل على التقرب من البربر طمعا في أن ينصروه على العرب ، فأراد أن يحتمي بينهم ، فاختر سبيلة لهذا الغرض ، وجعلها حاضرة لولايته في سنة ٢٤ هـ (٦٤٦ م) . وفي نفس الوقت حصن المدن الشرقية مثل قابس وسفاقس وقفصة حتى تؤلف خطا دفاعيا أماميا ، يعرقل جيوش العرب ويؤخر من تقدمهم . ويبدو أن سلطان العرب في المغرب انحسر إلى بركة ، فخرجت طرابلس

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ص ٧٥ ، ٧٦

من طاعتهم عقب انصراف عمرو بن العاص إلى مصر ، وكان عقبة قد اتخذ
سرت بركة مركزاً لقواته ، وقاعدة لغزواته في داخل البلاد ، فصرف همه
إلى غزو الواحات القريبة من فزان وودان وزويلة والسودان ^(١) ، وكان
يرسل تقاريره عن حالة هذه البلاد إلى عبدالله بن سعد ، ولعله أبلغه خروج
طرابلس عن طاعة المسلمين ، بدليل أن عبدالله بن سعد « كان يبعث
المسلمين في جرائد الخيل كما كانوا يفعلون في أيام عمرو ، فيصيبون من
أطراف إفريقية ويغنمون ^(٢) . وكان عبدالله بن سعد يكتب إلى عثمان
« يخبره بما نال المسلمون من عدوهم ، وقربهم من حوز المسلمين » ^(٣) ،
ويستأذنه في غزو إفريقية ^(٤) . ويبدو أنه طلب من الخليفة أن يرسل إليه
مدداً يعينه على افتتاح إفريقية ، ولكن عثمان ، رغم ميله إلى إجابة رغبة
أخيه في الرضاع في فتح إفريقية ليكسبه بذلك مجداً يزيد من هيئته ، ويعزز
مكانته ^(٥) ، كان متوقفاً عن غزوها ^(٦) ، بسبب رفض عمر بن الخطاب من
قبل المضي فيه ، ولكن ميله إلى إجابة رغبة عبدالله بن سعد غلب عليه في نهاية
الأمر ، فعزم على غزو إفريقية ، ولكن بعد أن يستشير الصحابة في ذلك .

(١) البكري ، المغرب ص ١٤٥

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢ - البلاذري ، ٢٦٧ - المالكي ، كتاب رياس النوفس
تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ٨ - ابن عساف ، طبعة ليني
بروفسال وكولان ج ١ ص ٩

(٣) المالكي ، ص ٨

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٢٩ .

(٦) البلاذري ، ص ٢٦٧

ومما يدل على عزمه على الفتح ما ذكره المالكي في رياض النفوس ، نقل عن
المسور بن محرمة عن طريق الزهري « قال المسور : خرجت من منزلي ليليل
طويل أريد المسجد ، فإذا عثمان رضى الله تعالى عنه في مصلى النبي صلى الله
عليه وسلم يصلي ، فصليت خلفه ، ثم جلس فدعا ليلا طويلا ، حتى أذن
المؤذنون ، ثم قام منصرفا إلى بيته ، فقممت في وجهه ، فسلمت عليه ، فقال :
يا ابن محرمة ، وانكأ على بدي ، إني استخرت الله في ليلتي هذه في بعث
الجيوش إلى إفريقية ، وقد كتب إلى عبد الله بن سعد ، يخبر بخبره مع
المشركين ، وغلبيهم وقرب حوزهم من المسلمين . قلت : خار الله لأمر
المسلمين ، قال : فما رأيك يا ابن محرمة ؟ قلت : اغزوم . قال : أجمع
اليوم الأكبر من أصعب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأستشيرهم ،
فما أجمعوا عليه فعلته ، أو ما أجمع عليه أكثرهم فعلته ، ولتكن أنت رسولي
اليوم ، واحضر معهم ^(١) . »

واجتمع الخليفة عثمان بوجوه الصحابة وذوى الرأي في سنة ٢٧ هـ
(٦٤٧ م) ، واستشارهم في أمر الفتح ، فأجمعوا على موافقته ، باستثناء
الأعور سعيد بن زيد الذى تمسك برأى عمر بن الخطاب في ألا يغزوها أحد
من المسلمين ^(٢) . وما إن أقر الصحابة رأى الخليفة في الفتح ، حتى استنفر
المسلمين ، وندبهم إلى الغزو إلى إفريقية ، وفتح مستودعات السلاح ، فتوافى
الناس وانضموا إلى الجيش . وخرج جماعة من الصحابة ، منهم معبد بن
العباس بن عبد المطلب ، ومروان بن الحكم بن أبي العاص ، والحارث بن

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ص ٨ ، ٩

(٢) قس المرجع .

الحكم أخوه ، وعبد الله بن الزبير ، والصور بن عمرة بن نوفل ،
وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب ، وعاصم
ابن عمر ، وعبيد الله بن عمر ، وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وعبد الله بن عمرو
ابن العاص ، وبسر بن أرطاة بن عويمر العامري ، وأبو ذؤيب خويلد بن
خالد الهذلي ^(١) . ويضيف المالكي إلى هؤلاء أسماء عدد كبير من الصحابة .
ورافق كل من هؤلاء جماعة من قومه ، فخرج من أسلم ثلاثمائة رجل ؛
وخرج من مزينة ثمانمائة ، وخرج من بنى سليم أربعمائة وخمسون ، وغيرهم
من قبائل شتى ^(٢) . وأمر عليهم عثمان الحارث بن الحكم حتى وصلوا إلى
عبد الله بن سعد في مصر فتكون له القيادة بعد ذلك ^(٣) . ثم خطب فيهم ،
وحثهم على الجهاد في سبيل الله ، وقال لهم : « قد استعملت عليكم الحارث
ابن الحكم حتى تصلوا إلى عبد الله بن سعد ، وقد قدمت عليكم عبد الله بن
سعد لما علمت من ثقته ودبته وجسـن رأيه وشجاعته ، وأخذت عليه العهد
والميثاق أن يحسن لمحسنكم ؛ ويتجاوز عن مسيئكم ، ولا يحمله غرض
الديـنـا على هلاك رجل واحد منكم ، وأرجو لعبد الله أن يقف عند عهـدي
وأمرى . وأوصيكم وإياه أن لا تهولنكم كثرة العدو ، وقد علمتم ما أنزل
الله عليكم حيث يقول : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله . أما
علمتم أن أول هذه الأمة ما نصروا إلا بكثرة الصبر وقوة اليقين ؟ ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . أستودعكم الله وهو خير الحافظين ، سيروا

(١) البلاذري ، ص ٢٦٧

(٢) المالكي ، ص ١٠

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٤٢

على بركة الله ، وعليه فتوكلوا ، وبه فائقوا » (١) .

وأعان عثمان المسلمين في هذه الغزوة بألف بعير يحمل عليها ضعفاء الناس ٢ ، ثم سار الجيش من المدينة بقيادة الحارث بن الحكم ، فلما وصل إلى مدرة ، ضم إليه ابن أبي سرح جيوش مصر وفيهم بعض الأقباط (٣) ، فكلل عدد الجيش عشرين ألفا (٤) . ثم استخلف عبد الله على مصر عقبة بن عامر الجني ، وخرج في مقدمة جيشه إلى إفريقية . وفي برقة استقبله عقبة ابن نافع الفهري فيمن معه من المسلمين (٥) . ومن برقة أرسل سرية ، تقدمت الجيش إلى طرابلس ، وكان أهل هذه المدينة قد تلقوا باستيلاء المسلمين على مدينتهم في أيام عمرو درسا لم ينسوه ، ولذلك عملوا على تحصين أسوار المدينة منذ أن خرجوا عن طاعة المسلمين ، فلما وصلت السرية العرية إلى طرابلس ، استولت على مركب كان راسيا بالقرب منها ، وأمر المسلمون من فيه ، حتى أدرهم عبد الله بن سعد بجمع جيشه ، فأمر بقتل الأسرى ، وكان أهل طرابلس قد تحصنوا داخل أسوارهم عندما أقبل العرب ، وحاول المسلمون اقتحام المدينة ، ولكنها استعصت عليهم ، فعدلوا عن ضرب الحصار عليها حتى لا يعطلهم هذا الحصار عن غرضهم الأسامي ، وواصلوا السير نحو

(١) نصر عبيد الله بن صالح ، بعنوان : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ لين بروفنسال ، بصحيفة المهد المعري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ م - ٢١٥ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٩

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩

(٣) المالكي ، ص ١١

(٤) المالكي ، ص ١٠ - ابن عذاري ، ص ٩ - عبيد الله بن صالح ، ص ٢٦٦

(٥) ابن الأثير ، ج ٣ ، ٤٣ - الاستقصا ، ج ١ ، ص ٧٥

إفريقية (١) . ولما وصلوا إلى قابس وجدوا الروم قد تحصنوا داخل أسوارهم ، فأشار المسلمون على عبد الله بن سعد ألا يبدأوا بهجمة الحصون قبل أن يشبكوا مع جيوش الروم (٢) ، فعزل عبد الله عن محاصرة قابس ، وبعث السرايا في آفاق إفريقية ، فغنموا في كل وجه (٣) . وعندئذ اضطر البطريرق جريجوريوس ، ويسميه العرب جرجير (٤) أو جرجيس (٥) ، إلى الخروج من سيطلة للملاقة جيوش العرب ، فخرج في جيش عدته مائة وعشرين ألف مقاتل وفقا لرواية ابن عذارى وعبد الله بن صالح (٦) ، ومائة ألف وفقا لرواية المالكي (٧) . والتقى الجيشان بالقرب من سيطلة . وهنا تتعارض الروايات العربية فيما بينها :

(١) المالكي ، ص ١٠ .

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٦٦ .

(٣) ابن عذارى ج ١ ص ٩ .

(٤) يقول ابن عذارى : « صاحبها بطريق يقال له جرجير ، وكان سلطانة من طرابلس إلى طنجة » (اليان المغرب ج ١ ص ٩) . ويقول المالكي : « فخرج عبد الله بن سعد... يريد إلى البطريرق بإفريقية ، وكان قد غلب على المغرب » (المالكي ، ص ١٠) . ويقول ابن عبد الحكم : « وكان مستقر سلطان إفريقية يومئذ بمدينة يقال لها قرطاجنة ، وكان عليها ملك يقال له جرجير كان هرقل قد استخلفه ، فخلع هرقل ، وضرب الدنانير على وجهه ، وكان سلطانة ما بين طرابلس إلى طنجة » (ابن عبد الحكم ، ص ٤٢) . كذلك يتفق البلاغري مع ابن عبد الحكم وابن عذارى في تحديد منطقة نفوذ جريجوريوس في المغرب (البلاغري ص ٢٦٧) .

(٥) الادريسي ، ص ١١٠ .

(٦) ابن الأثير ، ص ٤٣ - عبيد الله بن صالح ، ص ٢٦٦ - ابن عذارى ج ١ ،

ص ١٠ - السلاوي ، الاستقصا ج ١ ص ٧٥

(٧) المالكي ، ص ١١

يقول ابن عبد الحكم « ثم رجع إلى حديث عثمان بن صالح وغيره قال، فلقية جرجير، فقاتله فقتله الله، وكان الذي ولي قتله فيما يزعمون عبد الله ابن الزبير » (١).

ويقول البلاذري: « حدثني محمد بن سعد، عن الواقدي، عن أسامة بن أسلم، عن نافع مولى آل الزبير، عن عبد الله بن الزبير قال: أغزانا عثمان بن عفان إفريقية، وكان بها بطريق، سلطانه من أطرابلس إلى طنجة، فسار عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى حل بعقوبة، فقاتله أياما فقتله الله، وكنت أنا الذي قتله، وهرب جيشه فتمزقوا، » (٢). وأورد المالكي عدة روايات (٣):

١- منها رواية عن الواقدي عن ربيعة الديلمي قال: « ثم تمادينا إلى إفريقية، ونحرنا لإبل، وذبحنا البقر، وأخذنا العلف والسبد، وجعلنا نضرب في كل جهة، وأقنا أياما تجرى بيننا وبين جرجير ملكهم الرسل، ندعوه إلى الإسلام فكلمنا دعوانه إلى الإسلام نحر، ثم استطال وقال: لا أقبل هذا أبدا. فقلنا له: فتخرج الجزية في كل عام، فقال لوسألتوني درهما لم أفعل. فتهبأ الناس للقتال، وعبأ عبد الله بن سعد ميمنة وميسرة وقلبا وسار بأصحابه، فقال له رجل من القبط من كان معه: إن القوم لا يصفونك، هم أروع منك من أن يصفوك، وهم يهربون منك، فاجعل منك، فاجعل لهم كينا، وفرقمهم في أماكن. ففعل ذلك عبد الله، وغدا منا على تمبشة،

(١) ابن عبد الحكم، ص ٢٢

(٢) البلاذري ص ٢٦٧

(٣) المالكي، ص ١٠ - ١٥

وتلاقينا مع الروم قد رفعوا الصليب وعليهم من السلاح ما الله أعلم به ،
ومعهم من الخيل ما لا يحصى ، فصار لنا ساعة من نهار حتى صارت الشمس
قدر رحمن ، وحمل عبد الله بالناس فكانت الهزيمة عليهم ، وكر المسلمون
عليهم في كل مكان ، فأكثرُوا فيهم القتل والأسر . لقد رأيت في موضع
واحد ألف أسير ، فلما أصابهم الأمر والقتل طلبوا الصلح ، فصالحهم
عبد الله بن سعد على مخرج ، قيل صالحهم على ألف دينار وخمسمائة
ألف دينار .

ب - ومنها رواية عن سباب العصفري قال : « غزا عبد الله بن سعد
إفريقية مع جماعة من الصحابة فلقي جرجير في سبيطة وهي مدينة مسورة
على سبعين ميلا من القيروان فقتل جرجير وهو في مائة ألف ، وصالحه أهل
الدائن والحصون على مائة ألف رطل ذهب .

ج - ومنها رواية لآبي عثمان سعيد بن عفير ، قال : « لما سمعت الروم
والأزارقة ^(١) يخرج عبد الله ووصولهم إلى إفريقية ، خرجوا إليه ومعهم
جرجير في جمع كثير من الروم فلما التقوا بالمسلمين نادى جرجير بالبراز
فبرز إليه عبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم ، فقتله ابن الزبير ، ومنهم من
قال قتلاه جميعا . ثم كانت الهزيمة ، واتخذ المسلمون ذلك المنزل معسكرا ،
وأصابوا لهم قنائم كثيرة ، فأصاب الفارس في سهمه ثلاثة آلاف دينار ،
ثم ساروا إلى البلاد ففتحوها كل مدينة عنوة .

د - ومنها رواية نقلها عن الواقدي عن عبد الله بن الزبير قال : « أغرانا

(١) الأزارقة خطأ ، وصححها الأزارقة .

عمران رضى الله تعالى عنه إفريقية ، وكان بها بطريق يسمى جرجير ، سلطاناً
من طرابلس إلى طنجة فسار عبد الله حتى حل به ، فقاتله أياماً ، فقتله
الله عز وجل ، وكنت أنا الذى قتلته ، فهرب جيشه ، وقطع ابن أبى سرح
السرايا ، وفرقها فى البلاد ، فأصابوا غنائم كثيرة .

٥ - ومنها رواية نقلها عن أهل العلم بالسير ومغازى إفريقية نصها : « إن
عبد الله بن سعد نزل بموضع يسمى قونية ، وهو موضع مدينة القيروان
(انظر خريطة رقم ٤) ، فسأل عن أشرف من بافريقية من الروم ، فقبل
جرجير ، وهو صاحب مدينة سيطة . فزحف عبد الله إلى جرجير الملك ،
فلقيه فى خلق عظيم من الروم ، فقاتله عبد الله بمن معه ، والتحم القتال ،
ووقع الصبر ، حتى ظن الناس أنه الفناء ، فانهزم جرجير ولزمه عبد الله بن
الزبير فى عجاج الموت ، فعرفه بمن معه من أشرف قومه ، ففرق عنه أصحابه
وقتلته إلى جانب السور ، وابنته تنظر من السور إلى قاتله ، وسبقت خيول
المسلمين الروم إلى باب الحصن ، فخلوا بينهم وبين الدخول إلى حصنهم ،
فركبهم المسلمون يمينا وشمالا فى السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ،
ونزل عبد الله بن أبى سرح باب المدينة ، وحصرها بمن معه حصارا شديدا
حتى فتحتها ، وأخذ ابنة جرجير فوهبها لعبد الله بن الزبير ، وهو صاحب
الافاعيل فى ذلك اليوم ، وهو المستشهد فى سبيل الله . ودخل عبد الله المدينة ،
فوجد فيها سبياً كثيراً وأموالاً عظيمة ، ووجد أكثرها ذهب ، وسرى
على الروم فبلغت خيوله قصور قفصة ، وبلغت موضعا يقال له قرطاجنة ،
فسبى فيها ما تأنى ، وذهب بعد تلك الواقعة ملك الروم بافريقية ، ولجأوا
إلى الحصون ، وأصابهم رعب عظيم . »

ويقول ابن الأثير^(١) : « وسار (عبد الله بن سعد) نحو إفريقية ، وبث السرايا في كل ناحية ، وكان ملكهم اسمه جرجير ، وملكه من طرابلس إلى طنجة ، وكان هرقل ملك الروم قد ولاء إفريقية ، فهو يحمل إليه الحراج كل سنة ، فلما بلغه خبر المسلمين تجهز وجمع العساكر وأهل البلاد ، فبلغ عسكره مائة ألف وعشرين ألف فارس ، والتي هو والمسلمون بمكان بينه وبين مدينة سيطلة يوم وليلة ، وهذه المدينة كانت ذلك الوقت دار الملك ، فأقاموا هناك يقتلون كل يوم ، وراسله عبد الله بن سعد ، يدعوهُ إلى الإسلام أو الجزية ، فامتنع منها ، وتكبر عن قبول أحدهما ، وانقطع خير المسلمين عن عُثْمَانَ ، فسار عبد الله بن الزبير في جماعة إليهم ليأتيه بأخبارهم ، فسار مجدا ، ووصل إليهم ، وأقام معهم ، ولما وصل كثر الصياح والتكبير في المسلمين ، فسأل جرجير عن الخبر ، فقيل قد أتاهم عسكر ، فقت ذلك في عضده ، ورأى عبد الله بن الزبير قتال المسلمين كل يوم من بكرة إلى الظهر ، فاذا أذن بالظهر عاد كل فريق إلى خيامه ، وشهد القتال من القُد ، فلم ير ابن أبي سرح معهم ، فسأل عنه ، فقيل إنه سمع منادى جرجير يقول : من قتل عبد الله بن سعد فله مائة ألف دينار وأزوجه ابنتي ، وهو يخاف ، فحضر عنده ، وقال له : تأمر مناديا بنادى من أتى برأس جرجير نقتله مائة ألف وزوجه ابنته ، واستعملته على بلاده ، ففعل ذلك ، فصار يخاف أشد من عبد الله . ثم إن عبد الله بن الزبير قال لعبد الله بن سعد ، إن أمرنا يطول مع هؤلاء ، وهم في أمداد متصلة ، وبلادهم لهم ، ونحن منقطعون عن المسلمين وبلادهم ، وقد رأيت أن تترك غدا جماعة صالحة من أبطال المسلمين في خيامهم

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٤٣ ، ٤٤

متأهبين ، وقاتل نحن الروم في باقي العسكر ، إلى أن يضجروا ، ويملوا ، فإذا رجعوا إلى خيامهم ورجع المسلمون ، ركب من كان في الخيام من المسلمين ، ولم يشهدوا القتال وهم مستريحون ، ونقصدهم على غرة ، فلعل الله ينصرنا عليهم . فأحضر جماعة من أعيان الصحابة واستشارهم فوافقوه على ذلك . فلما كان الغد فعل عبد الله ما اتفقوا عليه ، وأقام جميع شجعان المسلمين في خيامهم ، وخيولهم عندهم مسرجة ، ومضى الباؤون ، فقاتلوا الروم إلى الظهر قتالا شديدا ، فلما أذن بالظهر هم الروم بالانصراف على العادة ، فلم يتمكنهم ابن الزبير وألح عليهم بالقتال حتى أنصبتهم ، ثم عاد عنهم هو والمسلمون ، فكل من الطائفتين ألقى سلاحه ووقع تبعا ، فعند ذلك أخذ عبد الله بن الزبير من كان مستريحا من شجعان المسلمين ، وقصد الروم ، فلم يشعروا بهم حتى خالطوهم ، وحملوا حملة رجل واحد وكبروا ، فلم يتمكن الروم من لبس سلاحهم ، حتى غشيتهم المسلمون ، وقتل جرجير ، قتله ابن الزبير ، وانهزم الروم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وأخذت ابنة الملك جرجير سبية ، ونازل عبد الله بن سعد المدينة ، فحصرها حتى فتحها ... » .

ويقول ابن عذاري ^(١) : « والتقى عبد الله مع البطريق ضحى النهار في موضع يعرف بسيطة ، وكان جرجير في مائة وعشرين ألفا ، فضاق المسلمون في أمرهم ، واختلفوا على ابن سعد في الرأي ، فدخل فسطاطه مفكرا في الأمر ... قال عبد الله بن الزبير : فرأيت عودة من جرجير ، والناس على مصافهم ، رأيت على بردون أشهب خلف أصحابه ، متقطعا عنهم ، معه

(١) ابن عذاري ج ١ ص ١٠ ، ١١ . وقد ورد هذا النص أيضا في رياض النفوس

جاريثان له تظلاته من الشمس بريش الطواويس ، فأتيت فسطاط عبد الله ابن سعد ، فطلبت الإذن عليه ، فقال له حاجه : دعه فانه يفكر في شأنكم ، ولو اتجه إليه رأى لدعا بالناس . فقلت : إني محتاج إلى مذاكرته . فقال له : أمرني أن أحبس الناس عنه حتى يدعوني . قال : فدرت حتى كنت من وراء الفسطاط ، فرأى وجهي ، فأومأ إلى برأسه ، أن تعال . فدخلت عليه وهو مستلق على فراشه ، فقال : ما جاء بك يا ابن الزبير ؟ فقلت : رأيت عورة من عدونا ، فرجوت أن تكون فرصة هيأها الله لنا ، وخشيت القوت . فقام من فوره ، وخرج حتى رأى ما رأيت ، فقال : أيها الناس ، اتدبوا مع ابن الزبير إلى عدوكم ، فصارح إلى جماعة اخترت منهم ثلاثين فارسا ، ثم قلت : إني حامل ، فاصرفوا عن ظهري من أرادني ، فاني أكفيكم ما أُمأى إن شاء الله تعالى . قال عبد الله : حملت في الوجه الذي هو فيه ، وذبح عني الذين اتدبوا معي ، وأتبعوني حتى خرقت صفوفهم إلى أرض خالية فضاء بيني وبينهم ، فوالله ما حسب إلا إني رسول إليه حتى رأى ما بي من أثر السلاح ، فقدر إني هارب إليه ، فلما أدركته طعته ، فسقط ، فرميت نفسي عليه ، وألقت جاريثاه عليه أنفسهما ، فقطعت يد إحداهما ، وأجهزت عليه ، ورفعت رأسه على رمحي . وجال أصحابه ، وحمل المسلمون في ناحيتي وكبروا ، فانهزم الروم ، وقتلهم المسلمون كيف شاءوا . وثارت الكائن من كل جهة ومكان ، وسبقت خيول المسلمين ورجالهم إلى حصن سيطة ، فنعموم من دخوله ، وركبهم المسلمون يمينا وشمالا في السهل والوعر ، فقتلوا أنجادهم وفرسانهم ، وأكثروا فيهم الأسارى حتى لقد كنت أرى في موضع واحد أكثر من ألف أسير .

هذه هي معظم الروايات العربية التي تصور لنا انتصار العرب على الروم

في سيطرة ، وهي وإن كانت متباينة في التفصيلات من جهة ، ويطلب عليها الطابع القصصى من جهة ثانية ، إلا أن معظمها تنفق على أن عبد الله بن الزبير هو قاتل جريجوريوس . ويشك الدكتور الدكتور حسين مؤنس في الروايات القائلة بخوف عبد الله بن سعد من الظهور أمام جنده خشية أن يترصده أحد جنوده فيقتله ، واختبائه في فسطاطه حتى قدوم عبد الله بن الزبير في مدد بعثه عثمان بن عفان إليه لا أبطأت عليه أخبار المسلمين ^(١) . كما يشك في دور البطولة الذي أسبغته الروايات العربية المتأخرة على عبد الله بن الزبير لعاملين :

الأول : أن ابن عبد الحكم ، وهو أقدم من كتب من مؤرخي العرب في فتح المغرب ، اكتفى بقوله : « وكان الذي ولي قتله فيما يزعمون عبد الله ابن الزبير » ، أى أنه ذكر الخبر في شيء من الحذر والاحتراز مما يشكك في أصالة الرواية .

والثاني : أنه بينما تشير معظم الروايات إلى أن ابنة جريجوريوس كانت من نصيب قاتل أبيها عبد الله بن الزبير ، ومن جملة هذه الروايات رواية ذكرها ابن عبد الحكم ، فإن ابن عبد الحكم نفسه أورد رواية أخرى جاء فيها : « وكانت ابنة جرجير ، كما حدثنا أبو عبد الله بن عبد الحكم ، وسعيد بن عفير ، قد صارت لرجل من الأنصار في سهمه ، فأقبل بها منصوراً ، قد حملها على يمينه له ، فجعل يرتجز .

يا ابنة جرجير تمشى عقبك . . . إن هليك بالحجاز ربك

لتحملن عن قباء قربتك

فسأت ما يقول هذا الكلب! فأخبرت بذلك ، فألقت بنفسها من البعير الذى كانت عليه ، فدقت عنقها فماتت (١) . ويتساءل الدكتور مؤنس : كيف يتفق أن تصير ابنة جرجير لابن الزبير ، ولرجل من الأنصار فى وقت واحد ؟

ويستنتج الدكتور مؤنس من رواية ابن عبد الحكم أن قصة قتل ابن الزبير لجرجير ، وأخذه ابنته لا أصل له فى الحقيقة ، ولا يعدو ذلك أن يكون من اختراع الرواة (٢) . ويؤيد الدكتور سعد زغلول عبد الحميد هذا رأى ، ويرى « أن الزبير بين هم الذين عملوا على إذاعة هذه الأجداد عن أسرهم ، فنسبوا إلى عميد الأسرة الأول - الزبير بن العوام - نحر الانتصار فى بابلليون فى مصر ، كما نسبوا إلى ابنه عبد الله - الذى بلغت الأسرة على أيام مطالبته بالخلافة أوج عظمتها - شرف الانتصار فى سيطرة بافريقية (٣) .

وقبل أن نبث فى الدور الذى لعبه ابن الزبير فى موقعة سيطرة يبنى أن نشير إلى أمرين :

الأول : أنه إذا كان ابن الزبير من بين الصحابة الذين اشتركوا فى الحملة التى سورها عثمان بن عفان من المدينة ، فكيف يتفق إذن قدومه بعد ذلك إلى المغرب قبل وقوع الاشتباك فى سيطرة بين العرب والمسلم ؟

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٦

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٩٢

(٣) سعد زغلول عبد الحميد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية ، والاسطورة

والثاني : إذا كان الدكتور حسين مؤنس يستند على نص ابن عبد الحكم الذى يشير إلى أن ابنة جرجير آلت إلى رجل من الأنصار فى سهمه ، وذلك تعريضا لآية فى أن ابن الزبير لم يكن بطل سبيطة ، فان المالكي يروى فى رياض النفوس خبرين نستنتج منهما أن عبد الله بن سعد كافأ عبد الله ابن الزبير على بطولته بأن قعله ابنة الملك . وفى الخبر الأول أليات قالمها ابن الزبير فى ابنة جرجير حين بلغه أنها سألت أباه أن يتحلها العرب :

ابنة جرجير نألى نخلتك . . . لقيت بالنحلة نكلى أبك
لتأخذن فى الطريق عقبك . . . لتسقين شرماء قربك
شر عيجوز بالحجاز ربك (١)

وفى الخبر الثانى أن عبد الله كان يرتجز لابنة جرجير البطرش ويقول :

يا ابنة جرجير نهى غضبتك . . . ستبصرين فى الحجاز ربك
ما أحسن الوجه وأجل مقلتك . . . لتجملن من تدير قربك
لتعظمن فى الإماء لقمتك (٢)

ويروى ابن عذارى أيضا أن عبد الله بن سعد قفل ابن الزبير ابنة الملك المقتول جرجير ، وأنه اتخذها أم ولد (٣) . كذلك يروى ابن الأثير ، أن

(١) المالكي ، ص ١٣

(٢) نفس المرجع ، ص ١٥

(٣) ابن عذوى ، ج ١ ، ص ١٢

عبد الله بن سعد نقل ابن الزبير ابنة جرجير ، وأرسله إلى عثمان بالبشارة بفتح إفريقية . ثم يضيف قائلا : « وقيل أن ابنة الملك وقفت لرجل من الأنصار (١) » .

ولا جدال في أن معظم الروايات السابقة تتضمن كثيرا من المبالغة في تصوير بطولة ابن الزبير ، ومن الطبيعي أن تمجد هذه الروايات المستقاة من آل الزبير بطولته ، فتقلل من شأن ما قام به عبد الله بن سعد . ولكن ليس معنى هذا أن نستبعد ما أجمعت عليه الروايات من أن ابن الزبير هو الذي توصل إلى قتل جرجير (جريجوريوس) . فلو أن ابن عبد الحكم كان يشك بعبارته « فيما يزعمون » في قيام عبد الله بن الزبير بقتل جرجير ، فلماذا لم يشر إذن إلى رواية أخرى تتضمن اسم البطل الحقيقي ؟ . ونعتقد أن عبد الله ابن الزبير كان من بين أبناء الصحابة الذين اشتركوا في حملة الحجاز ، فاسمه يرد في رواية البلاذري والمالكي وابن عذارى والنويرى ، وقد تصادف اشتراك عدد من أبناء الصحابة في هذه الحملة تبدأ أسماؤهم بعبد الله ، فسميت الغزوة لذلك بغزوة العبادلة (٢) . وأعتقد أن ابن الأثير هو المؤرخ الوحيد الذي أشار إلى تسيير عثمان بن عفان لعبد الله بن الزبير في جماعة إلى إفريقية ليأتيه بأخبار المسلمين ، وعنه أخذ النويرى . والنويرى على هذا التحويناقض نفسه ، فقد روى في موضع آخر أن حملة الحجاز كانت تضم بين قوادها عبد الله بن الزبير (٣) . إذن ليس هناك إجماع بين الروايات على أن ابن الزبير

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٤

(٢) المالكي ، ص ١٠

(٣) النويرى ، نهاية الأرب ، عن حسين مؤنس ، فتح العرب للعرب ص ٨٩ ،

ملاحظة رقم ٢ .

كان مجموع الخليفة عثمان بن عبد الله بن مسعود أن اقطعت أخبار الفتح . وقد تكون رواية ابن الأثير في هذا الشأن متقولة عن مصدر زهيرى لتصور إلى أنى حد كان وصول ابن الزبير نجدة المسلمين . وظاهر أن هذه الرواية من اختراع الرواة ، خاصة بعد أن اختار ابن سعد عبد الله بن الزبير ليكون رسولا منه إلى الخليفة ليبشره بما أحرزه المسلمون من انتصارات على الروم ، فقد روى ابن عبد الحكم (عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن أبي ليثة) قال أن عبد الله بن سعد « بعث بالفتح عقبة بن نافع ، ويقال بل عبد الله ابن الزبير . وذلك أصح ، وسار - زعموا - عبد الله بن الزبير على راحلته إلى المدينة من إفريقية عشرين ليلة » . وروى أيضا نفعلا عن سعيد بن عفير ، « حدثني المنذر بن عبد الله الحزامي ، عن هشام بن عروة أن عبد الله بن سعد بعث عبد الله بن الزبير بفتح إفريقية ، فدخل على عثمان ، فجعل يخبره بفتحهم العدو ، وما كان في تلك الغزوة ، فأعجب عثمان (١) » . وقال ابن عبد الحكم أيضا نفعلا عن مسلمة بن عبد الملك عن الليث بن سعد ، قال : « بعث عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير - وكان في الجيش - بالفتح ، فقدم على عثمان بن عفان (٢) » . ويؤيد المالكي هذه الرواية بقوله إن عبد الله بن أبي سرح لما أراد أن يوجه بشيرا إلى عثمان رضى الله عنه ، قال (لابن الزبير) : « أنت أولى من هنا بذلك (وذلك لقتله جريجوريوس) . انطلق إلى أمير المؤمنين ، فأخبره بالخبر (٣) » . وقال ابن عذارى أن الأمير

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٤٨ - ٥٠

(٢) نفس المرجع ص ٥٠

(٣) المالكي ، ص ١٠

عبد الله بن سعد دعا عبد الله بن الزبير ، فقال له « ما أحد أحق بالشارة منك ، فامض ، فبشر أمير المؤمنين عثمان رضى الله عنه بالمدينة ، بما آفاه الله على المسلمين^(١) » .

فوصل عبد الله إلى المدينة في شهر ، وقيل في ثمانية عشر يوما^(٢) ، وذكر ابن عذارى أنه والى المدينة في أربعة وعشرين يوما ، وكانت إقامته بإفريقية سنة وشهرين^(٣) . وأغلب الظن أن الرواة وجدوا في سفره إلى المدينة رسولا من ابن سعد فرصة مواتية ومبررا لتجديد شخصيته ، فانسجوا قصة بطولته الحارقة في أنه قدم إلى إفريقية مبعوثا من الخليفة ، فوجد ابن سعد مهوما في فسطاطه ، فدبر له خطة قتل جريجوريوس ، هذه القصة فيها تعظيم لشأن عبد الله بن الزبير وتقليل من شأن عبد الله بن سعد . ولو أن عبد الله بن الزبير لم يكن قد اشترك في الحملة ، وأبدى من البطولة في قتال الروم ، وقتل جريجوريوس ، لما كان جديرا باختياره رسولا إلى الخليفة يشره بالفتح .

أما ما ذكره ابن عبد الحكم من أن عبد الله بن سعد وجه مروان بن الحكم إلى عمان من إفريقية ، فإن ابن عبد الحكم نفسه لم يستطع أن يعرف إذا ما كان ذلك قد حدث قبل الفتح أم بعده ، والأقرب إلى الصواب أنه أرسله إليه قبيل موقعة سبيلة ، عندما شاهد ضخامة جيش الروم ومنعهم ، وذلك لكي يستمد عمان بمدد آخر . واعتقد أن عبد الله بن سعد بادر بعد نجاح ابن الزبير في قتل جريجوريوس ودخول المسلمين سبيلة بأرساله إلى المدينة وذلك حتى

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) المالكي ، ص ١٠

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٣

يردف به مروان بن الحكم ، فيصل ابن الزبير ومعه آخر أنباء الفتح .
ولو افترضنا جدلا أن عبد الله بن سعد أرسل مروان بن الحكم إلى الخليفة
قبل المعركة ليطلب مددا جديدا ، فليس من المعقول أن يصل مروان ، ويأتي
عبد الله بن الزبير في فترة وجيزة بحيث يسبق مجيئه نشوب المعركة ، وليس
من المعقول أن يأتي عبد الله بن الزبير على رأس اثني عشر رجلا فقط على
حد قول النويري^(١) .

ونخرج من كل ذلك بالتأيج الآتية :

١ - أن عبد الله بن سعد بعد أن استعصت عليه قابس ، واصل زحفه
بجذاه الساحل التونسي حتى وصل إلى بلدة قونية ، وهي موضع مدينة
القيروان^(٢) ، ولعلها ميناء Caput Vada البيزنطي أو مدينة قودة التي أشار
إليها الإدريسي ، وكتاهما قرية من القيروان^(٣) . وهناك أرسل رسله إلى
جرجوريوس يدعو إلى خصال ثلاثة : الإسلام ، أو الجزية أو القتال^(٤) ،
وهي عادة اتبعها الفاتحون العرب في كل فتوحاتهم . فلما رفض جرجوريوس
ما عرضه عليه عبد الله بن سعد ، بدأت الاشتباكات بين الطرفين ، وتهاوى
القوم للقتال ، « وعبأ الناس عبد الله بن سعد ميمنة وميسرة وقلبا ، وسار
بأصحابه^(٥) » خلف جيوش الروم ، وكان جرجوريوس قد حصن سيطة

(١) حيف مؤنس ، فتح العرب للغرب ، ص ٨٧ .

(٢) المالكي ، ص ١٢ .

(٣) حيف مؤنس ، ص ٨٦ ، ملحوظة رقم ٢ .

(٤) المالكي ، ص ١٠ .

(٥) المالكي ، ص ١١ .

بسلسلة من الحصون والقلاع ، واختار جريجوريوس حصن عقوبة ، ويقع قريبا من سبطلة ليكون ميدانا للمعركة بينه وبين العرب .

ويبدو أن جيش الروم تضخم بمن انضم اليه من الروم والبربر المواليين لهم ، من العاصمة ومن الحصون القريبة من سبطلة (١) . وظهر جيش العرب ضئيلا بالنسبة لجيش الروم ، وخاف عبد الله بن سعد أن يلقي العرب ، وهم فئة قليلة جيوش الروم والأفارقة مجتمعة ، فعظم عليه الأمر ، ولعله أرسل في هذه الآونة مروان بن الحكم إلى عثمان ليستمده . وهنا تصور الروايات العربية شدة ما أصابه من غم وضيق ، واختلاف المسلمين عليه في الرأي ، وانزوائه في فسطاطه مفكرا .

٢ - كان جريجوريوس يخاف أن يشتبك مع العرب في موقعة فاصلة ، فتدور عليه الدائرة (٢) ، فقد كانت أنباء انتصاراتهم في الشام ومصر والعراق وبرقة قد وصلته ، ولذلك اقتصر القتال باديء ذي بدء على اشتباكات فاترة . وكان جيش الروم ينقسم إلى كراديس ، واختار جريجوريوس لنفسه موضعا مرتفعا نائيا عن جنوده يشرف منه على القتال . واستغرقت المناوشات أياما كان القتال يمتد أثناءها من الصباح حتى الظهر . ويبدو أن جيوش الروم كانت متفوقة على جيوش المسلمين . مما دعا ابن الزبير إلى التفكير في طريقة تكفل النصر للمسلمين ، فاتفق مع عبد الله بن سعد على أن يباغت

(١) يروى المالكي عن أبي عثمان سعيد بن عفير ، أن الروم والأفارقة ، لما سموا بوصول عبد الله بن سعد إلى إفريقية خرجوا إليه ومهم جريد في جمع كثير من الروم (رياض النفوس ، ص ١١)

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٠

عبد الله بن الزبير الروم بالهجوم بعد انتهاء القتال اليومي، عندما يكون التعب والجهد قد أخذ منهم مأخذا عظيما (١)، ونجحت الخطة نجاحا لم يكن في الحسبان، واخترق عبد الله بن الزبير وأصحابه معسكر الروم، وهم متعبون، لا يتوقعون القتال، واستطاع أن يصل في يسر إلى مخيم البطريق، وتمكن أخيرا من قتله، وانهزم الروم بعد مصرع ملكهم هزيمة نكراء، وسبقتهم خيول المسلمين إلى باب الحصن، فحالوا بينهم وبين دخوله، وأذرع فيهم المسلمون قتلا (٢)، واستولوا على حصن عقوة.

٣ - زحف عبد الله بن سعد إلى سيطلة بعد ذلك، فحاصرها حصارا محكما وتمكن من الاستيلاء عليها، وغنم فيها غنائم كثيرة. وأراد أن يستغل هذا الانتصار الكبير في الاستيلاء على قرطاجنة، « فبث جيوشه في البلاد فلبت قنصة، فسبوا وغنموا، وسير عسكرا إلى حصن الاعم (٣)، وقد احتسب به أهل البلاد فحاصره، وفتح على الامان (٤) ». فلما رأى رؤساء المدن في إفريقية ذلك طلبوا من عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار من ذهب على أن يكف عنهم ويعود من حيث أتى، ففعل (٥)، وتأهب للعودة إلى مصر، دون أن يتخذ بالمغرب قيوانا، ويستغل هذا النصر العظيم في

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ١٠ ص ٤٣.

(٢) المالكي، ص ١٢.

(٣) هو حصن منيع من أعظم حصون إفريقية، ويقع جنوبي مدينة القيروان، وكان يعرف في العصر البيزنطي باسم Thyodoras (حسين مؤنر، ص ٩٧ ملحوظة ٤).

(٤) ابن الأثير، ج ٣ ص ٤٤ - الاستعصا، ج ١ ص ٢٦.

(٥) البلاذري، ص ٢٦٨.

إقامة قاعدة للمسلمين في إفريقية (١) وكانت قد وصلته أنباء بقيام الروم في السالح والحصون الشمالية بالتجمع لقصد (٢)، فخاف أن يشترك معهم في قتال ينتهي بهزيمته، خاصة وأنه كان قد فقد عددا كبيرا من عسكره في معركة سيطة، يضاف إلى ذلك أن غيبته عن مصر، مقر ولايته، كانت قد طالت إلى ١٥ شهرا، وكان لابد له من العودة للنظر في شؤون ولايته من جهة، وللقيام على مظاهر الاضطراب الناشئة من سخط المسلمين على سياسة الخليفة عامة من جهة ثانية، ثم إن جيش المسلمين كان قد جمع من الفئات الكثيرة ما جعل الجند يحرصون على العودة بها إلى مصر. هذه الدوافع حركت عبد الله بن سعد إلى التفكير في العودة إلى مصر، فكتب إلى نائبه في مصر عقبة بن عامر الجهني، يأمره بأن يرسل إليه طرابلس مرابك في البحر لتحمل غنائم المسلمين، وسار هو وجيشه إلى طرابلس حيث وافته السفن بها (٣).

ويعلق الدكتور حسين مؤسر على موقعه سيطة بأنهم لم تفتح أمام العرب كل سهل تونس، بل جزءا منه ودأ منه سده الخط الممتد من سيطة نفسها إلى سوسة من الشمال، ثم من طلة إلى قنصة جهة الشرق، وشربط

(١) وفي ذلك يقول البلاذري: « لما صالح عبد الله بن سعد بطريق إفريقية رجع إلى مصر، ولم يول على إفريقية أحدا، ولم يكن لها يومئذ قبروان ولا مصر جامع » (تاريخ البلدان، ص ٢٦٨).

(٢) للمسلمين، ص ١٧ - Julien, Histoire de l' Afrique du Nord, depuis la conquête arabe, Paris, 1952, p. 14.

(٣) للمسلمين، ص ١٠.

ساحلى ضيق فيما بين قابس وشط الجريرد فى الجنوب (١) . ومع ذلك فان غزوة عبد الله بن سعد كانت تجربة مفيدة للعرب ، إذ أوقعتهم على حالة هذه البلاد ، وعلى مدى أهميتها بالنسبة لهم ، وسنرى أن جهود عبد الله بن سعد ستعقبها جهود موفقة أخرى .

ج - حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ م) :

ما كاد الطريق جرب بحوريوس يقتل فى سبيلته حتى أقام الأفارقة على أنفسهم بطريقا جديدا يقوم بشؤونهم ويسميه العرب حبا حبة (٢) ، وهو الذى عقد معه عبد الله بن سعد معاهدة الصلح (٣) . ولم يعاود العرب الاغارة على إفريقية ، ولم يبدوا اعتمادا بشؤون المغرب على الإطلاق منذ سنة ٢٨ هـ التى عقد فيها الصلح بين العرب والأفارقة ، حتى سنة ٣٨ هـ ، وهى السنة التى تولى فيها عمرو بن العاص ولاية مصر من قبل معاوية بن أبى سفيان ، ذلك أنهم شغلوا بفتنة الأمصار التى أسفرت عن مقتل الخليفة عثمان ، ونشوب النزاع بين الأمويين والملوئين ، وهو النزاع الذى انتهى بمقتل على بن أبى طالب وقيام الدولة الأموية .

وكان عمرو بن العاص ما يزال يضع فتح إفريقية على رأس جدول

(١) فتح العرب للمغرب، ص ٩٩

(٢) ابن عسارى، ج ١، ص ١٦٠ - ١٧٠ . وبسبه النوبرى باسم حناحه (عن حسين مؤنس ، ص ١١٤ ، ملحوظة ٢) . وبسبه اندريه جوليان جناديوس (Gennadius Julien, op. cit. p. 15.)

(٣) البلاذرى، ص ٢٦٨ .

أعماله ، وكانت المفاسم الكثيرة والمكاسب الوفيرة التي أسقرت عنها حملة عبد الله بن سعد ، طاملا هاما في تحريك مطامع عمرو في المغرب من جديد ، ودفعه إلى غزو هذه البلاد للمرة الثانية . غير أن الصراع القائم بين علي ومعاوية ، ومشكلات التحكيم ، شغله عن إعداد حملة منظمة لهذا الغرض ، فلما استقر الأمر لمعاوية على الخلافة ، بعد تنازل الحسن له عنها في أواخر ربيع الأول سنة ٤١ هـ ، استأنف عمرو غزواته السابقة على برقة وطرابلس ، فكان يبعث إليها جندا يقيمون من أراضيها ما شاء لهم ذلك ، ويعودون من حيث أتوا ، دون أن يشتبكوا مع الروم في مواقع حاسمة . فقد ذكر ابن الأثير أن عمرو استعمل في سنة ٤١ هـ « عقبه بن نافع بن عبد قيس وهو ابن خالة عمرو ، على أفريقية ، فانتهى إلى لوانة ومزانة فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، وقتل وسي ، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس فقتل وسي ، وفتح في سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ، وافتتح ودان ، وهي من برقة »^(١) . ويؤيد ذلك ما ذكره ابن عذاري إذ يقول : « (وى سنة ٤٣ هـ) غزا عقبه بن نافع أفريقية »^(٢) . قال غريب في مختصره للطبرى : فيها غزا عقبه بن نافع المغرب ، وافتتح غدامس ، فقتل فيها وسي ، ويشير ابن تغرى بردى كذلك إلى افتتاح عقبه بن نافع في سنة ٤٣ هـ كورا من بلاد السودان ودان من برقة (٣) .

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ١ ، ص ٢١٢

(٢) ابن عذاري ، ص ١٥

(٣) أبو المحاسن بن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٢٩ م ١٢٤

وكان معاوية بن أبي سفيان يرى أن اهتمام عمرو بشؤون المغرب يخفى وراءه طمعا في غنائمها ، وكان يتطلع هو إلى هذه المغام ، فلما توفي عمرو ابن العاص سنة ٤٣هـ (٦٦٤م) فصل معاوية ولاية إفريقية عن مصر ، واعتبرها ولاية مستقلة تتبع دمشق مباشرة ، وبولى هو عليها من شاء من رجاله . فأقام على مصر عقبة بن عامر الجهني ، بعد أن عزل عبد الله بن عمرو عنها ، ثم ولى معاوية بن حـديج التجيبي رئيس حزب العثمانية في مصر على قيادة الجيوش في إفريقية ، مكافأة له على خدماته التي أداها لبني أمية ، وتجاهل بذلك عقبة بن نافع الثوري الذي كان ما يزال يقوم بالغزو في نواحي برقة والواحات .

وكانت إفريقية في تلك الأثناء تحتاز مرحلة من القوضى والاضطرابات، فقد غضب الامبراطور البيزنطي كونسطنز الثاني عندما بلغته أنباء الصلح بين العرب والأفارقة ، والجزية التي يدفعها هؤلاء للعرب ، فأرسل إليهم بطريقا من قبله يقال له أوليمة^(١) (ولعله أوليموس) ليطلب أهل إفريقية بأن يقدموا إليه ثلاثة مائة قنطار من الذهب على نحو ما فعلوه مع عبد الله ابن سعد . فزل أوليمة قرطاجنة ، وخاطبهم في ذلك ، فأبوا عليه ، وقالوا : « إن الذي كان بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا من العرب ، وأما الملك فهو سيدنا ، فيأخذ عادته منا »^(٢) . ونتيجة لذلك أمر البطريق الجديد أوليمة بأبعاد حباجة من إفريقية . وتمكن بعد فترة طويلة من طرده من البلاد .

(١) ابن عسار ، ج ١ ص ١٧

(٢) نفس المرجع .

فسار إلى معاوية بن أبي سفيان في الشام ، فوصف له سوء حال البلاد ، وسأله أن يبعث معه جيشا إلى المغرب^(١) . ويذكر ابن الأثير أن معاوية استجاب لرجائه ، فسير معه معاوية بن حديج السكوني ، فلما وصلوا إلى الاسكندرية ، توفي حياجة ، ومضى ابن حديج في طريقه إلى إفريقية ، فوصلها وهي نار تضطرم^(٢) ، فان سكان إفريقية لم يسكتوا على تصرف أوليمة وجوره ، فثاروا عليه ، وقدموا على أنفسهم رجلا يعرف باسم الاطريون^(٣) . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن نزاعا شديدا بين البيزنطيين وأهل إفريقية كان يشير أنبلاد ، ويقسم أهلها شيعا وأحزابا ، وأن الامبراطور قسطنطين الثاني أراد أن يرغم هؤلاء السكان على أن يقدموا له قدرا من المال يماثل ما قدموه للعرب ، فقد كانت ظروف الدولة المالية في غاية السوء في هذه الآونة ، وأنها أرهقت صقلية وسردانية وكلا برية بالضرائب ، ويخرج الدكتور مؤنس من ذلك بأن أهل إفريقية وجدوا في العرب منقذا لهم مما كانوا يلاقونه من نير الروم^(٤) . وقد أدى النزاع القائم في إفريقية بين الأهالي والحكومة البيزنطية إلى قيام الافارقة بطرد عامل الامبراطور فصاد إلى بلاده^(٥) .

خرج معاوية بن حديج في جيش كثيف عدته عشرة آلاف مقاتل ،

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ - ابن عذاري ، ص ١٧

(٣) ابن عذاري ، ص ١٧

(٤) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١١٥

(٥) نفس المرجع ، ص ١٢٠

من بينهم الأمير عبد الملك بن مروان ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ،
ويحيى بن الحكم بن العاص ، والأكدر بن حمام اللخمي ، وكريب بن أبرهة
ابن الصباح ، وخالد بن ثابت الثقفي ، وأشرف من جند مصر (١) . ويختلف
مؤرخو العرب في تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية ، فابن عبد الحكم
يذكر نصبا نقله عن عبد الملك بن مسلمة ، عن ابن لهيعة ، عن يزيد بن حبيب ،
أن معاوية بن حديج غزا إفريقية ثلاث مرات ، الأولى سنة ٥٣٤ هـ ، وهي
غزوة لا يعرفها كثير من الناس ، والثانية سنة ٥٤٤ هـ ، والثالثة سنة ٥٥٥ هـ (٢) .
وقد جراه في ذلك المالكي ، وإن كان قد ذكر غزوتين لمعاوية بن حديج
بدلا من ثلاث (٣) ، وأبو العرب تميم في طبقات علماء إفريقية (٤) ، وابن
أبي دینار القيرواني في المؤنس (٥) ، وابن عذارى المراكشي (٦) . ولكن
ابن عبد الحكم يجمع كل أعمال معاوية بن حديج في إفريقية في غزوة سنة
٥٣٤ هـ (٧) ، ويجاريه ابن خلدون في ذلك ، مع إضافة أن ذلك حدث في خلافة
معاوية (٨) . أما عبيد الله بن صالح فيذكر نقلا عن أبي عمر بن عبد البر في
الاستيعاب ، أن عقبة بن نافع هو الذي غزا لوانة في سنة ٥٤٩ هـ ، وفتح غدامس

(١) المالكي ، ص ١٨ - ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠

(٣) المالكي ، ص ١٩

(٤) أبو العرب تميم ، طبقات علماء إفريقية ، طبعة ابن شب ، الجزائر ، ١٩١٥ - ١٩٢٠

(٥) ابن أبي دينار القيرواني ، المؤنس ، ص ٣٤

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٤ - ١٦

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ٥٩

(٨) ابن خلدون ، كتاب البر

في سنة ٥٤٢هـ ، وافتتح كورا من كور السودان في سنة ٥٤٣هـ ، واختط القيروان وأقام بها ثلاث سنين إلى أن عزله معاوية سنة ٥٥١هـ^(١) ، ولا يشير إلى شيء من غزوات ابن حديج . وهناك من المؤرخين من يجعل غزوات معاوية بن حديج في سنة ٥٤٥هـ (المالكي ، وابن عذارى) ، أما البكري فيجعلها في سنة ٥٤٩هـ^(٢) :

وإذا بحثنا في أي هذه التواريخ أجدر بالثقة ، وجدنا أنه لا يعقل أن يقوم ابن حديج بغزو إفريقية في سنة ٥٣٤هـ ، وفئة الأمصار التي أطاحت بخلافة عثمان على أشدها ، ولا يعقل أيضا أن يقوم ابن حديج بكل ما قام به من أعمال غزوية في سنة واحدة ، ثم يعود إلى مصر في سنة ٥٣٥هـ ، لكي يزعم حزب العثمانية في مصر ، ويطالب بدم عثمان . ونستبعد أيضا قيام ابن حديج بغزو المغرب في سنتي ٤٠ ، ٤١هـ ، فقد كان عمرو بن العاص ما يزال حاملا على مصر ، ولم يرد قط في المصادر العربية ما يشير إلى أنه أرسل معاوية ابن حديج إلى المغرب .

وأما رواية عبيد الله بن صالح ، فقد فندها الدكتور مؤنس ، وعزا هذه الرواية إلى حدوث خلط في رواية عبيد الله بن صالح ، في سرد أعمال عقبة بن نافع من دخوله إلى إفريقية مع عمرو بن العاص إلى عزله عن الولاية الأولى ، وأنه لا يمكن بأي حال من الأحوال الأخذ برواية عبيد الله ابن صالح ، القائلة بأن عقبة اختط القيروان في سنة ٥٤٣هـ ، لأن الثابت أنه

(١) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٢) البكري ، المغرب ، ص ٣٤ ، ٣٥

بناها في ولايته الاولى لإفريقية سنة ٥٥٠هـ^(١). والواقع أن عبيد الله بن صالح لم يخطط بين أعمال عقبة في ولايته على إفريقية وأعماله وهو قائد لعمر بن العاص والى مصر (في المرة الثانية) ، فان ما ذكره عبيد الله لا يتجاوز عن كونه نصا نقله عن أبي عمر بن عبد البر ، وذكر فيه أعمال عقبة فيما بين عامي ٤١ ، ٤٣ . أما عن بنائه لمدينة القيروان سنة ٤٣ فلم يرد إطلاقا في النص المذكور ، وكل ما في الأمر أنه أشار إلى بناء القيروان على يدى عقبة وبقائه فيها ثلاث سنوات حتى عزل سنة ٥٥١ ، ومعنى ذلك أنه اختط القيروان سنة ٥٤٨ وليس في ٥٤٣ كما يزعم الدكتور مؤنس .

ومما يؤكد هذا الرأي ما ذكره ابن الأثير في حوادث سنة ٥٤١ ، إذ يقول : « وفي هذه السنة استعمل عمرو بن العاص عقبة بن نافع بن عبد قيس ، وهو ابن خالة عمرو على إفريقية فاتمى إلى لوانة ومزانة ، فأطاعوا ثم كفروا ، فغزاهم من سنته ، فقتل وسبى ، ثم افتتح في سنة اثنتين وأربعين غدامس ، فقتل وسبى ، وفتح في سنة ثلاث وأربعين كورا من كور السودان ، وافتتح ودان وهى من برقة^(٢) » . وكذلك أشار المقرئ في الخطط أن « عمرو عقد لشريك بن سمي على غزو لوانة من البربر ، فغزاهم سنة أربعين ، وصالحهم ، ثم انتقضوا ، فبعث إليهم عقبة بن نافع في سنة إحدى وأربعين ، فغزاهم حتى هزمهم ، وعقد لعقبة أيضا على غزو هواراة ، وعقد لشريك بن سمي على غزوة لبدة ، فغزواها في سنة ثلاثة وأربعين

(١) تطبيق الدكتور مؤنس على نس عبيد الله ، ص ٢٣٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٢١٢

فقلا^(١) . ولعل المقرئ يرى نقل ذلك عن الكندي الذي أورد نفس النص^(٢) .

ومن المعروف أن عقبة كان خيرا عسكريا بشؤون برقة وطرابلس في ولاية عمرو الأولى على مصر ، فعمره هو الذي أرسله لغزو فزان وزويلة سنة ٥٢٢ هـ ، وهو الذي تركه على برقة حتى غزوة عبد الله بن سعد ، وقد قضى عقبة هذه السنين الستة (٢٢ - ٥٢٨) في مغازاة الواحات الداخلية ، ثم عاد مع عبد الله بن سعد إلى مصر في سنة ٥٢٨ هـ فلما تولى عمرو بن العاص ولاية مصر للمرة الثانية في سنة ٥٣٨ هـ . (شهر ربيع الأول) ، استعان بعقبة في بعوثه وسراياه في برقة وطرابلس على النحو الذي ذكره ابن الأثير . ثم عاد عقبة إلى مصر وعمره على فراش الموت في أول شوال سنة ٤٣ (٣) .

أما غزوة معاوية بن حديج في سنة ٥٥٠ هـ فأمر مستبعد لأن والى مصر في هذه السنة هو مسلمة بن مخلد الأنصاري الذي عزل عقبة من ولاية إفريقية وقلدها لابن المهاجر دينار . وفي تاريخ سنة ٤٥٥ هـ لغزوة معاوية ابن حديج لإفريقية ، وأعتقد أنه أصبح التواريخ المذكورة ، فقد كان معاوية ابن حديج قائدا لجند مصر في ولاية عتبة بن أبي سفيان لمصر سنة ٥٤٣ هـ ، وظل في منصبه على قيادة جند مصر حتى عزله عنها مسلمة بن مخلد في سنة ٤٧٥ هـ (٤) .

(١) المقرئ ، المخطوط ، المجلد الثاني ، طبعة بيروت ، ص ٦٩

(٢) الكندي ، كتاب القضاء والولاية ، ص ٣٢

(٣) المقرئ ، المخطوط ، مجلد ٢ ، ص ٦٩

(٤) حنين مؤنس ، فتح الغرب للمغرب ، ص ١١٨

وأعتقد أن تاريخ ٤٥ هـ يتفق مع حوادث الغزو التي استمرت ما يقرب من عامين .

خرج معاوية بن حديج من مصر في سنة خمس وأربعين على رأس جيش ضخم^(١) لغزو إفريقية . وسار جيشه في نفس الاتجاه الذي سار فيه جيشا عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد من قبل ، حتى وصل إلى جنوب قرطاجنة في موضع يعرف بقمونية^(٢) أو قونية^(٣) ، وتقع في نفس الموضع الذي تقوم عليه القيروان^(٤) ، وهو نفس المكان الذي التقى فيه عبد الله بن سعد وجرجير يوس لأول مرة ، ولعلها الميناء البيزنطي المعروف باسم Caput Vada أو مدينة قودة التي ورد ذكرها في صفة المغرب والسودان ومصر للأديب^(٥) .

وكان الامبراطور البيزنطي قد بعث إلى إفريقية بطريقا يقال له نجفور (لعله تقفور) في ثلاثين ألف مقاتل^(٦) ، وذلك بعد أن علم بطرد أهالي

(١) يذكر الدكتور مؤنس أن جيش معاوية بن حديج كان يتألف من عشرة آلاف مقاتل استنادا إلى ما ذكره ياقوت . والواقع أن ياقوت لم يكن يقصد بهذا العدد جيش ابن حديج ولكنه كان يقصد عدد جنود الجيش الذي سيره معاوية بن أبي سفيان إلى عقبه بن نافع النهري عندما ولاء إفريقية سنة ٤٨ هـ (ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ٤ ، ص ٤٢٠) ويؤيد ذلك ما ذكره ابن الأثير إذ يقول : « فلما استسلم معاوية (أي عقبه بن نافع) سار عليه عشرة آلاف فارس ، فدخل إفريقية » (ابن الأثير ، ج ٣ ص ٢٢٤) .

(٢) المالكي ، ص ١٨ - ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ - السلاوي ، ج ١ ص ٧٧

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨

(٤) نفس المرجع ، ص ٥٨ - المالكي ، ص ١٨

(٥) الأديب ، صفة الثرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١٠٣

(٦) ابن الأثير ، ج ٣ ص ٤٥ - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٦

إفريقية لعامله أولمية . ونزل هؤلاء المحاربون البيزنطيون على الساحل التونسي ، وتقدموا في الداخل لمواجهة الغزو العربي . وفي قمونية التقى الجيشان : جيش ابن حديج ، وجيش نجفور ، فانهزم البيزنطيون عند أول اشتباك ، وانسحبوا إلى مدينة سوسة ، وتحصنوا داخل أسوارها ، فتقدمت جيوش ابن حديج شمالا ، وعسكرت في موضع مرتفع من جبل يعرف باسم القرن^(١) . ومن هناك سير جيشين : أحدهما بقيادة عبد الله بن الزبير ووجهته سوسة ، والثاني بقيادة عبد الملك بن مروان ووجهته حصن جلولا^(٢) . ويبدو أن معاوية بن حديج أقام في معسكره بالقرن فترة طويلة ، فقد ذكر المالكي أنه بنى بناحية القرن مساكن سماها قيروان ، واحترق هناك الآبار المعروفة باسم آبار حديج^(٣) .

ونجح عبد الله بن الزبير في مهمته نجاحا تجاوز كل تقدير في الحسبان ، وتجمع المصادر العربية على أنه افتتح سوسة ، ويذكر ابن عذارى أن عبد الله بن الزبير نزل على شرف عال ينظر منه إلى البحر ، ويبعد عن سوسة بنحو ١٢ ميلا ، فلما بلغ ذلك نجفورا أقلع في البحر منبرما من غير قتال ، فأقبل ابن الزبير حتى نزل على باب سوسة ، ووقف على البحر وصلى بالمسلمين صلاة العصر ، والروم يتعجبون من جرأته ، فأخرجوا إليه خيلا ، وابن الزبير مقبل على صلاته ، لا يهوله خبرها حتى قضى الصلاة ، ثم ركب وحمل على الروم بمن معه ، فأنكشفوا منهزمين ، ورجع ابن الزبير إلى معاوية بن حديج في القرن بعد أن افتتح سوسة^(٤) .

(١) ابن عبد الحكم ص ٥٨ - المالكي ، ص ١٨ - السلاوي ، ج ١ ص ٧٦

(٢) ابن عبد الحكم ص ٥٨ - البكري ، ص ٣٢ - ابن عذارى ج ١ ص ١٦

(٣) المالكي ، ص ١٩

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٦

أما عبد الملك بن مروان ، فقد سار إلى حصن جلولا في جيش عدته
ألفي فارس ، وقيل ألف ، لحاصره أياما فلم يصنع شيئا ، فانصرف راجعا ،
فلم يبق إلا يسيرا حتى رأى في ساقة الناس غبارا شديدا ، فظن أن العدو
قد طلبهم ، ففكر جماعة من الناس لذلك ، وبقى من بقي على مصافهم ، وتسرع
سرعان الناس ، فاذا مدينة جلولا قد وقع حائطها ، فدخلها المسلمون ، وغنموا
ما فيها ، وانصرف عبد الملك إلى معاوية بن حديج (١) . ومن المؤرخين
من ينسب فتح حصن جلولا إلى معاوية بن حديج نفسه (٢) .

مضى معاوية بن حديج بعد ذلك نحو الشمال ، فافتتح ثغر بئرت (٣) .
ويذكر البلاذري أنه غزا صقلية أيام معاوية بن أبي سفيان ، وكان أول
من غزاها (٤) . وفي موضع آخر يذكر البلاذري نقلا عن الواقدي أن
عبد الله بن قيس بن مخلد الدزقي سبي صقلية ، « فأصاب أصنام ذهب وفضة
مكحلة بالجواهر ، فبعث بها إلى معاوية ، فوجه بها معاوية إلى البصرة لتحمل
إلى الهند فتباع هناك ليثمن بها » (٥) . ويروي ابن عذارى خبر هذه الغزوة
قللا عن البلاذري مع إضافة سنة ٤٦ هـ كتاريخ لها (٦) . وكذلك ينقل عن

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ - البكري ، ص ٣٢ - ابن عذارى ، ص ١٧ - ياقوت ،
مجلد ٢ ، ص ١٥٦

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٥٨ - المالكي ، ص ١٨ - ابن عذارى ، ص ١٧

(٣) البكري ، ص ٥٨ - ياقوت ، مجلد ١ ، ص ٥٠٠ - السلاوي ، ص ٧٨

(٤) البلاذري ، قسم ١ ، ص ٢٧٨

(٥) قس المرجع

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٨

عريب في مختصره للطبرى، أن معاوية بن حديج « أغزى جيشاً في البحر إلى صقلية في مائتي مركب، فسبوا وغنموا، وأقاموا شهراً، ثم انصرفوا إلى إفريقية بغانم كثيرة، ورقيق وأصنام منظومة بالجواهر، فاقسموا فيهم^(١) ». إلا أن الدكتور حسين مؤنس يعتقد أن البلاذرى يقصد بهذه الغزوة الحملة التي بعث فيها معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج حوالي سنة ٢٧ هـ أو ٢٨ هـ، في خلافة عثمان، لغزو رودس ثم صقلية، ويرجح أن ابن عذارى أخطأ في النقل عن البلاذرى فذكر سنة ٤٦ هـ وصحتها ٢٦ هـ (٢). ويستند الدكتور مؤنس في هذا الرأي على ما ذكره أمارى من قيام معاوية بن حديج بغزو رودس وصقلية في سنة ٦٥٢ م (٣٢٢ هـ) في مائتي سفينة (٣)، كما دعا كنسطنطين الثاني إلى قتل عاصمته إلى مدينة سرقوسة بصقلية صيانة لأملاكه في إفريقية وصقلية وإيطاليا من الغزو العربي^(٤). ولا ندرى من أين استقى أمارى هذا الخبر، فالبلاذرى الذي يزعم أمارى أنه استقى منه لم يشر إلى تاريخ غزوة معاوية بن حديج لصقلية، كما أن ابن الأثير لم يشر

(١) قس المرجع ص ١٧١٦

(٢) حسين مؤنس، فتح العرب للغرب، ص ١٢٦

(٣) Amari, Storia dei Musulmani di sicilia, Catania, 1933, t. I (٢)

P. 194 — حسين مؤنس، فتح العرب للغرب، ص ١٢٥

وأنظر أيضاً : Marçais, La Barbarie musulmane et l' Orient

au moyen âge, Paris 1946, p. 64

وأنظر كذلك : أرشيبالد لويس، القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط،

ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى، القاهرة، ١٩٦٠، ص ٩١.

(٤) أرشيبالد لويس، ص ٩٤

أيضا إلى غزو صقلية في هذه السنة، وإنما ذكر أن أهل قبرص أعانوا الروم سنة ٥٣٢ هـ على الغزاة في البحر بمراكب أعطوهم إياها فزاهم معاوية سنة ثلاث وثلاثين، ففتحها عنوة فقتل وسي، ثم أقرم على صلحهم وبعث إليهم اثني عشر ألفا، فبنوا المساجد، وبنى مدينة. وقيل كانت غزوته الثانية سنة خمس وثلاثين^(١). كذلك يشير ابن الأثير إلى أن قسطنطين بن هرقل أتى إلى صقلية سنة ٥٣٥ هـ فقتله أهلها هناك^(٢). وأعتقد أن أماري خلط بين غزو قبرص سنة ٥٣٣ هـ، وغزو صقلية التي تم في سنة ٤٦ هـ. كما حدده ابن عذاري. وليس من المعقول أن يتولى المسلمون غزو صقلية سنة ٣٢ هـ بحرا في هذا التاريخ المبكر، لأن صقلية مطرفة في البحر المتوسط، ويحتاج غزوها إلى سيطرة كاملة على قسم من أراضي المغرب، يخرج منه الغزاة. وقد عرفنا أن المسلمين تركوا المغرب منذ حملة عبد الله بن سعد سنة ٢٨ هـ حتى معاودتهم غزو إفريقية من جديد في ولاية عمرو الثانية. كذلك يحتاج غزو صقلية إلى معرفة تامة بالبحر المتوسط وبثقافة بحرية واسعة، والعرب في ذلك الوقت كانوا حديثي عهد بالبحر. وإذا كان معاوية بن أبي سفيان قد غزا قبرص سنة ٢٨ هـ، فذلك لأن قبرص قريبة من ساحل الشام، ومع ذلك فقد استلزم الأمر فتحها مرة ثانية كما رأينا في سنة ٣٢ هـ أو ٣٣ هـ، ولم يتمكن المسلمون من فتح جزيرة أرواد وهي جزيرة قريبة من ساحل الشام إلا في سنة ٥٤ هـ^(٣).

(١) ابن الأثير، ج ٣، ص ٦٧

(٢) قس المرجع، ص ٩٨

(٣) البلاذري، قسم ١، ص ٢٦٨

كذلك لم يتم فتح رودس إلا في سنة ٥٢ هـ^(١).

ونضيف إلى ما سبق ذكره أن أمارى اعتمد مرة ثانية على التاريخ الذى حدده ابن عذارى لغزوة معاوية بن حديج لصقلية وهو سنة ٤٦ هـ ، فقد ذكر أن العرب أغاروا على صقلية في سنة ٦٦٩ م (٤٩ هـ)^(٢).

ونخرج من ذلك كله بترجيح التاريخ الذى حدده ابن عذارى لغزوة صقلية في سنة ٤٦ هـ ، على يدى ابن حديج ، وخروجه منها بغنائم كثيرة ، ويؤيدنا في هذا القول أن عبيد الله بن صالح يؤكد أن معاوية بن أبي سفيان عزل ابن حديج بعد أن غزا صقلية^(٣).

واختتم ابن حديج غزواته في إفريقية بارساله رويغ بن ثابت الأنصارى لفتح جزيرة جربة^(٤) . وقد تمت هذه الغزوة في سنة ٤٧ هـ ، وفقا لأبي المحاسن^(٥).

ولم يبق لابن حديج أن يستكمل فتح إفريقية ، إذ عزله معاوية بن أبي سفيان سنة ٤٨ هـ (٦٦٩ م) ، وقبيل سنة ٥٠ هـ (٦٧٠ م) ، وولى على إفريقية عقبة بن نافع القهري ، وجولية عقبة على إفريقية تبدأ المرحلة الثانية من فتح المغرب ، وهي مرحلة الفتح الثابت المنظم .

(١) نفس المرجع ، ص ٢٧٨

(٢) أرشيالد لويس ، ص ٩٦ - ٦٤ Marçais, la Berberie, p.

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٨

(٤) البكرى ، ص ١٩ - المالكي ، ص ٥٣ - ياقوت ، مجلد ٢ ، ص ١١٨

(٥) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ١٣٢

الفصل الثاني

مرحلة الفتح المنظم

(١) الفترة الأولى (٥٠ - ٨٦٤)

- أ - عقبة بن نافع قبل توليته إمارة إفريقية
- ب - تأسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح
- ج - عزل عقبة بن نافع ، وولاية أبو المهاجر دينار (٨٥٥ - ٨٦٢)
- د - ولاية عقبة بن نافع الثانية (٦٢ - ٨٦٤)

(٢) الفترة الثانية (٦٩ - ٨٩٠)

- أ - انسحاب العرب من القيروان في سنة ٨٦٤
- ب - حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان
- ج - حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخريب قرطاج
- د - حملة حسان بن النعمان الثانية
- هـ - موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب

الفصل الثاني

مرحلة الفتح المنظم

(١)

الفترة الأولى (٥٠ - ٦٤ هـ)

١ - عقبة بن نافع قبل توليته إمارة المغرب :

يعتبر عقبة بن نافع الفهري من أكابر التابعين وأفاضلهم ، فقد قيل أنه ولد قبل وفاة الرسول بعام واحد^(١) ، واشترك في فتح مصر ، ولكن لا يجوز ذلك منطقيا لأن فتح مصر بدأ سنة ١٨ هـ ، فيكون عمر عقبة في هذه الحالة تسع سنوات . وأغلب الظن أنه ولد على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) ، واشترك في حملة عمرو على مصر^(٣) ، وكان عمرو يقدر بلاده ، ويرفع منزلته ، ويثق في كفايته الحريية ، ولذلك عهد إليه بفتح الواحات الداخلية من إقليم برقة ، فنجح في افتتاح فزان وزويلة ، وأصبح ما بين برقة وزويلة ملكا للمسلمين . وقبل أن يعود عمرو بن العاص إلى مصر بعد أن افتتح سبوت ، ترك عقبة أميرا على برقة وطرابلس ، فظل عقبة مقبلا ببرقة حتى سنة ٢٨ هـ^(٤) ، عندما قابل عبد الله بن سعد عند قدومه إلى برقة في طريقه لغزو إفريقية^(٥) . ولكن عقبة لم يشترك مع عبد الله بن سعد في

(١) ابن عسار ، ج ١ ص ١٩

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج ٣ ص ٢٢٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢٢٠ مادة القيروان .

(٣) كان عقبة ابن خالة عمرو بن العاص ، ولذلك أشركه معه في حملته على مصر .

(٤) ذكر ابن الأثير أنه كان مقبلا ببرقة منذ أن ولاه عمرو بن العاص لها (ابن الأثير ، المرجع السابق ص ٢٢٠ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة القيروان ، ج ٤ ص ٢٢٠) .

(٥) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٣ ص ٤٣

حلته على إفريقية ، وآثر البقاء في برقة ليراقب أهالي هذه البلاد ، ويؤمن مؤخرة جيش المسلمين من أى هجوم يقوم به الروم أو الافارقة . ولا شك أن عقبة اكتسب خلال هذه السنين الستة التي قضاها منذ حملته الاولى مع عمرو حتى قدوم عبد الله بن سعد ، خبرات إفريقية واسعة ، نتجت عن تجاربه الكثيرة في محاربة البربر ، واحتكاكه بسكان البلاد . وكان طبيعيا أن يحيط بنواحي البلاد ، ويلم بطبيعة أهلها ، كما كان طبيعيا أن تنمو مواهبه العسكرية ، لكثرة ما أحرزه من انتصارات ، وتزداد بذلك هيئته عند الأهالي . وكان لذلك أثره الكبير في بقاء برقة على ولائها للعرب ، في الفترات الطويلة التي كان ينقطع فيها غزو العرب لبلاد المغرب (من ٥٢٣ إلى ٥٢٨ ، ومن ٥٢٩ إلى ٥٤٥) . وقد كسب الإسلام والعروبة بمجهود عقبة مكسبا كبيرا ، فقد كان عقبة قوى الإيمان بدينه ، شديد الحماس لنشره ، لا يجد في حياته سعادة تعادل سعادة الجهاد في سبيل الله . وفي سبيل نصرته دينه . وقد كان لذلك أعمق الأثر في فتح برقة ، إذ لم يكن فتحا حريا فحسب ، بل كان فتحا دينيا ، انتقل سكان هذا الإقليم على أثره إلى الاسلام والعروبة ، واستطاع عقبة بفضل زهده عن الدنيا ، وسعيه على الاستشهاد في سبيل الله ، أن يكون لنفسه أسطورة دينية عاشت منذ الفتح العربي لهذه البلاد ، حتى العصر الحاضر .

وعندما عاد عقبة إلى مصر في أعقاب حملة عبد الله بن سعد ، نجده يعتزل الحياة السياسية ، ولا يشترك في معصية الفتنة التي عصفت ريمها العاتية بالدولة العربية الإسلامية في خلافة عثمان بن عفان ، وانتهت أخيرا بمقتله ، ولكنه ما يلبث أن يستأنف الجهاد في صحراء برقة وطرابلس عندما

يتولى عمرو بن العاص مصر للمرة الثانية ، د فاتهى إلى لوانة ومزاةة في سنة ٤١٩ هـ ، وافتتح غدامس في سنة ٤٢٢ هـ ، وافتتح مواضع من بلاد السودان وودان من حيز برقة في سنة ٤٣٣ هـ ^(١) . ثم عاد عقبة بن نافع بعد ذلك إلى مصر ، فشهد وفاة عمرو بن العاص ، ويبدو أنه عاد إلى برقة بعد وفاة عمرو ، ولكنه لم يشترك اشتراكا فعليا في حملة ابن حديج ، وأغلب الظن أنه أقام ببرقة اتقى اتخذها مركزا له ، بدليل أن ابن الأثير يذكر أن عقبة كان مقبلا ببرقة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ^(٢) . ويذكر أبو الفداء أن برقة وزويلة كانتا مقر الولاية ^(٣) . ويذهب ابن عبد الحكم والبكري إلى أنه خرج إلى المغرب بعد معاوية بن حديج سنة ستة وأربعين ، د ومعه بسر بن أبي أرطاة ، وشريك بن سمى المرادى . فأقبل حتى نزل بمغمداش من سرت (خريطة رقم ٥) ، وكان توجه بسر إليها كما حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد سنة ست وعشرين من سرت ، فأدركه الشتاء ، وكان مضعفا ، وبلغه أن أهل ودان قد نقضوا عهدهم ، ومنعوا ما كان بسر ابن أبي أرطاة فرض عليهم ، وكان عمرو بن العاص قد بعث إليها بسرا قبل ذلك وهو محاصر لأهل إطرابلس ، فافتتحها . فخلف عقبة بن نافع جيشه هنالك ، واستخلف عليهم عمرو بن على القرشى وزهير بن قيس البلوى ، ثم سار بنفسه وبمن خف معه أربع مائة فارس ، وأربعمائة بعير ، وثمانى مائة قريبة حتى قدم ودان ، فافتتحها ، وأخذ ملكهم لجذع أذنه فقال : لم فعلت

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ص ٢١٢ — أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٢٠ —

ابن عذارى ج ١ ص ١٥ — أبو الحسن ، ج ١ ص ١٢٥ — الخطط ، ج ٢ ص ٦٩

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤

(٣) أبو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، طبعة بيروت ، ١٩٥٦ ، ج ٢ ص ١٠١

هذا بي وقد عاهدتني؟ فقال عقبة : فعلت هذا بك أدبا لك ، إذا مسست أذنك ذكرته ، فلم تحارب العرب . واستخرج منهم ما كان بسر فرضه عليهم ثمانية وستين رأسا . ثم سألهم عقبة ، هل من وراءكم أحد ، فقيل له : جرمة ، وهي مدينة فزان العظمى ، فسار إليها ثمانى ليال من ودان ، فلما دنا منها ، أرسل ، فدعاهم إلى الاسلام ، فأجابوا . فقتل منها على ستة أميال . وخرج ملكهم يريد عقبة ، وأرسل عقبة خيلا لحالت بين ملكهم وبين موكبهم ، فأمشوه راحلا حتى أتى عقبة ، وقد لغب ، وكان ناعما ، فجعل يصبق الدم ، فقال له : لم فعلت هذا بي وقد أتيتك طائعا ؟ فقال عقبة : أدبا لك إذا ذكرته لم تحارب العرب ، وفرض عليه ثمانية عبد وستين عبدا . ويواصل المؤرخان روايتها فيذكران أن عقبة مضى إلى قصور فزان ، فافتتحها قصرا قصرا ، ولكنه عجز عن فتح حصن خاوار ^(١) بعد حصار دام شهرا ، واتفى إلى قصور كوار ، فافتتحها ، وأدب ملكها بأن قطع له إصبعها ، وفرض عليه ٣٦٠ عبدا . ثم عاد بعد ذلك عن طريق خاوار ، فلم يتعرض للحصن ، ومضى في طريقه ، فظن أهل خاوار أنه لن يعود إليهم ، فأمنوا ، وفتحوا مدينتهم . أما عقبة فأقام بموضع صحراوي جذب ، فأصاب أصحابه العطش ، فدعا الله أن يتقدمهم ، فاستجاب الله لدعائه ، إذ تدفقت المياه من موضع كان فرسه ينقب برجليه فيه ، فسمى الموضع لذلك بماء فرس ثم باغت عقبة أهل خاوار من طريق آخر ، ودخل الحصن فاستباح ما فيه من أموال وذريات ، ثم عاد بعد ذلك إلى زويلة ، ومنها إلى معسكره بسرت ، وذلك بعد غزوة دامت خمسة أشهر . ولم يطل به المقام بسرت ، فخرج منها مغازيا ، واتجه إلى قصور مزانة ، فغزاها ، ثم افتتح غدامس ، ووجه خيله بعد ذلك إلى قفصه فافتتحها ، وافتتح

(١) يسميه صاحب الاستيعار نمر واجان .

قصطيلية. ووصل أخيرا إلى القيروان الذي كان معاوية بن حديج قد اختطه من قبل ، فلم يعجبه موضعه ، واختار لذلك موضع مدينة القيروان ^(١) .

وبعتقد الدكتور حسين مؤنس أن تاريخ هذه الغزوة دون خطئا ، فذكر المؤرخان سنة ٤٩ هـ بدلا من ٤٩ هـ . فالتاب أن القيروان أسست في سنة ٥٠ هـ ، ولا يعقل أن تستغرق غزوته هذه السنين . ويرى الدكتور مؤنس أن ابن حديج عاد إلى مصر في أوائل سنة ٤٨ هـ ، وأن عقبة شرع في السير لغزوته الكبرى في أوائل سنة ٤٩ هـ ، ففضى خمسة أشهر في الجسولة الصحراوية المذكورة ، ثم عاد إلى معسكره بسرت حيث قضى فترة كافية أراح فيها جنده وخيله ، وهناك ولاية معاوية بن أبي سفيان إمارة إفريقية : فسار من سرت متجها إلى إفريقية ، ورجع الدكتور حسين مؤنس أن عقبة « قام بحملته في الصحراء عقب عودة معاوية بن حديج من إفريقية ، وقبل تولية معاوية إياه ، وإرساله الإمداد إليه ، ولهذا عاد إلى مركزه الأول على مقربة من صرت (سرت) ، فلما وصله الأمر والمدد شرع في السير إلى الغرب ، واحل غدامس ، وربما كان هذا هو السبب في إغفال أكثر المؤرخين ذكر هذه الغزوة الداخلية ، إذ أن معظمهم بدأ تاريخ غزوة عقبة من ساعة وصول العشرة آلاف جندي إليه في أوائل سنة ٥٠ هـ ^(٢) . ونحن نؤيد الدكتور مؤنس في رأيه ، فان معظم المصادر العربية تذكر أن عقبة ولي إمارة إفريقية في سنة ٥٠ هـ ^(٣) ، ويعتمد ابن الأثير على مصادر مغربية في ذكر هذا التاريخ

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٠ - ٦٤ ، البكري ، ص ١٣ ، ١٤ - لالكي ، ص ٦٣ - الاستبصار ، ص ١٤٦

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للغرب ص ١٣٨

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤ - أبو الدرداء ، المختصر في أخبار البعر ،

ج ٢ ص ١٠١ - ابن عذاري ، ج ١ ص ١٩ - السلاوي ، ج ١ ص ٧٨

فيقول : « والذي ذكره أهل التاريخ من المغاربة أن ولاية عقبة بن نافع إفريقية كانت هذه السنة ، وبني القيروان ، ثم بقي إلى سنة خمس وخمسين ووليها مسلمة بن مخلد ، وهم أخير يبلادهم ، وأنا أذكر ما أثبتوه في كتبهم ، قالوا إن معاوية بن أبي سفيان عزل معاوية بن حديج عن إفريقية حسب واستعمل ، واستعمل عليها عقبة بن نافع الفهري ، وكان مقياً بركة وزويلة منذ فتحها أيام عمرو بن العاص ، وله في تلك البلاد جهاد وفتوح ، فلما استعمله معاوية سير إليه عشرة آلاف فارس ، فدخل إفريقية ، وانضاف إليه من أسلم من البربر ، فكثر جمعه ، ووضع النيف في أهل البلاد ، لأنهم كانوا إذا دخل عليهم أمير أطاعوا ، وأظهر بعضهم الاسلام ، فاذا عاد الأمير عنهم ، نكتوا ، وارتد من أسلم . » (١) .

ويروى ابن عذارى نصاً مماثلاً نقله عن إبراهيم بن القاسم فيقول : « ووصل عقبة بن نافع الفهري إلى إفريقية في عشرة آلاف من المسلمين ، فافتتحها ، ودخلها ووضع السيف في أهلها ، فأفنى من بها من النصاري ، ثم قال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الاسلام ، فاذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تصخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام إلى آخر الدهر » (٢) .

ويبدو أن استعمال عقبة على المغرب لم يتم مباشرة بعد غزواته الصحراوية ،

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ - ياقوت ، معجم البلدان ، مجلد ١١

(٢) ابن عذارى ، ص ١٩

فقد ذكر المؤرخون أنه غزا بأهل مصر الروم في البحر سنة ٤٤٩هـ (١)، وليس لدينا أية تفصيلات تاريخية أخرى عن ذلك ، وأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك بسرت فرقة من جيش مصر لتدعم النفوذ العربي في أرض طرابلس وإفريقية ، وربما استخدمهم عقبة بن نافع معه في هذه الشاتية البحرية ، وقد يكون اشترك في هذه الشاتية جماعة من التابعين أمثال أبو عقيل زهرة بن معبد التيمي ، وأبو عبد الرحمن الحبلي، وإسماعيل ابن عبيد الله ، وأبو ليلى دجين بن عامر الحجري الذي شهد حروب عقبة كلها في إفريقية والمغرب ، فإن المالكى يذكر أن أبا عقيل زهرة «دخل إفريقية وأقام بها، وغزا برها وبحرها مع إسماعيل بن عبيد الله أمير إفريقية، وكان معه في غزو إفريقية في البحر أبو عبد الرحمن الحبلي التابعي (٢)».

ب - قاسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح :

سار عقبة على رأس جيش كبير بتألف من :

١ - فرقة التي غزا بها فزان و كوار ، وتألف من ٤٠٠ فارس .

٢ - الجيش الم رابط بمدينة سرت برقة .

٣ - المدد الذي أرسله معاوية إليه ، وقوامه عشرة آلاف من الفرسان.

٤ - جماعة البربر الذين اعتنقوا الاسلام منذ أن فتح عمرو برقة سنة ٥٢٢هـ ،

وحسن اسلامهم .

وقد أشرنا إلى رواية ابن عبد الحكم والبكري التي توضح لنا خط سير

جيشه إلى إفريقية ، يقول ابن عبد الحكم : « سار متوجها إلى المغرب ،

(١) ابن الأثير ج ٢ ص ٢٤١ - ابن عذاري ص ١٩ - ابن خري بردي ، ج ٩

ص ١٣٨

(٢) المالكى ، ص ٩٠

وجانب الطريق الاعظم ، واخذ إلى أرض مزاته ، فافتتح كل قصر بها ، ثم مضى إلى صفر (١) ، فافتتح قلاعها وقصورها ، ثم بعث خيلا إلى غدامس ، فلما انصرفت إليه خيله سار إلى قنصة فافتتحها ، وافتتح قصطيلية (٢) .

ونخرج من هذا النص بالحقيقة التالية : أن عقبة تجنب السير في الجادة الرومانية ، وهى الطريق الساحلية التى تربط سرت بقابس ، إما لكثرة الحصون والمخارس فى هذه المنطقة الساحلية ، وقد عددها من قبل ، وإما لأنه أراد أن يباغت أهل إفريقية باقتحامه بلادهم قادما من داخل الصحراء ، قبل أن يكونوا قد تهيأوا بعد لدفعه ومقاومته ، إذ أن أخبار حملته عندما يسلك الطريق الصحراوية لا يمكن أن تصل إلى أهل إفريقية بمثل سرعة وصولها إليهم لو سلك الطريق الساحلية . وأعتقد أن السبب الثانى هو الذى دفع عقبة إلى التزام الطريق الداخلية ، فقد ذكر المؤرخون أنه وضع السيف فى أهل إفريقية ، « فأفنى من بها من النصارى » (٣) .

لاحظ عقبة أن أهل إفريقية يدخلون فى طاعة العرب ، وربما دخل منهم البعض فى الإسلام ، طالما بقى العرب فى بلادهم ، فإذا انصرف العرب عن البلاد ، شق أهاالى إفريقية عليهم عصا الطاعة ، وارتد من دخل منهم فى الإسلام إلى النصرانية . وكانت برقة وزويلة قاعدة الفتح العربى للمغرب حتى ذلك الحين ، ولكنها كانتا متطرفتين للغاية عن إفريقية مما كان يساعد

(١) لها شبر من أرض ودان (انظر الإدريسى ، ص ٤١)

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ - الاستبصار ، ص ١٤٧ . تضم بلاد قصطيلية مدين
توزروتنطة وتيتوس والحامة .

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٩

أهل إفريقية على خروجهم على العرب ، في كل مرة ينتهي العرب من الاغارة عليها . فرأى عقبة أنه لفتح هذه البلاد يتحتم على العرب إنشاء قاعدة عربية إسلامية في إفريقية ، « يكون بها عسكر المسلمين وأهلهم وأموالهم ، ليأمنوا من ثورة تكون من أهل البلاد » ^(١) . ويذكر ابن عذارى أن عقبة خطب في عسكره فقال : « إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الاسلام فاذا خرج منها رجس من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم بامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للاسلام إلى آخر الدهر . فاتفق الناس على ذلك ، وأن يكون أهلها مرابطين » ^(٢) .

ولم يكن عقبة أول من فكر في بناء قاعدة للمسلمين في إفريقية ، فقد ذكر ابن الأثير أن معاوية بن حديج كان « قد اختط القيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن ، فلما رآه عقبة بن نافع لم يعجبه » ^(٣) . وذكر المالكي في رياض النفوس أنه « اختط مدينة عند القرن قبل تأسيس عقبة للقيروان ، وأقام بها مدة إقامته بإفريقية ، وحفر آبارا عند باب تونس في ناحية الجبل منه منحرفة للشرق ، بالقرب من مصلى الجنائز ، تسمى للآن آبار حديج ، غلب عليها اسم أبيه ، وذلك قبل تأسيس القيروان » ^(٤) .

ويبدو أن عدول عقبة عن اتخاذ قيروان ابن حديج قاعدة المسلمين يرجع إلى أنها قريبة من البحر ، أو لأنها في موضع غير مسكون ولا

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣١

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٩

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ - ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ص ٤٣٩

(٤) المالكي ، ص ٦٠

معمور^(١) ، ولعل ابن حنبل اختار هذا القبر لأن يكون قريبا من البحر حتى يقيس له وللمسلمين الجهاد والرباط ، وقد رأينا أنه غزا صقلية في سنة ٨٤٦ هـ ، أما عقبة فقد كان له رأى آخر ، فقد أثر أن تكون قاعدة المسلمين في إفريقية مدينة برية ، إذ كان يخشى أن يطرقها الروم بالأطيل فجاء فتعرض للغزو بسهولة ، بينما يستطيع المسلمون التأهب لدافعة الغزاة لو كانت قاعدتهم داخلية . وفي ذلك يذكر ابن عذارى أن أصحاب عقبة اقترحوا عليه أن يصعدوا مدينتهم قريبة من البحر ليتم لهم الجهاد والرباط ، فرد عليهم قائلاً : « إني أخاف أن يطرقها صاحب القسطنطينية بغتة ، فيملكها ، ولكن اجعلوا بينها وبين البحر مالا يدر كها صاحب البحر إلا وقد علم به ، وإذا كان بينها وبين البحر مالا يوجب فيه التقصير للصلاة فهم مرابطون »^(٢) . وبالإضافة إلى هذا الموقع الداخلي الذي تتميز به قبروان عقبة ، فقد كانت تقع أيضا قريبا من السبخة لتتمكن الابل والدواب من الرعى بسهولة ، وتكون في مأمن من عادية البربر والنصارى^(٣) . وهكذا كان موقع القبروان ممتازا بعده عن البحر ، فلا تتعرض لغزو يقوم به الروم من جهة البحر ، كما تمتاز بكثرة مراعيها ، وهما صفتان لا بد من توافرها في بناء المدن ، وفي ذلك يقول ابن خلدون في مقدمته : « إعلم أن المدفن قرار تتخذ الأم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودوايعه ، فتؤثر المدعة والسكون ، وتتوجه إلى اتخاذ المنازل للقرار ، ولما كان ذلك القرار والمأوى ، وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها ، وجلب

(١) نفس المرجع ، ص ١٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ١٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠

المنافع ونسبيل المرافق لها : فأما الحماية من المضار فيراعى لها أن يدار على منازلها جميعا شياح الأسوار ، وأن يكون وضع ذلك في ممتنع من الأمكنة ، إما على هضبة متوعدة من الجبل ، وإما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ، ويتضاعف امتناعها وحصنها ... وأما جلب المنافع والمرافق للبلد ، فيراعى فيه أمور منها الماء بأن يكون البلد على نهر أو بازائها عيون عذبة نرة ، فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهى ضرورية ... ومما يراعى من المرافق في المدن طيب المرافق لسائمتهم إذ صاحب كل قرار لابد له من دوجن الحيوان للتاج والضرع والركوب ولابد لها من المرعى ^(١) . ويبدو أن عقبة كان متأثرا في اختياره لموقع القديوان بما تعرضت له الاسكندرية سنة ٢٥ هـ من نكبات بسبب غزو البيزنطيين لها من البحر ، وكان ما يزال يتذكر الجهد الكبير الذى بذله عمرو بن العاص لاستردادها ^(٢) ، ولعله قدر ما كان يصيب البلاد المصرية لو أن الاسكندرية كانت عاصمة مصر الاسلامية كما كان يريده عمرو ، وأعتقد أن الدرس الذى تلقنه عمرو بغزو الروم للاسكندرية وندمه على تركه سورها عند الفتح دون أن يهدمه قد أفاد عقبة بن نافع كثيرا ، ولا نستغرب أن يكون لذلك الحادث أثر عميق في اختيار عقبة لموضع القديوان ، فقد كان عقبة أحد قواد عمرو ، ثم إنه كانت تربطه به صلات من القرابة . ولكن عقبة

(١) مقدمة ابن خلدون ، طبع المكتبة التجارية بمصر ، بدون تاريخ ، ص ٣٤٧ -

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ،

في سعيه لاختيار موضع يتوافر فيه طيب المراعى ، ويبعد في نفس الوقت عن البحر ، أغفل أمرا هاما هو الماء والازراع ، فلم يراع إلا توافر مراعى الابل ، ولذلك تعرضت القديرة عدة مرات ، في العصر الاسلامي للخراب ، ولولا صفة هذه المدينة الدينية ووجود مسجدها الجامع المعروف بالقديرة ، لكنت قد بادت واندثرت .

يذكر ابن عبد الحكم أن عقبة ركب ، « والناس معه حتى أتى موضع القديرة اليوم ، وكان واديا كثير الشجر ، كثير القطف ، تأوى إليه الوحوش والسباع والموام ، ثم نادى بأعلى صوته : يا أهل الوادى ، ارتحلوا رحمكم الله ، فانا نازلون ، نادى بذلك ثلاثة أيام ، فلم يبق من السباع شئ ، ولا الوحوش والموام إلا خرج . وأمر الناس بالتنقية والمخاطة ، ونقل الناس من الموضع الذى كان معاوية بن حديج نزله إلى مكان القديرة اليوم ، وركز رجمه وقال : هذا قديروانكم » . ثم يذكر رواية أخرى عن عبد الملك ابن مسلمة ، عن الليث بن سعد ، تماثل هذا النص مع اختلاف بسيط هو أنه نادى ثلاث مرات بدلا من ثلاثة أيام ^(١) . وقد أخذ معظم المؤرخين بهذه الرواية مع بعض التحريف ^(٢) ، باستثناء المالكي الذى يذكر أنه « كان في موضع القديرة حصن لطيف للروم يسمى قونية ، وكان فيها كنيسة ، وفيها الساربان الحمراء ، اللتان هما اليوم في المسجد الجامع ، كانت عليهما حنيتان مبيتان ، أقامتا إلى أيام زيادة الله بن الأغلب ، فهدمها زيادة الله ،

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤ ، ٦٦

(٢) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ص ٢٣٤ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٠ - ياقوت

وحملها إلى المسجد الجامع ، فجعلها في المكان الذي هما فيه اليوم » (١) .
ويعتقد الدكتور مؤنس أن رواية المالكى هي الصواب ، فمن المعقول - في
رأيه - أن يكون هذا الحصن قد تعرض للتخريب ، وأصبح في أوائل
القرن السابع الميلادى خراباً مهجوراً ، فسكنه بعض الذئاب والوحوش ،
فاختاره عقبة لبناء القيروان ، « ففزع الضواري من جلبة الجيش الذي
عسكر إلى جوارها ، فأخذت تنسرب هاربة ، فرآها العرب تفعل ذلك ،
فظنوا أنها معجزة من معجزات عقبة ، فكان ذلك موضعاً خصباً لخيال الرواة
فأضافوا خطابه للوحوش ، وصوروا الكرم هذا التصوير المبالغ فيه حتى
تم المعجزة ويصبح القيروان ما يريدونه لها من القداسة والجلال » (٢) .
ولكننا لانوافق الدكتور مؤنس على رأيه في أن موضع القيروان كان
حصناً لطيف الكروم ، ولا في تفسيره لخروج الوحوش من الشعراء ، فإن
المصادر العربية تجمع على أن الموضع الذي أقيمت فيه القيروان كان
« دجلة مشبكة » (٣) أو وادياً كثير الشجر كثير القطف تأوى إليه
الوحوش والسباع والموام (٤) ، أو شعاري وغياض لانرام (٥) ، أو غيضة
كثيرة الأشجار مأوى الوحوش والحيات (٦) . ولم يكن موضع القيروان
حصناً لطيف الكروم ، ولعل الدكتور مؤنس قرأ حصناً لطيفاً للكروم

(١) للمالكى ، ص ٢١

(٢) حيف مؤنس ، ص ١٤٢

(٣) أبو القدا ، ج ٢ ، ص ١٠١

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ٦٤

(٥) ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٢٠

(٦) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ - أسد الغابة ، ج ٢ ، ص ٤٢١

بدلا من « حصن لطيف للروم » الواردة في رياض النفوس ، بدليل أن صاحب هذا الكتاب يذكر أن موضع القبروان كان وديا تسكنه الوحوش والحيات . وليس معنى هذا أننا ننكر وجود حصن في الموضع الذى أقيمت عليه القبروان ، فلاشك أن موضع القبروان كان قريبا من حصن روماني قديم كالشأن في النسطاط مثلا والكوفة . أما بالنسبة لخروج الوحوش والسياب بالطريقة التي شرحها الدكتور مؤنس فنستبعده ، وقد أشار الدكتور سعد زغلول عبد الحميد إلى ما يمكن أن تتضمنه رواية الواقدي من تعليل مقبول لخروج الوحوش من الفيضة . فقد ذكر الواقدي أن موضع القبروان كان كثير الأشجار ، فاقترح أصحاب عقبة عليه أن يحرقوه بالنار ويبنون فيه المدينة ، فقال لهم : « يا قوم ، إن الوحوش والهوام ودواب الأرض كثيرة بهذه الأرض ، وأخاف أن أحرقها بالنار فيحاسبني الله عز وجل عليها ، ولكن إذا كان آخر النهار أتادى في هذا الموضع بأعلى صوتي : أيتها الوحوش الساكنة في هذا المكان ، ارحلوا منه ، فاني أريد حرق أشجاره بالنار لأن المسلمين يريدون أن يبنوا فيه بلدة لتستقر فيها رحالهم ونساؤهم ، وفي آخر النهار نادى عقبة رضى الله عنه في الوحوش بالارتحال ، فما أتم النداء حتى رفعت الوحوش أولادها في أفواها من غزلان وذئاب ونمور وغيرها ، وبقي ينتظر خروجها مدة ثلاثة أيام لم يكن دأب الناس فيها إلا الفرجة واللعب ، فلما كان اليوم الرابع ، أمر بالنار فأطلقت ، فأكلت الأشجار عن آخرها » (١) . ويستنتج الدكتور سعد زغلول من تلك الرواية أن خروج الوحوش والهوام فزعة من الشعراء جاء

نتيجة للحريق ، الذى أطلق فى الموضع لتنظيفه من الاشجار قبل البناء ، ويذكر الدكتور سعد زغلول أن « هذا أمر طبيعى يحدث عندما تلتهم النيران بعض الغابات ، فتفرع حيواناتها ، وقد يغر بعضها وهو مشتمل فيتسبب فى زيادة الرقعة المنكوبة بالحريق ، وهذا ما نظنه تفسيراً مقبولا لأصل الأسطورة » (١) .

وعلى الرغم من أن نص الواقدي لا يشير إلى قيام المسلمين بحرق الأشجار إلا بعد رحيل الوحوش ، فاننا نؤيد الدكتور سعد فيما ذهب إليه اعتماداً على ما ذكره الواقدي بالإضافة إلى ما ذكره ابن الأثير فى أسد الغابة إذ يقول : « وكان (موضع القبر وان) غيضة ، كثير الأشجار ، مأوى الوحوش والحيات ، فأمر بقطع ذلك وإحراقه ، واختط المدينة » (٢) . وقد يكون عقبة قد بدأ باجتناث الأشجار عن طريق قطعها أول الأمر ، فنشرت السباع والوحوش من الوادى ، فلما تأكد له ذلك أحرقها ، إسراراً بازالتها ، وتوفيراً لجهود أصحابه ، ويؤيد ذلك رأى قول ابن عذارى : « فأمرهم أن يقطعوا الشجر » (٣)

وما إن أتم المسلمون تنقية الموضع من الاشجار ، حتى شرع عقبة فى اختطاط دار الامارة ، والمسجد الجامع ، ولكنه لم يقم به أى بناء ، وكان يصلى فى أرضه دون أن يكون قد أقيمت فيه جدران ، ويبدو أن الناس

(١) سعد زغلول عبد الحيد ، فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والأسطورة

الشعبية ، ص ٢٠

(٢) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ج ٣ ، ص ٤٢١

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٢٠

اختلفوا معه في تحديد الاتجاه الصحيح للقبلة باعتباره أول المساجد الجامعة في هذا القطر المفتوح ، وباعتبار قبلته الـ"نموذج" الذي تحتذيه سائر محاربي المساجد الجامعة في بلاد إفريقية ، « فأقاموا أياماً ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ، ومشارك الشمس فلما رأى أمرهم قد اختلف ، بات مغموما فدعا الله عز وجل أن يفرج عنه . فأناه آت في منامه ، فقال له : إذا أصبحت فخذ اللواء في يدك ، واجعله على عنقك ، فانك تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه أحد من المسلمين غيرك ، فانظر الموضع الذي ينقطع فيه التكبير فهو قبلتك ومحرابك ، وقد رضى الله لك أمر هذا العسكر ، وهذا المسجد ، وهذه المدينة ، وسوف يعز الله به دينه ، ويذل بها من كفر به . فاستيقظ من منامه وهو جزع ، فتوضاً للصلاة ، وأخذ يصلي وهو في المسجد ومعه أشرف الناس ، فلما انفجر الصبح ، وصلى ركعتي الصبح بالمسلمين ، إذا بالتكبير بين يديه . فقال لمن حوله : أنسمعون ما أسمع ؟ فقالوا : لا . فعلم أن الأمر من عند الله فأخذ اللواء فوضعه على عنقه ، وأقبل يتبع التكبير حتى وصل إلى موضع المحراب ، فانقطع التكبير ، فركز لواءه ، وقال : هذا محرابكم ، فاقتدى به سائر مساجد المدينة » (١) .

وهكذا أحيط تركيز القبلة على يدى عقبة بما يشبه القصص والاساطير . وما كاد يتم تركيز القبلة بالمسجد حتى بدأ المسلمون في بناء الجامع ، وفي تشييد دورهم ومسكنهم ومساجدهم بالقيروان . وقد وصل إلينا اسم أحد

(١) الديباغ ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، تونس ١٩٠٦ ، ج ١ ، ص ٩ ،

ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٢٣٤ - ابن عداري ، ج ١ ، ص ٢٠ وما يليها .

من سام في بناء الجامع وهو اسماعيل بن عبيد الانصارى^(١). ويقال أيضا أن عبيد الله بن الزبير أسس مسجد القيروان^(٢)، وكان ممن اخط في القيروان من التسعين أبو عبد الله علي بن رباح بن نصير اللخمي، الذي اخط بالقيروان داراً ومسجداً، « ومسجده عند باب نافع على يمين الخارج قبل أن يخرج »^(٣)، ومنهم أبو رشيد حنش بن عبد الله السبائي الصنعائي الذي اخط بالقيروان داراً ومسجداً ينسب إليه، وكان يقع بالقرب من باب الريح^(٤)، ومنهم زياد بن أنعم السفيساني، واطخط بالقيروان داراً ومسجداً بالقرب من باب نافع^(٥).

عمرت القيروان بمختلف أنواع الابنية والمنشآت، وشد الناس إليها الرحال واتجمعوها من كل مكان، واتسعت بالأسواق والمرافق، ودامت حركة البناء فيها نحو خمس سنوات، فاكتملت عمارتها في سنة ١٥٥ هـ^(٦). وذكر ابن عذارى أن دورها في ذلك الحين بلغ ١٣٦٠٠ ذراع أى ما يعادل سبعة آلاف وخمسمائة متر، وواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه، وكانت مدينة القيروان في بداية نشأتها، قاعدة حربية، ومركزاً توجه منه الغزوات على جبال أوراس المواجهة لها^(٧). وكان عقبة أثناء عمارته لها، يغزو، « ويبعث السرايا فتغبر وتنهب، ودخل كثير من البربر الإسلام، واتسعت خطة المسلمين، وقوى جنان من هناك من الجنود بمدينة القيروان، وآمنوا

(١) المالكي، ص ٧٠ (٢) قس المرجع، ص ٤٣ (٣) قس المرجع، ص ٧٧

(٤) قس المرجع ص ٧٩ (٥) للمالكي، ص ٨٣

(٦) ابن الأثير، الكامل، ج ٣، ص ٢٣٤

(٧) Terrasse, histoire du Maroc, t.I, p. 80 — حين مؤنس، فجر

واطمأنوا على انعماء ، فثبت الإسلام فيها » (١) . وكانت القيروان مسورة بسور من اللبن والطين ، هدم زمن زيادة الله ، (٢) ، وأقيم عليها سور تراب بعد ذلك (٣) .

وقدر للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب الإسلامي كله في عصر الخلافة الأموية ، إلى أن انفصل المغرب عن الدولة العباسية في أواخر القرن الثاني للهجرة ، وتكونت بذلك إمارات مستقلة فيه ، وفي هذه الفترة كانت القيروان على حد قول ابن حوقل « أعظم مدينة بالمغرب ، وأكثرها تجراً وأموالاً ، وأحسنها منازل وأسواقاً ، وكان فيها ديوان جميع المغرب ، وإليها تجبي أموالها ، وبها دار سلطانها » (٤) . ويصفها الإدريسي في القرن الخامس الهجري فيقول : « ومدينة القيروان أم أمصار ، وقاعدة أقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطراً ، وأكثرها بشراً ، وأكثرها جابية ، وأنفعها سلعة ، وأتمها ربها ، وأجهرهم عصياناً ، وأطغاهم أغماراً ... » (٥)

ج - عزل عقبة بن نافع وتولية أبو المهاجر دينار (٥٥ - ٦٢ هـ) :

بتأسيس مدينة القيروان أخذت إفريقية تظهر كولاية هامة من ولايات الدول العربية الإسلامية ، فتطلعت إليها أنظار الطامعين في ولايتها . والظاهر أن اشتغال عقبة بتأسيس القيروان طوال خمسة أعوام ، وعزوفه عن الغزو

(١) ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٢٣٥

(٢) اليعقوبي ، كتاب البلدان ، طبعة لندن ١٨٩٢ ، ص ٣٤٧

(٣) الإدريسي ، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، ص ١١٠

(٤) ابن حوقل ، صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ص ٩٤

(٥) الإدريسي ، المرجع السابق ، ص ١١٠

أثناء ذلك ، حرم الخلافة من مورد هام لها وهو الفنائم الكثيرة التي كانت ترد من هذه البلاد . وهنا أخذت السعاليات ضد عقبة تلعب دوراً هاماً في بلاط الخليفة بدمشق ، وكان مسلمة بن خالد الأنصاري والي مصر في مقدمة من سعى لعزل عقبة وضم ولاية إفريقية لمصر ، طمعاً في مواردها الوفيرة (١) ، وقد نجح في ذلك ، وأصبحت له منذ سنة ٨٥٥ ولاية مصر والمغرب ، من أطراف إقليم مصر إلى إفريقية ، وهو أول من جمع له مصر والمغرب (٢) . وذكر الأستاذ هنري تراس أن معاوية عزل عقبة من ولاية إفريقية خوفاً من أن يستقل بالمغرب عن الخلافة (٣) ، وليس من المستبعد أن يتجه تفكير معاوية إلى ذلك ، فقد كان يخشى أيضاً من مسيح عمرو بن العاص ، في مصر وإفريقية ، ولذلك جعل ولاية إفريقية تتبعه مباشرة بعد وفاة عمرو ، ولعله رأى في اهتمام عقبة بإفريقية ، وشعبيته في بلاد برقة وإفريقية . وتأسيسه للقيروان ، اتجاهها منه نحو الاستقلال بحكم هذا الإقليم الغني بخيراته ، للتطرف عن أملاك الدولة الأموية ، وكان يعرف صلة القرابة التي تربط عقبة بعمرو ، فأسرع بضم ولاية إفريقية إلى مسلمة ابن خالد الأنصاري عاملاً في مصر ، ولعله أشار على مسلمة بعزل عقبة عن ولاية إفريقية ، بدليل أنه لم يرد عقبة إلى ولايتها بعد أن قدم إليه شاكياً ، من سوء عزل أبي المهاجر له .

وذكر المالكي أن مسلمة وجه خالداً بن ثابت النهمي التابعي إلى

(١) حنين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٤٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ - ابن عذاري ، ص ٢١

(٣) Terrasgo op. cit p. 80

إفريقية في سنة ٥٤ هـ^(١)، ولكنه لم يلبث أن عزله ، واستعمل على إفريقية مولاة دبنارا ويكنى أبا المهاجر ، فقدم إلى القيروان في سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) في جيش من أهل الشام ومصر . وتجمع المصادر العربية على أن أبا المهاجر أساء عزل عقبة^(٢) ، ويذكر ابن عبد الحكم أن مسلمة كان قد أوصاه بالرفق في عزله ، وحسن معاملته . ولكنه خالفه ، « وسجنه وأقره حديدًا »^(٣) ويذكر المؤرخون أن خير هذه الأساءة قد وصل إلى مسامع الخليفة معاوية في دمشق عن طريق أنصار عقبة ، فكتب إلى أبي المهاجر مباشرة ، يأمره بخليّة سبيله ، وإطلاقه من حبسه ، وإشخاصه إليه^(٤) فأطلقه أبو المهاجر وأرسله في صحبة بعض أتباعه حتى قابس (٥) ، ومن هناك واصل عقبة السير حتى وصل إلى دمشق . ويعتقد الدكتور حسين مؤنس أن أبا المهاجر لم يتصرف من تلقاء نفسه ، وأنه أرغم على الإساءة إلى عقبة ، مدفوعا في ذلك بجعليات تلقاها من مسلمة بن مخلد الذي كان يحقد على عقبة لما ناله من شرف غزو إفريقية ، وقد اعتمد الدكتور حسين مؤنس في ذلك الرأي على أدلة ثلاثة مستقاة من ابن عبد الحكم :

الأول - أن ابن عبد الحكم قال : « فلما قدم عقبة مصر ، ركب إليه مسلمة بن مخلد ، فأقسم له بالله لقد خالفه ما صنع أبو المهاجر ، ولقد

(١) المالكي ، ص ١٩

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦ - المالكي ، ص ٢١ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣

ص ٢٣٥ - ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٦٦

(٤) نفس المرجع ، ص ٦٨

(٥) المالكي ، ص ٢١

أوصيته بك خاصة « (١) . ويستنتج الدكتور مؤنس من هذا النص أن « سعى مسلمة إلى عقبة ، واعتذاره له ، ونفيه التهمة عن نفسه ، لا يعل إلا بأن مسلمة خشي أن يغضب معاوية عليه حين يقص عليه عقبة ما نزل به من مساواة على يديه ، فأسرع وألقى التهمة على أبي المهاجر خوفا من معاوية » (٢) . على أن ابن عذارى يذكر أن اعتذار مسلمة حدث في عهد يزيد عندما أعاد عقبة إلى ولاية إفريقية سنة ٥٦٢ هـ ، فمر عقبة على مسلمة بن مخلد في مصر ، فاعتذر له مسلمة عما فعله به أبو المهاجر ، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بتقوى الله وحسن السيرة ، فقبل منه عقبة هذا الاعتذار ، فلما وصل إلى إفريقية « أوثق أبا المهاجر في الحديد ، وأمر بتخريب مدينته التي بناها ، ورد الناس إلى القيروان » (٣) . واعتقد أن ما ذكره ابن عذارى أقرب إلى الصواب والمنطق ، فلو كان مسلمة قد اعتذر لعقبة عما فعله أبو المهاجر ، وثبت لعقبة بعد ذلك أن مسلمة هو المسؤول عما لحقه لكان قد عذر أبا المهاجر ، ولما كان قد انتقم منه بعد ذلك عندما أعيد إلى ولايته . ومن الطبيعي أن يتوجه مسلمة بالاعتذار لعقبة عن تصرف أبي المهاجر نحوه بعد أن استرد عقبة كرامته وكبريائه باسترداد إمارته على إفريقية ، وهذا يفسر تحامل عقبة على أبي المهاجر بعد ذلك . ونضيف إلى ما سبق أنه لا يعقل أن يتوجه عقبة بعد أن أطلق أبو المهاجر سراحه بأمر الخليفة إلى مصر ويقابل مسلمة ، وهو يعلم أنه هو الذي عزله . وقد ذكر المالكي أن

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٢) حنين مؤنس ، ص ١٥١

(٣) ابن عذارى ، ص ٢٣

عقبة وصل إلى قابس ، ومن هناك رحل إلى معاوية ، وأغلب الظن أنه سافر إلى دمشق رأساً عن طريق البحر .

الثاني - أن عقبة لم يكذب ينسب للخليفة ظلامته من أبي المهاجر ومسلمة بقوله « ففتح البلاد ، وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ، ودانت لي ، ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء عزي » حتى اعتذر له معاوية وقال : « قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الإمام المظلوم ، وتقديمه إياه ، وقيامه بدمه ، وبذل مهجته ، وقد رددتك على عملك » (١) . ويرى الدكتور مؤنس في ذلك الاعتذار اعترافاً من معاوية بأن مسلمة هو المسؤول عما نزل بعقبة . لا أبا المهاجر ، وأن عزل عقبة كان على هوى منه ، وأن عقاب الخليفة لأبي المهاجر جزاء إساءته إلى عقبة كان يسيء مسلمة ، الذي كان يتمتع بمكانة كبيرة عند بني أمية لما قام به من جهود في سبيل المطالبة بدم عثمان ٢ .

الثالث - أن ما ذكره ابن عبد الحكم وغيره من مؤرخي العرب من أن عقبة دعا على أبي المهاجر ، وخوف أبي المهاجر من دعاء عقبة ، لأنه كان محابب الدعوة ، يتضمن براءة أبي المهاجر من تهمة الإساءة إلى عقبة (٣) .

وعلى هذا النحو نجد أن الأدلة التي استند عليها الدكتور مؤنس هي في الواقع دليلاً : الثاني والثالث ويمكننا أن نضيف إليهما دليلين آخرين هما :

١ - أنه لو لم يكن مسلمة بن مخلد هو الذي حرّض أبا المهاجر على إبداء عقبة لما كان مسلمة قد ترك القضية تمر كذلك دون أن يلحق العقاب

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠

(٢) حسين مؤنس ، ص ١٥١

(٣) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٥٢

بأبي المهاجر جزاء مخالفتة إياه ، وإساءته إلى عقبة الذي كان يعتبر شخصية من الشخصيات الإسلامية الجلية ، والذي سام بنصيب وافر في الفتوح ، والذي ثبت فتح إفريقية بتأسيس القيروان ، وإنشاء مسجدها الجامع ، بل إن مقامه أبو المهاجر من هجر القيروان عقبة وإنشاء قاعدة أخرى للفتح ، إنما يعبر عما كان يحس به مسلمة من تحاسد وتفاير لعقبة ، على ما نظره من شرف بقيروانه .

٢ — لو أن مسلمة لم يكن هو الذي دفع أبا المهاجر على الإساءة إلى عقبة ، لما كان كتاب التخلية عن عقبة وإطلاق سراحه من سجنه ، قد ورد من الخليفة رأسا . وأغلب الظن أن معاوية كان يعلم مقدما أن تصرف أبي المهاجر لم يكن من تلقاء نفسه ، وأنه كان مرغما على ذلك التصرف ، والا لما كان قد كتب إليه بالإفراج عن عقبة ، وإشخاصه إليه ، والا لكان قد أمر بعزل أبي المهاجر وتأديبه .

* * *

كره أبو المهاجر دينار أن يستقر في القيروان عقبة ، وآثر أن يبنى مدينة يزل فيها ، ويجعلها قاعدة للمسلمين بدلا من القيروان ، ولعله تلقى من مسلمة تعليمات بهذا الشأن . ويذكر ابن عبد الحكم أنه خلف الموضع الذي اختطه عقبة بميلين ، « فاجئ ونزل » ^(١) . وذكر المالكي : « أنه نزل بفحص تونس ، ويقال إنه نزل بسبخة وبني بها » ^(٢) . أما ابن عذارى فيقول : « ونزل خارجا عن المدينة ، وكره أن يزل الموضع الذي اختطه عقبة ،

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٦٨

(٢) المالكي ، ص ٢٠

ومضى حتى خلفه بـمـلـين ، مما بلى طريق تونس ، فاخطبها مدينة ، وأراد أن يكون له ذكرها ، ويفسد عمل عقبة ، فبنى مدينة ، وأخذ في عمرانها ، وأمر الناس أن تحرق القيروان ، ويعمروا مدينته » . (١)

وإذا بحثنا في هذه الروايات وجدنا أن أبا المهاجر لم يكن لديه الوقت الكافي لبناء مدينة جديدة بدلا من القيروان ، صحيح أننا لانكر كراهية أبي المهاجر لقيروان عقبة ، وعزوفه عن اتخاذها مركزا للجيش في إفريقية ، العربية ولكننا لانقبل ما ذكره المؤرخون من أنه أسس مدينة جديدة ، فلا يمكن بأي حال من الأحوال أن يصل التباير بين مسألة وعقبة إلى حد تقويض الأول لأعمال الثاني التي استغرقت سنوات خمس ، وأغلب الظن أن أبا المهاجر نزل في موضع آخر غير القيروان ؛ ولعله اختار مدينة أو قرية إفريقية لهذا الغرض ، ويذكر المالكي أنه « انصرف فزل بدكروور مدينة البربر ، بالقرب من موضع القيروان » (٢) . ولعله أقام فيها قصرا للامارة ومسجدا جامعا ، وأضاف إليها بعض المنشآت اللازمة لهسكره ، بعد أن رحل هذا العسكر من قيروان عقبة ، ولهذا السبب اختلط الأمر على الرواة ، فنسبوا إليه بناء مدينة جديدة . ونشك أيضا فيما ذكره المؤرخون خاصا باحراقه لقيروان عقبة ، ولاشك أن تدمير مدينة كالقيروان أخذ بناؤها من جهود المسلمين مأخذه ، يعتبر عملا إجراميا لا يمكن أن يحدث بإيعاز من شخصية جليلة كشخصية مسلمة بن مخلد الانصاري أو مولاه دينار . واعتقد أن الأمر لم يزد على هجر القيروان وإخلائها من العسكر والإدارة

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٢

(٢) المالكي ، ص ٢٠

وقد يكون هذا التصرف نابعا من رغبة أبي المهاجر في التقرب إلى البربر والإقامة في قرية من قرام حتى يومهم أن قيروانه لا يمثل احتلالا أجنبيا لبلادهم .

وتغر المصادر العربية مرارا سريعا على ولاية أبي المهاجر ، إما لأنها وقعت بين ولايتي عقبة الأولى والثانية ، أو بسبب استياء الرواة من تصرفات أبي المهاجر وإساءته إلى عقبة . ولكن نقفا قليلة من أخبار أبي المهاجر وصلتنا في بعض المصادر . ونستخلص منها أن أبا المهاجر أحس بتكوين حلف ضد المسلمين يضم بربر أوربة البرانس والروم . ولما شك أن البيزنطيين على أيام قسطنطين الرابع تفرغوا لشؤون المغرب بعد أن شغلوا عنه طويلا بفزوات العرب لبلادهم ، وحصارهم للقسطنطينية مرتين في سنة ٤٨ هـ ، وفي سنة ٥٥ هـ ^(١) ، واستيلائهم على جزر قبرص ورودس وأرواد واقربش: ويدو أن بربر أوربة الذين كانت تربطهم بالبيزنطيين روابط وثيقة بدأوا يحسبون بخطر العرب على بلادهم منذ أن أسس عقبة بن نافع مدينة القيروان ، فأخذ زعيمهم كسيلة بن لمزم يجمع القبائل ويؤلبها على العرب ، تمهيدا لطردهم من البلاد . لذلك آنس أبو المهاجر أن يبدأ بمهاجمة بربر أوربة وأحلافهم الذين كانوا يضربون في نواحي تلسان ، حتى يقضى على ما بدا له من بوادر مقاومتهم ^(٢) . خرج أبو المهاجر على رأس جيش من المسلمين متجها إلى مراكز أوربة وأحلافها من البرانس ، « ففتح كل

(١) إبراهيم أحمد العدوي ، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة

١٩٥٧ ، ص ٤٧ — ٥٥

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٧٢

مامر عليه حتى انتهى إلى العيون المعروفة بأبي المهاجر نحو تلمسان « (١) .
ثم صالح كسيلة الأوربي وأحسن إليه بعد أن اعتنق الإسلام ، وأسلم
معه كثير من بني قومه . ونجح أبو المهاجر بفضل مؤازرة كسيلة له في
الاستيلاء على تلمسان (٢) . ويعتبر أبو المهاجر أول أمير عربي وطئت خيله
أرض المغرب الأوسط ، وتدل نتائج هذه الحملة على مقدرته السياسية ،
وكيافته في كسب زعيم بربر أوربة إلى جانب المسلمين .

وما إن انتهى أبو المهاجر من القضاء على مقاومة البربر ، ومن تحطيم
الحلف القائم بين أوربة والروم وذلك بانضمام كسيلة ومن ورائه بربر أوربة
إلى جانب المسلمين ، حتى ولى وجهه شطر قرطاجنة ، معقل الروم في
إفريقية ، ليضرب ضربه الثانية . ويذكر أبو المحاسن أن أبا المهاجر خرج
في سنة ٥٩٩ هـ لغزو قرطاجنة ، « فخرج إليه أهلها ، فالتقوا ، وكثر القتل
بين الفريقين حتى حجز الليل بينهم ، وانحاز المسلمون من ليلتهم ، فنزّلوا جبلا
في قيلة بولس (يقصد تونس) ، ثم عاودهم ، وصالحوهم على أن يمحلوهم
الجزيرة (جزيرة شريك) . ثم افتتح أبو المهاجر المذكور ميلة (٣) ، وكانت
إقامته بها في هذا الغزو نحواً من سنتين « (٤) . وعاد أبو المهاجر بعد ذلك
سنة ٦١١ هـ إلى مدينته التي أسسها ، وأقام بها طاماً واحداً حتى عزل .

(١) المالكي ، ص ٢١ - ابن عذاري ، ص ٢٨

(٢) السلاوي ، الاستغصا ، ج ١ ص ٨٠

(٣) مدينة ميلة تقع على أربع مراحل شرقي قلعة بني حاد ، ويصفها الإدريسي بأنها
« مدينة حسنة ، كثيرة الأشجار مكنة النار » (الإدريسي ، ص ٩٤) . ويذكر
اليعقوبي أنها مدينة عامرة محصنة تقع على البحر ولها مراسي عديدة . (البلدان ، ص ٢٥١)

(٤) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج ١ ص ١٥٢ - السلاوي ، ج ١ ص ٨٠

د - ولاية عقبة الثانية (٦٢ - ٦٤ هـ) :

توفي معاوية بن أبي سفيان في منتصف رجب سنة ٦٠ هـ ، وأنضت الخلافة من بعده إلى ابنه يزيد ، وكان يزيد مقتنعا بفضل عقبة على الإسلام وحسن بلائه في فتح إفريقية ، فاستقطع ولاية إفريقية من مسلمة بن مخلد وإلى مصر ، وعزل أبا المهاجر دينار في سنة ٦٢ هـ ، ورد عقبة بن نافع إلى ولاية إفريقية للمرة الثانية . وبذلك استرد عقبة كرامته التي نال منها مسلمة ابن مخلد عن طريق مولاه أبي المهاجر ، وتلاشى من نفسه الاحساس بالمرارة منذ أن أهانه أبو المهاجر بالسجن ، وتخريب العمل الجليل الذي جهد في إنشائه وهو مدينة القيروان .

ويرى الدكتور مؤنس أن عقبة رد إلى ولاية إفريقية عقب وفاة مسلمة ، ويستند في ذلك على الربط بين تاريخ مشترك هو سنة ٦٢ هـ يسجل وفاة مسلمة ، وتولية عقبة ، « فلو كان عقبة رد قبل وفاة مسلمة ، فلماذا تحدد المراجع سنة ٦٢ هـ بالذات ، أي بعد سنتين من ولاية يزيد ؟ ولم لم يردده يزيد من أول ولايته ؟ وفيه كان الانتظار ؟ بل لو كان مسلمة حيا حين رد عقبة إلى عمله لتولى حماية أبي المهاجر منه أولا ستغاث به هذا الأخير على الأقل . فاما وقد كان عقبة مطلق اليد يفعل بأبي المهاجر ما يشاء ، فان في ذلك لدليلا على أن هذا الأخير كان قد فقد وليه ونصيره ، فهان أمره على الناس » (١) ولكتنا نرى تقيض ذلك ، فليس من الضروري أن يرد يزيد عقبة إلى ولاية إفريقية عند توليه الخلافة مباشرة ، ونذكر المصادر العربية أن يزيد واجه عند توليه الخلافة صعوبات كثيرة في العراق والحجاز ، وكانت بداية

(١) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ١٢٩

خلافته إذنا بفترة طويلة من الصراع بين الشيعة وبنى أمية ، على أثر امتناع الحسين بن علي وعبد الله بن الزبير عن مبايعته ، فأما الحسين فقد استشهد في ١٠ محرم سنة ٦١ هـ في كربلاء بعد أحداث طويلة ، وأما ابن الزبير فقد فرغ له الجو ، ودعا لنفسه بالخلافة بعد شهادة الحسين ، وبايعه أهل الحجاز وتهامة . ولا جدال في أن هذه الأحداث شغلت كثيرا عن قضية عقبة ومسلمة ، ولا شك في أن عقبة لم يظفر بعرض قضيته على يزيد بعد توليته الخلافة مباشرة ، إذ كان كل هم يزيد وقتئذ منصرفا إلى السعي للحصول على مبايعة إجماعية في الحجاز والعراق . ونرجح أنه توجه إليه بعد أن أسفر الصراع القائم بين الشيعة وبنى أمية عن مقتل الحسين . وهنا ننقل إلى مناقشة السدر الثاني الذي اعتمد عليه الدكتور مؤنس لإثبات رأيه وهو أنه لو كان مسلمة بن مخلد حيا عندما رد عقبة إلى ولاية إفريقية ، لكان قد تولى حماية أبي المهاجر من عقبة . ونرد على هذا الاستنتاج بنص تاريخي ورد في رياض النفوس ، جاء فيه أن عقبة توجه إلى يزيد ، « فأخبره بما صنع أبو المهاجر وما دخل عليه منه ، وقال له : لما اقتنحتم إفريقية بنيت مسجد الجماعة ، ثم بعثت عبد الأنصارى ، فأهانني ، وأساء عزلي ، فغضب يزيد وقال : أدركوها قبل أن يخرجه . ورد عقبة إليها ، وأزال مسلمة عنها ، وأقره بمصر ، وذلك سنة اثنتين وستين » ^(١) . ونستنتج من هذا النص أن يزيد فصل ولاية إفريقية والمغرب عن ولاية مصر ، وأنه قصر ولاية مسلمة بن مخلد على مصر ، وأنه رد عقبة إلى ولاية إفريقية والمغرب . ويؤيد ذلك أيضا ما ذكره ابن عذارى بقوله : « وفي سنة ٦٢ ، ولي يزيد

ابن معاوية على بلاد إفريقية والمغرب كله عقبة بن نافع النهري ، وهي ولايته الثانية على إفريقية ^(١) . ونخرج من ذلك بحقيقة هامة ، هي أن الأمر الخلافى بتولية عقبة على إفريقية ، وفصل هذه الولاية عن مصر ، صدر قبل وفاة مسلمة فى ٢٥ رجب سنة ٦٢ هـ . ونعتقد أن مسلمة كان ما يزال حيا عندما رحل عقبة من الشام مارا بمصر ، فى طريقه إلى المغرب . ويذكر ابن عذارى ، أنه لما مر على مسلمة صاحب مصر خرج إليه ، واعتذر من فعل أبي المهاجر ، وأقسم له أنه خالفه فيما صنع ، وأنه كان قد أوصاه بقوى الله وحسن السيرة ، وأن يحسن عشرة عقبة ، فقبل منه عقبة ، ومضى حقا على أبي المهاجر ^(٢) . وهذا يفسر تحامل عقبة على أبي المهاجر ، ومبادرته بالاقتصاص منه بمجرد وصوله إلى إفريقية . ولم يكن مسلمة وقتئذ قادرا على حمايته من عقبة ، لأن ولاية إفريقية لم تعد تابعة له . وقد يكون رد عقبة إلى ولاية إفريقية قد تم قبل وفاة مسلمة ببضعة أشهر .

قدم عقبة إلى القيروان ومعه جيش من المسلمين من بينهم ٢٥ رجلا من أصحاب رسول الله ^(٣) ، وكان عقبة ما يزال حائقا على أبي المهاجر ، ولذلك بادر بالقبض عليه وتقييده ، وصادر مامعه من الأموال ، وجعلها مائة ألف دينار ، وجدد بناء القيروان ، ورمم ما وصى من مبانيها ، وأمر الناس بتعميرها والانتقال إليها ، فعادت إليها عظمتها ^(٤) . ثم أشفى غليله

(١) ابن عذارى ، ص ٢٣

(٢) ابن عذارى ، نفس الصفحة .

(٣) ابن عذارى نفس الصفحة

(٤) المالكى ، ص ٢٢ - ابن عذارى ص ٢٣

من أبي المهاجر ، « بتخريب مدينته التي بناها » ^(١) . ويدعو أنه كانت يسعى لنقض سياسة أبي المهاجر من أساسها ، وهي سياسة أثبتت نجاحها عظيما ، إذ انتهت بضم بربر أوربة إلى جانب المسلمين ، وبدخول عدد كبير منهم في الإسلام ، ولو أن عقبة تابع سياسة أبي المهاجر ، لقدر له أن يستكمل فتح المغرب كله دون أن يريق كثيرا من دماء المسلمين ، ولكن اصطناعه سياسة مناقضة ، مدفوعا في ذلك بعامل السخط على أبي المهاجر ، كان السبب في حدوث الكارثة التي أسفرت عنها غزوته الكبرى إلى السوس الأقصى . وقد حاول أبو المهاجر أن يقنعه بجدوى الاستمرار في سياسة اصطناع البربر ، وقدم له كسيلا على أنه من زعمائهم ، ولكن لم يعقبه كان منصرفا إلى تعدي أبي المهاجر ، وإلى إذلاله وإذلال من لاذ به ، فاستخف بكسيلا وهو حديث عهد بالإسلام ، على الرغم مما أوصاه به أبو المهاجر . ويذكر المالكي وابن عذارى أن عقبة أتى يوما « بذود غنم للعسكر ، فذبح الذود ، فأمر عقبة كسيلا أن يسلم مع السالخين . فقال له : أصلح الله الأمير ، هؤلاء قتياني وغلماي بكفونتي . فنهرو عقبة ، وقال له : قم . فقام كسيلا مفضيا . فكان كلما دحس في الشاه مسح يده ببلحيته مما عاق يده من بلل ذلك . وجعل العرب يعمرون عليه وهو يسلم ، ويقولون له : يا بربري ، ماهذا الذي تصنع ؟ فيقول : هذا جيد للشعر . فرب به شيخ من العرب ، فقال : كلا ، إن البربري ليتوعدكم . فقال أبو المهاجر لعقبة : أصلح الله الأمير ، ماهذا الذي صنعت ؟ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألف جبابرة العرب كالأقرع بن حابس التميمي ، وعيينة بن حصن ،

وَأنت نجىء إلى رجل هو خيار قومه في دار عزه ، قريب عهد بالكفر ،
ففسد قلبه ؟ توثق من الرجل فاني أخاف فتكه ، فتهاون به عقبة . فلما
انصرف ، نكت البربر ما كانوا عليه ، وأقبلت النفرة إلى عقبة ، فقال له
أبو المهاجر : ماجله قبل أن يجتمع أمره ، فزحف إليه عقبة ، فتصمى من
بين يديه ، فقالت البربر لكسييلة : لم تهرب من بين يديه ، ونحن في محسن
ألفا ، وهو في خمسة آلاف ؟ فقال : إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان
ومدد الرجل قد افترق عنه . فاذا طلب إفريقية زحفت إليه ^(١) .

ونستخرج من هذا النص أن عقبة أساء إلى كسييلة وأهانته بسلخ جلود
الغنم ، ففر كسييلة من معسكر عقبة ومعه جموع بربر أوربة ، وتمكن كسييلة
من تكوين جيش ضخم من البربر ، لمقاتلة المسلمين ، ولكنه لم يشأ أن
يشتبك معهم في القتال إلا بعد أن يعود عقبة من غزوته ، فيكون عسكره
قد نقص عدده ، وعندئذ ينتقض عليه كسييلة ويفتك به وبمن معه . وأعتقد
أن عقبة أهان كسييلة بعد موقعة باغاية وهو في طريقه إلى طنجة ، وأنه فر
من معسكر المسلمين إلى جبل أوراس ، حيث جمع جيشا ضخما من البربر
وعزم على التزصد لعقبة وهو في طريق عودته من غزوة السوس ، بعد أن
يكون التعب قد أرهاق عسكره .

ركب عقبة في وجوه عسكره ومن معه من الصحابة والتابعين . ويذكر
ابن عذارى أنه دار بهم حول مدينة القيروان وهو يدعوها ويقول :
« يارب أملاها علما وفقها ، وأملاها بالمطيعين لك ، واجعلها عزا لدينك ،

وذلا على من كفر بك » (١). ويذكر المالكي أنه جمع أولاده وقال لهم :
 « إني بعت نفسي من الله ، وما أدرى ما يأتي على في سفري » ، ثم قال :
 « يا بني أوصيكم بثلاث خصال فاحفظوها ولا تنضيعوها : اباكم أن تملأوا
 صدوركم بالشعر وتركوا القرآن ، فإن القرآن دليل على الله عز وجل ،
 وخذوا من كلام العرب ما يهتدى به الليب ، ويدلكم على مكارم الاخلاق ،
 ثم اتهموا عما وراءه ، وأوصيكم أن لاتدأبنوا ولولستم العباء ، فإن الدين
 ذل بالنهار وهم بالليل ، فدعوه تسلم لكم أقداركم وأعراضكم ، وتبقى لكم
 الحرمه في الناس ما بقيتم . ولا تقبلوا العلم من المفرورين المرخصين ،
 فيجهلوك دين الله ، ويفرقوا بينكم وبين الله تعالى ، ولا تأخذوا دينكم إلا
 من أهل الورع والاحتياط ، فهو أسلم لكم ، ومن احتاط سلم ، ونجا فيمن
 نجا » ، ثم قال : « عليكم سلام الله ، وأروكم لا ترونني بعد يومكم هذا » ،
 ثم قال : « اللهم تقبل نفسي في رضاك ، واجعل الجهاد رحمتي ودار كرامتي
 عندك » (٢).

ولما أتم حديثه مع أولاده ، وأبدى لهم النصيحة استخلف زهير بن قيس
 البلوي وعمر بن علي القرشي على رأس حامية من المسلمين عدتهم ستة آلاف
 مقاتل (٣). ثم خرج في جيش عدته خمسة عشر ألفا (٤) ، من القيروان ،

(١) ابن عسار ، ص ٢٣

(٢) المالكي ، ص ٢٢

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) الديلم ، معالم الإيمان ، ج ١ ص ٤٣ . وفي نسـ عبيد الله بن صالح انه « خرج
 مع عسكر عظيم » ، ولكنه لم يحدد عدد هذا العسكر (عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩)

خروج من عزم على الناس الشهادة والموت في سبيل الله . ولم يترك عقبة
أبا المهاجر في القهروان ، وإنما أغراه معه إلى السوس ، وهو مكبل
بالأغلال^(١) . واشترك مع عقبة في هذه الغزوة جموع كثيرة من مسلمي البربر
يترعهم كسيلة البرانس ومن معه من أوربة . وزحف جيوش المسلمين غربا حتى
وصلت إلى مدينة باغاية أو باغاني أو بغاية^(٢) ، وحاصرتها (خريطة رقم ٩) ،
وهناك اصطدمت بجيوش الروم وانتصرت عليها انتصاراً حاسماً^(٣) ، وظفر
المسلمون بغنائم كثيرة . ثم زحف عقبة غرباً متخذاً طريق الزاب الصحراوي
وقاتل الروم وحلفاءهم من البربر على وادي المسيلة فهزمهم^(٤) . واتجه بعد
ذلك إلى تاهرت ، وجعلها هدفه الرئيسي حيث تجمعت فيها جموع قبائل لوانة
وهوارة وزواغة ومطماطة وزناتة ومكناسة ، مع من انضم إليهم من
الروم^(٥) ، واشتبك المسلمون معهم في قتال عنيف انتهى بهزيمة البربر
وحلفائهم الروم هزيمة شنعاء ، ذل لها الروم^(٦) . ويذكر المالكي أنه عندما
نزل تاهرت ، استغاث « الروم بالبربر ، فأجابهم ونصروهم ، فقام عقبة
في الناس خطيباً ، حمد الله تعالى وأثنى عليه وقال : أيها الناس ، إن أشرافكم

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ — المالكي ، ص ٢٢

(٢) يذكر الإدريسي أنها مدينة كبيرة عليها سوران من حجر ورين عليه سور ، وأنها
أول بلاد النمر ، ولها واد يجرى إليها من جهة النبل ، وترهب منه ومن آبار عذبة . وعلى
أمال منها جبل أوراس (الإدريسي ص ١٠٣)

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩ — المالكي ، ص ٢٣ — ابن عذاري ، ص ٢٤

(٤) قس المرجع ، ص ٢٤

(٥) قس المرجع ص ٢٥ — عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٦) قس المرجع ، ص ٢٤

وخياركم الذين رضى الله تعالى عنهم ؛ وأنزل فيهم كتابه ، بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان ، على من كفر بالله إلى يوم القيامة ، وم أشرافكم ، والسابقون منكم إلى البيعة ، بايعوا أنفسهم من رب العالمين بمجنته بيعة رابحة ، وأتم اليوم في دار غربة ، وإنما بايعتم رب العالمين ، وقد نظر إليكم في مكانكم هذا ، ولم تبلغوا هذه البلاد إلا طلبا لرضاه ، وإعزازاً لدينه . فابشروا ، فكلما كثر العدو كان أخزى لهم وأذل إن شاء الله تعالى ، وربكم - عز وجل - يسلمكم . فالتقوم بقلوب صداقة ، فإن الله - عز وجل - جعلكم بأسه الذي لا يرد بأسه عن القوم المجرمين ، فقاتلوا عدوكم على بركة الله وعونه ، والله لا يرد بأسه عن القوم المجرمين (١) .

وهكذا قضى عقبة على كل مقاومة للبربر والروم في المغرب الأوسط ، ومضى في سيرة متجها إلى طنجة ، ولكن أبا المهاجر نصحه ألا يفعل ، فإن قبيلة أوربة البرانية قد أسلمت بإسلام كسيلة ، وليس هناك ما يدعو إلى غزوها ، ونصحه أيضا بأن يبعث مع كسيلة واليا . فأنى عقبة أن ينتصح (٢) ولم يلبث أن انحرف من طريقه الداخلى نحو الساحل ، وعبر ممر تازة . ثم أوغل تجاه طنجة . وتطارت فلول البربر والأفارقة بعد أن توالى عليهم الهزائم ، وكثر فيهم القتل على أيدي المسلمين إلى الحصون والمعقل . ولكن عقبة كان حريصا على مواصلة الغزو ، « فكره المقام على محاصرتهم ، فيفوته الغزو وقتل غيرهم من طوائف الكفار » إذ كانت أمم المغرب من نصارى

(١) المالكي ، ص ٢٤

(٢) لعل ذلك كان سببا من أسباب تحامل كسيلة على عقبة ، وخروجه عليه ، وترصده

له في طريق عودته .

وبرابر لا يحصون كثرة وانتشاراً ، ولا بكثرون بالرمل والحصا . فترك أهل إفريقية متحصنين بحصونهم ، وأوغل في الغرب يقتل ويأسر أمة بعد أمة ، وطائفة بعد طائفة ، بانعا نفسه من مولاه ، لا تروعه كثرة ، ولا تعتربه هو ومن معه سامة ولا كثرة ، حتى صار بأحواز طنجة ^(١) .

وكان حاكم طنجة وسبته روميا اسمه يليان ، وكان سياسيا عنسكا ، فبادر بمهاداة عقبة ومهادته ، وأعلن استعدادة للزول على حكمه ، وعقد معه عقبة معاهدة صلح ومسالة ، ودله على موطن البربر فيها وراء جبال الأطلس ، وأرشدته إلى عوراتهم . وبفضل توجيهاات يليان تمكن عقبة من الوصول إلى وليلى Volubilis ، وهناك تلقته جموع كثيفة من البربر بالقتال ، فهزمهم هزيمة نكراء ، وطاردهم حتى درعة ^(٢) . وهناك تجمعت حشود هائلة من البربر لا تحصى أعدادها ، فقاتلهم قتالا عنيفا لم يشهد البربر مثل عنفه وشدته . فدارت الدائرة على البربر وقتل منهم عدد كبير ^(٣) . وذكر بعض المؤرخين أن عقبة انحدر من بلاد تامسنا بالسوس الأدنى ، وتوغل في « صنهاجة ثم إلى بلاد هسكورة ، ثم نزل أغمات وربكة ، ثم نزل منها على وادى نفيس ، وقام عقبة من وادى نفيس وسار حتى نزل إيجلى بالسوس ، وبنى فيه مسجدا... قال أبو على : ثم سار عقبة من إيجلى حتى وصل ماسة ، فأدخل فرسه في الماء » ^(٤) . ويصور المؤرخون نهاية مطاف عقبة عند المحيط تصويرا قصصيا

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٦

(٢) نفس المرجع ، نفس عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٢٧

(٤) نفس المرجع

أسطورياً ، تؤكد البعثة عقبة ، فيذكر ابن عذارى نقلا عن ابن أبي الفيص
« إنه لما بلغ الماء بطن فرسه رفع يديه إلى السماء وقال : يا رب لولا أن
البحر منمنى لمضيت في البلاد إلى مسلك القرنين مدافعا عن دينك ، معانلا من
كفر بك » (١) .

وهكذا وصل عقبة حتى بلاد جزولة بالسوس الأقصى (خريطة رقم
٧) ؛ فبعد أن دخل بلاد صنهاجة وهسكوره ، ومر بأغمت وافتتحها ،
وافتح مدينة نفيس وتارودانت ، نزل بوادي سوس (٢) ، واتصل بقبائل
جزولة فأسلمت . ورأى عقبة أن مهمته انتهت إلى هذا الحد ، فعزم على
العودة بمساكره . فدار جنوبي مائة ماراً بإغمران يطوف (٣) ، ومضى
مصعداً نحو الشمال ، فوصل إلى تارنا ، ثم وصل إلى موضع شاكر الذي سمي
باسم أحد أصحابه تركه هناك ، حيث أنشأ رباطا عرف باسمه ، وما زال
يسمى هذا الموضع حتى اليوم باسم سيدى ثيكر (٤) . ثم رحل من هناك إلى
سرنوبيلاد دكالة (٥) ، فوجد فيها قوما دعاهم إلى الإسلام فامتنعوا ، فاشتبك
معهم في قتال انتهى بقتل جماعة كبيرة من جنوده ، فسمى هذا الموضع باسم
مقبرة الشهداء . ثم مضى من دكالة إلى بلاد هسكوره ، وقاتل سكان هذه
النواحي وشتمهم ، وعبر نهر أم الربيع ، وأوغل في البلاد شرقا حتى دخل

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢ - المالكي ، ص ٢٥ - ابن عذارى ، ص ٢٧

(٢) عبيد الله بن صالح ، ص ٢١٩

(٣) تقي الدين ، ص ٢١٩ - ابن عذارى ، ص ٢٧

(٤) تعليق الأستاذ ابن يروفسال على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٠٩

(٥) ابن عذارى ، ص ٢٨

المغرب الاوسط . وما زال يواصل سيره إلى القيروان ، حتى أوشك على دخول المغرب الأدنى ، وقبل أن يدخل هذا الإقليم وصلته أنباء مقلقة من إفريقية ، فأرسل طائفة من عسكره إلى القيروان ، ولم يبق معه من جيشه سوى خمسة آلاف ^(١) . ويعمل ابن عذارى إرساله هذا العسكر إلى القيروان برغبتهم في الإسراع « بالإياب إلى أحيائهم ، والبدار إلى عيالهم » ^(٢) . وأغلب الظن أن كسيلة ، الذي انقلب على العرب ، بعد أن أهانه عقبة وحارب قبيلته ، تحالف مع الروم ، وهاجم القيروان في حشود ضخمة حتى يدفع عقبة إلى الإسراع بإرسال كتائب من جيشه لمواجهتها ، فيتفرغ هو بعد ذلك لمهاجمة عقبة ، فان ابن عبد الحكم يذكر أن عقبة لما تقدم إلى السوس ، « خالقه رجل من العجم في ثلاثين ألفا إلى عمر بن علي وزهير بن قيس ، وهما في ستة آلاف فهزمه الله » ^(٣) . وفي موضع آخر يقول : « ثم زحف ابن الكاهنة (لعله يقصد به كسيلة) إلى القيروان يريد عمر بن علي وزهير ابن قيس ، فقاتلاه قتالا شديداً ، فهزم ابن الكاهنة ، وقتل أصحابه » ^(٤) . ويغلب على الظن أن عقبة أذن لمعظم رجاله بالانصراف إلى القيروان عندما وصل إلى مدينة طبة ^(٥) من أرض الزاب ، وآثر عقبة أن يعرج على مدينتي تهوذه وباديس في أحواز الزاب بمن بقي معه من جنوده ، للاستيلاء

(١) عبيد الله بن صالح ص ٢٢٠ — ابن عذارى ، ص ٢٨

(٢) ابن عذارى ، ص ٢٨

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٧٢

(٤) نص المراجع ، ص ٧٤

(٥) الماكي ، ص ٢٥ — ابن عذارى ، ص ٢٨ — السلاوي ، ج ١ ص ٨٣

عليها وإقامة حامية دائمة من فرسانه فيها (١). وكانت عيون الروم وجواسيسهم في هذه النواحي قد بعثوا إلى كسيلة الأوربي ، « فأعلموه بقلعة من معه ، فجمع له جمعا كبيرا من الروم والبربر ، وزحف إليه ليلا حتى نزل بالقرب منه » (٢) .

وكان كسيلة قد جمع أكثر من خمسين ألف مقاتل ، فلما رأى عقبة عظم هذا الجيش ، وتطويق البربر لجيش المسلمين ، أيقن بقرب النهاية ، فأراد أن يبعث أبا المهاجر مع من يتبعه من المسلمين إلى القيروان ، حتى يعفيهم من القتل على أيدي البربر والروم ، فأبى أبو المهاجر إلا أن يغتنم الشهادة معه . فزل المسلمون عن دوابهم ، وكسروا أعماد سيوفهم ، ودارت الموقعة عند تهوده في نهاية سنة ٦٣هـ (٣) . فاستشهد عقبة وأبو المهاجر وسيفاهما في أيديهما ، واستشهد معهما عدد كبير من المسلمين ، ولم يفلت من الموت إلا من وقع أسيرا في أيدي البربر أمثال محمد بن أوس الأنصاري ، وبزيد بن خلف العبسي ، ففداهم ابن مصاد صاحب قفصة ، وبعث بهم إلى زهير بن قيس (٤) .

(١) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٠ . يذكر عبيد الله أن عقبة قال لما كره : « أريد أن أسلك على مدينة تهوده ومدينة باديس أجعل فيهما ما يقصوم بهما من العدة والماسك » .

(٢) المالكي ، ص ٢٥ - ابن عذاري ، ص ٢٩

(٣) يرى الدكتور حسين مؤنس أن موقعة تهوده حدثت سنة ٦٤هـ ، وأن زهير بن قيس قرر الانحاب إلى برقة سنة ٦٥هـ (انظر تعليق الدكتور حسين مؤنس على نص عبيد الله بن صالح ، ص ٢٣٦)

(٤) المالكي ، ص ٢٧ - ابن عذاري ، ص ٢٩ - ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٦ -

أبو الحسن ج ١ ص ١٥٩ - السلاوي ج ١ ص ٨٤

ودوى خبر مقتل عقبة في إفريقية والمغرب دوبا هائلا ، وكان له أثر
عميق في نفوس المسلمين ، وكان كسيلة قد زحف بجيوش لا حصر لها من
البربر والروم إلى القيروان ، « فانقلبت إفريقية نارا ، وعظم البلاء على
المسلمين » (١) .

(٢)

الفترة الثانية (٦٩ - ٨٩ هـ)

١ - انسحاب العرب من القيروان في سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ م) :

اختلف المؤرخون في توضيح موقف زهير بن قيس ، قائد جيش المسلمين في القيروان ، فبعضهم يذكر أن زهير لما بلغه خبر الكارثة التي نكب بها جيش عقبة في تهودة ، تولاه الذعر والخوف وأراد الانسحاب إلى مصر ، فأبى ابن حيسان الحضرمي ، إذ اعتبر ذلك هزيمة إلى مصر ، وكان أول من برز ، فضرب خباه مبارزا للعدو ، فلما رأى زهير بن قيس عزمه ، قرر البقاء في القيروان لمحاربة كسيلة . فلما أقبل كسيلة إلى القيروان ، قاتله المسلمون قتالا شديداً ، فانهزم ، وقتل عدد كبير من أصحابه وتفرقوا . أما زهير فقد أقام يسيراً في القيروان ، ثم خرج إلى مصر ، فأقام بلوبية ومراقبة عام ٦٥ هـ ، حتى أمده عبد الملك بن مروان بجيش استرد به إفريقية^(١) . هذه الرواية تتناقض تفصيلها ولا تتفق مع الأحداث التي تلت مقتل عقبة وأصحابه في تهودة ، ونسأل لماذا ترك زهير القيروان بعد انتصاره المزعوم إلى لوبية ومراقبة ، ولماذا أقام هنالك حتى أمده عبد الملك بجيش لاسترداد إفريقية ؟ ونفهم منها على الرغم من ذلك أن إفريقية ضاعت على المسلمين إلى أن استردها زهير ابن قيس بعد ذلك بفترة من الوقت .

ويتفق معظم المؤرخين على أن زهيراً خطب في الناس بعد كارثة تهودة قائلاً : « يا معشر المسلمين ، إن أصحابكم قد دخلوا الجنة ، وقد من الله

(١) المالكي ، ص ٢٨ ، ٢٩ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٩

عليهم بالشهادة ، فاسلكوا سبيلهم ، ويفتح الله لكم دون ذلك » فاعترض عليه حنش الصنعاني التابعي ، وطالبه بالانسحاب مع بقية الجيش العربي إلى المشرق حتى لا يتعرض المسلمون لسيوف البربر ، وقال : « يامعشر المسلمين ، من أراد منكم القفول إلى مشرقه فليتبني » . فاتبعه الناس ، ولم يبق مع زهير إلا أسرته وذويه . فاضطر إلى اللحاق بهم ، وتزل بقصره في برقة ، وأقام بها مرابطا إلى دولة عبد الملك بن مروان ^(١) .

ولا يعقل أن تؤثر حماية القيروان البقاء بها لكي تذبج على أيدي البربر ، فال معروف أنهم كانوا قلة ضئيلة بالقياس إلى حشود البربر الكثيفة التي كان يقودها كسيلة ، وواضح أن معظم الجنود العرب قد سثموا القتال في غزوة عقبة ، فلما لوالا العودة إلى المشرق . يضاف إلى ذلك أن فاجعة تهوذة التي لم ينج منها إلا التندر اليسير من رجال عقبة الذين بقوا معه بعد رحيل معظم عسكره إلى القيروان (عند طينة) ، أفزعت المسلمين ، وحطمت من روحهم المعنوية ، وقتت من عزائمهم ، فلم يكن هناك بدامن الانسحاب السريع ، وإلا فكيف نفسر رحيل زهير بن قيس من القيروان إلى برقة ، وانتظاره هناك لمدة يسترد به القيروان ؟ . وتقدم كسيلة بعسكره بعد انتصاره في تهوذة نحو القيروان ، فلما اقترب منها ، ولى من كان قد بقى فيها من العرب هاربين ، إذ لم يكن لهم طاقة بقتاله بعد انسحاب الجيش ، ولعظم ما اجتمع لديه من بربر وروم . ويذكر المالكى أنه لم يبق في القيروان بعد رحيلهم إلا الشيوخ الهرم ، والنساء ، والأطفال ، وكل منقل بالآولاد ، فأرسلوا إلى كسيلة

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٠ ، ٧٤ - المالكى ، ص ٢٨ - ابن عذارى ، ص ٣١

عبد الله بن صالح ، ص ٢٢١ - السلاوى ، ص ٨٤

يسألونه الأمان ، فأجابهم إلى ذلك ، ودخل القيروان في المحرم سنة ٦٤ هـ ، وجلس في قصر الإمارة أميراً على البربر ومن بقى في القيروان من العرب^(١).

وأُسفر انسحاب الجيش العربي إلى برقة عن خروج إفريقية من أيدي العرب ، وضاعت بذلك جهود أربعين عاما قضاه المسلمون في غزو وفتح. ولكن العرب لم يفقدوا كل شيء ، فقد تركوا بإفريقية طائفة من البربر تحولت إلى الإسلام^(٢). ويستنتج الدكتور حسين مؤنس من سعى صاحب قصة لافتاء أسرى المسلمين في تهودة وإرسالهم إلى زهير بن قيس بالقيروان ، أن العرب نجحوا في نقل جماعات من البربر إلى الإسلام ، أو أنهم أفلحوا على الأقل في إنشاء طوائف بربرية تميل إليهم. ولذلك يشير مؤرخو العرب إلى أن استشهاد عقبة في القيروان أحدث اضطرابا كبيرا في إفريقية ، فابن عذاري يقول : « واضطربت إفريقية »^(٣) ، والمالكي يقول : « فانقلبت إفريقية نارا »^(٤). ولا حدال في أن المقصود بذلك هو قيام ثورة كبيرة شملت البلاد بأسرها بعد انسحاب جيش العرب من القيروان . ويعتقد الدكتور مؤنس أنه « كان في إفريقية في ذلك الحين نقر عظيم لم يرضهم سقوط القيروان في يد كسيلة ، فأثارهم ذلك ، وثارَت المنازعات بينهم وبين أنصاره . ومن يكون هؤلاء الذين ثاروا تلك الثورة إلا بربرا مسلمين أو أنصارا للمسلمين؟ »^(٥)

(١) المالكي ، ص ٢٨ - ابن عذاري ، ص ٣١ - السلاوي ، ص ٨٤

(٢) حسين مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، ص ٢١١

(٣) ابن عذاري ، ص ٣٠

(٤) المالكي ، ص ٢٨

(٥) حسين مؤنس ، المرجع السابق ، ص ٢٠٧

وإذا كان كسيلة قد نجح حريا في احتلال القيروان ؛ فانه لم يستطع أن يكسب إليه المسلمين من البربر ، فلم يلبث هــؤلاه أن تنازعوا معه ، فعم الاضطراب صفوفه ، واختلت أحواله ، وسرى بعد قليل أن هؤلاه البربر سينضمون طائعين إلى جيوش المسلمين .

ب - حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان :

عاد زهير بن قيس إلى برقة ، فأقام بها في قصره بسرت انتظارا لمد يبعثه إليه الخليفة الأموي لاسترداد إفريقية ، أما ضعفاء المسلمين ومن خرجوا معه من القيروان من موالى إفريقية فقد تفرقوا في إقليم إطرابلس (١) . وكان يزيد بن معاوية قد توفى في سنة ٦٤ هـ وخلفه ابنه معاوية الثاني الذي لم يمتد عهده أكثر من أربعين يوما ثم توفى ، وظل عرش الخلافة شاغرا زهاء ستة شهور ، قام خلالها عبد الله بن الزبير بالدعوة لنفسه في الحجاز ، وبإيعه أهل الحجاز والعراق وخراسان ومصر . وفي ذى القعدة سنة ٦٤ هـ ، انعقد مؤتمر الجابية ، وفيه تمت بيعه مروان بن الحكم . وشغل مروان منذ اعتلائه دست الخلافة بمحاربة المضربة بزعامة الضحاك بن قيس ، وكان انتصار مروان وحزبه البيني على المضربة في موقعة مرج راهط ، في المحرم سنة ٦٥ هـ ، أشبه بوقود أضرمت فيه نار ، كما كان ابدا نا بهبوب ريح العصبية القبلية في أنحاء البلاد . كذلك شغل مروان بن الحكم بمحاربة الزبيريين في مصر والحجاز ، ونجح في إعادة مصر إلى سلطان الخلافة الأموية ، ولكن لم يطل به العهد للقضاء على حركة الزبيرية في الحجاز ، ومات في رمضان سنة ٦٥ هـ قبل أن يقوم بأى عمل حاسم في إفريقية . وخلفه ابنه عبد الملك الذي ولى

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٤

الخلافة الأموية والبلاد قد مزقتها المصيبات القبلية ، والثقت قد اجتاحتها من كل مكان^(١) وكان زهير بن قيس وهو مقيم بيرة منذ انسحاب العرب من القيروان ، لا يكفى أثناء ذلك عن حث مروان وابنه عبد الملك من بعده على تخلص إفريقية من أيدي الروم والبربر . وعلى الرغم من كل هذه المشكلات التي صادفته منذ توليه الخلافة ، فقد عز على عبد الملك ، وكان رجلا مجاهدا ، قد شارك في فتوح إفريقية في حملة معاوية بن حديج ، أن يضيع المغرب على الإسلام ضياعا نائيا بعد سنين طويلة من جهاد واستشهاد ، فجعل مشكلة استرداد إفريقية في مقدمة مشكلاته ، وآثر أن ينظر في استردادها قبل أن يقضى على فتنة ابن الزبير . وكان أمر المغرب يتطلب رجلا يماثل عقبة « دينا وعقلا » ، فاستشار وزراءه ، فاجتمع رأيهم على تقديم زهير بن قيس البلوي ، باعتباره صاحب عقبة ، وأعلم الناس وأخيرهم بسيرته وتديره ، وأولام بطلب دمه . ويذكر المؤرخون أنه بحث في سنة ٦٦٩ هـ إلى زهير وهو مقيم بيرة يأمره بالخروج على أئنة الخيل إلى إفريقية ليستنقذ من بالقيروان من المسلمين . فكتب إليه زهير يعرفه بكثرة من اجتمع على كسيلة من البربر والروم ، وقلة من معه من الرجال والأموال^(٢) . ولم يخجل عبد الملك على زهير بن قيس بالمال والرجال ، ويقول المالكى أن عبد الملك أرسل « إلى أشراف العرب ليحشدوا إليه الناس من الشام ، وأفرغ عليهم أموال مصر ، فسارع الناس إلى الجهاد . واجتمع منهم خلق عظيم ، فأمرهم أن يلحقوا

(١) يعتقد الدكتور مؤنس أن زهير أقام بعض هذه الفترة في مصر ، وبعضها الآخر في بيرة (فتح العرب للمغرب ، ص ٢١٢)

(٢) المالكى ، ص ٢٩ — ابن عذارى ، ص ٣١

بزهير»^(١). ووفدت جيوش العرب على زهير وهو مقيم ببرقة، وتسرع الناس للسير معه إلى إفريقية^(٢).

خرج زهير بن قيس من برقة في سنة ٦٩ هـ في عسكر ضخم متجها نحو إفريقية. وبلغ كسيلة قدوم العرب إليه، فحشد للقائهم جيشا كشيئا من البربر والروم، بالغ المؤرخون في تقدير عدده، فذكروا أنه كان «أضعاف ما على زهير مضاعفة»^(٣). وعلى الرغم من كثرة جيشه، فقد أبدى تخوفا كبيرا من موقف مسلمي القيروان نحوه عند وصول جيوش العرب، وخشى أن يقع بين عدوين: عدو داخلي يتمثل في الحزب الإسلامي الذي يتألف من مسلمي القيروان ومن يميل إليهم من البربر، وعدو خارجي هم العرب. فدعا كسيلة أشراف البربر، وقال لهم: «إني رأيت أن أرحل عن هذه المدينة، فإن بها قوما من المسلمين لهم علينا عهود، ونحن نخاف إن أخذنا القتال معهم أن يكونوا علينا، ولكن نزل على موضع ممس (Mamma) وهي على الماء، فإن عسكرنا خلق عظيم، فإن هزمتهم إلى طرابلس قطعنا آثارهم، فيكون لنا القرب إلى آخر الدهر، وإن هزمونا كان الجبل منا قريبا، والشعراء فتحصن بها»^(٤).

ونقمهم من هذا النص، أن مدينة القيروان كانت ما تزال تضم داخل أسوارها جماعة كبيرة من المسلمين عربا وبربرا، كما كانت تضم حزبا قويا

(١) المالكي، ص ٣٠.

(٢) ابن عذاري، ص ٣١.

(٣) قس المرجع، ص ٣٢.

(٤) المالكي، ص ٣٠ - ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٥٥ - ابن عذاري،

يتاحر العرب وبناءً من كسيلة وكان كسيلة يخشى بأنهم يعمل لهم حساباً كبيراً .

خرج كسيلة من القيروان ، ونزل بقرية ممس ، وهو موضع يسميه البكري ساقية ممس^(١) ، ويقع جنوبي القيروان ، بين القيروان والأريس (تبسا)^(٢) ، ويبدو أنه انتقل إلى هذا الموضع لحصاته ، ومناعة موقعه ، إذ تقع ساقية ممس هذه على مرتفع من هضبة تتصل بجبال أوراس ، كما تقع في ذات الوقت على ماء ، وكان كسيلة ينوي - إذا دارت عليه الدائرة - أن يتحصن بالجبال . أما قوات المسلمين ، فقد نزلت في ظاهر القيروان ، بقرية يقال لها قرشانة^(٣) ، وأقام بجيوشه هناك ثلاثة أيام لم يدخل خلالها القيروان ، حتى لا يفاجئه كسيلة بمجيئه ، أو لكي يتمكن من دراسة الموضع الذي ستقوم فيه المعركة للقادمة . وفي اليوم الرابع زحف بكل جيوشه حتى أشرف على معسكر كسيلة بممس ، واشتبك الجيشان في قتال عنيف انتهى بهزيمة كسيلة ومصرعه ، وأمن فرسان العرب في طلب أتباع كسيلة من البربر والروم ، وطاردوهم في البلاد وأتبعوهم إلى مرماجنة^(٤) ، ثم إلى وادي ملوية بالمغرب

(١) البكري ، المغرب ص ١٤٦

(٢) تليق الأستاذ ليني بروفسال على نس عيدة بن صالح ، ص ٢١١

(٣) المالكي ، ص ٣٠ . لعلها قرية فلتانة ، وهي المرس لمن خرج من القيروان وقدم إليها » (انظر اليقوي ، البلدان ، ص ٣٤٢ ، أنظر أيضا ياقوت ، معجم البلدان جلد ٤ ، ص ٣٨٩)

(٤) مدينة صغيرة تقع بين الأريس وتامديت بالقرب من القيروان ، وكان يسكنها بربر من هواة . (الإدريسي ص ١١٨ - ١١٩ ، ابن حوقل ، ص ٨٤ - ياقوت ، جلد ٥ ص ١٠٩)

الأوسط . وتمكن زهير من افتتاح شقبنارية وغيرها من القلاع ^(١) . وتعتبر موقعة وادي ممس من للواقع الحاسمة في تاريخ الفتح العربي للمغرب ، وبلغت السلوى عليها بقوله : « وفي هذه الواقعة ذل البربر ، وفنت فرسانهم ، ورجلهم ، وخضدت شوكتهم ، واضمحل أمر الفرنجة ، فلم يعد ، وخاف البربر من زهير والعرب خوفا شديداً ، فلبثوا إلى القلاع والمحصون ، وكسرت شوكة أوربة من بينهم ، واستقر جمهورهم بديار المغرب الأقصى ، وملكوا مدينة ويلي » ^(٢) .

عاد زهير إلى القيروان ، فأوطنها حينئذ ، نظم فيه إدارتها ، وأقام عليها كثير من أصحابه ، ولكن لسبب ما لا يمكننا تعليله قرر زهير اللغول إلى برقة . ويفسر ابن عذاري والمالكي عودته بعد انتصاره على كسيلة ، بأنه أبقى المقام في القيروان حتى لا يجرفه تيار الدنيا وفتنتها لرفاهية العيش فيها ، وأنه ما قصد إلا الجهاد ^(٣) ، ولكن هذا التفسير لا يقوم على أساس قوى ، فإن إفريقية كانت من أصلح الأقطار في العالم للجهاد والمناغرة ، وقد كانت إفريقية حتى أيام حسان بن النعمان دار حرب وجهاد ، إذن فهناك سبب آخر دفع زهيراً إلى هذا الرحيل السريع . واعتقد أن مهمة زهير انتهت باسترداد العرب للقيروان ، والثأر من كسيلة الذي ترصد لصاحبه عقبة وقتله . وكان زهير يزهد في الإمارة . لذلك أثر العودة إلى مصر ^(٤) /

ويتفق المؤرخون على أن زهير بن قيس لقي مصرعه في برقة ، ولكنهم

(١) المالكي ، ص ٣٠

(٢) الاستبصار ، ص ٩١

(٣) المالكي ، ص ٣٠ - ابن عذاري ، ص ٣٢

(٤) المالكي ، ص ٦٠

يختلفون في التفاصيل ، فإن ابن عبد الحكم يذكر أنه أقام بمصر ، واتفق أن أغار الروم على أنطابلس (برقة) ، واستولوا عليها ، فبلغ عبد العزيز ابن مروان ذلك ، فأرسل في طلب زهير ، وأمره بالخروج لمحاربة الروم ، غير أنه لم يجمع لزهير من أصحابه إلا سبعون رجلا ، سار بهم إلى برقة ، فلما وصل إلى درنة من طريق باقليم أنطابلس ، لقي الروم وهو في سبعين رجلا ، فتوقف حتى يتمكن من جمع بعض المسلمين في هذه النواحي لمحاربة الروم ، ولكن الروم لم يملوه ، فلقبهم ، واستشهد هو وأصحابه جميعا في سنة ٧٦ هـ . وبضيف ابن عبد الحكم أن رجلا من مذحج يقال له عطية بن يربوع كان مقيا ببلدة أملس من برية أنطابلس . استغاث بجماعة من المسلمين ، فاجتمع إليه سبعمائة رجل ، زحف بهم إلى الروم ، فقاتلهم ، وهزمهم ، فمروا سفنهم وولوا هارين (١) .

هذه الرواية ينقدها ابن عبد الحكم ، وتتضمن خلطا بين أعمال حسان ابن النعمان وأعمال زهير ، فتجعل إغارة الروم على أنطابلس بعد عودة حسان بن النعمان إلى دمشق ، وتشير إلى أن زهير عاد مع حسان من إفريقية ، فاستقر بمصر إلى أن أمره عبد العزيز بن مروان بالانحسار إلى الروم ، ولو أن ذلك كان صحيحا ، لكان عبد العزيز قد أمده بجيش كبير لمقاتلة الروم . ولكن زهير - وفقا لهذه الرواية - لم يجمع أكثر من سبعين رجلا ، وأنه اختلف مع عبد العزيز بن مروان ، ومضى برجاله السبعين لملاقاة الروم ، وهذا لا يمكن اعتباره إلا عملا انتحاريا من جانب زهير . ثم إن تاريخ مقتل زهير وفقا لهذه الرواية (سنة ٧٦) غير صحيح لأن هذا التاريخ يسجل عودة

حسان بن النعمان من إفريقية إلى برقة في معظم المصادر .

وتتفق معظم المصادر العربية : على أن زهير « رحل إلى المشرق في خلق عظيم ، فبلغ الروم خروجه من إفريقية إلى برقة ، فأمكنهم ما يريدون ، فخرجوا إليها في سراكب كثيرة ، وقوة عظيمة ، فأغاروا على برقة ، فأصابوا فيها سبياً كثيراً ، وقتلوا ونهبوا . ووافق ذلك قدوم عسكر زهير إلى برقة من إفريقية ، فأخبر زهير بخبرهم . فأمر عسكره بالمسير إلى الساحل طمعاً أن يدرك سبي المسلمين فيستنقذهم . فأشرف على الروم ، وإذا هم في خلق عظيم ، فلم يقدر على الرجوع ، وقد استغاث به المسلمون وصاحوا ، والروم يدخلونهم للسراكب ، فنادى بأصحابه النزول ، فزلوا ، وكانوا أشرف العابدين ، ورؤساء العرب المجاهدين ، أكثرهم من التابعين . فزل الروم إليهم ، وتلقوهم بعدد عظيم ، والتحم القتال ، وتكاثرت عليهم الروم ، فقتل زهير - رضى - وأشرف من كان معه من العرب ، ومضى المسلمون إلى دمشق ، فدخلوا على عبد الملك بن مروان ، فأخبروه أن أميرهم وأشرف رجالهم قد استشهدوا . فعظم ذلك عليه ، لفضل زهير ودينه ، وكانت مصيبتة مثل مصيبة عقبة قبله » (١) .

ونعتقد أن هذه الرواية أقرب إلى الحقيقة ، فإن الروم كانوا يضمرون لزهير السوء لغضائهم على حليفهم كسيلة ، ومن معه من بربر أوربة البرانس ، الذين كانت تربطهم بهم روابط وثيقة من الحلف ، فلما علموا برحيله من القيروان ، قطعوا عليه الطريق عند برقة بمحشود ضخمة ، ولم يكن مع زهير من العسكر إلا عدد قليل من أشرف العرب ، كان يزعم العودة بهم إلى مصر ، ولم يجد

(١) ابن عذارى ، ص ٣٣ - ورواية الألكسى قريية من رواية ابن عذارى .

زهير بدا من الالتحام معهم ، فقتل ، وقتل معظم من كان معه من أشرف العرب . فقتل زهير ثم إذن بتدبير من الروم . وهكذا اختتم زهير بن قيس حياته شهيدا ، بعد أن قضى على مقاومة يربر أوربة البرانس . وكانت مهمة خلقه حسان بن النعمان أن يثار أولا لمقتل زهير ، فيبادر بمهاجمة وكرهم في قرطاجنة .

ج - حملة حسان بن النعمان الأولى ، وتخريب قرطاجنة :

لما استشهد زهير بركة اضطربت بلاد المغرب من بعده ، واضطربت فيها فار الفتن ، واختلف أمر البربر ، وتعدد سلطانهم في رؤسائهم ، وكان من أعظم زعماء البربر وقتئذ الكاهنة الزناتية الجراوبة « صاحبة جبل أوراس » التي ستحدث عنها بعد قليل . وانقضت بعد ذلك أربع سنوات توقف فيها الفتح لانشغال عبد الملك بن مروان بالقضاء على ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، فقد تصادف بعد مقتل زهير ، أن نزل الجراجمة الذين كانوا يسكنون فيما بين مدينتي بياس وبوقاس بجبل اللكام^(١) بإيعاز من البيزنطيين ،

(١) هي سلسلة الجبال الممتدة من أنطاكية شمالا ، وهي تعرف اليوم بجبال العلويين (عجاج نوحى ، لحم والرمة ، بيروت ١٩٦٢ ص ١٧) . والجراجمة على حد قول الأستاز عجاج نوحى ، ملهم بقية من الحثيين بقوا في هذه المنطقة الجبلية بعد اندثار دولهم ، وكانوا على النصرانية كالردة في شرقي الأناضول ، وتربطهم بالروم بروابط وثيقة . وقد ظل الجراجمة يمد تمه العرب لبلاد الشام يتجسسون حثا للعرب على الروم وأسيان لبيزنطة على العرب ، فلما قدم الرمة إلى الجراجمة ، ألغوا عصابات كانت ترح على الجبال من اللكام إلى لبنان وفلسطين ، وكانوا يستغلون فترات الفتن في الدولة العربية فيغيرون على الشام (نقى المرجع ص ١٧ ، ١٨) . ويجعل الدكتور فليب حنى من الرمة والجراجمة شعبا واحدا ، ويذكر أنهم كانوا شوكة في جانب الدولة العربية بمدون الروم من معاقلم في جبل ٣٣

على لبنان^(١) في سنة ٥٧٠ هـ ، في الوقت الذي خرج فيه عبد الملك بن مروان لمحاربة زفر بن الحارث الكلبي بقرقيسياء وبلاد الرحبة يبغي استزله ، بعد أن استخلف على دمشق عمرو بن سعيد بن العاص . فاستغل عمرو فرصة غياب عبد الملك ودعا الناس إلى بيعته بدمشق وتحصن داخل أسوارها ، فاضطر عبد الملك إلى الرجوع ، وحاصر دمشق ، ودخلها . وقتل عمرا^(٢) . ثم شغل عبد الملك بعد ذلك بإجلاء الجراجة من لبنان والشام ، وخرج في سنة ٥٧٢ هـ لمحاربة مصعب بن الزبير ، واصطدم مع جيش مصعب في دير الجانليق ، في ١٥ جمادى الأولى من تلك السنة ، وانتهت الموقعة بمقتل مصعب ، وهزيمة جيشه^(٣) . وعهد عبد الملك وهو في الكوفة إلى الحجاج بن يوسف الثقفي بالتوجه إلى مكة على رأس جيش كبير لمحاربة ابن الزبير ، وعاد هو إلى دمشق ونجح الحجاج في دخول مكة ، وقتل ابن الزبير في ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٥٧٣ هـ .

وكان عبد الملك يعتقد أن إفريقية لا يمكن أن تفتح فصحا منتظما ثابتا إلا إذا أعد لذلك جيشا ضخما مسلحا بكل أنواع الأسلحة والمعدات ، ولم يكن ذلك ممثاله وهو يحارب في جبهات متعددة ، فلما انتهى من القضاء على عبد الله بن الزبير ، أخذ يتفرغ لشؤون المغرب . وبذكر المالكى أنه جهز

== الاسكاف وطوروس بالرجال والجنود غير النظاميين . ويذكر أيضا أن هؤلاء الجراجة سيوا لادولة الأموية متاعب كثيرة (أنظر تاريخ سوريا ولبنان و فلسطين ج ٢ ترجمة كمال إليازجي ، بيروت ١٩٥٩ ص ٥٤-٥٢ . لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة ، بيروت ١٩٥٩ ص ٢٩٨-٢٩٩)

(١) البلاذري ، فتوح البلدان ، قسم ١ ص ١٩٠

(٢) المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ١١٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١١٧

لهذا الغرض جيشاً عدته ستة آلاف مقاتل^(١)، وجعل على قيادة هذا الجيش قائداً قديرأهو حسان بن النعمان الغساني. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ سير هذه الحملة إلى إفريقية، فابن عبد الحكم يحدد لها سنة ٧٣ هـ^(٢)، وابن الأثير يحدد لها عام ٧٤ هـ^(٣)، ويؤيده في ذلك ابن خلدون^(٤). أما ابن عذاري، فقد حدد لهذه الحملة سنة ٧٨ هـ^(٥). ويرجع سبب هذا الاختلاف، إلى أن المؤرخين العرب يخلطون بين تاريخي حملتين قام بهما حسان، الأولى سنة ٧٤ هـ، والثانية سنة ٧٨ هـ.

لما اختار عبدالملك بن مروان حسان بن النعمان قائداً على جيوش إفريقية، أمره بالإقامة مع عسكره بادي. ذي بدء في مصر. فأقام بها بعض الوقت حتى انتهى عبد الملك من مشكلة ابن الزبير، فكتب إليه يأمره بالسير إلى إفريقية، وقال له: «إني قد أطلقت يدك في أموال مصر، فاعط من معك ومن ورد عليك، واعط الناس، واخرج إلى بلاد إفريقية على بركة الله وعونه^(٦). فخرج حسان إلى إفريقية في جيش هائل لم يسبق أن دخل المسلمون قطر إفريقية بمثل هذا العدد من عسكر حسان. وفي إفريقية انضم إلى هذا الجيش الكثيف عدد آخر من المسلمين البربر يقودهم هلال بن ثروان اللواتي، تضخم بهم جيش حسان. وكان حسان يهدف قبل كل شيء إلى

(١) المالكي، ص ٣٤

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٧٦

(٣) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ١٧٩

(٤) ابن خلدون، البر، ج ٤، ص ٨٧

(٥) ابن عذاري، ج ١، ص ٣٤

(٦) ابن عذاري، ص ٣٤

محاربة الروم في عاصمتهم قرطاجنة ، ويذكر ابن عذارى أنه لما وصل إلى القيروان سأل أهل إفريقية : « من أعظم الملوك بها قدراً ؟ فقالوا : صاحب قرطاجنة ، دارملك إفريقية » . فسار حسان حتى نزل بالقرب منها . ويذكر المالكي أنه نزل في ترشيش على شاطئ البحر ^(١) ، وترشيش هو الموضع القديم لمدينة تونس ، ولما افتتحها المسلمون ، وأحدثوا البناء بها سموها تونس ^(٢) . وكان بقرطاجنة من الروم عدد كبير لا يحصى كثرة ، ونجح حسان في إيقاع الهزيمة بهم ، وحاصر قرطاجنة حصاراً شديداً من البر ، ويبدو أيضاً أنه أحكم حصارها من البحر حتى يمنع عنها الإمدادات ، حتى افتتحها ، وفر معظم من كان بها من الروم في مراكبهم إلى صقلية والأندلس ، وتعرض من بقي منهم فيها لسيوف المسلمين . ولاحظ حسان أن هذه المدينة أصبحت تشكل خطراً دائماً على الفتح العربي لإفريقية ، فرأى ضرورة تهديمها ، فأمر بتخريب عمرانها ، فغرب حتى صارت كأمس الغابر ، ^(٣) وقطع القناة عنها ^(٤) .

وعلم حسان بعد ذلك أن الروم جمعوا شتاتهم ، وانضمت إليهم جماعات من البربر الموالين لهم ، احتشدت حشودهم في بلاد صطفورة ^(٥) ، فزحف إليهم بكامل جيشه ، واشتبك معهم في قتال عنيف ، انتصر فيه عليهم انتصاراً

(١) المالكي ، ص ٣١

(٢) الإدريسي ، ص ١١١

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٥

(٤) المالكي ، ص ٣٢

(٥) ذكر الإدريسي أن إقليم صطفورة يتصل بأرض قرطاجنة من جهة الغرب ، وهو إقليم جليل ، به ثلاث مدائن هي بالترتيب من الشرق إلى الغرب : انلولة وتينجة وبثروت (الإدريسي ص ١١٤)

حاصما ، وسحق قواتهم سحقا ، وأذرع فيهم فاستأصلهم ، ثم حمل عليهم أcente خيله ، لما ترك من بلادهم موضعا إلا وطنه ، ولجأ الروم هارين خائفين إلى مدينة باجة ، فحصنوا بها ، وهرب البربر إلى إقليم بونة ^(١) ، ثم عاد حسان بعد ذلك إلى القيروان .

وأقام حسان بالقيروان بعض الوقت حتى برئت جراح أصحابه ، فتأهب لمواجهة المشكلة الثانية ، وهى مشكلة بربر البتر الذين اجتمعوا حول زعيمة لهم تعرف بالكاهنة . ويقال لها داهية بنت مانية بن نيفان ملكة جبل أوراس ، وقد سأل حسان جماعة مسلمى البربر عنها فذكروا له « أن جميع من بافريقية منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون ، فان قتلها دان لك المغرب كله ، ولم يبق لك مضاد ولا معاند » ^(٢) . ولم يردد حسان فى السير نحو حشود الكاهنة ، فلما علت بذلك سبقتة إلى مدينة باغاية ، فأجلت عنها الروم ، وهدمتها ظنا منها أن حسان يريد الاستيلاء عليها والتحصن فيها ، أما حسان فزل بوادى مسكينة ^(٣) المعروف بوادى العذارى . وزحف الكاهنة حتى دفت من معسكر المسلمين ، والتقى الجيشان على الأرجح فى سنة ٧٥ هـ فى قتال شديد أسفر عن هزيمة جيش حسان ، وأسر من أصحابه

(١) لئالكى ، ص ٣٢ - ابن الأثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ١٨٠ - ابن عذارى

ص ٣٥ - السلاوى ، ص ٩٢

(٢) لئالكى ، ص ٣٢ - ابن عذارى ، ص ٣٥

(٣) يسميه ابن عبد الحكم بنهر البلاء (ص ٧٦) ، ويسميه ابن الأثير نهر نبي (أند القابة ، ج ٤ ص ١٤٤) ، ويسميه عبيد الله بن صالح وادى ترضى (نسي عبيد الله ص ٣٢٢) . ويذكر البكرى أن قرية مسكينة تقع على نهر قريبا من باغاية (البكرى ص ٥٠) . ويذكر الإدريسي أن منفا للقرية عامرة قديمة أزيلت وبها ذروع ومكاسب وعيون ، وأنها تقع بين سيبة وباغاية (الإدريسي ، ص ١١٩)

ثمانين رجلا . فتراجعت فلول جيشه في منطقة الجريد ، وأتبعها حشود الكاهنة حتى تجاوز فل المسلمين بقيادة حسان مدينة قابس منسحبا إلى برقة . وهكذا تراجع جيش حسان إلى برقة ولكن بعد أن استخلف على إفريقية رجلا يسمى أبو صالح ^(١) . أما الكاهنة ، فلم تتعرض للقيروان بسوء ، ولم تدخلها ، وإنما عادت إلى جبل أوراس . وعملت الكاهنة على القضاء على مظاهر العمران بإفريقية اعتقادا منها بأن العرب إنما يسعون وراء العمران حيث الذهب والفضة ، فوجهت قوما إلى كل ناحية من بلاد إفريقية والمغرب ينتسفون المزارع ويهدمون الحصون ، فبعد أن كانت إفريقية ظلا واحدا من إطرابلس إلى طنجة قرى متصلة ، ومدنا منتظمة ، تلاشى ذلك كله ، وشمل الحراب سائر هذه البلاد ^(٢) . إلا أن ذلك التدمير والتخريب أضر بالكاهنة ضرراً بالغا ، فقد انقض عنها معظم أنصارها من النصارى والأفارقة ، واتصل عدد كبير منهم بحسان يستنجدون به من الكاهنة . وكان البيزنطيون بعد سقوط قرطاجنة في أيدي الماسون ، ينتظرون فرصة مواتية يستردون بها هذه المدينة ، فانتهاز الامبراطور ليونتيوس فرصة انتصار الكاهنة على العرب ، وأعد حملة بحرية بقيادة البطريق يوحنا ، أغارت على قرطاجنة في سنة ٧٨ هـ ، وقتل البيزنطيون من بها من المسلمين ، وسلبوا ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم ^(٣) .

وكانت الكاهنة قد أسرت بعد انتصارها على المسلمين في وادي مسكيانة

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٧٦

(٢) ابن عفرى ، ص ٣٦

(٣) البكري ، ص ٢٨ - Ch. Diehl & Marcais, Histoire du moyen

نحو ثمانين رجلا من أشراف العرب ، أفرجت عنهم بعد انسحاب حسان من إفريقية ، واستثنت منهم رجلا واحدا هو خالد بن يزيد العبسي ، أعجبت بشجاعته ووسامته ، فرغبت في أن تنبأه ، وكان لها ولدان : أحدهما بربري والآخر يوناني ، «فعمدت إلى دقيق الشعير فثلثته بزيت ، وجعلته على ثديها ، ودعت ولديها وقالت : كلا معه على ثديي ، ففعلا ، فقالت ، قد صرتم أخوة » (١) :

د - حملة حسان الثانية:

أقام حسان بركة منتظرا للامدادات التي وعده الخليفة عبد الملك بإرسالها إليه لاسترداد إفريقية ، فأسس هناك قصورا ، كانت تعرف في أيام ابن عذارى باسم قصور حسان (٢) ، وكانت انطايلس ولوية ومراقية إلى حد أجدابية من عمله (٣) . وكان حسان على اتصال دائم بخالد بن يزيد ، فكانت الكتب ترد بينهما سرا ، إذ كانا يحرضان على إخفاؤها عن الكاهنة أوجالها ، إما في شق الخبز أو في القرايس ، ولا شك أن حسان أفاد من الأخبار التي زوده بها خالد بن يزيد عن طريق كتبه إليه ، في معرفة أحوال الكاهنة ، وخططها في الحرب. وكان حسان أثناء إقامته ببركة ، يلح على عبد الملك بأن يمدّه بجيش كبير ليستعيد به إفريقية ، ويحتفظ المسلمون بها نهائيا ، ولكن عبد الملك رأى ألا يغامر من جديد في المغرب حتى ينتهي تماما من القضاء على ثورات البربر والأزارقة والصفرية ، وكان قد سخر لهذا الغرض كل إمكاناته ، ونجح واليه الحجاج بن يوسف في القضاء أولا على الأزارقة

(١) الكشي ، ص ٣٤ - ابن عذارى ، ص ٣٧

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ٧٦ - ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) ابن عبد الحكم ، نفس الصفحة

سنة ٧٧ هـ ، ثم تمكن أخيراً ، وبعد معارك طاحنة ، خاضها مع الخوارج من القضاء على الصفرية في حدود سنة ٧٨ هـ . وبذلك أخذ عبد الملك بتفرغ من جديد لشؤون المغرب . ويذكر المالكي أن حسان أقام بيرة زهاء ثلاث سنين ^(١) ، إلى أن وصلته الإمدادات التي بعثها إليه عبد الملك ، بينما يذكر ابن عذارى أنه أقام بها خمس سنين ^(٢) . وأغلب الظن أن عبد الملك أمده في سنة ٨٠ هـ ، أي بعد مضي خمس سنوات على انسحاب الجيش العربي من إفريقية ، بجيش ضخم للغاية ، عدته أربعون ألف مقاتل ^(٣) ، لم تشهد إفريقية جيشاً يماثله ضخامة وعدداً . وأعتقد أن المؤرخين اختلط عليهم أمر هذه الحملة ، فنسبوا هذا العدد الضخم إلى الحملة الأولى التي قادها حسان ضد الروم . ولو افترضنا أن حملة حسان الأولى كانت تضم أربعين ألفاً ، لما كان من المعقول أن ينهزم هذا الجيش على أيدي رجال الكاهنة . ولو لم يكن جيش حسان الثاني يمثل هذا القدر العظيم لما تنبأت الكاهنة بزوال ملكها ومقتلها بيد حسان مقدماً ^(٤) . ولا شك أن ضخامة هذا الجيش كان نتيجة انضمام البربر إلى العرب في محاربة الكاهنة ، فان ابن عذارى يذكر « أنه كان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا إليه ، فلم يقبل أمانهم إلا أن يعطوه من

(١) المالكي ، ص ٣٣

(٢) ابن عذارى ، ص ٣٦

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٤

(٤) ذكر ابن عبد الحكم ، أنه لما أقبل حسان من بيرة لتزو الكاهنة ، خرجت ناشرة شعرها ، فقالت : يا بني أنظروا ماذا ترون في السماء ؟ قالوا نرى شيطاً من حساب أمر ، قالت لا ولمي ولكننا رجع خيل العرب ، (ابن عبد الحكم ، ٧٨ — وقد ذكر المالكي ذلك أيضاً ص ٣٤)

فبالحلهم اثني عشر ألفا يجاهدون مع العرب ، فأجابوه وأسلموا على يديه^(١) ، وذكر المالكي إنه كان مع حسان جماعة من البربر يقال لهم البتر^(٢) .

ما كادت الكاهنة تعلم بقرب وصول حسان بجيشه إلى إفريقية حتى رحلت من جبل أوراس ، بعد أن أوصت خالد بن يزيد بأن يصحب ولديها ، ويستأمن لها عند حسان ، فأمنها ، أما هي فقررت أن تقاتل حتى الموت . وزحف حسان بكامل قواته لمقاتلة الكاهنة ، فلما وصل قريبا من قابس ولقيته الكاهنة في جيوش عظيمة ، فقاتلهم حسان ، فهزمهم الله عز وجل ، وهربت الكاهنة تريد قلعة بشر ، تحصن بها ، فأصبحت للقلعة لاصقة بالأرض ، فهربت تريد جبل أوراس ، ومعها صنم عظيم من خشب كانت تعبد ، يحمل بين يديها على حمل ، فقبضها حسان حتى قرب من موضعها^(٣) . وما زال حسان يطاردها حتى التقى بجيشها في سنة ٨٢ هـ عند بر الكاهنة^(٤) . فهزمها هزيمة شتاء ، وسحق جيشها ، وقتلها ، وبذلك قضى حسان على كل أثر للمقاومة في المغرب الأدنى ، واستقامت له البلاد . فاتجه إلى قرطاجنة للمرة الثانية لتطهيرها من البيزنطيين ، فاضطر هؤلاء إلى الفرار بحرا^(٥) ، واسترد حسان المدينة^(٦) ، ولكنه كان يخشى أن يفاجأ الروم من البحر مرة أخرى ،

(١) ابن عسارى ، ص ٣٨ - للمالكي ، ص ٣٦

(٢) المالكي ، ص ٣٥

(٣) المالكي ، ص ٣٥

(٤) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٣

(٥) ذكر البكري أن أهلها كانت عندما سفن ممتدة من ناحية باب النساء لخطوا فيها أموالهم وأولادهم وهربروا ليلا ، ولم يبق فيها غير مرقاق صاحبها (البكري ، المغرب ، ص ٣٧ - أنظر أيضا المالكي ، ص ٣٧)

(٦) Ch. Diehl, op. cit. p. 207 - حين مؤنس ، ص ٢٦٠

فراى أن يقيم ثجاء قرطاجنة مدينة عربية إسلامية ، تقع على البحر ، ونشرف على مدخل قرطاجنة ، فبنى تونس على بعد نحو ١٢ ميلا شرق قرطاجنة ، وكان يصلها بها طريق روماني قديم . وتونس هذه هي ترشيش القديمة ، ولم تكن تزيد عند بنائها عن قرية صغيرة ، فحولها حسان إلى قاعدة بحرية تفلح منها الأساطيل ، وأنشأ بها داراً لصناعة الأسطول ^(١) ، وأخرق إليها البحر ، وحفره إليها ، وبذلك أصبحت ميناء بحريا هاما ، وشيد فيها مسجدا جامعا ^(٢) وداراً للإمارة وثكنات للجند للمرابطة . وقد ر هذه المدينة الصغيرة أو المحرس البحرى أن نصبح أعظم ثغور إفريقية بعد ذلك بثلاثين عاما ، على يدى عبيد الله بن الحبحاب ، فقد نمت واتسع عمرانها ، وأقبل إليها الناس يستوطنونها ، وأقيم فيها مسجد جامع ، هو الجامع المعروف بالزيتونة ، وقد سمي كذلك نسبة إلى القديسة زيتونة التى عاشت فى زمن الوندال . كذلك أمر حسان بتجديد المسجد الجامع بالقيروان ، فبناه حسانا ، وجده فى شهر رمضان سنة ٨٤ هـ (٣) . وذكر البكرى ، أنه هدم المسجد الذى بناه عقبه « حاشى المحراب ، وبناه ، وحمل إليه الساريجين الحراوين الموشائين بصفرة ، اللتين لم ير الرامون مثلها ، من كنيسة كانت للأول فى الموضع المعروف اليوم بالقيسارية بسوق المغرب » (٤) .

(١) المالكي ، ص ٣٨ . أرسل عبد العزيز بن مروان الى حسان ألف قبلى بأهله وولده الى ترشيش وأمره بأن يبنى لهم دار صناعة يصنع فيها المراكب ويجهز الروم فى البر والبحر ، وأن يشار منها على ساحل الروم فيستولهم ذلك عن مهاجرة القيوان (البكرى ، ص ٣٨)

(٢) المالكي ، ص ٣٧

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٧

(٤) البكرى ، ص ٢٢

وبعد أن فرغ حسان من استرداد إفريقية، والقضاء على مقاومة البربر والروم، أخذ بوجه عنايته لتنظيم البلاد إداريا على نحو ما فعله العرب في مصر والشام والعراق وفارس، فدون الدواوين، ونظم الخراج، وكتبه على عجم إفريقية، وعلى من أقام معهم على دين النصرانية (١). ثم بعث عماله على سائر بلاد المغرب، وعمل على نشر الدين الاسلامي بين البربر، فوزع الفقهاء إلى سائر أنحاء البلاد لتعليم البربر قواعد الدين، ونشر اللغة العربية لغة القرآن، فأقبل البربر على الإسلام في حماس منقطع النظير، وحسن إسلامهم (٢)، فوجد حسان منهم أجناده حتى أصبح أكثر جيشه من البربر، ووزع بينهم المخطوط على نحو ما كان يفعل قواد الفتوحات في مصر على الفاتحين العرب، وكان حسان يقسم الفىء والأرض بينهم (٣).

وهكذا فتح حسان بلاد المغرب حريا ومعنويا في آن واحد، واستطاع أن يحول إفريقية قلبا وقالباً إلى ولاية عربية إسلامية، مستقلة نوعا ما عن وإلى مصر. ويبدو أن نزاعا حدث بينه وبين عبد العزيز بن مروان، وإلى مصر من قبل أخيه عبد الملك بن مروان، بسبب ذلك. فأخذ عبد العزيز يضيق عليه، ويحد من سلطاته، ويكف يده عن إتمام ما شرع فيه من إصلاحات، ثم عزله عن ولاية إفريقية في سنة ٨٥ هـ. ويرجع سبب هذا النزاع إلى رغبة عبد العزيز في الاستئثار بفنائم المغرب لنفسه، وذلك باستعمال أحد أتباعه بدلا من حسان، وقد حاول حسان أن يتجنب الاحتكاك

(١) ابن عثاري، ص ٣٨

(٢) ابن عثاري، ص ٣٨ - السلاوي، ص ٩٤

(٣) المالكي، ص ٣٦

بعد العزيز ، فلما شرع حسان في تأسيس مدينة تونس ، اتصل بعد الملك ابن مروان مباشرة يطلب منه أن يزوده بجماحة من الأقباط ليستخدمهم في تأسيس دار للصناعة ، فكتب عبد الملك إلى أخيه عبد العزيز يأمره أن يوجه إلى معسكر تونس ألف قبلى بأهله وولده وأن يحملهم من مصر ، ويحسن عنهم حتى يصلوا إلى ترشيش ، وهي تونس .

هـ - موسى بن نصير واستكمال فتح للغرب :

عاد حسان إلى مصر يجر وراءه ماغنمه في فتوحاته وغزواته ، وكان قد أخفى الجوهر والذهب والفضة في قرب الماء ، وأظهر ما سوى ذلك من أمتعة ودواب وورقيق وأموال ، فصادرها عبد العزيز بن مروان في مصر . فلما وصل حسان إلى دمشق ، شكاً للخليفة ما صنع به عبد العزيز ، وأفرغ له ما كان قد أخفاه عن عبد العزيز من جوهر ، فغضب الخليفة على عبد العزيز وأبدى استعداداً لرد حسان إلى عمله على إفريقية ، فأبى حسان منه ذلك ، وأقسم قائلاً : « لا أولى لبني أمية أبداً ^(١) » :

وكان عبد العزيز بن مروان قد ولي موسى بن نصير على إفريقية بدلا من حسان ، وذلك في أواخر سنة ٨٥ هـ ، وكان موسى بن نصير عاملاً لعبد الملك بن مروان على العراق مع بشر بن مروان أخى الخليفة ليكون له وزيراً ومشيراً ، وكان موسى هو المأخوذ بكل خلل وتقصير في ديوان العراق . ثم أخذ عليه عبد الملك عدة مأخذ ، وكتب إليه الحاج من

(١) ابن عسار ، ص ٣٩ . لاشك أن ابن عسارى أخطأ في اسم الخليفة ، فذكر الوليد بدلا من عبد الملك . ولكن من الحروف أن عبد الملك توفي في أول سنة ٨٦ هـ ، أى أن حسان عزل من إفريقية قبل وفاة عبد الملك بما يقرب من سنة أشهر

العراق يقول : « يا أمير المؤمنين ، إنه لا قدر لما اقتطعه موسى بن نصير من أموال العراق ، وليس بالعراق فابعث به إلى » .^(١) فتوجه موسى إلى بلاط الخليفة بدمشق ، وتصادف وجود عبد العزيز بن مروان ، الذي وفد إلى دمشق ومعه أموال مصر ، وكانت لموسى يد عظيمة عند عبد العزيز بن مروان ، فأدخله على عبد الملك . وذكر بعض المؤرخين أن عبد الملك أراد قتل موسى ،^(٢) فافتداه منه عبد العزيز بن مروان بمال^(٣) . وقيل أن عبد الملك أغرم موسى مائة ألف دينار ، فأعانه عبد العزيز بخمسين ألفاً ، أدى هو خمسين ألفاً في ثلاثة أشهر^(٤) . وعاد موسى مع الأمير عبد العزيز إلى مصر ، فولاها منها إفريقية^(٥) ، وأمدّه بجيش سار به إلى المغرب . ولما علم عبد الملك بتولية موسى بن نصير على المغرب ، استاء استيلاء كبيراً ، وأنكر على عبد العزيز ذلك ، وهم بعزل موسى ، لسوء رأيه فيه ، ثم رأى ألا ينقص ما فعله أخوه عبد العزيز ، فأقره على ولاية إفريقية مرغماً ، وأوصى أخاه بحسان خيراً^(٦) .

فلما قدم موسى بن نصير إلى إفريقية ، وشاهد جبالها ، جمع المسلمين ، وخطب فيهم خطبة جاء فيها : « أيها الناس ، إنما كن قبلي على إفريقية

(١) ابن قتيبة الدينوري ، كتاب الامامة والبيعة ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص

٦٢ ، ٦٣

(٢) قس المرجع ، ص ٦٣

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤

(٤) ابن قتيبة ، ص ٦٤ - ابن عذاري ، ص ٤٠

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤ - ابن عذاري ، ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة ، ص ٦٨

أحد رجلين : مسلم يحب العافية ، ويرضى بالدون من العطية ، ويكره أن يكلم ، ويحب أن يسلم ، أو رجل ضعيف العقيدة ، قليل المعرفة ، راض بالهوينى ، وليس أخو الحرب إلا من اكتحل السهر ، وأحسن النظر ، وخاض القمر ، وسمت به همته ، ولم يرض بالدون من المغن لينجو ، ويسلم دون أن يكلم ، أو يكلم ويبلغ النفس عندها في غير حرق يريده ، ولا عنف يقاسيه ، متوكلا في حزمه ، جازما في عزمه ، مستريدا في علمه ، مستشيرا لأهل الرأي في إحكام رأيه ، متحكما بتجاربه ، ليس بالمتجانب إقحاما ، ولا بالمتخاذل إجحاما ، إن ظفر لم يزد الظفر إلا حذرا ، وإن نكب ، أظهر جلادة وصبرا ، راجيا من الله حسن العاقبة ، فذكر بها المؤمنين ، ورجاهم إياها لقول الله تعالى « إن العاقبة للمتقين » ، أى الحذرين . وبعد : فإن كل من كان قبلى كان يعمد إلى العدو الأقصى ، ويترك عدواً منه أدنى ، ينتهز منه الفرصة ، ويدل منه على العورة ، ويكون عوناً عليه عند النكبة ، وإيم الله لا أرى هذه القلاع ، والجبال الممتعة حتى يضع الله أرفعها ، ويدل أمنعها ، ويفتحها على المسلمين بعضها أوجعها ، أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين^(١) .

ومن هذه الخطبة ندرك السياسة الجديدة التى اصطنعها موسى بن نصير فى فتح المغرب ، وهى سياسة تتضمن عزمًا أكيداً على فتح المغرب بالسيف والعنف مع اصطناع الحذر ، والبدء بالعدو القريب قبل البعيد ، وعلى هذا الأساس نراه يبدأ بفتح قلعة زغوان وما يجاورها فى أواخر سنة ٨٥ هـ ، وهى منطقة جبلية تقع ما بين القيروان وتونس^(٢) ، وكان يسكن زغوان

(١) ابن قتية ، ص ٦٦

(٢) الإدريسي ، ص ١١٩

قوم من البربر ، يزعمهم أمير يقال له ورقطان ، وكانوا يشكلون خطرا على
القيروان ، إذ كانوا يغيرون على سرح المسلمين ويرصدون غرتهم ، فوجه
إليهم موسى خمسمائة فارس بقيادة عبد الملك الحشيني ، فهزمهم وقتل أميرهم
وافتح قلعهم ، فبلغ سيهم يومئذ عشرة آلاف رأس ، وكان أول سبي
دخل القيروان في ولاية موسى ^(١) .

ثم بعث ابنه عبد الرحمن . وقيل عبد الله ، إلى بعض نواحي القيروان ،
فسبي مائة ألف رأس ؛ ثم وجه ابنه مروان إلى منطقة أخرى من إفريقية ،
فسبي مثل ذلك ، فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس من السبي ، وبادر بالكتابة
من فوره إلى عبد العزيز بن مروان يبشره بأول فتحه ، ويخبره بما وصل
إليه الخمس من السبي ، فأعجب عبد العزيز بذلك ، وكتب إلى الخليفة بما
ظفر به موسى ، حتى يغير رأيه فيه .

وكانت الخطوة التالية في فتوحات موسى أن بعث قائده عياش بن أخيل
إلى قبائل هواراة وزناتة ^(٢) ، فأغار عليهم ، وقتل منهم جماعات كثيرة ، وبلغ
سيهم خمسة آلاف رأس ، وكان من بين من أسره منهم أميرهم كأمون ،
فبعث به موسى إلى عبد العزيز بن مروان في وجوه الأسرى ، فقتله عبد
العزيز ولقد أرغهم عياش بن أخيل على الصلح ، وقدم على موسى

(١) ابن قتيبة ، ص ٦٧ - ابن عذاري ، ص ٤٠

(٢) زناتة قبيلة من بربر البركانات عشاثرها تزل في اقليم المغرب الأوسط والاقليم
الصحراوي الممتد جنوبي تونس ، وعلى سفوح أوداس والهضاب العليا . أما كتامة من
البرانس ، فكانت تزل في سهول الجزائر . وقبيلة هواراة بطن من البرانس ، كان منها
من يزل في المنطقة المجاورة لطرابلس ، ومنها من يزل في نواحي وهران .

بوجودهم رهائن عنده ، أما كئامة ، فقد صالحت موسى ، فولى عليها رجلا منهم بعد أن قدموا إليه رهائن من خيارهم ^(١) . وكان موسى يبعث عيونه إلى القبائل ليتجسس عليها ، ويستقصي أحوالها ، ويذكر ابن قتيبة أن عيونه أبلغوه أن صنهاجة «بغرة منهم وغفلة» وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون برأجا ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان ، وألفين من المتطوعة من قبائل البربر ، وخلف عياشا على أنقال المسلمين وعياهم بظبية في ألقى فارس ، وعلى مقدمة موسى عياض بن عقبة ، وعلى ميمنته المغيرة ابن أبي بردة ، وعلى يسرته زرعة بن أبي مدرك ، فسار موسى حتى غشى صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون ، فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سيدهم يومئذ مائة ألف رأس ، ومن الإبل والبقرة والغنم والخيول والحمر والثياب ما لا يحصى ، ثم انصرف قافلا إلى القيروان ^(٢) .

ثم أعاد موسى الكرة مرة ثانية على صنهاجة ، فغزا سجومة ، من المغرب الأوسط . وتفصيل هذه الغزوة أنه خرج من القيروان ، بعد أن استخلف عليها ولده عبد الله ، على رأس عشرة آلاف من المسلمين ، جعل على المقدمة عياض بن عقبة بن نافع ، وعلى الميمنة زرعة بن أبي مدرك ، وعلى اليسرة المغيرة بن أبي بردة القرشي ، وعلى ساقة الجيش نجدة بن مقسم ، فزحف موسى بكل جيشه غربا حتى وصل إلى نهر ملوية ، وهناك اصطدم مع ملكهم ، فقتله وسبي ذراريهم ، وحمل من مدينة سجومة بنات كسيلة ^(٣) . ثم بعث

(١) ابن قتيبة ، ص ٧٠ - ابن عذاري ، ص ٤١

(٢) ابن قتيبة ، ص ٧٠

(٣) عبيد الله بن صالح ، ص ٢٢٤

موسى إلى عياض وعثمان وعبيدة، بنى عقبة، وأذن لهم بالتشقى من قتلة أبيهم عقبة، فقتل منهم عياض ستائة رجل من خيارهم، وكان يود قتل المزيدي لولا أن أمره موسى بالتوقف عن ذلك^(١). ثم عاد إلى القيروان، بعد أن دانت له بلاد المغرب الأوسط.

ثم غزا موسى في البحر في آخر سنة ٨٥ هـ، الغزوة المعروفة بالأشراف، وصل فيها إلى صقلية، وعاد بغنائم كثيرة^(٢) في أوائل سنة ٨٦ هـ، فبلغه وفاة عبد العزيز بن مروان في جمادى الآخرة سنة ٨٥ هـ، وفاته عبد الملك ابن مروان في أول سنة ٨٦ هـ، فبعث موسى بيعته إلى الوليد، فكتب الوليد إلى موسى بن نصير يقر له بولاية إفريقية والمغرب.

وفي سنة ٨٦ هـ، عقد موسى لعياض بن أخيل على المراكب، فشتا في البحر، وأصاب سرقوسة، كما أصاب عبد الله بن مرة سردانية، وافتتح مدائنها في نفس السنة^(٣). وكان المغرب قد فتح معظمه، ولم يبق منه سوى المغرب الأقصى، فخرج موسى غازيا من إفريقية إلى طنجة، فوجد البربر قد فروا إلى أقصى الغرب خوفا من بطش العرب بهم، فتبعهم موسى على جيش مؤلف من وجوه العرب ومن اتصف من البربر بالقوة والجلد، فقتل منهم بأقليم مورطانية عددا كبيرا، وسبى منهم سبيا كثيرا^(٤). وما زال يفتتح قلاع البربر ومعاقلهم حتى بلغ السوس الأدنى، وهو بلاد درعة^(٥)، وأرسل

(١) ابن قتيبة، ص ٧٢

(٢) قس المرجع ص ٧٥

(٣) قس المرجع - ابن عذارى، ص ٤٢

(٤) ابن عذارى، ص ٤٢

(٥) قس المرجع

ابنه مروان إلى السوس الأقصى في سنة ٨٨٧هـ. وكان ملك البربر في ذلك الحين رجلا يعرف باسم مزدانة الأسواري، فاشتبك جيش مروان مع جيش البربر في قتال عنيف أسفر عن هزيمة أهل السوس هزيمة نكراء، وبلغ سديهم في هذه الغزوة أربعين ألفا (١).

وأحدثت غزوات موسى هزة كبرى بين قبائل البربر، وسببت لهم الدمر والهلك، فأخذوا يستأمنون العرب على أنفسهم، ويستسلمون لهم، وتسابقوا في إعلان خضوعهم لهم، والدخول في طاعتهم، واعتناق الإسلام. وأقام موسى طارق بن زياد على طنجة وما والاها، وترك معه ١٧ رجلا من العرب يعلمون البربر القرآن وشرائع الدين الإسلامي، قم إسلام أهل المغرب الأقصى على يد هؤلاء (٢). وأقام موسى أبا الجهم عبدالرحمن بن رافع التنوخي التابعي قاضيا على القيروان، فكان أول من استغنى بها من المسلمين (٣).

وهكذا نجح موسى بن نصير في إخضاع بلاد المغرب كلها للإسلام، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها، ووصول الإمدادات إليها من البحر، وكان يحكمها من قبل القوط يليان النصراني.

ونلاحظ أن موسى بن نصير كان يهتم في حروبه بما كان يجنيه من مغنم وسبايا، ولم يكن يحفل بعد ذلك بما كانت تنهيه هذه الغزوات في

(١) ابن قتيبة، ص ٧٦.

(٢) عبيد الله بن صالح، ص ٢٢٤.

(٣) المالكي، ص ٧٢.

نفوس الوطنيين من سوء الظن ، وتأصل الحقد ، بل إن هذه السياسة التي اتبعها موسى نحو البربر أدت إلى فرس عوامل الحقد والكراهية للعرب في نفوسهم ، حتى لقد أصبح من العسير انتزاع هذا الشعور من نفوسهم . وإذا كان البربر قد قبلوا ذلك صاغرين ، فلأنهم أرغوا على ذلك بقوة الملاح ، ولكن شعورهم أدى مع مضي الزمن إلى إقامة حواجز فاصلة بين العرب والبربر ، وإلى انحراف كثير من السكان إلى تقبل مذاهب ثورية انقلابية من خارجية وصفوية وشيعية^(١) . وقد يكون سبب إمرأ موسى في غزوه لقبائل البربر ، واصطناعه العنف معهم ، رغبته في إرضاء الخليفة عبد الملك ابن مروان عنه بعد أن أساء به الظن ، فأخذ يقاتل البربر ويفتح مداينهم وبلادهم ، ويذرع البلاد من شرقها إلى غربها ، ويبعث بغنائمه إلى عبد العزيز ابن مروان والخليفة عبد الملك ، حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه في نفسه من ضغائن وأحقاد^(٢) .

(١) حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٧ وما يليها - السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين ص ٤٦ .
 (٢) ابن عبد الحكم ، ص ٨٦ .

الباب الثاني

المغرب الاسلامي في عصر الدولتين الاموية والعباسية

الفصل الثالث

المغرب في ظل الدولة الأموية

(١) فتح المسلمين للأندلس

أ - مقدمات الفتح

ب - الدور الذي قام به بربر المغرب في فتح الأندلس

ج - عودة موسى بن نصير إلى المشرق

(٢) ولاية المغرب بعد موسى بن نصير

أ - جهود محمد بن يزيد القرشي (٩٧-١٠٠هـ) وإسماعيل بن عبيد الله

(١٠٠-١٠١هـ) في نشر الإسلام

ب - سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها

ج - مقدمات ثورة البربر على العرب في المغرب

د - ثورة البربر في المغرب (موقعة بقدرورة على وادي سبو سنة ١٢٤هـ)

هـ - ثورة البربر في الأندلس وقيام النزاع بين البلديين والشاميين

(٣) المغرب في السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

أ - فشل حنظلة بن صفوان في مواجهة الفتن في المغرب وخروجه

إلى المشرق .

ب - ثورات البربر في المغرب في ولاية عبد الرحمن بن حبيب الفهري

الفضل الثالث

المغرب في ظل الدولة الأموية

(١)

فتح المسلمين للأندلس

١ - مقدمات الفتح :

قلد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك موسى بن نصير ولاية إفريقية والمغرب سنة ٨٦ هـ ، بعد وفاة عبد العزيز بن مروان ، وأصبح المغرب في هذا الوقت ولاية مستقلة عن مصر ^(١) . ونجح موسى بن نصير في افتتاح المغرب كله ، ولم تستعص عليه سوى مدينة سبتة لمناعتها ، وشدة تحصنها ، واختلاف سفن القوط إليها بالميرة والإمدادات عن طريق البحر ، فلم يتمكن من التغلب عليها . وكان يحكمها من قبل القوط الغريسين ^(٢) حاكم اسمه جوليان ، ويسميه العرب يليان النصراني أو وليان أو إليان ^(٣) .

(١) ابن عذاري ، البيان ، ج ١ طبعة بيروت ٣٥٥

(٢) ذكر صاحب أخبار مجموعة أن موسى بن نصير سار لك مدائن تقع على شاطئ البحر ، فيها عمال صاحب الأندلس وعلى رأسها سبتة (أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، نثره دون لافونتي التنطرة : Lafuente Alcantara ، مدريد ١٨٦٧ ، ص ٤)

(٣) البكري ، كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، الجزائر ١٩١١ ص ١٠٤
E. Saavedra, Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892, p. 48 - Lévi - Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Leiden, 1950, t. I, p. 13.

وقد اختلفت المصادر العربية في شخصية بليان ، فبعضها يذكر أنه قوطي^(١) وبعضها يزعم أنه رومي^(٢) ، وبعضها ينسبه إلى بربر غمارة^(٣) . وأغلب الظن أن بليان كان حاكما عاما من قبل الدولة البيزنطية على ولاية مورطانية الطنجية ، وكانت تابعة لمورطانية القيصرية ، إحدى الولايات السبع الخاضعة للدولة البيزنطية ، بدليل أنه كان يحكم سبتة وطنجة عندما قام عقبة بحملته الكبرى إلى السوس الأدنى ، فلما عجزت الدولة البيزنطية عن حمايتها ، وات سبتة وجهها شطر إسبانيا القوطية^(٤) . والظاهر أن بليان المذكور تولى شئون هذا الإقليم في سن مبكرة ، وأنه أقام طويلا بأرض المغرب حتى توثقت علاقته بمن جاوره من قبائل البربر ، واستطاع أن يكتسب صداقة البربر له ، حتى أصبح ملما بشئونهم ، وأصبح يعد نفسه واحداً منهم ، لذلك اختلط الأمر على الناس فظنوه بربريا ، ومن هنا كان مرجع الرواية التي تنسبه إلى غمارة . أما علاقته بالدولة القوطية ، فرجعه أنه كان يتوجه بطلب المعونة إلى هذه الدولة ، ليعد مدينته عن يزنطه ، واضطراب أحوال الدولة البيزنطية في هذه الفترة .

وحدث إبان الفتح العربي للمغرب ، في ولاية عقبة أن اغتصب لذريق

(١) ابن عذاري ، البيان ، ج ٢ ، طبعة بيروت ، ص ٢ ، ٣

(٢) ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة بيروت (دار الكتاب اللبناني) ، ١٩٥٨ ،

ج ٤ ، ص ٢٥٣

(٣) السلاوي ، الاستقصا ، ج ١ ، ص ٩٧

(٤) ابن عبد النعم الميمري ، صفة جزيرة الأندلس ، نشره إيني برونفسال ، القاهرة

Rodrigo ، دوق باطقة وحاكمها بقرطبة ^(١) ، عرش القوط بإسبانيا من أبناء غيطشة Witiza ، وأثار ذلك نقمة أنصار غيطشة وأبنائه عليه ، فهبوا ضد هذا المختصم المتصور الذي انتزع الملك من البيت الشرعى لنفسه ، وبدأت حركة استقلالية فى أطراف البلاد ، ظلت مستمرة حتى دخول المسلمين أرض الأندلس ، واشتملت نيران الثورات فى طليطلة وغيرها ، وتعذر على وقلة Achila أن يتوجه إلى العاصمة بعد وفاة أبيه غيطشة ، واضطرت أمه ، التى أرادت أن تضبط ملك أبيه ، إلى الفرار مع أخواه أرتباس Artavasdes والمند Olmundo ، وعمه أوبه Oppa أسقف إشبيلية ، والتجأ الجميع إلى جليقيه ^(٢) . وحاول وقلة أن يسترد عرشه ، فأعد جيشا بقيادة عمه ووصيه رخشندش Rechesindo ، فأسرع لذريرق بالسير على رأس جيش كثيف واشتبك مع جيش رخشندش ، وهزمه فى موقعة كبرى قتل فيها الوصى ، وتفرق أتباعه ^(٣) .

وبغلب على الظن أن وقلة فر إلى إفريقية بعد ذلك ، وأقام عند بليان حاكم سجة ^(٤) ، وكان ما يزال على ولائه للملك غيطشة وأبنائه . أما لذريرق فقد استبقى ولدى غيطشة الآخرين : وهما أرتباس والمند ، إلى جواره ، حتى يستوثق من إخلاصها له ، ويقضى بذلك على الثورات الموالية لبيت غيطشة . وأمن لذريرق فى مطاردة أنصار وقلة بالأذى ، وفروا من إسبانيا ، واتمسوا

(١) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi - Provençal, Leyde, 1932, p. 70.

(٢) Lévi - Provençal, op. cit. t. I, p 7

(٣) اليان ، ج ٢ ص ٢ - Aguado Bleye, Manuel de la historia de Espana, t. I, Madrid, 1947, p. 355

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٩ - ٥٤ Saavedra, op. cit. p.

سبل النجاة إلى أقصى الشمال ، أو إلى سبتة ، ولأدوا بحماية بليان الذى كان
 خاصا للذريق . وبمساعدة بليان ، نجح هؤلاء اللاجئون فى الاتصال بالعرب ،
 وحثوهم على فتح الأندلس^(١) ، أملا فى استرداد العرش لأبيهم وقلة ، اعتقادا
 منهم أن العرب الطارقين للأندلس لمساعدتهم ، لن يكونوا فى حاجة إلى
 استيلائه بعد افتتاحهم له ، وأن مرادم لا يعدو ملاأيديهم من الضائم ، ثم
 يخرجوا عنها لأصحابها^(٢) . ويعتقد سافدرا أن بليان كان يمت بصلة
 القرابة والنسب إلى أسرة غيطشة^(٣) ، وكان من الطبيعى لذلك السبب ، أن
 ينضم إلى صفوف الخارجين على للذريق ، ويفتح لهم أبواب مدينته ، ويعمل
 على مساعدتهم لاسترداد ملكهم السلب ، مستعينا فى ذلك بالعرب . ولكن
 بليان ، فيما يظهر ، لم يشأ أن يعلن عدائه للذريق مرة واحدة ، حتى لا يتقلب
 عليه ، فظاهر بولائه له حتى لا تنقطع إمدادات القوط عنه ، وكان يضم
 فى قرارة نفسه الكيد له . ولكن حادثا وقع فى ذلك الوقت كان سببا فى
 انضمامه صراحة إلى جانب الثوار ، وإقدامه على طلب العون من العرب ،
 وتحريضهم على فتح الأندلس . فقد زعموا أنه كانت له ابنة على حظ كبير
 من الجمال تسمى فلورندا ، وكان قد بعثها منذ أيام غيطشة - شأنها فى ذلك
 شأن غيرها من بنات الأمراء والنبلاء - إلى بلاط الملك بطليطلة للتأديب بآداب

(١) أنظر تعليق على هذه القضية فى كتابى : تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس ،

ص ٦٦ ، ملحوظة ١

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٧ - المقرى ' فتح الطيب ' طبعة محي الدين عبد الحميد ،

ج ١ ، ص ٢٤١

الملوك^(١) ، فوقعت موقعا حسنا في عيني الملك ، ويقال أنه استكرها على نفسها ، فاحالت الفتاة على إبلاغ أبيها سرّاً بما أصابها على يدي لذريق ، فتضاعف حقدّه عليه ، وعزم على الانتقام ، ورأى ألا عقوبة له إلا إذا أدخل عليه العرب ، فبعث إلى طارق بن زياد الذي ولاء موسى أميراً على طنجة قائلاً : « إني مدخلك الأندلس »^(٢) . وقد تكون هذه الرواية

(١) ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، طبعة مصر ١٣٥٧ هـ ، ج ٤ ، ص ١٢١
(٢) ابن عبد الحكم ، توح إفريقية والأندلس ، ص ٩٠ . وذكر صاحب أخبار مجموعة أنه قال : « ودين المسيح لأزوين ملكه ، ولآخره تحت قدميه » (راجع أخبار مجموعة ، ص ٥٠ - القرى ، ج ١ ص ٢٣٦) . وأضاف القرى تلام عن كتاب الخزائن : أنه ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات في صيف (ديسمبر) قلب الشتاء ، فصار بالأندلس ، وأقبل إلى الملك في قصره بطليطلة ، فأكر عليه قدموه في مثل هذا الوقت ، وسأله عن سبب ذلك ، فحمل بمرض زوجته وشدة شوقها إلى رؤية ابنتها طورندا ، وتلهفها على لقائها فبذل أن تموت ، فاستجاب لقرى إلى رغبة بليان ، ورد إليه ابنته بعد أن توقف منها بالكثبان عليه ، وأجزل السلاء على بليان . وقيل أنه لا ودعه ، فإذ له قرى : « لماذا قدمت علينا ، فاستفرغ لنا من التذات التي لم تزل تطرفنا بها ، قلنا آخر جوارحنا لدينا » . فقال له : « أيها الملك ، وحق المسيح ، لئن بقيت لأدخلن عليك شذاتنا ما دخل عليك مثلها قط » (القرى ج ١ ص ٢٣٦) ، وكان يؤمى بذلك إلى عزمه على لدخل العرب في الأندلس .

ونلاحظ أن اسم طورندا المذكور لم يرد في المدونات العربية أو المسيحية ، ولكن ظهر مكانه la cava في مدونة بندودل كورال Pedro del Corral المسماة بمدونة الملك دون رودريجو « Cronica del Rey don Rodrigo » ، ومرجع إلى منتصف القرن الخامس عشر ، وفيها يلب المؤرخ اسم la Cava إلى ابنة بليان ، وكان ميجل دي لونا Miguel de luna أول من فاقش الترجمة العربية لهذه الكلمة في سنة ١٥٨٩ في بحثه الطويل Historia verdadera del rey don Rodrigo ، وذكر به أن =

صحيحة ، ولكننا لانرجح صحتها ، وأغلب الظن أنها من ابتكار القصاص
والأخباريين ، بدليل أن كلمة cava التي ينسبونها إلى ابنة يليان تتضمن في
الاسبانية معان أخرى غير المعنى الذي زعم مؤرخو إسبانيا أنه ترجمة للكلمة
العربية « قجاء » ، وحتى إذا افترضنا صحة هذه التسمية ، وانطباقها على
الكلمة العربية المذكورة ، فإنها مع ذلك لاتصدق على ابنة يليان التي كانت
ضحية للذريق .

وأيا ما كانت أسباب موجدة يليان على لذريق ، فإنه مما لا شك فيه أن
يليان هو الذي سعى عند العرب لفتح الأندلس ، وأنه دال للمسلمين جميع
الصعوبات ، وهو الذي ضمن للعرب انحياز أنصار وقلة إليهم ، وهو
ماحدث بالفعل عند افتتاح الأندلس ، فقدمالآ آل غيطشة العرب ، ودبروا
الفدر بلذريق ، وأجمعوا على خذله في المعركة الحاسمة ، ويدل على ذلك أن
المسلمين كافأوهم برد جزء كبير من ضياع غيطشة إليهم ^(١) .

== هذه الفتاة فلورندا ، أطلق عليها العرب اسم « القجاء » ، وتنى المرأة العاهرة ، ومن
ثم ورد اسم فلورندا في عدد كبير من الروايات الاسبانية المتأخرة ، كما ورد في أنصار
الرومانسرو ، وجاء في بعض هذه الأشرطة أن لذريق شاهد فلورندا تستحم يوما في وادى
تاجه بطليطلة ، فأطلق على هذا الحمام منذ ذلك الحين اسم Bano de la Cava . ويبدو
أن المؤرخين الاسبان كانوا يحملون في هذه التسمية على ابنة يليان لاعتقادهم الراسخ في أنها
السبب في دخول العرب بلاد الأندلس . ارجع الى المصادر الآتية :

Lévi - Provençal, Htstoire, t. I, p. 8 - Aguado Bleye, op cit. p. 357

Saavedra, op. cit. p. 60 - وقد وردت قصة ابنة يليان في المصادر العربية الآتية :

ابن القوطية ، ص ٨ - أخبار مجموعة ، ص ٩ - الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، ص ٧

(١) ابن القوطية ، ص ٤

وتجميع المصادر العربية للفتح على أن يليان توجه بنفسه إلى طنجة لمقاومة طارق بن زياد ، وعرض عليه أن يساعده في إدخاله الأندلس ، ولم يتردد طارق في الاتصال فوراً بموسى بن نصير ، وكان مقبلاً في القيروان ، فأبلغه ما كان من أمر يليان ، فرحب موسى بما عرضه عليه يليان (١) ، فقد كان يطمح في المزيد من الفتح والجهاد . وعلى الرغم من تلهفه على انتهاز هذه الفرصة ، ودخول الأندلس بمساعدة يليان وأنصار غيطشة ، فإنه لم يشأ أن يقحم المسلمين في مضامرة لا يعلم نتائجها إلا الله ، فلم يكن قد وفق بعد يليان ، ثم إنه كان يعمل على كسب رضا الخليفة الوليد بن عبد الملك عليه ، وكانت فتوحات موسى في المغرب قد رفعت منزلته عند عبد الملك ، ثم الوليد ، فرأى موسى ضرورة إطلاع الخليفة على ما هو مقبل عليه ، فكتب من فوره إلى الخليفة بفتوحاته في المغرب ، وضمن رسالته ما ذكره يليان من تذليل الأمور وتهوينها على المسلمين ، وأكّن الوليد نردد في الأمر ، وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أراض مجهولة ، يفصل بينها وبين بلاد المسلمين بحر الزقاق ، فكتب إلى موسى يأمره بأن يخوضها بالسرايا حتى يختبرها ، وأمره بالآلا يغزر بالمسلمين في بحر شديد الأحوال (٢) . وعمل موسى برأى الخليفة ، واختار أحد كبار قواده اسمه طريف بن مالك الماعزى ، وقيل النخعى (٣) ، ويكنى أبا زرعة ، ويبدو أن طريف هذا كان عربى الأصل (٤) ، وأنه

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٠ - ابن التوماني ، ص ٨ - أخبار مجموعة ، ص ٦ - ابن عسار ، ج ٢ ، ص ٦ - الحميرى ، ص ٨ - المقرئ ، ج ١ ، ص ٦ ، ٧١ ، ٢٣٧
(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ - ابن الأثير ، ج ٤ ، ١٢٢ - الحميرى ، ص ٨ - المقرئ ،

ج ١ ص ٢٣٧

(٣) ابن خلدون ، البر (طبعة بيروت) ج ٤ ص ٢٥٤

(٤) يحد مؤرخو العرب طريف بن مالك هذا ببربريا ، فالحميرى يقول (ص ٨) =

كان قائدا بارعا في فنون الحرب والقتال ، فجعله موسى على رأس سرية مؤلفة من خمسمائة مقاتل ، منهم أربعمائة من المشاة ومائة من الفرسان ، وأعد لهم بليان سفنه الأربعة لعبور الزقاق ، ونزل طريف بفرقته في جزيرة تعرف باسم لاس بالوماس *Isla de las Palomas* ^(١) ، تقع على مقربة من مدينة طريف الحالية التي سميت باسمه لنزوله فيها ، وذلك في رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو سنة ٧١٠ م) . ومن هذا الموضع شن طريف ورجاله سلسلة من الغارات على الساحل الجنوبي للأندلس ، المقابل لساحل سبتة ، فيما بين طريف والجزيرة المحضرا . وعاد طريف بفرقه سالما ، يحرر وراءه غنائم كثيرة ، فأنس موسى إلى بليان ، ووثق فيه ، وأطمأنت إليه نفسه ، واشتد عزمه على فتح الأندلس ، ونلف شوقا إلى السير في هذه المغامرة . ثم إنه استدعى مولاة طارقا ، وأمره على سبعة آلاف رجل جلهم بربري ^(٢) .

ب - الدور الذي قام به بربري بالقرب من فتح الأندلس :

اختار موسى بن نصير على الحملة التي أعدها لفتح الأندلس قائدا من

== فبعث موسى عند ذلك رجلا من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك الماغري ، ويكنى أبا زرع . . كذلك ذكر القري قنلا عن الحجارى (ج ١ ، ص ٢١٤) وتقلعن الكتاب الخزائى (ج ١ ص ٢٣٧) . ولا شك في أن طريف كان مريئا ، نحويتنسب الى معارف أو نفع البيهتين ، ثم اتنا نلتعد أن يبعث موسى الطليعة الكشفية الأولى تحت قيادة بربرى

(١) Saavedra, op. cit. p. 64

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٦ - ابن الأثير ج ٤ ص ١٢٢ - ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥٤ -

المغري ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٢٨

قواده المشهورين بحسن القيادة والبلاء ، هو مولا طارق بن زياد . وقد اختلف مؤرخو العرب في أصله ، فذهب بعضهم إلى أنه كان فارسيا هذانيا^(١)، وذهب فريق آخر إلى أنه كان بربريا من نفزة^(٢)، وذهب فريق ثالث إلى أنه كان عربيا من صدف^(٣) . وأغلب الظن أنه كان بربريا من سبي البربر الذين ظفر بهم موسى بن نصير وقواده ، فأصبح مولى لموسى^(٤) . وكان طارق طويل القامة ، ضخم الهامة ، أشقر اللون^(٥)، وهى صفات تتوفر فى البربر ، ثم إنه كان من المتطقى أن يتولى قائد من أهل البلاد قيادة جيش كله من البربر ، حتى يستميل موسى إليه قلوب الجند فلا يشوروا عليه، كما حدث فى عهد عقبة وفى أيام حسان . ويبدو أن موسى كان يثق بطارق كل الثقة، بدليل أنه آثره فى قيادة هذه الحملة الكبرى على أعظم قواده العرب أمثال طريف بن مالك . وعياش بن أخيل ، وزرعة بن أبى مدرك ، والمغيرة بن أبى بردة العذرى . وكان موسى قد ولاء على طنجة، وهو منصب خطير لا يعطى إلا لثوى الثقة والكفاية . ومن الغريب أن يكون الجيش الذى أعده موسى للحملة مكونا كله من البربر ، باستثناء ثلاثمائة من العرب ، وهذه هى المرة الأولى فى تاريخ الفتوح العربية يتولى فيها جيش بأ كله من المغلوبين فتح قطر من الاقطار الكبرى كالاندلس .

(١) أخبار مجموعة ، ص ٦ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٨

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧ - الحميرى ، ص ٨ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٨

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢٦ - الحميرى ، ص ٩ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٣٨

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٧

(٥) نس عبد الملك بن حبيب ، نشره الدكتور محمود على مكي ، مجلة معهد الدراسات

ويدل هذا دلالة واضحة على أن بربر المغرب قد أسلموا ، وحسن إسلامهم ، وأصبحوا على هذا النحو يؤلفون القوة الكبرى التي اعتمد عليها موسى في فتح الأندلس . وكان معظم أجناد هذه الحملة الأندلسية من رهبان المصامدة ^(١) . ويمكننا تفسير اعتماد موسى على البربر في هذه الحملة بأن البربر كانوا أكثر إلماما من العرب ببلاد الأندلس ، فالمغرب والأندلس يؤلفان وحدة جغرافية وتاريخية ، وقد دعا عبر هانيبال الحجاز إلى إسبانيا مع جيوشه البربرية . ونضيف إلى هذا التفسير تفسير آخر هو أن موسى ربما خاف على جيشه العربي من هذه المغامرة ، فآثر أن يجعل الطليعة الأولى من البربر ، فلما استوثق من نجاح الفتح بعد انتصار طارق في وادي لكّة ، واقتحامه البلاد حتى طليطلة ، عبر الحجاز بدورته على رأس جيش كثيف جله هذه المرة من العرب . ولما نعرف الكثير عن نشأة طارق بن زياد بطل الفتح ، وكل ما نعرفه عنه قبل أن يوليه موسى القيادة على الحملة إلى الأندلس ، أنه اشترك في مقاتلة البربر في ولاية زهير بن قيس على إفريقية ، فلما قتل زهير في برقة ، نصب طارق أميرا على برقة ، غير أنه لم يلبث طويلا في هذا المنصب ، إذ اختاره موسى قائدا في جيشه ، فأبلى بلاء حسنا في حروبه التي خاضها مع موسى ، وظهرت لدى موسى سطوته الحربية ومهارته في قيادة الجيوش ، فولاه على مقدمة جيوشه في المغرب . ويذكر عبيد الله بن صالح أن موسى جمع رهبان كتامة وزناتة وهوارة مع رهبان حسان وعدتهم اثني عشر ألف فارس ^(٢) ، « وولى عليهم

(١) نس عبيد الله بن صالح ، نغمه ليني برونسال ، بعنوان : نس جديد عن فتح العرب للمغرب ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ١٩٥٤ ، ص ٢٢٤

(٢) نس المرجع ص ٢٢٣

طارق بن زياد ، ورجع إلى إفريقية ، وترك معهم سبعة عشر رجلا من العرب يعلمون لهم القرآن وشرائع الإسلام ^(١) . ويعتبر اختيار موسى لطارق على قيادة جيوشه مأثرة من مآثره العديدة ، إذ أثبت بذلك درايته بالعناصر الصالحة في البربر واستخدامه لهم في قيادة جيشه . وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولى قيادة جيوش موسى ، ويشترك معه في فتح بقية بلاد المغرب والسيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسي ^(٢) .

كان جيش طارق يتألف كما ذكرنا من سبعة آلاف مقاتل من البربر باستثناء ثلثائة من العرب ، على رأسهم رجال سيكون لهم شأن كبير فيما بعد ، نخص بالذكر منهم عبد الملك بن أبي حامر الماعفري ، ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، وعلقمة اللخمي . وأبحرت حملة طارق من ميناء طنجة في ٥ رجب سنة ٩٢ هـ (إبريل سنة ٧١١ م) ، في السفن الأربعة التي كانت ملكا ليليان ، ووضعها في خدمة العرب ^(٣) . ولا شك أن موسى استعان ببعض قطع من أسطوله الإسلامي الذي أنتجته دار الصناعة بونس في جـواز رجاله ، واختلفت السفن بالرجال والحيل بين شاطئ الزقاق تنقل العسكر إلى « جبل على شط البحر منيع » ^(٤) ، كان يعرف باسم جبل كالي Calpe ^(٥) ،

(١) نس عبيد الله بن صالح ، ص ٢٤٤

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ص ٣٣٧

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٦

(٤) نفس المرجع ص ٧

(٥) Lévi - Provençal, Histoire, t. I, p. 18

وعرف منذ ذلك الحين باسم جبل طارق أو جبل الفتح . وكان نزول الحملة الإسلامية في ذلك الوقت مناسباً للغاية ، إذ كان للربيع مشغولاً إذ ذاك باخماد ثورة قام بها البشكنس في بنبلونه ^(١) ، كما انفق نزول جيش طارق في الوقت الذي كان كثير من سكان الأندلس ساخطين على حكم لدربرق الجائر ، فوقفوا موقفاً سلبياً من الغزو الإسلامي . وما كادت تتوافى حشود المسلمين بعد أن تم نزولها بأدنى الجبل حتى بادر طارق بإنشاء قاعدة لجيشه ، ومرسى يصل بينه وبين سبتة ، وأقام طارق حول الجبل المسمى باسمه سوراً سمي بسور العرب ^(٢) .

ثم بعث طارق عبد الملك بن أبي عامر في فرقة سارت بحذاء الساحل شمالاً ، فاستولت على قرية حصينة تعرف بقرطاجنة الجزيرة ^(٣) « Carteya » ، وتقع جوفى خليج جبل طارق عند مصب نهر يسمى بوادى البحر ^(٤) ، ثم زحف طارق غرباً ، واستولى على المنطقة المحيطة بقرطاجنة ، وأقام قاعدة لقواته في موضع يقابل الجزيرة المحضراء ، أقيمت عليه هذه المدينة فيما بعد ^(٥) . وقد عهد طارق إلى يليان ومن معه من الجنود بمهمة حراسة

(١) أخبار مجموعة ، ص ٧ - القرى ، ج ١ ص ٢٣٩

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣ - القرى ، ج ١ ص ٢١٨

(٣) ابن القوطية ، ص ٩ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٣

وذكر سافيرا أن هذا الموضع هو المعروف اليوم باسم برج قرطاجنة Torre Cartagena أو برج الروكاديو Rocadillo (Saavedra, op. cit. p. 65)

(٤) الحميري ، ص ١١٠ - Lévi - provençal, Histoire, t. I, p. 19

(٥) السيد عبد العزيز سالم ، طارق بن زياد ، ص ٢٣٩ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٧٣ .

هذه القاعدة ، والدفاع عنها في حالة قيام القوط بأى هجوم .

ووقع على لذريق خبر نزول المسلمين على الساحل الجنوبي للاندلس وقوع الصاعقة ، فانزعج لذلك ، وكر راجعا إلى عاصمته طليطلة ، ومنها زحف في جموع كثيفة تقدر بنحو مائة ألف مقاتل ^(١) ، وقيل سبعين ألفا ^(٢) ، وقبل أربعين ألفا ^(٣) . فلما علم طارق بذلك كتب إلى موسى يستمده ، ويخبره أنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك المجاز إلى الاندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن لذريق زحف إليه بما لا قبل له به ، فأرسل إليه موسى مدداً من خمسة آلاف من المسلمين ، كملت بهم عدة من معه إثني عشر ألفا ^(٤) ، أقوياء على المغام ، حراسا على اللقاء ، ومعهم بليان ورجاله ، يدلون المسلمين على العورات ، ويجسسون الأخبار .

ثم أقبلت جيوش لذريق حتى عسكرت غربى طريف ، بالقرب من بحيرة خنده Janda ، على طول نهر برباط الذى يخترق البحيرة ويصب في البحر ، ويسميه العرب وادى لكه ، تحريفا للكلمة الاسبانية Lago أى البحيرة . والتقى الجيشان في يوم الأحد ٢٨ من رمضان سنة ٩٢ هـ (١٩ يوليو سنة ٧١١) أى بعد ٨٣ يوما من نزول المسلمين بجبل الفتاح ^(٥) ، في موضع على

(١) أخبار مجموعة ، ص ٧ - المرقى ، ج ١ ص ٢١٦ ، ٢٤١

(٢) نس ابن حبيب ، ص ٢٢٢ - المرقى ، ج ١ ، ص ٢٢٥

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥٤ - المرقى ، ج ١ ص ٢١٦

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٧ - المرقى ، ج ١ ص ٢٤١

(٥) المرقى ، ج ١ ، ص ٢٣٣

وادی برباط أو لكّة ، قرب مدينة شذونة . واستمرت المعركة عدة أيام وانهت بهزيمة لذريق هزيمة ساحقة ، بعد أن خذله ابنه غيطشة ، ونكص عدد كبير من قواته . وأذرع المسلمون في فلول جيشه بالقتل ، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام ^(١) . أما لذريق فقد غاب شخصه ، فلم يثر له أحد على أثر ، ويبدو أنه فر في جملة الفارين ، ليعيد تنظيم قواته من جديد . ويبدو أن طارق لم ينتزع النصر بسهولة ، فقد قتل من رجاله ما يقرب من ثلاثة آلاف ، استناداً على ما ذكره المقرئ من أنه قسم النّى على تسعة آلاف من المسلمين ^(٢) ، وكان من بين القتلى شيرت ^(٣) . وأحدث انتصار طارق في وادی لكّة دويّا هائلاً ، في المغرب والمشرق ، الأمر الذى يعزز ما كنا نعتقد من أن حملة طارق كان ينظر إليها على أنها مقاومة حربية مصيرها القتل قبل النجاح ، وإلا فما الداعى لتطايير أهل العدو من البربر والعرب إلى الأندلس بعد انتصار المسلمين ، وإقبالهم على الفتح بقلوب مجبورة ^(٤) ، وما السبب في الروايات القائلة بحسد موسى بن نصير لطارق ، وإصداره الأوامر له بالتوقف عن الفتح ؟ ^(٥) .

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٩٦ - ابن عذارى ، ج ٢ ص ١٠

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٣

(٣) فتح الأندلس لمؤرخ مجهول ، ندره دون خواكين جنتا ، الجزائر ١٨٨٩ ص ٧

(٤) يقول الرازى : « وتسامع الناس من أهل بر العدو بالفتح على طارق بالأندلس ، وسنة الخاتم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وغرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلعنوا بطارق » المقرئ ، ج ١ ص ٢٤٣

(٥) الحميدى ، جذوة المتبس ، تحقيق محمد بن تاويت الطنجى ، القاهرة ، ١٣٧١ هـ ،

ص ٥ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥٤ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٤

واندفعت جيوش طارق في أثر فلول القوط، نستولى على المدن، وتفتح
المعاقل، وكان جيشه قد تضخم بمن وفد إليه من أهل العدو، بغية التماس
الفنائم، أو الاستقرار في هذه البلاد الغنية، ففرق أجناده إلى بعوث جانبية
ومضى هو إلى طليطلة، حيث احتشدت فلول القوط، فافتتحها في سنة ٥٩٣ هـ
دون مقاومة تذكر، وألقاها خالية، قد فر عنها ستردد رئيس الكنيسة
الاسبانية إلى رومه، كما فر عنها أهلها.

ثم كانت الحملة الثانية التي قام بها موسى بن نصير نفسه، استجابة لطلب
طارق في معاونته على فتح بلاد الاندلس، وعبر موسى إلى الجزيرة الخضراء
في سنة ٥٩٣ هـ في جيش ضخم عدته ثمانية عشر ألفا جلهم من العرب، وسلك
موسى طريقا غير طريق طارق، واستطاع أن يفتح المدن الواقعة في غرب
الاندلس مثل شذونة، وقرمونة، وقلعة رعواق، وإشبيلية، ولبلبة،
وأكشونة، وباجة، وماردة.

وكانت مقاومة القوط بقيادة لذريق قد اشتدت في هذه النواحي لصعق
مسير موسى، وتقضى على قواته.

لما كادت ماردة تسقط حتى تحصن لذريق ورجاله في شعاب جبال سيرا
دي فرانشيا مما يلي وادي أنة من الشمال، وأقاموا هنالك ينتظرون الفرصة
المواتية للوثوب على جيش المسلمين^(١). وشم موسى رائحة كمين يعده له
الأعداء في الطريق إلى طليطلة. فبعث موسى يستدعي طارقا وقواته في
منتصف الطريق ما بين ماردة وطليطلة، وتم لقاء القائدين في موضع يقال

(١) Saavedra, p. 98 — حسين مؤنس، فجر الاندلس، ص ٩٧ — عبد العزيز

سالم، تاريخ المسلمين، ص ٩٧

له تايد أو تايت^(١)، وخرج طارق معظما له، ونزل بين يديه . وذكر المؤرخون أن موسى وبخ طارقا على مخالفته لرأيه، وخروجه عليه، ثم صالحه موسى، وأقره على قيادة الجيش، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه، بينما تبعه موسى في جيشه^(٢). وسلك طارق وموسى الطريق الرومانية الممتدة من ماردة إلى شلمنقة عبر السيرا، ثم مضى موسى من فيج منسوب إليه^(٣) بجذاه نهر يسمى منذ ذلك الحين بوادي موسى^(٤). واجتاز موسى طريقا وعرة متبعا في سيرة الانحدارات الهائلة التي تنبع منها مياه نهر الهويرا، وراء القمم الشمالية من جبال سيرا دي فرانتيا^(٥). فاتهز لنريق هذه الفرصة، وانقض على جيش موسى بقواته، نجاه بلدة سيجويلا دي لوس كورنيخوس^(٦)، قريبا من بلدة تاماس، حيث قامت الواقعة الفاصلة الثانية في تاريخ الفتح الاسلامي للأندلس، في سنة ٩٤ هـ. ونظراً لأن السكان الذي وقعت فيه الواقعة كان قريبا من بحيرات تاماس ونهر بربالوس Barbalos الذي ينتهى عند السواقي، فقد اختلط عند المؤرخين بنهر برباط وبحيرة خندة.

(١) وردت كلمة تايد (في أخبار مجموعة ، ١٨) بدون نقط ، ولعلها تايت ، وهو اسم ذكره رودريجو الطليطل لنهر Taitar في هذه المنطقة.

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٥

(٣) ابن القوطية ، ص ١٠ - المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٣

(٤) Saavedra, p. 99 - حين مؤنس ، فجر الأندلس ، ٩٨

(٥) Saavedra, p. 100

(٦) يقابل اسم سيجويلا في المصادر العربية كلمة السواقي أو السواني (أنظر فتح الأندلس ، لمؤرخ مجهول ، ص ٨) . وذكر الرازي Seguyus وهو لفظ قريب من لفظ السواني (Lévi - Provençal, - Histoire, t. I, p. 26 - Saavedra, p. 100 - فجر الأندلس ، ص ٩٩)

وفي هذه الموقعة لقي لذريق مصرعه على يد مروان بن موسى بن نصير^(١) وهزم المسلمون القوط هزيمة نكراء. وعلى أثر ذلك دخل موسى وطارق مدينة طليطلة، وبعث موسى من هناك رسولين من قبله إلى الوليد يشترانه بالفتح، هما مغيث الرومي^(٢)، وعلى بن رباح التابعي^(٣)

قضت الجيوش الإسلامية فصل الشتاء بطليطلة، فلما انقضى، تعاون القائدان موسى بن نصير وطارق بن زياد على افتتاح شمال شبه الجزيرة، وصحبت الفتح في هذه المرة موجة ثانية من التدمير والتخريب، وكان لذلك أثر كبير في بث الذعر في نفوس السكان^(٤). وبينما كان موسى يتأهب لافتحام بلاد جليقية، إذ أتاه مغيث الرومي رسولاً من قبل الوليد بن عبد الملك يأمره بالمخروج من الأندلس، والكف عن التوسع في البلاد. فمز على موسى أن يعود المشرق قبل أن تكون قد استكمل فتح شبه الجزيرة كلها، باقتحامه جليقية^(٥). فحلف مغيثاً، وسأله أن يمهله حتى ينفذ عزمه في الدخول إلى جليقية، ويكون شريكاً في الأجر والغنيمة^(٦)، ووعدده موسى بأن يهبه الموضع المعروف باسم بلاط مغيث بقرطبة بجميع أرضه من

(١) Saavedra, op. cit. p. 101. يستند هذا على نص ورد في كتابه «الإمامة

والسياسة» لابن خنبة ج. ١، ص ١٠٢. «لأن ابن أبي مالك الأندلسي لوزيقي»
ص ١٠٦ من كتاب ابن القوطية

(٢) ابن عبد الحكم، ص ١٠٢

(٣) ابن خنبة، الإمامة والسياسة من كتاب ابن القوطية «تاريخهم افتتاح الأندلس»

ص ١٢٦

(٤) المقرئ، ج ١ ص ٢٥٥

(٥) نفس المراجع، ص ٢٥٨

(٦) نفس المراجع

أرض الخس^(١) ، نظير إمهاله له بعض الوقت ومصاحبته في غزو جليقية . فقسم موسى جيشه إلى قسمين : قسم بقيادته ، يسلك الطريق الممتدة من سرقسطة إلى قلونية وبلنسية ، وقسم بقيادة طارق يسير بجذاه نهر إبرة حتى هارو ، ومن هناك يتبع برفيسكا ثم أمايه ثم ليون واسترقه . ونجح طارق في افتتاح أماية واسترقه ، أما موسى فقد سار بجذاه الضفة اليمنى من نهر إبرة وافتتح حصن بارو ، واستولى على قلعة لك بأشتوريش ، ثم تابع السير في جليقية ، فاستولى على خيخون ولك الجليقية ، وهناك أتاه رسول آخر يكمنى أبا نصر بعثه الخليفة إليه لما استبطاه في الففول^(٢) . وذكر بعض المؤرخين أن موسى بعد أن افتتح سرقسطة بث سراياه إلى قطلونية ، فاستولت على برشلونة ، واخترقت جبال البرتات ، وتوغلت في غالة ، فاستولت على أربونة وصخرة إبنيون ، وحصن لودون على وادى ردونه (الرون)^(٣) . ونستبعد قيام موسى بفتح هذه الأقاليم ، واكتساحه أراضى إفرنجة حتى ليون . والارجح أن موسى افتتح إقليم قطلونية ، وأن بعض قواته وصلت إلى قرقشونة^(٤) .

ولقد لعب البربر دوراً هاماً في فتح بلاد الأندلس ، فقد كانت الطالعة

(١) الرسالة الصربية في الأقطار الأندلسية ، من كتاب ابن القوطية ، ص ٢٠٤

(٢) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٨ - تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص ١٠٣ ، ملحوظة ٥

(٣) المقرئ ، ج ١ ص ٢٥٦ - Codera, Limites probables de la conquista

arabe en la Cordillera Pirenaica, en Estudios Criticos de la historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1917, p. 107.

(٤) المقرئ ، ج ١ ص ٢٦٠ - شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٥٢

ص ١٤ - تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٠٤ ، ١٠٥

الأولى للفتح من البربر ، ومنذ سجل طارق انتصاره على لذريق في وادي لكه ، لم يكف البربر عن الجواز إلى الاندلس ، بغية التماس المغنم أو الاستقرار في هذه البلاد الغنية بغيراتها . وقد زودنا ابن خلدون بأسماء قبائل أربعة كان يتألف منها جيش طارق ، وهي : مطفرة ، ومدبونة ، ومكناسة ، وهوارة ، وكلها متفرعة من زفانة . ويضيف ابن حزم في جمهرة أنساب العرب قائمة بقبائل أخرى وفدت إلى الاندلس وهي : مغيلة ، وملزوزة ، ونقرة ، وأوربة ، ومصموده ^(١) .

وقد استقر هؤلاء البربر منذ الفتح في المناطق الجبلية ، إذ كان العرب قد اختصوا أنفسهم بأكثر مناطق الأندلس خصبا ، ونفى بها فحوص الأندلس الأوسط والجنوبي ، ومنيات شرق الأندلس . وعلى الرغم من صعوبة الحياة في المناطق الجبلية ، فقد تمكن البربر ، بمضي الزمن ، من التكيف فيها ، وأصبحوا يعتبرون هذه البلاد وطنًا لهم ، فسموا أنفسهم بالبلديين ، وهم في ذلك يختلفون عن البربر الطارئين الذين دخلوا الاندلس في عصر الخلافة الأموية .

ج - عودة موسى بن نصير إلى الشرق :

لم يجد موسى بن نصير بدا من الاستجابة لرغبة الخليفة في العودة إلى دمشق ، ففعل بعد فتحه لبلاد جليقية عائداً إلى إفريقية ، في رفقة طارق ، ورسولي الخليفة إليه ، مارين في طريقهم بقرطبة ، حيث أخرج موسى سميتا

(١) ابن حزم القرطبي ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق ليلى بروغفسال * القاهرة ١٩٤٨ ،

من بلاط قرطبة، ووجهه داراً أخرى بغرب المدينة^(١). ولعل ذلك كان سببا في تحامل مغيت الرومي عليه. ثم مضى موسى إلى إشبيلية، وهناك استخلف ابنه عبد العزيز في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ، بعد أن اختارها له عاصمة للأندلس^(٢). وعبر القائدان الزقاق إلى إفريقية يحملان معها غنائم هائلة من الذهب والفضة والجوهر على ما يقرب من ١١٣ عجلة^(٣). واستخلف موسى ابنه الأكبر عبد الله على إفريقية، وكان عبد الله قد واپها عوضا عن أبيه عندما قاد حملته إلى الأندلس، إلى أن رحل أبوه منها متوجها إلى المشرق^(٤) في سنة ٩٥ هـ. وذكروا أنه استخلف ابنه عبد الملك على طنجة وسجة وما إليها^(٥). ولكن ابن قتيبة يذكر أن موسى لم يترك على إفريقية وطنجه والسوس إلا ولده الأكبر عبد الله، وأنه اصطحب معه عند عودته إلى المشرق أولاده مروان وعبد الأعلى وعبد الملك^(٦).

ثم سار هو وولده عبد الأعلى ومروان، وصحبهم طارق، ورسولا الخليفة، وبعض الأسرى من قواد القوط، ومائة رجل من أشرف الناس من قريش والأنصار وسائر العرب، نخص بالذكر منهم: عياض بن عقبة وأبو عبيدة وعبد الجبار بن أبي سلمه بن عبد الرحمن بن عوف، والمغيرة بن

(١) أخبار مجموعة، ص ٢١ - المرقى، ج ٢ ص ١٣

(٢) ابن القوطية، ص ١٠ - أخبار مجموعة، ص ١٩ - ابن عذارى، ج ٢ ص ٣٠

(٣) ابن عذارى، ج ١ طبعة بيروت ص ٣٩

(٤) المرجع السابق، ص ٣٨

(٥) إبي الأثير، ج ٤ ص ١٢٤ - ابن عذارى، ج ١ ص ٣٩

(٦) ابن قتيبة، الامامة والسياسة (من تاريخ فتح الأندلس ص ١٤٣)

أبي ردة، وزرعه بن أبي مذرك، وسليمان بن بحر، ومن البربر مائة رجل^(١) منهم « بنو كسيلا بن لزم، وبنو بسدد ومزدانة ملك اللسوس، وملك ميورقة ومن أولاد الكاهنة، ومائة من وجوه ملوك الروم الاندلسيين وعشرون ملكا من ملوك المدائن التي افتتحتها بافريقية، وخرجوا معه بأصناف ما كان في كل بلد من طرفها، واستخلف بطرابلس رجلا اسمه بكر بن عيسى القيسى، حتى انتهى إلى مصر، فلم يبق بها فقيه ولا شريف إلا وصله وأعطاه. ثم خرج من مصر متوجها إلى فلسطين، فلتقاء آل روح بن زنباع. ونحروا له خمسين بعيرا. ثم خرج وترك عندهم بعض أهله، وصغار ولده، وأعطى آل روح بن زنباع عطاء جزلا^(٢).

وذكر بعض المؤرخين أن الوليد بن عبد الملك كان مريضا، وأنه كتب إلى موسى بأمره بالإسراع إليه ليدركه وهو على قيد الحياة، وفي نفس الوقت كتب سليمان ولي عهد الخليفة إلى موسى بأمره بالتأني في سيره رجاء أن يصل بعد وفاة الوليد، فتكون كل غنائم المغرب والاندلس له، ولكن موسى استجاب لرغبة الخليفة، وجد في سيره حتى قدم إلى دمشق، والوليد ما يزال حيا، فسلم له الأتخاس والمغانم والتحف والذخائر، ولم يطل العهد بالوليد، فلم يمكث إلا ثلاثة أيام بعد قدوم موسى إليه، ثم توفي. وأفضت الخلافة إلى سليمان، وكان يحقد على موسى لمخالفته له، فصب عليه جام غضبه^(٣). وقيل أن موسى وصل دمشق بعد وفاة الوليد، فقدم على

(١) ارجع الى تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ١٠٦

(٢) ابن عذارى، ج ١ ص ٤٠

(٣) ابن علقمى، ج ١ ص ٤١ - المعرى، ج ١ ص ٢٦٢

سليمان حين استخلف . وكان منحرفا عليه ، إذ كان طارق ومفيث قد سبقاه إليه ، ورمياه بالتهم عند سليمان ، فعزله سليمان عن عمله ، وأقصاه ، وحجسه ، وأغرمه غرما عظيما ^(١) . وذكر ابن عذارى أن سليمان أمر به ، فأوقف في يوم شديد الحر في الشمس ، وكان موسى بادئا ، فلم يحمل حرارة الشمس فسقط مغشيا عليه ، وأن سليمان أغرمه ثلثمائة ألف دينار ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فاستجار يزيد بن المهلب ، وكانت له حظوة عند سليمان ، فاستوجه منه ^(٢) . ويضيف ابن الأثير أن موسى احتاج أن يسأل العرب في معونته ^(٣) . ونستبعد صحة هذه الروايات ، فليس من اليسر أن يقوم سليمان بتعذيب تابعي جليل مثل موسى بن نصير ، أسس ملكا من عدمه ، ووقف حياته مجاهداً في سبيل الله لمجرد قالة ظالمة ، أو وشاية في حقه من خصومه . ولو أننا صدقنا هذه الروايات ، لكان أولى بسليمان أن يعاقب موسى بعزل ولديه عبد العزيز من ولاية الأندلس ، وعبد الله من ولاية إفريقية والمغرب ، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث ، بل ظل عبد العزيز يقوم بولاية الأندلس حتى مصرعه في سنة ٩٨ هـ (٧١٥ م) بتدبير بعض رؤساء الجيش من العرب أمثال أيوب بن حبيب اللخمي ، وحبيب بن أبي عبيدة ، وزباد بن عذرة البلوي ، وزباد بن نايغة التيمي . وأما ما ذكره المؤرخون من تفريم سليمان له ، فلا شك أنهم خلطوا بين سليمان بن عبد الملك وبين أبيه عبد الملك ابن مروان ، الذي أغرمه حسبما ذكرناه سابقا . حقيقة أن عبد العزيز بن موسى لقي مصرعه بآشيلية على أيدي كبار الجند ، وحقيقة أن عبد الله عزل على يدي

(١) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ - القري ، ج ١ ص ٢٦٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٩ ، ٤٢

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٢٤

محمد بن يزيد ، تم قتل على يدى خالد بن حبيب القرشى فى أواخر عام ٩٧ هـ أو
أوائل عام ٩٨ هـ ^(١) ، ولكن لم يكن لسليمان بن عبد الملك يد فى مقتلها ،
على الرغم مما زعمه المؤرخون أنه دس عليها من قتلها ^(٢) ، وأنه أمر بطرح
رأسها أمام موسى بن نصير ^(٣) ، فلو أن سليمان كان هو المدبر لجريمة قتل
عبد العزيز ، لكان قد بادر بنفسه وال مكانه ، ولما مكث أهل الأندلس
شهوراً لا يجمعهم وال حتى اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي ^(٤) ، ولما
شق على الخليفة نبأ مقتله ، فأمر والى إفريقية عبد الله بن يزيد بالتحقيق فى
مقتله ، والقبض على قتلته ، وإرساله إليه ^(٥) ، ولما أسف على قتله بعد أن
ثبت له براءة عبد العزيز مما اتهم به ^(٦) من الانتراء بالأندلس .

ويعتقد الأستاذ محمد على دبور ، أن سليمان أنكر على موسى سلوكه فى
المغرب ، وأنه كان حاتفاً عليه لمبايعته فى السبي ، وعدم عدله فى البربر ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤

(٢) ابن القوطية ، ص ١١ - ابن تينة ، ص ١٧٠ (من كتاب ابن القوطية) -

بن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢ - المرقى ، ج ١ ص ٢٦٣

(٣) ابن تينة ، ص ١٧٤ (من كتاب ابن القوطية) - ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٥

(٤) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣

(٥) يقول صاحب أخبار مجموعة : « ولا بلغ سليمان مقتل عبد العزيز بن موسى شق
ذلك عليه » ، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد لقريش .. ، وولى والى إفريقية كان أمر الأندلس
وطنجة ، وكل ما وراء إفريقية ، وأمره سليمان فيما هله حبيب بن أبى عبيدة ، وزباد بن
النايسة من قتل عبد العزيز بأن يقتل فى ذلك ، وأن يقتلها إليه ، ومن شركها فى قتله
من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فصرح عبيد الله بن يزيد والى إفريقية على الأندلس
الحمر بن عبد الله التتلى وأمره بالنظر فى شأن قتل عبد العزيز » (أخبار مجموعة ، ص ٢٢)

(٦) ابن تينة (من كتاب ابن القوطية) ص ١٢٦

واحتجانه للأموال وتفريقها في الأولياء والآنصار^(١). ونعتقد أن سليمان أخذ على موسى بعض الهفوات ، وأنه كان حاققا عليه إما لأن ميث الرومي وطارق قد شكياه إليه ، أو لأنه قد بلغه رمى موسى لفصل المغرب والاندلس عن الخلافة بعد أن ولي ولديه عبد العزيز وعبد الله عليها ، وضرب العملات باسمه ، وفرق قسما من غنائم المغرب والاندلس على صنائعه في مصر . وأيا ما كانت أسباب حققه عليه ، فلم يكن ذلك مبرراً لتنكيله به على النحو الذي ذكره المؤرخون ، وأغلب الظن أن سليمان عفا عنه بفضل وساطة عمر بن عبد العزيز فاستبقاه سليمان إلى جواره رحمة بشيخوخته ، إذ كان قد قارب الثمانين من عمره ، بدليل أنه كان يخرج معه في نزواته^(٢) ، وأنه حج معه إلى مكة في سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) حيث توفي موسى هناك^(٣).

ونعتقد أيضا أن عبد العزيز بن موسى لقي مصرعه على أيدي كبار جنده لأسباب منها : أن زوجته أيلة ، وهي أرملة لذريق ، كانت تحرضه على الاستقلال بالاندلس ، وتأسيس دولة يكون ملكا عليها ، ونجحت في التأثير عليه ، ولعل ذلك كان أساسا للرواية القائلة بأنها أقنعته بوضع التاج على رأسه تشبها بالملوك . ومن أسباب مصرعه أيضا أنه أظهر امتعاضا عن ف الخليفة سليمان نحو أبيه ، بعد كل ما قام به موسى من خدمات للدولة الأموية ، فاضطر عبد العزيز إلى التنفيس عن نفسه « بكلام خفيف » (٤) ،

(١) محمد علي ديبوز ' تاريخ المغرب الكبير ' ، ج ٢ ' القاهرة ١٩٦٣ ' ص ١٦٥

(٢) ابن قتيبة ' ص ١٧٨ - نس عبد الملك بن حبيب ، ص ٢٢٥

(٣) ابن قتيبة ' ص ١٨٤ - ابن عذاري ' ج ١ ص ٤٣

(٤) نس المرجع ، ص ١٧٠

أساء إلى الخليفة ، فتناول الناس هذا الكلام محرّفا مشوها ، فوصل إلى رؤساء الجند ، وعلى رأسهم حبيب بن أبي عبيده بن عقبة ، الذي كان موسى قد أقامه وزيراً لابنه ، وأيوب بن حبيب اللخمي ، ابن أخت موسى بن نصير وغيرهما ، فأجمعوا على قتله ، غيرة على الخلافة الأموية ، ثم أبلغوا الخليفة بمقتله بسبب خروجه عليه ، وخلعه دعوة بني مروان ، واستبداده بأمره « لا بلغه ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته » (١) . وقد يكونوا قد قتلوه بدافع من الفيرة والحسد لما صار إليه بنو موسى من علو الذكر ، فقتلوه ، واختلقوا هذه التهم كذباً . وقد حقق سليمان في قضية عبد العزيز ، فاتضح له أنه برى . مما نسبوه إليه ، « وألني ذلك باطلاً ، وأن عبد العزيز لم يزل صحيح الطاعة مستقيم الطريقة » (٢) .

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٤٤

(٢) ابن قتيبة ، ص ١٢٦

(٢)

ولاية المغرب بعد موسى بن نصير

١ - جهود محمد بن يزيد (٩٧ - ١٠٠) واسماعيل بن عبيد الله (١٠٠ - ٢٠١) في نشر الاسلام :

لم يكن سليمان بن عبد الملك راضيا عن تصرف موسى بن نصير في استبداده بمحکم المغرب والأندلس ، ولعل ذلك كان من الأسباب التي أدت إلى استغاثته عن خدماته ، فقد رأى سليمان في استئثار موسى بمحکم المغرب والأندلس بواسطة ولديه عبد العزيز وعبد الله ميلا إلى الخروج عن الخلافة ، وجنوحا إلى الانشقاق عن الدولة . وعلى الرغم من ذلك فقد استبقى الخليفة سليمان عبد العزيز بن موسى على ولاية الأندلس آثاره العديدة ، وجهوده المضيئة في استكمال فتح البلاد ، وتنظيم الدولة الأندلسية . أما بالنسبة لعبد الله بن موسى ، فقد كان يستمجن سياسته القائمة على العنف والتسلط في معاملة البربر . فاستشار وزيره رجاء بن حيوة فيمن يصلح لولاية المغرب ، وقال له : « أريد رجلا له فضل في نفسه ، أوليه إفريقية » ، فاستمهل ابن حيوة أيا ما ليفكر ويبحث عن شخص تتوفر فيه هذه الصفة ، ثم قدم عليه وقال له : « قد وجدت رجلا له فضل . قال : من هو ؟ قال : محمد بن يزيد مولى قریش . فقال : ادخله علي ، فأدخله عليه ، فقال سليمان : يا محمد بن يزيد ، اتق الله وحده لا شريك له ، وقم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله » (١) .

ويذكر ابن عذارى أن محمداً بن يزيد استقر بإفريقية بأحسن سيرة وأدبها ، وكان سليمان قد أمره بالقبض على عبد الله بن موسى وتعذيبه ومصادرة أمواله وأموال بني موسى حتى يؤدوا ثلاثمائة ألف دينار (١) . ولكن هذا الخبر يتناقض مع ما ذكره ابن عذارى قبل ذلك ، من أن موسى افتدى من سليمان بألف ألف دينار (٢) . وقد استبعدنا من قبل قيام سليمان بتعذيب آل موسى بن نصير . وأغلب الظن أن ذلك تم في عهد يزيد بن عبد الملك ، عندما اتهم عبد الله بن موسى بقتل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكتابه ، وتولى بشر بن صفوان مهمة قتله ، ومصادرة أموال ذويه (٣) .

ساد للسلم والأمن بلاد المغرب في ولاية محمد بن يزيد ، وفي خلال هذه الفترة السلبية القصيرة ، التي نعم فيها البربر بالاطمئنان والعدل ، قام محمد بن يزيد بفتح المناطق الداخلية من المغرب الأقصى ، كما بعث السرايا إلى نفور إفريقية والجزر المجاورة لها (٤) . وكان محمد بن يزيد يقسم ما يصبه من غنائم على جنوده دون أن يحتجز لنفسه شيئاً منها ، فكان مثلاً طيباً للوالى العادل الزيه . وقد كان لهذه السياسة الحكيمة أثرها العميق في كسب أفواج جديدة من البربر إلى الإسلام . فلما توفي سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، استعمل الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز تابعياً جليلاً وإماماً زاهداً هو اسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر دينار على إفريقية في

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٤

(٢) نفس المرجع ج ١ ص ٤٢ - نس عبد الملك بن حبيب ص ٢٣٣

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٥٣

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٥

محرم سنة ١٠٠ هـ ، وكان اسماعيل هذا مصلحا من أعظم ولاية بني أمية على المغرب ، فقد ورث عن جده صفات الحزم والحكمة وحسن التدبير ، وكان يجمع إلى جانب كياسته وحكمته ورعا وتقوى ، ولذلك نراه يتفانى في نشر الإسلام بين قبائل البربر ، ويعمل جهده على تعليم البربر وتنقيتهم بالتعليم والثقافة الإسلامية (١) . ويذكر المؤرخون أن الخليفة عمر بن عبد العزيز بعث معه عشرة من التابعين أهل علم وفضل ، وأمرهم بأن يذبلوا جهنم لتنقيته البربر في علوم الدين حتى يقوم إسلامهم على أساس متين ، وهؤلاء التابعون هم : أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الماعفرى الجبلى (المتوفى سنة ١٠٠ هـ) ، وأبو مسعود سعيد بن مسعود التجيبى ، واسماعيل بن عبيد الأنصارى المعروف بتاجر الله (ت . سنة ١٠٧ هـ) ، وأبو الجهم عبد الرحمن بن رافع التنوخى (ت . سنة ١١٣ هـ) ، وأبو سعيد جعتل بن طاهان بن عمير الرعيني الفسائى (ت . فيما يقرب من سنة ١١٥ هـ) ، وحيان بن أبى جبله القرشى (ت . سنة ١٢٥) ، وموهب بن جنى الماعفرى ، وطلق بن حابان الفارسى ، وبكر بن سودة الجذامى (ت . سنة ١٢٨) ، واسماعيل بن عبيد الله الأعور (٢) (ت . سنة ١٣٣) . وقد تولى اسماعيل بن أبى المهاجر توزيع هؤلاء التابعين في أنحاء المغرب ، وتحول البربر بفضل هؤلاء وبفضل الفقهاء الذين كانوا قد وزعهم حسان بن النعمان وموسى بن نصير من قبل في بلاد البربر إلى أمة إسلامية ، ولم يبق على غير الإسلام في المغرب سوى جماعة من الروم ، وطلاقة من اليهود . ويجمع المؤرخون على أن بربر إفريقيا أسلموا جميعهم في أيام

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٤٥

(٢) المالكي ، رياض النفوس ، أنظر الفصل الخاص بتاريخ هؤلاء التابعين ، ص ٦٤-٧٦

اسماعيل بن أبي المهاجر^(١) . ويطبق الأستاذ جورج مارسيه على انتقال البربر إلى الإسلام بمثل هذه السرعة بقوله : « فني أقل من قرن واحد اعتنق العدد الأعظم من أبناء أولئك المسيحيين »^(٢) الإسلام في حماس يحلمهم راغبين في اغتنام الشهادة ، وقد تمت للنفلة بصورة نهائية في خلال القرنين الأول والثاني للهجرة أو القرون الثلاثة التالية ، غير تاركة من بلاد المغرب سوى بقع ضئيلة ، أصبح حتى مجرد الاعتقاد في وجودها أمراً مشكوكاً فيه . وبينما كانت معظم البلاد التي انتشر فيها الإسلام تحتفظ بطوائف مسيحية ، كانت لها مكانة مرموقة في الدولة في بعض الأحيان كالشأن مع سكان جبل لبنان في بلاد الشام ، والأقباط في مصر ، والمعاهدة المستعربين في الأندلس ، الذين كانوا يعيشون جميعاً جنباً إلى جنب مع ساداتهم المسلمين ، فإن وطن سان أوجستين لم يعرف نظيراً لذلك^(٣) .

ونتيجة عن انتقال البربر إلى الإسلام انتشار اللغة العربية ، لغة القرآن ، في بلاد المغرب . ويذكر الأستاذ عثمان الكماك أن الفتح العربي للمغرب يمتاز عن غيره من الفتوحات السابقة للمغرب كالفتح الفينيقي والروماني ، بأنه فتح ثقافي ، فقد حل الفاتحون معهم اللغة والدين ممثلين في القرآن الكريم « الذي هو قوام دين ، ودستور سياسة ، وبحر إخلق ، وقاموس

(١) ابن عذاري ج ١ ، ص ٤٥ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ ، ج ٦ ص ٢٢٠

(٢) يقصد بهم نصارى البربر الذين كانوا يؤمنون بالأغلبية المظلمة لكان المغرب . ويذكر الأستاذ مارسيه أن بعض سكان المغرب كانوا وثنيين ، ويعتقد استناداً إلى ابن خلدون أن هؤلاء الوثنيين هم صنهاجة الوس .

G. Marcais : la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen(٣)

لغة ، وديوان ثقافة ، لذلك بنى الفتح على الثقافة في يوم الفتح نفسه ، (١) ، وكان من الطبع أن يحرص البربر الذين دخلوا في الإسلام على تعلم العربية لدراسة ما جاء في القرآن الكريم من آيات بينات. ولكن انتشار اللغة العربية التي حلت محل اللاتينية لم يقض على اللغة البربرية التي كانت منتشرة على وجه خاص في أطراف المغرب وفي المناطق الجبلية والرعوية ، إلا أن لغة البربر كانت وسيلة للتعبير الشفوي عند البدو ، ولم تكن قط لغة حضارة . ويرجع الفضل في انتشار الإسلام واللغة العربية إلى عقبة بن نافع الفهري الذي أسس القيروان ومسجدها الجامع ، وإلى حسان بن النعمان الذي أسس مدينة تونس ووزع الفقهاء في سائر البلاد لتثقيف البربر وتعليمهم أصول الإسلام ، وإلى موسى بن نصير الذي أرسل المعلمين إلى السوس الأقصى وحول الكنائس فيها إلى مساجد ، فجعلها مراكز لتحصيل العلوم الدينية ، وأسس مسجدي نلسان وأغمت بيلانه (٢) ، وأخيرا إلى إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر الذي كان لتقواه وورعه وزهده وحرصه على الإصلاح أعمق الأثر في انتقال البربر إلى الإسلام جملة ، بفضل التابعين العشرة الذين بعثهم معه الخليفة الهادي عمير بن عبد العزيز . ومن بين المساجد التي أسست على أيدي هؤلاء التابعين مسجد الرباطي الذي بناه أبو عبد الرحمن عبد الله ابن يزيد الماعري الإفريقي ، وجامع الزيتونة بتونس الذي بناه إسماعيل بن عبيد الله المعروف بتاجر الله . ولقد كانت المساجد الأولى التي بناها المسلمون مراكز علمية هامة ، ومعاهد للدرس والتحصيل قبل أن تظهر الجامعات

(١) عنان الكماك ، مراکز الثقافة في المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية

السايدة ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ١٢

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٣٧

والمدارس ، ففيه كان يسمع التسلاميذ على أسانذتهم في الفقه ، واللغة ، والحديث ، والقراءات ، والطب ، والفلك ، وغيرها من الدراسات العلمية دينية وأدبية ولغوية ؛ ولهذا السبب نشهد ثلاث ظواهر في هذا القرن الثاني الهجري في بلاد المغرب ، الظاهرة الأولى ، إنشاء المساجد في داخل بلاد البربر ، وفي بلاد السوس . والظاهرة الثانية ، إرسال بعثات من علماء العرب وفقهائهم ومن التابعين إلى سائر أنحاء بلاد المغرب . والظاهرة الثالثة ، تأسيس مساجد خاصة بقصد الأعمال الخيرية ، وأشهرها بالقروين مسجد الرباطي أو الحبلي ، ومسجد أبي ميسرة ، ومسجد محمد بن خيرون الاندلسي^(١) ، والمسجدان اللذان أسستهما مريم بنت محمد بن عبد الله القهري وأختها فاطمة القروية أم البنين بربضي الأندلسيين والقرويين بفاس^(٢) .

ب - سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها :

توفي الخليفة عمر بن عبد العزيز بدير سمعان في ٦ شعبان سنة ١٠١ هـ ، وولى الخلافة مروانية بعده يزيد بن عبد الملك ، وكان يزيد هذا لا يقر سياسة التسامح واللين التي اتبعها الخليفة المصلح عمر بن عبد العزيز ، وإنما كان يرى أن سياسة التهيب والعنف أجدي على الدولة ، كذلك كان يرى أن انتقال البربر إلى الإسلام قد أدى بطبيعة الحال إلى ضياع مورد هام من موارد الدولة وهو الجزية التي كانت تفرض على المعاهدين من التصاري وأهل الذمة ، ولذلك بادر منذ توليه الخلافة بعزل إسماعيل بن أبي المهاجر ،

(١) عثمان السكاك ، مراحل الثقافة في المغرب ، ص ١٤

(٢) الجزناي . كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، الجزائر ١٩٢٢ ، ص ٣٤

وولى على إفريقية صاحباً للحجاج بن يوسف هو يزيد بن أبي مسلم ،
 كاتب الحجاج وصاحب شرطته ، ليطبق على البربر نفس السياسة التي طبقها
 الحجاج الطاغية على أهل العراق . فقدم يزيد بن أبي مسلم إلى إفريقية
 سنة ١٠٢ هـ ، وعزم على أن يسير في البربر بسمرة الحجاج في أهل الإسلام
 الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة ، فأسلم
 بالعراق ، فإنه ردم إلى قرام ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت
 تؤخذ منهم وهم كفار ^(١) . وهكذا تشبه يزيد بن مسلم بالحجاج ،
 واستبد مع البربر ، وفرض عليهم الجزية ، واستخف بهم ، واشتد عليهم في
 جمع أموالهم ، وسبى نسائهم ، وأسرف في ذلك حتى أوغر عليه صدورهم .
 ويذكر ابن عبد الحكم أنه قبض على محمد بن يزيد القرشي ، فعذبه وجلده
 جلداً وجيعاً ، فاستسقاء ، فسقاه رماداً ، وكان قد بنى له في السجن
 بيتاً ضيقاً ، فجعله فيه ، وكساه جبة من الصوف الغليظ وختمها بالرصاص ^(٢) .
 وذكر ابن عذاري أنه « كان ظلوماً غشواً » ، وكان البربر يحرسونه ،
 فقام على المنبر خطيباً : إني رأيت أن أرمم اسم حرسى في أيديهم كما تصنع
 ملوك الروم بحرسها ، فأرسم في يمين الرجل اسمه ، وفي يساره حرسى ،
 ليعرفوا بذلك من بين سائر الناس ، فإذا وقفوا على أحد أسرع لما أمرت
 به : فلما سمعوا ذلك منه ، أعنى حرسه ، انفقوا على قتله ، وقالوا : جعلنا
 بمنزلة النصارى ^(٣) . وأخذ هؤلاء الحراس ومعظمهم من موالى عبد الله

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٩٣٩ ، ج ٥ ، ص ١٠٣ -

الأثيرج ، ٤ ، ص ١٨٢

(٢) ابن عبد الحكم ، توضح معبر والمقرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ص ٢٨٨

(٣) ابن عذري ، ج ١ ، ص ٤٦

ابن موسى بن نصير ، يترقبون الفرصة المواتية للوثوب عليه ، وقد نجحوا في قتله وهو يؤدي الصلاة بعد شهر واحد من ولايته ^(١) . ثم اتفق القوم على تولية المغيرة بن أبي بردة ، ولكن ابنه عبد الله نصحه بأن يختاروا محمداً بن يزيد ، وكان غازياً بصقلية ، لأن أباه شهد مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فخشى أن يتهم بقتله ، فوافق القوم على ذلك ، فلما قدم محمد بن يزيد ، قلده أمر إفريقية والمغرب ، وكتبوا إلى الخليفة يزيد بن عبد الملك : « إنا لم نخلع أيدينا من طاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضاه الله والمسلمون ، فقتلناه ، وأعدنا عاملك » ، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك : « إني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم » وأقر محمد بن يزيد على عمله ^(٢) .

لم يجد يزيد بن عبد الملك بدا من الإذعان لرغبة البربر ، وقبول الأمر الواقع ، ولكنه بدأ يحترز من البربر ويعمل لهم حساباً كبيراً ، فرأى أن يغير سياسته معهم ، ثم أقام عليهم بشر بن صفوان الكلبى واليا سنة ١٠٣ هـ ، وكان بشر والياً على مصر عند مقتل يزيد بن أبي مسلم ، فقدم إلى القيروان . واصططح مع البربر سياسة تقوم على المساواة بينهم وبين العرب ، وحسن المعاملة والعدل ، تهدئة لخواطرهم ، ونجح في تمهيد المغرب ، وتسكين أرجائه بحسن سيرته ولينه ، وساد البلاد في عهده فترة من السلم والهدوء . ويبدو أن يزيد بن عبد الملك كان غاضباً على بنى موسى بن نصير في المغرب ، إذ كان يعتقد أن لهم يداً في تحريك مواليتهم على الثورة على يزيد وقتله ، وكان

(١) ابن عبد الحكم ، طبعه عبد للنم عامر ، ص ٢٨٩ - السلاوى ، الاستمضا ،

ج ١ ، ص ١٠٣

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٨٢ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٣ - السلاوى ، ص ١٠٣

معظم الثائرين على يزيد بن أبي مسلم من موالى موسى بن نصير ، فمظم ذلك على يزيد بن عبد الملك ، وأمر عامله بشراً بقتل عميدهم عبد الله بن موسى ومصادرة أموالهم ، فكان أول ما فعله بشر قتل عبد الله بن موسى وتعذيب آلِه واستصفاء أموالهم ^(١) ، ولعله كان يطمع في أخذ هذه الأموال الطائلة لنفسه عن هذا الطريق بعد أن انقطع عنه المورد الآخر وهو الجزيات بمقتل يزيد بن أبي مسلم . ثم رحل بشر بعد ذلك إلى دمشق ليقدم هذه الأموال والتحف إلى الخليفة ، ولكن يزيد كان قد توفي قبل وصول بشر إلى دمشق ، فقدم بشر الهدايا والأموال إلى هشام بن عبد الملك ، فأقره على عمله بالمغرب فقدمها وتتبع أموال موسى بن نصير بالمصادرة وعذب مواليه . وفي سنة ١٠٩ هـ خرج بشر بن صفوان بنفسه لغزو صقلية ، فأصاب بها سبياً كثيراً ^(٢) ، ولكنه أصيب عند عودته بمرض خطير يقال له الديلة مات على أثره بالقيروان في شوال سنة ١٠٩ هـ ، وكان بشر قد استخلف على المغرب أثناء مرضه العباس بن باضة الكلبى ، فظل العباس يقسم بولاية المغرب حتى وصل عبيدة بن عبد الرحمن السامى ، والوالى الجديد إلى القيروان في ربيع الاول سنة ١١٠ . وكان عبيدة هذا قيسياً متعصباً ، فتجامل على عمال بشر وأنصاره ، فسجنهم ، وأغرمهم ، وعذب بعضهم ، ثم ولى على الاندلس من قبله ولاية أربعة على التوالي م . عثمان بن أبى نسة المخرمى في شعبان سنة ١١٠ هـ ، وحذيفة بن الأحوص القبسى ، في أول محرم سنة ١١١ هـ ، والهيثم بن عبيد الكنتانى في محرم سنة ١١٢ هـ ، وعبد الرحمن بن عبد الله اللعافى ، في محرم

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢١٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٨ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٠١

سنة ١١٣ هـ وكان من ضحايا سياسته التعصية عامل من عمال بشر بن صفوان هو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، عزله عبيدة ونكل به، فكتب أبو الخطار الآيات الثلاثة الآتية :

أفأتم بنى مروان قيسا دعاءنا
وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط
ولم تعلموا من كان تم له الفضل
نعمائتم عنا بعين جلية
وأنتم كذا ما قد علمنا لنا فعل

وبعث بهذه الآيات إلى الخليفة هشام، فأمر هشام بعزل عبيدة عن إفريقية والمغرب، فاستخلف عبيدة أحد أصحابه هو عقبة بن قدامة، في شوال سنة ١١٤ هـ، وتوجه إلى الشام ومعه من الهدايا والتحف العظيمة والإماء والدواب الكثير^(١)، وذكر ابن عبد الحكم أنه حمل إلى هشام من الجوارى المتخيرة سبعةائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية^(٢).

وكان عبيدة رغم حسن رأيه وحزمه شديداً في معاملته للبربر، فأسرف في هزو قبائلهم وسبى نسائهم، وبالنسبة في التعسف معهم والجور بهم، وقد كان لهذه السياسة العاقبة أثراً في تقبل البربر لمبادئ الخوارج، على النحو الذي ستفصله فيما بعد. ومن جلائل أعمال عبيدة إرساله المستنير بن الحارث الحريقي

(١) نفس المرجع ص ٥٠ - ابن الأثير، ج ٤، ص ٢١٥

(٢) ابن عبد الحكم، ص ٢١٢

إلى صقلية حيث قضى فيها الشتاء غازيا ، وعند قفوله من غزوته ثار البحر ، ففرق من معه من المسلمين ، ونجا المستنير في مركبة ، ونزل بساحل طرابلس ثم قدم إلى القيروان ، فعاقبه عبيدة بالجلد والتشهير بالقيروان ، ثم أمر بسجنه فظل به إلى أن قدم عبيد الله بن الحبحاب واليا على إفريقية سنة ١١٤ هـ ، فأفرج عن المستنير ، وولاه تونس^(١) .

وكان عبيد الله بن الحبحاب قد أثبت مهارة كبيرة في إدارة شئون مصر ، فاخاره الخليفة هشام بن عبد الملك واليا على المغرب كله لصرامته وشدته ، فاستخلف عبيد الله بن الحبحاب على مصر ابنه القاسم ، واستعمل على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى الفيسى ، واستعمل على طنجة وما والاها من المغرب الأقصى ابنه اسماعيل ، ثم عمر بن عبد الله المرادى^(٢) . وكان عبيد الله قيسيا متعصبا لقيسيته ، كما كان متعصبا للعرب عامة على البربر ، فجعل يحصف معهم كما كان يتصف مع اليمنية ، ويبدو أن بربر السوس الأقصى شقوا عليه عصا الطاعة ، فبعث إليهم حبيب بن أبى عبدة بن عقبة بن نافع سنة ١١٦ هـ غازيا ، فبلغ أرض السودان ، وتغلب عليهم ، وأصاب كثيرا من السبي^(٣) والذهب والفضة ، كذلك سمى عبيد الله بن الحبحاب جيشا إلى صقلية لغزوها ، واشتبكت سفن المسلمين مع سفن الروم في قتال عنيف انتهى بهزيمة الروم^(٤) .

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٥

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥١

(٣) ابن عذارى ، ص ٥١ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢١٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص

٢١٤ ، ج ٦ ص ٣١

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢١٦

وأساء عمال ابن الحبحاب في المغرب السيرة مع البربر ، واعتبروهم فيثا
للمسلمين وعيّدوا لهم ، وكان أشد هؤلاء العمال ظالما واستبدادا عامله على
طنجة عمر بن عبد الله المرادي ، الذي « أساء السيرة ، وتعدى في الصّدقات
والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم في المسلمين ، وذلك ما لم
يرتكبه عامل قبله ، وإنما كان الولاة يخمسون من لم يجب للإسلام ، فكان
فعله الذميمة . هذا سببا لانتفاض البلاد . ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى
كثير من القتل في العباد » (١) . وكان هشام بن عبد الملك يستحب طرائف
المغرب ويكتب إلى عامله بطنجة أن يرسل إليه « جلود الخرفان العسلية »
التي تسليخ من جلود سخال الضأن عند ولادتها أي قبل أن تصبح خشنة بنمو
الخرفان ، فيصنعون منها الجباب الصوفية الناعمة ، وكان الخليفة يؤثر اللون
العسلي ، ويطلب من عامله أن يأتيه بها عسلية اللون غير مصبوعة . ولما كان
من العسير للغاية التوصل إلى خراف وليدة بهذا اللون العسلي ، فقد عمد
العامل إلى التعاج الحاملة ، فيأمر بقصر بطونها واستخراج أجنتها بحشا عن
هذه الجلود العسلية . ويذكر صاحب أخبار مجموعة أنه كانت تذبح « مائة
شاة فربما لم يوجد فيها جلد واحد » (٢) . وكان من الطبعي أن يتعذب
صاحب قطع الفم إذ يرى غنمه تهلك بالتذبح لاتخاذ الجلود العسلية من سخالها ،
ويعز عليه ضياع كل ماله بهذه الكيفية الوحشية ، ولا يستطيع أن يفعل شيئا
أمام هذا الظلم والاستبداد . وكان الخلفاء يستحبون أيضا طرائف المغرب
ونسائه ، ويعتثون إلى عامل إفريقية بطلبهن ، فكان العامل يحرص كل

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٥٢

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٢

الحرص على إرسال البربريات المسييات^(١) ، وهو أمر كان ينكره البربر على عاملهم . ويذكر ابن عذارى أنه لا أفضى الأمر إلى ابن الحجاب ، منام بالكثير ، وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة^(٢) .

وبلغخص ابن خادون أسباب ثورة البربر بقوله: استعمل ابن الحجاب « عمر بن عبد الله المرادي على طنجة والمغرب الأقصى ، وابنه اسماعيل على السوس وما وراءه ، وانصل أمر ولايتهم ، وساءت سيرتهم في البربر ، وتقموا عليهم أحوالهم ، وما كانوا يظالبونهم به من الوصائف البربريات والأفربة الصلية الاتوان وأنواع طرف المغرب . فكانوا يتغالبون في جمعهم ذلك واتحاله ، حتى كانت الصرمة من الغنم تهلك بالذبح لاتخاذ الجلود الصلية من سخالها ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه ، فكثرت عينهم بذلك في أموال البربر وجورم عليهم^(٣) .

وهكذا كانت نفوس البربر تغلي لهذه المظالم في الوقت الذي انقسم فيه العرب إلى عصبيتين: يمنية وقيسية . وفي أثناء ذلك ، كثرت وفود الخوارج إلى بلاد المغرب لبعدها عن مركز الخلافة ، وتسلبوا بين البربر ، وأخذوا يبتنون تعاليم بينهم ، مستغلين الخصومات القائمة بين العصبيتين اليمنية والقيسية واشتغال الولاة بهذه المنازعات . ويقبل البربر هذه التعاليم المنادية بالمساواة بينهم وبين العرب ، وفتحوا للخوارج صدورهم واحتضنوم ، وكان لبربر البتر ، وعلى الأخص هوارنة الفضل الأعظم في استكمال فتح المغرب

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٣

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٠

وفتح الأندلس ، وكانوا لذلك يتوقعون من العرب أن يعاملوهم معاملة الأنداد ، ولكنهم صدموا لاستئلال الولاة لهم ، فتغيرت نفوسهم نحو العرب وبدأوا ينقلبون عليهم ، وتحالفت زناتة مع الأفارقة الذين ساءم أن يضمهم العرب في منزلة الروم ، فاعتبروا الأفارقة موالى ، وغنموا أراضيهم وأموالهم ، وهذا يفسر انضمام عبد الأعلى بن جريج الإفريقى إلى ميسرة المطغرى في الثورة ^(١) .

ج - مقدمات ثورة البربر على العرب في المغرب (موقعة الأشراف سنة ٥١٢٢) :
فر عدد كبير من العلويين والحوارج إلى الطرف الغربي من الدولة العربية ونفى به بلاد المغرب من بطش الأمويين بهم ، واتسوا الأمان بين البربر الساخطين على عمال بنى أمية في المغرب . ووجد دعاة الحوارج من العرب في بلاد المغرب أرضا خصبة لغرس تعاليمهم القائمة على المساواة بين المسلمين والثورة على الظلم ، ولكن البربر اختلفوا في مدى تقبلهم لهذه التعاليم ، فبربر القسم الشمالى من المغرب الأقصى والمغرب الأوسط قبلوا المذهب الإباضى المعتدل ، بينما اعتنق بربر القسم الجنوبي من المغرب الأقصى - في المناطق الجبلية الممتدة من السوس الأدنى إلى جبال درن - مذهب الصفرية المتطرف . وبينما كان المعتدلون من البربر يدعون إلى الثورة على الظلم ، كان الغلاة وقد داخلتهم الشعبية البربرية يدعون إلى إقامة حكومة بربرية دينها الإسلام ، أو إسلام متبرر ، ولغتها البربرية ، وظهرت هذه النزعة في برغواطة ^(٢) التي كانت تدين بديانة شرعها لها صالح بن طريف الذى تسمى بصالح المؤمنين

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ - حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٤٨

(٢) عثمان السكالك ، المرجع السابق ص ١٥

وزعم أنه المشار إليه في القرآن ^(١) . ومن الغريب أن تنقلب فرقنا الإباضية والصفرية اللتين لم تكونا حرباً على الخلاف في المشرق ، إلى حركة تفوق في قسوتها ونطرفها حركة الازارقة بالمشرق ^(٢) ، مما دعا الدكتور حسين مؤنس إلى أن يشك في نسبة حركات البربر في المغرب الأقصى إلى الصفرية والإباضية لاعتدال هذين المذهبين ، فيجمعها إلى أسباب سياسية ^(٣) . فالمذهب الإباضى يتفق في كثير من أصوله وفروعه مع مذاهب أهل السنة ، وهو أقرب إلى أهل السنة من بقية الفرق الأخرى ، كما أن مذهب الصفرية يكاد يكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالاً ^(٤) .

وأول من أدخل مذهب الإباضية إلى إفريقية سلمة بن سعيد الذي قدم إليها من المشرق في أوائل القرن الثالث لينشره هناك بين البربر ، وأخذه عنه فيها عاصم السدراتي ، وإسماعيل بن درار الغدامسى ، وداود القبلى النفاوى وعبد الرحمن بن رستم الفارمى . وقد رحل هؤلاء إلى البصرة ، وتلقوا هناك أصول المذهب على أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة البصرى من كبار علماء الإباضية ، وانضم إليهم بالبصرة عبد الأعلى بن السمح ، ثم عادوا إلى المغرب بعد أن أقاموا عند أبى عبيدة خمسة أعوام حتى أصبحوا من أعلام الإباضية ، وعرفوا لذلك عند الإباضية في المغرب بحملة العلم ^(٥) .

(١) البكرى ، ص ١٣٤ - ١٤١ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، تحقيق الدكتور مختار العبادى ، ص ١٨٢

(٢) عبد المنعم ماجد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الثانى ، القاهرة

١٩٦٠ ، ص ٢٨٨

(٣) حسين مؤنس ، هجر الأندلس ، ص ١٤٩

(٤) تقس المرجع

(٥) الطاهر احمد الراوى ، ص ١٢١

ذكرنا أن بربر البتر بالذات تقبلوا التعاليم التي نشرها دعاة الخارجية ، ولم يشرع البربر في إعلان نورتهم على العرب إلا بعد أن يشؤوا من الإصلاح. ويبدو أن دعاة الخارجية بذلوا جهدا كبيرا في إقناع البربر على الوثوب بالعرب ، ولكن البربر آثروا إبلاغ أولى الأمر من الخلفاء عن مساوئ عمالهم في المغرب ، فسيروا وفدا إلى الخليفة هشام لمطالبته باصلاح الوضع في المغرب ، ولكنهم لم يتمكنوا من مقابله ، إذ حال الأبرش وزيره بينهم وبينه ، فعادوا إلى المغرب وقد عزموا على الثورة . وفي ذلك يقول الطبرى : « ... لما زال أهل المغرب من أسمع أهل البلدان ، وأطوعهم إلى زمان هشام بن عبد الملك ، فلما دب إليهم أهل العراق ، واستثاروهم ، قالوا : إنا لا نخالف إلا بمجة بما تجنى العمال ، ولا نحمل ذلك عليهم ، فقالوا لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك . فقالوا لهم : لا نقبل ذلك حتى نخبرهم . فخرج ميسرة المضغرى في بضعة عشر إنسانا (١) حتى قدم على هشام . فطلبوا الإذن ، فصعب عليهم ، فأتوا الأبرش (٢) ، فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزونا ويجنده ، فإذا أصاب تغلبهم دوننا ، وقال هم أحق به ، فقلنا ، هو أخلص للجهادنا . وإذا حاصرنا مدينة قال : تقدموا ، وآخر جنده . فقلنا : تقدموا ، فانه ازدياد في الجهاد ، ومثلكم كفى إخوانه . فوقيناهم بأنفسنا وكفيناهم . ثم إنهم عمدوا إلى ماشيتنا ، فجعلوا يقرونها عن السخال ، يطلبون القراء الأبيض لأمر المؤمنين ، فيقتلون ألف شاة في جلد ، فقلنا : ما يسر هذا لأمر المؤمنين ، فاحتملنا ذلك ، وخليناهم وذلك .

(١) ذكر المالكى في رياض النفوس ، وابن خلدون في البر أنه خرج في بضعة

وعشرين رجلا .

(٢) كان الأبرش رئيسا لوزراء هشام بن عبد الملك .

ثم إنهم سامونا أن يأخذوا كل جميلة من بناتنا ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، نحن مسلمون . فأحيينا أن نعلم ، أعن رأى أمير المؤمنين ذلك أم لا ؟ قال الأبرش : نفل . فلما طال عليهم ، ونفذت ثقتهم ، كتبوا أسماءهم في رقاع ورفعوها إلى الوزراء ، وقالوا : هذه أسماءنا ، وأنسابنا ، فان سألكم أمير المؤمنين عنا فأخبروه . ثم كان وجههم إلى إفريقية ، فخرجوا على عامل هشام فقتلوه ، واستولوا على إفريقية ، وبلغ هشام الخبر . فسأل عن النفر ، فرفعت إليه أسماؤهم ، فاذا هم الذين صنعوا ما صنعوا » (١) .

ولما لم يجد ميسرة المطري ورفاقه من الخليفة هشام اهتماما ببحث شكايهم، لجئوا إلى الثورة على عامل الخليفة في المغرب ، وكان ميسرة هذا شيخا من شيوخ قبيلة مطهرة البقرة (٢) . وكان عالما مستترا ، فسأه أن لا يصغي الخليفة لشكاية قومه ، فزم على الانتفاض على العرب ، فتولى دعوة الصغرية في المغرب الأقصى بين ذويه وقومه من بني مطهرة ، ولم يلبث أن انضم إليه بربر مكناسة وبرغواطة بزعامة صالح بن طريف ، كما انضم إليه الأفارقة في طنجة بزعامة عبد الأعلى بن جريج ، وبايعه البربر إماما « وخاطبوه بأمر المؤمنين ، وفشت مقالته في سائر القبائل بأفريقية » (٣) . وهكذا وجد

(١) المطري ، عس دبور ج ٢ ص ٢٤٨ ، ٢٤٩

(٢) ميسرة المطري المعروف في المصادر العربية بالخنبر أو الخنبر ، أو الخنبر كانت سقاء يبيع الماء بسوق القيروان (ابن القوطبة ص ١٤ - البكري ص ١٣٤ - ابن الأثير ج ٤ ص ٢٢٤ - ابن عذاري ج ١ ص ٥٢) ، ولكن الدكتور مؤنس يستبعد أن يكون كذلك ، ويستند استنادا على ابن خلدون أنه كان رئيسا لقبيلة مطهرة ، أو عينا من أعيانها وقد اثبتت الأحداث أنه كانت له عصبية لها خطرهما (-سين مؤنس ، فجر الأندلس ص ١٦٥)

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٠٥

البربر لهم رئيس يقودهم ، فاقتدوا بخوارج الأزارقة وأهل النهر وان
أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي ، وحلقوا الرؤوس^(١) . وذكر ابن
خلدون أنهم «فحصوا عن أوساط رؤوسهم ، نادوا بشعار الحارجية»^(٢) .
وسنحت الفرصة لميسرة للخروج على العرب عندما خرج جبشهم بقيادة
حبيب بن أبي عتبة في حملة إلى صقلية ، فجمع أنصاره ، ونقضوا الطاعة
لعبيد الله بن الحبحاب بطنجة وأقاليمها ، وتداعت براز المغرب بأسره ،
فتار البربر في المغرب الأقصى سنة ١٢٢ هـ (٧٣٩ م) ، وخرج ميسرة للطغرى ،
وونب على عمر بن عبد الله المرادي بطنجة فقتله ، وولى ميسرة مكانه مولى
من موالى موسى بن نصير هو عبد الأعلى بن جريج الإفريقي الرومي
الأصل ، وكان مقدما للصفرية في طنجة . وسار ميسرة إلى السوس ،
وهاجم قوات اسماعيل بن عبيد الله بن الحبحاب ، فهزمه وقتله ، واضطرم
المغرب على أثر ذلك نارا ، فانقضض أمره على خلفاء بني مروان في
المشرق^(٣) .

وهكذا تخرج موقف عبيد الله بن الحبحاب في بلاد المغرب ، وساء
مركز العرب ، وفي نفس الوقت ، عظمت مكانة ميسرة وأتباعه من البربر
الخوارج ، وكثر جمعه من البربر ، وقوى أمره في المغرب الأقصى .
وغضب عبيد الله لزوال هيبة العرب بقتل عامله على طنجة وولده اسماعيل ،

(١) أخبار مجموعة ، ص ٣٢

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٣

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٠ . أخطأ الأستاذ محمد علي ديبوز إذ ذكر أن اسماعيل

ابن عبيد الله بن الحبحاب طلب على ابن جريج وقتله لتفوق اسماعيل عليه في الصلح والصلاح

(ج ٢ ص ٢٥٦)

فكتب إلى حبيب بن أبي عبدة يأمره بالرجوع من صقلية حتى يتمكن العرب من التكتل ، ومواجهة ثورة البربر ^(١) .

وأعد عبيد الله بن الحبحاب بالقيروان جيشاً مؤلفاً من خيار العرب ، جعل على مقدمته خالد بن حبيب بن أبي عبدة الفهرى ، وتقدم هذا الجيش قاصداً إلى طنجة لمقابلة حشود ميسرة من البربر ، وعبر خالد وادى شليف بالقرب من تاهرت ، والتقى هناك بجيش أبيه حبيب الذي عاد من صقلية ، فزّل حبيب على مجاز الوادى وآثر البقاء هناك ، فلم يبارحه . أما ابنه خالد فقد مضى من فورهِ حتى لقي ميسرة بالقرب من طنجة ، فاقتل جيشهما ، وتراجع ميسرة ، فثار عليه البربر وقتلوه ، وولوا أمرهم مكانه زعيماً من الفلاة المتطرفين هو خالد بن حميد الزناتى ، فالتقى خالد بن حبيب بالبربر بقيادة ابن حميد الزناتى ، ولكنه لم يستطع أن يصمد أمام جيوشهم الكثيفة ، فانهزم ، وانهزم وراءه العرب هزيمة مخزبة لم يسمع بمثلها ، وقتل ابن حبيب ومن معه ، ولم يبق من أصحابه رجل واحد ، فقتل في تلك الواقعة حاة العرب وفرسانها وكبائها وأبطالها ، فسميت الغزوة « غزوة الأشراف » ^(٢) .

د - ثورة البربر في المغرب (موقعة بقندورة على وادى سيوسنة ٥١٢٤ هـ) :
انتفضت البلاد بعد انهزام العرب في موقعة الأشراف ، ومرج أمر الناس ^(٣) ، ووصلت أخبار هزيمة العرب في طنجة إلى مسامع بربر

(١) ابن عذارى ج ١ ، ص ٥٤ - ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٢

(٢) قس المرجع ص ٥٥ - ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣ . ويذكر ابن خلدون أن

موقعة الأشراف حدثت على وادى شلف (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢)

(٣) ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٥ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

الأندلس ، فثاروا على عاملهم عقبة بن الحجاج السلولى ، وعزلوه فى صفر سنة ١٢٣ ، وولوا عبد الملك بن قطن الفهرى ^(١) ، ونحصر موقف ابن الحبحاب فى المغرب لذلك ، فاجتمع أعيان العرب فى القيروان وعزلوه ^(٢) .

ولما علم هشام بالكارثة التى أصابت للعرب فى المغرب ، كتب يستدعى عيد الله بن الحبحاب من إفريقية ، فخرج منها فى جمادى الأولى سنة ١٢٣ (٧٤٠ م) ، وعزم هشام على الانتقام من البربر وعبر عن ذلك بقوله : « والله لا أغضبهم لهم غضبة عربية ، ولا أبغض لهم جيشاً أوله عندى وآخره عندى » ^(٣) . وشرع فى العمل ، فأقام على المغرب بدلا من ابن الحبحاب رجلا قيسيا آخر من غلاة القيسية هو كلثوم بن عياض القشيري ، وسير معه جيشا كثيفا عدته ١٢ ألفا من الشاميين ، انضم إليهم ثلاثة آلاف من مصر ، وثلاثة آلاف من جند قنسرين ، كما انضم إليه فى طرابلس حشد هائل من جند طرابلس ، وتولى قيادة الجيش ابن أخيه بلج بن بشر القشيري . وكان هشام قد أوصى كلثوما بأن يجعل الأمر عند إصابته إلى ابن أخيه بلج ، ثم إلى ثعلبة بن سلامة العاملى ^(٤) ، وكلامهما من غلاة القيسية . وكان معظم عرب إفريقية ، الذين نوطنوا هذه البلاد منذ أيام الفتح العربى للمغرب ، وأصبحوا بلديين ، شأنهم فى ذلك شأن عرب الأندلس ، من

(١) ابن القوطية ص ١٤ - ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٥٥٥

ابن خلدون ج ٦ ، ص ٢٤٠

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٥

(٣) قس المرجع - ابن القوطية ، ص ١٤

(٤) ابن القوطية ، ص ١٤ - أخبار مجموعة ، ص ٣٠

اليمينين . وكانت بين الفريقين ثارات وأحقاد قديمة ترجع إلى أيام وقعة
الجرة التي حدثت في سنة ٦٣ هـ في عهد يزيد بن معاوية ، وكان الموقف
يستلزم نسيان هذه الأحقاد ، ودفنها أمام الخطر الجاثم ، ولكن الأحداث
أثبتت غير ذلك .

وصل كلثوم بن عياض إلى إفريقية في رمضان سنة ١٢٣ ، ولكنه
متحى عن دخول القيروان ^(١) ، وطامل بلج بن بشر العرب الأفاقة بجفاء ،
وقال لهم : « لا تغلقوا أبوابكم حتى يعرف أهل الشام منازلهم » ، فغضب
العرب البلديون من قوله . وكتبوا إلى قائد قواتهم حبيب بن أبي عبدة وهو
بلمسان مواقف للبربر ، يشكون إليه بلجا وكلثوما . فكتب حبيب إلى
كلثوم رسالة جاء فيها : « إن ابن عمك السفية قال كذا وكذا ، فارحل
بسكرك عنهم وإلا حولنا أعتة الخليل إليك » ، فكتب كلثوم يعتذر إليه ،
ويأمره أن يقيم بشلف حتى يقدم عليه ^(٢) . فأقام كلثوم على القيروان
عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، ومسلمة بن سودة القرشي ، وزحف بجيشه
إلى تلمسان مارا ببلدة سيبة ^(٣) . ويذكر ابن عبد الحكم أنه استخلف على
القيروان عبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، وعلى الحرب مسلمة بن سودة
القرشي ، ثم رحل من إفريقية متجها إلى طنجة . فقام عكاشة بن أيوب
الغزاري ، وكان من الخوارج الصنفية ، من ناحية قابس ، وبث أخاه في
جمع من البربر فحاصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سرت .

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٥٦

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٦

فاستنجد ابن ميمون بصفوان بن مالك ، أمير طرابلس ، فقدم لنجده ،
فانهزم البربر وراجعوا إلى قابس . وكان خبر هذه الفزوة قد وصل إلى
القيروان ، فخرج القائد مسلمة بن سودة القرشي إلى قابس للقضاء على
حركة البربر ، ولكنه انهزم في جموعه بأحواز قابس ، وقتل عامة من خرج
معه . وراجع إلى القيروان حيث تبعه حشود البربر وحاصروه فيها ^(١) ،
وانزاد بذلك تخرج موقف العرب . ثم خرجت فرقة من العرب إلى جيش
عكاشة ، فزمنه ، فعلق ببلاد الرمل ^(٢) .

ولما وصل كلثوم إلى هشكر حبيب بن أبي عبيدة على وادي شليف ،
استخف بحبيب وأهائه ، ونهجه بلج ونقضه ، وقال : وهذا الذي يحول أعنة
الغيل إلينا ؟ ^(٣) . فغضب عبد الرحمن بن حبيب ، ودعا إلى المناساة ،
وتوترت النفوس توتراً يؤذن بالقتال ، وانفصل العرب الأفارقة إلى جانب
وانضم إليهم عسكر مصر . التواكد القتال ينشب بين الشاميين والأفارقة العرب ،
بل إن ابن عبد الحكم وابن خلدون يؤكدان عشوب القتال بين الجانبين قبل
أن يلقوا البربر ، ولم يتمكن كلثوم من إقرار الصلح إلا بعد جهد كبير ،
فصافى الفريقان ، واتحد غيا بينهما اللقاء العدو المشترك . ولكن هذا
الصفاء لم يكن إلا استعارة زائفا يخفى تحتها ما كان قائما بالفعل بينهما من انقسام
وتغاير . ويعلق ابن عذاري على ذلك بقوله : فكان هذا الاختلاف سبب
هلاكهم مع سوء رأى كلثوم وبلج ^(٤) . ثم زحف كلثوم مع جيوش العرب

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٩٥ - حين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ١٧٢ .

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣ .

(٣) ابن عذاري ، ص ٥٦ .

(٤) قس المرجع ، ص ٥٧ .

مجتمعة^(١) نحو البربر وكان الخليفة هشام قد أمر كلثوم بأن يستخدم هرون القرنى مولى معاوية بن هشام ، ومفيثا الرومى مولى الوليد لمعرفةها بالبلاد ، فجعل كلثوم على رجالة إفريقية مفيثا ، وجعل على خيلها هرون القرنى . واشتبك العرب بقيادة كلثوم مع البربر بقيادة خالد بن حميد الزناتى عند بلدة بقدورة الواقعة على وادى سبو ، بالقرب من مدينة تاهرت ، فى طليعة عام ١٧٤ . ولما رأى مفيث وهرون كثرة حشود البربر ، نصحا كلثوم بأقامة خندق يحيط بمعسكر المسلمين ، وقال له : « خندق أيها الأمير ، وتلوم بالكراديس ، واعطنا الخيل نخالفهم إلى قرارهم ودرارهم »^(٢) . ويبدو أن كلثوم قد اقتنع بوجاهة رأيها ، وهم بحفر الخندق حول المعسكر ، غير أن بلج ، وقد ملأه التورور ، قاطعه فى ذلك ، وكان كلثوم لا يعصى له أمراً ، فقال له بلج : « لا تفعل ، ولا يرك كثرة هؤلاء . فان أكثرهم عريان أعزل ، لا سلاح لهم »^(٣) . فتأشبهم كلثوم القتال ، وجعل بلجا ابن أخيه على قيادة الحياطة الشاميين ، وهرون القرنى على خيالة عرب إفريقية ، ومفيثا على رجالة عرب إفريقية ، بينما قاد كلثوم رجالة أهل الشام . وبذكر ابن عذارى أن كلثوم « وجه بلجا ليلا ليوقع بالبربر ، فسرى ليلته ، وأوقع بهم عند الصباح ، فخرجوا إليه عراة ، فهزموه ، ووصلوا إلى كلثوم »^(٤) ،

(١) يذكر ابن عذارى أن جيوش العرب بلغت ثلاثين ألفا (البيان ص ٥٧) ، بينما يذكر صاحب أخبار مجموعة أنها وصلت سبعين ألفا (أخبار مجموعة ص ٣١) . والظاهر أن هذا الرقم الأخير يتضمن جيش عرب إفريقية وكذلك .

(٢) أخبار مجموعة ص ٣٢

(٣) نفس المرجع .

(٤) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٥٧

فاشد القتال ، ولجأ البربر إلى وسيلة مبتكرة كسيوا بها المعركة ، فقد كانوا يستقبلون خيل بلج بالجلود اليابسة المحشوة بالحجارة ، فيرمون خيل أهل الشام على النكوص والتراجع ، كما عمدوا إلى الرمح الصعبة فعلقوا في أذنانها القرب والأنطاع اليابسة ، ثم وجهوها نحو معسكر كلثوم ، فنفرت الخيل^(١) واختل مصاف العرب ، واضطر كلثوم إلى المناداة بالزول عن الخيل ، وكان ذلك ما يرمى إليه البربر ، إذ لم تكن لديهم خيول تكافئ خيول المسلمين ، فاعتمدوا على كثرتهم العددية ، وأعملوا في العرب سيوفهم ، وبدأت أعراض الهزيمة على جيش كلثوم . ثم خالطت خيالة البربر ورجالاتهم كلثوما ورجاله ، فاستشهد كلثوم وحييب بن أبي عتبة ، وسليمان بن أبي المهاجر ، وهرون القرني ، ومغيث الرومي ، وعدد هائل من وجوه العرب وانتهت المعركة بآبادة البربر لجيش كلثوم ، وأسفرت الواقعة عن هزيمة شتعا . أصيب بها جيش العرب . وركب من نجا من العرب منهزماً إلى إفريقية وتبعهم البربر يقتلونهم وبأسروهم ، حتى ذكروا أن البربر قتلوا ثلث الجيش . وأسروا ثلثة الثاني ، وطاردوا الثلث المنهزم^(٢) . أما بلج فلم يجد بداً من الفرار هو ومن بقي من فرقته وعددهم عشرة آلاف ، فلأذ بمدينة سبتة ، وأقبل البربر وراءه يحاصرون المدينة ويهاجمونها المرة بعد المرة ، ولكنهم لم يتمكنوا من اقتحام أسوارها ، لحصاتها ومناعتها ، فعمدوا إلى نسف مزارعها وتخريبها ، فأقمرت الأرض حول سبتة مسيرة يومين ، وبذلك قطعوا على العرب للعاش ، فجاعوا حتى أكلوا دوابهم ، وأكلوا الجلود وأشرفوا على الهلاك^(٣) .

(١) أخبار مجموعة ص ٣٣ - ابن خلدون ج ٦ ، ص ٢٤٣

(٢) ابن القوماني ، ص ١٥ - أخبار مجموعة ، ص ٣٤

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ - ابن عذاري ج ٢ ، ص ٤٢

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد فر إلى الأندلس عقب موقعة بقدورة التي استشهد فيها أبوه (١)، وأقام في قرطبة في كنف أميرها عبد الملك بن قطن، وكان يمينا مثله وبلديا. أما بلج فقد اضطر إلى الاستنجاد بعبد الملك ابن قطن، واستأذنه في العبور هو وأصحابه إلى الأندلس وذكر له ما صار إليه فل عرب الشام من الجهد، فنصحه عبد الرحمن بن حبيب بالآلا يأذن لهؤلاء الشاميين بالجواز إلى الأندلس، وخوفه من غدرهم (٢)، فتخافل ابن قطن عن إنجادم، وسره هلاكهم، وخافهم على سلطانه (٣). فاشتدت الحال ببلج وأصحابه، وضاق عليهم الأمر. واتفق أن تار بربر الأندلس على عربها عندما بلغهم ظهور بربر العدو على عرب الشام والعرب البلديين، فاضطر عيد الملك إلى الاستعانة ببلج ورجاله المحصورين بسبته، واتفق معهم على أن يارحوا الأندلس بعد قضاء مهمتهم، ثم أرسل إليهم السفن والأطعمة.

ازدادت ثورة البربر في المغرب عنفا بعد انتصارهم على العرب في موقعة بقدورة، وظهر في هذه الآونة زعيان بربريان هما: أبو يوسف الهواري، وعكاشه بن أيوب الفزاري الصفرى الذى رأيتاه يهاجم العرب في القيروان، وأخذ هذان الزعيان يتأهبان للزحف على القيروان، وأخذت حشودهم تتجمع في منطقة الزاب. وكانت أنباء الهزيمة التى منى بها العرب في بقدورة وما تبعها من استشهاد كلثوم وحبيب وغيرهما من كبار قادة العرب قد

(١) ابن عذارى، ج ١، ص ٦٥

(٢) قس المرجع، ص ٥٩

(٣) أخبار مجموعة، ص ٣٧ - ابن عذارى، ج ٢، ص ٤٢

وصلت إلى الخليفة هشام ، فكان لما صدى أليم في نفسه ، فغضب غضبا شديداً ، ورأى ضرورة اتخاذ موقف إيجابى حاسم تجاه الثورة البربرية العاتية قبل أن يستفحل خطرهما ، فيذهب الأمر بضياح المغرب والأندلس نهائيا على العرب ، فأمر حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، بالسير فوراً إلى المغرب ، وقلده ولاية المغرب ، وأمدّه بجيش ضخم من العرب ، فخرج حنظلة من القسطنطينية في صفر سنة ١٢٤ هـ ، ووصل إلى إفريقية في ربيع الآخر ، واستقر بالقيروان . فلما علم عكاشة وعبد الواحد بوصول حنظلة زحفا بقواتها من الزاب في طريقين ليصلا إلى القيروان من جهتين ويطوقانها ، فسلك عكاشة طريق عجانة واقترب من القيروان ، وعسكر عند القرن ، بينما سار عبد الواحد في طريق الجبال ، وجعل على مقدمته أبا قرّة المغيلي ^(١) .

وآثر حنظلة أن يقابل كل منها على حدة ^(٢) ، إذ لا طاقة له بمواجهة أعدائه مجتمعين ، فلما اقترب عكاشة من القيروان خرج إليه حنظلة بجماعة من أهل القيروان ، واشتبك مع قوات عكاشة في القرن ، واشتد القتال بينهما ، فدارت الدائرة على عكاشة ، وقتل من البربر أعداد هائلة . وبادر حنظلة بالعودة إلى القيروان بعد انتصاره خوفاً من أن يصل إليها عبد الواحد ويذكر ابن عذارى ، نقلًا عن عبد الله بن أبي حسان ، أن حنظلة « أخرج كل ما كان في الخزائن من السلاح ، وأحضر الأموال ، وفادى في الناس ، فأول من دخل عليه رجل من محصب ، فقال له : ما اسمك ؟ فقال : نصر بن ينعم ، قال : فتبسم حنظلة كالملكذب له ، وقال له : بالله اصدق . فقال : والله مالى اسم غير ما قلت ... فتفاهل به وقال : نصر وفصح . فأعطى الناس ، وخرج

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٢ — ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٢) أنبار مجموعة ، ص ٣٧ — ابن الأثير ، ص ٢٢٣

لمقابلة الصفرية ، (١) وكان عبد الواحد قد نزل على بعد ثلاثة أميال من القمروان في موضع يقال له الأصنام ، على مقربة من طبنة . وقد تجمع له من الجيوش ما يقدر بثلاثة ألف مقاتل (٢) . فحشد حنظلة كل من بالقمروان من العرب ، ووزع عليهم الأسلحة ، فكثر جمعه . ويصف ابن الأثير موقف المسلمين أمام هذا الخطر البربري فيقول : « فلما دنا الخوارج مع عبد الواحد خرج إليهم حنظلة من القمروان . واصطفوا للقتال ، وقام العلماء في أهل القمروان يحثونهم على الجهاد وقاتل الخوارج ، ويذكرونهم ما يفعلونه بالنساء من السبي وبالأبناء من الاسترقاق وبالرجال من القتل ، فكسر الناس أجفان سيوفهم ، وخرج إليهم نساؤهم يحرضهم ، غمي الناس ، وحلوا على الخوارج حملة واحدة ، وثبت بعضهم لبعض ، فاشتد اللزام ، وكثر الزحام ، وصبر الفريقان ، ثم أن الله تعالى هزم الخوارج والبربر ونصر العرب ، وكثر القتل في البربر ، وتبعوهم إلى جلولا يقتلون ، ولم يعلموا أن عبد الواحد قد قتل حتى حل رأيه إلى حنظله ، فخر الناس لله سجداً » (٣) . وبلغ عدد القتلى نحو ١٨٠ ألفاً (٤) ، ووقع عكاشة أسيراً في يد العرب ، فأمر حنظلة بقتله . وقد هلك الإمام الليث بن سعد على هذا الانتصار للمؤزر الذي أحرزه العرب على البربر بقوله : ما من غزوة كنت أحب أن أشهدا بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة القرن والأصنام » (٥) . وتوفي هشام في ٦ ربيع الآخر سنة ١٢٥ هـ

(١) ابن عسارى ، ص ٦٣

(٢) ابن الأثير ج ٤ ، ص ٢٢٣

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٢٤

(٤) نفس المرجع - ابن عسارى ، ج ١ ، ص ٦٤ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٢

(٥) نفس المرجع - ابن عسارى ، ج ١ ، ص ٦٤ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٣

قبل أن يصل إليه خبر انتصار العرب في الأَصنام ، وخلق الوليد بن يزيد ،
فأمر حنظله على ولاية إفريقية .

هـ - ثورة البربر في الأندلس وقيام الصراع بين البلدين والشاميين :

لما علم بربر الأندلس بانتصار إخوانهم في المغرب على جيوش العرب ،
ثاروا بدورهم على عرب الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلواهم ،
وأخرجوا عرب استرقة والمدائن التي خلف الدروب ، فلم يزع ابن قطن إلا
فلهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف كلها إلى وسط الأندلس (١) .
ويبدو أن البربر وثبوا على العرب في المناطق البعيدة عن مركز الإمارة
الواقعة في أطراف الأندلس ، مثل المناطق الشمالية في جليقية وأشتوريش
وغرب الأندلس ، وهي المناطق التي يسكنها جمهور البربر حيث يؤلفون هناك
أغلبية السكان ، بينما كان العرب أقلية بالنسبة إلى كثرتهم العددية فيها (٢) .
وبدل على ذلك أن البربر لم يهاجروا عرب سرقسطة وتغرهم ، لأنهم كانوا
يتفوقون عليهم في العدد . والتف بربر الأندلس حول زعيم لهم يقال له
ابن هدين (٣) ، ويسميه صاحب فتح الأندلس زقطرتق (٤) ، على نحو ما فعله
بربر المغرب عندما بايعوا ميسرة ثم ابن حيد الزناتي . فلما تخرج موقف

(١) أخبار مجموعة ، ص ٣٨

(٢) يوضح صاحب فتح الأندلس ذلك بقوله : « وتطاولت البربر أيضا بالأندلس
على العرب الساكنين بجليقية واسترقة والمدائن التي خلف الدروب ، وقتلواهم وطردوهم
اكثرهم هناك وقتل العرب » (فتح الأندلس ، ص ٣١)

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٩

(٤) فتح الأندلس ، ص ٣١

عبد الملك بن قطن بثورة بربر الاندلس، أخرج إليهم جيوشا هزموها، وقتلوا العرب في الآفاق، فخاف أن يكون مصير عرب الاندلس نفس مصير عرب المغرب، فاضطر إلى الاستعانة بالشاميين المحصورين في سبتة، للقضاء على عدوهم المشترك، وعزم على السماح لهم بالهجاز إلى الاندلس، على شريطة أن يارحوها بعد انتهاء مهمتهم، واشترط عليهم مقام سنة بالاندلس ثم يخرجون عنها إلى المغرب. فرضى عرب الشام بكل ما اشترط عليهم، إذ وجدوا في الانتقال إلى الاندلس فرصة مواتية لتقوية أنفسهم، وعندئذ يمكنهم أن يملوا على ابن قطن رغباتهم. كذلك اشترط ابن قطن عليهم، تأكيدا لعدم نكثهم، أن يسلموه عددا من رهائهم، أنزلهم بجزيرة أم حكيم. ثم أذن لبلج بالعبور إلى الاندلس، وأرسل إليهم السفن وعليها الاطعمة والأدم. فدخلوا الاندلس عراة لا تواريهم إلا دروعهم، وقد بلغ بهم الجهد كل غاية، وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام، فلما دخلوا كساهم عرب الاندلس على قدر أقدارهم، قرب رجل يكسو مائة رجل، وآخر عشرة، وآخر واحداً، إلى ما بين ذلك (١)، وأعطاهم ابن قطن العطايا.

بدأ عرب الشام مهمتهم بمهاجمة جماعة من البربر بقيادة رجل من زناتة، كانوا قد انتقضوا على عبد الملك بن قطن في شذونة، فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم، وأصابوا أمتعتهم ودوابهم، فاكتفى أصحاب بلج واتعشوا، وأصابوا للمغانم، ثم مضوا مع عبد الملك إلى قرطبة (٢)، ومنها زحفوا إلى الشمال. أما البربر فقد أقبلوا في حشود هائلة من جليقية واسترقه

(١) أخبار مجموعة، ص ٣٩

(٢) ابن عذاري، ج ٢، ص ٤٣

وماردة وقورية وطلبرية متجهين جنوبا نحو قرطبة، وعبروا وادي تاجة،
والتقوا مع قوات العرب مجتمعة من الشاميين والبلديين في حوز طليطلة،
على وادي سليط، فحلق البربر رؤوسهم اقتداء بميسرة للطغرى، حتى
لا يختلطوا في جموع العرب فلا يخفى أمرهم (١). ثم انحط الشاميون على
البربر كالبواشق حائقين، فزقوا صفوفهم، وأذرعوا فيهم القتل وأبادوهم،
فأطفئوا بذلك جرة نقيمتهم بحيث لم ينج من البربر إلا من فر بحياته. وبذلك
انتهت مهمة بلج. وطالبه عبد الملك بن قطن بالخروج من الاندلس،
فسأله بلج وأصحابه أن يبيء لهم الرحيل من ساحل البيرة أو ساحل تدمير (٢)
في سفن تنقلهم إلى تونس. فاعتذر عبد الملك بن قطن عن ذلك بوجود السفن
في الجزيرة الخضراء، لكن تنقلهم إلى سبتة. فقالوا له: «تعرضنا لبربر طنجة.
اقذف بنا في لجة البحر أهون لنا» (٣) فلما نبين لهم أن قصدته من ذلك
إهلاكهم، ثاروا عليه وأخرجوه من القصر، وأقاموا على إمارة الاندلس
بلجا في أول ذي القعدة سنة ١٢٥. أما ابن قطن فترل داره، وقد أذهله
تطور الأحداث ضده. ونتج عن تغلب الشاميين وظفرهم بالإمارة استحكام
النواصي في الاندلس، وأمسك والى الجزيرة الخضراء عن إمداد رهائن
الشاميين الذين كان قد وضعهم ابن قطن في جزيرة أم حكيم بالطعام والشراب
تضامنا منه مع ابن قطن. فأتت من الرهائن رجل غساني من أشرف الشام،
واتهم عرب الشام ابن قطن بأنه قد تسبب في موته، فثار عرب النين لموت
الغساني، وطالبوا بلجا بأن يسلم لهم ابن قطن ليقتلوه مقابل الغساني، فحاول

(١) أخبار مجموعة، ص ٤٠.

(٢) ابن عذارى، ج ٢، ص ٤١.

(٣) أخبار مجموعة، ص ٤١.

بلغ أن يردم عن ذلك عبثاً ، إذ اتهموه بأنه يحى مضرأ ، فخاف أن تنفرق كلمتهم ، فأمر بإخراجه من داره ، فأخرجوه وهو شيخ كبير تجاوز التسعين ، وهم يتادونه : « يا فال ، فلت من سيوفنا يوم الحرة ، ثم عرضتنا أكل الكلاب والجلود طلباً بنار الحرة ، ثم بع جند أمير المؤمنين » (١) . فقتلوه عند رأس القنطرة ، وصلبوه .

وأثار مقتل ابن قطن موجة من الغضب في الأندلس ، واتحد العرب البلديون بقيادة قطن وأمية ابني عبد الملك بن قطن مع البربر الذين كانوا يتلهفون لنيل ثأرهم من أهل الشام ، وانضم إليهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي عامل عبد الملك في أربونة ، كما انضم إليهم نفر من أصحاب عبد الملك أمثال عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة الذي كان بطمع في الظفر بامارة الأندلس (٢) . والتقى هذا الجيش مع جيش الشاميين في موضع يقال له أقوة برطورة ، وانهت الموقعة بهزيمة البلديين من العرب والبربر وانتصار الشاميين ، وقتل بلغ في هذه الموقعة ، فخلفه ثعلبة بن سلامة العاملي . ولما بلغ الخليفة هشام ما أصاب البينيين على أيدي القيسية من أهل الشام ، شاور أخاه العباس بن الوليد في هذا الأمر ، فنصحه بأن يولى على الأندلس أحد البينيين وكان الخليفة قد تلقى بضعة أبيات كتبها أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي أحد عمال بشر بن صفوان ، ممن نكبه عبيدة بن عبد الرحمن السلمي نصها :

(١) نفس المرجع ، ص ٤٢

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٥

أفأتم بنى مروان قيسا دماءنا
 وفي الله إن لم تنصفوا حكم عدل
 كأنكم لم تشهدوا مرج راحط
 ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
 وقيناكم حر الوغى بصدورنا
 وليست لكم خيل تعدو ولا رجل
 فلا رأيتم واقد الحرب قد خبا
 وطاب لكم منها المثارب والأكل
 تفاقم عنا كأن لم يكن لنا
 بلاء وأنتم ما علمت لها فعل
 فلا تجزعوا إن عضت الحرب مرة
 وزك عن المرقاة بالقدم العمل
 تصرم جبل الوصل وانقطع القوى
 ألا ربما يلوى فينقطع الحبل (١)

فكتب الخليفة يأمر حنظلة بن صفوان بأن يولى أبا الخطار الاندلس
 ليضع حدا للفتنة القائمة بين البلديين والبربر وبين الشاميين . فقدم إليها في
 رجب سنة ١٢٥ هـ (مايو سنة ٧٤٣ م) ، وكان عبد الرحمن بن حبيب مقيا
 بقرطبة عند قدوم أبي الخطار إليها ، فخاف على نفسه منه ، وخرج مستترا ،
 فركب البحر إلى تونس ، فنزل بها أملا في الدعوة إلى نفسه .

(٣)

المغرب في السنوات الخمس الأخيرة من عصر الدولة الأموية

١ - فشل حفظة بن صفوان في مواجهة الفتن في المغرب وخروجه الى الشرق:
لم يكن حفظة بن صفوان قيسياً كما يذكر الدكتور حسين مؤنس^(١)، ولكنه كان كلياً يمينياً، وكان معتدلاً في سياسته، فلم يتمصب للكليبيين على القيسيين، ولذلك ساد الأمن والهدوء ربوع إفريقية في السنة التالية لانتصاره على عبد الواحد المواري وعكاشة الفزاري الخارجيين، في خلافة الوليد ابن يزيد الذي عرف باعداله في عصيته. ولكن فترة السلام كانت قصيرة الأمد، إذ وردت الأخبار بزول عبد الرحمن بن حبيب القهري بنونس في جمادى الأولى سنة ١٢٦ هـ، وقيامه بالدعوة إلى نفسه في تونس. وقد كان عبد الرحمن بن حبيب قد سار إلى الأندلس بعد انهزام العرب في بقدرية،

(١) يبدو أن الدكتور مؤنس قد استلط عليه أمر حفظة بن صفوان فذكر أنه كان قيسياً بقوله: « ولكن الثابت أن حفظة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه الحركة الخطيرة الحاسمة، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة .. » (أنظر فجر الأندلس ص ١٧٧) وعلى هذا الأساس عرض الدكتور مؤنس رأيه في أن مقتل الوليد بن يزيد كان أيضاً بائعاً للبينين وعونهم إلى السلطان، ويعني بالبينين عبد الرحمن بن حبيب القهري وأضاراه من العرب. وحقيقة الأمر أن المسألة لا تبدو صراعاً بين البلدين من عرب المغرب وبين العرب الطائرين على المغرب من المشرق وهم الشاميون من القيسية واليمنية مما . ولم يكن خطر الصراع بين العيصيين اليمنية والقيسية قد قام بعد، إنما قام في الأندلس عندما تخاض أبو الحظار ويحيى بن حريث الجذامي على الصميل ويوسف في سنة ١٢٠، واشتعلت نار الحرب بين العيصيين اليمنية والقيسية، وهي أول حرب كانت في الإسلام بهذه الدنوة ولم تكن حرب قبل هذه الواقعة (أخبار مجموعة، ص ٥٩)

عسى أن يجد لنفسه هناك سبيلا للوصول إلى الإمارة ، ولكنه لم يتمكن من الظفر بها في دوامة الصراع بين البلديين والشاميين ، فلما وجه حنظلة أبا الخطار إلى الأندلس أميرا ، يش عبد الرحمن بما كان يرجوه ، وخاف أن يقع في قبضة أبي الخطار الذي كان لا يتردد في القضاء على كل متمرّد ثائر .

فركب سفينة حملته إلى تونس . وكان عبد الرحمن ما يزال متعطشا إلى الإمارة . ولم يكن يبالى بركوب الصعاب في سبيل نيلها ، ولا ندرى لماذا حاد إلى المغرب ، فقد كان حنظلة بن صفوان كليا يمينيا مثله ، كما أن تحليل مجيئه بأن مقتل الوليد بن يزيد كان يعنى انتصار اليمينيّين على القيسيين لا يعدو أن أن يكون تحليلًا ضعيفا ، فحنظلة بن صفوان كان كليا ، وأبو الخطار الحسام كان كليا كذلك ، بل إن الأحداث التي جرت في الأندلس ستثبت انتصار القيسية على اليمينية ^(١) ، وأعتقد أن وفود عبد الرحمن بن حبيب إلى المغرب وقيامه بالدعوة لنفسه يرجع إلى أنه آثر أن يتعاون مع العرب الأفارقة والبربر الزناتيين ، فقد كان لا يهجم إلا أن يحظى بتأييد البربر ما دام في ذلك سبيلا يوصله إلى الإمارة ^(٢) . وقد فعل عمه يوسف بن عبد الرحمن التهرى ما يشبه ذلك بصالحه مع القيسية ضد اليمينية ، لكي يصل إلى إمارة الأندلس . ولا شك أن عبد الرحمن بن حبيب كان يشعر بأنه زعيم العرب الأفارقة ، فهو من أقدم بيوت العرب الفاتحين الذين استقروا بأفريقية منذ أسس جده الأول عقبة بن نافع مدينة القيروان ، وسام أبوه حبيب ابن أبي عبيدة وجده أبو عبيدة بن عقبة بنصيب وافر في الفتح العربي للمغرب .

(١) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ١٦٢ وما يليها .

(٢) كانت أمه بربرية من جبال أوداس وربما كان ذلك سببا في توكيد لفرقة

فلما أجاب أهل تونس من العرب البلديين والبربر عبد الرحمن بن حبيب إلى دعوته، فكر حنظلة بن صفوان في الخروج إليه، والزحف لمقاتلته، ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا الخطر حقنا لدماء العرب^(١)، فقد كان حنظلة لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي^(٢)، وآثر أن يبعث إليه وفدا من وجوه إفريقية عددهم خمسين رجلا، ليراجعوه فيها هو بسبيله، ويدعوه إلى مراجعة الطاعة، فلما قدموا إليه، انتهر هذه الفرصة وقبض عليهم، وأوقفهم في الحديد، وأقبل بهم إلى القيروان^(٣)، مع أنصاره الأفارقة، وعسكرهم في موضع قريب من القيروان يعرف بسبخة سجوم في أوائل سنة ١٢٧ هـ (٧٤٥ م)^(٤). وكتب من هناك إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد، وأمهلم ثلاثة أيام للخروج منها، وذكر لهم أنه سيدخل القيروان، وأنذرهم بقوله: «إن رمى أحد من أوليائهم بحجر قتلهم»^(٥). وكان في إمكان حنظلة أن يقاوم عبد الرحمن ابن حبيب، ولكنه أنف من مقاتلة إخوان له، لأن في ذلك تمكين لأعداء العرب من البربر الصغرية الذين كانوا يترصدون للعرب، و ينتظرون فرصة موالية للوثوب عليهم وإبادتهم، وهم الذين يفيدون بطبيعة الحال من انقسام

(١) ابن عذاري، ج ١ ص ٦٥

(٢) ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٨

(٣) ابن عبد الحكم، ص ٣٠٠ - ابن عذاري، ج ١، ص ٦٥ - ابن الأثير، ج ٤

ص ٢٧٨ - ابن خلدون، ج ٤، ص ٤٠٧

(٤) حسين مؤنس، نقل عن التويري، فجر الأندلس، ص ١٧٩

(٥) ابن عذاري، ج ١، ص ٦٥ - ابن الأثير، ج ٤، ص ٢٧٨ - السلاوي، ج ١

الصف العربي ، ثم إن حنظلة كان قد زهد في الإمارة ، وكره أن يتهازل ، من أجل الإحفاظ بها ، عربا مثله وعربا يمتنين بالذات ، يضاف إلى ذلك أن إنذار عبد الرحمن بن حبيب كان يضيح رجال أبرياء ، وم الرسل الذين كان قد بعثهم حنظلة إلى عبد الرحمن ليراجعوه عن قصده ، لذلك كله آثر أن يتنازل عن الإمارة له ، ويعود إلى دمشق ، فدعا القاضي والعدول ، وفتح بيت المال ، فأخذ منه ألف دينار ، وترك الباقي ، وقال : لا أطلبس منه إلا بقدر ما يكفيني ويلفني ^(١) . ثم إنه جمع أتباعه وخرج من إفريقية في جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ ، متجها إلى دمشق . ودخل عبد الرحمن بن حبيب القيروان ، ونهى الناس عن تشييع حنظلة .

ب - نواد البربر في المغرب في ولاية عبد الرحمن بن حبيب القيرواني :

لم يمكث الخليفة يزيد بن الوليد المعروف بالناقص في الخلافة سوى ستة أشهر ثم توفي في ١٩ ذى الحجة سنة ١٢٦ هـ ، فعول الخلافة من بعده أخوه إبراهيم بن الوليد بعده منه ، ثم خلع نفسه مروان الجعدي بعد مضي نحو شهر ونصف شهر فقط من توليته الخلافة ، وذلك بعد أن انهزم جيشه بقيادة سليمان بن هشام أمام جيش مروان الجعدي في عين الجر (عنجر بلبان) ، وباع أهل دمشق مروان بالخلافة في سنة ١٢٧ هـ . فبادر عبد الرحمن ابن حبيب بإرسال يبعته إلى مروان مع بعض الهدايا ^(٢) . فأقره مروان على ولاية إفريقية . ولم يكن ابن حبيب في حاجة إلى هذه الولاية ، إذ كان قد اغتصبها بالفعل ، وأصبح أميراً شبه مستقل عن الخلافة ، ولكنه أراد أن يسج على

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٦٧

(٢) نفس المرجع

حكمه شرعية تدعم سلطانه عند البربر ، وإن كان البربر في المغرب كله أصبحوا لا يقيمون وزناً للخلافة الاموية بعد أن فقدت هيبتها ، بل كانوا يتطلعون للقضاء على أى تقوذ لها ، ويترقبون الفرص المواتية للاستقلال ببلادهم . فلم يمض شهر واحد على إمارة عبد الرحمن بن حبيب حتى تفجرت براكين الثورة في أنحاء المغرب . ففي تونس ثار عليه عروة بن الوليد الصدي ، واستولى على تونس ، وفي الساحل شق عليه العرب عصا الطاعة تحت زعامة أبي عطاء عمران بن عطاء الأزدى ، فزل بطيفاس ^(١) ، وثار البربر في المناطق الجبلية ، « واستشرى داء البربر ، وأعزل أمر الخارجية ورؤوسها ، فانتفضوا من أطراف البقاع ، وتواثبوا على الأمر بكل ما كان ، داعين إلى بدعهم ، وتولى كبير ذلك يومئذ صنهاجة » ^(٢) . والتفت صنهاجة حول زعيم من زعمائهم اسمه ثابت الصنهاجي واستولوا على باجة ، كما ثار معه عبد الله بن سكرديد من أمرائهم فيمن تبعه من بربر صنهاجة . وفي طرابلس ثار عبد الجبار والحارث من هواة ، وكانوا على مذهب الإباضية ، لقيام الياس بن حبيب الفهرى بقتل زعيمهم عبد الله بن مسعود الصنجي . فقتلوا عامل طرابلس بكر بن عيسى القيبي عندما خرج يدعوهم إلى السلم ^(٣) ، كذلك ثار إسماعيل بن زياد الإباضى فيمن معه من بربر نفوسة ، واستولى على قابس . وكان لا بد لعبد الرحمن بن حبيب الذي تشبث بالإمارة أن يعمل على إخماد هذه الثورات ، فبدأ بثابت الصنهاجي

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٧٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٣

(٣) ابن عسارى ، ج ١ ص ٦٦ — ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٢٩ — ابن خلدون ، ج

بباجة ، وأرسل أخاه إلياس بن حبيب التهرى على رأس ستائة فارس لمهاجمة
أبي عطف الأزدي ، وأوصاه أن يتظاهر بمتابعة السير إلى تونس لقتال
عروة بن الوليد الصدفى ، فيخدعهم بذلك . فأتى من عاديتهم ، ثم ينقلب عليهم
ويفاجئهم بالمهجوم . ففعل إلياس ما أوصاه به أخوه ، وأغار على طيفاس
وأهلها غافلون ، لا يتوقعون منه ذلك ، فدهمهم رجاله . فقتل منهم عددا
مظيما . من بينهم أبو عطف نفسه ، وذلك فى سنة ١٣٠هـ . ثم كتب إلى
عبد الرحمن يشره بهذا النصر ، فأمره بالسير إلى تونس ، ومفاجأة عروة
ابن الوليد وأصحابه قبل أن يتنبهوا له . ففعل ما أمره به ، ونجح فى هزيمة
عروة بن الوليد ، وقتله ، واسترجع تونس ، وأقام بها (١) .

ثم ولّى عبد الرحمن وجهه بعد ذلك نحو الحارث بن تليد الموارى ،
وعبد الجبار بن قيس الموارى اللثائرين بطرابلس ، فزحف إليهما بجيش
كثيف فى سنة ١٣٩ هـ ، وتمكن من قتلتهما بالخدعة ، وقضى بذلك على
ثورتهم ، كما هاجم اسماعيل بن زياد النفوسى وقتله ، وهزم جيشه ، واستعاد
طرابلس ، وعمر سورها فى العام التالى سنة ١٣٢ هـ (٢) ، فاقفل الناس إليها
من كل مكان (٣) . وما كاد عبد الرحمن ينتهى من خوارج طرابلس حتى
عاد إلى القيروان ، ثم غزا تلمسان فى سنة ١٣٥ هـ . وقضى على اللثائرين فيها
من البربر (٤) .

(١) نفس المرجع - ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩

(٣) أنظر تفاصيل مقتلهم وتوحيات لفرقة والأندلس لابن عبد الحكم - ابن عسار

ج ١ ، ص ٦٩ .

(٤) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٧٩ - ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٢٢٣

وهكذا بطش عبدالرحمن بن حبيب بأعدائه البربر الإباضية في كل مكان، وكان سفاكا للدماء ، وفي ذلك يقول ابن عذارى : « وأمعن عبد الرحمن ابن حبيب في قتل البربر ، وامتنحن الناس بهم ، واجتلام بقتل الرجال صبرا ، يؤتى بالأسير من البربر ، فيأمر من يجهمه بصحريم دمه بقتله ، فيقتله » (١) . وكان يصطنع الحيلة والخديعة في التغلب على أعدائه ، فقد رأينا كيف انتصر على خصميه أبي عطاء عمران الأزدى في طيفاس ، وعروة بن الوليد في تونس ، كذلك استعمل دهاءه في القضاء على ثورة طرابلس التي تأسست فيها لإمامة عبد الله بن مسعود التجيبي ، وهي إمامة كانت من تمتد من سرت إلى قابس ، وكانت هذه الإمامة قد تقوت بانضواء بربر هوارنة ونقوسة إلى الإباضية ، فعمد عبد الرحمن بن حبيب إلى تولية أخيه إلياس على طرابلس حتى يقضى على حركة الإباضية قبل أن تستفحل ، ولم يتردد إلياس في قتل عبد الله بن مسعود التجيبي زعيم الإباضية ظنا منه أنه إذا قضى على الرئيس تفرق شمل الإباضية (٢) ، ولكن الإباضية بايعوا الحارث بن تليد الحضرمي بالإمامة عليهم فاتخذ عبد الجبار بن قيس وزيرا ، وأسس الحارث بذلك جمهورية مستقلة عن المغرب ، ولما لم يتمكن عبد الرحمن من التغلب على خصميه بقوة السلاح لجأ إلى الخديعة ، فدس عليها عصابة من أتباعه في طرابلس قتلوما في دار الندوة ، ثم أدخلوا على كل منها سيفا وجعلوا مقبضه إلى جهة الآخر ليوهما الناس بأنها تنازما ، فتقاتلا فقتل كل منها الآخر . وأحدث عبد الرحمن بذلك انقساماً بين الإباضية حول قضية

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٦

(٢) محمد علي ديو ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٤١١

الفتيلين ، فانقسم الإباضية على أنفسهم ، وقامت إمامة اسماعيل بن زياد النفوسى
بين مظاهر الاضطراب والانقسام ، فماجدله عبد الرحمن بالهجوم قبل أن
يمكن الإباضية من توحيد صفوفهم ، ففعل اسماعيل ، وانهمز جيشه .

وعلى هذا النحو تغلب عبد الرحمن بن حبيب على جميع خصومه .

الفصل الرابع

المغرب في فترة الانتقال بين سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية

(١) النزاع بين بني عبد الرحمن بن حبيب

أ - مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس

ب - انقراض بني حبيب الفهري في المغرب

(٢) الصراع بين الإباضية في طرابلس والصفورية في إفريقية

أ - غلبة الخارجية على المغرب

ب - موقف الخلافة العباسية من الخوارج في المغرب

ج - ولاية إفريقية في العصر العباسي حتى قيام دولة بني الأغلب:

١ - الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي (١٤٨ - ١٥٠ هـ)

٢ - أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد

٣ - يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية

٤ - روح بن حاتم بن قبيصة

٥ - الفضل بن روح بن حاتم

٦ - هرثمة بن أعين

٧ - محمد بن مقاتل المكي

الفصل الرابع

المغرب في فترة لإنتقال بين سقوط الدولة الأموية

وقيام الدولة العباسية

(١)

النزاع بين بني عبد الرحمن بن حبيب

١ - مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية الياس :

سقطت الدولة الأموية في سنة ٨١٣٢ هـ ، وقامت الدولة العباسية على أنقاضها ، فأعلن عبد الرحمن بن حبيب دخوله في طاعة أبي العباس السفاح ، ولما توفي السفاح في سنة ٨١٣٦ هـ ، وبويع أبو جعفر المنصور بالخلافة ، أقر عبد الرحمن بن حبيب على ولاية إفريقية ، وأرسل إليه خلعة سوداء ، وهو أول سواد دخل إفريقية ، ثم كتب إلى عبد الرحمن بن حبيب يدعو إلى الطاعة ، فأجابته ، ودعا له ، ووجه إليه هدية من بينها بعض الذهب ويزاة وكلاب ، وكتب إليه يقول : « إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها وللال ، فلا تطلب مني مالا » (١) . فغضب المنصور ، وأرسل إلى عبد الرحمن كتابا يهدده فيه ويوعده . فلما وصل الكتاب ، جمع عبد الرحمن الناس للصلاة ، ثم صعد المنبر ، وأخذ يسب أبي جعفر ويقول : « إني ظننت أن هذا الخائف يدعو إلى

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠

الحق ، ويقوم به . حتى تبين لى خلاف ما بايعته عليه من إقامة العدل ، وإبني الآن قد خلعت ، كما خلعت نعلى هذا ، وقذفه من رجليه . ثم دعا بخلع السود . وأمد بصخريها ، ، وقيل إنه أحرقها ^(١) .

وكان العباسيون يتعقبون أمراء بنى أمية حيث كانوا ، ويقتلونهم أينما وجدوهم ، ففرق بنو أمية في أطراف البلاد للنجاة بأرواحهم ، وكان جملة من فر إلى المغرب إبنان للوليد بن يزيد ، هما العاص وعبد المؤمن ، وكان عبد الرحمن بن حبيب وأخوه عبد الوارث وإلياس ، قد تزوجوا من بنات أعمامهما ، فلما قدما إلى المغرب استضافهما عبد الرحمن في دار من دورته ، ولكنه علم أنهما يسميان للظفر بالإمارة ، فقتلها . فخرضت بنت أبان ، زوجة إلياس ، زوجها على قتل أخيه عبد الرحمن ، ويذكر ابن الأثير أنها قالت : « إني أخاك قد قتل أختناك ولم يراقبك فيهم ، وتهلون بك ، وأنت سيفه الذى يضرب به ، وكلما فصحت له فصحا كتب إلى الخلفاء إن ابني حبيبا فصحه ، وقد جعل له العهد بعده ، وعزلك عنه ، ولم تزل تغريه به ، فحرك لقولها ، وأعمل الحيلة على أخيه » ^(٢) . ووافق على ذلك أخوه عبد الوارث ، وجماعة من القمريين . واتفق أن خلع عبد الرحمن بن حبيب في هذه الآونة طاعة المنصور ، فانخذ الخآمرون من ذلك وسيلة لقتله ، وتأمر إلياس ، وإعادة الدعوة لابن جعفر المنصور . ويبدو أن عبد الرحمن أحس بشئ من تلك المؤامرة ^(٣) . فولى أخاه إلياس على تونس ، فأتاه إلياس ليودعه قبل رحيله ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٧٦

(٢) نفس المربع ص ٦٨ - ابن الأثير ص ٢٨٠

(٣) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

ثم قتله . ويروى ابن عذارى قصة قتله بقوله : « وكان عبد الرحمن قد ولي أخاه إلياس تونس ، وودعه للخروج إليها ، وعبد الرحمن إذ ذاك مريض ، فدخل عليه وهو في غلاظة ورداء ، وابن له صغير في حجره ، فقعد طويلاً ، وعبد الوارث يغمزه ، فلما قام يودعه ، أكب عليه ووضع السكين بين كتفيه حتى وصل إلى صدره ، ثم رد يده على السيف فضربه ، وخرج هارباً دهشاً . فقال له أصحابه : ما فعلت ؟ قال : قتلته . قالوا : إرجع فحز رأسه . فرجع وحزّه ، وثارت الصبيحة ، وأخذ إلياس أبواب دار الإمارة - وسمع ابنه حبيب الصبيحة ، فأخبر بقتل والده ، فاخفى ، ثم محاول على وجهه إلى باب تونس ، أحد أبواب القيروان . فخرج منه ، ومضى إلى عمه عمران بن حبيب ، وهو والى تونس لوالده » ^(١) . وتم قتل عبد الرحمن في ذى الحجة سنة ١٣٧ هـ .

وهكذا أسدل الستار على عبد الرحمن بن حبيب الفهرى بعد أن قضى في الإمارة عشر سنوات وسبعة أشهر ، قضاهما كلها في حروب مع البربر ، وقد كان عبد الرحمن هذا يطعم في التغلب على الاندلس منذ أن فر إليها بعد هزيمة البربر للعرب في بقدورة ، ومع أنه ظفر بإمارة المغرب ، إلا أنه كان ما يزال طامعاً في احتلال الاندلس ، وفي ذلك يروى المؤرخون أن كان في بلاط ابن حبيب يهودى عالم بالحدثن ، قد صاحب مسلمة بن عبد الملك ، فذكر لابن حبيب أنه يغلب على الاندلس رجل من أبناء الملوك يقال له عبد الرحمن له ضميرتان ، ومن بيت الملك ، فانخذ ابن حبيب صغيرتين أرسلهما رجاء أن تناله الرواية ، فلما قدم عبد الرحمن بن معاوية إلى المغرب

بعد أن أفلت من أيدي العباسيين ، وكانت له ضميرتان ، ثم يقتله حتى لا
تتحقق نبوءة اليهودي ^(١) ، وطارده ولكن ابن معاوية تمكن من دخول
الأندلس ، والتغلب على يوسف بن عبد الرحمن المهرى ^(٢) ، وأحيا بذلك
ملك بني أمية في الأندلس بعد انقطاعه .

ب - اقراض بني حبيب المهرى في المغرب :

لما قتل عبد الرحمن بن حبيب على يدي أخيه إلياس ضبط هذا أبواب
قصر الإمارة حتى يمنع حبيبا بن عبد الرحمن من الفرار ، ولكن حبيبا تمكن
من الإفلات . ولأذ بعنه عمران الذي كان بطمع في إمارة إفريقية . واتفق
حبيب وعمه عمران على محاربة إلياس وعبد الوارث ، فأعدا جيشا لذلك
الغرض ، ولكن إلياس فضل أن يبدأ هو بالهجوم ، فسار إليها على رأس
جيشه ، ويذكر ابن الأثير أن إلياس سار إليها « واقتتلوا قتالا بسيرا » ثم
اصطلحوا على أن يكون لحبيب قصبة وقسطيلة ونفزة (لعلها تقطة باقليم
الجريد) ويكون لعمران تونس وصطفورة والجزيرة ، ويكون سائر

(١) أخبار مجموعة ص ٥٥ . ارجع الى تعليق على « منه النعمة في كتابي » تاريخ

المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ١٧٧

(٢) ذكر السلاوي أن يوسف المهرى كان ابنا لعبد الرحمن بن حبيب المهرى (السلاوي

ج ١ ، ص ١١٨) . والواقع أن يوسف المهرى كان ابنا لعبد الرحمن بن عقبة بن نافع ،
وكان طاعنا في السن عندما ولاء الصميل إمارة قرطبة ، فليس من المقول أن يكون ابنا
لعبد الرحمن بن حبيب . وتذكر مدونة موساك أنه كان حاكما لمدينة أربونة في عام ١١٦هـ

(٧٣٤) (أنظر Chronicon Moissiacense, Apud. Ajbar Machmuâ, p.166)

كذلك أشار المقرئ الى أنه كان عاملا بأربونة في عهد عبد الملك بن قطن في ولايته الأولى على
الأندلس ، وفي عهد حار رباط المسلمين على نهر ردة (المقرئ ، ج ١ ، ص ٢٢٠)

إفريقية لإلياس ، وكان هذا الصلح سنة ثمان وثلاثين ومائة ^(١) . ولكن إلياس كان يضر السوء بأخيه عمران ، إذ كان يخشى منه على إمارة إفريقية ، فعمل على التخلص منه أولاً ، ثم بفرغ بعد ذلك للتخلص من حبيب . فلما سار حبيب إلى عمله من بلاد الجريد ، ورحل عنه عمران إلى تونس غدر إلياس بعمران قفله ، وقتل أنصاره من أشراف العرب واسترجع تونس ، ثم عاد إلى القيروان ^(٢) . وذكر ابن عذارى أن إلياس وثب على عمران ، وبعث به إلى الأندلس ، وولى على تونس محمد بن المغيرة . وانصرف بعد ذلك إلى القيروان ^(٣) . ولكن الأرجح أن إلياس قتل عمرا ، لأنه كان يخاف منه على ملكه ، ويؤيد ذلك ابن خلدون ^(٤) . فلما قتل عمران ، لم يعد إلياس يخاف من حبيب وظن أنه أصبح سيد الموقف ، فبث بطاعته إلى أبي جعفر المنصور مع وفد من العرب منهم عبد الرحمن بن زياد بن أنعم قاضى إفريقية ^(٥) .

وكان من الطبع أن يستاء حبيب لغدر إلياس به . عمران ، ونكثه لعهده معه ، ويدو أنه عزم على محاربة إلياس ، وبلغ إلياس ذلك ، « قدس له من زين له الخروج إلى الأندلس ، ففعل ، ووجه معه شقيقه عبد الوارث ومن أحب من مواليه ، فركبوا البحر ، وقد تعذرت بهم الريح ، فكتب حبيب إلى إلياس ، إن الريح ردت ، ووقفوا بطبرقة ، فكتب إلياس إلى عامله بها يحذرهم من أمره . فسمع به موالى عبد الرحمن وأهل طاعته ، فأتوا

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٧٨

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٨

(٥) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ — ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩

إليه من كل ناحية، وطرقوا سليمان بن زيد حامل الياس، وهو في معسكره يحرس حبيبا، فأسروه، وشدوا وثاقه، وركبوا إلى حبيب، فأخرجوه إلى البر،^(١).

التف موالى عبد الرحمن بن حبيب إلى مولاهم، فاجتمعوا على طاعته، ثم زحف نحو القيروان، فاستولى على الأريس. وعندئذ خرج الياس بعد أن استخلف على القيروان محمد بن خالد القرشي^(٢). فلما التقيا تقاتل الفريقان قتالا خفيفا، فلما أمسى حبيب أوقد النيران ليظن الناس أنه مقيم، ثم أسرى، فأصبح بجلولاً، ثم نفذ إلى القيروان فاستولى عليها^(٣)، وأخرج من سجنها من كان محبوسا، فكثرت جموعه، وعاد الياس لمحاربة ولكن أكثر جنده افترقوا عنه، وانضموا إلى عسكر حبيب. عندئذ خرج إليه حبيب في حشود كثيفة، فلما التقيا، ناداه حبيب: لم تقتل صنائعنا ومواليها، وهم لنا حصن، ولكن أبرز أنت وأنا، فأينا قتل صاحبه إستراح منه فتاداه الناس: قد أنصفك يا إلياس. فخرج كل واحد منهما إلى صاحبه، ووقف أهل العسكر ينظرون. فقطاعنا حتى تكسرت قناتهما. ثم تضاربا بسيوفهما، وعجب للناس من طول صبرهما على القتال، ولكن التعب بدأ يظهر على الياس، وبدأت قواه تنحور، فضربه حبيب ضربة أسقطته. ثم أكب عليه فحز رأسه، وأمر برفعه على رمح، وأقبل به إلى

(١) ابن خلدون، ج ١، ص ٧٨

(٢) نفس المرجع، ص ٧٩

(٣) نفس المرجع.

القيروان فدخلها ، في سنة ١٣٨ هـ (١) .

ولاذ إخوة الياس بعد مقتله بيطن من بطون بربر نفزة يقال لهم ورفجومة ، وكانوا من غلاة الصفرية ، ونزلوا في كنف أمير ورفجومة ويدعى عاصم بن جميل ، فكتب إليه حبيب بأمره بردهم إليه ، ولكن عاصم نصرهم وحامهم من بطش حبيب بهم . فزحف إليه حبيب ، واصطدم معه في موقعة انتهت بهزيمة حبيب ، فراجع إلى قابس ، وقوى أمر ورفجومة على أثر ذلك ، وتضخم عسكرهم بمن انضم إليهم من الخوارج . وكان عاصم زعيمهم كاهنا « ادعى النبوة والكهانة ، فبدل الدين ، وزاد الصلاة ، وأسقط ذكر النبي ﷺ من الأذان » (٢) . ولما رأى أهل القيروان تغلب عاصم على حبيب ، كتبوا إليه بدعونه للولاية عليهم على أن يدعو لأبي جعفر المنصور ، فزحف عاصم وأخوه مكرم على رأس جموع البربر ومن انضم إليهم من العرب ، إلى القيروان ، وخرج القاضي أبو كريب جميل ابن لرب ، نائب حبيب في القيروان ، لمقاتلة ورفجومة ، ولكن الناس تفرقوا عنه ، وبقي أبو كريب مع ما يقرب من ألف رجل يقاثلون حتى الموت ، فقتل أبو كريب وأكثر رجاله ، ودخل بربر ورفجومة القيروان في ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ ، فاستحلوا المحارم . وارتكبوا الكبائر . ونزل عاصم بمصلى روح (٣) ، وذكر ابن الأثير أنهم ربطوا دوابهم في جامع القيروان

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨٠ - ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ - ابن خلدون ،

ج ٤ ، ص ٤٠٩ - السلاوي ، ج ١ ، ص ١٢١

(٢) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٠٩

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨١

وأفسدوا فيه (١) .

ثم استخلف عاصم بن جميل عبد الملك بن أبي الجعد الوردنجوى على القيروان ، وسار لقتال حبيب في قابس ، فهزمه ، وفر حبيب إلى جبل أوراس ، واحتمى ببربره ، وطارده عاصم واشتبك معه في قتال عنيف أسفر عن قتل عاصم في جملة أصحابه . فسار حبيب على أثر ذلك إلى القيروان ، للقضاء على عبد الملك بن أبي الجعد ، خليفة عاصم بن جميل ، فهزمه عبد الملك وقتله في المحرم سنة ١٤٠ هـ . (٢) .

وبمقتل حبيب تمت سيادة البربر الصفرية على إفريقية والمغرب ، وفقد العرب كل سلطان لهم في هذه البلاد .

(١) ابن الأثير ، ص ٢٨٠

(٢) قس المرج ، ص ٢٨١ - ابن عسار ، ج ١ ، ص ٨١ - ابن خلدون ، ص ٤٠٩

(٢)

الصراع بين الخوارج الاباضية في تونس والصفورية في إفريقيا

١ - غلبة الخارجية على المغرب :

بعد أن قضى عبد الرحمن بن حبيب على إمامة الاباضية بطرابلس بقتل مؤسسها الحارث بن نليل ، وعبد الجبار بن قيس المواري ، وخليفتهما إسماعيل بن زياد النفوسى ، استعمل على طرابلس عمرو بن سويد المرادى (١) . ولكن قضاء ابن حبيب النهري على زعماء الاباضية لم يقض على الحركة نفسها في ولاية طرابلس ، فقد كانت تعاليمها قد رسخت في النفوس ، بل إن الوسيلة البشعة التي توسل بها ابن حبيب للقضاء على الإمامة الاباضية أثارت عليه نقوس سكان هذا الإقليم . ولما انتصرت ورفجومة على حبيب بن عبد الرحمن ، وتقلبت على القيروان ، وانقرضت بذلك دولة بنى حبيب النهري في إفريقيا والمغرب ، انتهز الاباضية بنو لحى طرابلس هذه الفرصة ، وبايعوا أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمح المصافى إماما عليهم في طرابلس سنة ٥١٤٠ هـ ، من خليج سرت إلى قابس . وقد رأينا أنه كان واحدا من حملة العلم الخمسة الذين أخذوا في البصرة أصول الخارجية الاباضية على أبي عبيدة مسلم ابن أبي كريمة البصرى . وكان سكان المغرب الأوسط قد نشبوا أيضا بحاليم الاباضية ، فلم يلبث معظم هؤلاء السكان أن انضموا تحت لواء أبي الخطاب ، وبايعوه بالإمامة . وعلى هذا النحو أصبحت إمامة الاباضية تضم إقليم طرابلس ، وقسما كبيرا من المغرب الأوسط .

(١) ابن عبد الحكم ، توح مصر والمغرب ، ص ٣٠٢

أما إفريقية فقد خضعت لورفجومة ، بعد أن استولى زعيمهم عاصم بن جميل على القيروان . فلما قتل عاصم خلفه عبد الملك بن أبي الجعد على القيروان ، وكانت ورفجومة صفربة متطرفة ، قد خرج زعمائها عن الدين الإسلامي ، وقد ذكرنا أن عاصم بن جميل ادعى النبوة ، والكهانة ، ولذلك فقد كانوا من الفساد والظلم والاستهتار بالدين ^(١) بحيث يستحلون المحرمات ويستهنون بالمساجد . وقد قام بربر ورفجومة بارتكاب كثير من الفظائع في القيروان بعد مقتل زعيمهم عاصم ، فسفكوا كثيرا من دماء أهل القيروان ، وهتكوا المحرمات ، وأساءوا إلى الدين الإسلامي . ويذكر بن الأثير ، أن رجلا من الإباضية شاهد قوما من ورفجومة ، قد أخذوا امرأة قهرا والناس ينظرون ، فأدخلوها الجامع ، فترك الإباضي حاجته ، وقصد أبا الخطاب عبد الأعلى بن السمع المعافري ، فأعلمه بذلك ، فخرج أبو الخطاب وهو يقول : يتك اللهم يتك ، فاجتمع إليه أصحابه من كل مكان ، وقصدوا طرابلس الغرب ، واجتمع إليه الناس من الإباضية والخوارج وغيرهم ^(٢) . أما المغرب الأقصى ، فقد كان يخضع منذ هزيمة العرب في وقعة الأشرف للخوارج الصفرية البربر ، وقد حاول الصفرية بزعامة أبي يوسف الهواري وعكاشة بن أيوب الفزاري ، وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وأبي قررة المغيلي ، القضاء على العرب في إفريقية ، ولكن حنظلة تمكن من التغلب على حشود الصفرية ، ففترق عسكرهم في نواحي المغرب الأقصى ، وكان من جملةهم عسكر برغواطة بزعامة طريف بن شمعون ^(٣) ، فسار طريف إلى

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) نفس المرجع

(٣) في أعمال الأعلام صالح بن طريف (ابن المطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث

تامسنا ، وبأيمه الناس هناك ، وبذكر ابن عذارى أنه شرع لهم تشريعا مخالفا للإسلام ، فلما مات خلفه ابنه صالح ، فادعى أنه أنزل عليه قرآن الصغرى الذى كانوا يقرأونه ، وعهد صالح إلى ابنه الياس بديانته ، وعلمه شرائعه ، وفقهه فى دينه ، وأمره ألا يظهر الديانة حتى يظهر أمره ، وينتشر خبره ، فيقتل حينئذ من خالقه ، وزعم أنه المهدي الذى يكون فى آخر الزمان لقتال الدجال . ثم إنه خرج إلى المشرق فى سنة ١٢٤ هـ ، وخلفه ابنه الياس الذى ظل يحكم بحسن سنة (١) . وهكذا كانت المغرب الإسلامى كله بعد انقراض دولة بنى حبيب النهري فى قبضة الخوارج الإباضية والصغرية والمراطقة البرغواطيين ، وسرى موقف الخلافة العباسية إزاء هؤلاء الخوارج .

ب - موقف الخلافة العباسية من الخوارج فى المغرب

لما استولت ورفضومة على القيروان سامت أهلها الظلم والصف ، وأسرفوا فى ارتكاب المعاصى والتفطام وأعمال المنكر من سفك الدماء ، وهتك الحرمات ، فقر كثير من أهل القيروان إلى طرابلس لائذين فى حمى أبى الخطاب عبد الأعلى بن السمخ ، وطالعوه بما ارتكبه الرفضوميون من ضروب البطش والظلم والطغيان والفساد ، واستباحة الأعراض ، وتدنيس المساجد . وكان عبد الأعلى عريا من وجوه العرب الذين تقبلوا الخارجية على المذهب الإباضى المعتدل ، فلما بلغه ذلك غضب وأنكر من ورفضومة سلوكها ، فتحركت فى نفسه عوامل الغيرة على الإسلام ، فاستنفر أتباعه من الإباضية ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ - ابن المطيب ' المربع السابق ' ص ١٨٤

وشايحه بربر طرابلس وفي مقدمتهم هواره ، وزحف بجموعه نحو القيروان لتطهيرها من دنس ورجومه ، وتحرير أهل القيروان من استبدادها وطمعائها ، وما إن علم عبد الملك بن أبي الجعد الوريثي بذلك حتى خرج من القيروان في حشود كثيفة من ورجومه ومن أهل القيروان ، واشتبك الفريقان بالقرب من القيروان في صفر سنة ١٤١ هـ ، واشتد القتال ، ودارت الدائرة على عبد الملك ، إذ خذله أهل القيروان وانهزموا عنه ، فأنش فيهم عبد الأعلى ، وهزمهم ، وقتل منهم عدداً كبيراً ، من بينهم عبد الملك نفسه ، وتمكن عبد الأعلى من دخول القيروان ^(١) ، واستخلف عليها زميله عبد الرحمن بن رستم القارسي أحد كبار علماء الإباضية ، وعاد هو إلى طرابلس استعداداً للملاقاة القوات العباسية التي سيرها الخليفة أبو جعفر المنصور لمقاتلته .

واضطرب أمر الصفرية في المغرب الأقصى بعد تغلب عبد الأعلى على إفريقية ، فاجتمع الصفرية من مكناسة على أبي القاسم بن سمفون بن واسول المكناسي في الموضع الذي قامت عليه سجلاسة ، وشرعوا في بناء هذه المدينة ، ثم قدموا على أنفسهم عيسى بن يزيد الأسود ، أحد موالى العرب ، ثم أخذوا عليه بعض ما أخذ فعزلوه وولوا على أنفسهم أبا القاسم بن سمفون للمرة الثانية ، فلم يزل واليا عليهم حتى سنة ١٦٨ هـ ، وهو جد بني المدرار أصحاب سجلاسة ، وسنتحدث عنهم في الفصل القادم .

وكان قد وفد على أبي جعفر المنصور بعض عساكر العرب ، منهم نافع ابن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن بن أنعم ، يستصرخونه لإنقاذ إفريقية من فساد

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨٢ - ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١ - ابن خلدون ،

ج ٤ ، ص ٤١٠ - السلاوي ، ج ١ ، ص ١٢٤

ورغبة ، كما وفد إليه أيضا جميل السدراتي أحد جنود عبدالأعلى الاباضي الخارجين عليه ^(١) ، فولى المنصور محمد بن الاشعث الخزامي على مصر وإفريقية ، وسير من مصر جيشا من المسودة بقيادة أبي الاحوص مر ابن الاحوص المعجلي لاسترجاع المغرب ، وكان ذلك هو السبب في عودة عبد الأعلى إلى طرابلس بعد تغلبه على عبد الملك بن أبي الجعد . فاشتبك عبد الأعلى مع القوات العباسية في سرت ، وهزمهم في سنة ١٤٢ هـ ^(٢) ، وعاد فلهم إلى مصر . فعزل المنصور محمد بن الاشعث عن ولاية مصر ، وولاه قيادة الجيوش إلى المغرب ، وأقام مكانه على مصر حميد بن قحطبة ، فخرج ابن الاشعث على رأس جيش كثيف عدته خمسون ألف مقاتل ^(٣) ، وكان في جملة عساكره عدد من كبار القواد العباسيين ، نخص بالذكر منهم : الاغلب ابن سالم التميمي ، والمحارب بن هلال ، والمخارق بن غفار اللطائي وكان جيش عبد الأعلى يضم عسكرا من زفانة وهوارة ، فتنازعت هاتان القيلتان ، واتهمت زفانته عبد الأعلى بالميل إلى هوارة وعماياتها ، وفارقه جماعة كبيرة من الزفانيين . وبلغ ابن الاشعث تخلي الزناتيين عن عبد الأعلى ، فقوى عزمه . ثم إنه تظاهر بأن المنصور أمره بالعودة إلى مصر ، وتباطأ في سيره ، وتراجع بالفعل مسيرة ثلاثة أيام ، فوصل عيون أبي الخطاب وأخبروه بعودة ابن

(١) محمد علي ديبوز ، المغرب الكبير ، ج ٣ ، ص ٦٠٥ .

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١١ . ويذكر ابن عذاري أن المركة حدثت في

مغنداس على شاطئ البحر .

(٣) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١ . أشار ابن عذاري إلى أن ابن الأشعث خرج في

٢٥٠ ألف مقاتل عسكرهم في أرض سرت (ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٨٣) ، وفي

موضع آخر يذكر أنه خرج في أربعين ألفا عليهم ٢٨ ألفا ، وهو الأقرب إلى الصواب .

الاشعث ، ففترق عنه كثير من أتباعه ، واطمأن الباقون ، فعاد ابن الاشعث مسرعاً ، وفاجأ قوات عبد الاعلى على غير استعداد للحرب ، وهاجمها ، فوضع العباسيون السيوف في الخوارج ، واشتد القتال ، وأسفرت الموقعة عن مقتل عبد الاعلى وعامة أصحابه في صفر سنة ١٤٤ هـ^(١) . حدثت هذه الموقعة بالقرب من تورغا الواقعة إلى الشرق من طرابلس ومسرطه ، وقد أبدى فيها الإباضية مع قلة عددهم وعدم تأهبهم للقتال كثيراً من ضروب الشجاعة والاقدام ، واستماتوا في القتال حتى استشهدوا جميعاً ، فاحتزن ابن الاشعث رأس أبي الخطاب وأرسله إلى المنصور .

وكان أبو الخطاب قد استنفر الإباضية في سائر نواحي طرابلس للجهاد ، ويادر هو للقاء ابن الاشعث . فلما انتصر ابن الاشعث على أبي الخطاب ونقله في عامة أصحابه ظن أنه ضمن بذلك القضاء نهائياً على الإباضية ، ولكنه فوجئ . بوصول أبي هريرة الزناتي أحد قادة أبي الخطاب في ستة عشر ألفاً من زناتة وغيرها^(٢) ، جاءوا ملبيين نداء أبي الخطاب ، ولكن بعد فوات الأوان ، فلقاهم ابن الاشعث ، ومزق صفوفهم ، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم في ربيع الاول من سنة ١٤٤ هـ^(٣) . وكان عبد الرحمن ابن رستم قد تأهب لنجدة أبي الخطاب ، فلما وصل إلى قابس ، بلغه ما انتهى إليه مصير أبي الخطاب ، فحمل ولده ، وخرج من القيروان ، ولحق باباضية المغرب الاوسط ، فقتل في لمايه ، وهي بطن من بني فاتن بن تامصبت من البتر ،

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٣ - ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٢٨١

(٣) نفس المرجع .

لحلف كان بينه وبينهم ، فالتفوا حوله ، وبايعوه بالخلافة ، ورأى ابن رستم أن يقيم مدينة تكون قاعدة له في المغرب الأوسط على نحو ما فعله بنو المدرار في سجلماسة ، فشرع في بناء مدينة تاهرت في سنة ١٤٤ هـ ، وأعمها واستقر بها في سنة ١٤٥ هـ^(١).

وكان ابن رستم قد استخلف أحد أتباعه على القيروان ، فأوثقه أهلها في الحديد ، ولوا على أنفسهم عمرو بن عثمان القرشي ، فظل يقوم بأمرهم إلى أن وصل ابن الأشعث إلى القيروان ، ودخلها في غرة جمادى الأولى من نفس السنة^(٢) . ثم كتب ابن الأشعث بانتصاراته إلى المنصور ، وأخذ يولي عماله على المغرب ، فأقام على طرابلس المخارق بن غفار الطائي ، كما ولي على طينة والزاب الأغلب بن سالم^(٣) . وأقام ابن الأشعث في القيروان سنة ١٤٥ هـ ، وأمر ببناء سورها في ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ ، وتم بناء السور في رجب سنة ١٤٦ هـ^(٤) . وسير من هناك جيشا بقيادة قائده إسماعيل بن عكرمة الخزاعي فدخل زويلة وودان ، وقتل زعيم الإباضية بزويلة ويدعى عبد الله بن حيان الإباضي^(٥) . وهكذا فرض ابن الأشعث سطوته على السير ، فأذعوا له بالطاعة . ولم يشأ ابن الأشعث أن يقاتل الإباضية في المغرب الأوسط ، واكتفى باستيلائه على إفريقية ، إذ كان العباسيون يحرصون على الاحتفاظ بها في أيديهم لتكون سداً منيعاً أمام حركة الخارجية^(٦) .

(١) السلاوي ، ج ١ ص ١٢٨

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٤

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١١

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٤ وما يليها

(٥) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٤ - ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٨٨

(٦) محمد علي ديبوز ، ج ٣ ص ٢٠

ثم اشتعلت نار العصبة العربية من جديد في بلاد المغرب ، فقد كلن ابن
الاشعث يمينا ، وكان معظم عسكره من المضرية ، فتار عليه رجل من جنده
يقال له هاشم بن الشامج بمونية وتبعه عدد كبير من الجند ، فسار إليهم
ابن الاشعث فرقة من جيشه هزمها هاشم ، وهنا أخذ القواد المضري في جيش
ابن الاشعث يخرجون عليه وينضمون إلى هاشم كراهية لابن الاشعث (١) ،
فسار إليهم ابن الاشعث جيشا آخر تمكن من إلحاق الهزيمة بهم ، وفر هاشم إلى
تاهرت ، وجمع هناك جموعا كثيفة من البربر بلغ عددهم نحو عشرين ألفا سار
بهم إلى تهودة ، فخرج إليهم جيش ابن الاشعث فهزمهم ، ففر هاشم وقلوب
جيشه إلى طرابلس ، وهناك قتله رسول من الخليفة المنصور في صفر سنة
١٤٧هـ ، وبذل الامان لاتباع هاشم ، فعادوا ، ولكن ابن الاشعث طاردهم وقتل
منهم عددا كبيرا . فتار المضرية على ابن الاشعث ، وانفقوا على خلمه ،
وأقاموا على إفريقية بعده عيسى بن موسى بن عجلان الخراساني ، وذلك في
ربيع الآخر سنة ١٤٨هـ (٢) . فخرج ابن الاشعث من إفريقية إلى المشرق ،
وظل عيسى بن موسى على إمارة المغرب إلى أن دلى المنصور على إفريقية
الأغلب بن سالم .

ج - ولاية إفريقية في العصر العباسي حتى قيام دولة بني الأغلب :

١ - الأغلب بن سالم بن عقال بن خطاجة التميمي (١٤٨ - ١٥٠) :

هو جد بني الأغلب الذين استقلوا بإفريقية على أبيهم ابنه ابراهيم ، وكان

(١) ابن الأثير ، ج ٤ ص ٢٨٢

(٢) قس المصدر ، ج ٤ ص ٢٨٣

الأغلب من أصحاب أبي مسلم الخراساني ، وسام في نشر الدعوة العباسية بخراسان وعرف بالشجاعة والبلاء وحسن الرأي ، واشترك في حملة محمد بن الأشعث على المغرب ، فولاه على طبنة والزاب . فلما قام المضرية بثورتهم في القيروان على ابن الأشعث ، وخلصوه من ولاية إفريقية ، وطرده إلى المشرق ، واختار أبو جعفر المنصور لهذا المنصب الخطير القائد الأغلب بن سالم ، لما عرفه عنه من الحزم والشجاعة وحسن الرأي ، ولكونه مضرباً يرضاه المضريون الذين ثاروا على ابن الأشعث ، وبعث إليه المنصور عهده بولاياته في آخر جمادى الآخرة سنة ١٤٨ هـ ، ثم كتب إليه المنصور يأمره بالعدل في الرعية وحسن السيرة في الجند ، وأوصاه بأن يحصن مدينة القيروان ، ويخندق حولها ، وينظم حاميتها ، ومن يتوب عنه فيها إذا ما استلزم الأمر رحيله لقتال الأعداء (١) . هذا الحرص على تحصين القيروان يدل دلالة واضحة على إلمام المنصور بشئون البربر وعلى بعد نظره ، فقد كان يدرك كل الإدراك أن شعب البربر يذهب من جديد لجولة ثانية مع العرب ، وقد صدق المنصور في ظنه وحده ، فان زناته التي تمثل أكبر قبائل البربر البقر والتي تمكنت المذاهب الخارجية منها ، أحست بأن ولاية العباسيين على المغرب يسعون إلى محاربة الخارجية ، والقضاء عليها في المغرب كله ، ولذلك بايعت زناته في نفس العام الذي تولى فيه الأغلب إمارة إفريقية بالإمامة رجلاً لا يقل عن خالد بن حميد الزناتي الصفرى في الشجاعة والبأس ، هو أبو قرعة بن دوناس اليفرنى الصفرى ، الذي ضم الصفرية في المغربين الأوسط والأقصى ، ونظم صفوفهم (٢) ، واتخذ من تلمسان قاعدة له في المغرب الأوسط ، ومن طنجة

(١) ابن خناري ، ج ١ ص ٨٦

(٢) محمد علي ديوز ، المغرب الكبير ج ٣ ص ٣٦

قاعدة له في المغرب الأقصى ثم خرج أبو قررة على رأس جيش كثيف من البربر الزناتيين ، فأتوا الأغلب أن يسير للقائهم ، فزحف بجيوشه حتى انتهى إلى الزاب ، فخاف أبو قررة أن يشتبك معه هناك في قتال ، فيتمكن الأغلب من التغلب عليه بسبب كثرة أنصاره في الزاب ، وقربها من القيروان قاعدة الأغلب في إفريقيا ، فانسحب غربا إلى طنجة ليستدرج الأغلب وجيوشه إلى المغرب الأقصى موطن الصفرية ، فيقضى عليه كما قضى خالد بن حميد الزناتي من قبل على كلثوم بن عياض القشيري ومعظم من كان معه . ولم يكن للأغلب يهاب شيئا من ذلك ، فأراد أن يتابع زحفه ، ولكن جنده بدأوا يتفرقون من حوله ، فاضطر الأغلب إلى العودة إلى القيروان ، فعاد أبو قررة إلى تلمسان ^(١) .

ثم جهز الأغلب جيشا آخر ، وخرج به للمرة الثانية لغزو الصفرية في المغرب الأوسط والأقصى في سنة ١٥٠ هـ ، بعد أن استخلف على القيروان سالم بن سودة ، ولما أوغل في بلاد المغرب أخذ جنده وقواده بتفقدون من حوله وبتسللون إلى القيروان ، واتفق أن تار على الأغلب أثناء مسيره أحد أجناده من اليمنية بنونس وهو الحسن بن حرب الكندي ، وكان قد نجح في إيقار قلوب القواد والجند على الأغلب ، واستألم إليه ، وكان ذلك هو السبب الذي دعا عسكر الأغلب إلى الانقضاض من حوله وتفرقهم عنه إلى القيروان . وتمكن الحسن بن حرب من الاستيلاء على تونس ، وخرج في حشود كثيفة من أنصاره ومن انضم إليه من عسكر الأغلب إلى القيروان ،

فاستولى عليها ، وقبض على عاملها سالم بن سواده وحبيه ^(١) . وبلغ الأُغلب هذه الأخبار ، فاقتم ، وانحرف عن خطته في مقاتلة أبي قررة ، وعاد في عدة سيرة إلى القيروان ، وكتب إلى الحسن بن حرب « يعرفه بفضل الطاعة ووبال المعصية ، فأعاد الجواب إلى الأُغلب ، وفي آخره :

ألا قولاً لأُغلب غير سر * مغلقة عن الحسن بن حرب
بأن البغي مرتعه وخيم * عليك وقربه لك شر قرب
فان لم تدعني لتنال سلمى * وغفوى قادن من طعن وضرب ^(٢)

غضب الأُغلب عند قراءة هذه الآيات التي تنضمّن معنى الوعيد والتهديد ، وعزم على السير إلى الحسن ومقاتلته ، ولكن أصحابه نصحوه بالسير إلى قابس ، وحشد عساكره هناك ، وقالوا له : « ليس من الرأي أن تعدل إلى لقاء العدو في هذه العدة القليلة ، ولكن الرأي أن تعدل إلى قابس ، فان أكثر من معه يحجى إليك لأنهم إنما كرهوا المسير إلى طنجه لا غير ، وتقوى بهم ، وتقاتل عدوك » ^(٣) . ففعل الأُغلب ما نصحوه به ، وتمكن من جمع حشود كثيفة من الحند ، واشتبك مع قوات الحسن ، فغلب عليه ، وانهمز الحسن بن حرب إلى تونس ، ودخل الأُغلب القيروان ^(٤) ولم يسكت الحسن على ما أصابه من الهزيمة ، ففكر بجيش هائل على الأُغلب ، فخرج إليه الأُغلب في جمادى الآخرة سنة ٥١٥ هـ ، واقتتل الفريقان ، واشتد القتال

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٧

(٢) نفس المرجع

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦

(٤) نفس المرجع - ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٧

فأصيب الأُغلب بسهم قتله ، بينما ثبت رجاله وقدموا على أنفسهم المخارق بن غفار الطائي ، عامل الأُغلب على القيروان ، وكان في ميمنة جيش الأُغلب . و انتهت المعركة بهزيمة الحسن بن حرب وفراره إلى تونس في شعبان سنة ١٤٠ هـ ، وتولى المخارق إفريقية في رمضان من نفس السنة ، فوجه الخليل في أثر الحسن ، فلجأ الحسن إلى كتامة ، فأقام في كنفهم شهرين ثم عاد إلى تونس ، فقتله بعض الجند هناك ^(١) ، وصلبوه . أما الأُغلب ، فقد اعتنى جنده بدفنه ، وسموه الشهيد ^(٢) .

٢ - أبو جعفر عمر بن حفص بن عثمان بن قبيصة المعروف بهزار مرد :

عرف عمر بن حفص بشجاعته المفرطة في ميادين القتال ، ولذلك لقب بهزار مرد ، وهي لفظة فارسية معناها ألف رجل ، دلالة على شدة بأسه ومراه ، ولاء المنصور على المغرب ليقضى على الفتن والثورات التي احدثت في أرضه ، ويعيد الجيش العباسي إلى الطاعة ، وأرسل معه فرقة تتألف من عمالة فارس ل يستعين بهم في مهمته الكبرى ^(٣) . فقدم عمر بن حفص إلى القيروان في صفر سنة ١٥١ هـ . وأول ما عني به عمر هو تهدئة خواطر الجند ، وتسكين الأهالي في القيروان ، فاجتمع فور وصوله بوجوه المدينة ، ووصلهم وأحسن إليهم ، فبدأت الأحوال ثلاث سنوات ، واستقامت أمور البربر طوال هذه الفترة .

ويبدو أن المنصور اغتر بهذا السكون ، فتطلع بنظره إلى امتلاك المغرب

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٩١ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٦

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢٦

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٨٨ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣١

الأوسط ، فأمر واليه عمر بالتوجه إلى طبة قاعدة إقليم الزاب وتحصينها
بسور حتى تكون مركزاً لفتراته المقبلة على المغرین الاوسط والاقصى ،
للقضاء على دولة الرستميين بطمرت ، وهولتي الصفرية في تلسان وسجلاسة
فاستخلف عمر بن حفص على القيروان حبيب بن حبيب بن يزيد بن المهلب ،
وعزم على السير لقضاء مهمته ، وأحسن الرستميون بالمخطر الذي يتهددونهم
من تحصين مدينة طبة ، فاتفق ابن رستم مع أنصاره في طرابلس وجنوب إفريقية
وتلسان على الانتفاض ، وعاربة العباسيين ، لما كاد عمر بن حفص يخرج
إلى طبة ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى ثار بها البربر ، ولاخرج
إليهم حبيب للاقنتهم ، قتلوه بعد أن هزموا جيشه ، وجيش طرابلس الذي سيره
الجنيد بن بشار عامل عمر بن حفص على طرابلس ^(١) . ونسج عن انتصار
البربر في إفريقية قيام الفتنة في سائر أقطانها . واجتمعت حشود البربر من كل
فج ، وولوا على أنفسهم أبا حاتم يعقوب بن حبيب الإباضي . فكذب الجنيد
ابن بشار الاسدي عامل طرابلس إلى عمر يستنده ، فأمدته من طبة بصكر
فتقوى بهم ، واشتبكت قوات الجنيد مع قوات أبي حاتم ، فانتصر البربر ،
وسحقوا قوات العباسيين سحقاً ، وتراجع فل العباسيين إلى قابس ،
فحاصروا أبو حاتم ^(٢) .

احتشدت جموع البربر من كل ناحية لمهاجمة عمر بن حفص في طبة .
ويجمع مؤرخو العرب على أنه تجمع للبربر اثني عشر عسكراً ، توجهوا جميعاً
نحو الزاب ، منهم أبو قرّة الصفرى الذى قدم فى أربعين ألف مقاتل ، وعبد

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١٢

(٢) نفس المرجع

الرحمن بن رستم الاباضى فى خمسة عشر ألفا ، وأقبل عاصم السدراتى من سدراته فى ستة آلاف مقاتل ، وأبو حاتم فى جيش كبير ، وعبد الملك بن سكرديد فى ألفين ، والمسور بن هاني. الزناتى فى عشرة آلاف ^(١). وأسهم من خوارج صنهاجه وزنازة وهوارة أعداد لا تحصى من البربر غير أن ابن رستم أتر أن يعسكر بعسكره فى نهودة التى تقع جنوبى طبنسة ، ليكون مدداً لقوات أبى قررة عند الحاجة .

ولم يكن مع عمر بن حفص من العسكر سوى خمسة عشر ألفا ومخمائة ، فهالها ما رآه من حشود البربر الهائلة التى تجمعت بالقرب من طبنسة ، فتحصن داخل أسوار المدينة ، ولما طال عليه حصار البربر له ، أنف أن يكون سجيناً لهم فى طبنسة ، وعزم على الخروج مع عسكره مرة واحدة خروجاً من وطن نفسه على الموت . فأشار عليه قواده بأن يبقى فى طبنسة حتى لا يعرض نفسه للهلاك ، ونصحوه بأعمال الحيلة والدهاء ، فتبع نصيحتهم ، وكان يعرف ما للسال من تأثير كبير فى نفوس من يحتاج إليه ، وكان اضطراب الأحوال السياسية فى المغرب منذ أواخر عصر الدولة الأموية قد سبب ارتباكاً فى البناء الاقتصادى ، فكثرت المجاعات ، وعم القحط فى البلاد ، وعانى البربر كثيراً من ضروب البؤس والفقر ، وكان ذلك من أسباب تقبلهم لمبادئ الخارجية ، فوجه عمر رسالته إلى أبى قررة يعرضون عليه ستين ألف درهم وكس كثيرة حتى يتصرف برجاله ، فرد عليهم بقوله « بعد أن سلم على بالخلافة أربعين سنة أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا » ، ولم يجبههم إلى ذلك ^(٢) . ولما

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٨٨ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

رأى عمر أن إغراء المال وبريق الذهب لم ينجحاً في تحويل أبي قرّة عن عزمه ، أعاد المحاولة مع أخ لابن قرّة ، فدفع رسوله إليه قدراً من المال مقداره أربعة آلاف درهم وبعض الثياب ، بشرط أن يعمل على صرف أخيه أبي قرّة والصفريّة إلى بلادهم . ونجح عمر هذه المرة ، فقد ضعف عزم شقيق أبي قرّة أمام هذا العرض ، فشرع من ليلته في إنشاء الصفريّة عن محاصرة العرب ، ولم يعلم أبو قرّة حق انصرف عنه أكثر العسكر ، فلم يجد بداً من اتباعهم ^(١) . وهكذا نجح عمر في تفريق كلمة الليبر بأمواله ، وعندئذ وجه عسكره إلى عبد الرحمن بن رستم ، وكان مرابطاً في تهوفه ، فانهزم ابن رستم وتراجع إلى تاهرت ، ولم يجد من بقي من الإباضية على حصار طينة بداً من التراجع إلى القيروان ومحاصرتها ، وزحف عمر بـعسكره من طينة متجهاً إلى القيروان لئلاّ الحصار عنها بعد أن استخلف على طينة بعض عسكره . وفي هذه الأثناء علم أبو قرّة بخروج عمر من طينة ، فقدم إليها ، واشتبك مع عسكر العباسيين ، فولى منهزماً بعد أن قتل من رجاله عدد كبير .

وكان أبو حاتم قد لازم حصار القيروان مدة ثمانية شهور حتى نفذ الطعام من أهرائها ، وأكل الناس دوابهم وكلابهم ، وجهدم الجوع ، وجاءت الأخبار بوصول عمر بن حفص من طينة في سبعمائة فارس ، ففك أبو حاتم الحصار عن المدينة ، واتجه إلى الأربس حيث نزل عمر ، فقاد عمر الأربس إلى تونس ، فقبه البربر ، فعاد إلى القيروان مجدداً ، وأدخل إليها ما يحتاج من طعام ودواب وحطب وكل ما يصلحه من المرافق استعداداً لحصار طويل ، وتحصن العباسيون في داخل أسوار المدينة ، ثم أقبل أبو حاتم في

حشود كثيفة من البربر قيل أن عدتهم ١٣٠ ألف مقاتل^(١) ، وحاصروا القيروان ، وكان عمر بن حفص يخرج لتأزلاتهم كل يوم ثم يعود إلى المدينة . فلما طال الحصار على أهل القيروان ، وقلت لديهم "الاقوات" ، وانضمت المؤن ، وضاق أمرهم « أكلوا دوابهم وكلابهم وستائيرهم ، وانتهى الملح عندهم أوقية بدرهم »^(٢)

ثم بلغه أن للنصور قد سير إليه يزيد بن حاتم على رأس جيش قوامه سبعين ألف مقاتل لنصرة أهل القيروان . فمز على عمر أن تكون نجاة القيروان على يدي قائد آخر ، فقال : « لآخر في الحياة بعد هذا أن يقال : يزيد أخرجه من الحصار ، إنما هي رقدة وأبعث إلى الحساب »^(٣) . وخرج يقابل البربر ، ويطعن فيهم حتى قتل في ١٥ ذى الحجة من سنة ١٥٤ هـ ، فخلفه على قيادة جيش العباسيين أخوه جميل بن حفص^(٤) ، وقيل حميد بن صخر أخو عمر لأمه^(٥) . ولما طال الحصار على العباسيين دون أن تحصل إليهم قوات يزيد بن حاتم ، وساءت أحوال المسلمين بداخل القيروان ، اضطر جميل بن حفص إلى مصالحة أبي حاتم بشرط أن يظل العباسيون في القيروان مواليين للنصور العباسي ، لا ينازعهم أبو حاتم في سوادهم وسلاحهم ،

(١) ذكر ابن عسار أن عد قوات البربر التي كان يقودها أبو حاتم الإياضي وأبو قاضي بلغت ٣٥٠ ألفا ، والحيل منها ٣٥ ألفا ، وأرسين ألفا مع أبي نبرة اليفرنى (البيان ص ٩١)

(٢) ابن عسار ج ١ ص ٩٠

(٣) نفس المرجع ص ٩١

(٤) نفس المرجع

(٥) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٣

فرفض أبو حاتم هذا الشرط ، ثم هاجم القديوان ، وأحرق أبوابها ، وهدم سورها (١) ، ودخلها فلم يبقك دماء أهلها ومن كان فيها من عسكر العباسيين ، ثم إنه أمر باخراج معظم هؤلاء العسكر من القديوان حتى يتجنب بذلك قيامهم بالثورة عليه مستقبلا ، وبأن لنفسه الإقامة بها دون أن يرصده عدو يقيم معه بها ، وأنزلهم بطبقة . ولم يبق في القديوان من جند العباسيين إلا عدد قليل .

وجاءته الأنباء بوصول يزيد بن حاتم إلى طرابلس ، فاستخلف على القديوان عبد العزيز بن السمع العافري (٢) . وترك معه عددا قليلا من الجند ، وسار هو بمعظم جيشه إلى طرابلس للملاقة بجيش يزيد بن حاتم قبل ان يصل إلى إفريقية . ومباغتته في الحذر من العباسيين للقيمين في القديوان ، أمر أبو حاتم حامله على القديوان بأن يجرّد هؤلاء العرب من السلاح ، وأن يفرق بينهم حتى لا يفكروا في القيام بثورة مسلحة عليه داخل المدينة . ولما علم العباسيون في القديوان بما اعتزم عليه أبو حاتم من تجريدهم من سلاحهم ، قدموا على أنفسهم عمر بن عثمان الفهري ، ووثبوا على عسكر أبي حاتم في القديوان ، وقتلوه ، واسترجعوا المدينة . وبلغ أبو حاتم غدرهم به ، فبادر أدرجه إلى القديوان ، فهرب عمر بن عثمان إلى تونس ، بينما نجح جميل بن حفص ، والجند العباسيون في التوجه شرقا ، وانضموا إلى قوات يزيد بن حاتم بصرت .

أمرع أبو حاتم إلى العمل ، فأرسل فرقة من جيشه بقيادة جوير بن

(١) المرجع السابق - ابن خلدون ص ١١٣

(٢) ابن عذاري ، ص ٩٠ - ابن خلدون ، ص ٤١٤

مسعود المديوني للقبض على عمر بن عثمان والمخارق بن غفاريونس ، فان ابن خلدون يذكر أنها فرا إلى جيجل من سواحل كتامة ، فتركها ، واستخلف على القيروان عبد العزيز بن السمح المافري ، ومضى هو للملافة جيوش المباسين بقيادة يزيد بن حاتم . أما جرير المديوني فقد أدرك عمر ابن عثمان بجيجل ، فقتلا ، فقتل جرير وأصحابه ، وتمكن عمر بن عثمان والمخارق بن غفار من دخول تونس ^(١) .

٣ - يزيد بن حاتم وقضائه على ثورة البربر الإباضية :

كانت أخبار الثورات التي أشعلها البربر في المغرب الأدنى قد وصلت إلى مسامع أبي جعفر المنصور ، فبادر بجولية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب على المغرب ، وسيره إلى إفريقية في جيش من عرب الشام والعراق وخراسان عدته سبعون ألفا ^(٢) . ووصل يزيد إلى صرت في عام ١٥٥ هـ ، وانضم إلى جيشه هناك عدد كبير من عرب إفريقية وطرابلس ، كما انضم إليه جماعة من البربر ، فتمضمخ بهم جيشه . وكان أبو حاتم قد خرج من القيروان على رأس جيشه من الإباضية للملافة يزيد بن حاتم ، وانضم إليه قائد عربي من أعقاب عقبة بن نافع هو عبد الرحمن بن حبيب بن عبد الرحمن النهري ^(٣) . وأمر أبو حاتم أمام كثرة أعدائه أن يلاقيهم في منطقة جبلية يسهل عليه أن يتغلب فيها عليهم ، فاختر لهذا الغرض جبل نفوسة لكثرة من فيه من المشايخ له ولحركته ، فسير يزيد بن حاتم طائفة من عسكره إلى قابس ،

(١) التورى ، نهاية الأرب ، ج ٢٢ ، عن محمد علي ديوز ، المغرب الكبير ، ج ٢ ، ص ٢٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤١٤

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٩٤ - ابن الأثير ، ص ٣٣ - ابن خلدون ، ص ٤١٤

فاشترك معهم أبو حاتم ورجاله في معركة دامية انتهت بهزيمة العباسيين، وماذا
 فلمهم إلى يزيد بن حاتم (١). ورأى يزيد أنه أمام خصم شديد المراس، فعزم
 على السير بنفسه للملاقاة ومقاتلته، ولما علم أبو حاتم بقدومه إليه تحصن في مكان
 وعمر، وخذق على عسكره، ثم التقى الجيشان في ربيع الأول سنة ١٥٥ هـ،
 واشتد القتال بينهما، واستأثرت أبو حاتم في مدافعة العباسيين حتى قتل هو
 وأهل نجدته، وطارد يزيد قلوب جيشه في السهول والجبال، وقتل منهم
 ما يقرب من ثلاثين ألفاً. وظل العباسيون يقتلون الإباضية في جبل نفوسة
 شهراً حتى سحقوهم، ثم استخلف يزيد على طرابلس سعيد بن شداد، ومضى
 بجيشه إلى القيروان، فدخلها في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ١٥٥ هـ (٢).

وكان عبد الرحمن بن حبيب جفيد عبد الرحمن بن حبيب القيرواني الثائر
 على حنظلة بن صفوان، قد انضوى تحت لواء أبي حاتم والإباضية، واشترك
 في معركة جبل نفوسة، فلما انهزم جيش أبي حاتم، فر عبد الرحمن مع من فر من
 أصحاب أبي حاتم إلى جبال كتامة الواقعة في شمال قسنطينة، واعتصم بقلعة
 صخاب، فبعث إليه يزيد بن حاتم المخارق بن غفار الطائي وإلى طينة
 لمحاصرتهم، ويبدو أن المخارق أبدى عجزاً في استئصال عبد الرحمن بن حبيب،
 فوجه يزيد بن حاتم مدداً إلى المخارق بقيادة الصلاء بن سعيد المهلبى
 سنة ١٥٦ هـ (٣). ونجح القائدان هذه المرة في التغلب عليه، قرر عبد الرحمن
 بن حبيب عن القلعة، وعبر البحر إلى الأندلس (٤). وفي نفس هذا التاريخ

(١) ابن الأثير، ج ٥ ص ٣٣

(٢) ابن عسكاري، ج ١ ص ٩٤

(٣) نفس المرجع

(٤) ابن الأثير، ج ٥ ص ٦٠

ثار بطرابلس على يزيد ، أبو يحيى بن قرياس المواري ، فالتف حوله كثير
البربر ، فاشتبك معه عبد الله بن السمط الكندي ، قائد جيش يزيد في
إطرابلس في قتال عنيف ، انتهى بهزيمة أبي يحيى وسحق ثورته (١) .

وكان يزيد من خيمة ولاية إفريقية ، إذ قضى على الثورات ، وضبط
البلاد ، وأمن الناس على معاشهم ، وأموالهم ، وبدأت بعده صفحة جديدة
في تاريخ المغرب الأدنى . وظل الهدوء غنيا على المغرب الأدنى في عهده
حتى سنة ١٦٤ هـ ، عندما انتفضت قبيلة ورفجومة بزعامة أيوب المواري .
قسم إليهم يزيد جيشا ضخما بقيادة يزيد بن مجزأة المهلبى ، والمخارق بن
فخار الطائي ، فالتقى الفريقان بالزاب في معركة حامية ، انهزم فيها يزيد ،
وقتل المخارق والى الزاب ، فولى يزيد بن حاتم مكانه المهلب بن يزيد المهلبى ،
إلى أن استعمل على الزاب الصلاء بن سعيد المهلبى ، وأمدّه يزيد بن حاتم
بجيش كثيف تمكن بواسطته من القضاء على ثورة ورفجومة (٢) .

ثم ساد البلاد فترة من الهدوء مرة ثانية ، عكف خلالها يزيد بن حاتم على
الاصلاحات الداخلية ، وترميم ما أفسدته الحروب والثورات . اهتم يزيد
بالمهارة والفنون ، فأعاد تنظيم مدينة القيروان ، وجعل لكل حرفة من
الحرف سوقا خاصة بها ، وجدد بناء المسجد الجامع بالقيروان (٣) ، وأزاد فيه
سنة ١٥٧ هـ . وشهدت البلاد الإفريقية في أيامه ازدهارا لم تشهده منذ أيام
حسان بن النعمان ، وطلت إفريقية تنعم بالهدوء والأمن حتى توفي يزيد بن

(١) ابن عذارى ، ص ٩٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٣

(٣) ابن الأبار ، كتاب الحلة السراء ، ج ١ ، تحقيق الدكتور حفيظ مؤنس ،

الطبعة ١٩٦٣ ص ٧٣

حاتم في رمضان سنة ١٧٠ هـ ، في خلافة الرشيد ^(١) ، وقيل توفي في سنة ١٧١ (٢) .

٤ - روح بن حاتم بن قبيصة :

لما مرض يزيد بن حاتم استخلف ولده داود على ولاية إفريقية ، فلما توفي يزيد ظل داود يقوم بولايتها زهاء تسعة أشهر قضاهما في محاربة الإباضية الثائرين عليه ، فقد انتقض الإباضية ببجبال باجة ، وتزعمهم نصير ابن صالح الإباضي ، فسير إليهم داود جيشا بقيادة المهلب بن يزيد ، فهزمه الإباضية ، وقتلوا جملة من عسكره ، فوجه إليهم داود جيشا بقيادة سليمان ابن يزيد ، يتألف من عشرة آلاف مقاتل ، ونجح جيشه هذه المرة في تمزيق صفوف الثوار والقضاء على ثورتهم . وأقام داود على ولاية إفريقية إلى أن قدم إليها معه روح بن حاتم أميرا على المغرب من قبل الرشيد ^(٣) .

وفي عهد روح ساد المدوء إفريقية ، فقد هادن عبد الوهاب بن رستم جاهرت ، ووادعه ^(٤) . ولم يطل عهده إذ توفي في القيروان في ٢٣ رمضان سنة ١٧٤ هـ .

٥ - الفضل بن روح بن حاتم :

لما توفي روح بوج ابنه قبيصة في المسجد الجامع ، وكان الفضل بن

(١) ابن الأثير ص ٣٣ ، ٨٢ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ٩

(٢) ابن عذري ، ج ١ ص ٩٦ ، ٩٨

(٣) ابن عذري ، ج ١ ص ٩٩ - ابن الأثير ج ٥ ص ٨٣

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٥

روح عاملا لآليه في الزاب ، ولكن الرشيد استعمل على إفريقية بعد وفاة روح ، حبيب بن نصر المهلبى فى رمضان سنة ١٧٤ ، فخرج الفضل بن روح إلى بغداد ، وطالب الرشيد بولاية إفريقية باعتباره أحق بها من حبيب بن نصر ، فولاه الرشيد على إفريقية ، وعندئذ عاد الفضل إلى القيروان فى سنة ١٧٧ هـ ، فولى ابن أخيه المغيرة بن بشر على مدينة تونس ، وكان أرعنا ، فاستخف بالجند ، وأساء السيرة معهم ، فشكوا إلى الفضل ، فلم يحرك ساكنا ، فاتفق الجند فيما بينهم على تقديم قائد منهم يقال له عبدة ابن الجارود ، ويعرف بعبدويه الأبنارى ، والتف حوله عدد كبير من الساخطين على الفضل ، وأعلنوا الثورة عليه ، وطرّدوا عاملا على تونس ، وكتب ابن الجارود إلى الفضل بن روح : « أما بعد ، فانا لم نخرج على المغيرة خروجاً عن الطاعة ، ولكن لأحداث أحدثها فينا ، ظهر فيها فساد الدولة ، فصجل لنا من ترضاه ليقوم بأمرنا ، وإلا نظرنا لأنفسنا » ، فأجابته الفضل : « أما بعد ، فان الله يجرى قضاؤه على ما أحب الناس أو كرهوا ، وليس اختيارى واليا اخترته لكم أو اخترتموه بحائل دون شىء . أراد الله عز وجل بلوغه فيكم ، وقد وليت عليكم عاملا ، فان دفعتموه فهو آية النكت منكم والسلام » ^(١) . وبعث إليهم عبد الله بن يزيد المهلبى ، عاملا على تونس ، فى صحبة النضر بن حفص ، وأبو العنبر والجنيد بن سيار ، فلما وصلوا إلى ظاهر تونس أدرك ابن الجارود أن مجيء العامل فى رفقة ثلاث من القواد يعنى عزمه على القبض على رؤساء الثورة والتنكيل بهم ، فحث رجاله على القبض عليهم ، فخرجوا إلى عبد الله بن يزيد فقتلوه ، وأمسروا من معه .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٠٦ - ابن الأبار ، الملة السيرة ص ٢٧

فسير إليهم الفضل جيشا لمقاتلتهم ، ولكن جيشه منى بهزيمة نكراء ، وارتد
منهزما إلى القيروان ، وأقبل ابن الجارود بـسكـره ، وحاصر القيروان ،
وتمكن من اقتحام المدينة في جمادى الآخرة سنة ١٧٨ ، وأخرج الفضل ومن
معه إلى قابس ، ثم ردم ابن الجارود وقتل الفضل خوفا من أن يوجه إلى
طرابلس ويعود منها بجيش يحاربه . وعندما عبر الجند عن غضبهم لمقتل
الفضل قاتلهم ابن الجارود وهزمهم ، ففروا إلى الأربس . وأقاموا على
أنفسهم العلاء بن سعيد وإلى الزاب (١) .

٦ - هرثة بن أعين :

لما بلغ الرشيد مقتل الفضل بن روح وما أثاره ذلك من عوامل الفوضى
والاضطراب في إفريقية ، ولي على إفريقية هرثة بن أعين ، وبعث إلى ابن
الجارود يحيى بن موسى ، لمكانته عند أهل خراسان (٢) ، وقصد من إرساله
أن يستميل ابن الجارود ليعاود الطاعة قبل وصول هرثة . ونجح يحيى بن
موسى في استمالة جماعة من أجناد ابن الجارود على رأسهم محمد بن الفارسي ،
ولكن ابن الجارود قتل محمد بن الفارسي وهزم عسكره ، فبادر يحيى إلى
هرثة بطرابلس ، وفي نفس الوقت تمكن العلاء بن سعيد من جمع قوات
كثيرة للزحف بهم إلى القيروان ، فكذب ابن الجارود إلى يحيى في أول
صفر سنة ١٧٩ هـ بدعوه للحضور إلى القيروان قبل العلاء . ولكن للعلاء
سبق يحيى في دخول القيروان ، وقتل من أتباع ابن الجارود عددا كبيرا ،
ثم أقبل يحيى بن موسى إلى القيروان ، وأمر العلاء بالخروج منها ، فخرج

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٥

(٢) نفس المرجع - ابن خلدون ج ٤ ، ص ١٧٤

إلى طرابلس^(١). ثم قدم هرثمة إلى إفريقية ، ودخل القيروان في غرة ربيع الآخر سنة ١٧٩ . فهدأ نفوس أهلها ، وأقام على الزاب إبراهيم بن الأغلب . وكان هرثمة مولوا بالبناء ، فأقام القصر الكبير بالمنستير سنة ١٨٠ هـ ، وبنى سور مدينة طرابلس مما يلي البحر^(٢).

وفي سنة ١٨٠ هـ ثار على هرثمة عياض بن وهب المواري ، وكليب ابن جعج الكلبي ، ووجها إليه جيشا لمحاربه ، فسير هرثمة إليهما يحيى بن موسى في جيش كثيف ، تمكن من إيقاع المزيعة بها ، واقتل عليها^(٣) . ولكن هرثمة لم يرض بالبقاء أكثر من ذلك في إفريقية لكثرة ثورات أهلها وتقلب أجنادها ، فطلب من الرشيد الاستعفاء ، فأمره بالقدوم إليه ، فخرج من إفريقية في رمضان سنة ١٨١ هـ .

٧ - محمد بن مقاتل العمري :

استعمل الرشيد على إفريقية بعد هرثمة محمداً بن مقاتل بن حكيم العمري وكان أخاه في الرضاع ، فقدم إليها في أول رمضان سنة ١٨١ هـ . ولم ينتجج ابن مقاتل في تهدة نفوس الجند ، بل على العبد من ذلك أثار عليه كراهية الجند لسوء سيرته ، وقبيح ما يؤثر من أخباره ، من ذلك إقدامه على ضرب البهلول بن راشد بالسياط ، وتسببه في قتله بسبب وعظه له ، ومعارضته في تصرفاته ، خاصة عندما أمد الروم في صقلية بالأسلحة . وكان البهلول من كبار أئمة البربر في الشريعة ، ولذلك كان مقتله سبياً في بغض الناس لابن مقاتل ،

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٠٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦

(٢) قس المرجع ص ١١٠ - ابن الأثير ص ٩٦

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٩٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤١٨

يضاف إلى ذلك أنه اقتطع أرزاق الجند ، وأساء السيرة فيهم وفي الرعية ، ولذلك اختلف جنده عليه ^(١) ، وانفقوا على تقديم مخلد بن مرة الأزدي . ولما علم ابن مقاتل بذلك ، سار إليه جيشا للقضاء على ثورته ، وتمكن هذا الجيش من هزيمة أنصار مخلد ، فاخفى في مسجد ، ولكن جند ابن مقاتل تمكنوا من القبض عليه ، وذبحوه ^(٢) .

ثم تار عليه أبو الجهم تمام بن تميم التميمي عامه في تونس ، لاستهجانه تصرفات ابن مقاتل ، وسار تمام في جموع هائلة إلى القيروان في رمضان سنة ١٨٣ هـ ، واشتبك مع ابن مقاتل في منية الخيل من القيروان ، فانهمز ابن مقاتل ، وتحصن في داره التي بناها ، وترك دار الإمارة ، وأقبل تمام ، فزل بسكره خلف باب أبي الربيع . فلما أصبح تمام فصحت له الابواب ، فدخل القيروان يوم الأربعاء غلص بقتل من رمضان سنة ١٨٣ هـ ، فأمن تمام العكي على دمه وأهله وماله . فكانت ولايته إلى أن أخرجه تمام من القيروان ستين وعشرة أشهر ^(٣) .

خرج العكي من القيروان بعد أن أمته تمام ، وسار إلى طرابلس ، فأدركه قوم من الحراسانيين ، منهم طرحون صاحب شرطته ، فدخل بهم طرابلس وأقام بها . واستاء إبراهيم بن الأغلب التميمي من خروج تمام على واليه إفريقية الشرعي ، فجمع ابن الأغلب جيشا من الزاب سار به إلى القيروان ، وقبل أن يصل إليها كان تمام قد فر إلى تونس ، فدخل

(١) ابن عسار ، ج ١ ص ١١١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

(٣) ابن عسار ، ج ١ ص ١١٢

ابراهيم بن الاغلب القيروان واتجه مباشرة إلى المسجد الجامع ، وصعد المنبر ، وخطب في الناس خطبة بليغة ، أشار فيها إلى أنه قدم إلى القيروان لنصرة محمد بن مقاتل المكي ، لأنه الأمير الشرعى على إفريقية ^(١) . ثم كتب ابراهيم إلى المكي بطرابلس يدعو إلى دخول القيروان . فعاد المكي إلى القيروان ، فانزعج الناس لعودته ، وبدأوا يفزعون إلى تمام بتونس . فلما عين تمام كثرة من وفد إليه من الجند والمشايخ ، عزم على مهاجمة القيروان ، فخرج ابن الاغلب لمقاتلته ، فانهزم تمام ، وانسحب إلى تونس ، فطارده ابن الاغلب ، وتآهب لمحاصرته فيها في محرم سنة ١٨٤ هـ . فلما رأى تمام ألا طاقة له على مقاتلة ابن الاغلب ، استأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأقبل به إلى القيروان في ٨ من المحرم ، ثم أرسله إلى بغداد ، فأمر الرشيد بحبسه في المطبق ^(٢) .

أصبح ابراهيم بن الاغلب رجل إفريقية القوى ، بعد أن هزم تمام ، وأعاد ابن مقاتل إلى مقر ولايته ، ولكن أهل البلاد والجند كانوا قد سئموا حكم ابن مقاتل ، وكرهوا عسفه ، فاتصلت جماعة منهم بابراهيم بن الاغلب وطلبوا منه أن يتولى شؤونهم بدلا من ابن مقاتل ، وحلوه على أن يكتب إلى الرشيد طالبا منه أن يقره على ولاية إفريقية ، فكتب إليه في ذلك ، وأبلغه أنه مستعد في مقابل ذلك أن يتنازل عن المائة ألف دينار التي كانت تبعتها حكومة مصر كل عام معونة لإفريقية ، بالإضافة إلى اسعدهاده لإرسال أربعين ألف دينار كل عام إلى الخليفة . فلما عرض الرشيد الأمر

(١) ابن طيارى ، ص ١١٣

(٢) ابن خلدون ، ص ٤١٩ — التويرى ، عن ديوز ، ج ٣ ، ص ١٢٧

على هرثة بن أعين لبسأله النصيحة ، أشار إليه بأن يوافق على منحه ولاية إفريقية لكفايته ، وحزمه ، ومقدرته المربية في إخماد الثورات والقضاء على الفتن . فكتب له الرشيد عهدا بولاية إفريقية في جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ، ففعل بن مقاتل عائدا إلى المشرق ^(١) .

وبولاية ابن الأغلبيدأ عهد جديد في تاريخ إفريقية والمغرب .

(١) ابن عسار ، ج ١ ص ١١٦ — ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤ — ابن خلدون ، ج ٤

ص ٤١٩ — السلاوي ، ج ١ ص ١٣٥

الباب الثالث

الولايات المستقلة بالمغرب في القرن الثالث الهجري

الفصل الخامس

دولة الأغالبة في المغرب الأدنى

(١) عصر الأمراء الأقوياء :

- ١ - إبراهيم بن الأغلب (١٨١ - ١٩٦ هـ) .
- ٢ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (١٩٦ - ٢٠١ هـ) .
- ٣ - زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١ - ٢٢٣)
- (٢) خلفاء زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب :

- ١ - أبو عقال الأغلب (٢٢٣ - ٢٢٦ هـ) .
- ٢ - أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ - ٢٤٢) .
- ٣ - أبو إبراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢ - ٢٤٩) .
- ٤ - أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩ - ٢٥٠) .
- ٥ - أبو للفرانيق محمد بن أحمد (٢٥٠ - ٢٦١) .
- ٦ - إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٨٩) .
- ٧ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩ - ٢٩٠) .
- ٨ - زيادة الله بن عبد الله ، آخر أمراء بني الأغلب (٢٩٠ - ٢٩٦) .

(٣) ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالبة .

- (٤) سكان إفريقية في عصر الأغالبة : ١ - العرب ٢ - المعجم للفرس ٣ - البربر ٤ - الروم والافارق ٥ - الفتيان .

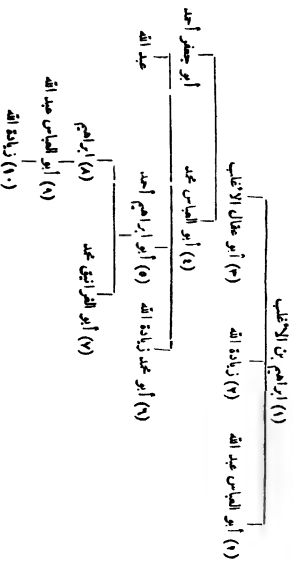
(٥) منشآت الاغالبية في إفريقية :

أ - العمارة الدينية : ١ - المسجد الجامع بالقيروان ٢ - جامع الزهرونة
بونس ٣ - المسجد الجامع بسوسة ٤ - مسجد أبي فتاة
بسوسة ٥ - مساجد أخرى خاصة .

ب - العمارة الحربية : ١ - رباط سوسة ٢ - رباط المستير ٣ - سور
سوسة ٤ - سور سفاقس

ج - العمارة المدنية والمنافع العامة : ١ - مدينة العباسية ٢ - مدينة رقادة
٣ - المواجهل والخزانات والفناطر .

جدول باسماء بني الاغلب



الفصل الخامس

دولة الأغالبة في المغرب الأدنى

(١)

عصر الأمراء الأقوياء

شهد للمغرب الإسلامي منذ أواخر القرن الثاني الهجري قيام دويلات مستقلة في سائر أجزائه ، ففي المغرب الأدنى ، بالقيروان ، قامت دولة الأغالبة ، وفي المغرب الأوسط بتاهرت قامت دولة الرستميين ، وفي المغرب الأقصى بناس قامت دولة الأدارسة ، وفي سجلماسة قامت دولة بني المندران ، وفي نكسور والريف الغربي قامت دولة بني صالح بن منصور الحميري ، وفي شالة بتامستا قامت دولة بني صالح بن طريف البرغواطي . وأهم هذه الدويلات جميعا دولة بني الأغلب ، وهم أسرة مستنيرة ، حكمت إفريقية طوال القرن الثالث الهجري ، أسسها إبراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي ، الذي نبتته الرشيد في ولاية إفريقية في سنة ١٨٤ هـ . وأسرة الأغالبة أسرة راقية في مضمار الحضارة ، عملت على نشر الحضارة الإسلامية في البلاد التي خضعت لنفوذها ، أي في إفريقية وصقلية ، كما أن أمراءها أقاموا المدن والقصور ، وشيدوا للمساجد والحصون ، وشجعوا الآداب والعلوم والفنون . وفيما يلي دراسة لأمراء هذه الأسرة الأقوياء :

١ - إبراهيم بن الأغلب (١٨٤ - ١٩٦) :

أقنعت أحداث إفريقية المتوالية ، من معارك خاضها العرب ضد البربر

الصفرية والاباضية ، ومن حركات الترد التي قام بها الجند ، ومن فتوح طاحنة متواصلة ، الرشيد بأن انقصال المغرب عن الامبراطورية العباسية أصبح حقيقة واقعة ، وقد دفعه هذا إلى قبول ما عرضه عليه ابراهيم بن الأغلب ، عامل الزاب من قبل ابن مقاتل ، والتسليم باستقلال ولاية إفريقية استقلالا جزئيا عن الخلافة العباسية ، والاكتفاء بتبعيته الاسمية لها نظير مبلغ من المال يبعثه إلى الخليفة . هذا الوضع الجديد الذي وافق عليه الرشيد يؤكد لقب الإمارة الذي أطلقه المؤرخون كثيرا على بني الأغلب ، كما يؤكد قيام كل خليفة عباسي جديد باقرار الامير الأعلى على ولاية إفريقية ^(١) . ولأنك أن الرشيد يارساله عهد ولاية إفريقية إلى ابراهيم بن الأغلب ، كان يقر استقلاله الفعلي بهذه البلاد مع التبعية الاسمية للخلافة لسبب آخر يمكن أن نضيفه إلى السبب السابق . فقد كان إدريس بن عبد الله بن الحسن قد فر إلى المغرب الأقصى بعد انهزام إخوته في موقعة فخ بمكة سنة ١٦٩ هـ ، وتمكن إدريس من الإفلات مع مولاه راشد إلى مصر ، ومن هناك مضى إلى أقصى الطرف الغربي من العالم الإسلامي ، حيث استقر ببلدة ويلي قاعدة جبل زرهون في سنة ١٧٢ هـ ^(٢) ، وبايعه بربر أوربة بالإمامة ، ونجح في تكوين دولة شيعية في هذا الصقع من بلاد المغرب ، وانضمت إليه قبائل أخرى من زواغة ، وزواوة ، وسدرنة ، وغيانة ، ومكناسة ، وغمارة . وتطلع

(١) Marçais, la Berberie musulmane et l'Orient au Moyen Age, p. 59.

(٢) الجزائى ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نشره القويد بل ، الجزائر

إدريس بعد ذلك إلى توحيد المغرب^(١) وكان من الطبيعي أن يخشى الخلفاء العباسيون من مطامع الإدارة في المغرب ومصر ، فرضى الرشيد باقامة دولة الاغالبية في المغرب الأدنى لتكون حاجزاً بين البلاد الخاضعة للدولة العباسية وبلاد الإدارة في المغرب الأقصى الذين كانوا يتطلعون إلى فصل المغرب عن بقية العالم الإسلامى ، بل كانوا يهدفون إلى توحيد المغرب والمشرق العربيين تحت قيادتهم^(٢). فلقد أورد الأستاذ الدكتور احمد مختار العبادى نصاً لرسالة وجهها إدريس بن عبد الله إلى المصريين يمكن أن نستنتج منها مدى اتصال الإدارة بأهل مصر كذلك^(٣).

كان ابراهيم بن الاغلب من أفضل ولاة المغرب ، فقد كان يجمع إلى علمه وتفقهه في الدين وأدبه ، حسن الرأى ، والتجدة ، والبأس ، والحزم ، والمعرفة بالحروب ومكائدها ، « ولم يل إفريقية أحسن سيرة منه ، ولا سياسة ، ولا أرف برعية ، ولا أوفى عهد ، ولا أرفع لحرمة منه ، قطاعت له قبائل البربر ، وتمهدت إفريقية في أيامه »^(٤).

واتخذ الامير ابراهيم بن الاغلب مدينة القيروان عاصمة لولايته ، وأخذ يعمل منذ استقلاله عن الخلافة العباسية على تكوين قوة بحرية هائلة ، مكنت أعقابها من بعده ، من غزو جزيرة صقلية وافتتاحها سنة ٢٩٧هـ ، وغزو مالطة

(١) اساميل بن محمد الرشيد ، جلاء الطلام الداسل موجز تاريخ المغرب الى عصر محمد الخامس ، الرباط ، ١٩٥٧ م ٣٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث الخامس بالمغرب ، ص ١٧ ، حاشية رقم ٢

(٣) نفس المرجع ،

(٤) ابن طراوى ، ج ١ ص ١١٦

وسواحل إيطاليا الجنوبية والجنوبية الغربية. ولقد اهتم ابراهيم بن الأغلب بالعمران اهتماما خاصا ، فشرع في سنة ١٨٥ هـ في بناء مدينة القصر القديم التي تقع أطلالها على بعد ثلاثة أميال جنوبي القيروان^(١)، وسماها العباسية^(٢) تعبيرا عن ولائه للعباسيين .

وفي عهد ابراهيم بن الأغلب ثار بتونس رجل من رجالات العرب اسمه حمد يس ، ونزع السواد شعار بني العباس ، فبعث إليه ابراهيم قائده عمران بن عبالد في جيش كبير لقمع حركته ، والتي عمران معه في موقعة بالقرب من تونس انهزم فيها حمد يس وأنصاره ، وقتل منهم نحو عشرة آلاف ، وتمكن عمران من دخول مدينة تونس^(٣) . وكان ابراهيم ابن الأغلب مخلصا للخلافة العباسية ، فجعل يتربص أعداءها في المغرب ، فصرف نظره إلى المغرب الأقصى ، وكان إدريس بن إدريس بن عبد الله قد أكل من العمر عشر سنوات ، فجدد له راشد مولد أبيه البيعة ، ومهد له الأمور في المغرب ، فكثر جمعه بأقاصي المغرب ، واستعمل أمره بفضل ما بذله راشد من جهود مضيئة ، فعزل ابن الأغلب على الكيد لراشد ، فجعل يدرس إلى البربر ويسرب فيهم الأموال حتى قتل راشد ، وسبق رأسه إليه في سنة ١٨٩ هـ^(٤) . ثم تولى أمر إدريس بعد راشد زعيم من زعماء البربر اسمه بهلول عبد الرحمن المظفر^(٥) ، وقيل بهلول بن عبد الواحد^(٦) ، فأخذ ابن

(١) المرجع السابق ، ص ١١٧

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٩٩

(٣) قس المرجع ص ١٠٤ - ابن خلدون ص ٤٩٩

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

(٥) نفس المرجع

(٦) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٠٤

الأغلب يستميله بالكتب والهدايا إلى أن انحرف عن دعوة الإدارة ، وفارق إدريس وانضم إلى ابن الأغلب ، فنفرق جمع إدريس من أتباع بهلول ، فكتب إدريس إلى ابن الأغلب يستعطفه ويسأله أن يكف عن التدخل في شؤون بلاده ، ويذكره بقرابته من رسول الله ، فأجابه إبراهيم بن الأغلب إلى ذلك وادعه ^(١) .

ولم يخل عهد ابن الأغلب من الثورات والفتن ، ولكنها كانت لا تقاس بالثورات التي كانت تضطرم في إفريقية في العهود السابقة ، فمن هذه الثورات: ثورة أهل طرابلس على ولاتهم من قبل ابن الأغلب في سنة ١٨٩ ، وقد أورد ابن الأثير خبر هذه الثورة في شيء من التفصيل ، فذكر أن أهل طرابلس كانوا يشكون إليه من ولاته عليهم ، فيعزلهم ويولي غيرهم . وحدث أنه دلى عليهم في هذه السنة عامله سفيان بن المضاض ^(٢) للمرة الرابعة ، فثار أهل طرابلس على سفيان ، وعزموا على خلعهم وطرده ، ووزحفوا إليه ، فقاتلهم في المسجد الجامع ، فهزموه ، ثم آمنوه ، فخرج من طرابلس في شعبان من سنة ١٨٩ هـ ، واستعمل الجند وأهل طرابلس عليهم إبراهيم بن سفيان التميمي ^(٣) ، فبث ابن الأغلب جيشا هزمهم ، ودخل طرابلس ، وقضى على الثورة .

(١) المرجع السابق - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠ - ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ،

النظام الثالث ، ص ١٤

(٢) يسميه ابن خلدون سفيان بن المهاجر (ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠)

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٢١ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٠

والثورة الثانية قام بها عمران بن عجلد ، وكان من بطانة إبراهيم بن الأغلب ، ثم انتقض عليه في سنة ١٩٥ هـ وافترق عنه ، وتار عليه هو وخريش ابن التونسي ، واجتذبا إليهما عدداً كبيراً من الأنصار والمشايخ ، في القيروان وأكثر مدن إفريقية ، فاضطر ابن الأغلب إلى النزول بين القيروان والعباسية ، وأحاط العباسية بخندق منيع ، وتحصن فيها ، فحاصره فيها عمران سنة كاملة ، فأرسل الرشيد إلى ابن الأغلب كثيراً من الأموال أغرى بها أصحاب عمران ، ففترقوا عنه ، وانهزم عمران . وأقام في الزاب إلى أن توفي إبراهيم ابن الأغلب ، وتولى ابنه عبد الله ، فاستأمنه على نفسه ، فأمنه ، وأحضره إليه ، وأسكنه معه ثم قتله (١) .

أما الثورة الثالثة ، فقد قامت بطرابلس في سنة ١٩٦ هـ ، في هذه السنة ولي إبراهيم بن الأغلب ولده عبد الله على طرابلس ، فلما قدم إليها تار عليه الجند ، وحاصروه في داره ، ثم صاحوه على أن يخرج من بلدهم ، فلم يبعد عن طرابلس كثيراً حتى التف حوله عدد كبير من الناس ، وأخذ عبد الله يجتذب الأنصار من البربر بالأموال والعطايا ، ويذكر ابن الأثير أنه كان يعطى الفارس كل يوم أربعة دراهم ، والراجل درهمين ، فكثرت حشوده ، فزحف بهم إلى طرابلس ، وتقلب على جندها ، وتمكن عبد الله بن إبراهيم من دخول المدينة . ثم عزله أبوه ، واستعمل سفيان بن المضاض ، فنارت قبيلة هواره ، وهاجت عسكر المدينة ، فانهزم الجند ، وخرجوا لهواره عن طرابلس ، فدخلتها ، وهدمت أسوارها . وتراجع جند طرابلس إلى القيروان ، فاضطر ابن الأغلب إلى تسيير ولده أبي العباس عبد الله في ١٣ ألف فارس ،

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٢١ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢١ - ابن الأثير ، الملة

واستطاع بهم اقتحام المدينة ، وهزيمة هوارة . وأقام عبد الله بها بعض الوقت ، فأعاد بناء أسوارها ^(١) . ولا بلغت أنباء هزائم البربر إلى عبد الوهاب ابن رستم في تاهرت ، خرج لنصرة بربر طرابلس في جيش عظيم ، فحاصرها وأغلق عبد الله باب زناتة ، وكان يقاتل من باب هوارة ، ولم يزل يقاوم جيش الرستميين إلى أن توفي أبوه إبراهيم في شوال سنة ١٩٦ هـ ، وعهد إليه بالإمارة ، فأخذ أخوه زيادة الله له العهود على الجند ، وكتب إلى عبد الله يخبره بوفاة أبيه . فاضطر عبد الله إلى مصالحة عبد الوهاب الرستمي على أن يكون للبلد والبحر أى المدينة وما يطل منها على البحر لعبد الله ، أما ما زاد على ذلك من أرباض فلمعبد الوهاب . وبهذه الاتفاقية عاد إلى القيروان ، وتسلم زمام أمورها ^(٢) في سنة ١٩٧ هـ ، فتلقاته زيادة الله ، وسلم أمور الولاية إليه .

ويعتبر إبراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه ، واستكثر من طبقاتهم ، واستغنى بذلك عن استخدام الرعية في أى شأن من شؤونه ^(٣) . وقد عمل إبراهيم على اسكان عبيده وأهل الثقة به من خدمه حوله ^(٤) .

٢ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (١٩٦ - ٢٠١ هـ) :

كان أبو العباس وقت وفاة أبيه في ٢١ شوال سنة ١٩٦ هـ ، مشغولا باحماد ثورة قامت في طرابلس ، فقام له زيادة الله ، أخوه من أبيه ، بأمره ،

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٠ ،

(٢) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٥٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢١ ،

(٣) ابن الخطيب ، أفعال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٤ ،

(٤) ابن عسار ، ج ١ ص ١١٧ ،

وتلقى البيعة له على نفسه وعلى أهل بيته وجنده وخدمه ، وبعث إليه بذلك وهو محاصر في طرابلس ، فعجل بالصلح مع عبد الوهاب بن رستم ، وعاد إلى القيروان في صفر سنة ١٩٧ هـ . فاستقبله أخوه استقبال الأمراء ، وتسلم منه عبد الله الإمارة . ولكن بدلا من أن يعترف أبو العباس بفضل زيادة الله عليه ، أخذ يصحاح عليه وينقصه ، ويأمر ندماءه باطلاق ألسنتهم بسبه ، ومع ذلك فقد ظل زيادة الله يندى له التعظيم والتبجيل ، ولا يظهر عليه أى أثر من ذلك ^(١) ، وكان أبوه قد ترك له ملكا ممهدا ، فاستم عهده بالهدوء والسلم . وكان أبو العباس جائرا متعسفا ظلوما مع رعيته ، ويذكر ابن عذارى أنه « أحدث بافريقية وجوها من الظلم شنيعة ، منها أنه قطع العشر حبا ، وجعله ثمانية دنانير للقيز أصاب أو لم يصب ، وغير ذلك من الظلم والمغارم ، فاشتد على الناس ذلك » . فضاقت الناس لذلك ، وبدأوا يتذمرون من ظلمه ، ويبدو أن تصرفاته الجائرة دفعت جماعة من الصالحين كانوا قد وفدوا إلى القيروان قادمين من الجزيرة ، على رأسهم الصالح حفص بن حميد الجزرى إلى نصحه بالعدول والإنصاف ، ووعظوه في الدين وفي ضرورة رعاية مصالح المسلمين ، ويذكر ابن الخطيب أن الصالح حفص نصحه بإزالة الجور عن رعيته ، وتطبيق قواعد السنة ^(٢) ، فاستخف بهم ، وتهاون بتناصحهم ، فخرجوا من قصره بالعباسية ، وقد ساءم منه هذا الاستخفاف ، فلما وصلوا إلى وادى القصارين بالقرب من القيروان ، نزلوا هناك وصلوا في كدية روح ركنتين ، ودعوا الله أن يكف عن المسلمين جور أبي العباس ، ويرحمهم

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٠ - ابن خلدون ، ٤ ص ٤٢٢

(٢) ابن الخطيب ، أصال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٥

من أيامه . فلم يمض على دعائهم خمسة أيام حتى توفي أبو العباس بسبب قرحة أصابته تحت أذنه في ٦ من ذى الحجة سنة ٢٠١ هـ (٨١٧ م) ^(١) .

٣ - زيادة الله بن إبراهيم (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) :

كان زيادة الله أعظم أمراء بني الأغلب وأفضلهم على الإطلاق ، لم تنعم البلاد التونسية في عهودهم بكانفت في عهده ، وكان رجل بناء وتشيد ، فقد ترك لنا آثارا كثيرة بالقيروان والعباسية وتونس وسوسة ، وكان يجمع إلى جانب حبه للفنون والعمارة والآداب ، مقدرة وكفاية حربية ، فقد تمكن من إخماد الثورات التي اشتعلت بمجرد اعتلائه الإمارة ، وبذلك دعم البناء الذي أسسه أبوه من قبل ، وتشهد بذلك آثاره في سوسة وللمستمر والقيروان وتونس من مساجد وقناطر وأربطة وخزانات ومواجل .

تولى زيادة الله إمارة إفريقية بعد وفاة أخيه أبي العباس ، ووصله التقليد بالإمارة من قبل الخليفة المأمون ، فظل زيادة الله مخلصا للمأمون عندما توثب على الخلافة يفتاد إبراهيم بن المهدي الملقب بالبارك (٢٠٢ - ٢٠٤ هـ) ، فلما دخل المأمون بغداد في سنة ٢٠٤ هـ ، وخلعت له الخلافة ، شكر له ذلك ^(٢) . وكان زيادة الله أبي النفس ، فعندما كتب إليه المأمون بالدهاء لعبه الله بن طاهر على منابر إفريقية ، غضب غضبا شديدا ، وبعث مع رسول الخليفة إليه كيسا به ألف دينار مضروبة بأسماء بني إدريس ^(٣) ، وفي ذلك

(١) ابن عسار ، ج ١ ص ١٢١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٤ - ابن خلدون ،

ج ٤ ص ٤٢٢ - ابن الخطيب ص ١٦

(٢) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٢ - ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٧

تهديد للعليفة بخروج الأغلبة على العباسيين وانضمامهم إلى الإدارة لوفكر العباسيون في مس استقلال بني الأغلب الذاتي .

وأم الأحداث البارزة في عصره ثورة زياد بن سهل المعروف بابن الصقلية عليه في سنة ٢٠٧ هـ ، وثورة عمرو بن معاوية القيسي عليه في سنة ٢٠٨ هـ ، ثم ثورة منصور الطنبذي عليه بتونس في سنة ٢٠٩ هـ ، وهذه الثورة الأخيرة هي أخطر الثورات التي اشتعلت نيرانها في عهده .

ففي الثورة الأولى ، قام زياد بن سهل وحاصر مدينة باجة بمجموع كثيفة ، فسير إليه زيادة الله جيشا تمكن من إيقاع الهزيمة به ، وقتلوا من رجاله عددا كبيرا . وفي الثورة الثانية تمكن عمرو بن معاوية القيسي ، عامل زيادة الله على القصرين ، من التغلب على هذه البلدة ونواحيها ، فسير إليه زيادة الله جيشا حاصره أياما ، ثم استنزله بالأمان هو وولديه ، حباب ومسمعان ، ولكنه نكث بعهده وقتلهم بعد ذلك ^(١) . وفي الثورة الثالثة انتقضت إفريقية على زيادة الله حتى لم يبق في يده منها غير الساحل وقابس ، ففي سنة ٢٠٩ هـ ، ثار منصور بن نصير الطنبذي بطنبذة ، وأخذ يسعى للاستيلاء على تونس ، فأرسل إليه زيادة الله قائده محمد بن حمزة في ثلاثمائة فارس مسلحين ، وأوصاه بسرعة السير إلى تونس ومفاجأة منصور فيها دون أن يشعر بقدمه ، فيقبض عليه ، ويأتيه به . فلما وصل محمد بن حمزة إلى تونس ألقي منصورا غائبا في قصره بطنبذة ، فزل بدار الصناعة بتونس وبعث إلى منصور وفدا يتألف من ٤٠ من شيوخ تونس على رأسهم شجرة ابن عيسى القاضي في صفر سنة ٢٠٩ هـ ، ليناشدونه الطاعة ، وتبذ الخلاف

والعصيان . فأنكر منصور هذه التهمة ، وتظاهر أمامهم بأنه ما زال مخلصا
للائمة لم يخلع بدا ، ولم يحدث حدثا ، وأبدى استعدادا للسير معهم إلى زيادة
الله ، ولكنه عرض عليهم المبيت عنده هذه الليلة ^(١) ، وفي نفس الوقت بعث
إلى محمد بن حمزة بنونس بنهى إليه بقدمه في اليوم التالي في صحبة القاضي
ورفاقه ، ووجه إلى محمد بن حمزة بقرا وغناوعلقا . فاطمان ابن حمزة لذلك ،
وذبح الغنم والبقر ، وأكل منه هو وعسكره . ولكن منصور غدر بالقاضي
ورفاقه ، فسجنهم في قصره ، وزحف في خيله وأشباعه إلى تونس ، وباغتوا
ابن حمزة بالهجوم ليلا ، فقتل معظم رجاله ، إلا من رعى نفسه في البحر ،
ثم أمر منصور باحضار اسماعيل بن سفيان بن سالم بن عقبال ، عامل زيادة
الله على تونس ، وولده محمد ، فأمر بقتلها ، واستولى على المدينة . فلما علم
زيادة الله بذلك ، وجه وزيره الأغلب بن عبد الله بن الأغلب ، المعروف
بغلبون في جيش كثيف إلى منصور الطنبذى لمقاتلته ، واسترجاع تونس ،
وهدد زيادة الله هؤلاء الجند بالقتل إذا انهزموا أمام منصور . فسار غلبون
في ١٠ ربيع الأول إلى تونس ، فلما وصل إلى سبقتها اصطدمت قواته
بقوات منصور ، فانهزم غلبون في ٢٠ ربيع الأول ، وخاف جنده أن يعودوا
إلى زيادة الله فيعاقبهم بالقتل ، ففرقوا عن غلبون ، واستولوا على عدد من
مدن إفريقية وحصونها امتنعوا فيها من زيادة الله ، وخلصوا طاعة بنى الأغلب
وأعلنوا تبعيتهم لمنصور الطنبذى ، فوقعت باجسة والجزيرة وصطفورة
والأريس ، واضطرت إفريقية تارا ^(٢) .

ولما كثرت جموع منصور الطنبذى ، ولمس من نفسه القدرة على منزلة

(١) المرجع السابق

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٨ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٥

زيادة الله في حاضرتة ، زحف إلى القيروان في ٥ من جمادى الأولى ، وحاصرها حصارا شديدا ، ثم خندق على نفسه ، وحدثت بينه وبين زيادة الله وقائع كثيرة ، انضم فيها أهل القيروان إلى جانب منصور ، ثم زحف زيادة الله في منتصف جمادى الآخرة بجيوش كثيفة هاجت قوات منصور ، فانهزم هزيمة نكراء ، فر على أثرها إلى قصره بجونس ، وتمكن زيادة الله من دخول القيروان ، وعفا عن أهلها ، واكتفى منهم بتخريب سور المدينة ^(١) .

تفرق أنصار منصور إلى مدنهم التي تغلبوا عليها ، فضى زعيمهم عامر ابن نافع الأزرق إلى سبية ، فأرسل إليه زيادة الله محمد بن عبد الله بن الأغلب ، فالتقى مع عامر بن نافع في موقعة حدثت في ٢٠ من المحرم سنة ٢٩٠ هـ ، فانهزم ابن الأغلب وقتل ^(٢) ، فعظم الأمر على زيادة الله . ولم يكف الثوار بذلك ، بل هاجموا القيروان من جديد ، واستولوا عليها ، فلم يبق في طاعة زيادة الله من إفريقية سوى قابس والساحل ونقزوة وطرابلس ، وكتب الثوار إلى زيادة الله يطلبون منه أن يرسل من إفريقية ، ويمتنحونه الأمان هو وأهله ، فضاق به الحال ، فأشار عليه سفيان بن سودة بأن يبعثه في مائتي فارس إلى قبيلة . نقزوة ، ليدمو بربرها إلى نصرته ، ففعل زيادة الله ، ونجح سفيان في مهمته ، وتجمعت لديه حشود هائلة منهم ، اشتبك بهم في معركة عنيفة مع قوات عامر بن نافع ، وأسفرت المعركة عن هزيمة جيش عامر ، وفراره إلى قسطنطينية ، فتبعه ابن سودة إلى قسطنطينية ، فاستولى عليها .

(١) ابن عذاري، ج ١، ص ١٢٩ - ابن الأثير ج ٥، ص ١٨٥ - ابن خلدون، ج ٤، ص ٤٢٣

(٢) نفس المرجع - ويذكر كل من ابن الأثير وابن خلدون أنه عاد ومضى معه إلى

ثم دب الخلاف بين عامر ومنصور سنة ٢١١ هـ، وانهى بعد وقائع طويلة بسجن منصور في جزيرة جربة، وقتل أخيه حدود^(١). أما عامر فظل مقياً بتونس إلى أن توفى في سنة ٢١٣ هـ فاستأمن أولاده وبنوه إلى زيادة الله، وبوفاة عامر انتهت الثورة الكبرى التي أشعلها منصور الطنبذى في إفريقية وكادت تطيح بمالك بن الأغلب.

ولم تمض خمس سنوات على استئزال زيادة الله لبني منصور حتى اشتعلت نار الثورة في الجزيرة بتونس، وأشعلها هذه المرة فائر يعرف باسم فضل بن أبي العنبر، وانضم إليه في ثورته عبد السلام بن المرقع الربعى، وكان عبد السلام هذا من أنصار منصور الطنبذى، فسير زيادة الله إليها جيشاً، قاتلها، وانتصر عليهما في موقعة حدثت عند مدينة اليهود بالجزيرة، قتل فيها عبد السلام، وحمل رأسه إلى زيادة الله، ولكن فضل بن أبي العنبر تمكن من الفرار إلى تونس، ودخلها وامتنع بها^(٢). فسير إليه زيادة الله جيشاً بقيادة أبي فهر محمد بن عبد الله بن الأغلب، حاصره بتونس، ونجح في اقتحام المدينة ودخولها عنوة، وقتل جنوده عدداً كبيراً من أهل تونس، نحس بالذكر منهم الفقيه الصالح عباس بن الوليد^(٣)، وفر عدد كبير من أهل تونس إلى النواحي المجاورة، وطلبوا الأمان من زيادة الله، فأمنهم في طليعة سنة ٢١٩ هـ فعادوا إليها^(٤).

(١) طالع تهاويل هذا التراع في البيان المغرب لابن عذارى ص ١٣٠، ١٣١

(٢) ابن الأثير، ج ٥ ص ٢٣١

(٣) ابن عذارى، ج ١ ص ٣٥

(٤) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٦ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٣١

ومن آثار زيادة الله عنايته بالأسطول الإسلامى ، وقيامه بغزو بعض الجزر القريبة من تونس ، ففي سنة ٢٠٦ هـ ، سير محمد بن عبد الله التميمى فى الأسطول إلى جزيرة مردانية ، ففزاها ، وغنم منها غنائم كثيرة ، ولكن بعض قطع من أسطوله أصيبت أثناء هذه الغزوة .

وأهم الغزوات البحرية التى تمت فى عهده غزو جزيرة صقلية فى سنة ٢١٢ هـ ، ولم تكن هذه الغزوة فى الواقع أولى الغزوات الإسلامية إلى صقلية ، فقد وجه إليها المسلمون منذ أيام معاوية بن حديج الأساطيل المرة تلو المرة ، وكانوا يعودون منها بغنائم كثيرة ^(١) . وفى سنة ٨٦ هـ ، عقد موسى بن نصير ليعاش بن أخيل على أسطول المغرب ، ففزا صقلية ، وهاجم سرقوسة ، وغنم منها غنائم هائلة ^(٢) . وفى سنة ١٠٤ هـ ، غزا بشر بن صفوان بنفسه جزيرة صقلية ، فأصاب بها سبا كثيرة ^(٣) ، كذلك غزاها للمسلمون فى ولاية عبيد الله بن الحبحاب سنة ١٢٢ هـ ، إذ بعث لغزوها حبيب بن أبى عبدة . ولكن المسلمين انقطعوا عن غزو تلك الجزيرة منذ أن شغل ولاية العباسيين فى إفريقية بقمع الثورات الداخلية ، فتجرات سفن الروم على مهاجمة السواحل الإفريقية ، ولعل ذلك كان السبب الذى جعل هرثة بن أعين يهتم ببناء القصر الكبير بالمستمر سنة ١١٨ هـ ، وبناء سور مدينة طرابلس مما على البحر . وظل الروم يواصلون هذه الغارات البحرية على الساحل التونسى فى أيام إبراهيم بن الأغلب إلى أن اتفق البطريرك جرميودى مع أمير

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢

(٢) عمس المرجع ' ج ١ ص ٢٦

(٣) عمس المرجع ج ١ ص ١٨

القيروان في سنة ١٩٧ هـ (٨١٣ م) على هدنة لمدة عشر سنوات ، ولم تمض ١٤ سنة بعد ذلك حتى تجددت أعمال القرصنة والغارات المتبادلة بين المسلمين والروم ^(١) .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نرجع فتح المسلمين لصقلية في عهد زيادة الله للأسباب الآتية :

١ - يمكن اعتبار غزوة صقلية سنة ٢١٢ هـ بمثابة محاولة للقضاء على غارات الروم ، وعودة إلى سياسة الاعتداء على أراضي الروم ، وهي السياسة التي جرى عليها ولاية بني أمية .

٢ - كانت صقلية بالنسبة للمسلمين بلادا غنية بالفنائم ، في الوقت الذي أفتقرت بلاد المغرب من هذه الفنائم . كذلك كانت صقلية تمثل أراضي جديدة يمكن فتحها واستغلالها .

٣ - هناك عامل ديني هو الجهاد في سبيل الله ، ولا ننسى أن أهل إفريقية كانوا قد تفقهوا في الدين الإسلامي وأصبح منهم العلماء والفقهاء ، وساعدت الأربطة على تكوين طبقة من الصالحين الذين كرسوا حياتهم للجهاد ضد الروم . وكان الخروج لمداخلة الروم في صقلية أقصى ما يمتناه العابدون والصالحون . ولاشك أن موافقة زيادة الله على اختيار القاضي أسد ابن الفرات ، مصنف الأسدية في الفقه على مذهب مالك ، قائدا للحملة ، يعبر أصدق تعبير عن روح الجهاد المسيطرة على الفاتحين ، فلقد ولاه زيادة الله قائدا على الجيش ، « وأقره على القضاء مع القيادة ، فخرج معه أشراف

إفريقية من العرب ، والهنود ، والبربر ، والأندلسيين ، وأهل العلم والهنائن ،^(١) .

٤ - أراد زيادة الله أن يظهر أمام رعيته بمظهر المجاهد المتأخر في سبيل الله فيكسب بذلك قلوبهم ، ويوطد مكانته ومزله في نفوسهم .

٥ - حانى زيادة الله كثيراً من ثورات جنده ، وفنتهم للتعدة ، فأراد أن يكسر شوكتهم ، ويخلص منهم باتسراهم في هذه الغزوة .

٦ - ذكر ابن الأثير أن قائد الأسطول الرومى بصقلية فيمى Euphemius ثار على الامبراطور ميخائيل الثانى واستولى على سرقوسة Siracuse ، ثم أعلن نفسه ملكاً على صقلية . ولكن أتباعه خرجوا عليه وتفرقوا عنه ، وتمكن والى مدينة بلرم Palermo من هزيمة فيمى ، والاستيلاء على سرقوسة ، فركب فيمى ومن معه سفنهم وتوجهوا إلى إفريقية ، وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجد به ، ويصده بملك جزيرة صقلية^(٢) ، فاستنجد فيمى بزيادة الله كان سبياً مباشراً فى إغراء زيادة الله على فتح هذه الجزيرة . وفتح صقلية من هذه الناحية يشبه فتح الأندلس لأن فيمى يحابل بليان الذى ساعد المسلمين على دخول الأندلس .

بذكر المؤرخون أن زيادة الله احتفل بخروج المسلمين لغزو صقلية احتفالاً عظيماً فى ربيع الأول سنة ٢١٦ هـ وأقلع أسطول الأتالة فى نحو

(١) ابن طبرى ج ١ ص ١٢

(٢) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧ - إسماعيل عباس ، العرب فى صقلية ، القاهرة ،

مائة مركب سوى مراكب فيمي ، ونزلت الجيوش العربية ببلدة مازر Mazara ، وزحفوا إلى الروم وهزموم هزيمة نكراء ، وفر بلاطة Plato منافس فيمي بصقلية إلى قلورية ، فقتل بها ، واستولى المسلمون على عدة حصون في الجزيرة ، ثم حاصر أسد بن القرات مدينة سرقوسة برا وبحرا ، وجاءته الإمدادات من إفريقية لتجدة المسلمين ، ولكن والي بلرم زحف على المسلمين في سرقوسة ، فخذق المسلمون على أنفسهم ، وحفروا خارج الخندق حفراً كثيرة ، فلما حل الروم على المسلمين ، سقط منهم كثيرون في الحفر ، وقتل منهم عدد كبير . وشدد المسلمون على أن ذلك الحصار على سرقوسة ، ولكن وباء شديدا أصاب معسكر المسلمين فهلك بسببه قائدم أسد بن القرات ، وعدد كبير منهم في رجب سنة ٢١٣ هـ ، فدفنه المسلمون في مدينة قصر يانة ^(١) Castrogiovanni . ثم توفي محمد بن أبي الجراوى في سنة ٢١٣ هـ وتولى بعده زهير بن غوث . وحدث أن سرية من المسلمين خرجت بقصد تجميع بعض المؤن ، فاصطدم بهم الروم وهزموهم ، ثم التقى المسلمون مع الروم مرة ثانية ، فانهزموا ، وقتل منهم نحو ألف ، وماد قل المسلمين إلى معسكرهم بقصر يانة ، وخذقوا على أنفسهم ، فحاصرم الروم حصارا طويلا ، وانعدمت الأقوات عن المسلمين ، فعزموا على التسلل من المدينة ، دون أن يعلم الروم ، ولكن هؤلاء عرفوا ما يقصدونه ، ففارقوا المعسكر ، وترصدوا للمسلمين في كل مكان ، ثم كروا عليهم ، وأكثروا فيهم القتل ، وفرالناجون إلى ميناو Mineo ، بينما استولى الروم على قصر يانة ، ثم شدد الروم عليهم الحصار حتى قلت الأقوات لديهم ، فأكلوا الدواب

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٢ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٦ .

والكلاب^(١)، فلما علم المسلمون في جرجنت ما آل إليه مصير إخوانهم في ميناو، هدموا مدينة جرجنت، وخرجوا إلى مازر، وحاولوا الإتصال بإخوانهم المحصورين لنصرتهم، فتمذر عليهم الأمر، وأشرف المسلمون في ميناو على الهلاك. وفي هذه اللحظة الحرجة التي يتوقف عليها مصير هؤلاء المسلمين، حدث أمر لم يكن في الحسبان، إذ أقبل أسطول من الأندلس في أول سنة ٥٢١٤ هـ يحمل رجالا ووطنوا أنفسهم للجهاد، يقودهم أمير البحر إصينغ بن وكيل المعروف بفرغلوش، وفي نفس الوقت، وصلت سفن كثيرة من إفريقية مددا للمسلمين فبلغ عدد القاطع الوافدة ثلثمائة سفينة. ونزل المسلمون بالجزيرة، وأقبلوا لفك الحصار عن المسلمين المحصورين في ميناو، فانهزم الروم، وفكوا الحصار عن المسلمين.

ثم زحفت جيوش المسلمين إلى مدينة بلرم، فحاصروها حصارا محكما، وافتتحوها بالأمان في رجب سنة ٥٢١٦ هـ. وكان فتح بلرم في الواقع خطوة كبيرة في سبيل افتتاح صقلية كلها، ولما كانت بلرم ميناء بحريا على الساحل الشمالي لصقلية، فقد كانت تصل إليها السفن بسهولة من إفريقية، وعليها المؤن والإمدادات. بعد أن دخل المسلمون بلرم خرج عاملها الرومي إلى القسطنطينية^(٢)، وقام المسلمون بحرق المدينة وخربوها^(٣). ثم زحف المسلمون إلى مدينة غلوا لية، فحاصروها، وتمكنوا من الاستيلاء عليها. غير أن وباء انتشر في المدينة بعد دخول المسلمين فيها، كان سببا في وفاة

(١) ابن الأثير ج ٥ ص ١٨٧.

(٢) قس المرجع ص ١٨٨.

(٣) ابن عذاري، ج ١ ص ١٣٥.

عدد كبير منهم ، من بينهم فرغلوش نفسه ، وعدد من القادة . واستغل الروم هذه الفرصة ، فهاجموا المسلمين ، وقتلوا كثيرا منهم . ويبدو أن خلافا قام بين الاندلسيين وأهل إفريقية في صقلية ، بشأن قيادة الجيوش ، فقد وجه زيادة الله بن الأغلب على صقلية قائدا مشهورا من قواده هو أبو فهر محمد ابن عبد الله التميمي في سنة ٢١٧ هـ ^(١) ، فعزم الاندلسيون على القفول إلى بلادهم (٢) . إلا أنهم وافقوا أخيرا على ولاية أبي فهر سنة ٢١٩ هـ . واتخذ أبو فهر مدينة بلم عاصمة له ، وذلك لسهولة اتصالها بإفريقية ؛ ومن هناك أخذ يوجه الغارات على قصر يانة في سنتي ٢١٩ ، ٢٢٠ هـ . كذلك سير سير عسكريا بقيادة محمد بن سالم إلى مدينة طبرمين Taormina الواقعة بشرق الجزيرة ، فغنم غنائم كثيرة . ولكن جنده تمردوا عليه وقتلوه ، فأرسل زيادة الله من إفريقية الفضل بن يعقوب عوضا عنه ، وأحرز المسلمون على الروم عدداً من الانتصارات في سر قوصه ، وغنموا غنائم كثيرة ، كما تمكنت فرقة من المسلمين من هزيمة الروم وأسر قائدهم بطريق صقلية (٣) .

ويبدو أن زيادة الله بن الأغلب لم يرض عن سياسة أبي فهر محمد ابن عبد الله في صقلية فولى عليها أخا لأبي فهر هو أبو الأغلب ، فوصلها في منتصف رمضان سنة ٢٢٠ هـ . وقد أحرز المسلمون بعد وصوله انتصارات بحرية كثيرة ، فظفروا بأسطول للروم ، وغنموا ما فيه وقتلوا بحارته من الروم . وبعث أبو الأغلب أسطولا إلى قوصرة ، فظفر فيها بحراقة رومية ، ووجه

(١) ابن الأثير ص ١٨٨ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٣٥ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٨٨ .

في سنة ٧٧١ سرية إلى جبل النار (مدينة Messina) بشمال جزيرة صقلية ،
 وفزأها ، وغنم المسلمون غنائم لا تحصى . وكان أبو الاغلب يبعث سرايته
 وفرقه من يلزم للاغارة على مدن صقلية ، وفي كل مرة كانت للمسلمون
 يعودون مظفرين غانمين . وتمكن المسلمون في إحدى غاراتهم على قصر بانه
 من الاستيلاء عليها (١) ، كما افتتحوا حصن مدنار ومعقل كثيرة في غزوة
 قام بها الفضل بن يعقوب في سنة ٧٧٢ هـ . وفي العام التالي وصلت إلى الروم
 بصقلية إمدادات بيزنطية ، وكان المسلمون يحاصرون إحدى مدن صقلية
 فاضطروا إلى رفع الحصار عنها ، وقامت بينهم وبين الروم القاديين عدة
 وقائع ، وبينما كانت هذا الوقائع دائرة بينهم وبين الروم ، وصلت الأنباء
 بوفاة زيادة الله بن الاغلب في ١٤ رجب سنة ٧٧٣ هـ ، وأحدثت وفاته
 أثرا كبيرا في نفوس المسلمين ، فذب الوهن في نفوسهم ، ولكنهم تمالكوا
 أنفسهم ، واستعادوا حماسهم في قتال الروم . وقد ظلت صقلية طوال
 العصر الاغلبى مركزا للجهاد ، واهتم أمراء بني الاغلب اهتماما خاصا
 بغزوها وبإمدادها بالموث والرجال والسلاح ، ولم يكتف المسلمون بالاستيلاء على
 صقلية بل أغاروا على مالطة وافتتحوها في أيام محمد بن الاغلب سنة ٧٦١ هـ ،
 وقدم الأمير الاغلبى ابراهيم بن أحمد إلى صقلية للجهاد في ربيع الأول سنة ٧٨٤ هـ ،
 وتمكن من فتح ميقش Miquos بنواحي طبرمين في شرق صقلية ، وعبر
 مجاز مدينة ، وغزا فلورية Calabria وهي المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب
 من شبه جزيرة إيطاليا ، وبنهاها عن صقلية مضيق مسينة ، وحاصر مدينة
 كوسنة Cosenza من كلايريا ، وتقع قريبا من خليج تارنتو ، وتوفي وهو

يُحاصرهما في ٢٨٩ هـ (١). وفي العصر الفاطمي تولى أمر صقلية أسرة الحسن
ابن علي بن أبي الحسين، وظلوا يتوارثون إمارتها، وبجاهدون الروم فيها،
إلى أن انقرضت دولة بني الحسين على أيدى النورمان سنة ٤٨٥ هـ.

(٢)

خلفاء زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب

١ - أبو عقال الأغلب (٢٢٣ - ٢٢٦)

لما توفي زيادة الله خلفه أخوه أبو عقال الأغلب الملقب بنحزر ، وكان أول ما قام به الأغلب في صدر ولايته تأمين الناس على أنفسهم ، والإحسان إليهم وإلى جنده ، وإزالة المظالم ، وزيادة أرزاق عماله ، حتى يكفوا أيديهم عن الرعية ^(١) ، والتودد إلى الناس والتقرب إليهم باسقاط كثير من المحدثات التي بالغ فيها العمال . وذكروا أنه حرم على الناس تعاطي النبيذ والخمر في القيروان ، وعاقب على بيعه وشربه ^(٢) حتى يكسب رجال الدين والفقهاء إلى جانبه .

وكانت أطم أبا عقال لذلك كلها هادئة ، ولم يقطع هذا الهدوء إلا انتفاض خوارج زواغة ولوانة ومكناسة سنة ٨٧٣ ، في إقليم قسطنطينية ، وقيامهم بقتل عامله على هذا الاقليم . فسير إليهم جيشا بقيادة عيسى بن ربحان الأزدي ، اشتبك معهم فيما بين قصبة وقسطنطينية ، فأبادهم عن آخرهم ^(٣) . واهتم أبو عقال في أول ولايته بأمر صقلية فبعث في سنة ٨٧٤ سرية غزت بعض مواضع من الجزيرة وغنمت غنائم كثيرة ، ونجح المسلمون في افتتاح

(١) ابن عذارى ج ١ ص ١٣٩ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٥٣ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٨ - ابن الخطيب ، القسم الثالث من أعمال الأعلام ، ص ٢٠ .

(٢) ابن عذارى ج ٥ ص ١٣٩ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٥٣

(٣) نفس المرجع - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٥٩ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٨

عدد من حصونها ، فاستولوا على حصن البلوط ، وأبلاطنو وقرلون ومرو .
وافتح الأسطول الإسلامي مدينة قلورية ، واشتبك مع الأسطول البيزنطي
في موقعة بحرية دارت خارج قلورية ، وانتهت بانتصار المسلمين . وأغار
فرقة من جيش المسلمين على قصر يانة ، ثم توجهت بعد ذلك إلى حصن
الغمران ، وعادت بنائهم كثيرة^(١) . وتوفي الأغلب في ربيع الآخر سنة ٥٢٢٦هـ ،
وخلفه ابنه أبو العباس محمد بن الأغلب .

٢ - أبو العباس محمد بن الأغلب بن إبراهيم (٢٢٦ - ٥٢٤٢هـ)

ساد الأمن والسلام بلاد إفريقية في أول ولايته ، وظل المدعو سائداً
خمس سنوات من ولايته ، قام خلالها بتوسيع دائرة نفوذه في المغرب الأدنى ،
فأسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية في سنة ٢٢٧هـ^(٢) ، ولكن
الإمام أفلح بن عبد الوهاب بن رسم قام بتخريبها ، وقد كافأه الأمير
عبد الرحمن الأوسط بالأندلس على ذلك بأن أرسل إليه مائة ألف درهم^(٣) .

وفي سنة ٢٣٩هـ قام أخوه أبو جعفر أحمد بن الأغلب بالثورة عليه ،
فقد كان ساخطاً عليه بسبب تسلط الوزير أبي عبد الله بن تلي بن حميد على أمور
الدولة ، وسكوت أخيه على ذلك ، لاشتغاله بلهوه وعكوفه على لذاته بمدينة
القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلهوه وعكوفه على لذاته
بمدينة القصر القديم . فاستغل أبو جعفر أحمد اشتغال أخيه بلهوه في القصر ،
وخرج في جملة من أتباعه إلى القصر القديم ، وقد خلا القصر من الرجال ،
فدخل القصر ومعه أتباعه ، وأغلقوا الأبواب ، ثم هجموا على أبي عبد الله

(١) ابن الأثير ص ٢٥٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٢٩

(٣) ابن الأثير ج ٥ ص ٢٦٣ - ابن خلدون ، المرجع السابق

ابن علي بن حميد الوزير ، وقتلوه . وبلغ أبا العباس محمد خير قيام أخيه ، فتحصن في عالية مرتفعة بقصره ^(١) ، ونشب القتال بين حراس القصر وبين رجال أحمد ، فتغلب حراس القصر على الثوار ، فأخذ أحمد ورجاله ينادون « نحن في الطاعة ، لم نخلع عنها يدا ، وإنما قتنا على بني حميد الذين قهروا السلطان ، واستأثروا بالمال » ^(٢) . فتوقف القتال ، وتوجه محمد في مجلسه العام ، واستقدم أخاه أحمد ، فعاتبه ، واصطاحا بعد أن اتفقا على ألا يقدر أحدهما بصاحبه . ومنذ ذلك الحين عظم أمر أحمد ، ونقل الدواوين إليه ، وقبض على من شاء من خصومه ، واستصفي من أراد ، واستوزر نصر بن حمزة ، ولم يبق لمحمد من الامارة غير الاسم فقط ^(٣) .

فلما لمس محمد عزم أخيه إلى خلع من الامارة ، « أقصر عن اللذات ، وأخذ في الاحتياط على أخيه ، والكتب إلى قواده وخواصه في السر ، وبتهمي ذلك إلى أخيه فيكذبه ، إلى أن تم له الأمر ، وحضر الوعد ، وتيسر من إعداد الرجال الفرض ، وضرب محمد الطبل - وهو العلامة - فأقبل القوم ، وكانت بين الفريقين حرب عظيمة ، إلى أن كوثر أصحاب أحمد فانهمزموا » ^(٤) . ويذكر ابن عذاري أن محمد بن الأغلب اعتمد على جماعة من بني عمه ومواليه ، واحتال على بوابي القيروان ، حتى دخلها وأطلق من كان في حبس أخيه ، فاستمد بهم ، ووصل أهل القيروان حتى نفذ جميع ما في خزائنه من الاموال

(١) ابن الخطيب ، أعيال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢١ .

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٤١ - ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ٢١

(٣) نفس المرجع ، ص ١٤٢ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٧٥ - ابن الخطيب ، ص ٢١

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٢

والاكسية^(١). ولما انقلب على أخيه أحد ، فقام بأهله وولده إلى مصر ، واستقام أمر محمد بأفريقية بعد ذلك . ولم تكن ثورة أحمد هي الثورة الوحيدة التي واجهها أبو العباس محمد ، ففي سنة ٢٣٣ هـ عزل محمد بن الأغلب . سالم بن غلبون ، عامله على الزاب ، فاستاء سالم لذلك ، وأعان الثورة على الأمير ، وأقبل بجيش من أنصاره نحو القيروان ، فلما وصل إلى قلعة بلبسمر عدل عن خطته فسار إلى الأربس وحاول دخولها ، فثمة أهلها من ذلك ، فزحف إلى باجه ودخلها ، واعتصم بها ، فسير إليه الأغلب قائد خفاجة بن سفيان ، فقتله ، وحمل رأسه إلى الأمير (٢) .

وفي العام التالي ثار عمرو بن سليم التيجي المعروف بالقويح في تونس ، واستمرت ثورته عامي ٢٣٤ ، ٢٣٥ هـ ، وفشل القائد خفاجة بن سفيان في القضاء عليها ، فبعث إليه ابن الأغلب جيشاً آخر بقيادة محمد بن موسى المعروف بعريان ، ولكن عدداً كبيراً من عسكر ابن الأغلب انضم إلى القويح ، فانهمزم محمد بن موسى وعاد فله إلى القيروان . وقويت حركة القويح ، فسير إليه ابن الأغلب للمرة الثالثة جيشاً بقيادة خفاجة بن سفيان ، وتمكن خفاجة هذه المرة من هزيمة القويح وقله ، ودخل جيش ابن الأغلب مدينة تونس في ١٠ ربيع الأول سنة ٢٣٦ (٣) . وتوفي أبو العباس محمد في أول محرم سنة ٢٤٢ هـ وكان عهد محمد بن الأغلب عهد سلم بالنسبة لليهود السابقة ، ومن مآثره أنه استقضى على القيروان أبا سعيد عبد السلام سحنون الملقب

(١) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ١٤٤

(٢) نفس المرجع ص ١٤٤ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨١

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٤ - ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٢

بمراج القديوان ، وكان عالماً في أصول الدين والفقه على مذهب مالك (١).

٣- أبو ابراهيم أحمد بن محمد (٢٤٢-٢٤٩ هـ)

لما توفي أبو العباس محمد خلفه ابنه أبو ابراهيم أحمد ، وكان على حدائق سنة حسن السيرة ، كريم الفعال ، رفيقاً برعيته ، متجنباً للظلم . ويذكر ابن عذاري أنه كان يخرج من القصر القديم ويمشي حتى يدخل من باب أبي الربيع ومعه دواب بالدرام ، فكان يعطي الفقراء والمساكين حتى ينتهي إلى المسجد الجامع بالقديوان (٢) . وكان أبو ابراهيم أحمد مولعاً بالبناء ، ففي سنة ٢٤٥ هـ أخرج مالا كثيراً لحفر المواجه وبنان المساجد والقناطر . وفي سنة ٢٤٦ هـ شرع في حفر الماغل الكبير الواقع على باب تونس ، وتم بناء هذا الماغل في سنة ٢٤٨ هـ ، وهو على شكل صهريج عظيم مستدير الشكل ، يبلغ قطره نحو ١٥٠ متراً ، وكانت مياه الأودية تجري إليه . وكان أهل القديوان يشربون من هذا الماغل في سنوات المحل والجفاف (٣) .

وأبو ابراهيم هذا هو الذي زاد في جامع القديوان ، وأصلح قنطرة باب أبي الربيع سنة ٢٤٨ هـ (٤) ونرى سور سوسة في سنة ٢٤٥ هـ (٥) ، وشرع في

(١) المالكي ، رياض النفوس ، ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٩٠

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٧ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ،

ص ٢٣ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢٣ حاشية رقم ١ - حسن حسني عبد الوهاب ،

خلاصة تاريخ تونس ، ١٣٧٣ هـ ص ٦٨

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨ - ابن الأبار ، الحلة السراء ص ١٦٤

(٥) ابن الخطيب ص ٢٣

إصلاح المسجد الجامع بجنس والزيادة فيه سنة ٢٤٩ هـ ، ولكنه توفي قبل تمامه (١) . وذكر ابن الخطيب أنه اعتل في أثناء إجراء المياء إلى الماجل الذي أقامه بالقصر القديم ، فكان يسأل : هل دخله الماء ؟ إلى أن دخله الوادي ، فمرفوه بذلك فصر به ، وأمرهم أن يأتوه بكأس مملوءة منه فشربها قال : الحمد لله الذي لم أمت حتى تم أمره ، ثم مات على أثر ذلك ، (٢) .

وفي عهد أبي إبراهيم أحمد ثار خوارج الدر من الإباضية في طرابلس سنة ٢٤٥ هـ ، وهزموا عاملها أخاه عبد الله بن محمد ، فسير إليهم أخاه زيادة الله ، فانهزم الإباضية ، وقتل منهم عدد كبير (٣) . وتوفي أبو إبراهيم أحمد في ذي القعدة سنة ٢٤٩ هـ .

٤ - أبو محمد زيادة الله بن محمد (٢٤٩-٢٥٠ هـ)

لما توفي أبو إبراهيم أحمد خلفه أخوه أبو محمد زيادة الله الثاني ، وعلى الرغم من صغر سنه عند توليه الإمارة لم يطل به العهد فيها ، إذ توفي بعد عام واحد ، في ذي القعدة سنة ٢٥٠ هـ . وزيادة الله هذا هو الذي أنتم زيادة أخيه أبي إبراهيم أحمد في جامع الزيتونة بجنس .

٥ - أبو الفرائق محمد بن أحمد (٢٥٠-٢٦١ هـ)

قام بالإمارة في إفريقية بعد وفاة زيادة الله ابن أخيه أبي الفرائق محمد ابن أبي إبراهيم أحمد ، وقد لقب بهذا اللقب بسبب حبه لصيد الفرائق

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٤٨

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٤

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٠٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣١

حتى أنه بنى قصرًا يخرج إليه لصيدها أنفق فيه ٣٠ ألف مثقال من الذهب^(١). وكان أبو الغرائيق مولعًا بالبناء والنشيد، فبنى حصونًا ومحارس على ساحل البحر بالمغرب، على مسيرة ١٧ يومًا من برقة إلى جهة الغرب^(٢). وفي عهده أقام محمد بن حمدون الأندلسي الماعزى المسجد الشريف المنسوب إليه بالقيروان في سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) ويعرف بمسجد الابواب الثلاثة، بناه بالآجر والحض والرخام، وتعتبر زخارف واجهته من أروع الزخارف المنسوبة إلى عصر الأغالة^(٣).

٦- إبراهيم بن أحمد (٢٦١ - ٢٨٩ هـ).

لما توفى أبو الغرائيق في ٦ جمادى الأولى سنة ٢٦١ هـ، خلفه أخوه إبراهيم ابن أحمد. ويعتبر الأمير إبراهيم هذا أعظم أمراء بني الأغلب على الإطلاق. فهو الذى أسس مدينة رقادة سنة ٢٦٣ هـ، وبنى فيها جامعًا وقصرًا سماه المتح^(٤)، وهو الذى أتم بناء المسجد الجامع بتونس، وما جل القيروان، وذكر ابن خلدون أنه بنى الحصون والمحارس بسواحل البحر حتى كانت النار توقد في ساحل سبتة للذئير بالعدو فيصل إبقادها بالأسكندرية في الليلة الواحدة. وهو الذى بنى سور سوسة^(٥).

(١) ابن عذارى، ج ١ ص ١٥٠.

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣١.

(٣) G. Marçais. *l'Architecture musulmane d'Occident*, Paris.

1954. pp. 47 - 48.

(٤) أقام هذا الجامع والنصر في سنة ٢٦٤ هـ.

(٥) ابن الأثير، ج ٥ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٣١.

وفي عهده كانت فتنة العباس بن أحمد بن طولون، الذي اشتهر فرصة غياب أبيه في الشام وأعلن خروجه عليه في مصر ، وأزعم الاستقلال بها ، فلما بلغه قدوم أبيه إلى مصر، عزم على غزو إفريقية في سنة ٥٢٦هـ ، وإخراج بني الأغلب عنها ، أملا في إقامة ملك له بشمال إفريقية . ولكنه فشل في الاستيلاء على طرابلس ولبدة (١) .

وكان إبراهيم بن أحمد في السنين الست الأولى من إمارته يسير على نهج أسلافه من حسن السيرة والعدل ، ثم أخذ يتغير بعد ذلك، فكان يزداد تفيرا وسوءا في كل سنة ، وأصبح جائرا ظالما ، سفاكا للدماء . ثم أصيب في آخر عمره بجنون القتل (٢) ، أمرف بسببه في قتل أقرب الناس إليه من ذويه وأصحابه وحجابه ، فقتل ابنه أبا الأغلب ، وقتل بناته ، وقتل ثمانية إخوة له ، وأتى بأموال لا تصدر إلا من التوحشين الهمج . وقيل أنه افقد متديلا صغيرا كان يمسح به فمه من الشراب ، قد سقط من بعض جارياته وألقاه خادم له ، فقتل بسببه ثلاثمائة خادم ، كذلك قتل ابنه أبا عقال لأن حمد يس المتجم أنباء بأن ابنه هذا يلى الملك في وقت حدده له ، وقتل وصيفاته وجواربه دون سبب أو جريرة (٣) . وفي أيامه ظهر أبو عبد الله الشيعي الداعي في قبائل كتامة ، بدعو للاسماعيلية ، ونجح في اجتذاب

(١) راجع التفاصيل في البيان المغرب ، ج ١ ص ١٥٦ - ١٥٨

(٢) ذكر ابن خلدون أنه أصابه « ما ليخوليا » (ج ٤ ، ص ٤٢٦) ، وذكر ابن عذاري أنه غلب عليه خلط سوداوى (البيان ج ١ ص ١٧٨) ، وذكر ابن الخطيب أنه انقلب المخذ ما كان عليه ، وقد فكره لطلبه مزاج - سوداوى ساء له أعلامه وتغيرت ظنونه ، فأمر في القتل « (أعمال الاعلام ص ٢٩)

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ١٧٨ ، ١٧٩ - ابن الخطيب ، ص ٢٩ - ٣٤

الكنامين إلى دعوته ، ويبدو أن ظهور الشيعة كان سببا في استغاثة إبراهيم أحمد وتوبته ، حتى يستميل الناس بأفعاله فلا ينضموا إلى دعوة الشيعة (١) ، « فرد المظالم ، وأسقط القبالات . وأخذ العشر طعاما ، وترك الأهل الضياع خراج سنة وسباها سنة العدل ، وأعتق ممالكه ، وأعطى فقهاء الفقير وان ووجوه أهلها أموالا عظيمة ليفرقوها في الضعفاء والمساكين » (٢) ، ولكن ابنه أبا العباس استرد هذه الأموال التي أخرجها أبوه إلى الفقهاء ، وأنفقها في ملذاته وشهوانه (٣) . وذكر المؤرخون أنه أخرج من في السجون ، وبعث يستدعي ابنه أبا العباس من صقلية للقيام بأعباء الحكم ، فقدم عليه في ربيع الأول سنة ٢٨٩ هـ ، وعزم إبراهيم بن أحمد على الجهاد بصقلية (٤) ، فاستنفر للناس ، ودعاهم إلى الجهاد ، ووزع عليهم الأموال الطائلة ، وخرج من مدينة سوسة في أواخر ربيع الآخر في الأسطول ، وأبحر إلى صقلية ، فزل بمدينة برم في ٢٨ رجب سنة ٢٨٩ هـ ، وحاصر ميقش Miques (٥) سبعة عشر يوما ، ثم فتح ميسية ، وهدم أسوارها ، ثم فتح طرمين Taormina في آخر شعبان من سنة ٢٨٩ هـ (٦) . وبعث حفيده زيادة الله إلى قلعة ميقش فافتتحها ، بينها بعث

(١) المرجع السابق ص ١٧٧ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٧

(٢) نفس المرجع ص ١٧٧

(٣) نفس المرجع ص ١٧٦

(٤) ذكر ابن الأثير أنه عزم على الحج ، وعلم أنه إن جبل طريقه إلى مكة عن مصر منه صاحبها ابن طولون ، فجرى بينها حرب فيقتل المسلمون ، فجعل طريقه على جزيرة صقلية ليجتمع بين الحج والجهاد .

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٦ - ابن الخطيب ص ٣٥

(٦) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٦

ابنه أبو حمز إلى رمطة Rametta، وهي قلعة حصينة تقع غربى مدينة مسينة، فأعطاه أهلها الجزية^(١). ولم يكتب إبراهيم بن أحمد بذلك، بل عبر مضيق مسينة من صقلية، وأغار على ساحل إيطاليا الجنوبي الغربى، وسار فى بر الفرنج، ودخل قلورية عنوة، فقتل وسبى، ورهب منه الفرنجة^(٢) وقلورية المذكورة هي كلابريا Calabria، ويفصلها عن صقلية مضيق مسينة. ثم مضى نحو كسنتة Cozenza، وهي مدينة تقع بالقرب من خليج تارنتو، فنزل أهلها، فعرضوا عليه الجزية ولكنه لم يقبل منهم ذلك، فحاصرها^(٣) وأصيب وهو قائم بحصارها بمرض شديد، سبب وفاته فى ١٨ ذى القعدة سنة ٢٨٩هـ بأرض كلابريا، وحمل ميتا إلى جزيرة صقلية، فدفن ببلرم بعد ثلاثة وأربعين يوما من وفاته^(٤). وبنى على قبره قصر^(٥) أورباط.

٧- أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ) :

وبوفاة إبراهيم بن أحمد بدأ الضعف والوهن بدب فى دولة الأغالبة، فقد تولى بعده ابنه أبو العباس عبد الله بن إبراهيم. وفى أيامه اضطرب الحكم حتى إن ابنه زيادة الله تأمر على قتله^(٦). فحبسه أبوه فى بيت داخل داره، ومات أبو العباس عبد الله بن إبراهيم متمولا فى ٢٩ شعبان سنة ٢٩٠هـ

(١) المرجع السابق - ابن الخطيب، ص ٣٥

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ٤٢٧ - ابن الخطيب، ص ٣٥

(٣) ابن الأثير، مرجع ٦ ص ٦ - ابن الخطيب، ص ٣٥

(٤) ابن عذارى، ج ١ ص ٢٧٨ - وذكر ابن خلدون وابن الخطيب أنه دفن فى مدينة

بلرم فى ٢٤ من ذى الحجة -

(٥) ابن الخطيب، ص ٣٦

(٦) ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٣٨

بأبدى فتين من فتياه الصقالبة بإعزاز من ولده زيادة الله^(١). وكان أبو العباس عبد الله حسن السيرة عادلا ، أكثر من الجهاد في صقلية ، وذكر المؤرخون أن ولايته كانت رحمة ، نسخت العذاب الذي كان سائدا في عهد أبيه^(٢) ، « وأظهر التقشف . والجلوس على الأرض وإنصاف المظلوم ، وجالس أهل العلم ، وشاورهم ، وكان لا يركب إلا إلى الجامع »^(٣) . ولم يسكن قصر أبيه ولكنه اشترى دارا مبنية من الطوب ، فأقام فيها حتى قتل.

٨ - زيادة الله بن عبد الله آخر امراء بني الأغلب (٢٩٠ - ٢٩٦ هـ) :

لما تولى زيادة الله الثالث الإمارة ، قبض على أعمامه وأرسلهم إلى جزيرة الكراث ، وهي جزيرة صغيرة تقع على بعد كيلو مترين ونصف شمالي تونس ، وأمر بقتلهم ، فقتلوا جميعا^(٤). كذلك أمر بقتل الفتين اللذين قتلأباه^(٥) ، وقتل أخاه أبا عبد الله الأخول بعد أن استقدمه من طينة ، ثم ولي وزارته وشؤون البريد عبد الله بن الصائغ ، كما ولي أبا مسلم منصور بن اسماعيل ديوان الخراج . وعكف على لذاته ولهوه ومعاشرة المضحكين والعابثين ، وأهمل أمور دولته . وكان مقبيا بتونس ، فأمر أبا مسلم منصور بن اسماعيل باصلاح ما وهى من قصور مدينة رقادة ، وترميمها ، وأنشأ مركبا على ما جل القيروانسمى بالزللاج ، وقدم من تونس في شهر ربيع الآخر سنة

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٠٣

(٢) ابن الخطيب ، ص ٣٦

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٨٠

(٤) نفس المرجع ، ص ١٨٣ - ابن الخطيب ، ص ٣٨

(٥) نفس المرجع - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٦ - ابن الخطيب ، ص ٣٨

٢٩٧ هـ ، ونزل على الساحل الكبير بالقيروان ^(١) ، وكان خطر الداعي الشيعي قد استفحل ، إذ استولى في سنة ٢٩٢ هـ على سطيف بالجزائر ، فسير إليه زيادة الله جيشا من أربعين ألف مقاتل بقيادة ابراهيم بن حبشى ، فالتقى مع حشود الشيعي في كينونة ، فانهزم ابن حبشى هزيمة شنعاء ، وزحف أبو عبد الله الشيعي بجيشه الظافر في أملاك الأغالب ، فأخرج إليه زيادة الله جيشا بقيادة مدليج بن زكريا ، وأحمد بن مسرور المحال ، ولكنها خرجا عليه ، فسار زيادة الله بنفسه إلى مدينة الأريس في سنة ٢٩٣ هـ ، واجتمعت إليه الجنود ، وأنفق عليهم أموالا طائلة لترغيبهم في مقاتلة الشيعي وأنصاره . وأمر زيادة الله أثناء مقامه بالأريس بإرسال العسكر إلى باغاية ، وشحن طينة عاصمة الزاب بالرجال ، وأقام عليها حاجه أبا المقارع حسن بن أحمد ابن نافع ، وشبيب بن أبي شداد القمودي ، وخفاجة العبي ، وكانوا من كبار قواده ، وأمرهم بشن الغارات على كتامة .

وعلى الرغم من كل الاحتياطات التي اتخذها زيادة الله لإيقاف تقدم الشيعي ، فقد تمكن الشيعي من محاصرة مدينة طينة ، ونصب عليها الدبابات ، وقب بربجا وبدنة ، فسقط السور بعد قتال شديد ، واستولى أبو عبد الله الشيعي على مدينة طينة ، فاحتوى المقدمون بحصن المدينة ، فحاصروهم ، فطلبوا الأمان فأمّنهم ، ثم دخل الحصن في آخر ذي الحجة ٢٩٣ هـ ، وزحف بعد ذلك إلى مدينة بلزمة . وكان قد حاصرها من قبل عدة مرات ، ولم يتمكن من الاستيلاء عليها ، فحاصرها هذه المرة ونصب عليها الدبابات ، ورماها

بالتار أحرقتها ، وفتحها بالسيف ، وقتل الرجال ، وهدم أسوارها ^(١) .

وخاف زيادة الله أن يباغته الشيعة بغزو الأربس ، فرحل إلى رقادة بعد أن بنى سورها بالطوب والطوايى ، واستخلف على جيشه بالأربس إبراهيم ابن أحمد بن أبي عقيل ^(٢) . وواصل الشيعة تقدمه في البلاد التونسية ، فاستولى على باغاية في شعبان من قس السنة بالأمان . وفي سنة ٢٩٦ هـ وصات خيله إلى قسطنطينية ، وانسحبت جيوش زيادة الله إلى توزر ، فاستولى الشيعة على تيجس صلحا ، ثم سقطت قفصة وبلاد قسطنطينية في يده ، وزحف بعد ذلك إلى الأربس ، ونازلها ، وافتتحها عنوة في ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٢٩٦ هـ ^(٣) . وأخذت جيوش الشيعة تستولى على مدن إفريقية الواحدة بعد الأخرى ، فسقطت في يده مجانة ونيقاش وسيية وقودة ^(٤) ، ثم تبعها سكيانة وتبسة . وفي مدبرة وجد أن أهالي قصر الإفريق ومرجنة ومجانة قد التجئوا إليها ، وتحصنوا بها ، فافتتح الحصن ، ثم رحل إلى القصرين من قمودة وأمن أهلها ودخلها ^(٥) .

ولما علم زيادة الله بذلك سقط في يده ، وعزم على الحرب إلى مصر ، فخرج من رقادة ومعه وجوه رجاله وفتياناه وعبيده ، وقد حمل من الذهب والجواهر ما خف حمله ، وانتخب من عبيده الصقالبية ألف خادم جعل على

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣٠

(٢) ايل عذارى ، ج ١ ص ١٩٣ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٣٩

(٣) قس المرجع ص ٩٩ — ابن الخطيب ص ٤٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٤٠ ، ٤٤١

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٣١

وسط كل واحد منهم ألف دينار، ورحل من رقادة في ٢٦ من جمادى الآخرة. وأصبح الناس غداة ليلة خروجه، وهجموا على قصوره برقادة، فانتهبوا ما فيها من أموال وآنية ذهبية وفضية^(١).

وبلغ أبا عبد الله الشيعي نبأ هروب زيادة الله، فبعث قائده غروبة بن يوسف إلى رقادة فدخلها في غرة رجب، ونزل بقصرها المعروف بقصر للصحن^(٢).

أما زيادة الله فقد سار في الجادة الموصلة إلى طرابلس، فأقام بطرابلس ١٧ يوماً، ثم سار بعد ذلك إلى مصر. وانقرضت بذلك دولة بني الأغلب.

(١) ابن عسارى، ج ١ ص ٢٠١ - ابن الخطيب، ص ٤٤

(٢) نس المرجع ص ٢٠٥

(٣)

ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالة

لم يزودنا المؤرخون بمعلومات كافية توضح لنا الحالة الاقتصادية في إفريقية في عصر الأغالة ، ولهذا فالتنا نلجأ عادة إلى كتب الجغرافيا والرحلات ، وخاصة يعقوبي المعاصر لدولة الأغالة ، والذي زار المغرب فيما بين عامي ٢٦١ ، ٢٧٤ هـ (٨٧٦ - ٨٨٩ م) .

لم تعرف بلاد إفريقية منذ العصر الروماني ازدهارا اقتصاديا كما عرفت أيام الأغالة ، فقد أصيب اقتصادها منذ النصف الثاني من القرن الثالث الميلادي حتى أواخر القرن السابع باضطراب شديد بسبب تعاقب الغزاة على إفريقية ، وقيام البربر بالثورات المتواصلة على حكمهم ، وللقن التي اضطربت فيها في البلاد بسبب غارات سكان الجبال والبدو الصحراويين على المدن والسهول . وعلى هذا النحو لم تكن المزارع الإفريقية تعرف إلا من والسلام اللازمين لقيام الزراعة وانصال عبور القوافل التجارية . وكان البناء الاقتصادي في إفريقية عند بداية الفتح العربي لبلاد المغرب في غاية التصدع ، وعجلت ثورة كسيلة وثورة الكاهنة على هذا التصدع ، وأتى عليه تشدد أمراء بني أمية في جباية الضرائب على السكان ، وما تبع ذلك من ثورات البربر وحركات الصغرية والإباضية ، ونحو ذلك لبلاد إفريقية إلى ميادين القتال بين جيوش العرب أموية وعباسية ، وبين حشود البربر الخوارج المنادين بالمساواة . ولما قامت أسرة الأغالة بامارة إفريقية ، أحسن المزارعون بنوع من الاستقرار النسبي كانوا يفتقدونه منذ عهد طويلة ، وفي ظل هذا الأمن

الذى ساد في معظم عهود بني الأغلب . زادت المحاصيل الزراعية ^(١) . ولم
تعرض إفريقية للمحل والقحط إلا في عصر أبي الغرائق سنة ٢٦٠ هـ ^(٢) .

واشتدت الأزمة الاقتصادية بإفريقية نتيجة لذلك في ولاية ابراهيم بن
أحمد في سنة ٢٦٦ هـ ^(٣) . ويبدو أن أمد هذه المجاعة كان قصيرا ، بحيث لم يتم
المؤرخون بذكر شيء عنها بعد ذلك . ثم إن يعقوب الجعافى رغم زيادة
اهتمامه بالمدن على الريف أبدى دهشته لمطهر الحضرة و كثافة الأشجار في
المنطقة الممتدة ما بين قودة والساحل ، وعلى مسافة تقدر بمائة وخمسين كيلو
مقرا ، وتبدو اليوم على الرغم من تقدم حركة التشجير بسفاس منطقة شبه
صحراوية ^(٤) . ويذكر يعقوب أن أشجار الزيتون والنخيل تنمو زراعتها
في هذه السهول الرملية وعلى طول الساحل ، ففي هذه المنطقة الساحلية بساتين
وقرى متصلة ، كل منها تضم معصرة للزيت ^(٥) . وبالإضافة إلى الزيتون ،
كانت تزرع أنواع مختلفة من الفواكه . نخس منها بالذكر العنب الذى كان
يصنع منه النبيذ وهو الشراب الاثير عند الأغالية . وعلى الرغم من قيام
بعض أمراء الأغالية بمنع صناعته ومعاقبة من يتولى بيعه وشربه ، مثل
الأمير أبو عقاب الأغلب بن ابراهيم ^(٦) ، فقد كان بعضهم يدمن شرابه

(١) Marçais, la Berberie musulmane, pp. 76,77.

(٢) ابن مغازى ، ج ١ ص ١٥٢

(٣) نفس المرجع ، ص ١٥٥

(٤) اليعقوبى ، كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١ ص ٣٤٩-78. Marçais, op. cit.

(٥) Marçais, Ibid.

(٦) ابن مغازى ، ج ١ ص ١٣٩

أمثال زيادة الله الثالث^(١) ، وأبو العباس محمد بن الأُغلب^(٢).

وإلى جنوب إقليم قمودة كانت تكثر في إقليم قسطليلة من بلاد الجريد أشجار الزيتون والكروم والتخيل^(٣). أما المنطقة الواقعة إلى الشمال من قمودة فكانت مزارع للحبوب ، فكانت بلاد باجة التي امتدح الجغرافيون العرب خصبها من المدن المنتجة للقمح .

أما من حيث ثروة إفريقية المعدنية فقد اشتهرت بمجاعة بمعادنها الكثيرة، وعلى الأخص الفضة والكحل والحديد والمرك والرصاص^(٤). ويمتدح الأستاذ مارسيه أن منطقة مجاعة أصبحت منذ منتصف القرن الثاني تتمتع بنشاط اقتصادي، يبرره وجود المعادن بكثرة في أرضها^(٥). وينقلنا الحديث عن المعادن بإفريقية إلى الصناعات ، وأهم الصناعات التي ازدهرت بإفريقية في عصر الأغالبة صناعة الآلات الحديدية اللازمة لصناعة السفن ، والسيوف، والسروج ، ولحم الخيل ، وصناعة التحف المصنوعة من الذهب والفضة ، وقد أشار المؤرخون إلى كثير من هذه التحف كانت موجودة بقصور رقادة، واختبئها العامة بعد خروج زيادة الله الثالث من رقادة هاربا إلى مصر . كذلك ازدهرت صناعة الزجاج ، وكان في القيروان حيا خاصا بالزجاجيين،

(١) ابن عذاري ، ص ١٩٤ . يذكر ابن عذاري أن زيادة الله كان ينادم البايين والشار والزمارة ، وكان إذا فكر في زوال ملكه وغلبة الشيعة على أعماله يقول:

«املا» واستنى من الفرد يكمنى»

(٢) ابن عذاري ، ص ١٤٠

(٣) اليعقوبي ، ص ٢٥٠

(٤) قس المرجع ص ٢٤٩

(٥) Marçais, op. cit. p. 79.

نما يدل على شهرة القيروان في هذا النوع من الصناعات . أما صناعة الخزف فقد تأثرت بصفة خاصة بالتقاليد العراقية ، فقد ذكر الدباغ في معالم الايمان ، عند حديثه عن أبي ابراهيم أحمد (٢٤٢ - ٥٢٤٩) أنه « جلبت لهذا الأمير تلك القراميد الثينة لمجلس أراد أن يعملها ، وجلبت له من بغداد خشب الساج ليعمل له منها عيدان ، فعملها منيرا للجامع ، وجاء بالحرايب مفصلا رخاما من العراق ، عمله في جامع القيروان ، وجعل تلك القراميد في وجه المحراب عروعمل له رجل بغدادى قراميد زاداها إليها ، وزينه تلك الزينة العجيبة بالرخام والذهب والآلة الحسنة » (١) . ولاشك أن زخارف التزيينات الخزفية التي تزين جدار المحراب بجامع القيروان تبدو من طراز يختلف عن الزخارف الرخامية التي تكسو وجه المحراب ، ثم أنها تشبه مجموعة من الخزف ذي البريق المعدني ، عثر عليها في سامرا والرقعة وسوسة مما لا بدع مجالاً للشك في تأثر هذه الصناعة في للقيروان بالتقاليد العراقية (٢) .

كذلك اشتهرت إفريقية بصناعة السجاد وذلك منذ أقدم العصور ، وهي صناعة محلية لم يكن للعرب فضل في إدخالها في البلاد ، وإنما كانت معروفة منذ العصر الروماني (٣) . كذلك اشتهرت إفريقية بصناعة للنسوجات . وإلى سوسة كانت تنسب الثياب السوسية الرفيعة ذات اليباض الناصع (٤) . وكانت منسوجات دور الطراز بإفريقية مما يهادى به للخلفاء

(١) الدباغ ، معالم الايمان في ممرات أهل القيروان ، ج ٢ تونس ١٩٢٠ ، ص ٩٧

(٢) Marçais, les faïences à reflets métalliques de la grande mosquée de Kairouan, Paris, 1928

(٣) Marçais, la Berbérie, P. 81

(٤) البكري ، ص ٣٤ - الاستبصار ، ١١٩

العباسيين . ويذكر ابن عذارى أن أبا عبد الله الشيعي لما هزم جيش إبراهيم ابن حبشى قائد زيادة الله بن الأغلب ، غنم كثيرا من الأموال ، « والسلاح ، والسروج ، واللجم ، وضروب الأمتعة » ، وهى أول غنيمة أصابها الشيعي وأصحابه ، فلبسوا أثواب الحرير ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج القضة واللجم المذهبة ، ^(١) . وكان أمراء بنى الأغلب يبعثون إلى الخلفاء العباسيين كثيرا من الهدايا والطرف ، ويذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث بعث الحسن بن حاتم إلى العراق رسولا منه بهدايا وطرف ^(٢) .

أما فيما يتصل بالسكة فيعتقد الأستاذ مارسيه أن المشرفين على دارالسكة كانوا من الموالى الروم أو العبيد أو الفتيان الذين أولاهم أمراء بنى الأغلب كل ثقتهم ، ويذكر مارسيه بعض أسماء هؤلاء الفتيان منهم موسى فى عهد إبراهيم بن الأغلب ، ومسرور فى عهد زيادة الله الأول ، وخلف فى عهد أبي العباس ، وبلج وشاكر فى عهد إبراهيم الثانى ، وخطاب فى عهد زيادة الله الثالث ^(٣) . وقد ورد ذكر خطاب فى البيان ، فيذكر ابن عذارى أن زيادة الله الثالث « اشتد كلفه بقلام له يسمى خطاب ، فكتب اسمه فى سكة الدنانير والدرهم ، ثم وجد عليه ، فحبسه وقيده ، ففتت له جارية تستعطفه على خطاب :

يا أيها الملك الميمون طائره

رفقا فان يد المشوق فوق يدك

(١) ابن عذارى ، ١ ، ص ١٨٧

(٢) قس المرجع ص ١٨٠

(٣) Marçais, la Barberie, p. 83

كم ذا التجلد والأحشاء خافلة
أهيذ كفك أن تسطو على كبذك

فرضى من خطاب ، وأماده إلى منزله ، (١) .

ويطلب على الظن أن الدنانير التي كانت تصدر من دار السكة في القهروان والعباسية لم تنقص عن وزنها قط طوال العصر الاغلي ، وإن كان وزنها قد قل نسبيا في عهد زيادة الله الثالث من ٤٢٠هـ جراما إلى ١٢٤هـ جراما . أما الدرهم الفضية فقد أمر إبراهيم بن أحمد في سنة ٢٧٥هـ بضرب الدرهم المصحح ، وحرّم ما كان يعامل به من القطع المعدنية الاخرى والدرهم المتداولة في الأسواق . فأكثر العامة ذلك ، وأغلّقوا الحوانيت ، واجتمعوا في مظاهرة صاخبة ، وساروا إلى رقادة ، وصاحوا على ابراهيم يعلنون احتجاجهم ، فأمر بحبسهم في جامع رقادة . وانصل ذلك بأهل القهروان ، فخرجوا إلى الباب ، وأظهروا المدافعة ، فوجه إليهم ابراهيم ابن أحمد وزيره أبا عبد الله بن أبي اسحق ، فرموه بالحجارة وسيوه ، فانصرف إلى الأمير وأخبره بذلك ، فركب ابراهيم إلى القهروان ، ومعه حاجبه نصر بن الصمصامة في جماعة من الجند ، فناصر أهل القهروان القتال ، فتوجه الأمير إلى المصلى ، وهذا الناس ، وبعث إليه أهل القهروان فقيهم أبا جعفر أحمد بن مغيث ، فتباحث مع الأمير ، واتفق معه على إطلاق المحبوسين من جامع رقادة ، وإلغاء القطع من إفريقية ، وعلى أن ذلك هدأت نفوس أهل القهروان . ثم ضرب إبراهيم بن أحمد دنانير ودرهم سماها

العاشرة في كل دينار منها عشرة دراهم ^(١) .

ويذكر ابن الأنبار أن هذا الأمر فرض الأمن في الطرق والممالك المؤدية إلى القيروان ، فكانت القوافل التجارية والتجار يسلمون في الطرق آمنين ^(٢) ، وأصبحت القيروان على هذا النحو مركزا للطرق المؤدية إلى سائر إفريقيا والمغرب ، وتحولت هذه المدينة التي كان عقبة بن نافع قد أسسها لفرض عسكري ودينى إلى مدينة تجارية من الدرجة الأولى ، وكان لحي الأسواق الذي يشغل قلب المدينة شارع فسيح مستقيم يتجه من الشمال إلى الجنوب ، تكتنفه الحوانيت من كل من جانبيه ، يعرف بالسماط ، يحوسه المسجد الجامع ^(٣) .

وازدهرت الحياة التجارية في القيروان حاضرة بني الأغلب ازدهارا عظيما ، وكثرت في أبدي أهلها الأموال بسبب التجارة . وبصفها يعقوبى في عصر الأغلبة بقوله : « والقيروان مدينة كان عليها سور من لبن وطين ، فهدمه زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب لما ثار عليه عمران بن مجاهد ، وعبد السلام بن المقرج ومنصور الطنبزى ، فانهم ثاروا عليه بالقيروان ، وهم من الجند القدم الذين كانوا قدموا مع ابن الأشعث ، وشربهم من ماء المطر إذا كان الشتاء ، ووقعت الأمطار والسيول دخل ماء المطر من الأودية إلى برك عظام يقال لها المؤاجل ، فمنها شرب السقاة . ولهم واد يسمى وادى السراويل في قبلة المدينة يأتي فيه ماء صالح لأنه في سبتاخ

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٠ - Marçais, la Berberie, p. 83

(٢) ابن الأنبار ، ج ٦ ص ٥

(٣) Marçais, la Berberie, p. 84

للناس يستعملونه فيما يحتاجون إليه » (١) .

ويعبر الإدريسي عن رخاء أهل القيروان بقوله : « أم أمصار ، وقاعدة
أقطار ، وكانت أعظم مدن الغرب قطرا ، وأكثرها بشرا ، وأبسرها
أموالا ، وأوسعها أحوالا ، وأنقنها بناء ، وأنفسها همما ، وأربحها تجارة ،
وأكثرها جباية ، وأنفقها سلعة ، وأنماها ربعا » (٢) .

(١) اليعقوبي ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨

(٢) الإدريسي ، ص ١١٠

(٤)

سكان إفريقية في عصر الأغالبة

كان يسكن إفريقية في العصر الأعالي أخلاط بشرية مختلفة في الجنس وفي اللغة ، ويمكننا أن نميز منها خمسة عناصر هي : ١ - العرب ٢ - العجم الفرس - البربر ٤ - الروم والأفارق (عجم البلد) ٥ - النفتيان. أما العرب فينقسمون إلى فريقين : الأول وهو أكثرية سكان العرب من أعقاب العرب الفاتحين للمغرب واستوطنوا هذه البلاد ، وأصبحوا بمرور الزمن عربا أفارقة أو عربا بلديين ، ونضم إلى هذا الفريق جماعات العرب الذين وفدوا من المشرق في العصرين الأموي والعباسي واستقروا في إفريقية وأصبحوا من أهل البلاد . والفريق الثاني من العرب الوافدين على المغرب في العصر العباسي في الجيوش التي كان يبعثها الخلفاء العباسيون ، وقد استقر هؤلاء للمقام على ما يشتهون في إفريقية وكانوا يؤلفون طبقة الجند .

أما العجم فهم : الفرس الذين وفدوا من المشرق الإسلامي مع الجيوش العباسية ، ومنهم الخراسانيون ، الذين كانوا يؤلفون معظم أجناد العباسيين في إفريقية ، وهناك غير العجم الفرس عجم البلد^(١) ، وهم الروم أو الأفارقة الذين ظلوا يحتفظون بالدين المسيحي .

أما البربر فهم سواد سكان إفريقية والمغرب :

١ - العرب : كان بعضهم من أعقاب الفاتحين الذين استوطنوا أرض إفريقية ، وأصبحوا من أهل البلاد ، ومعظمهم كان يقيم في بلزمة ، وأكثر

هؤلاء العرب من قيس ، وقد قاموا في عصر الأغالة بدور كبير في كبح جماح بربر كتمانة ، ولكن ابراهيم بن أحمد أوقع بهم في سنة ٢٨٠ هـ ، واستقدم منهم نحو ما من سبعمائة من أبطالهم في القميران ، ووسع عليهم ، وبني لهم داراً كبيرة تشتمل على دور لا متفد لها غير باب واحد ، فأنزلهم بهذه الدار ، ثم أمر بقتلهم جميعاً ^(١) . كذلك كانت هناك جماعات من العرب الشاميين الذين اشتركوا في الحملات التي كان يسيرها خلفاء بني العباس إلى إفريقية . وكان عرب بني نعيم المستقرون في تونس يجمعون بامتيازات كبيرة في عصر الأغالة لا تتناسب الأغالة إليهم ، ولكن ابراهيم بن أحمد انقلب عليهم ، وأرسل إليهم في سنة ٢٨١ هـ ميمونا الحبشي فقتل جماعة منهم ^(٢) . وكان معظم عرب إفريقية جنوداً يستغرم الأمراء في أوقات الحرب ، ولكن هؤلاء الجنود كانوا كثيراً ما يعلنون ثورتهم على الأمراء والعامل في مدن إفريقية ، ويشكلون بذلك خطراً جسيماً على دولة الأغالة . وقد عانى ابراهيم بن الأغلب من ثورات جنده كثيراً ، ففي سنة ١٨٦ هـ خرج عليه حمد يس الكندي ونزع السواد ، كما ثار عليه عمران بن مجاهد ، وهدد ابن الأغلب ، ولذلك عمد ابن الأغلب إلى اصطناع العييد لحل سلاخه ، واستكثر من طبقاتهم ^(٣) .

وقد اشتد خطر الجند في عصر الأمير زبادة الله بن ابراهيم ، وكان سبب قيامهم بالثورة عليه يرجع إلى استخفافه بهم . وإمعانه في سفك دماهم لسوء ظنه بهم . وأولى ثورات الجند في عهده ثورة عمر بن معاوية القيبي

(١) ابن عذاري ، ص ١٦٤

(٢) نفس المرجع ، ج ١ ص ١٧٣

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ١٤

في القصر بن سنة ٢٠٨ هـ ، ثم ثورة منصور الطنيدى جونس في سنة ٢٠٩ هـ ، وهي الثورة التي أدت إلى تواب القواد العرب على أعمال إفريقية وامتناعهم فيها ، وثورة عامر بن نافع بسبية في سنة ٢١٠ هـ . وقد ساء مركز زيادة الله بسبب هذه الثورات إلى درجة أن الجند كتبوا إليه أن يرسل عن إفريقية^(١) ، وليس أدل على خطورة ثورة عامر بن نافع من تعليق زيادة الله عندما بلغه وفاة عامر في سنة ٢١٣ هـ بقوله : « اليوم وضعت الحرب أوزارها »^(٢) . وتجددت ثورات الجند في عهد إبراهيم بن أحمد في بلزمة ، وقد تمكن الأمير من القضاء عليها عن طريق المكر والخديعة ، وقتل نحو ٧٠٠ من كآة العرب وأبطالهم ، وقد أثار ذلك غضب عرب إفريقية على الأمير ، فثار عرب بني تميم جونس ، وعرب الجزيرة ، والأربس ، وباجة ، وقودة ، وقدموا على أنفسهم رجالا من الجند^(٣) .

٧ - العجم الفرس : يشير اليعقوبى إلى جماعات من المشاركة تضم عربا وعجبا كانت تسكن بلاد إفريقية ، ويقصد اليعقوبى بالعجم ، الفرس الذين قدموا من خراسان وفارس مع ولادة بنى العباس على إفريقية^(٤) ، وكان هؤلاء الفرس يؤلفون قسما هاما من الجند ، وكانوا يعيشون في القلاع البيزنطية القديمة بقابس والقيروان وبونة وباجة ومجانة ، أوفى القلاع القديمة باقليم نويميدا الرومانى الذى أصبح يؤلف الثغر الغربى لدولة الأغالة مثل قلاع طبة وبأغاية والأربس . وقد ساءم الخراسانيون بنصيب كبير في

(١) ابن عذارى ص ١٣٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص ١٦٤ .

(٤) يسميهم اليعقوبى « عجم من أهل خراسان » (اليعقوبى ص ٣٥٠) .

الجهاد بصقلية ، فالحلة التي نظمها زيادة الله بن ابراهيم لغزو صقلية كان معظم جنودها من الفرس الخراسانيين ، يقودهم القاضي أسد بن الفرات ، وكان خراسانيا كذلك ^(١) .

٣- البربر : كان البربر يؤلفون السواد الأعظم من سكان إفريقية ، وكان معظمهم من الإباضية المعتدلين الذين طالبوا الأمويين بالمساواة ، وحاولوا إقامة جمهورية لهم في المغرب . وقد رأينا توراتهم المتعاقبة على ولاية بني أمية وبني العباس . فلما تولى ابراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية ، أطاعته قبائل البربر . ولكن ابراهيم لم يلبث أن تعرض لتوراتهم في طرابلس معقل الإباضية الأئمة ، ويذكر ابن عذارى أنه كان له مع بربر إفريقية حروب يطول ذكرها ^(٢) . وقد حرص زيادة الله على إشراك البربر في حملته التي أعدها لغزو صقلية ، حتى يشغلهم بمقاتلة الروم عن التفكير في القيام عليه . وعلى الرغم من ذلك فقد قام بربر لوانة ومكناسة وزواغة في عهد أخيه أبي عقاب الأغلب بالثورة على الأمير في منطقة قسطنطينية ، فتمكن قائد الأغلب من هزيمتهم ، وأباد معظم تجمعاتهم ^(٣) . وفي عهد ابراهيم بن أحمد قامت في صقلية فتنة بين العرب والبربر في سنة ٨٧٨٥ ، فكتب إليهم الأمير يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة ^(٤) .

٤- الروم والافارقة : أشار اليعقوبي في سياق حديثه عن مدن إفريقية

(١) إسماعيل عباس ، العرب في صقلية ، ص ٣٤

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١١٧

(٣) قس المزجم ص ١٣٩

(٤) قس المزجم ص ١٧٥ .

إلى الروم والأفارقة الذين كانوا كالبربر من سكان البلاد من غير العرب ،
ويعني اليقوي بالروم بقايا الروم (١) أو الروم القديم (٢) ، الذين كانوا
يخدمون بيزنطة قبل الفتح العربي ، والذين لم يملعون قرطاجنة بعد أن سقطت
في أيدي المسلمين . وقد تمكن هؤلاء الروم بفضل عزلتهم من الاحتفاظ بنقاء
دمائهم ، وبأغتهم ، وبحاليدهم ، وكانوا يقيمون في القلاع البيزنطية القديمة
مثل طينة وباغاية ، وفي مدن الجريد الصغيرة التي يبدو أنها اتخذت ملاذا
لغير العرب من أهل البلاد ، كما أقام بعضهم في القيروان باعتبارها حاضرة
البلاد ، أملا في الحصول على عمل يتعشون منه . أما الأفارقة أو
الأفارق فكانوا من أهل البلاد من بقايا الفينيقيين واللاتين ، وكانوا يتكلمون
باللسان اللاتيني الإفريقي (٣) ، ويدعون بالمسيحية . وكانوا يستوطنون في
عصر الأغالة إقليم الجريد في قفصة وتوزر وقفلة وقيوس والحامة ،
كما كانت طائفة منهم تقيم في طينة عاصمة الزاب ، وفي باغاية وفي السهول
الساحلية (٤) . وكان هؤلاء الأفارقة والروم يشتغلون بزراعة الزيتون ،
ويستخرجون منه الزيوت ، وقد انبج أمراء بني الأغلب بالنسبة لهؤلاء
العجم البلديين سياسة تقوم على التسامح ، فأسند بعض الأمراء إلى
قمر من الأفارق مناصب هامة في الدولة (٥) . ويبدو أن أمراء بني الأغلب

(١) اليقوي ، ص ١٣٥

(٢) نفس المرجع

(٣) الإدريسي ص ٧٥ : يقول الإدريسي : « أهل قفصة كانوا قوما متبربرين ، وأسكنهم

يتكلم لسان اللاتيني الأمازيغي »

Marçais, la Barberie p 71 (٤)

Ibid. p. 73 (٥)

كانوا يشترطون فيمن يتولى هذه المناصب الحساسة أن يعتنق الاسلام، فابن عذارى يذكر أن ابراهيم بن أحمد عرض ديوان الخراج على سودة النصراني على أن يسلم، « فقال : ما كنت لأدع ديني على رئاسة أئامها ، فقطع بنصفين وصلب » (١) .

٥ - الفتيان والعبيد : كان الأمير ابراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد حرسا له ، فاستكثر منهم ، وجعلهم على خدمته وحراسته في مدينة القصر القديم . وكان هؤلاء العبيد إذا تقدم بهم العهد في خدمة الأمير ، يطلق عليهم اسم موالى أو فتيان (٢) . وكثيرا ما كان العبيد من النوع الأسود ، إذ كان الأمراء يشترونهم من الصحراء أو من بلاد السودان ، وكانت بلاد الجريد في عصر الأغالية مركزا هاما لهذه التجارة . وكان الأمراء يعملونهم فنون القتال ليصبحوا جندا . وقد حل هؤلاء العبيد تدريجيا محل جند العرب ، وוכל اليهم الأمراء بمهمة حراستهم والذود عنهم . كذلك اتخذ الأمراء عبيدا من الجنس الأبيض وهم المعروفون باسم الصقالبة وكانت غزوات المسلمين في صقلية وسردانية وقلورية ومالطة سببا في حمل أعداد كبيرة من أطفال هذه البلاد ، إلى إفريقية ، حيث ينشأون نشأة عسكرية ، ويعملون للعرية ، ثم تسند إليهم مناصب هامة في الدولة (٣) .

ولقد لعب الفتيان والعبيد دورا هاما في دولة الأغالية ، وسجلت أسماء بعضهم على العملات باعتبار أن القائمين بالإشراف على دار السكة منهم ،

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٦٢

(٢) Marcais, l'Architecture musulmane d'Occident, P. 6 (٢)

(٣) أحمد مختار المبادئ ، الصقالبة في اسبانيا وعلاقتهم بحركة التميمية ، مدريد ١٩٥٣

Marcais, l'Architecture musulmane d'Occident, p. 6

فهم موضع قبة الامراء في هذه الوظائف الخطيرة. كذلك سجلت اسماهم بعضهم في النقوش التاريخية على بعض المنشآت التي تمت على أيديهم ، ومن هذه الاسماء المسجلة : اسم مسرور الخادم مولد الامير زيادة الله بن ابراهيم ، وبراء منقوشا على لوحة من الرخام تعلو باب المئذنة برباط سوسة الذي أسس في سنة ٤٠٦ هـ ، واسم خلف القتي اسم يطلق على برج من أبراج سور سوسة ، ويقع في الزاوية الجنوبية الغربية من السور . ونقرأ اسم نصر وفتح الله على قبة المحراب بمجامع الزيتونة في نقش نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم مما أمر بعمله للمستعين باقده أمير المؤمنين العباسي طلب ثواب الله ، وابتغاء مرضاته ، على بدى نصر مولاه سنة تحسين ومائتين - يا أيها اللذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله - صنه فتح الله » (١).

(١) Marçais, *Idid*. ينتمى في قراءة الاستاذ ماربى المتطاع الثاني من اسم الصانع

(٥)

منشآت الأغالية في إفريقية

١ - العمارة الديلية :

١ - المسجد الجامع بالقروان

تاريخ المسجد : هو أقدم مساجد المغرب الإسلامي ، والمصدر للمبنى الأول الذي اقتبست منه العمارة المغربية الأندلسية عناصرها ، ومنه انبثقت الأفكار المعمارية والزخرفية وتطورت في العصور المختلفة . اختطه عقبة بن نافع في سنة ٥٠ هـ ، ولكنه لم يحدث فيه بناء إلى أن رُكز لواءه في القبلة ، وأصبحت قبلته جامع القيروان منذ ذلك التاريخ موضع إجلال الناس وتعظيمهم ، فلم يعمدوا أحداً من الأمراء بسوء ، في الزيادات المتتالية التي أجريت في الجامع عامة ، وفي بيت الصلاة بصفته خاصة . ولم يتغير وضع القبلة ، ولم يهدم جدار المحراب على الرغم من انحراف هذه القبلة عن الاتجاه الصحيح ، وذلك لأنها ركزت على يدى عقبة التاجم الجليل . وكان جامع حقبة فيما يظهر بناءً بسيطاً صغير المساحة ، وكانت أسقفه على الأرجح تقوم مباشرة على الأعمدة دون أن تحملها عقود على نحو ما كانت عليه أسقف جامع الكوفة ، لذلك لم يكذب يعضى على بنائه عشرون عاماً حتى هدمه حسان بن النعمان الثاني في حدود سنة ٨٤ هـ سائلاً المحراب ، ونصب في محرابه ساريتين موشاتين بصفرة كانتا في كنيسة^(١) ، ثم شيد حسان على موضعه مسجداً جديداً فيما بين عامي ٧٩ - ٨٤ هـ (٦٩٤ - ٦٩٨ م) ، احتفظ فيه بمحراب عقبة . وتم بناء مسجد حسان من الجهة الشمالية المقابلة

(١) البكري ، ص ٢٢ . ونسب ابن الأبار أنه بناء بالطوب .

للمحراب تحجبا لتغيير جدار القبلة . ويعتقد الاستاذ الدكتور أحمد فكرى فى كتابه الذى صفه عن المسجد الجامع بالقيروان أن حسان قد زاد فى عدد أروقة الجامع ، وأن بيت الصلاة الجديد كان يشتمل على أربعة أساكيب ، ولم يكن للمسجد فى ذلك الوقت محبات تطل على الصحن ، وتدور حوله ^(١) .

وفى عام ١٠٥٠ هـ (٧٢٣ م) ضاق الجامع بالمصلين ، فأمر الخليفة هشام ابن عبد الملك بشر بن صفوان ، عامله على القيروان ، (٩٠٣-٩٠٩ هـ) بزيادة المسجد ، فاشترى بشر أرضا محيطة بالجامع من شماله وضمها إليه ، وبني فى الصحن ماجلا ، وأضاف إلى بيت الصلاة ثلاثة أساكيب أخرى مد بها طول بلاطاته ، وبمكنتنا أن نشاهد حدود هذه الزيادة اليوم فى صف العقود التى تمتد بعرض بيت الصلاة فى خط مستقيم ، عند نهاية الاسكوب الساج ، ابتداء من القبلة ، مما يدل على أن بيت الصلاة كان ينتهى عند هذا الحد . ثم بنى بشر مثانة للمسجد فى منتصف جداره الشمالى داخل الصحن ، على بئر كانت تعرف ببئر الجنان ، ونصب أساسها على الماء ^(٢) . ويذكر ابن عذارى أن يزيد بن حاتم جدد بناء المسجد الجامع بالقيروان عام ١٥٧ هـ ^(٣) ، ولكننا نعتقد أن أعمال يزيد لم تكن تزيد على إصلاح وتجديد بعض زخارف الجامع . وظل المسجد على حاله بعد زيادة بشر بن صفوان إلى أن تولى زيادة الله ابن ابراهيم إمارة إفريقية ، فبدأ بهدم أجزاء كثيرة من المسجد سنة ٢٢١ هـ

(١) أحمد فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، القاهرة ١٩٢٦ م ص ٢٣

(٢) البكرى ، ص ٤٣ - فكرى ، ص ١٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٩٥

دون أن يغير كثير من نظامه أو يبدل من حدوده ^(١) . ويذكر البكري أن زيادة الله أراد هدم المحراب ، فتبيل له : إن من تقدمك توقفوا عن ذلك لما كان وادعه عقبة بن نافع ومن كان معه ، فالح في هدمه لئلا يكون في الجامع أثر لغيره ، حتى قال له بعض البناة : أنا أدخله بسين حائطين ، ولا يظهر في الجامع أثر لغيرك ، فاستصوب ذلك وفعله ، ولم يمسه بسوء ، وبنى المحراب الجديد بالرخام الأبيض ^(٢) . فحراب عقبة ما يزال يرى اليوم من خلال هذه الكسوة الرخامية المحترمة ^(٣) . ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكري أن بيت الصلاة في عهد بشر بن صفوان كان يتألف من ١٨ بلاطا . فهدم زيادة الله الرواقين التاسع والعاشر ، وأقام منهما بلاطا واحداً فسيحاً ، فأصبح للمسجد ١٧ بلاطا ، الا وسط منها أكثر ارتفاعاً واتساعاً من بقية البلاطات الأخرى ^(٤) . وعلى هذا النحو يمكن تفسير هدم زيادة الله للجامع كله بأنه هدم أسقف الجامع وأقامها من جديد بعد أن رفعها عما كانت عليه ، وبنى قبة على أسطوان المحراب ، زخارفها على نمط زخارف اللوحات الرخامية التي كساها المحراب الجديد . أما أسوار الجامع ومحراجه وأعمدته ، فظلت كما كانت عليه أيام بشر بن صفوان ^(٥) . ويبدو أن زيادة الله أتمق على هذه الأعمال المعمارية أموالاً طائلة (١٨٠ ألف مثقال) ^(٦) ،

(١) البكري ، ص ١٣ ، ٢٤

(٢) البكري ، ص ٢٣ . وذكر ابن الأبار أنه بنى جامع القيروان بالصخر والاجر والرخام بعد أن هدمه ، وبنى المحراب كله بالرخام من أسفل إلى أعلاه وهو منقوش بكتاب وغير كتاب ، ويستدير به سور حسان ، بضم المجرعة بأسود ناعمة البيضاء تدعى السواد ، ويقابل المحراب تمودان أحمران ٥٠٠ الحلة السوداء ص ١٦٣

(٣) فكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، الاسكندرية ١٩٦١ ص ٢٠٥ .

(٤) المرجع ص ٢٠٨

(٥) البكري ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٢٤ - ٢٦

(٦) البكري ، ص ٢٤

وانه زود الجامع بصورته الاخيرة التي نراها في يومنا هذا ، وهي صورة لم تتغير كثيرا من بعده : فهو الذى وضع البلاطات نظامها القريد الذى يشف عن أصالة وإشكار . ويذكر ابن عذارى أنه كان يقول « ما أبالى ما قدمت عليه يوم القيامة وفي صحيفتى أربع حسنات: بنيانى المسجد الجامع بالقيروان، وبنيانى قنطرة أبى الربع ، وبنيانى حصن مدينة سوسة ، وتوليت أحمد بن أبى محرز قاضى إفريقية » (١) .

وفي عام ٢٤٨ هـ (٨٦٢ م) تمت زيادة أبى ابراهيم أحمد بن محمد فى جامع القيروان (٢) ، ولا ندرى ما المقصود بهذه الاعمال ، وأغلب الظن أنها تمة لأعمال البناء التى شرع فيها زيادة الله (٣) ، وإن كان الأستاذ كريسيبل يؤكد أنه هو الذى زين جدار المحراب بالقرايميد الخزفية واللوحات الرخامية والنبر (٤) . ولا تولى ابراهيم بن أحمد الامارة ، زاد فى طول الجامع فى سنة ٢٦١ هـ (٨٧٥ م) ، وبنى القبة المعروفة بباب البهو على مدخل البلاط الاوسط ، وكذلك اقام ابراهيم بن أحمد المحبات التى تدور حول الصحن (٥) .

ظل المسجد على هذه الصورة دون أى تغيير جوهرى حتى أضاف اليه

(١) ابن عذارى ، ص ١٢٨

(٢) ابن عذارى ، ص ١٢٨

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، كتاب الشعب رقم ٧٨ ، ج ٢

من كتاب مساجد ومآهد ، ١٩٦٠

(٤) Creswell, a short account of early Muslim architecture,

London, 1958, p. 298

(٥) البكرى ، ص ٢٤

بنوزري واجهات الصحن ، وقد سجل تاريخ هذه الاضافات على أحد أعمدة المجنبة الغربية ، إذ نقش عليه كتابة بالخط الكوفي نصها : « هذا ما أمر بعمله خلف الله بن غازي الأثيري في رمضان من عام اثنين وأربعائه (١) . كذلك أقام المعز بن باديس المقصورة الخشبية التي ما تزال منصوبة حتى اليوم بجوار المحراب ، في سنة ٤٤١ هـ . ويرى الأستاذ مارسيه أن المسجد زود بأسقف خشبية ، وجدت زخارف أسقفه القديمة في عهد المعز بن باديس (٢) .

تخطيط الجامع : وجامع القيروان من أكبر المساجد الجامعة الباقية في الاسلام ، وأعظمها مظهرا ، إذ يبلغ طوله ١٣٦ مترا ، وعرضه ٧٧ مترا ، وطول بيت الصلاة فيه ٧٠ مترا ، وعرضه ٣٧٧٠ مترا ، وصحنه واسع فسيح طوله ٦٧ مترا وعرضه ٥٦ مترا ، ولهذا الصحن مجنبتان عرض كل منها نحو ستة أمتار وربع متر ، وتنقسم المجنبة إلى رواقين . ويشتمل بيت الصلاة على ١٧ بلاطا عموديا على جدار القبلة ، تمتد على عشرة أساكيب أو بلاطات عرضية (٣) . وبلاط المحراب وأسكوبه أوسع من بقية البلاطات والأساكيب ، ولا تعترضهما أية عقود ، فهما يؤلفان مجازين متعامدين . ونلاحظ أن تخطيط جامع القيروان يتميز بظاهرة جديدة ، فعلى بلاط المحراب أو للبلاط الاوسط قبتان : الأولى عند تقاطعه مع أسكوب المحراب أمام القبلة ، والثانية على مدخل البلاط الاوسط مما يلي الصحن . وتعرف القبة الاولى

(١) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٥

(٢) Marçais, Coupôles et plafonds de la grande mosquée de Kairouan Tunis, 1926 p. 35

(٣) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٦

بقبة المحراب ، والثانية بقبة باب البهو . وقد أثر هذا النظام الذي ابتدعه مهندسو زيادة الله على أنظمة المساجد التونسية الأخرى ، فزاه في جامع الزيتونة ، وزاه في مساجد أخرى ، كما قلده مهندسو الحكم المستنصر عند زيادتهم في المسجد الجامع بقرطبة (١) .

وتعتمد في بيت الصلاة صفوف منتظمة من العقود ، تحملها أعمدة قديمة اتخذت من الكنائس المهتمة ، وأعيد استخدامها بالجامع ، ونظرا لقصر هذه الأعمدة ، وتفاوتها في الارتفاع ، نوسل المهندسون المسلمون بوسيلتين لزيادة ارتفاع سقف المسجد ، ونسوية ارتفاع الأعمدة ، فاستعانوا بمكعبات حجرية مستطيلة أو مربعة ، محاطة من أعلى بطنوف ، ومن أدنى بقرم ، على النحو الشائع في العمارة البيزنطية ، ثم رفعوا فوق هذه الحدائر عقودا متجاوزة تشبه حدوة الفرس (٢) . وعقود مجنبات الصحن تقوم على

Lambert, l'Architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue (١)
et à Tolède, Gazette des Beaux Arts, t. XII, 1952 pp. 141 - 161 -
Lambert, les coupoules des grandes mosquées de Tunisie et de
l'Espagne au IX e et Xe siècles, t. XXII, fasc. 2, 1936 - Lambert,
les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord,
al - Andalus, vol. XIV, fasc. 2, 1949 p. 281 - Lambert, La grande
mosquée de Cordoue et l'art byzantin, dans Actes du VI congrès
d' Etudes byzantines, 1948 - 1952. pp. 331. 332

السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة اقرأ ، عدد ١٩٠ ،
أكتوبر ١٩٥٨ م ٣٤ - ٣٦

(٢) فكري ، المسجد الجامع بالنيولان م ١٦٨ - ١٧٠

أعمدة مزدوجة يلتصق كل زوج منها بركيزة ضخمة، وهذه الركائز تكسب البناء قوة وثباتاً (١) .

ومحراب الجامع جوفة في جدار القبلة يرجع تاريخها إلى أيام عقبة بن نافع ، وقد ذكرنا أن هذه الجوفة تختفي وراء لوحات مخرومة من الرخام الأبيض . ويرى الأستاذ مارسيه أن وجود هذه الجوفة أمر طبيعي لأن هذه اللوحات الرخامية تتطلب أن يكون خلفها فراغ معتم حتى تنضج نقوشها وتظهر جلية ، وأن هذا الاحتيال البسيط أدى إلى اختلاق المؤرخين لاسطورة محراب عقبة (٢) ، ويؤيده الأستاذ كريسويل في هذا الزعم ، فهو يستنكر أن تكون تلك الجوفة التي تشاهد من خلال خروم المحراب الجديد هي محراب عقبة بن نافع القديم ، ويقول إن هذه الخروم التي تبطن لوحات المحراب ، وتملؤها ، قصود منها أن تكون ستارة قائمة لتوضيح الزخرفة الرخامية المقرغة في لوحات الرخام ، ولا يعتقد الأستاذ كريسويل أن جامع عقبة كان به محراب مجوف ، فالمحاريب الجوفة في رأيه لم تظهر في الإسلام حتى زمن الوليد (٣) . وقد اعترض الأستاذ الدكتور أحمد فكرى على هذه الآراء ، وفندها جميعا ، وأدلى برأيه في ذلك واضحا لا لبس فيه ولاغموض ، معززا بالأدلة القوية والحجج والبراهين المقتنة ، وأثبت أن هذه الجوفة التي تظهر من خلال لوحات الرخام هي محراب عقبة القديم ، ونحن

(١) المرجع السابق ص ٨١

(2) Marçais, Manuel d'art musulmans, t.I, paris 1926. p. 22 -

L'architecture musulmane d'Occident, p. 11

(3) Creswell, a short account of early muslim architecture p.279

تؤيد هذا الرأي ونأخذ به للأسباب التي ذكرها الأستاذ الدكتور أحمد فكري^(١).

ويدعم جدران المسجد الشرقية والغربية من الخارج ركائز ضخمة تلتصق بالجدران ، وظيفتها ليس كما قد يتبادر إلى الذهن دعم البناء ، وتحمل الضغط الذي تمارسه عقود بيت الصلاة ، لأن هذه الركائز أقيمت في مواضع بعيدة عن تقط امتداد العقود ومراكز اندفاعها ، وإنما الغرض منها أن تدمش في مظهرها مع الدعائم البارزة التي تكتنف أبواب المسجد ، فتضفي عليه جمالا ، لأن هذه الدعائم لو تركت بمفردها لظهرت كأنها زوائد منفرة نشوء المظهر الجمالي للمسجد من الخارج^(٢).

أما المئذنة فتتوسط الجدار الشمالي للجامع ، وتتكون من ثلاثة طوابق ، تعلوها قبة مفصصة ، والطابق الأدنى مربع القاعدة ، تنحدر جدرانه إلى الداخل انحدارا طفيفا ، فيقل عرضها كلما ارتفعت مما يكسب المئذنة قوة وارتكازا وثباتا . وبنيت قاعدة هذا الطابق حتى ارتفاع ثلاثة أمتار ونصف المتر بقطع حجرية ضخمة مصقولة ، أما بقية الطابق ، فمن كتل حجرية مستطيلة الشكل تشبه قوالب الآجر . ويعلو هذا الطابق طابق آخر مربع ولكنه أصغر كثيرا من الطابق الأدنى ، ويتراجع الطابق الثالث عن الطابق الثاني ، وتزدان جدران الطابق الثاني بطاقات ثلاث مسدودة ، ومعقودة في كل وجه من أوجهه ، في حين يزدان كل وجه من أوجه الطابق الأعلى بنافذة تكتنفها طاقتان مسدودتان . ويعلو الجدار الأعلى من كل طابق

(١) فكري ، المسجد الجامع بالقبروان ، ص ٥٨ ، ٥٩ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١١٥ ، ١١٦ .

شرفات على هيئة عقود متصلة ومفرغة في وسطها . ويدور بداخل المئذنة درج ضيق ، سقفه على هيئة قبوات نصف اسطوانية ، وتتخلل جدران المئذنة فتحات تبدو ضيقة من الخارج ، ولكنها تتسع كلما قُذت في الجدران ، وخليتها إنارة الدرج ، وتعلو هذه الفتحات من خارج المئذنة عقود مخففة للضغط تشبه حدوة القرس (١) . وينسب الدكتور فكري هذه المئذنة إلى بشر بن صفوان الذي قام ببنائها في سنة ١٠٥ هـ بأمر الخليفة هشام بن عبد الملك وقد اتخذت هذه المئذنة أنموذجا للمآذن الإسلامية في المغرب والأندلس ، مثل مئذنة جامع سفاقس ، ومآذن جوامع وتلسان وأغادير والرباط والقرويين بغاس ، وقرطبة وإشبيلية ومراكش والرباط ، كما قلدت في المآذن المصرية (٢) ، مثل مئذنة مسجد الجيوشي وخريجه ، ومئذنة مسجد دير سانت كاترين بشبه جزيرة سيناء من العصر الفاطمي (٣) .

قباب الجامع : وننتقل إلى قباب الجامع ، وأولها قبة المخراب التي أقامها زيادة الله عند تقاطع البلاط الأوسط مع أسكوب المخراب المحاذي لجدار القبلة ، وهي قبة أودعها البناء كل روائع الفن المغربي من زخارف وقوش ، وهي أقدم قبة في بلاد المغرب كلها ، وعلى مثالها أقيمت قباب المخراب بمساجد المغرب والأندلس . والقبة الثانية هي قبة باب البهو التي أقامها إبراهيم بن أحمد في سنة ٥٦٦ هـ على مدخل البلاط الأوسط من جهة الصحن ، وآتم بها تنويع بلاط المخراب من جهتي القبلة والجوفية ، واستكمل

-
- (١) المرجع السابق ، ص ١١٠ - السيد عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ص ١٧٣
 (٢) السيد عبد العزيز سالم ، المآذن المغربية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها ، يولاي سنة ١٩٥٩
 (٣) السيد عبد العزيز سالم ، الآثار الإسلامية في دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة العلوم ، العدد الأول من السنة العاشرة ، يناير ١٩٦٥ ص ٦

بيت الصلاة بهذه القبة تناسقه وانزانه ، واصبح بناء قبتين على البلاط الأوسط بيت الصلاة منذ ذلك الحين قاعدة عامة اتبعتها مساجد المغرب والاندلس (١) .

ثم أقام الخليفة أبو حفص سنة ٦٩٣ هـ قبتين تعلوان مدخلى بيت الصلاة شرقا وغربا ، وهناك قبتان أخرتان : إحداهما تعلو المئذنة ، والثانية تتوج المدخل الأوسط بالمحنية الغربية ، ويذكر الأستاذ الدكتور فكرى أنه بالرغم من اختلاف مظهر هذه القباب ، فإنها تشابه جميعا في البنيان ، وتتشعب من فكرة واحدة ، فكرة خصية ، متزنة وأصيلة (٢) .

وتتكون قباب جامع القيروان من ثلاثة أجزاء : القاعدة المربعة ، والعنق الأوسط الدائرى ، والمخوذة الكروية المضلعة . وعناصر البناء في قباب الجامع تتكون من عقود وأقواس وضلوع وأعمدة ، وتتصل هذه العناصر بعضها ببعض ، وتترك فراغا بينها بزدان بقواقع زخرفية ، ومقرنصات ، وعيون ، وطاقات ، ودوائر ، ونوافذ ، وقنوات (٣) . ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن قبة المحراب أقامها زيادة الله على مثال قبة كانت قائمة بالمسجد قبل زيادة الله ، ثم جاءت قبة زيادة الله بالمحراب تطورا لها ، ويرجع

(١) Lambert, les mosquées de type andalou, p. 282

(٢) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ص ٨٩

(٣) ارجع الى وصف هذه القباب في المراجع التالية :

Marçais, Coupoles et plafonds, p. 9 et s. 99

فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ٩٠ - ٩٨

Creswell, a short account, p. 298, 299

عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٧٤ و ١٧٥

أن تكون هذه القبة القديمة هي قبة المدخل الغربي إلى الصحن وقد عزز رأيه بأدلة مقنعة توصل إليها من عمارة القبتين ^(١) .

وقد انتشر نظام قباب القيروان في المغرب والأندلس، واتخذ أنموذجا لقباب جامع الزيتونة بتونس الذي يشتمل بيت الصلاة فيه على قبتين تعلوان بلاط المحراب ، كما هو الشأن في جامع القيروان ، إحداهما قبة المحراب ، والاخرى قبة باب البهو . وعناصر قبة المحراب بجامع الزيتونة مماثلة لعناصر قبة المحراب بجامع القيروان ، كما أن عدد العقود والأعمدة والضلوع متساو في كل من القبتين . ولكننا نشهد في قبة المحراب بجامع الزيتونة تطورا للعناصر الجديدة التي ظهرت لأول مرة في جامع القيروان ، وهي الضلوع البارزة والمقرنصات ، كما نلاحظ فيها نقوشا في البناء ، وتقدما في الزخرفة . وقبة الزيتونة تعرض فكرة استقلال الضلوع البارزة عن الخوذة المقصصة في وضوح تام ، كما أنها تبشر بظهور القباب ذات الضلوع المقاطعة التي ظهرت في جامع قرطبة بعد ذلك بما يقرب من قرن من الزمان ^(٢) . ويرى الأستاذ الدكتور فكري أن فكرة تصميم قباب قرطبة تتفق مع قبة مسجد القيروان ، وانفاق هذه الفكرة في رأيه يرجع إلى وحدة تفكير

(١) فكري ، المرجع السابق ، ص ٩٦

(٢) Lambert, les coupôles des grandes mosquées de Tunisie et d'Espagne - les origines de la Croisée d'ogives, offices des Instituts d'Archéologie et d'histoire d'art, No 8 - 9. Nov. 1936 - Mars 1937, pp 131 - 146. - Ahmad Fikry, la mosquée az-Zaytouna à Tunis, (Recherches archéologiques) dans : Egyptian Society of historical Studies, vol II le Cairo 1952 , pp. 27-64.

رجال الفن المسلمين ، وارتباطهم بعوامل واحدة ، وتمثل عناصر هذه الفكرة متجمعة في قبة المحراب بجامع قرطبة ، وإن كانت تطورت كثيرا ، فتعددت الخطوط الهندسية، وزاد تجزئ. الفضاء، واتخذت العقود والاقواس والضلوع والأعمدة رسما أكثر وضوحا ، أما المقرنصات ، فبدت في مظهر زخرفي بحت ^(١) . وقد انتقل نظام التقيب القائم على تقاطع الضلوع من قرطبة إلى طليطلة ، فراه ممثلا في صور مختلفة بمسجدياب مردوم ، ومن قبايه ما يبدو رباعيا منحرفا ذا أقطار ، كأنه قبوتان من الطراز القوطي، إحداهما داخل الأخرى ، ومنها ما يبدو مثلثا ، ومنها ما يقلد تقاطع ضلوع قبة المحراب بقرطبة ، ثم انتشر هذا النوع من القباب منذ ذلك الحين انتشارا واسعا يشهد به ذلك العدد الهائل من القباب والقبوات التي نراها في الكنائس المسيحية بطليطلة ^(٢) ، والمزارق بقشتالة ، وتوريس دل ريو ، ودير موسالك ، وأولورون ، وسان بليز . ومن هذه القبوات الأخيرة استلهم الفنانون والفنسيون فكرة قبواتهم القوطية المصلبة ^(٣) .

(١) فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٠٤

Lambert, les coupôles des grandes mosquées de Tunisie (٢)
et d'Espagne-L'art de l'Islam occidental, dans Annales de
l'Université de Paris, 1953, P. 8 - Gomez-Moreno, Ars Hispaniae,
t. III. Madrid 1951

السيد عبد العزيز سالم ، أثار الفن الخلاق بقرطبة في المارة المسيحية بأسبانيا وفرنسا
المجلة ، العدد ١٤ ، القاهرة ١٩٥٨ - المساجد والتصور بالأندلس ص ٥٠ ، ٥٣ - تاريخ
المسلمين وآثارهم في الأندلس ص ٤٠٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، أثار الفن الخلاق بقرطبة ، ص ٨٨

Lambert; Les Origines de la croisée d'ogives, pp 131-146.

زخارف الجامع : يغلب طابع البساطة على بناء الجامع بوجه عام ، ويهتجلى ذلك في عقودہ المسماة بمجدراتها ، وقرمها ، وطنفها ، وتيجانها ، ولكن هذه الصورة البسيطة ما لبثت أن دخلتها بعض الحليات ، فعلا العقود صف من عقود زخرفية صغيرة في صورة رواق مصغر أو بائكة متصلة للعقود ، أو أحاط بالعقد إفريز مستطيل نقش في مربعات موضوعة على رأسها كعقد باب الميضأة ، ثم تطور المظهر الزخرفي بمرور الزمن ، وازدادت بعض عناصر الجامع بزخارف في غاية الأناقة والجمال ، كزخارف المحراب وقبته وبلاطه (١) .

وتكسو جوفة المحراب غلالة رقيقة من الرخام نقش فيها زخارف نباتية مخرمة بتصرب الضوء من بين خرومها . وتصطف هذه اللوحات الرخامية صفوفا أربعة في كل صف سبع حشوات ، عرض كل منها ١٤ سم ، ويزدان الشريط الأفقي العلوي الذي يفصل الصف العلوي من الحشوات عن السفلي بكتابة كوفية منقوشة في الرخام تقرأ فيها : [بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله أحد . الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم] (٢) . وتزدان الحشوات الرخامية بزخرفة نباتية تقوم على التوريقات ، وهندسية تكثر فيها المربعات والدوائر والخطوط المتقاطعة ، وقوام هذه الزخارف ورقة العنب في صور مختلفة ، فهي مقصوفة أو ملفوفة ، أو ممتدة ، أو منكشة ، وكثيرا ما يتفرع من السيقان للثلاثة أوراق وأزهار تملأ الفراغ أو تتفرع هذه الأوراق النباتية من ساق

(١) فكري ، المسجد الجامع بالقنيطرة ، ص ١٢٤-١٢٦

(٢) عبد العزيز سالم ، المسجد الجامع بالقنيطرة ، ص ١٢٧

متوسطة منحنية في تموجات (١) . وبعض هذه الحشوات الرخامية يزدان بزخرفة في صورة قواقع ، ولكن العدد الأكبر منها يشغله فرعان منحنيان متناسقان يتشابكان أحيانا على امتداد المحور ، وتبرز وسط هذا التشابك زهرة . وبجانب هذه الحشوات تبدو الشبكات الزخرفية التي تغطي نوافذ القبة ، وتتكون زخارفها عامة من ساق متوسطة تشبه شجرة الحياة الفارسية ، أو من فروع متموجة تتدلى منها أغصان بها أوراق للعنب وعناقيد ، وتشبه هذه الزخارف نظائرها بواجهة مسجد الأرباب الثلاثة الذي أقامه محمد بن خير بن المعافى الأندلسي بالقيروان في سنة ٢٥٢ هـ . ويكسو الجدران التي تعلو البلاط الأوسط بجامع القيروان زخرفة هندسية ونباتية تمتد إلى بنينات المقود ، وتعد من أروع أمثلة الزخرفة في عصر الأغالة .

ومنبر جامع القيروان من أجمل وأبدع أمثلة الحفر في الخشب في بلاد المغرب ، ويلبس هذا المنبر إلى أبي إبراهيم أحمد سنة ٢٤٨ هـ ، وزخارفه هندسية تقوم على الدوائر والمخطوط ، ونباتية تتمثل في أوراق العنب . وبالجامع مقصورة خشبية ، صنعت في سنة ٤٣١ هـ ، في عهد المعز بن باديس ، وأبوابها غنية بالزخرفة والكتابة (٢) .

٢ - جامع الزيتونة بتونس :

يعتبر هذا الجامع من أهم مساجد إفريقية لقدم عهده ، واجتفاظه بعناصره المعمارية والزخرفية الأولى منذ نشأته ، ثم لشهرته كجامعة علمية قديمة

(١) Marçais l'Architecture, p. 50, 51 - فكري ، المرجع السابق ص ١٣٦ -

ما زالت تدرس فيها علوم اللغة والتاريخ والفقه . وتاريخ هذا الجامع يكتنفه الغموض ، فقد أغفل المؤرخون وصفه ، يضاف إلى ذلك أنه كان مغلقا في وجه الأجانب من غير المسلمين ، فلم تقم حوله أى دراسة أثرية علمية ، وظل هذا الجامع مع أهميته مجهولا لدى مؤرخي الفن ، لا يذكرون عنه إلا إشارات تتعلق بوصف جدراننه الخارجية والأسواق المحيطة به حتى قام أستاذي الكبير الدكتور أحمد فكرى بدراسة هذا الأثر الجليل عليا بين عامي ١٩٣٢ - ١٩٤٨ ، ونشر أول أبحاثه عنه في سنة ١٩٥٢ (١) . وقد ضمنه المؤلف آراء ونظريات على جانب كبير من الأهمية أوضحت ما خفي من هذا الفن في عصر الأغالبة .

وجامع الزيتونة من بناء عبيد الله بن الحبحاب ، أسسه في عام ١١٤ هـ ، ويذكر التويرى أن أبا إبراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب أمر ببناء المسجد الجامع جونس ، وأنه شرع في البناء في سنة ٢٤٨ هـ (٨٦٣ م) ، وتوفي الأمير بعد ذلك بسنة واحدة دون أن يتم ما شرع فيه من بناء ، فأتمه أخوه زيادة الله الثاني الذي تولى الإمارة من بعده ، ولم يطل العهد بزيادة الله ، فمات بعد عام واحد وسبعة أيام من توليه الإمارة في ذى القعدة سنة ٢٥٠ هـ ، ولعل ذلك هو السبب في أن اسمي هذين الأميرين لم يسجلا في النقوش التذكارية بهذا المسجد (٢) . ويؤكد الأستاذ الدكتور فكرى أن أعمال أبي إبراهيم

(١) Fikry, la mosquée az-Zaytoûna à Tunis . وقد اعتمدت في هذا المقال على هذا البحث ، وعلى المنشال الذي نشرته في كتاب مساجد ومآسك ، ج ٢

أحد واخيه زيادة الله تمت داخل نطاق جدران المسجد القديم الذى ظل يحتفظ منذ إنشائه سنة ١١٤ هـ بمحدوده الخارجية ، واقتصرت هذه الاعمال الإنشائية على زيادة ثلاثة أساكيب فى بيت الصلاة ، وإقامة قبة أمام المحراب (١) .

وتصمت المراجع التاريخية خلال القرون الاربعة التالية عن ذكر شئ عن هذا المسجد ، ثم تعود فتروى ما ظرأ على الجامع من إصلاحات ، فيذكر الزركشى أنه شرع فى إصلاح جامع الزيتونة وتحسينه وزخرفته فى عهد الوائق ، وتمت أعمال الإصلاح فى ١٥ من شعبان سنة ٦٧٦ هـ . ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان يحيى زكريا أمر بصنع أبواب خشبية ووضع جوائز خشبية فى عرض المسجد . ويعلق الدكتور فكرى على ذلك بقوله : « إذا كانت هذه الإشارات الموجزة لا تكفى لدراسة تاريخ الجامع فإن الجامع نفسه أمداً بنصوص تاريخية هامة للقاية ، فهو يحمل تاريخه مسجلاً واضحاً لا غموض فيه » ، ويذكر أيضاً أن هذا المسجد يمتاز عن غيره بأنه يحتفظ بنقوش تاريخية ، فقد أنشئ وجدد وأصلح وأضيف إليه وزخرف فيه فى عصور مختلفة لو تركت لعلاء الآثار لتضاربت فيها أقوالهم ، ولكن ذلك كله ، بالإضافة إلى أسماء الصناع الذين تولوا عمله ، مسجل فى نقوش هذا الجامع (٢) ، مثل ذلك أننا نقرأ تاريخ بنائه مسجلاً فى قبة المحراب ، ونصه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، مما أمر بعمله الإمام المستعين أمير المؤمنين العباسى ، طلب نواب الله وابتغاء مرضاته ، على يدى

(١) فكرى مساجد القاهرة ومدارسها ص ٢٥٥ ، ٢٥٦

(٢) نفس المرجع ، ص ٢٥٥

نصير مولاه سنة محسين ومائتين . يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين
بالفسط شهداء لله . صنعه فتح الله) ، وبفضل هذه النقوش التي نراها أيضا
في واجهة الصحن القديمة ، وفي قبة البهو ^(١) ، وعلى الباب الشرقي النافذ من
صحن الجنائز ، عرف تاريخ المسجد .

والمسجد مربع في غير انتظام ، يغطي مساحة من الأرض طولها ٧٦ مترا
وعرضها ٦١ مترا ، ويبلغ طول جدار المحراب ٦١ مترا ، والجدار الشرقي
٦٥ مترا والغربي ٧٦ مترا ، والشالي ٥٧ مترا ^(٢) . وبيت الصلاة في هذا
المسجد يشتمل على سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة ، طول كل منها ١ ٥٤
مترا ، وتخترقها ١٥ بلاطة ، طول الواحدة منها ٢٥ مترا تقريبا ، ومتوسط عرض
كل من الأساكيب والبلاطات فيها بين الاعمدة ثلاثة أمتار ، عدا أسكوب المحراب ،
فعرضه ٣٠٠ مترا ، وبلاط المحراب عرضه ٨٠٠ مترا ^(٣) . وعقود المسجد تتجه
التجاهين في آن واحد : عموديه على جدار القبلة ، وموازيه لهذا الجدار .
والمعقود لا تتركز على جدران الجامع ، بل تظهر مستقلة عن هذه الجدران
وترتكز على أعمدة . هذه المعقود تشبه حدوة الفرس ، ولا تختلف في
شيء عن عقود جامع القيروان ، وتقوم على حدائر ، بأعلاها قزم وبأدناها

(١) جد هذا النقش التاريخي مسجلا في قبة البهو ، وقد سقطت من التاريخ الكلمة التي
تبين العدد العشري ، وعلى رقم الأحاد ورقم المئات (احدى ٠٠٠ وثمانمائة) ، ولكن هذا
النقش نفسه نراه مسجلا على تاج سارية من سوارى هذه القبة ونقرأ فيه [كان ابتداء العمل
في الجنبات والداموس والتبة في شهر ربيع الاول من سنة ثمانين وثلثمائة وتم جيع ذلك من
شهر جمادى الاول سنة خمس وثمانين وثلثمائة]

(٢) تسمى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٠٨

(٣) Fikry, la Mosquée Az-zaytûna, p. 31 - مساجد القاهرة ومدارسها ،

طنف من الحجارة . وتزدان حدائر جامع الزيتون^١ بزخارف نباتية محفورة في كتلة الحجر ، في حين تركت عاربة من الزخرفة في جامع القديوان . وتزدوج هذه الحدائر في أسكوب المحراب بجامع الزيتون لدعم الأعمدة وتركيز الضغط على كتلة واحدة بدلا من تشتيته وبعبثته .

وأعمدة بيت الصلاة وتيجانها متنوعة، جلبت من آثار رومانية وبيزنطية ، وأعيد استعمالها في الجامع ، ومع ذلك فإننا نجد في جامع الزيتون تيجانا إسلامية ترجع إلى القرن الحادى عشر الميلادى ، وتظهر في قبب هذا المسجد ملتصقة بالدعام ، وتفتح فيها وريقات الاكنثس على أكثر من صنف^(١) .

وجدران الجامع مبنية جميعا بالحجر الجيرى المصقول ، ويبلغ ارتفاعها ما يقرب من تسعة أمتار ، وسمكها ١٥٢٠ مترا ، وليس بها من الخارج ركائز كما هو الحال في جامع القديوان . وصحن الجامع مربع غير منتظم الاضلاع ، تحيط به مجنات من جهاته الأربع ، وترتفع في ركنه الشمالى الغربى مئذنة أقيمت في عام ٧١٢ هـ على أنقاض المئذنة القديمة .

ولمسجد الزيتون قبتان : واحدة أمام المحراب ، والثانية على مدخل البلاط الأوسط مما يلى للصحن . وتتكء قبة المحراب بجامع الزيتون على ٣٢ عمودا كما هو الحال في قبة جامع القديوان ، وتتخلل هذه الأعمدة طاقات مفتوحة ومغلقة متعاقبة في المحيط الدائرى لعنق القبة . أما الطابق الأدنى ، وهو الذى يؤلف قاعدة القبة ، فمربع تقوم على أركانه مقرنصات أربعة معقودة ، على كل مقرنص منها عقدان متراجعان في هيئة قواقع ، تتشعب فصوص جوفاتها

من أركان القاعدة . وتتركز عقود المقرنصات على أعمدة ، ويتوسط أعلى كل جانب من جوانب القاعدة المربعة للقبّة عقد آخر يضم قوقعة على شكل زهرة . وهذا التقسيم الداخلى إلى ثلاثة طوابق يتفق مع التقسيم الخارجى ، فالطابق الأدنى مربع طول ضلعه نحو $6 \frac{1}{2}$ مترا ، وبكل من الوجهين الشمالى والجنوبى من هذا الطابق بقية المحراب ثلاث طاقات . وتختلف عقود طاقات قبة الزيتون عن عقود طاقات قبة القيروان فى أنها تتألف من أربعة صفوف مستنجة متراكبة فى تراجع . أما الطابق الثانى فشبه دائرى ، وبقابل الطاقات العشر بالداخل عشر دعائم موزعة بين النوافذ (١) .

أما قبة البهو التى أقيمت فى سنة ١٣٨١ هـ ، مبنى بحق أرواح القباب التونسية جميعا ، لتتأسق تخطيطها ، ودقة تفاصيلها المعمارية ، وتوافق نسبها ، وثرها زخارفها . وعناصر هذه القبّة من الداخل كعنصر قبة المحراب ، ولكنها تبدو مستقلة واضحة . وقد سجل تاريخ بناء قبة المحراب تحت القبّة ، كما سجل اسم صانعها فتح الله ، وقد أخطأ الأستاذ مارسيه فى إسمه ، ويبدو أنه نقل هذا النص التاريخى ناقصا ، فلم ينقل من اسم الصانع سوى مقطعه الأول فتح (٢) ، وظن أنه من الفتيان الصقالبة وأنه سام فى بناء القبّة . وقد اعترض الدكتور أحمد فكري على هذا الاعتقاد ، وأثبت بصورة لا تدع مجالاً للشك وجود طائفة من كبار المهندسين والعرفاء المسلمين فى بلاد تونس منذ طليعة القرن التاسع الميلادى ، تخصصوا فى فن بناء القباب ، وبرعوا فيه وحذقوه (٣) .

Fikry, Ibid. p. 46 - 52 (١)

Marçais, l'Architecture, p. 7 (٢)

Fikry, op. cit. p. 56 (٣)

ويتميز جامع الزيتونة بظهور عنصر زخرفي جليل يقوم على تناوب اللونين الأبيض والرمادي في كتل الحجارة التي تؤلف سنج العقود أو مدايك البناء داخل قبة المحراب . وقد ظهرت هذه الزخرفة أول ما ظهرت في قبة المحراب من الداخل ، ثم انبعت في زخرفة عقود قبة البهو ، وفاضت في داخلها وخارجها ، وغمرت كل بنائها ، فغطت العقود ، وامتدت إلى المصدران نفسها ، والطرر التي تحيط بالعقود . وازدانت دعام الطابق الثاني من القبة بمربعات ملونة قائمة على رؤوسها . وقد تحول اللون الرمادي خارج القبة إلى اللون الأحمر ، وهكذا اكتسبت هاتان القبتان مظهرًا زخرفيًا رائعًا انفردتا به من بين قباب الإسلام جميعا (١) .

ومن المحتمل أن يكون مهندس جامع الزيتونة قد استلهم فكرة تناوب اللونين من عقود جامع قرطبة التي تتناوب فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر ، فيحدث من ذلك نوع من الزخرفة المعمارية البسيطة . وظهر هذا النوع من الزخرفة في أبواب الجامع على هيئة تزيينات شطرنجية . ولا نستبعد انتقال هذه الفكرة إلى جامع الزيتونة عام ٢٥٠ هـ ، وتطبيقها على الحجارة الملونة . فقد أخذ جامع قرطبة من القيروان كثيرا من عناصره ، مما يثبت وجود مجال للتأثيرات المتبادلة (٢) .

ويزدان صفا عقود بلاط المحراب من الداخل بثلاثة عناصر زخرفية مرتبة في محور رأسي واحد ، فهناك حشوة عليها زخرفة محفورة في الجص تشغل موضع التقاء منبثق كل عقدتين ، ابتداء من قوس المدارة حتى نقطة

(١) Fikry, op. cit. p. 58

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، جامع الزيتونة بتونس ، ص ١٦٧

انطلاق الشريط البارز المحيط بالعقد . وتعلو هذه الحشوة حشوة أخرى مربعة ، قائمة على رأسها ، وتشغل هذه الحشوة بنقش كل عقد . أما للطابق الأعلى فتشغله حشوة ثالثة مستطيلة الشكل ، أكبر من الحشوتين السابقتين محفورة في الجدار الذى يعلو العقد ، وتقع على محور الحشوتين السابقتين . وللأسف ضاع كثير من هذه الحشوات ، وحل محلها حشوات أخرى في القرن السابع عشر للميلاد . ومعظم ما تبقى من هذه الحشوات ، يقتصر على الحشوات العليا ، وتتكون زخارفها من تكوينات تذكرنا بزخارف الرخام بحفرة المهراب ، فهي تتألف من إطار مستطيل يضم جوفة على هيئة قوقعة ، يحيط بها عقد مزدوج متجاوز ، يقوم على كل من منبته على عمودين صغيرين توأمين . والجزء الأدنى من الجوفة يزخر بزخارف كثيفة كداسل فيها السيقان والتوريبقات . وتتماز زخارف هذه الحشوات بأنها حفرت حفرا غائرا يظهر مسطحات الزخارف واضحة نتيجة للتباين الشديد بين الظلمة والضوء ، وقد شاهدة بعض أمثلة لهذا النوع في قباب القديوان ، ولكنها في الزينة أكثر رقة ومرونة ^(١) .

وبجامع الزينة منير يرجع تاريخه إلى عام ٧٥٠ هـ يشبه إلى حد كبير منير جامع القديوان ، ولكنه أصغر منه حجبا ولم يبق من حشواته التي كانت تؤلف كنفه سوى ٧٧ حشوة مستطيلة الشكل في كل من السكتين . ولا توجد من بين هذه الحشوات واحدة تماثل الأخرى في الزخرفة . وتزدان هذه الحشوات بزخارف هندسية ، محفورة حفرا غائرا مفرغا ، من مربعات ودوائر ومعينات ، وزخارف نباتية من زهرات متكررة ذات أربع ورقات

نخفض للأسلوب الهندسي ، فنتحول إلى زخرفة هندسية لا تذكرنا بأصلها النباتي إلا عروق وقنوات تخترق خطوطها المنتظمة ، ويحيط بهذه المحتويات طرز من زخارف نباتية قوامها سيقان تملؤها التوريقات ^(١) .

٣ - المسجد الجامع بسوسة:

اتخذ الأغلبية من سوسة ميناة لعاصمتهم القيروان ، يركبون منها السفن للجهاد في صقلية ، ولذلك حظيت باهتمام أمرائهم ، فزودوها بأسوار قوية ، وأقاموا بها الرباط المشهور ، ومسجدا يعرف بأبي فتاة ، فيما بين ٧٢٣ ، ٧٢٦ هـ ، والمسجد الجامع بسوسة في سنة ٧٣٦ هـ .

أقيم جامع سوسة في عهد الأمير أبي العباس محمد بن الأغلب ، في الطرف الشمالي الشرقي من المدينة ، قريبا من باب البحر ^(٢) ، وقد سجل تاريخ بنائه على إفريز من الكتابة الكوفية الرائعة منقوشة على الحجر حول الصحن ، ويتضمن النقش آيات قرآنية ، وتاريخ بناء المسجد ، ولكن هذا الإفريز الحجري تهدم ما يقرب من نصفه في سنة ١٩٤٤ . وقد سام الأستاذ الدكتور أحمد فكرى في إعادة تركيبه على حالته الأولى ، إلا أن الجزء الذى كان يمتد منه على واجهة بيت الصلاة ، فقد بعض حروفه وكلماته ، ولذلك فإن النص التاريخي لهذا المسجد غير كامل ، ونقرأ فيه [مما أمر به ... محمد الأ... ست وثلاثون ومائتين في المسجد ...] ^(٣) .

(١) Ibid. pp. 60 - 63

(٢) Creswell, a short account, p. 269

(٣) فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٠

وعلى الرغم من الزبادات التي أضيفت إلى المسجد في العصور التالية مثل
المنبجة التي أضيفت لصق واجهة بيت الصلاة سنة ١٠٨٦ هـ ^(١) ، وما طرأ
على جدار القبلة الأعلى من تغييرات نتيجة لآضافة ثلاثة أساكيب قبلية ،
فانه يمكننا بوضوح تحديد المسجد بصورته التي بنى عليها ، وحدوده
القديمة ، ولا يهتنا بطبيعة الحال من بناء جامع سوسة إلا هذا الجزء القديم
الذي بنى في عصر الأغالبة .

كان هذا المسجد على شكل مستطيل طوله ٥٢ مترا ، وعرضه ٤٤ مترا ،
وكانت مساحة الصحن فيه تبلغ ٤١ × ٢٧ مترا مربعا ، وطول بيت الصلاة
٤٩ مترا ، وعرضه نحو عشرة أمتار . ويفتح بيت الصلاة على الصحن بواجهة
من ١١ عقدا ، ويشتمل هذا البيت على ١٣ بلاطة ممتدة على ثلاثة أساكيب
يفصلها فيما بينها دعائم ضخمة مصلية الشكل عددها في كل أسكوب ١٢ دعامة ،
وتحمل هذه الدعائم عقودا نصف دائرية مرتفعة موازية لجدار القبلة ، وأخرى
متجاوزة ومنخفضة عمودية على هذا الجدار ، أى أن كل دعامة تحمل
أطراف أربعة عقود . ونلاحظ أن بلاطة المحراب يزيد اتساعها عن
البلاطات الأخرى ، فبينما يصل اتساع البلاطة الجانبية ٣ أمتار تقريبا ، يبلغ
اتساع البلاط الأوسط ٣٠ مترا ^(٢) . ويمتد البلاطان الشرقي والغربي
المطرفان في بيت الصلاة شمالا بامتداد الصحن ، فيشكلان مجنبتين شرقيتين
وغربيين ، تطل كل منهما على الصحن بستة عقود ، وتصلبهما من طرفيهما
الشمالى مجنبة شمالية بامتدادها تتكون من ١١ عقدا . أما المنبجة الرابعة القبلية ،

(١) Margais, l'Architecture musulmane, p.24 - فكرى ، المرجع السابق ص ٢٥٠

(٢) فكرى ، مساجد القاهرة ص ٢٥٢

فقد أضيفت كما ذكرت في سنة ١٠٨٦ هـ . وكان يعلو المئذيات الاغلبية الثلاثة قبوات نصف أسطوانية متصلة فيما بينها . ونلاحظ أن العقود المتجاوزة التي تدور بالصحن يزيد ارتفاعها مرتين عن ارتفاع الدعائم التي تحملها ، ويعلو العقود جدار يزدان بالافريز الكتابي الذي أشرنا إليه ^(١) . ويشغل الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن درج يصعد إلى جوسق مئمن الشكل ينتهي بقبة ، ويقوم هذا الجوسق على برج أسطوانى الشكل يبرز عن الجدارين الخارجيين الشرقي والشمالي للجامع . ويعتقد الأستاذ كريسويل أن بناء هذا الجوسق أحدث عهدا من بناء البرج ^(٢) .

وسقف المسجد قبوات نصف أسطوانية تغطي بلاطانه ، وتقوم هذه القبوات على العقود نصف الدائرية التي ذكرناها قبل ذلك ^(٣) . ويعلو الأسطوان المواجه للدرج قبة نصف كروية عتقها من الخارج مئمن الشكل ، ضلوعه مقعرة ، وتفصلها زعانف مفصصة ، ويقوم هذا العتق على قاعدة مربعة تعلوها زخرفة من أسنان بارزة . والقبة من الداخل تقوم على جوفات مقوسة في الأركان .

٤ - مسجد أبى فتالة بسوسة :

يقع هذا المسجد قريبا من باب سوسة الجنوبي ، وهو مسجد صغير تبلغ مساحته الخارجية ١٣ × ١٠ م^٢ ، ويعتقد الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أن صحن هذا للمسجد كان يحيط به من الشرق والغرب والشمال ، على غير

Marçais, l'architecture musulmane, p. 24 (١)

Creswell, a short account, p. 272 (٢)

Marçais, op. cit. p. 24 (٣)

النظام الذى تبدو عليه الجدران التى تحيط به حاليا من الشرق ومن الشمال ، ذلك لأن الكتابة الكوفية المسجلة على الحجارة فى الإطار الذى يعلو جدار الواجهة الشمالية للمسجد ، كانت تمتد على الواجهة الغربية للجامع ، إذ ما تزال بعض آثارها ظاهرة على هذه الواجهة . ونقرأ فى بقايا النقش الكتابى الذى كان يعلو واجهات الجامع عبارة (ابن إبراهيم الأغلب) ، وتشير هذه العبارة إلى الأمير أبى عقاب الأغلب بن إبراهيم الذى ولّى إمارة إفريقية بعد وفاة زيادة الله فى سنة ٢٢٣ هـ ^(١) . ولم يبق من هذا المسجد سوى بيت الصلاة ، ورواق يمتد أمامه كان يطل على الصحن ، وأعله كان صحنًا للجناز ^(٢) . وبيت الصلاة مربع الشكل طول كل ضلع ينقص قليلا عن ٨ مقرا ، ويشتمل على ثلاثة بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وتنقسم هذه البلاطات إلى ثلاثة أساكيب تمتد بجذاه هذا الجدار ، بحيث يضم بيت الصلاة تسعة أساطين مربعة الشكل ، يبلغ طول كل جانب منها ٢ ½ مقرا تقريبا ، وترتكز عقودها على أربعة دعائم مصلبة الشكل . والمسجد على هذا النحو يشبه من حيث التخطيط مسجد صغير بطليطة يعرف باسم باب مردوم ، أسسه أحمد بن حديدى القاضى ، فى سنة ٣٩٠ هـ ^(٣) ، كما يشبه من حيث النظام الداخلى للبناء المسجد الجامع بسوسة الذى أقيم فى سنة ٢٣٦ هـ ، إذ أن سقف مسجد أبى فتاة على شكل قبوات نصف أسطوانية تقوم على عقود

(١) فكرى ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٤

(٢) نفس المرجع ص ٢٥٤

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالأندلس ص ٥٠ — ٥٣ ، مسجد المدججين

بطليطة ، مقال مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، ١٩٥٨

نصف دائرية مطولة ، بينما تفصل الاساكيب الثلاثة عقود منخفضة نصف
دائرية متجاوزة (١) .

٥ - مساجد أخرى خاصة :

وإلى جانب المساجد التي ذكرناها ، أقيمت في إفريقية مساجد أخرى
على نفقة بعض الأشخاص الصالحين ، كمثل من الأعمال الخيرية ، منها
المسجد الذي أنشأه محمد بن خيرون المافري الأندلسي بالقيروان ، في سنة
٨٢٥٢ ، ويعرف هذا المسجد بذي الأبواب الثلاثة ، وقد اكتسب هذه التسمية
بسبب واجهته الشمالية ذات العقود الثلاثة المتجاوزة لنصف الدائرة ، وتمتاز
هذه الواجهة بكسوتها الزخرفية الرائعة (٢) .

ومنها المسجد الجامع بسفاقس الذي بناه علي بن سالم الجبنياني ، أحد
تلامذة الفقيه الصالح أبي سعيد سحنون بن سعيد الملقب بسراج القيروان (٣) ،
وذلك في سنة ١٢٣٥ هـ . وتقوم مؤذنة هذا الجامع في منتصف الواجهة
الشمالية على نحو مؤذنة جامع القيروان . وبشبه جامع سفاقس المذكور
جامع القيروان من حيث عناصره المعمارية (٤) .

ثانيا - العمارة الحربية :

اهتم أمراء بني الأغلب بتحصين مدن إفريقية ، فيذكر ابن خلدون أن
أبو إبراهيم أحمد بن إفريقية ونحوها من عشرة آلاف حصن بالحجارة

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 24

(٢) Ibid. pp. 25, 47

(٣) لالكس ، رياض النور ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٩٠

(٤) Marçais op. cit. p. 25

والكلس وأبواب الحديد^(١) . وتتضمن هذه الرواية مبالغة واضحة ، ولكن النص على أى حال يكشف لنا اهتمام هذا الأمير بتحصين البلاد . وقد يكون المقصود ببناء هذه الحصون ترميم سلسلة التحصينات التي كان قد أقامها البيزنطيون على عجلة على تخوم الصحراء إبداء من طرابلس شرقا حتى نوميديا غربا ، وكانت هذه التحصينات تشتمل على قلاع وأبراج تكاد تكون متصلة ، ومن هذه القلاع قلعة جلولا الواقعة على بعد نحو ٣٠ كم إلى الشمال الغربي من القيروان ، وقلعة القصرين التي لعبت دورا هاما على الحدود الغربية لدولة الأغالة^(٢) ، وقلعة بلزمة التي افتتحها أبو عبد الله الشيعي وخرها ، وقد ذكر البكري أنها قصر قديم البناء ، ومنها قلعة باغاية التي ظلت قائمة حتى هدمها أبو عبد الله الشيعي . ومن قلاع إفريقية في عصر الأغالة قلعة طينة التي بناها أحد الولاة العرب^(٣) ، وقصبة مقرة التي شاهد اليعقوبي حصونها الكثيرة^(٤) . وكانت معظم بلاد قسطنطينية محصنة بالقلاع المنيع . ولقد عني الأغالة بتحصين السواحل ، خوفا من ظروف الروم لها ، وأعظم أمراء الأغالة الذين تهملوا بالابنية الحربية الأمير ابراهيم بن أحمد الذي بنى الحصون والمخارس على سواحل البحر ، حتى كانت النار توقد في ساحل سبته ، للذير بالعدو ، فيتصل إيقادها بالاسكندرية في الليلة الواحدة^(٥) ، ولعل المقصود بالمخارس الارتبطة . وقد أشار اليعقوبي

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٦٦

(٢) Marçais, op. cit. p. 29

(٣) Idid .

(٤) اليعقوبي ، ص ٣٥١

(٥) ابن الأثير ، ج ٦ ، ص ٥ - ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٤٣٤

كتابه البلدان انه من اسفاقس إلى بئرت ثمانية أيام ، وفي جميع المراحل حصون متقاربة ينزلها العباد والمرابطون ^(١) .

وإلى أبي ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب ينسب بناء أسوار سوسة ^(٢) ، وإن كان ابن الأثير وابن خلدون ينسبونها خطأ إلى إبراهيم بن أحمد ^(٣) ، لأن سور مدينة سوسة يحمل تاريخ الانشاء سنة ٢٤٥ هـ وهو يتفق مع عصر أبي ابراهيم أحمد بن محمد .

وأم للمنشآت الحربية في عصر الأغالة الآثار التالية :

١ - رباط سوسة :

كان الخوف من غارات الروم على السواحل التونسية ، من جهة ، والاستعداد الدائم للجهاد ضد الروم في صقلية حافزا على عناية الأغالة بتحصين هذه السواحل ، وذلك باقامة المحارس والأربطة ، وقد لعبت الأربطة دورا هاما في الحياة الدينية والحربية ببلاد إفريقية . وكان الرباط يزود عادة بمئذنة فوقه النار ليلا للتنذير باقتراب سفن العدو ، وعن طريق هذه الإشارة تستعد المحارس والأربطة المجاورة ، للاقافة العدو بحرا وبراء ، ولذلك كثر عدد الأربطة على السواحل التونسية .

ورباط سوسة المعروف بقصر الرباط من أهم الأربطة التي أقيمت في عصر الأغالة ، وقد وصلت إلينا عمارته في حالة جيدة . وهو من بناء الأمير

(١) الطوقى ، ص ٣٥٠

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٢

(٣) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٥ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤٣٤

زيادة الله بن الأغلب ، أسسه في سنة ٢٠٩ هـ ، وتاريخ الإنشاء مسجل على لوحة من الرخام بأعلى مدخل المنار^(١) ، نقرأ عليها النص التالي : (مما أمر به الأمير زيادة الله بن إبراهيم أطال الله بقاءه على يدى مسرور الخادم مولاه في سنة ست ومائتين اللهم أنزلنا منزلا مباركا وأنت خير المازلين) . ويقع رباط سوسة على خليج قابس ، بداخل أسوار مدينة سوسة ، في القسم الأدنى من المدينة ، ولقد بنى قبل إنشاء أسوار سوسة بنحو ٣٩ سنة . ويشتمل الرباط على سور مربع للشكل طول ضلعه ٣٩ مترا تقريبا ، مزود عند أركانه ومتتصف أسواره بأبراج معظمها نصف أسطوانية ، (ست منها نصف أسطوانية ، أما البرج الواقع في الركن الجنوبي الغربي فمربع الشكل ، يقوم عليه منار أسطوانى الشكل ، ينتهى من أعلاه بجوسق تعلوه قبة) ، ويكتنف المدخل بناء مربع الشكل يعلوه فوق السور قبة .

وتزدان الأسوار والأبراج في أعلاها بطراز ممتد من العقود الصغيرة المتصلة ، وتنتهى الأسوار من أعلى بشرفات مستديرة الرؤوس .

ومدخل الرباط بارز ، يتوسط الواجهة القبلىة ، ويصل المرء إلى داخل الرباط عن طريق درج هابط ، يؤدى إلى باب معتب مفتوح في هذا السور القبلى ، فإذا ما اجتاز المرء هذا الباب ، وجد نفسه في ممر ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول أسطوان تعلوه قبة متعارضة ، ويكتنفه على كل من الجانبين أسطوان قبوته نصف أسطوانية . أما القسمان الآخران فتعلوهما قبتان نصف أسطوانيتين ، ويؤدى هذا الممر شمالا إلى ضحن الرباط .

والصحن مستطيل الشكل ، طوله من الشرق إلى الغرب ٢٠.٩٠ مترا ، وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٩.٢٠ مترا . ويحيط بالصحن من جهاته الشمالية والشرقية والغربية أروقة تطل عليه بيوتك ، عقودها قائمة على دعائم . ووراء هذه البيوتك غرف لا نوافذ لها ، سقفها قبوات نصف أسطوانية ، وبترأوح اتساع الغرفة الواحدة ما بين ٣.٥٠ مترا ، ٣.٦٠ مترا ، باستثناء غرف الجانب الشرقي التي لا يزيد اتساع الواحدة منها على ثلاثة أمتار . ويعلو هذا الطابق من الغرف طابق ثان مشابه للطابق الأرضي ولا يختلف عنه إلا في أن مجنبات الصحن حل محلها سطح ارتفاعه من مستوى سطح أرض الصحن نحو ٥.٣٠ مترا ^(١) . ويشغل الجانب الجنوبي من هذا الطابق مسجد صغير طوله من الداخل ٣٩ مترا ، وعرضه ٧ أمتار . ويتألف هذا للمسجد من ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة تمتد على أسكوبين . ونلاحظ أن البلاطتين المنطرفتين أكثر اتساعا من بقية البلاطات . وتوسط المحراب جدار السور الجنوبي للرباط ، وترتفع أمام المحراب قبة ، تبدو من الخارج بارزة ^(٢) . وللمسجد خمسة أبواب مفتوحة في الجدار للمواجه لجدار القبلة : اثنان عن يمين الشخص المواجه للمحراب ، وثلاثة عن يساره ، ولم يفتح في هذا الجدار باب يواجه المحراب ^(٣) . أما المنار فأسطوانية الشكل ، قمره نحو ٤.٧٢ مترا ، وارتفاعه فوق مستوى سطح ممشى السور ١٥.٣٨ مترا ^(٤) .

(١) Creswell, a short account of early Muslim architecture, p. 231

(٢) Margais, l'architecture, p. 31

(٣) مكري ، مساجد القاهرة ومدارسها ، ص ٢٥٣

(٤) Creswell, op. cit. p. 232

٢ - رباط المنستير :

كانت المنستير ميناء يقع بين سوسة والمهدية ، وكانت في الأصل رباطاً أو قصرًا رباط. فيه للمسجون لحماية ثغور إفريقية من الغارات البحرية التي كان يقوم بها الروم . بناه هرثة بن أعين وإلى إفريقية من قبل الرشيد في سنة ١٨٠ هـ ^(١) . ومنذ تأسس هذا القصر انتجعه الناس وبنوا بيوتهم حوله حتى أصبح قصر المنستير مدينة عامرة كثيرة السكان . وقد وصف البكري هذا الرباط أو القصر بقوله : « وبالمنستير البيوت والحجر والطواحين وموажل الماء ، وهو حصن على البناء ، متقن العمل ، وفي الطبقة الثانية منه مسجد لا يخلو من شيخ خير فاضل يكون مدار القوم عليه ، وفيه جماعة من الصالحين والمرابطين ، قد حبسوا أنفسهم فيه منفردين دون الأهل والعشائر . وهو قصر كبير عال ، داخله رياض واسع ، وفي وسط الرياض حصن ثان كبير ، كثير المساكن والمساجد والقصاب العالية . طبقات بعضها فوق بعض ، وفي القبلة صحن فسيح ، فيه قباب عالية متقنة ، يزل حولها النساء المرباطات وله في يوم عاشوراء موسم عظيم وجمع كبير ، وكان أهل القيروان يخرجون إليهم بالأموال والصدقات الجزلة . ويقرب المنستير محارس خمسة متقنة البناء ، معمورة بالصالحين » ^(٢) .

من هذا الوصف يتضح لنا أن هذا الرباط أضيف إليه في العصور التالية إضافات كثيرة عقدت تحيطه الأصلي ، وغيرت معالمه ، ومع ذلك فانه

(١) ابن عذاري ج ١ ص ١١٠ - ابن الأثير ج ٥ ص ٩٦ - ابن خلدون ج ٤ ص ٤١٧ -

ابن الخطيب ، ص ١١

(٢) البكري ، ص ٣٦ - ابن الخطيب ، ص ١١ ، حاشية رقم ٢

يمكننا أن نتعرف على العناصر الأساسية لهذا الرباط . كان السور محاطا بأبراج مستديرة أو كثيرة الأضلاع ، ويحيط بالصحن الفسيح من جهاته الثلاثة الشمالية والغربية والشرقية طابقان أو ثلاثة من الغرف التي لا تتقدمها بوائك تطل على الصحن على نحو النظام المتبع في رباط سوسة . ويرتفع في الركن الجنوبي للشرقي برج أسطوانى الشكل ، يشبه نظيره في رباط سوسة . ويشغل الجانب القبلى بالطابقين الأدنى والأعلى مسجدان ، الأدنى منها بسيط في تخطيطه ، إذ يتكون من ثلاث بلاطات وأسكوبين . أما العلوى فيشتمل على تسع بلاطات وأسكوبين . وتقوم العقود التي تتكوى عليها اللقبوات نصف الأسطوانية ، والعقود الأخرى المنخفضة التي تفصل بين البلاطات على دعام مطولة ^(١) .

٣ - سور سوسة :

يذكر المؤرخون أن الأمير أبو ابراهيم أحمد بن محمد بن الأغلب بنى سور سوسة في سنة ٣٤٥ هـ ^(٢) ، ويؤكد هذا التاريخ النقش المسجل على السور القبلى من أسوار سوسة . وأسوار سوسة مبنية من الحجر المعقول ، ويعلوها جدار مشرف الذروة لحاية ممشى السور . ويدعم الأسوار من الخارج أبراج ضخمة تتجاوز في ارتفاعها مستوى ممشى السور بنحو أربعة أمتار : وفي الزاوية الجنوبية الغربية من أسوار سوسة ، وهى أكثر مناطق سوسة ارتفاعا ، يتصعب برج مرتفع ، يسميه البكرى منار خلف التقى ،

(١) Marçais, l'architecture Musulmane, p. 32

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، التمام الثالث ص ٢٣

وهو برج مرج الشكل كالصوامع يعلوه برج أقل حجما ، ويشغله من الداخل أربع غرف تعلو الواحدة منها الأخرى ، السفلى منها مسقوفة بقوة نصف أسطوانية ، والغرفة الثانية التي تعلوها تسقفها قبوة متعارضة ، أما الثالثة فسقفها قبوة نصف أسطوانية ، والغرفة الرابعة تتكون من أربع قبوات متعارضة تقوم على عقود مصلبة . ويبلغ ارتفاع هذا البرج ما يزيد على ثلاثين مترا ^(١) .

٤ - سور سفاقس :

يذكر اليعقوبي أن سفاقس مدينة على ساحل البحر ، يضرب البحر سورها ^(٢) . هذا السور الذي شاهده اليعقوبي في عهد الأمير إبراهيم بن أحمد ، أقيم في عصر هذا الأمير من القرب والابن ، ثم ردم بعد ذلك بالأحجار . ويألف من ستارة مبنية من الحجر المصقول ، وقطع من الحجارة غير المهذبة ، ويدعم السور أبراج مستطيلة الشكل ، مستديرة الرؤوس ، وبعضها مضلع ^(٣) .

ثالثا - العمارة المدنية :

١ - مدينة العباسية (القصر القديم) :

أسسها إبراهيم بن الأغلب في سنة ١٨٥ هـ ، وتقع على بعد ثلاثة أميال .

(١) Marçais, op. cit. p. 36

(٢) اليعقوبي ، ص ٣٥٠

(٣) Marçais, l'Architecture Musulmane p. 36

جنوبي القيروان^(١)، ويبدو أن سبب بناء ابن الأغلب لهذه المدينة، يرجع إلى أن سكان القيروان بما كانوا يتصفون به من تدين وورع، أبدوا سخطهم على الأمير لإقباله على الخمر وانغماسه في حياة اللهو والملاذات، فاضطر ابن الأغلب إلى إقامة هذه المدينة للاستمتاع بالحياة بعيدا عن أنظار رعيته، فلا يتأله شيء من تفرغهم لغيرهم واتخاذهم لسلوكه. وقد يكون قد اتخذ هذه المدينة تقليدا للخلفاء الأمويين والعباسيين في اتخاذهم القصور خارج عواصمهم، أو إشباعا لرغبته في الظهور بمظهر العظمة والالاهة. ولقد اشترى ابن الأغلب لهذا الغرض أرضا من بني طالوت، وبني قصرا للامارة، نقل إليه السلاح والعدد سرا، وأسكن حوله عبيده وفتيانه ومواليه، وأهل الثقة من خدمه^(٢)، وسمى بالقصر القديم بالنسبة لقصر رقادة الذي بناه إبراهيم بن أحمد في سنة ٢٦٤هـ^(٣)، وعرف بالقصر الأبيض ربما لبياض لون جدرانها. ولقد أطلق إبراهيم بن الأغلب على هذه المدينة اسم العباسية، إمعانا في إظهار ولائه للعباسيين^(٤). وفي هذه المدينة استقبل الأمير رسل شارلمان إليه سنة ١٨٥هـ عندما قدموا لنقل رفات القديس سان سيرين^(٥). وظلت هذه المدينة دارا للامارة في عهد خلفاء إبراهيم بن الأغلب، وأسس فيها زيادة الله بن إبراهيم القصور والمنيات، وحصنها

(١) ابن عذاري، ص ١١٧ - ويذكر اليعقوبي أنها تقع على ميلين من القيروان

(البلدان ص ٣٤٨)

(٢) نفس المرجع، ص ١١٧

(٣) نفس المرجع، ص ١٥٤

(٤) ياعوت، معجم البلدان، مادة العباسية

(٥) Margais, l'Architecture Musulmane, p. 26 (٥)

٢٠٩ هـ^(١) . كذلك أقام الأمير أبو الذرائق محمد بن أحمد في العباسية ، وكان نزقا مبذرا ، شغوبا باقتناص الطير ، وكان له برج في موضع منها يعرف بالساحلين يستطيع فيه أن يركن إلى هوايته المفضلة . وكان لمدينة القصر القديم جامع له صومعة مستديرة مبنية بالآجر والعمد سبع طبقات لم ير أجل منها^(٢) .

انضمت العباسية ، وأصبحت مدينة كبيرة مسورة ، وكان يفتتح فيها خمسة أبواب ، منها بابا الرحمة والحديد في السور القبلي ، وبابا غلبون والريح في السور الشرقي ، وباب السعادة في السور الغربي^(٣) . وقد أقيم في المدينة كثير من المنشآت من حمامات وفنادق وأسواق ومواجل ، ويذكر البكري أيضا أنه كان يتوسطها ميدان فسيح ، أقيم تجاهه قصر يعرف بالرصافة . ولما كانت سنة ٢٦٤ هـ هجر الأغلبة مدينة القصر القديم وانتقلوا إلى مدينة جديدة هي مدينة رقادة . وقد آل مصير القصر القديم إلى الهدم والتخريب ، ولكن موقعه مازال معروفا حتى اليوم . ولقد أجريت على طول الجانبين الشمال والغربي من الأطلال حفائر أثرية في سنة ١٩٢٣ ، أسفرت عن كشف بعض الغرف الصغيرة ، كما كشفت عن بعض القبوات والمخازن المنقورة في باطن الأرض^(٤)

(١) ابن عذاري ، ص ١٢٣

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، مادة قصر قبروان ، جلد ٤ ، ص ٣٦٢

(٣) البكري ، ص ٢٠

(٤) Marçais, l'architecture musulmane, p. 27

٢ - رقادة :

تقع رقادة على بعد ثمانية أميال جنوبى القيروان ، وهى الحاضرة الأغلبية الثانية ، شرع ابراهيم بن أحمد فى تأسيسها سنة ٢٦٣ هـ ، وتم تأسيسها فى سنة ٢٦٤ هـ ، وأصبحت رقادة منذ ذلك التاريخ مقر أمراء بنى الأغلب حتى انقرض دولتهم . ويصفها البكرى بقوله : « وأكثرها بساتين ، وليس بافرقية أعدل هواء ، ولا أرق نسيا ، ولا أطيب تربة من مدينة رقادة وسميت رقادة لأن الأمير إبراهيم أرق يوما ، وشرد الكرى عن جفنيه ، فلم يزم ، وأمر بالمحروج والسم ، فلما وصل إلى هذا الموضع نام ، فسمى رقادة ... والذى بنى رقادة واتخذها دارا إبراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، انتقل إليها من مدينة القصر القديم ، وبنى بها قصورا عديدة ، وجامعا ، وعمرت بالسواق والحمامات والقنادق (١) ، وكان من قصورها قصر بغداد ، والمختار ، والفتح ، وقصر البحر ، وقصر العروس ، وقصر الصحن . وكان يحيط برقادة سور من الآجر واللبن أصلحه الأمير زيادة الله الثالث حتى يتحصن فيها عند محاصرة أبى عبد الله الشيعى لها .

ولم تنزل هذه المدينة بعد ذلك دار ملك بنى الأغلب حتى هرب منها زيادة الله الثالث أمام زحف قوات أبى عبد الله الشيعى ، فاحتلها عبيد الله للمهدى ، وأقام فى قصر الصحن برقادة حتى سنة ٣٠٨ هـ ، ثم انتقل بعد ذلك إلى المهديّة . ثم فقدت رقادة بالتدريج مكانتها القديمة ، وأخذ الخراب يبدى فى قصورها وديارها ، حتى تولى معد بن اسماعيل الخلافة الفاطمية ، فهدم

ماتبقى منها ، وأصبحت رتادة محجرا تستخرج منه مواد البناء في المعصور
التالية . وقد تبقى منها اليوم آثار حوض ، لعله حوض القصر المعروف
بقصر البحر ^(١) .

٣ - للمواجل والخزانات والقناطر :

اهتم خلفاء بني أمية ، وعلى الأخص هشام بن عبد الملك ، بالمنشآت
الخاصة بالأعمال المائية والخزانات والمواجل في إفريقية اهتماما كبيرا ، فلما
استقلت أسرة بني الأغلب بإفريقية ، حرص أمراؤها على زيادة هذا
الاهتمام باقامة هذه المنشآت ووجهوا إليها عناية خاصة . ويعتبر أبو إبراهيم
أحمد أكثر بناء هذه الأسرة نشاطا ، ويتجلى هذا النشاط في بنائه لمواجل
القيروان والقصر القديم . ويذكر ابن الخطيب ، أن بناءه للماجل الكبير
يباب نونس في القيروان كان أعظم حسنة قام بها هذا الأمير ^(٢) . وقد
كان قد شرع في بنائه سنة ٢٤٥ هـ وأتمه في سنة ٢٤٨ هـ ^(٣) . ويروى أنه
اعتل أثناء اتخاذ الماجل بالقصر القديم ، « فكان يسأل : هل دخله الماء ؟
إلى أن دخله الوادي فعرفوه بذلك فسر به ، وأمرهم أن يأتوه بكأس
مملوءة منه فشرها ، وقال : الحمد لله الذي لم أمت حتى تم أمري ، ثم مات على
أثر ذلك » ^(٤) .

وكانت مياه المطر والسيول تسيل في أودية ، وتصب في المواجل ،

(١) راجع التفاصيل في : Marçais, op. cit. p. 28

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣

(٣) ابن هذاري ، ج ١ ص ١٤٨

(٤) ابن الخطيب ، ص ٢٤

وهى برك عظيمة منها كان يشرب أهل القيروان ^(١) . وكان بالقيروان
فيها بذكره البكرى ١٥ ماجلا ، وكانت هذه المواجهل مستديرة الشكل ،
تكسو سطوحها طبقة من الملاط شديد الصلابة ، كما أنها كانت تحاط من
أعلى بسور يدعمه من الداخل أو من الخارج أو منها معا ركائز . وكان
للمواجهل بسقه أحيانا ماجل أصغر حجما يترسب فيه الطمي الذي تحمله
الفتوات ، أو يتصل في بعض الأحيان بخزان في جوف الأرض توزع منه
المياه للسقيا . وكانت المواجهل تزود بالمياه عن طريق جداول تجري نحو
المواجهل بواسطة قناطر أو جسور ، أو بواسطة تجميع مياه العيون ^(٢) .

و يصف الإدريسي المواجهل الكبير بالقيروان بأنه « من عجيب البناء ،
لأنه مبنى على تربع ، وفي وسطه بناء قائم كالصومعة ، وذرع كل وجه
منه مائتا ذراع ، وهو مملوء كله ماء » ^(٣) . ويصف البكرى المواجهل
الكبير بالقيروان ، فيذكر أنه مستدير الشكل ، عظيم الاتساع ، بوسطه
برج مئمن الشكل ، يعلوه مجلس له أربعة أبواب ، وبأعلاه قبة يحملها ١١ عمودا .
وبجوار هذا المواجهل مباشرة ، وفي الجهة الشمالية منه ماجل آخر أقل اتساعا ،
يعرف بالنسقية ، يطل على مياهه من الوادي ^(٤) عند جريانها ، فيخفف من
سرعتها . وعندما يمتلئ بالمياه حتى ارتفاع قائمتين ، تتدفق في المواجهل الكبير
عن طريق فتحة يسميها الصرح . وكان زيادة الله الثالث قد أنشأ مراكبا

(١) اليفوي ، ص ٢٤٨

(٢) Marçais, l'architecture, p. 38

(٣) الإدريسي ، ص ١١٠

(٤) يسمي هذا الوادي وادي مريم الليل (Croissant, op. cit. p. 291)

لهذا الماجل سماه الزلاج ، وقدم من تونس إلى القيروان في سنة ٢٩٢ هـ ونزل في مجلس الماجل الكبير ^(١) . ويذكر الاستاذ مارسيه أن ماجل القيروان الكبير ليس دائريا ، وإنما هو متعدد الضلوع ، تصل عدد ضلوعه إلى ٤٨ ضلعا ، تؤلف مايقرب من الدائرة قطرها ١٢٨ مترا ، وكل زاوية من هذا الضلع ترتكز على ركيزة مزدوجة من الداخل والخارج ، وفي وسطه تنتصب قاعدة من البناء مربعة الشكل ، يلمص كل وجه منها دعامة أسطوانية ، وكانت هذه القاعدة تحمل مجلسا كان يقيم فيه الأمير للراحة . أما الماجل الآخر فمتعدد الأضلاع ، من ١٧ ضلعا ، ويصل بين الماجلين فتحة نصف دائرية تقع على عدة أمتار من القاع . وللماجل الصغير ١٧ ركيزة داخلية تكتنف الاركان ، و ٢٨ ركيزة خارجية تكتنف الاركان الخارجية بالإضافة إلى منتصف كل ضلع . ونلاحظ أنه يقابل كل ركيزة توسط الأضلاع من الخارج جوفة من الداخل . وما زالت المياه تملأ الماجل القيرواني في الوقت الحاضر ، بينما جفت مياه ماجل رقادة ^(٢) . وإذا كانت الماجل هي أحواض مكشوفة للهواء ، فقد كانت هناك خزانات جوفية للمياه أو جباب تحفظ فيها مياه الأمطار ، وأكبرها جب السفرة في سوسة ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى هذا العصر . ويتألف من ست بلاطات تعلوها قبوات نصف أسطوانية ، تفصلها عن بعضها عقود نصف دائرية قائمة على دعائم ضخمة ارتفاعها يتجاوز ستة أمتار . وكانت للأربطة والمحارس جباب من هذا النوع لتوفير المياه لزلايتها من الصالحين والمجاهدين . وتشبه هذه الجباب جب

(١) ابن عذاري ، ص ١٨٦

(٢) Marçais, op. cit. p. 38

المياه بمدينة الرملة ، وهو الجب المعروف ببئر العنزة ، الذي أقيم في سنة ١٧٢٢هـ في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ^(١) .

كذلك اهتم الاغالبه بانشاء القناطر على الوديان ومجارى المياه لعبور السابلة والمسافرين إلى الطرق المؤدية إلى القيروان . ويؤثر عن زيادة الله ابن ابراهيم أنه بنى قنطرة أبي الربيع ^(٢) ، وتقع خارج باب أبي الربيع جنوبى مدينة القيروان ، حيث يبدأ الشارع الرئيسى فى مدينة القيروان وهو الشارع المخصص لجميع المتاجر والصناعات ^(٣) . ولكن هذه القنطرة تثلث على أثر سيل سنة ٢٤٢هـ ، فأمر الأمير أبو ابراهيم أحمد باصلاحها ، فكل ذلك فى سنة ٢٤٨هـ ^(٤) .

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 39 - Creswell, a short account, p. 230

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٢٨

(٣) البكرى ، ص ٢٥

(٤) ابن عذارى ، ص ١٤٨

الفصل السادس

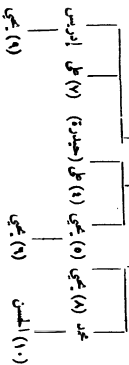
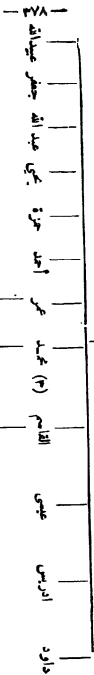
دولة الأدارسة بفاس

- (١) قيام دولة الأدارسة
 - ١ - إدريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الأدارسة
 - ب - إمامة إدريس الثاني
- (٢) خلفاء إدريس الثاني حتى سقوط فاس في أيدي الفاطميين
 - ١ - تقسيم دولة الأدارسة في إمامة محمد بن إدريس
 - ب - خلفاء محمد بن إدريس
- (٣) مدينة فاس حاضرة الأدارسة
 - ١ - مشكلة تاريخ تأسيس فاس
 - ب - تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين
- ١ - فاس في عصر الأدارسة
- ٢ - فاس في عصر بني موسى بن أبي العافية
- ٣ - سيطرة زناتة على فاس وموالاتها لخلفاء بني أمية بقرطبة
- ٤ - فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين
- ٥ - فاس عاصمة بني مرين

جدول بالائمة الادارسة

(١) إدريس بن عبد الله

(٢) إدريس بن إدريس



الفصل السادس

دولة الإدارة في فاس

(١)

قيام دولة الإدارة

١ - ادريس بن عبد الله بن الحسن مؤسس دولة الإدارة :

في سنة ١٤٥ هـ خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن حسن (السيط) بن علي بن أبي طالب ، المعروف بالنفس الزكية ، في الحجاز على أبي جعفر المنصور ، مطالبا بحقه في الخلافة ، فأجمع أهل الحجاز على نصرته ، واستولى على المدينة ^(١) ، ثم تغلب على مكة ، وجرت بينه وبين المنصور رسائل طويلة في أحقية كل منها بالخلافة ، أوردها ابن الأثير ^(٢) ، والطبري ^(٣) وابن خلدون ^(٤) . ثم بعث محمد أخاه إبراهيم إلى البصرة لنشر دعوة محمد ابن عبد الله بن الحسن في العراق ، فتغلب إبراهيم على البصرة والاهواز وفارس ^(٥) . وكان محمد قد استعمل محمد بن الحسن بن معاوية بن عبد الله على مكة ، والقاسم بن اسحق على اليمن ، وموهى بن عبد الله على الشام . ولما بلغ

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٢-٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٥ - ٧

(٣) الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة القاهرة ١٣٣٦ هـ ، ج ٩ ، ص ٢١٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٦-١٢

(٥) نفس المرجع ، ج ٤ ، ص ٦

المنصور خروج محمد بن عبد الله بن الحسن سير جيشا بقياده أخيه عيسى ابن موسى إلى المدينة ، لمقاتلة محمد ، والقضاء على حركته . فخندق محمد بن عبد الله على نفسه في المدينة ، ولكن أهل المدينة تخلوا عنه ، وبقي في شردمة قليلة من الناس ، وظل يقاتل جنود عيسى بن موسى حتى استشهد في ١٤ رمضان سنة ١٤٥ هـ . وكان محمد بن عبد الله بن الحسن قد بعث إلى محمد بن الحسن ، أمه على مكة ، والقاسم بن إسحاق يأمرهما بالمسير إليه لينجده فقدماء ولكنها علما في نواحي قديد بمقتله ، فلحق محمد بن الحسن بإبراهيم بن عبد الله في البصرة ، أما القاسم فقد اختفى في المدينة حتى استؤمن ، وأما موسى بن الله فقد فشل في دعوته بالشام ، وعاد إلى المدينة ^(١) ، وأما إبراهيم بن عبد الله فقد بادر الخليفة بمحاربته ، فاشتبك أنصاره مع جيش المنصور بقيادة عيسى بن موسى في باخرى (بين الكوفة وواسط) في قتال عنيف ، انتهى بهزيمة إبراهيم ومقتله في ٢٧ ذى القعدة سنة ١٤٥ هـ ^(٢) .

ولم تفت هذه الهزائم المتوالية في عضد العلويين ، فقد أخذوا ينتظرون الفرصة المواتية للوثوب على الخلافة العباسية ، فلما توفي المنصور ، وآلت الخلافة العباسية إلى الهادي بن المهدي ، خرج العلويون بمكة والمدينة بزعامة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي ذى القعدة سنة ١٦٩ هـ بسبب سوء معاملة عمر بن عبدالعزيز بن عبد الله بن عمر ، عامل المدينة من قبل الهادي ، لهم ^(٣) . وبويع الحسين بالخلافة في المدينة ، وأقام بها ١١ يوما ، ثم سار

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧

(٢) نفس المرجع ص ٢٠ - السلاوي ، الاستنفا ج ١ ص ١٥١

(٣) محمد بن علي بن طاهر ، كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ، مطبعة بيروت ١٩٦٠

ص ١٦٠ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٥ - السلاوي ج ١ ص ١٥١

إلى مكة ، فالتقى مع الجيش العباسي بقيادة سليمان بن منصور بفتح ، وهو وادى في طريق مكة ، يبعد عنها بنحو ستة أميال ، فانهزم العلويون هزيمة نكراء ، وقتل في هذه الواقعة معظم أصحابه . وكان قد اشترك في القتال مع الحسين عماد إدريس بن عبد الله بن الحسن ، ويحيى ، ونجح إدريس في الإفلات مع المنهزمين من بني حسن (١) ، فاستقر بعض الوقت ، وألح العباسيون في طلبه ، و فخرج به راشد ، وكان عاقلا ، شجاعا ، أيدا ، ذا حزم و لطف ، في جملة الحاج ، متعاشا عن الناس ، بعد أن غير زيه ، وألبسه مدرعة و عمامة غليظة ، وصيره كالغلام يخدمه ، وإن أمره ونهاه أسرع في ذلك ، فسلبا حتى دخلا مصر ليلا (٢) . ويختلف المؤرخون في رواية الطريقة التي تمكن بواسطتها من الوصول إلى المغرب الأقصى سالما ، فالبكري ذكر أنها مرا في مصر بدار مشيدة ، يدل ظاهرها على نعمة أهلها ويسارهم ، فجلسا في دكان على باب الدار ، فآههما صاحبها ، فعرف من لهجتهما أنها من الحجاز ، فأخذ عليه راشد موثقا أن يقوم بأحد أمرين : إما إيوائهما أو التستر عليهما . ففعل ، فأخبره بخير إدريس ، وقال له : « هذا إدريس بن عبد الله بن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب ، خرج من موضعه مع حسين بن علي ، فسلم من القتل ، وقد جثت به ، اريد ببلاد الدير ، فانه بلد ناء لعله يؤمن فيه ، ويعجز من يطلبه » ، فأدخلهما الرجل واختبأ عنده فترة من الوقت إلى أن تهيأ بعض أصحابه الخروج إلى إفريقية ، فاكثرى لهما مجلا ، وزودهما وكسأهما ، واتفق معها على أن يسير هو مع إدريس في طريق غامضة غير طريق القوافل المارة بمصالح مصر ،

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٣

(٢) البكري ، ص ١١٨

خشية أن يكشف أمر إدريس عند تفتيش المسافرين ، ويمضى راشد مع الغافلة ، فيلتقيان في موضع قريب من إفريقية ، ورحل الرجل مع إدريس حتى حدود إفريقية ، ومن هناك اخترقا بلاد البربر حتى اقتبها إلى بلاد فاس وطنجة^(١) أما بقية المؤرخين فيتفقون على أنهما نزلا بمصر ، وكان علي يريدها واضح مولى صالح بن المنصور ، ويعرف واضح هذا بالمسكين ، وكان يتشيع لعل ، وبلغه وصول إدريس إلى مصر ، فأتاه إلى الموضع الذي كان مستخفيا به ، وساعده على الفرار إلى المغرب ، فعمله على الريد إلى المغرب الأقصى هو ومولاه راشد ، فنزلا بوليلي من أعمال طنجة^(٢) .

ونعتقد أن هذه الرواية الثانية أقرب إلى الحقيقة ، فرواتها ابن الأثير وابن خلدون أولى بالثقة ، وبدليل أن الهادي عندما بلغه الدور الذي قام به واضح أمر بضرب عنقه وصلبه^(٣) ، ثم أنه من المنطقي ألا ييوح راشد بمصر إدريس في مصر إلا لرجل من دعاة الشيعة ، وأغلب الظن أنهما كانا يعرفان واضحا قبل ذلك فنزلا عنده ، وتحايل هو على مساعدتها في النجاة إلى أرض المغرب .

وبذكر ابن أبي زرع أن إدريس ومولاه راشد وصلا إلى القيروان^(٤) ، فأقاما بها فترة من الوقت ثم خرجا إلى المغرب الأقصى ، فعمد إلى إدريس

(١) المرجع السابق ، ص ١١٩

(٢) ابن عسار ، ج ١ ص ١٠١ - ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦ - ابن خلدون ، ص ٢٤ -

البرقاني ، ص ٩ - الاستمعا ، ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٦

(٤) اتفق وصول إدريس إلى إفريقية في ولاية يزيد بن ساتم .

حين خرج من القيروان فألبسه مدرعة صوف خشنة ، وعمامة غليظة وصبره كالخادم له ، يأمره وينهيه ، كل ذلك خوفا عليه وحياطه له ، فلم يزا على ذلك حتى وصلا إلى مدينة تلمسان ، فاستراحا بها أياما ، ثم ارتحلا عنها نحو بلاد طنجة . فسارا حتى عبرا وادي ملوية ، ودخلا بلاد السوس الأدنى وحده من وادي ملوية إلى وادي أم الربيع ، وهو أخصب بلاد المغرب ، وأعظمها بركة ، والسوس الأقصى من جبل درن إلى وادي التون ، فسار إدريس ومولاه راشد حتى نزلا بمدينة طنجة ، وهي يومئذ قاعدة بلاد المغرب ، وأم مدنه ، إذ لم يكن بالمغرب مدينة أعظم ولا أقدم منها فلما وصل إدريس إلى مدينة طنجة أقام بها أياما ، فلم يجد بها مراده ، فرجع مع مولاه راشد حتى نزل مدينة ويلي قاعدة جبل زرهون ٢٤ .

نزل إدريس بمدينة ويلي في غرة ربيع الأول سنة ١٧٢هـ ، فنزل على اسحق ابن عبد الله الأوربي ، أمير أوربة وكبيرهم في هذا الوقت ، فأجاره وأكرمه فأقام عنده زهاء ستة أشهر تمكن خلالها من نشر دعوته . وتمكن بفضل فصاحة لسانه وبلاغته من التأثير في نفوس البربر ، خاصة بعد أن عرفوا قرابته من الرسول ، فاجتمعت عليه قبائل أوربة ومغيلة وصدينة ، وتبعها قبائل زناته وهي زواوة لوانة وسدرانه ونقرة ومكناسة وغمارة ، وبايعوه بالإمامة ، وتمكن إدريس من تأليف جيش كبير غزا به بلاد تامستا ، فافتتح شالة وسائر حصون تامستا ، حتى وصل إلى تادلا ، فافتتح حصونها ، ثم بلغ ماسة (٢) . وكان أكثر سكان هذه البلاد على دين

Lévi - Provençal, Extraits des historiens arabes du (١)

Maroc, Paris, 1948, p. 16, 17

النصرانية واليهودية والمجوسية، ولم يكن الإسلام قد انتشر بعد في أنحائها (١) وعاد إدريس بعد هذه الغزوة إلى ولبلى في ذى الحجة سنة ١٧٢ هـ، فأراح عسكره، في شهر محرم ١٧٣ هـ، ثم خرج للغزو مرة ثانية، ففزا حصون فندلاوة وحصون مديونة وبلولة، وقلاع غيثة وبلاد فازاز، ثم عاد بعد ذلك إلى ولبلى فدخلها في منتصف جمادى الآخرة سنة ١٧٣ هـ (٢). وأقام بولبلى بقية شهر جمادى الآخرة، ونصف رجب التالى، ربما استراح جنده ثم خرج في منتصف رجب برسم غزو مدينة تلسان، ومحاربة من بها من قبائل مغراوة وبنى يقرن الخوارج، فحاصرها، فخرج إليه صاحبها محمد ابن خزر الزناتي مستأثنا وبايعة، وبايعته قبائل البربر، فقبل إدريس بيعتهم ودخل تلسان، وبنى فيها مسجدا، ثم عاد إلى ولبلى (٣).

وعلى هذا النحو تمكن إدريس من إقامة إمارة قوية بالمغرب الأقصى، واتصل بالرشيد ما بلغه إدريس في المغرب من دخول البربر في طاعته وافتتاحه مدن المغرب الأقصى بسيفه، وأبلغ بحزمه وقوته، فعظم عليه الأمر، وخاف أن يقضى الإدارة بفضل دعوتهم على النفوذ العباسى في إفريقية وطرابلس، كما خاف أن يمتد نفوذهم إلى مصر، ولا شك أن اصطناع إدريس بن عبدالله بن الحسن لسياسة الغزو المسلخ في نواحي تامستا ونادالا وتلسان، يعبر عن رغبته في التوسع ومد نفوذه على المغرب كله. وكان لذلك صدى عميق في المشرق الإسلامى، وأصبح الخليفة العباسى قلقا

(١) ابن الخطيب، ص ١٩٢ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٢٤ - الجزائى ص ١٠

(٢) السلاوى ج ١ ص ١٥٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٥ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الثالث ص

١١٢ - السلاوى ج ١ ص ١٠٢

على معصير المغرب الإسلامي ومصر^(١)، فسكر في اللجوء إلى السيف في القضاء على الدولة الإدريسية الناشئة، ولكن الأمر لم يكن من السهل على الخلافة إلى هذا الحد، فالنفوذ العباسي القوي لم يكن يتجاوز حدود مصر الغربية، فاضطر الرشيد إلى استشارة يحيى بن خالد البرمكي، «وأخبره بأمر إدريس، واستشاره فيه»، وقال له: إنه ولد على بن أبي طالب، وابن فاطمة بنت النبي صلعم وقد قوى سلطانه، وكثرت جيوشه وعلا شأنه. واشتهر أمره واسمه، وفتح مدينة تلمسان، وهو باب إفريقية، ومن ملك الباب يوشك أن يدخل الدار، وقد عزمت على أن أبعث له جيشا عظيما لقتاله، ثم إنني فكرت في بعد البلاد، وطول المسافة، وتناهي المغرب عن المشرق، ولا طاقة لجيوش العراق على الوصول إلى السوس من أرض المغرب، فرجعت عن ذلك، وقد هالني أمره، فأثر على برأيك فيه^(٢)، فأشار عليه يحيى بأن يبعث إلى إدريس رجلا تتوفر فيه صفات الفكاك والمكر والدهاء مع البلاغة والجرأة ليقتله، ووقع اختيار يحيى على سليمان بن جرير^(٣)، وقيل سليمان بن جدير^(٤)، وقيل سليمان بن حريز^(٥) ويعرف بالشهاخ^(٦) وكان هذا الرجل من أهل

(١) ذكر صاحب روض القرمطاس، أن الرشيد أخبر بعزم إدريس «على غزو إفريقية متاف أن يحطم أمره، فيصل إليه، لا يعلم من فضله وكاله» وحبته الناس في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فاغتم لذلك غما شديدا، وعظم عليه شأنه»

(أنظر نس روض القرمطاس في) Lévi - Provençal, Extraits des historiens arabes, p. 18

(٢) نفس المرجع

(٣) نلس المرجم - الجزئى، ص ١٠

(٤) ابن الخطيب، المرجع السابق، ص ١٩٣

(٥) البكري، ص ١٢٠ - ابن خلدون، ص ٢٥

(٦) ابن حنبار، ج ١، ص ٢٩٩

الشجاعة والدماء والقصاحة ، فأخبره بحسب المهمة التي يعهد إليه بها ، ووعدته برفعة للمرتبة ، والعصاات السنية ، وأعطاه أموالا جزيلة ، وتحفا مستطرفة ، وجهره بما يحتاج إليه ، وأعطاه قارورة فيها غالية مسمومة ، ثم وجه معه رجلا يتق به ويشجاعته . فانطلق سليمان مع صاحبه من بغداد ، وهو يتظاهر بالطب ، وما زال يحمد في السفر حتى وصل إلى ولبلى . فاتصل بأدریس ، فسأله عن اسمه ونسبه ووطنه وسبب قدومه إلى المغرب . فذكر له أنه من بعض موالى أبيه ، وأنه اتصل به خيرة ، فأثاه برسم خدمته ، بسبب محبته لاهل البيت ، فأنس اليه إدریس ، وسر به ، واتخذة صاحبيا ونديما ، لا يجلس إلا معه ، ولا يأكل إلا إذا أكل معه ، إذ كان إدریس في هذا البلد البربري ، يحن إلى مجالسة العرب ومخادتهم ، وكان سليمان هذا قد أبدى من العلم والادب والبلاغة والجدال ما جعل إدریس يرفعه إلى تلك المرتبة (١) ، وأخذ سليمان الشياخ يترصد فرصة لاغتياال إدریس بالسهم ، فلم يجهأ له ذلك ، إذ كان راشد لا يزايله ولا يفارقه ، وظل سليمان منتظرا إلى أن واثته الفرصة أخيرا بغياب راشد ذات يوم في بعض شؤونه ، فدخل سليمان بن جرير على اللولى إدریس ، فألقاه وحده ، « فجلس بين يديه على عادته ، فصحدث معه مليا ، فلم ير لراشد أثرا ، فانهز الفرصة واغتنم الخطوة فقال : ياسيدى جعلت فداك ، إني جئت من المشرق بقارورة طيب أتعطيب بها ، ثم إني رأيت هذه البلاد ليس بها طيب ، فرأيت أن الإمام أولى بها منى ، فخذها تعطيب بها ، فقد آثرتك على نفسي ، وهو من بعض ما يجب لك على ، ثم أخرجها

(١) ابن الخطيب ، ص ١٦٣ - ابن أبي زرع من كتاب Extraits des historiens

من وعاء ، ووضعها بين يديه ، فشكره إدريس على ذلك ، ثم أخذ القارورة وشمها ، وتحصل بمراده منه ، فتمت حيلته فيه ، وجعل يده في الأرض ، وخرج كأنه يريد قضاء حاجة الإنسان ، فسار إلى منزله ، وركب فرسا له من عتاق الخيل وسابقا ، كان قد أعدها لذلك . وخرج من مدينة ويلي يطلب النجاة ، وكانت القارورة مسمومة ، فلما انتشق إدريس الطيب صعد السم في خيشومه ، وانتهى إلى دماغه ، فغشى عليه ، وسقط بالأرض على وجهه ، لا يفهم ولا يعقل ، ولا يعلم أحد ما به ولا ما أصابه ^(١) . وقضى إدريس في غيبته إلى عشي النهار ، فتوفى في مستهل ربيع الآخر من سنة ١٧٧ هـ ^(٢) ، وقيل في سنة ١٧٥ هـ ^(٣) . وانتبه راشد مولى إدريس إلى غياب الشياخ ، فعلم أنه مسمم ، وكان سليمان الشياخ وصاحبه قد قطعاه على فرسيهما أثناء ذلك مسافة طويلة ، فركب راشد في طلبه مع جماعة من أصحابه حتى أدركه بوادي مملوبة ، فضربه بسيفه ضربتين قطع بهما يده ، ولكنه لم يستطع أن يجهز عليه . إذ كبا به فرسه ، ونجح الشياخ في عبور الوادي واحتمى في البربر ^(٤) . فأمن الشياخ من مطاردة راشد ، وعصب جراحه ، ووصل إلى بغداد ^(٥) . فولاه الرشيد علي بريد مصر ^(٦) .

(١) نس الترغاس من كتاب : *Extraits des historiens*, p. 20

(٢) نس المرجع - الاستمعا ج ١ ص ١٥٩

(٣) البكري ، ص ١٢١ - ابل عناري ج ١ ص ٢٩٩ - ابن الأثير ، ج ٥ ص

٩٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ - الفلكندي ، ج ٥ ص ١٨٠ - الجزائري ، ص ١١

(٤) ابل خلدون ، ج ٤ ص ٢٥

(٥) البكري ، ص ١٢١ - ابن عناري ، ص ٢٩٩ - ابن الخطيب ، ص ١٩٥ - السلاوي

ج ١ ص ١٥٩

(٦) البكري ، ص ١٢١

وذكر بعض المؤرخين أنه سمه بوضع ذرور مسموم في سن له موجهة ،
وقيل أنه سمه في دلاعة (١) .

ودفن إدريس بخارج باب ويلي ، في صحن رابطة ليتبرك الناس
بقرجه (٢) .

ب - اعلمة إدريس الثاني :

توفي إدريس بن عبد الله دون ولد ، ولكنه ترك جارية له من جارياته
اسمها كثره حاملا في السابع من أشهر حملها ، فجمع راشد قبائل البربر ،
وذكر لهم ، ما كان من أمر هذه الجارية ، فقالوا له : « أيها الشيخ المبارك ،
نقوم بأمرنا كما كانت إدريس يفعل فينا حتى تضع الجارية ، فان وضعت
غلاما ريتناه ، وبإيضا تتركنا باهل البيت ، بيت النبوة وذرية رسول الله ﷺ ،
وإن كانت جارية نظرنا لا نفسنا » (٣) . فقام راشد بأمرهم حتى وضعت كثره
في ربيع الآخر سنة ١٧٥ هـ (٤) ، وكان غلاما أشبه الناس بأبيه إدريس ، فأخرجه
راشد إلى رؤساء البربر ، فأعجبوا من شبه الكبير بأبيه ، فقالوا : « هذا إدريس
كأنه لم يمض » (٥) ، فسمى لذلك باسم أبيه ، وقام راشد مولاه بأمره ،
وكفله إلى أن فطن وشب ، فأحسن تأديبه ، وأقرأه القرآن ، وأحفظه
إياه ، ولم يجاوز إدريس من العمر بعد ثمان سنوات ، ثم علمه السنة والفقه
وأشعار العرب وأبامهم ، وسمي الملوك ، ثم دربه على ركوب الخيل ،

(١) البكري ، ص ١٢١ - ابن الخطيب ، ص ١٩٤

(٢) الجرائد ، ص ١١ - السلاوي ، ج ١ ص ١٥٩

(٣) ابن الخطيب ، ١٩٦ - السلاوي ، ج ١ ص ١٦٠

(٤) البكري ، ص ١٢٢ - ابن الخطيب ، ص ١٩٦

(٥) ابن الخطيب ، ص ١٩٦ - السلاوي ، ج ١ ص ١٦٠

والمصاولة والمجاولة ، وإحكام الرماية بالسهم (١) . ولما تم إدريس من العمر عشر سنوات ، جدد له راشد البيعة ، بجامع وليلتي في أول شهر ربيع الأول سنة ١٨٦ هـ . وبذكر ابن خلدون أن إبراهيم بن الأغلب صرفه إلى تمهيد المغرب الأقصى ، إذ ساءه استفعال أمر إدريس راشد . فلم يزل يدس إلى البربر ، ويسرب فيهم الأموال ويستميلهم حتى قتلوا راشدا ، وسبق رأسه إليه (٢) ، وذلك سنة ١٨٦ هـ . وفي ذلك يقول إبراهيم ابن الأغلب يخاطب الرشيد ، ويكذب ادعاء محمد بن مقاتل العكي الذي نسب إلى نفسه محاولة قتل راشد :

ألم ترني أهلك بالسكيد راشدا

وإني لأخري لابن إدريس راصد

وتاه أخوعك بمهلك راشد

وقد كنت فيه ساهرا وهو راقد (٣)

وتجميع معظم المصادر أنه قام بكفالة إدريس بعد مقتل راشد رجل اسمه أبو خالد بن يزيد بن لياس العبدى (٤) . وذكر البكري أنه جددت لإدريس

(١) المرجع السابق - الجزناى ، ص ١٢٣

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٥ ، ٢٠

(٣) ابن الخطيب ، ١٩٧ - وأورد اللاوى نسا آخر لهذه الأبيات تنه عن عهد لللك

ابن الوراق تنها :

وإني بأخري لابن إدريس راصد

بمحمومة إمطى بها من يكابد

وقد كنت فيه شاهدا وهو راقد

ألم ترني بالسكيد أرديت راشدا

تناوله عزمى على بعد داره

فناه أبو مك يقتل راشد

(٤) البكري ، ص ١٢٢

اليعة في ٧ ربيع الاول سنة ١٨٧ هـ (١). وهو ابن إحدى عشر سنة . وبايعته جميع القبائل من زناتة ، وأوربة وصنهاجة وغمارة وسائر قبائل البربر ، فاستقام له الامر بالمغرب الاقصى وتوطد ملكه ، وعظم سلطانه ، وقوى عسكره ، ووفد إليه الناس من سائر البلدان (٢) ، وكان ممن وفد عليه نحو ٥٠٠ فارس من إفريقية والأندلس ، من القيسية والأزد والحزرج ومدلج وبني محصب ، فسر إدريس بوقادتهم عليه ، ونزوعهم إلى بلاده ، وأجزل صلاتهم ، وقربهم منه ، وجعلهم بطانته (٣) ، واستوزر منهم عمير ابن مصعب الأزدي الملقب بالملجوم (٤) .

ولما رأى ابراهيم بن الأغلب عظم قوة إدريس استمال اليه كبير أوربة أبا ليلى اسحق بن محمود الأوربي ، ويدعو أن إدريس تبين له ميل اسحق لابن الأغلب ، فقتله في ٩ من ذي الحجة سنة ١٩٢ هـ (٥) . وكثرت حاشية إدريس وأنصاره ، وضائق وليي بهم ، وبمن وفد عليه من العرب والبربر ، فأسس لهم ريبض القرويين من مدينة فاس في سنة ١٩٣ هـ (٦) ، وانتقل من عدوة الأندلسيين إلى الموضع المعروف بالمقرمدة من عدوة القرويين حيث بنى دار القيطون ، وبني بجوارها جامع الشرفاء (٧) .

(١) المرجع السابق — ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩ — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٦

(٢) الجزائى ، ص ١٣

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٦ — الجزائى ، ص ١٣

(٤) ابن خلدون ، ص ٢٩ — الجزائى ، ص ١٣ — السلاوى ، ١٦٣

(٥) البكرى ، ص ١٢٣ — ابن خلدون ، ص ٢٦

(٦) البكرى ، ص ١٢٣ — ابن عذارى ، ص ٢٩٩ — ابن خلدون ، ص ٢٦

(٧) ابن الخطيب ، ص ٢٠١ — الجزائى ، ص ٢٠، ١٤

استقام الامر لإدريس بفاس ، فأقام بها حتى سنة ١٩٧هـ ، ثم عزم على غزو قبائل البربر الوثنيين في نفيس وبلاد المصامدة ، فخرج على رأس جيش كثيف ، واستولى على مدينة نفيس ومدينة أغمات ، وفتح سائر بلاد المصامدة ، وعاد إلى فاس ، فأقام بها إلى شهر محرم من سنة ١٩٩هـ ، ثم خرج إلى غزو قبيلة قزة بتلمسان ، فافتتحها وأصلح أسوارها ، ورمم جامعها بأكادير (أغادير) وأقام له منبرا . وظل مقبلا بتلمسان ثلاث سنوات (١) ، ثم عاد إلى فاس في شهر محرم (٢) سنة ٢٠٢هـ . واستقبل فيها فوجا كبيرا من ثوار الربض بقرطبة الذين طردهم الأمير الحكم الربضي عقب واقعة الربض ، فسمح لهم بإدريس بالاقامة في عدوة الاندلس (٣) .

وكان إدريس قد أبدى في محاربة الصفرية من البربر في تلمسان ما أثار إعجاب رعاياه ، ويذكر البكري أن داود بن القاسم بن اسحق بن عبد الله ابن جعفر قال : « كنت مع إدريس بن إدريس في المغرب ، فخرجت معه يوما إلى قتال المخوارج . فلقيتهم وهم في ثلاثة أضعاف عددها ، فقاتلناهم قتالا شديدا ، فأعجبنى إدريس ذلك اليوم ، وجعلت أديم النظر إليه ، فقال : ويحك ، لم توالى النظر إلى ، قلت لحصالي ، أما أولها فأنك تبصق بصاقا

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٧ . وأقام إدريس بالجامع أبيه بتلمسان منبرا شاهده عبد الملك بن الوراق في سنة ٥٥٥هـ ، ورأى في رأس المنبر ألوانا من بقية المنبر القديم مسرة هناك ، وقد كتب عليها : « هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة » (الجزء ٢ ، ص ٢٢)

(٢) ابن عذاري ، ص ٢٩٩ . ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٧ . الجزء ٢ ، ص ١٢ . السلاوي ، ص ١٦٩

(٣) يعني بروفنسال ، الألام في المغرب والاندلس ، ص ١٠

مجتمعا وأنا أطلب قليل ماء أبل به حلق فلا أجده ، قال : ذلك لاجتماع قلبي وذهاب بصاقلك لذهاب عقلك ، قال ، قلت : والثانية ، لما أرى من منتك قال ان النسي ﷺ صلى علينا ، قلت : والثالثة ، لما أرى من حركتك وقلة فرارك على الدابة . قال : ذلك زمع الى القتال فلا تحسه رعبا (١) .

ويدو أن إدريس اتخذ له بالاضافة الى وزيره عمير بن مصعب وزيرا من البربر اسمه بهلول بن عبد الواحد المطفري ، وكان بهلول هذا من أركان دولته ، فلما أخضع إدريس خوارج المغرب الاوسط لطاعته ، وامتد نفوذه حتى شلف ، أصبح يهدد نفوذ العباسيين بأفريقية ، فاضطر ابن الأغلب الى أن يدافع عن حماه ، فأخذ يلاطف بهلول ويستميله إليه بالكتب والهدايا حتى « انخرط عن دعوة الادارة الى عوة العباسية » ، ونجح ابن الاغلب في استمالة بهلول بمن معه من قومه ، فوفد عليه بالقيروان ، واستقراب إدريس بالبربر ، فصالح ابن الاغلب (٢) . ولعل ذلك كان سببا في استئثار إدريس من العرب في دولته ، وانتقاله من ويلي إلى فاس ، وأقام إدريس بعد ذلك في فاس حتى توفي في أول شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ ، وكان سبب وفاته أنه أكل عبا ، ففص بحبة منه ، فلم يزل مفتوحا لقم سائل اللعاب حتى مات (٣) . وقيل أنه توفي مسموما (٤) ، ودفن على

(١) البكري ، ص ١٢٣ - ابن الخطيب ، ص ١٩٨ - السلاوي ، ١٦٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٧ ، ٢٨٠ - ابن الخطيب ، ص ١٤

(٣) البكري ، ص ١٢٣ - ابن الخطيب ، ص ٢٠٢ - الخرناتني ، ص ٢٣

(٤) ابن عذاري ، ص ٢٩٩

حد قول المؤرخين في مدينة ولسلي (١) . وذكر بعضهم أنه دفن بفاس في
في مسجد الشرفاء ، إزاء الجدار الشرقى منه ، وقد أنشأ في ذلك بعض
الشعراء :

منازل أهل الله آل رسوله
فأحبيب بهم أهلا وأحبيب بهم معنى
مدينة إدريس بن إدريس التقى
بها قـهـر نار وقـهـر مـيـن (٢)

(١) البكري ، ص ١١٥ — ابن الخطيب ، ص ٢٠١ — السلاوي ، ج ١ ص ١٧١

(٢) الجزائى ، ص ٢٢ — السلاوي ، ص ١٧١

(٢)

خلفاء إدريس الثاني حتى سقوط فاس في أيدي الفاطميين

١ - تقسيم دولة الإدريسة في إمامة محمد ابن إدريس :

لما توفي إدريس خلفه على الإمامة ابنه محمد، بعد من أبيه إليه، وأوصته جدته كثرة أن يشارك إخوته معه في سلطانه ، فيقسم دولته إلى أعمال يحولها إخوته، فولى أخاه القاسم سبتة وطنجة وقلعة حجر النسر وبسكرة وتيطاون، وما يلحق بهذه المدن من بلاد وقبائل ، واختص أخاه عمرا ببلاد صنهاجة الهبط وغمارة ، وولى داود بلاد هوار ، وتسول ، وتازي وما بينهما من القبائل مكناسة وغيانة . أما عبد الله ، فولاه أغمات وبلد تقيس ، وجبال المصامدة ، وبلاد لمطة، والسوس الأقصى. وولى يحيى على آصيلا والعرائش وبلاد زواغة ، وخص عيسى بشالة ، وسلا ، وآزمور ، وتامستاء وبرغواطية وما إلى ذلك . وخص أحمد بمدينة مكناسة ، ومدينة تادلا ، وما بينهما من بلاد فازاز . وولى حمزة على ويلي وأعمالها ، وأبقى تلمسان لابن عمه سليمان بن عبد الله ، أما الباقيون فقد أبقاهم في كفالة جدته كثرة ، لصغر أعمارهم عن الولاية ، أما هو فاكتمل بحضرته فاس (١) . وأقام محمد بن إدريس بفاس عاصمة مملكته ، ولكن عيسى لم يلبث أن ثار بشالة ، وشق عصا الطاعة على محمد طالبا الأمر لنفسه ، فكتب محمد إلى أخيه القاسم صاحب طنجة ، بأمره بمحاربة عيسى ، ولكن القاسم امتنع عن ذلك ،

(١) البكري ، ص ١٢٤ - ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٠٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص

٢٧ ، ٢٨ - ابن الخطيب ، ص ٢٠٤ - السلاوي ، ج ١ ص ١٧٢

وخالف أمر أخيه الإمام محمد، فاضطر هذا إلى أن يكتب إلى أخيه عمر صاحب صنهجة وغمارة . فامتثل لأمره ، وسارع إلى نصرته ، إذ كان على خلاف مع أخيه عيسى ، وزحف إلى عيسى في حشود هائلة من بربر صنهجة وغمارة ، وأمدّه أخوه محمد بألف فارس من قبيلة زناتة، واشتبكت قوات عمر مع قوات عيسى وهزمتها ، وكتب عمر إلى الإمام محمد بهذا الانتصار ، فولاها على ما فتحه من أعمال عيسى ، وأمره بالسير لمحاربة القاسم ، فزحف عمر إلى القاسم ، ونزل عليه بظاهر طنجة ، قامت الحرب بينهما ، فانتصر عمر ، واستولى على طنجة وسائر أعمال القاسم ، وأصبح الريف البحرى كله تابعا لعمر من بلاد غمارة إلى سبتة وطنجة في منطقة البحر المتوسط ، ثم إلى أصيلا وسلا وآزمور وبلاد تامسنا ، وكلها بلاد مطلة على المحيط (١) . أما القاسم فقد سار إلى ساحل البحر فسا بلى أصيلا ، فانحذ هنالك مسجدا ورباطا ، ما زال قائما بالقرب من تاهدارت ، رابط فيه ، وزهد في الدنيا ، إلى أن توفي هناك .

واتسعت ولاية عمر بما انضم إليه من عمل أخويه عيسى والقاسم ، وأخلص عمر للإمام محمد ، إلى أن توفي في ٢٢٠ هـ ببلاد صنهجة في موضع يقال له فجج الفرس ، وكان منية له ، فحمل إلى فاس ، ودفن فيها مع أبيه . وخلفه على عمله ابنه علي بن عمر (٢) . وعمر هذا هو جند بن حود الدين تلقبوا بالخلافة في الأندلس في عصر ملوك الطوائف .

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ - السلاوي ، ج ١ ص ١٧٣

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٠٠ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٢٨ ، ٢٩ - ابن الخطيب ،

ص ٢٠٦ - السلاوي ، ج ١ ص ١٧٤

ولم يطل العهد بالإمام محمد ، إذ مرض ، ثم توفي بعد سبعة أشهر من وفاة أخيه عمر في سنة ٢١١ هـ ، ودفن بشرقي جامع الشرفاء بفاس .

ب - خلفاء محمد بن إدريس :

كان الإمام محمد قد استخلف ابنه عليا الملقب بمحيدرة أثناء مرضه ، وكان على لا يجاوز عمره تسع سنوات ، فقام بأمره « الأولياء والحاشية من العرب وأوربة وسائر الديار وصنائع الدولة » (١) ، وبأبعوه بالإمامة وهو غلام ، فسار سيرة أهل العدل والفضل والدين ، وتمتع الناس في عهده بالأمن والهدوء ، ثم توفي في رجب سنة ٢٣٤ هـ ، وعهد بالامر من بعده إلى أخيه يحيى بن محمد (٢) .

تولى يحيى بن محمد الإمامة بعد وفاة أخيه ، وشهدت فاس في عصره القصير ازدهارا في العمران ، وفي ذلك يقول ابن خلدون : « واستجذبت فاس في العمران ، وبُنيت بها الحمامات والفنادق للتجار ، وبُنيت الأرباض ، ورحل إليها الناس من الثغور القاصية » (٣) . وفي عهده أسست أم البنين فاطمة بنت محمد القهري المسجد الجامع بعدوة القرويين بفاس . وتوفي يحيى بن محمد في تاريخ غير معروف . وخلفه ابنه يحيى بن يحيى ، وكان ماجئا ، محبا للشراب ، محبا بالنساء ، فأساء السيرة ، وخالف طريق سلفه ، وذكروا أنه دخل يوما الحمام المقصور على النساء ، بسبب امرأة جميلة من

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٢٩

(٢) نفس المرجع - ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ - السلاوي ، ج ١ ، ص ١٧٥

(٣) نفس المرجع

اليهود^(١) ، يقال لها حنة^(٢) ، وراودها على نفسها ، فتغير عليه أهل فاس ،
وثارت به العامة ، وعلى رأسهم عبد الرحمن بن أبي سهل المذايبي ، فأخرجوه
من عدوة القرويين إلى عدوة الأندلسيين ، وأبت زوجته طائفة بنت علي
ابن عمر بن إدريس أن تخرج معه إلى عدوة الأندلسيين^(٣) . أما يحيى فقد
توارى بهذه العدوة ليلتين ، ثم توفي أسفا .

ويبلغ خبر وفاته عليا بن عمر صاحب الريف ، واستدعاه أهل الدولة من
العرب والبربر والموالي ، فقدم إلى فاس ودخلها ، وباعه أهلها بالإمامة^(٤) ،
وخطب له بمنابر أعمال المغرب ، وانتقلت الإمامة على هذا النحو من
بني محمد بن إدريس إلى بني عمر بن إدريس ، واستقام الأمر لعلي بن عمر ،
إلى أن تار عليه عبد الرزاق التهرى الخارجى الصفرى ، وزحف إليه من جبل
مديونة الواقع قبلى فاس ، ودارت بينه وبين علي بن عمر مواقع حربية ،
انتهت بهزيمة علي وفراره إلى بلاد أوربة ، واستولى عبد الرزاق على عدوة
الأندلسيين . ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على عدوة القرويين ، وبعث
أهالى عدوة القرويين إلى يحيى بن القاسم المعروف بالعدام ، فولوه على
أنفسهم ، فلم يزل بها حتى قتله ربيع بن سليمان سنة ٢٩٢ هـ^(٥) . وقد
تمكن يحيى هذا من التغلب على عبد الرزاق ، وإخراجه من عدوة

(١) البكرى ، ص ١٢٤ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠٠ - ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ -

السلامى ، ج ١ ص ١٧٨

(٢) البكرى ، ص ١٢٤

(٣) نفس المرجع ، ص ١٢٥

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠

(٥) البكرى ، ص ١٢٥ - ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٠١ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٠

الأندلسيين ، واستعمل عليها ثعلبة بن محارب بن عبد الله الأزدي ، من أهل
الربض بقرطبة الذين لجئوا إلى فاس ، واستقروا بعدوة الأندلسيين . ولما
توفي ثعلبة استعمل مكانه ابنه عبد الله بن ثعلبة المعروف بعبود ، ثم استعمل
بعد وفاة عبد الله ولده محارب بن عبود (١) .

ولما قتل يحيى بن القاسم خلفه يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس
سنة ٢٩٢ هـ ، فبايعه أهل فاس في العدوتين ، وخطب له فيها ، وفي سائر
دولة الأدارسة . وكان يحيى هذا على حد قول ابن خلدون « أعلى بنى
إدريس ملكا ، وأعظمهم سلطانا ، وكان فقيها طارفا بالحديث ، ولم يلبس
أحد من الأدارسة مبلغه في السلطان والدولة » (٢) .

ولم يزل يحيى قائما بأمر دولة الأدارسة ، حتى قدم مصالة بن حبوس
الكناسي ، قائد عبيد الله المهدي سنة ٣٠٥ هـ ، فخرج إليه يحيى بن إدريس
لمدافعة بمجموع من بربر أوربة وسائر القبائل ، والتقوا على مكانة
الزيهون ، فانهزم يحيى هزيمة نكراء ، ورجع مفلولا إلى فاس ، وحاصره
فيها مصالة ، فصالحه يحيى على مال يؤديه إليه ، وعلى مبايعة عبيد الله
الشيخي ، ورحل عنهم مصالة إلى إفريقية في سنة ٣٠٧ هـ ، بعد أن أقام
موسى بن أبي العافية الكناسي أميرا على تسول وبلاد تازي ، وترك يحيى
أمرها على فاس . وكانت بين يحيى وموسى عداوة قديمة ، فلما عاد مصالة
إلى المغرب الأقصى في غزوته الثانية في سنة ٣٠٩ هـ ، سعى ابن أبي العافية
يحيى بن إدريس عنده ، حتى ضاق مصالة يحيى ، وعزم على القبض عليه ،

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣١ - ابن الخطيب ، ص ٢٠٩ - السلاوي ، ج ١ ص ١٨٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣١

فلما قرب مصالة من فاس ، خرج إليه يحيى مسلما في جملة من عسكره ، فقبض عليه مصالة ، وكبل يحيى بالأغلال ، وأدخله المدينة ، واستصنى أمواله ، ثم أطلقه ، فخرجه يحيى إلى ناحية أصيلا والريف ، وكانت عمل ذوى قرياه (١) . أما فاس ، فقد أقام عليها مصالة ريمانا الكتامي من كبار قواده ، ورحل بعد ذلك إلى إفريقية . أما يحيى ، فقد تمكن موسى بن أبي العافية من اعتقاله وسجنه عشرين سنة بمدينة لكاي ، ثم أطلقه بعد ذلك ، فرحل إلى المهديّة سنة ٣٢٩ هـ (٢) ، حيث توفي بها جوعا أثناء حصار أبي يزيد بن كيداد اليفرنى للمهديّة في سنة ٣٣٢ هـ (٣) .

أما فاس ، فقد ثار بها حسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجام بعد ثلاثة أشهر من ولاية ريمان في سنة ٣٠٩ هـ ، فقدم إلى فاس في حشود كثيفة من شيعته ، وأنصاره ، فباغت أهلها ، واستولى عليها ، ونفى ريمانا منها ، وملكها طامين ، ثم قام بينه وبين موسى بن أبي العافية خلاف ، فزحف الحسن إلى موسى في سنة ٣١١ هـ ، واشتبك معه في قتال شديد ، على مقربة من وادي المطاحن ، بين فاس وتازي ، انتهى بهزيمة موسى بن أبي العافية ، وقتل من رجاله أكثر من ألفين ، من جملتهم ابنه منهل (٤) . ولكن ابن خلدون يذكر أن الحسن عاد إلى فاس منهزما (٥) .

(١) المرجع السابق ، ص ٣٢ - ابن الخطيب ، ص ٢١١ - القفشندي ، صبح الاعشى ج ٥ ص ١٨٢ - السلاوي ، ج ١ ص ١٨٣

(٢) البكري ، ص ١٢٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢

(٣) ذكر البكري أنه توفي بالمهريّة سنة ٣٣٤ هـ

(٤) البكري ، ص ١٢٧ - ابن عذاري ، ٣٠٢ - ابن الخطيب ، ص ٢١٢ - السلاوي ، ج ١ ص ١٨٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٣٢ - القفشندي ، ص ٢٨٣

وأغلب الظن أن النصر تم لموسى في النهاية ، وأن الحسن الحجام عاد مفلولا إلى فاس ، فقدر به عامله على عدوة القرويين حامد بن حمدان الهمداني المعروف باللوزي ، فقبض عليه ، وأغلق أبواب عدوة القرويين عن عسكر الحجام ، ثم أرسل حامد إلى موسى ، فأناه بجيوشه ، ودخل عدوة القرويين ، وأخذ يبحث حامدا على قتل الحجام في سجنه ، ولكن حامد سوف في ذلك وماطل في تنفيذه ، ثم أطلق الحسن متنكرا بعد ما عابن من قسوة موسى بن أبي العافية . فتدلى الحسن من سور للعدوة ، فسقط ، وكسرت ساقه ، فتحامل على نفسه حتى وصل إلى عدوة الاندلسيين ، حيث مات بعد لياليتين من هروبه في سنة ٣١٣ هـ . أما حامد فقد فر إلى المهديّة ١ .

ثم تمكن موسى بن أبي العافية من الاستيلاء على عدوة الاندلسيين ، وقتل عبد الله بن ثعلبة بن محارب وابنيه محمد ويوسف ، وانقرضت بذلك دولة الأمارسة بفاس ، وخضعت بلادهم لموسى بن أبي العافية ، الذي اتخذ من الأدراسة ، وأجلام عن مواضعهم ، ونقام بمدينة حجر النسر .

(١) البكري ، ص ١٢٧ - ابن عذاري ، ص ٣٠٣ - ابن خلدون ، ص ٣٣ - ابن

(٣)

مدينة فاس حاضرة الإدارة

١ - مشكلة تاريخ تأسيس مدينة فاس :

يؤكد الجغرافيون العرب الذين وصفوا مدينة فاس بأنها تتألف من مدينتين منفصلتين ، وأقدم هؤلاء الجغرافيين يعقوبي ، وابن حوقل ، والبكري ، والإدريسي .

فقد وصف الجغرافي يعقوبي مدينة فاس في القرن الثالث الهجري بقوله : « ثم يدخل إلى المدينة المظلمة التي يقال لها مدينة إفريقية على النهر العظيم الذي يقال له فاس ، بها يحيى بن يحيى بن إدريس ، وهي مدينة جلييلة ، كثيرة العمارة والمنازل . ومن الجانب الغربي من نهر فاس ، وهو نهر يقال إنه أعظم من جميع أنهار الأرض ، عليه ثلاثة آلاف رحي تطحن ، للمدينة التي تسمى مدينة أهل الأندلس ، يزها داود بن إدريس » (١) .

ووصفها أيضا الجغرافي ابن حوقل في القرن الرابع الهجري بأنها : « مدينة جلييلة يشقها نهر ، وهي جانبان يليها أميران مختلفان ، وبين أهل الجانبين الفتن الدائمة ، والقتل الذريع للتصل ، ونهرها كبير غزير الماء ، عليه أرحية كثيرة ، وهي مدينة خصبة مفروشة بالحجارة ، أحدثها إدريس بن إدريس ... » (٢) .

(١) يعقوبي ، ص ٣٥٧ ، ٣٥٨

(٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٩٠

ويصفها البكري في القرن الخامس الهجري بقوله : « ومدينة فاس
مدينتان مقترنتان مسورتان ، وبينهما نهر مطرد ، وأرحاء وقناطر ، وعدوة
القرويين في غربي عدوة الأندلسيين ... وعلى باب دار الرجل فيها رحاه
وبستانه بأنواع الثمر ، وجداول الماء تحرق داره . وبالمدينتين أزيد من
ثلاث مائة رحا ، وفيها نحو عشرين حماما ، وهي أكثر بلاد المغرب يهودا ،
يختلفون منها إلى جميع الآفاق ، ومن أمثال أهل المغرب « فاس بلد
بلائس » ، وكنا عدوتى فاس في صفح جبل ، والنهر الذى بينها مخرجه
من عين غزيرة في وسط برج ببلاد مطفرة ، على مسيرة نصف يوم من فاس ،
وأسست عدوة الأندلسيين في سنة ١٩٢ هـ ، وعدوة القرويين في سنة
ثلاث وتسعين ومائة في ولاية إدريس بن إدريس » (١) .

وأخيرا يصفها الإدريسي في القرن الخامس الهجري بقوله : « ومدينة
فاس مدينتان بينهما نهر كبير يأتي من عيون تسمى عيون ، وعليه في داخل
المدينة أرحاء كثيرة تطحن بها الحنطة بلائس له خطر ، والمدينة الشمالية منها
تسمى القرويين ، وتسمى الجنوبية الأندلس ، والأندلس ماؤها قليل ،
لكن يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وينفع منه بعضها ، وأما مدينة
القرويين فيأهاها كثيرة ... وفي كل مدينة منهما جامع ومنبر وإمام ، وبين
المدينتين أودافين ومقانات ، وبالجملة إن أهل مدينتى فاس يقتل فتياتهما
بعضهم بعضا » (٢) .

وتتضمن المصنفات التاريخية المغربية كثيرا من التفاصيل عن تاريخ

(١) البكري ، ص ١١٥

(٢) الإدريسي ، ص ٧٥ ، ٧٦

فاس ونشأتها ، وأمهها روض القرطاس لابن أبي زرع ، وزهرة الآس للجزناى ، وجذوة الاقتباس لابن القاضى . وكل هذه المصنفات تجمع على أن إدريس بن إدريس بن عبد الله هو مؤسس مدينة فاس ، وأنه شرع فى تأسيس عدوة الأندلسيين فى عام ١٩٢ ، وأسس عدوة القرويين بعد ذلك فى سنة ١٩٣ هـ . وقبل أن نخوض فى مشكلة تاريخ بناء مدينة فاس ، وهى مشكلة أنارها المستشرق الفرنسى الأستاذ لىنى بروفنسال (١) ، أود أن أستعرض بإيجاز ما أورده القرطاس وزهرة الآس ، وجذوة الاقتباس فيما يختص بتأسيس مدينة فاس :

١ - لا رأى الإمام إدريس بن إدريس أن الأمر استقام له ، وعظم ملكه ، وكثر أنصاره وحشمة ، وضائق بهم ولىلى ، عزم على الانتقال منها إلى مدينة جديدة يؤسسها ، وبسكنها هو وخاصته وجنوده ووجوه أهل دولته ، فركب بعد الاستخارة فى خاصة من قومه فى سنة ١٩٠ هـ ، وطاف ببعض النواحي إلى أن بلغ جبل زالغ ، فعزم على أن يبنى فيه المدينة ، وشرع بالفعل فى بنائها ، فبنى بعض دورها ونحو الثلث من سورها ، فأتى السيل من أعلى الجبل فى بعض الليالى ، وهدم السور والدور ، وحمل ما حول ذلك من الخيام والزروع وألقى به فى نهر سبو . فعدل عن هذا الموضع .

٢ - ثم خرج فى العام التالى فى بداية عام ١٩١ هـ ، ليرتاد موقعا يبنى فيه مدينته ، فأنتهى إلى نهر سبو بالقرب من حمة خولان ، فأعجبه الموضع

(١) لىنى بروفنسال ، الاسلام فى المغرب والأندلس ، ترجمة الدكتور السيد عبدالغزير سالم ، والأستاذ محمد صلاح الدين حلى ، القاهرة ١٩٥٨ م ١-٥٠

لقربه من الماء ، ولوجود الحمة الساخنة ، وشرع في حفر الأساس ، وعمل الجيار ، وابتدأ بالبناء . ثم فكر في نهر سبو وما يأتي به من المدود والسيول ، زمن الشتاء ، وما يحدث نتيجة ذلك من الضرر العظيم للناس ، فكف عن البناء ، وعاد إلى ويلي .

٣ - عهد إدريس بعد ذلك إلى وزيره عمير بن مصعب الأزدى بمهمة ارتياد موضع لتأسيس مدينته ، فزل على عين ماء سميت بعين عمير ، ثم ركب إلى فخص سايس حتى وصل إلى العيون التي يتبع منها نهر وادي فاس ، فرأى عيونا كثيرة تزيد على الستين عينا ، ورأى مياهها تفيض على الأرض فسيحة ، فشرب من الماء ، فاستطابه ، ثم سار في اتجاه الوادي حتى وصل إلى الموضع الذي قامت عليه مدينة فاس ، فنظر إلى ما بين الجبلين ، فرأى غيضة ملتفة الأشجار ، مطردة العيون والأنهار ، وفي مواضع منها خيام من شعر يسكنها قوم من زواغة يعرفون ببني الحخير ، وقوم من زنانة يعرفون ببني يرغش ، كانوا على دين المجوسية ، وكان بيت نارهم في الموضع المعروف بشيوية ، وكان بعضهم على دين اليهودية ، وبعضهم على دين النصرانية . وكان بنو الحخير يزلون بعدوة القرويين ، وبنو يرغش يزلون بعدوة الأندلسيين ، وكانوا على خلاف دائم لبابين أديانهم ، واختلاف نزعاتهم .

٤ - رجع عمير إلى إدريس ، وعبر له عن استحسانه لذلك الموضع ، من كثرة مياهه ، وطيب تربه ، ورطوبة هوائه ، فصر إدريس ، وركب إلى هناك ليشاهد الموضع ، فوجد بني الحخير وبني يرغش يقتتلون ، فأصلح بينهم ، وأسلموا على يده ، ثم إنه اشترى منهم موضع الغيضة بستة آلاف درهم ، فرضوا بذلك .

٥ - ضرب إدريس أخيه وقبائه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الأندلس ، وابتدأ ببناء سورها ، وبنى بها جامعا للخطبة قريبا من رحبة البئر ، يعرف بجامع الأشياخ .

٦ - انتقل إدريس بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالمفرمة من عدوة القرويين ، حيث دار القيطون المتصلة بمسجد الشرفاء ، وابتدأ بحفر الأساس بفأس من ذهب . ونبه القعلة في ذلك فسميت المدينة فاسا ، وقيل أنه لما شرع في حفر أساسها من جهة القبلة وجد في الحفر فاس أثرى كبير ، فسميت المدينة فاسا لذلك . وقيل أن راهبا أخبره بأنه كانت تقوم في موضع القرويين مدينة أزلية ، خربت منذ ألف عام ، وكان اسمها ساف ، فأثر إدريس أن يسمى مدينته باسم المدينة القديمة مقلوبا . وشرع في بنائها في غرة ربيع الأول سنة ١٩٣ هـ ، وأدار حولها السور ، وبنى لها مسجدا لصق داره المعروفة بدار القيطون سمى بمسجد الشرفاء . وكان في أثناء ذلك قد أمر الناس ببناء الدور والقرس ، ونادى فيهم أن كل من بنى موضعا أو اغترسه قبل تمام السور فهو له هبة لله تبارك وتعالى .

٧ - لما فرغ إدريس من بناء أسوار المدينة (القرويين) وجامع خطبتها ، أنزل الوافدين عليه من الأندلس بالعدوة الشرقية ، فسميت لذلك بعدوة الأندلس ، وأنزل الوافدين عليه من القيروان بالعدوة الغربية منها فسميت لذلك بعدوة القرويين . ثم أمر الناس بزيادة البناء والقرس ، فبنى الناس الدور والمساجد في القرويين ، وغرسوا جانبي الوادي من منبعه بفحص سابس إلى مصبه في نهر سبو بأنواع الأشجار ، وعمرت الأرض بفرس الأشجار ومختلف أنواع المزروعات ، وزاد العمران ، وقصد الناس مدينة

فاس (يقصد القرويين) . ولما كملت المدينة واستقامت حال رعيته فيها ،
خطب في الناس بجماعها (١) .

* * *

ويخرج الأستاذ ليفي بروفنسال من هذه الروايات المختلفة في نشأة
مدينة فاس بثلاثة أسئلة لا إجابة عنها في المصادر العربية ، الاول : ماهو
مغزى تأسيس إدريس الثاني لمدينتين متجاورتين ومنفصلتين في آن واحد ،
لكل منها سور مستقل ، في تاريخ متقارب ، بحيث لا يفصلها من العمر إلا
عام واحد ؟

والثاني : كيف استطاع هذا الإمام الصغير الذي لم يكن يتجاوز من
عمره ١٧ عاما أن يقوم بتنفيذ مشروع ضخم وهو إنشاء مدينتين مختلفتين
في مكان واحد ؟

الثالث : لماذا آثر إدريس إيجاد تعارض عنصري وسياسي واجتماعي
لمدينتين متماثلتين ؟

وعندئذ يعرض الأستاذ ليفي بروفنسال نظرية جديدة في نشأة فاس ،
وتقوم أساسا على أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة فاس في سنة ١٧٢ هـ
في الموضع الذي تقوم عليه عدوة الاندلس ، وأن إدريس بن إدريس

(١) ارجع الى : ابن أبي ذرم ، كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار
ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نخبة تورنبرج Carolus Johannes Tornberg
أساة ١٨٤٣ - الجزأين ، كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ، نخبة الفريدل ،
الجزائر ١٩٢٢ - السلاوي ، الاستقصا ، لأخبار دول المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ،

أسس عدوة القرويين في سنة ١٩٩٢ هـ في غرب مدينة أبيه ، وعلى الضفة اليسرى من وادي فاس ، في الموضع المعروف بدار القيطون . وقد اعتمد الأستاذ ليفي روفنسال لإثبات هذه النظرية على أدلة مادية ، وعلى نصوص تاريخية نجملها فيما يلي :

الأدلة المادية :

- ١ - في المكتبة الأهلية بباريس درم ضرب بمدينة فاس في سنة ١٨٨٩ هـ ، قبل التاريخ المتواتر في المصادر السابقة لتأسيس مدينة إدريس الثاني بسنتين .
- ٢ - في متحف مدينة خاركوف درم آخر ضرب في مدينة فاس في سنة ١٨٥ هـ .

٣ - في نفس الوقت توجد عملات يظهر فيها اسم إدريس الثاني ضربت في ويلي وتدغة تحمل التواريخ المتعاقبة لسنوات ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ هـ .

٤ - معظم العملات التي تحمل اسم إدريس الثاني ضربت في مدينة العالية في سنوات ١٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٤ هـ . وللمقصد هذه المدينة حسب ما يراه الأستاذ ليفي روفنسال إما أنها تعني للترقعة باعتبار أن عدوة القرويين أكثر ارتفاعا من عدوة الأندلسيين ، وإما نسبة إلى علي ، أو أنها صفة الحضرة العلية ، بدليل أن النديسة البيضاء التي أسسها بنو مرين كانت تسمى بفاس العليا .

ويفسر الأستاذ ليفي روفنسال هذا التباين في أسماء دور السكة الإدريسية بأن فاس كانت مركزا لسك العملة قبل سنة ١٩٢ هـ ، استنادا على الحقائق المستمدة من نقوش العملات ، إذ أن اسم فاس يختفي منذ

سنة ١٩٨ هـ وما بعدها، ويحل اسم العالية محل اسم س ، ولا يعود اسم فاس إلى الظهور على العملات المغربية إلا منذ سنة ٣٦٩ هـ على درهم فاطمي، وعلى عملات أموية مضروبة تحمل اسم هشام المؤيد كما تحمل تاريخا بقراوح ما بين عامي ٣٧٧، ٣٩٨ هـ. ويخرج الاستاذ ليفي بروفنسال من كل ذلك بأن فاس أسست قبل سنة ١٨٥ هـ (١).

الأدلة التاريخية :

١ - رواية عن المؤرخ القرطبي أبو بكر أحمد بن محمد الرازي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ نقلها ابن الأبار في الحلة السيرة، جاء فيها أن إدريس بن عبد الله دخل المغرب في سنة ١٧٢ هـ في شهر رمضان، وذلك بعد أن هرب من تعقب أبي جعفر المنصور له، ونزل في موضع يعرف بوليلي يقع قريبا من وادي الزيتون. وهناك اجتمعت إليه قبائل من البربر، وبايعوه بالإمامة، فأسس مدينة فاس، وكانت أجمة شعراء. وسميت بفاس لأنهم لا شرعوا في حفر أساسها وجدوا فاسا في موضع الحفر، وسكنها البربر، ولم يطل عهد إدريس بن عبد الله، إذ توفي في سنة ١٧٤ هـ تاركا إحدى جارياته حاملا منه، فوضعت غلاما ذكر اسم إدريس، وهو الذي خلف أباه على مدينة فاس، وطال به العلم في الإمامة حتى توفي في شهر ربيع الأول سنة ٢١٣ هـ، وكان مولده في شهر ربيع الثاني سنة ٧٥ هـ (٢).

ويخرج الاستاذ ليفي بروفنسال من هذا النص بالحقيقة التالية : أن

(١) ليفي بروفنسال، الإسلام في المغرب والأندلس، ص ١٠-١٩.

Roger le Tourneau, Fès avant le Protectorat, Casablanca, 1949, pp. 33. et sqq.

(٢) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١ ص ٥٥.

إدريس بن عبد الله أسس فاسا سنة ١٧٢ هـ على أكثر تقدير ، وهي سنة وصوله إلى المغرب الأقصى ، ولا يمكن أن تكون قد تأسست بعد سنة ١٧٤ لأنه توفي في هذه السنة ، وأن هذه المنشأة المدنية التي سميت بفاس كانت منذ نشأتها مدينة بربرية .

٢ - رواية لابن سعيد المغربي في المغرب ، ولا بن فضل الله العمري في مسالك الألبصار ، وللقلشندي في صبح الأعشى ، وهي رواية نقلت عن مصدر واحد هام ، ونصها :

قال ابن سعيد في المغرب : « وهي مدينتان إحداهما بناها إدريس بن عبد الله أحد خلفاء الأدارسة بالمغرب وتعرف بعدوة الأندلس ، والأخرى بليت بعدها وتعرف باسم عدوة القرويين » (١).

وبهذه الرواية تثبت أن فاسا من إنشاء إدريس بن عبد الله ، وأنها هي نفس المدينة التي أطلق عليها فيما بعد اسم عدوة الأندلسيين ، وأن عدوة القرويين من إنشاء إدريس بن إدريس (٢) .

٣ - نص رواه البكري (بخلاف النص الذي أشرنا إليه سابقا في وصف فاس) نقلا عن أبي الحسن النوفلي جاء فيه ما يلي : « وقتل أبا ليلى اسحق ، وهو القائم به وبأبيه ، يوم السبت لست خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين ومائة ، وبعث رأسه إلى المشرق مع أحمد وسليمان ابني عبد الرحمن ، ثم نزل مدينة فاس في عدوة الأندلسيين ، وأقام بها شهرا ، وذلك سنة

(١) القلشندي ، صبح الأعشى في صناعة الانشا ، ج ٥ ، ص ١٥٣

(٢) ليني بروفسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٣

اثنين وتسعين ومائة ، ولما كانت عدوة القرويين غياضا في أطرافها أبيات من زواغة ، فأرسلوا إلى إدريس ، فدخل عندهم ، فأسس مدينة القرويين سنة ثلاث وتسعين (١). وبُني هذا النص بصورة لاندع مجالا للشك أن مدينة فاس وهى عدوة الأندلسيين كانت موجودة بالفعل قبل مجيئه إليها وإقامته بها شهرا كاملا .

٤ - وينقل هذا النص ابن الأبار في كتابه الحلة السراء نقلا عن النوفلى بشيء من الإيجاز ، فيذكر أن إدريس بن إدريس أسس مدينة في القرويين في سنة ١٩٣ هـ^(٢).

٥ - رواية لمؤرخ غرناطى مجهول عاش في القرن الثامن الهجرى ، في عصر سلاطين دولة بنى نصر بغرناطة ، في مجموعة متفرقات تاريخية بعنوان: « الزهرة المنشورة في الأخبار المأثورة » فيها إشارة لثوار ريبض شقندة الذين تقام الحكم بن هشام من الأندلس ، وقد نقل المقرئ هذه الرواية في كتاب فتح الطيب ، وملخصها : أن فريقا من أهل الريبض اتجه إلى بلاد المغرب ، ففزلوا بعدوة الأندلس ، وهى قسم من مدينة فاس ، سمى منذ ذلك الحين باسم عدوة الأندلسيين ، وعمرت هذه العدوة بأنسكان بفضل هؤلاء الوافدين سنة ٢٠٢ هـ ، وتمدين بهم . وكان أمير المغرب وقتئذ القاسم بن إدريس المهاجر من المغرب ، وكان إبننا لعبد الله . وكانت قد مضت ثلاثون سنة بين إعادة تأسيس المدينة على يد الأندلسيين ، وبين تأسيس مدينة فاس القديمة ، التى بُنيَتْ في سنة ١٧٢ هـ ، عندما دخل المدب إدريس بن سيد الله جد القاسم هاربا من تعقب أبي جعفر المنصور له ، حيث التفت حوله اليربر ، وجعلوه

(١) البكرى ، ص ١٢٣

(٢) ابن الأبار ، الحلة السراء ، ج ١ ص ٥٣

إمامهم ، وبنوا له مدينة فاس وكان موضعها غيضة . وعندما حفرت الأسس وجدوا فأسا في باطن الأرض ، وسميت المدينة لذلك السبب بفاس .

ويؤكد هذا النص قيام إدريس بن عبد الله ببناء مدينة فاس في سنة ١٧٢ هـ ، أى قبل وفود الاندلسيين بثلاثين عاما . ويخرج الاستاذ ليني بروفنسال من جميع هذه الأدلة بالتتابع الآتية :

١ - أن إدريس بن عبد الله أسس مدينة على الطراز البربري في الجزء الواقع شرق فاس الحالية في سنة ١٧٢ هـ ، سميت بفاس ، وسكت فيها العملات الإدريسية في تاريخ غير معروف ولكنه يرجع على الأقل إلى سنة ١٨٩ هـ .

٢ - أن إدريس بن إدريس أسس بعد ذلك بنحو ٢١ سنة ، في موضع يقع غربي للموقع الذي أقيمت فيه مدينة فاس في عهد أبيه ، وهو موضع أفضل من حيث المناخ ووفرة المياه من موضع فاس القديمة ، مدينة على الطراز الأفريقي أطلق عليها رسميا اسم العالية . ولعلها سميت أيضا بأفريقية على حد قول اليعقوبي ، وهو اسم له علاقة واضحة بما انتهى إليه اسمها . وهو مدينة القرويين أى مدينة القيروانيين .

٣ - لما وفد أهل الربض بقرطبة إلى المغرب الأقصى لاجئين إلى دولة الأندلس ، أنزلهم إدريس في مدينة أبيه ، فاستقروا فيها ، وأنشأوا بها مدينتهم التي سميت بمدينة الأندلسيين . وعلى هذا النحو أصبح اسم فاس يطلق على العدوتين معا ^(١) .

(١) ليني بروفنسال ، الاسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٧ ، ٢٨

ونضيف إلى الأدلة السابقة التي أوردناها ليني بروفنسال أدلة ثلاثة أخرى مستقاة من كتاب زهرة الآس للجزناى ، ودليلا من ابن عذارى ، ودليلا آخر من ابن الخطيب وأخيراً نضيف دليلا يقوم على المقارنة .

١ - الأدلة للأخوذة من الجزناى :

١ - أن الجزناى ذكر أن الفيضة التي شاهدها عمير بن مصعب الأزدي ، وفيها العيون والأنهار هي الموضع الذي بنى فيه إدريس بن إدريس مدينة فاس ، ولا ينطبق هذا الموضع إلا على عدوة القرويين .

٢ - أن الجزناى قال نقلا عن ابن الرقيق : « ثم إن ضرب الإمام أخيبته وقبائه بالموضع المعروف بجرواوة من عدوة الاندلس ، ودور عليه جرواوة من الخشب فسمى الموضع جرواوة إلى زمانها هذا . ثم انتقل بعد ذلك إلى الموضع المعروف بالقرمدة من عدوة القرويين حيث دار القيطون المتصلة لمسجد الشرفاء ، ثم شرع في البناء » (١) . ومعنى هذا أن إدريس لم يؤسس شيئا في عدوة الاندلسيين ، وإنما أقام بها بعض الوقت ثم انتقل إلى القرمدة حيث شرع في بناء مدينته .

٣ - أن الجزناى عندما تعرض لذكر عدوة الاندلسيين لم يذكر أن إدريس ابن إدريس هو الذي أسسها ، وإنما قال : « أما عدوة الاندلس ، فإنها أسست في يوم الخميس مهل شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين ومائة ، أقام الإمام إدريس منها بالموضع المعروف بجرواوة حيث نزل بأخيبته وقبائه ، وابتدأ

سورها من جهة القبلة» ويمضى بعد ذلك في ذكر الابواب التي فصحت في هذا السور . أما بالنسبة لعدوة القرويين ، فانه يذكر قيام ادريس بانشاء السور ثم يضيف بعد ذلك أنه أمر الناس ببناء الدور والفرس ، وأن كل من بنى موضعا أو اغترس قبل تمام السور فهو له . وهذا دليل على أن عدوة الاندلسيين كانت بها دور وأبنية من قبل .

ب - الدليل المأخوذ من ابن عذارى :

ذكر ابن عذارى فيما يختص ببناء فاس النص التالي : « وكانت عدوة القرويين غياضا في أطرافها بيوت من زراغة ، فأسلموا إليه ، ودبر في البناء عندهم ، فكان ابتداء بناء مدينة فاس سنة ١٩٣ وذلك عدوة القرويين » (١) . ووضح من هذا النص أن ابن عذارى يشير إلى قيام إدريس بن إدريس ببناء عدوة القرويين .

ج - الدليل المأخوذ من ابن الخطيب :

عندما ذكر ابن الخطيب قيام ادريس بن ادريس ببناء مدينة فاس سنة ١٩٢ ، ذكر أنه « بنى داره المعروفة اليوم لسلفه بدار القيطون ، ومسجدها بمجواره ، وعظم شأنها بالعمارة بعده ، وسكنها الملوك والاشراف (٢) . ولما كانت دار القيطون المذكورة تقع في ربض القرويين ، فانه يتضح لنا من هذا النص أن المقصود ببناء فاس هو بناء مدينة القرويين .

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٩

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩

د - الدليل القائم على المقارنة :

عندما اجتمعت قبائل زناتة الصغرى حول أبي القاسم صفون بن واسول المكنامى الصغرى اخط لهم مدينة سجلماسة سنة ١٤٠ هـ ، كذلك أسس عبد الرحمن بن رستم الفارسمى مدينة تاهرت سنة ١٤٤ هـ ، وهى نفس السنة التى انهزم فيها أبو الخطاب على يدى ابن الاشعث ، وفر ابن رستم على أمر ذلك إلى جبل سونج حيث اجتمع إليه الإباضية ، فأسس لهم مدينة تاهرت . وفى المغرب الأدنى قام ابراهيم بن الاغلب بتأسيس مدينة العباسية أو القصر القديم بعد توليته الإمارة بعهد من الخليفة الرشيد فى جمادى الآخرة سنة ١٨٤ هـ ، بأقل من عام ، وانتقل إليها فى سنة ١٨٥ هـ . ونستخلص من ذلك أن قيام الدول المستقلة بالمغرب فى القرن الثانى الهجرى كان يقعه مباشرة قيام مدن جديدة . ولا نشك فى أن ادريس بن عبد الله أسس فى حياته مدينة فاس اقتداء ببنى واسول المدراريين بسجلماسة ، وبنى رستم بتاهرت ، وليس من المحقول أن ينتظر الإدارة عشرين سنة لكى يؤسسوا مدينة تكون مقرا لهم .



بقى علينا تفسير نقطة أخيرة ، وهى أنه إذا كان تاريخ سنة ١٧٢ هـ الذى حددناه لبناء مدينة فاس فى عهد إدريس الأول فلماذا لم يذكره المؤرخون وبنصوا عليه صراحة ، وإذا جعلوا إنشاء مدينتى فاس فى عاى ١٩٢ ، ١٩٣ بدلا من هذا التاريخ ؟ .

يفسر الاستاذ لبنى برفنسال كيف استقر التاريخ الحاسطى لبناء فاس سنة ١٩٢ فى الرواية القديمة ، وحل محل التاريخ الحقيقى وهو سنة ١٧٢ ،

بأنه من المحقق وقوع لبس بين إنشاء مدينة فاس وإنشاء مدينة العالية، وظهر هذا اللبس منذ أن أطلق اسم فاس على المدينتين معا . ومما أزداد هذا اللبس تشابه إسمي للزوسين . ويعتقد أن أساس هذا اللبس التاريخي يرجع إلى خطأ يسير في القراءة بين رقمي سبعين وتسعين ، وهو خطأ أدى إلى تحريف سنة ١٧٢ هـ . إلى ١٩٢ هـ .^(١) ونحن نؤيد الاسم الذي يروى في ذلك الرأي ، فكثيرا ما نعتز على أخطاء تاريخية ناتجة عن التحريف في النقل ، ونذكر مثالا لذلك التحريف الذي يقع فيه النساخ في كثير من الأحيان ، فابن الخطيب يذكر عندما يتعرض لذكر دولة العدا بن القاسم بن إدريس أنه اغتيل على يد ربيع بن سليمان سنة اثنتين وسبعين ومائتين بدلا من التاريخ الصحيح وهو سنة اثنتين وتسعين ومائتين^(٢) .

ب - تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين :

١ - فاس في عصر الإدريسة :

لم تكن مدينة فاس التي أسسها إدريس بن عبد الله في سنة ١٧٢ هـ ، وهي سنة نزوله في أرض ويلي سوى لمدة صغيرة ذات طابع بربري ريفي ، شأنها في ذلك شأن القرى المتناثرة التي نشاهدها في جنوب المغرب الأقصى والتي لا تضم من العمران غير بضعة دور متوزعة . وكانت فاس التي بناها إدريس بن عبد الله تحمل طابعا بربريا مائثلا ، ويجلي ذلك في اسم الموضع الذي نزل فيه إدريس بن إدريس بها في سنة ١٩٢ هـ وهو المعروف بجرواوة

(١) ليلى بروشال ، المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٠٩ .

وهو جدار من جذوع الشجر والغاب ، سور به معسكره الذي كان يجتمع فيه مع مشايخ البربر ^(١) . كذلك يحمل جامع الاشياخ أيضا هذا الطابع البربري ، والمقصود بالاشياخ شيوخ البربر الذين كانوا يرافقون إدريس في رحلته ، ويعرفون بالآمغارن .

وعلى الرغم من قيام إدريس بن عبد الله بإنشاء مدينة فاس ، فقد أثر أن يقيم في وليمي بين أنصاره من البربر ، الذين أيدوه ونصروه ، ولما توفي دفن بوليلي . وأثر ابنه إدريس الثاني الإقامة في وليمي بين أنصار أبيه ، حتى إذا ما بويع بالإمامة في سنة ١٨٦ هـ ، واستقام له الأمر بالمغرب الأقصى ، ووقد عليه العرب من كل مكان من إفريقية والأندلس ، وقدم إليه في جملة الوافدين في سنة ١٨٩ نحو خمسمائة من الفرسان للعرب من القيسية والازد والحزرج ومدلج وبني يحصب ، بدأ إدريس يفكر في الخروج من عزلته التي فرضها عليه الأوصياء عليه والكافلين له ، فقرب العرب إليه ، وجعلهم بطانته دون البربر ، واعتز بهم « لأنه كان فريداً بين البربر » ^(٢) .

ويبدو أن وزيره العربي عمير بن مصعب الازدي هو الذي أوحى إليه بفكرة الانتقال من وليمي ، إلى مدينة يؤسسها بنفسه وتكون مركزاً له ، لأن مدينة أبيه ماؤها قليل ، إذ يشقها نهر واحد يمر بأعلاها ، وأما موضع مدينة القرويين الذي أعجب به عمير فكان كثير المياه ، بحيث كانت المياه بعد تأسيس عدوة القرويين تجري في كل شارع منها وفي كل زقاق ^(٣) . ويبدو

(١) ليلى بروفسال ، ص ٣٥

(٢) الميزناوى ، ص ١٣

(٣) الادريسي ، ص ٧٥

أن هذه الفكرة لقيت قبولا واسمحسانا عند إدريس ، فزاه يخرج في سنة ١٩٠ هـ ليرتاد موضعا ينشئ فيه مدينته الجديدة ، ويبدو أن زعيم بربر أوربة اسحق خالقه في ذلك وتآمر مع ابن الاغلب ، فقتله إدريس في سنة ١٩٢ هـ . وأخيرا اهتدى إدريس إلى موضع مدينة القرويين ، فأسسها قبالة مدينة فاس ، على النحو الذي فصلناه آنفا .

ولقد أسس إدريس في القرويين مسجدا جامعا هو الجامع المعروف بالشرفاء ، وقيسارية إلى جانب هذا الجامع ، وأدار الأسوار من كل جانب^(١) وكان لا بد لمدينة القرويين التي بناها إدريس وسماها بالعالية أن تنمو سريعا وتعمر بالبناء ، فأسكنها العرب الوافدين عليه من القيروان والأندلس ورجال الحاشية ، والمخاصة ، فسميت بعد ذلك بعدوة القرويين ، وأمرهم إدريس بزيادة البناء والفرس ، فأسس الناس الدور والمساجد والخوانيت (انظر خريطة رقم ٨ ، ٩) . أما البربر فلم يكن لديهم ما يشكون منه ، إذ كانت سم مدينتهم المخاصة ذات الطابع البربري الذي يتفق مع طابع حياتهم ، وهي مدينة فاس التي أقامها إدريس بن عبد الله ، فسكن فيها فرسان الأمير وعسكره وقواده من البربر^(٢) ، وأخذت عدوة القرويين تنمو ويزدهر فيها العمران ، بينما ظلت مدينة فاس القديمة متأخرة عنها . وفي سنة ٢٠٢ هـ قدم على إدريس جماعة من الربضييين الأندلسيين ، الذين أخرجهم الأمير الحكم الربضي من ربض شقندة بقرطبة ، فأنزلهم إدريس مدينة فاس . ولم تكن فاس تعدو

(١) ابن أبي دوح ، وروض النرماس ، ص ١٩ ، ٢٠

(٢) ليفي بروهال ، الإسلام في المغرب والأندلس ص ٤٠

وقد بُدِ قريّة ، بيوتها متواضعة مبنية من اللبن ، مسقوفة بفروع الاشجار ، ولم يمض عهد قصير على نزول الاندلسيين بها حتى ارتفعت من مجرد قريّة إلى مصاف المدن ، وإن كان الطابع الريفي ما زال يفرض نفسه على أحيائها المتطرفة حتى اليوم ^(١) . وكان يفتح بسور عدوة الاندلسيين عدة أبواب هي : أبواب القبلة ، والكنيسة أو الخوخة ، وأبو سفين ، وجرواوة والشيبوة ، والمخفية . أما أبواب سور عدوة القرويين فهي : إفريقية ، والقلمة ، والحديد ، والفرج أو السلسلة ، والفصيل أو النقبة ^(٢) . إلا أن هذه الأسماء تغيرت فيما بعد ، وحلت محلها أسماء أخرى .

٢ - فاس في عصر بن موسى بن أبي العافية :

في سنة ٣١٩ هـ استعمل موسى على عدوة الأندلس طوال بن أبي يزيد ، بينما استغلف موسى ابنه مدين على عدوة القرويين . وفي هذه السنة كاتب موسى بن أبي العافية الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله صاحب الأندلس ، « ورغب في موالاته والدخول في طاعته ، وأن يستميل له أهواء أهل العدوة المجاورين له ^(٣) » . فتقبله عبد الرحمن أحسن قبول ، وأمدّه بالغلج والأموال ، وبفضل ذلك تمكن موسى من التغلب على مدينة جرواوة ، وأخرج عنها الحسن بن أبي العيش بن إدريس .

ولما بلغ عيد الله المهدى نبأ خروج موسى على طاعته ، سار إليه فائده حميد ابن بصلى المكناسي ، صاحب تاهرت ، في عشرة آلاف فارس ، فتقدم حميد في سنة ٣٢١ هـ إلى المغرب معه حامد بن حمدان الهمداني . فلما علم مدين ابن موسى بقدمهما إلى فاس ، فرعنها ولحق بأبيه . فدخلها حميد ، واستعمل

(١) لبي مرفوشال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٤٠

(٢) الجزائري ، ص ١٩ ، ٢٠

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٨٢

عليها حامد بن حمدان الحمداني . ثم عاحيد إلى إفريقية (١) . وأقام حامد واليا على فاس من قبل الفاطميين ، إلى أن تار عليه أحمد بن بكر بن عبد الرحمن بن أبي سهل الجذامي في سنة ٣٢٢ هـ ، عقب وفاة عبيد الله المهدي ، فقتل حامدا ابن حمدان ، وبعث برأسه ورأس ولده إلى موسى بن أبي العافية ، فأرسلها موسى إلى عبد الرحمن الناصر بقرطبة مع سعيد بن الزراد ، وعادت الدعوة في فاس باسم الخليفة عبد الرحمن الناصر . ولكن الخليفة الفاطمي أبا القاسم بن عبيد الله المهدي لم يرض بهذا الوضع ، فسير قائده ميسور النقي إلى المغرب في سنة ٣٢٣ هـ ، وتقدم ميسور إلى فاس ، فحاصرها أياما ، فخرج إليه أحمد بن بكر إلى معسكره مبايعا ، وقدم إليه هدية قبيصة وأموالا ، فقبض عليه ميسور ، وبعث به إلى المهدي (٢) . وما إن علم أهل فاس ، بغدر ميسور ، امتنعوا عليه ، وتمحصنوا داخل أسوار مدينتهم ، وقدموا على أنفسهم حسن ابن قاسم اللواتي ، فحاصروهم ميسور سبعة أشهر ، ولما طال عليهم الحصار فافوضوه في الصلح ، فصالحهم على أن يعطوه ستة آلاف دينار ، وأنطاغا ولبودا وقربا للماء وأثاثا ، وعلى أن يبايعوا لأبي القاسم الشيعي ، ويسجلوا اسمه في السكة ، ويخطبوا له على منابرهم ، وأقر ميسور عليهم حسن بن قاسم اللواتي ، ثم ارتحل عنهم (٣) . وظل حسن اللواتي عاملا على فاس إلى أن قدم أحمد بن بكر من المهدي ، فتخلى له حسن عن الولاية في سنة ٣٤١ هـ .

(١) البكري ، ص ١٢٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ص ٢١٦
(٢) نفس المرجع - ابن الخطيب ص ٢١٦ - القفطندي ، ج ٥ ص ١٨٤ - السلاوي ج ١ ص ١٨٩
(٣) البكري ، ص ١٢٨ - القفطندي ص ١٨٤ - إل - ي ص ١٨٩

ثم باع اهل فاس الناصر لدين الله فيمن بايعه من اهل العدو ، فولى عليهم محمدا بن الخضر المغربي ، فظل يليها من قبل الخليفة الأموي ما يقرب من عام ، ثم رحل إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف عليها ابن عم أحمد ابن أبي بكر بن أحمد بن عثمان بن سعيد الزناتى ، وهو الذى بنى صومعة جامع القرويين بفاس سنة ٣٤٤ هـ ^(١) .

٣ - سيطرة زناتة على فاس ومولاتها لخلع بنى أمية بقرطبة :

غضب المعز لدين الله الفاطمى لخروج المغرب الاقصى من طاعته ، وانقضائه إلى الخلافة الاموية فى الأندلس ، فسار جوهرا الصقلي فى جيش كثيف من بربر كتامة وصنهاجة ، لاستئصال التوار فى المغرب ، وإعادة للنفوذ الفاطمى على المغرب ، ونجح جوهر فى استيلاء بلاد العدو ، وقدم إلى فاس لمحاصرتها ، ولكنها استعصت عليه ، تركها إلى سجداسة ، واستولى عليها . ومن هناك مضى إلى فاس ، فتمز عليها فى سنة ٣٤٩ هـ ، فحاصرها من سائر جهاتها زهاء نصف شهر ، ثم اقتحمها قائده زبرى ابن مناد الصنهاجى بالسيف ، إذ تسنم أسوارها ليلا ودخلها فقتل بها عددا كبيرا من سكانها ، وقبض على أميرها أحمد بن أبي بكر الزناتى عامل للناصر الأموى عليها ، ونهب المدينة ، وقتل حماها وشيوخها ، وسب أهلها ، وهدم أسوارها . و دخل جوهر فى ٢٠ رمضان سنة ٣٤٩ هـ . ويرى ابن الأثير قصة سقوط فاس يقول : و تم سار منها إلى فاس وبها أحمد بن بكر ، فأغلن أبرابها ، فثار لها جوهر ، وقاتلها مدة ، فلم يقدر عليها ، وأنته هدايا الأمراء الفاطميين بأقاصى السوس ، وأشاروا على جوهر وأصحابه

بالرحيل إلى سجلماسة... وسلك تلك البلاد جميعها، فافتتحتها، وعاد إلى فاس فقاتلها مدة طويلة، فقام زيرى بن مناد، فاختر من قومه رجالا لهم شجاعة، وأمرهم أن يأخذوا السلايليم، وقصدوا البلد، وصعدوا إلى السور الأدنى في السلايليم، وأهل فاس آمنون، فلما صعدوا على السور، قتلوا من عليه ونزلوا إلى السور الثاني، وفتحوا الأبواب، وأشعلوا المشاعل، وضربوا الطبول، وكانت الإمارة بين زيرى وجوهر، فلما سمعها جوهر ركب في العساكر فدخل فاس^(١).

وظل النفوذ الفاطمي قائما بفاس إلى أن أرسل الخليفة الحكم المستنصر قائده غالب إلى المغرب في سنة ٣٦٢ هـ، فسار إلى فاس في سنة ٣٦٣ هـ، فدخلها، واستعمل عليها محمد بن أبي علي بن قشوش بعدوة القرويين، وعبد الكريم بن ثعلبة بعدوه الأندلس، وعاد غالب بعد ذلك في آخر رمضان سنة ٣٦٣ هـ إلى الأندلس. ولم يرض على رحيله ست سنوات حتى زحف بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجي على المغرب الأقصى، وحاصر مدينتي فاس، وقتل عاميها محمد أبي علي بن قشوش، وعبد الكريم بن ثعلبة، واستعمل على فاس محمد بن عامر المكناسي، ولما تغلب بلكين على المغرب خرج بنو مغراوة من بني خزر وبني بفرن إلى سبتة، وعبر محمد بن الخير من آل خزر إلى المنصور يستنجد به. وظل نفوذ الفاطميين قائما في فاس حتى أرسل المنصور بن أبي عامر ابن عمه أبا الحكم عمرو بن عبدالله بن أبي عامر الملقب بسكلاجه سنة ٣٧٥ هـ لمواجهة تقدم الحسن بن كون الوافد من مصر. ونجح سكلاجه في دخول فاس، واستولى على عدوة الأندلس،

(١) ابن الأثير، ج ٦، ص ٥٤.

وخطب فيها لبني أمية . وبقي محمد بن عامر المكتاني عامل الفاطميين بعدوة القرويين حتى دخلها أبو يساس عنوة في سنة ٣٧٦ هـ ، وقبض على محمد بن عامر وقتله ، وخطب فيها أيضا لبني أمية ^(١) .

عاد عسكلاجة إلى الأندلس ، فعقد المنصور على المغرب الأقصى للوزير حسن بن أحمد بن عبد الودود السلمي سنة ٣٧٦ هـ ، وأوصاه بمقراوة ، ولاسيما مقاتل وزيري ابني عطية ، لإخلاصهم للامويين . فزل الوزير حسن بن أحمد بفاس ، وضبط المغرب ، وأحسن إدارته .

ولما قتل الوزير ابن عبد الودود في سنة ٣٨١ هـ ، وعقد المنصور بن أبي عامر لزيري بن عطية من بعده على المغرب وفاس . وكان أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي قد خرج على أخيه أبي الفتح منصور بن بلكين أمير إفريقية وظهير الدولة الفاطمية في مصر ، وتغلب على تلمسان وهران وهنن وشلف وونشربش وتنس ، وخطب للخليفة هشام المؤيد ، وباج له ، وكتب إلى ابن أبي عامر يخبره بأنه دخل في طاعته ، وأنه يرغب في أن يتصل به زيري بن عطية الزناتي صاحب فاس ، فاشتراط عليه ابن أبي عامر لذلك أن يبعث إليه ابنه رهينة ، ففعل أبو البهار ، ووجه ابنه في مركب مع كاتبه ميمون المعروف بابن الدابة ، ففرقت بهما في البحر ، فوجه أبو البهار ولده الآخر فوصل إلى المنصور ^(٢) ، وعندئذ أرسل إليه المنصور بن أبي عامر بعهده على ما يريده من بلاد ، كما أرسل إليه هدية وخلعا وأربعين ألف

(١) التلفتندي ، صبح الأعشى ، ج ٥ ص ١٨٥ — السلاوي ، الاستبصار ، ص ٢٠٨

(٢) ابن عماري ، ج ١ ص ٣٠٠

ديتارا^(١)، ثم كتب المنصور إلى زيرى بن عطية، به سره أن ينتصر لأبي البهار وبعضه، فلما بلغ أبا البهار ذلك، رحل إلى فاس، والتقى مع زيرى بن عطية، واتفق معه. رآقام أبو البهار على بيعة هشام المؤيد شهرين ثم نكث وخلعها، وعاد بظاهر الدولة الفاطمية، فغضب المنصور لذلك، وكتب إلى زيرى بن عطية بعهده على بلاد أبي البهار، وأمره بمحاربته عليهما. فزحف زيرى بن عطية من مدينة فاس في جيوش لا تحصى من قبائل زناتة وغيرهم ففر أبو البهار أمامه، ولحق بأخيه منصور بن ملكين بأفريقية. وتمكن زيرى من الاستيلاء على جميع أعمال أبي البهار، وبذلك امتد سلطان زيرى من السوس الأقصى إلى الزاب. وكتب بالفتح إلى ابن أبي عامر، وبعث إليه في سنة ٣٨١ هـ هدية نفيسة القيمة، منها مائتا فرس من عتاق الخيل، وخمسون جملًا مهربًا، وألف درقة من جلود اللط، وأحمال كثيرة من قس الزان، وقطوط الغالية والزرافة، وأصناف الوحوش الصحراوية، وألف حمل من التمر الجيد في جنسه، وأحمال كثيرة من ثياب الصوف الرقيقة، فمر بها المنصور^(٢).

وأقام زيرى بفاس، وأسكن قبيلته مغراوة الزناتيين بأعماها، بينا رفع بن يفرن عنها وعن أحوازها، وأبعدهم إلى نواحي سلا، فسكنوها، وفي عام ٣٨٢ هـ استدعاه المنصور بن أبي عامر لزيارة قرطبة، فاستخلف زيرى على المغرب ولده العزيز زيرى، وأمره بسكنى تلمسان، واستخلف على عدوة الأندلس من فاس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة، وعلى عدوة القرويين منها على بن محمد بن أبي علي بن قشوش، ومضى إلى الأندلس،

(١) السلاوى، ج ١ ص ٢١٠

(٢) السلاوى، ج ١ ص ٢١٠

وقدم بين هدية عظيمة، منها طائر فصيح يتكلم العربية والتبرية، ودواب من دواب المسك والة الية ، ومهاة وحشية تشبه الفرس ، وحجوانات غريبة ، وأسدان عظيمان في قفصين من حديد ، وشيء كثير من الثمر في غاية الكبر الواحدة منه تشبه الحيارة عظما، وحمل معه من قومه ٣٠٠ فارس، ومن خدمه وعبيده ٣٠٠ عبد . فاحتفل المنصور بقدومه احتفالا عظيما وخرج إلى لقائه في خاصته وحاشيته ^(١) ، وأنزله في قصر جعفر الحاسب ، وتوسع له في الجرايات والإكرام ، ولقبه باسم الوزير، ومنحه الأموال الكثيرة ، وخلع عليه الخلع النفيسة ، ولم يطل مقام زيرى بقرطبة ، فقد عجل المنصور بارساله إلى المغرب عندما علم باستيلاء بدو بن يعلى اليفرنى صاحب سلا على عدوة الأندلس من فاس في ذى القعدة سنة ٥٣٨٢ هـ . فأقبل زيرى عائدا ، فنزل مرمى طنجة . ويذكر السلاوى أنه لما نزل بهذه المدينة عبر عن رغبته في الاستقلال بالمغرب بقوله : « الآن علمت أنك لى » فقد استخف بلقب الوزارة الذى منحه المنصور إياه ، وكان يطمع في الإمارة ، فلما بلغت مقاتله المنصور صر عليها أذنه ، وزاد في اصطناعه ^(٢) .

ولما نزل زيرى بن عطية إلى طنجة جد في السير حتى وصل إلى فاس لاستخلاصها من بنى يفرن ، واشتبك زيرى بن عطية مع بدو بن يعلى في عدة مواقع بالقرب من فاس ، انتهت بهزيمة بنى يفرن ، وتمكن زيرى من دخول فاس ، وقبض على بدو وقتله ، وأرسل رأسه إلى المنصور في سنة ٥٣٨٣ هـ ^(٣) .

(١) ابن الخطيب ، أفعال الأعلام ج ٣ ص ١٥٧ - السلاوى ، ص ٢١١

(٢) السلاوى ، ص ٢١١

(٣) ابن الخطيب ، للرجم السابق ص ١٥٨ - السلاوى ، ص ٢١٢

وصفا له الجو بعد ذلك في المغرب ، وأصبح يحكمه بلا منازع ، وظلت
ملاقاته مع المنصور حسنة في الظاهر ، ولكنه كان يضر في قرارة نفسه
الخروج عليه .

وفي سنة ٣٨٦ هـ فسدت العلاقات بينها بسبب استبداد المنصور بالخليفة
هشام المؤيد وتغلبه على الدولة بتفويض من الخليفة أذاعه المنصور في سائر
أنحاء الدولة الأموية بالأندلس والمغرب ، وكانت السيدة صبح قد اتصلت
بزبري بن عطية ، وأغرته على خلع طاعة المنصور ، وعهدت إليه بأن يقوم
مقام المدافع عن حقوق الخليفة الشرعية ^(١) . وذكر ابن عذارى أسباب
خروج زبري على المنصور بقوله : « ثم إن زبري بن عطية المغراوي نكت
على ابن أبي عامر بعد الحب الشديد ، والوفاء الأكيد ، وطعن على ابن أبي
عامر سلبه لملك هشام ، وامتنع لهشام المؤيد وغلبة ابن أبي عامر عليه » ^(٢) .
واتصل بالمنصور أن زبري يتنقصه ، ويعرض في شأنه ، وحججه على
المؤيد ، فقطع عنه رزق الوزارة الذي كان يجربه عليه في كل سنة ، ودفع
هذا التصرف من جانب المنصور زبري إلى قطع اسم المنصور من الخطبة
وقصر الدعاء فيها لهشام ^(٣) . ولم يكتف زبري بذلك بل طرد عمال المنصور
من العرب وألجأهم إلى سبتة ^(٤) . وعلى أثر ذلك سار ابن أبي عامر فقام
واضحاً في جيش كثيف ، إلى المغرب ، فبعد واضح الزقاق إلى ساحل

(١) على آدم ، المنصور بن أبي عامر ، دائرة معارف الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة

١٩٥٩ ص ٢٩٩

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ٣٦٢

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ١٥٨

(٤) السلاوي ، ج ١ ص ٢١٣

العدوة ، ونزل بطنجة حيث انضم إليه كثير من بربر غمارة وصنهاجة ، وزحف واضح نحو فاس ، فخرج إليه زيرى بن عطية في جموع كثيرة من زناتة ، والتقى الجيشان في موضع يدعى بـرف بواى رداة ، يقع بالقرب من أحواز البصرة ^(١) . ودام القتال بينها زهاء ثلاثة أشهر ، تمكن زيرى في نهايتها من التغلب على واضح ، فراجع منهزما إلى طنجة ، وكتب إلى المنصور من هناك يستمدد . فخرج إليه بنفسه من قرطبة حتى وصل الجزيرة الخضراء ، وأجاز إليه ابنه عبد الملك المظفر ، على رأس جيش ضخم من صكر الأندلس ، وبلغ ذلك زيرى ، فاستنفر قبائل زناتة ، فوافته في جموع كثيفة من البربر قادمين من بلاد الزاب فيما وراء ملوية وسجلماسة ، فسار بهم زيرى لمقاتلة عبد الملك بن المنصور ، وتم اللقاء بواى منى بأحواز طنجة ، ودارت بين الجيشين معركة عنيفة دامت طوال اليوم ، وتمكن غلام أسود كان زيرى قد قتل خاله من طعن زيرى بسكينه في لبتة ، فجرح جرحا بالغا ، وانهمزت زناتة ، وفر زيرى ومن بقي معه إلى موضع يعرف بمضيق الحية بالقرب من مكناسة ، حيث اجتمع إليه فله ، ولم يكذ زيرى يستدرك أمره ، ويجمع فله حتى باغته عبد الملك بخمسة آلاف من بكاة رجاله على رأسهم واضح النقى ، وذلك في منتصف رمضان سنة ٣٨٨ هـ ، فأوقع بهم واضح وقبيلة عظيمة ، استأصل فيها رجائ زيرى ، وأسر منهم نحو ألفين ، ضمهم إليه عبد الملك . وأركبهم في جنده ، وفر زيرى في شرذمة من أصحابه إلى فاس ^(٢)

(١) ابن الخطيب ، ص ١٥٨ - السلاوى ، ص ٢١٤

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٦٣ - ابن الخطيب ، ص ١٥٩ - السلاوى ، ص ٢١٦

وكان أهل فاس قد علموا بهزيمته ، فأغلقوا أبواب المدينة دونه ، وأخرجوا إليه ذويه ، فانصرف بهم إلى الصحراء ، ونزل بأحواز صنهاجة . ودخل المظفر عبد الملك مدينة فاس في شوال سنة ٣٨٨ هـ ، وكتب إلى أبيه بالفتح ، فقرأ كتابه بمنابر الأندلس ، وكتب إليه المنصور بهذه على المغرب .

انصرف واضح إلى قرطبة ، بينما أقام المظفر ستة أشهر بفاس ، فأحسن إلى أهلها ، ورأوا من فضله وعدله ما لم يروه من ولاية فاس من قبل . ثم صرفه المنصور إلى الأندلس ، واستعمل على فاس عيسى بن شعيب ، صاحب الشرطة ، فأقام بها إلى صفر سنة ٣٨٩ هـ ، ثم عزله وولى عليها واضحا ^(١) . فأقام بها فترة من الوقت ، ثم استخلف عليها عبد الله بن أبي عامر ابن أخي للمنصور ، ثم تعاقب على ولاية فاس من قبل واضح اسماعيل بن البوري ، فالأحوص معن بن عبد العزيز ، الذي ظل يقوم بأمر فاس حتى وفاة المنصور ^(٢) .

أما زيرى فقد جمع حشودا هائلة من زناته ، واستغل فرصة اختلاف الصنهاجيين على باديس بن منصور أمير إفريقية وزحف زيرى إليهم ، وهزمهم ، ودخل تاهرت وتنس وتلمسان وشلف ، وأقام في هذه البلاد الدعوة للتأييد هشام ثم توفي في المحرم سنة ٣٩١ هـ ، فخلفه ابنه المعز بن زيرى . واتصل المعز بالمظفر عبد الملك في قرطبة يطلب منه أن يصفح عنه ، فصرف عبد الملك بن أبي عامر واضحا عن ولاية المغرب ، وكتب إلى المعز بن زيرى بهذه على

(١) السلاوي ج ١ ص ٢١٦

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٦٣

فاس وسائر أعمال المغرب في سنة ٣٩٣ هـ بعد أن استوثق منه بأخذ ولده
معنصر رهينة عنده. ولما تولى المظفر وخلفه أخوه عبد الرحمن شنجول على
الحجاجة، بعث إليه المعز بن زيري هدية رائعة تتألف من ٧٠٠ من الخيـل،
وأحبال من الدرق واللـبـط والسلاح، فسر عبد الرحمن وجدد له ولاية
المغرب (١). وظل المعز أميراً على فاس والمغرب حتى توفي في جمادى الأولى
سنة ٤٢٢ هـ، فخلفه ابن عمه حسامة بن المعز بن عطية، وكانت الخلافة
الأموية في قرطبة قد انقرضت في هذه السنة، فاستقل حسامة بالمغرب الأقصى،
واستفحل ملكه، ثم نازعه على المغرب الإمبراطور أبو الكمال تميم بن زيري بن
يعلى اليفرنى سنة ٤٢٤ هـ، وقامت بينهما حروب طويلة انتهت فيها حسامة،
وفر إلى تلمسان، ودخل تميم مدينته فاس، وقتل فيها عدداً كبيراً من اليهود.
ولكن حسامة لم يلبث أن تغلب عليه وأجلاه عن فاس في سنة ٤٣١ هـ، وأقام
بالمغرب حتى توفي سنة ٤٤٠ هـ (٢)، وقيل سنة ٤٣٣ هـ (٣). وكان حسامة
مستثيراً، حسن السياسة، فتمتعت فاس في أيامه، وشهدت فترة من الرخاء
والازدهار. وكان الشعراء يقصدونه من الأندلس، ويمدحونه بأشعارهم (٤).

ولما توفي خلفه ابنه أبو العطاء دوناس واستولى على فاس وسائر ماكان
لأبيه من مدن المغرب، ولكن عهده كان مشحوناً بالاضطراب والتفتن، فقد
خرج عليه ابن عمه حماد بن معنصر بن المعز بن زيري، فقامت بينهما حروب
طويلة، وغلب حماد على ضواحي فاس، وحاصرها حصاراً شديداً، وقطع

(١) المرجع السابق ص ٣٦٤

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ١٦١

(٣) ابن عذاري، ص ٣٦٥

(٤) نفس المرجع، ص ٣٦٥

مياه الوادي من عدوة القرويين ، إلى أن توفي حماد ، واستقام أمر دوناس ، وساد فاس عهد من السلم والهدوء ، استمر حتى وفاته في سنة ٥٧ هـ . وقد ازدهرت فاس في عهده ، ونما عمرانها ، وأصبحت بحق عاصمة المغرب ، وكان دوناس قد احتفل بعمارتها ، وأدار سورا يحيط بها وبأرباضها ، وبني بها المساجد والحمامات والفنادق ، وأصبحت فاس مدينة واحدة في أيامه ^(١) .

ولما في دوناس في سنة ٥٧ هـ خلفه على فاس ابنه الفتوح بن دوناس ، ونزل بمدينة الأندلس ، فنازعه الأمر أخوه الأصغر عجيسة ، فاستولى على عدوة القرويين ، وقامت الحرب بين الأخوين ، تحصن الفتوح عدوة الأندلس ، وبني بها قسبة لسكناء بالموضع المعروف بالكندان ، وفتح بابا في العدوة من الجهة القبليّة سماه باسمه . كذلك حصن عجيسة عدوة القرويين ، وبني بها قسبة لسكناء بعقبة الصعتر ، وفتح هناك بابا في الجهة الشمالية سماه باسمه ، واشتد العداء بين فتوح وعجيسة ، وأصبح القتال بينهما يوميا في الموضع المسمى بكهف الوقادين ، ونتج عن كثرة الحروب والاضطرابات اشتداد الفناء ، وانتشار المجاعة في المدينة . واستمر القتال دائرا بين الأخوين زهاء ثلاث سنوات ، إلى أن تمكن الفتوح من اقتحام عدوة القرويين ، وقتل أخاه ، واستولى على العدوتين ، فأمر بتغيير اسم باب عجيسة ، فأسقط العين وأضاف إلى الاسم حرفا الألف واللام ، فأصبح هذا

(١) ابن الخطيب ، ص ١٦٢ - القلشندي ، ص ١٨٧ - الجزنائي ، ص ٣٠ -

الباب يعرف بباب الجيسة (١). وفي أثناء ذلك كانت لتونة قد ظهرت في أطراف البلاد، وتغلبت عليها، وتمكن عبد الله بن ياسين من دخول أغمات وما يليها (٢)، وتمكن خليفته يوسف بن تاشفين من افتتاح بلاد كنهوة، فخاف الفتوح على نفسه من الملتمين، فتنحى عن مدينة فاس لأحد أقاربه هو معنصر بن حماد بن منصور بن المعز بن زيري، وعندئذ زحف بلكين بن محمد بن حماد، صاحب قلعة بني حماد، إلى فاس في سنة ٤٥٤ هـ، ودخلها، وأخذ عدد من أعيانها رهائن لديه، ثم عاد إلى قلعته. وكان معنصر بن حماد قد تلقى بيعة قبائل مغراوة بفاس وأحوازها في رمضان سنة ٤٥٥ هـ، وكان معنصر هذا شجاعا حازما، تمكن من مدافعة الملتمين من لتونة، وانتصر عليهم في إحدى المواقع، ولكن يوسف تمكن من دخول مدينة فاس صلحا في سنة ٤٥٥ هـ، وخلف عليها عامله، ومضى لهاربة غمارة، وافتتح كثيرا من بلادها وقلعها، فاستغل معنصر فرصة اشتغال ابن تاشفين بمحاصرة قلعة فازاز، ودخل مدينة فاس، وقتل عامل يوسف عليها ومن معه من لتونة. ولما بلغ يوسف بن تاشفين خبره، سير مهدي بن يوسف الكزنائي، صاحب مكناسة، إلى فاس، فهاجم معنصر في طريقه، وهزمه وقتله في سنة ٤٥٦ هـ، ففرح يوسف عساكر لتونة إلى حصار فاس، وقطع المرافق عنها، حتى اشتد الأمر على أهلها، فبرز إليه معنصر، واشتبك مع لتونة في قتال شديد انتهى بهزيمة معنصر ومقتله في سنة ٤٦٠ هـ. فبايع أهل فاس ابنه تميم. ومات أهل فاس في أيامه من حصار الملتمين ومن الفتنة ومن الفلاة.

(١) الجوزي، ص ٣١

(٢) ابن عسار، ص ٢٦٥

ولما فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غمارة سنة ٤٦٧ هـ ، زحف إلى فاس ، وحاصرها أياما ، ثم افتتحها عنوة المرة الثانية ، وقتل بها زهاء ثلاثة آلاف من قبائل مغراوة وبنى يفرن ومكناسة ، وقبائل زناتة ، وكان تميم من جملتهم ^(١) . وقيل أن يوسف دخل مدينة فاس في سنة ٤٦١ ^(٢) ، وقيل في سنة ٤٦٧ ^(٣) .

٤ - فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين:

لما دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس ، أمر بهدم الأسوار التي كانت تفصل بين عدوتي القرويين والاندلسيين ، وجعلها مدينة واحدة ^(٤) ، وحصنها ، وأمر ببناء المساجد في شوارع فاس وأزقتها ، كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والأزحاج والأسواق ^(٥) . واهتم يوسف بن تاشفين بمدينة فاس اهتماما كبيرا على الرغم من اتخاذ مدينة مراكش عاصمة لدولته ، وفي ذلك يقول الجزنائي : « وما زال كبير لمتونة وأميرها يوسف بن تاشفين في زيادة المساجد ، وسقاياتها ، وحماماتها ، وخاناتها ، وإصلاح أمورها ، وأقدم من قرطبة جملة من صناعاتها ، فبنوا منها كثيرا إلى ما يذكر بعد إن شاء الله تعالى ، وفي أيامه صارت العدونتان قطرا واحدا » ^(٦) . وفي أيام

(١) الفقهني ، ص ١٨٨ - السلاوي ، ص ٢٢٥

(٢) ابن الخطيب ، ص ١٦٣

(٣) الملل الموشية ، ص ١٦

(٤) الفقهني ، ص ١٨٨ ، ١٩٠ - السلاوي ج ٢ ، ص ٢٩

(٥) ابن أبي زرع ، « روض القرطاس » ، ص ٩٠

(٦) الجزنائي ، ص ٣٢

على بن يوسف شيد سور القوراجة (١) التي تقع بين باب الجيسة وباب أصليتين على يد قاضييه عبد الحق بن معيشه ، كما أقام يوسف بن تاشفين سور زيتون بن عطية وأقام البرج الكبير القائم هناك (٢) .

وقد ازدهرت فاس في عهد المرابطين ، وأصبحت بحق العاصمة الثانية للمغرب . ولقد وصفها الإدريسي في عصر المرابطين بقوله : « ومدينة فاس صنائع ومعايش ، ومبان سامية ، ودور وقصور ، ولأهلها اهتمام بمحوائهم ومباينهم وجميع آلائهم ، ونعمها كثيرة ، والمنطقة بها رخيصة الأسعار جدا دون غيرها من البلاد القرية منها ، وفواكهها كثيرة ، وخصبها زائد ، وبها في كل مكان منها عيون نابعة ، ومياه جارئة ، وعليها قباب مبنية ، ودواميس محنية ، ونقوش وضروب من الزينة ، وبخارجها الماء مطرد قاج من عيون غزيرة ، وجہاتها مخضرة موقفة ، وبساتينها عامرة ، وحدائقها ملتفة ، وفي أهلها عزة ومنعة » . ثم يقول الإدريسي في موضع آخر : « ومدينة فاس قطب ومدار لمدين المغرب الأقصى... ومدينة فاس هي حضرتها الكبرى ومقصد لها الأشهر ، وعليها نشد الر كائب ، وإليها تقصد القوافل ويحلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة ، وأهلها مياسير ولها من كل حسن أكبر نصيب ، وأوفر حظ » (٣) .

ظلت فاس تحتل المكانة الثانية في المغرب كله بعد مدينة مراكش التي أسسها يوسف بن تاشفين في سنة ١٠٤٤ هـ ، وفقا لرواية ابن أبي زرع ،

(١) القوراجية سور من البناء يتفرع من السور الأصلي للمدينة ، وينتهي عادة بربيع يراعى يقوم بتأؤه في أخفض المواضع الدفاعية في المدينة .

(٢) المرجع السابق

(٣) الإدريسي ، ص ٧٥

وأقام بها قصر الحجر سنة ٤٦٣ هـ (١)، وسورها على بن يوسف سنة ٥٢٠ هـ (٢). وظلت فاس خاضعة للمرابطين إلى أن ظهر الموحدون ، وتغلبوا على المرابطين .

وفي سنة ٥٤٠ هـ ، حاصر عبد المؤمن بن علي مدينة فاس ، وقد تحصن بها يحيى بن أبي بكر الصحراوي (٣) ، من فلول جيش المرابطين في وهران ، وأقام الموحدون على حصار فاس ، وأهلها يقاثلونهم خارج البلد قتالا عنيفا ، فعمد عبد المؤمن إلى وسيلة لإرغام أهل فاس على التسليم ، فأمر بسد فاس بالبناء والخشب والخطب ، ورفع التراب على الوادي سدا بعد آخر حتى احتبس الماء عن مجراه ففاض على الفحص كله ، فأصبح الفحص بحيرة ،

(١) الملل الموشية ، ص ١٣

(٢) قس المرجع ص ٧٠

(٣) هو يحيى بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين ، خيد الأمير يوسف بن تاشفين ، ويلقب بالصحراوي ، وهو لقب أخذه عن أمه الصحراوية ، وكان لقبه الصحيح « ابن الصحراوية » ولقد تولى قيادة جيوش المرابطين بعد مقتل تاشفين بن علي ، فولى القيادة العامة لجيش المرابطين ، وقرأ إلى فاس (ارجم الى ابن الاثير) . وقد أبلى يحيى هذا في عاربه الموحدين بلاء حسنا ، ثم دخل في طاعة الموحدين ، وانضوى تحت لوائهم ، وحظي عندهم ، فتودوه على من وسع من لثونه ، وظل كذلك إلى أن نقلت عنه إلى عبد المؤمن تمرقات وأقوال أحتت عليه . وكانت أخت يحيى متزوجة من الكاتب الكبير أبي جعفر أحمد بن عطية التي استوزره عبد المؤمن ، فأراد أبو جعفر أن ينقله من غضب عبد المؤمن عليه ، فنصحه بالمرار إلى الجزيرة ميورقة . فلما استدعاء عبد المؤمن تظاهر بالمرض ، وبلغ عبد المؤمن ما علمه كاتبه أبو جعفر ، فقتل أبا جعفر في سنة ٥٥٣ هـ ، ثم أمر بالقبض على يحيى وسجنه فوات فيه . (ارجم الى : أبو بكر الصنهاجى المعروف بالبيذق) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت ، ياريس سنة ١٩٢٨ ، تعليق ليني بروندال ، ص ١٦٠ ، ملحوظة ١ - التراكمي ، المصجب ، ص ١٩٩ ، ٢٠٠)

واستعان عبد المؤمن على ذلك بالآلات واتساع الفحص ، ثم خرق الد
مرة واحدة . فتدفقت المياه كالسيل العارم فهدمت السور باب للمسلطة ،
وتهدم من دور فاس ما يزيد على ألقى دار . ولكن أهل فاس لم يستسلموا
لذلك ، بل ازدادت مقاومتهم للموحدين ، ووقفوا على متهدم السور ، وقاتلوه
من خارجها ، وكان عبد المؤمن قد خرج من محامته أثناء الليل إلى مكانة
لهاصرتها ، وترك على جيشه بفاس أبا بكر بن جبر فلما طال الحصار على
أهل فاس إلى تسعة أشهر توجه والى المدينة أبو محمد الجياني (١) خفية إلى
أبي بكر بن جبر . وأدخله من باب الفتوح . وكان الجياني المذكور موتوراً
من الصحراوي إذ كانت قد طالبه بمال كثير ، وضيق عليه فيه ، ولم يكن
في وسع الجياني أن يعطيه هذا المال ، فتحايل على إدخال الموحدين ، فلم يشعر
الصحراوي إلا وقد اقتحم الموحدون المدينة في فجر يوم ١٤ ذي القعدة سنة
٥٤٠ هـ . وتمكن الصحراوي من الفرار ومعه عمر بن بيتان ، ويحيى بن سير ،
وجدال بن موسى وشيوخ لمطة . فهبطوا مع نهر سبو إلى بني قاودا ، ودخلوا
قلعة آمرجو وتحصنوا بداخلها ، ثم فر الصحراوي إلى الأندلس ، أما
عبد المؤمن فقد دخل مدينة فاس ، وأقام بها بعض الوقت ، ثم خرج منها بعد
أن ترك عليها أبا عبد الله محمد بن يحيى الجدميوي والجياني (٢).

ولما دخل عبد المؤمن مدينة فاس ، أمر بفتح ثغرات واسعة بسورها ،

(١) هو أبو محمد بن عبد الله بن خيار الجياني كان عاملاً على مدينة فاس في دولة
المنين (انظر ابن الأبار ، الحلة السراء ، ملحق رقم ٢ من كتاب الينق ، أخبار المهدي
ابن تومرت ، ص ١٤٦)

(٢) الينق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — الحلل الوثيق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ — السلاوي ، ص ١٠٧

وقال : « إنا لا نحتاج إلى سور ، وإنما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » . وظلت فاس بلا أسوار إلى أن شرع الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور في بنائها ، وأكملها ابنه أبو عبد الله محمد الناصر عند زيارته لفاس في سنة ٥٩٥ هـ ، وأقام بها ثلاث سنوات أتم خلالها بناء أسوار فاس وقصبتها الواقعة على الوادي (١) ، كذلك أقام بها أبو عبد الله محمد الناصر باب الشريعة الذي سمي بباب المحروق نسبة إلى العبيدي الثامر بجبال وزان من أحواز فاس ، الذي علق رأسه على باب الشريعة ، وأحرق جسده في وسط هذا الباب في اليوم الذي ركت فيه مصاريع الباب سنة ٩٠٠ هـ (٢) .

ولقد ازدهرت فاس في عصر المرابطين والموحدين ، ازدهارا لم تشهده هذه المدينة من قبل ، وتألفت تألقا جعلها جديرة بأن تكون العاصمة الفعلية للمغرب كله ، في عصر هاتين الأسرتين . ويدكر عبد الواحد المراكشي ، أن « مدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا ، وموضع العلم فيه ، اجتمع فيها علم القمروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القمروان حاضرة للمغرب . فلما اضطرب أمر القمروان - كما ذكرنا - بيعت العرب فيها ، واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي طاهر محمد بن أبي طاهر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيها من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فراراً من الفتنة ، فزل أكثرهم مدينة فاس ، فهي اليوم على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ونهاية الظرف ، ولقبتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم ، ومازلت أسمع المشايخ يدعونها بغداد المغرب ،

(١) الجزائري ، ص ٣٢ - السلاوي ، ج ٢ ص ١٠٧

(٢) نفس المرجع ص ٣٣ - التنبية السنية في تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد بن

يحيى شيب ، الجزائر ، ١٩٢٠ ص ٣٨

و يحق ما قالوا ذلك ، فأن لبس بالمغرب شيء من أنواع الظرف واللباقة في كل معنى إلا وهو منسوب إليها ، وموجود فيها ، ومأخوذ منها ، لا يدفع هذا القول أحد من أهل المغرب ، ولم يتخذ لتونة والمصامدة مدينة مراکش وطنا ، ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء ، ولكن لقرب مراکش من جبال المصامدة وصحراء لتونة ، فلهذا السبب كانت مراکش كرسى للملكة ، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك منها (١) . ثم يصف المراكشي مدينة فاس ، ويذكر عظمتها ونمو عمرانها فيقول : « وما أظن في الدنيا مدينة كمدينة فاس ، أكثر مرافق ، وأوسع معاش وأخصب جهات ، وذلك أنها مدينة يحفها الماء والشجر من جميع جهاتها ، وتتخلل الانهار أكثر دورها زائدا على نحو من أربعين عينا يتفلق عليها أبوابها ، ويحيط بها سورها ، وفي داخلها وتحت سورها نحو من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء ، ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها ، إلا ما كان من العطر الهندي سوى مدينة فاس هذه ، فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة ، بل هي توسع البلاد مرافق ، وتماؤها خيرا » (٢) .

كذلك يعظمها ابن أبي زرع ، ويذكر أن المرابطين والموحدين إنما نزلوا بمراكش واتخذوها قاعدة لدولتهم لقربها من بلادهم ، ولأنها مبنية في جوارهم وبين قبائلهم (٣) . ويصفها الجزنائي في عصر دولتي المرابطين والموحدين

(١) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص ٣٥٨

(٢) قس المرجع ، ص ٣٥٩

(٣) Levi - Provençal, Extraits des historiens, p. 21

وصفا رائعا، ويذكر عظمتها وما بلغه من عمران وعمارة، ويشير إلى الصناعات التي ازدهرت فيها فيقول: « وانهت مدينة طس في أيام المرابطين والموحدين من بعدهم من القبطية، والرافدية، والسعة، والأمن، والعافية، ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب لاسيما في زمن المنصور الموحدي وولده محمد الناصر، وكانت المساجد بها سبعة وخمسة وثمانين، ودور الوضوء اثنين وأربعين، والسقايات ثمانين، والحمامات ثلاثة وتسعين، وأرجاء الماء أربعائة واثنين وسبعين، ودور السكنى تسعا وثمانين ألفا ومائتين وستة وثلاثين، والمصارى ١ سبعة عشر ألفا وإحدى وأربعين، والفنادق أربعائة وسبعة وستين، والخوانيت تسعة آلاف واثنين وثمانين، وقيصريه واحد في كل عدوة منها، ودار السكة واحدة في كل عدوة منها، والاطرزة (٢) ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين، ودور عمل الصابون سبعا وأربعين، ودور الدباغين ستا وثمانين، ودور الصباغ مائة وستة عشر، ودور تشبيك الحديد والنحاس اثني عشر، ودور عمل الزجاج إحدى عشرة، وكوش الجير مائة وخمسا وثلاثين، وأفران الخبز ألفا ومائة وسبعين، وأحجار عمل الكاغيد (٣) أربعائة، كل ذلك بداخل المدينة، ودور للتخارة مائة وثمانين بخارج المدينة » (٤).

(١) المصارى جم معربة، والمعربة غرفة عليا بالدار تطل على الطريق بمرور، وتشبه المخرية أو العلية، وكانت الفردة في معظم الأحيان مخرجية أى مزودة بناقذة مشبكة للاختاب.

(٢) المنصود بالاطرزة الانوال

(٣) الكاغيد هو الورق

(٤) الخزفاني، ص ٣٣

ولكن هذا العمران المزدهر لم يلبث أن تعرض للتدمير في أيام المهاجة
والفتنة التي قامت في أيام العادل وأخيه المأمون أبي العلاء إدريس، في أواخر
عصر الموحدين زهاء عشرين سنة (١).

٥ - فاس حاصمة بني مرين : (أنظر خريطة رقم ١٠)

انقرضت دولة الموحدين ب وفاة أبي العلاء إدريس الواقع بالله المعروف
بأبي دبوس، ودرست آثارها، واستولى الخراب والدمار على معظم ديار
القرب، وخاصة فاس، بسبب الحروب القائمة بينه وبين المرتضى أبي حفص
مهرين اسحق. وقد تحالف أبو دبوس مع بني مرين ليظفر بالخلافة، وتغلى لهم
نظير معاوتهم له عن مراکش حاضرة الموحدين، ففر المرتضى إلى آزمور
حيث مات قتيلا في سنة ٦٦٦ هـ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده مع بني مرين،
فاضطر الأمير أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني إلى مهاجمة مراکش
في نفس هذه السنة، وانتهى الأمر بمقتل أبي دبوس أمام أسوار مدينة
مراكش، فدخلها بنو مرين، وبعثوا برأس أبي دبوس إلى فاس. وكانت
فاس قد تعرضت لهجمات بني مرين في سنة ٦٤٢ هـ في خلافة السعيد على،
ولكنهم لم يتمكنوا من دخولها، ولم يمس أربع سنوات على ذلك حتى تمكن
الأمير أبو بكر بن عبد الحق المريني من الاستيلاء على مدينة فاس، وانزعها
من ماملها السيد أبي العباس، إذ بايعه أهلها في الرابطة الواقعة خارج باب
الشريعة، ودخلها جيش بني مرين في ٢٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ بعد موت
السعيد في مراکش بنحو شهرين. واستخلف عليها مولاه اسعود بن خرباش
وسار لمهاجرة فازاز، فانتفض أهل فاس، مع طائفة من المرتزقة النصارى

بقيادة سريل الفرنجي على بني مرين في ٢٠ شوال سنة ٦٤٧، وقتلوا السعد وأربعين من رجاله، وباعوا المرتضى. وعندما علم أبو بكر بن عبد الحق بذلك رفع الحصار عن فازاز، وقدم إلى فاس، وأحاطها بعسكره، وقطع اللادة عنها، وبئس أهل فاس من نصرة المرتضى لهم، فسألوا أبا بكر الأمان، فأمنهم، واسترجع المدينة^(١). وفي فاس توفي الأمير أبو بكر في قصره بالقصبة في سنة ٦٥٦، ودفن داخل باب الجيسة، وخلفه من بعده ابنه أبو حفص عمر، ولكن عمه المنصور بالله يعقوب بن عبد الحق هاجم فاس ودخلها في سنة ٦٥٧ هـ، وأصبحت فاس حاضرة دولة بني مرين، فانتعشت المدينة في عصرهم. وكان أول ما فعله أبو يوسف يعقوب أن أمر بإخراج أجناد الروم الذين كانوا يسكنون فاس، وبني لهم المرسى القديم بخارج باب الشريعة على يد عامله عليها أبي العلاء بن أبي طلحة^(٢).

اهتم بنو مرين بفاس اهتماما خاصا، واعتنوا بأمرها، وزودوها بمدينة ألحقت بها تعرف بالمدينة البيضاء المعروفة بفاس الجديدة، واتخذوها داراً للإمارة^(٣) منذ عهد المنصور أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المرنى، فقد عزم أبو يوسف بعد أن تمهد ملكه في المغرب أن يخطط بلدا ينسب إليه، ويصنحها دار ملكه، وقرار سلطانه، ويسكنها هو وحاشيته وحشمه وأولياؤه، فأمر ببناء المدينة البيضاء، بلصق مدينة فاس، فخرج في ٣ شوال من سنة

(١) تعرضت فاس لحريق كبير في أسوانم. من فتنة الصباغين قرب باب السلطة، فأحرقت سوق السكاطين والفتادين والصباغين ووصلت إلى باب الجنات، فأحرقت مصادمه (التشيرة السنية، ص ٨٠)

(٢) نفس المرجع ص ١٠٠، ١٠٦

(٣) اسماعيل بن الأحمر، روضة النسرين في دولة بني مرين، الرباط، ١٩٦٢ ص ١٩

١٧٧٤ هـ ودمه العرفاء والبنائين وأهل المعرفة بالصنائع ، فتخيرا وموضعا على وادى فاس من جهة أعلاه ، وشرع في حفر أساسها في هذا اليوم واختطها ، وبنائها ، وشيدها ، وبنى أسوارها وجامعها وأسواقها ^(١) ، ونزلها بمخاشيته وذوبه في نفس هذه السنة ، واختط الناس بها الدور والمنازل ، وأجريت فيها المياه إلى القصور ^(٢) ، وأقام القناطر بطرقاتها مثل قنطرة وادى النجاء وقنطرة مرين ^(٣) . ولما أتم بناء سور مدينة فاس الجديد ، أمر في سنة ١٧٧٩ هـ ببناء الجامع الكبير بفاس الجديد للخطبة ^(٤) ، فأسس على يدي أبي عبد الله ابن عبد الكريم الحدودي ، وأبى علي بن الأزرق والى مكناسة ، واشتغل في البناء أسرى الروم الذين قدم بهم من 'ندلس . وقد تم بناء هذا الجامع في رمضان سنة ١٧٧٧ هـ ، وأقيمت فيه الصلاة . وفي سنة ١٧٧٩ هـ ، أقام بمدينة الجديدة الأسواق من باب القنطرة إلى باب عيون صنهاجة ، وبنى بها حماما عظيما ، وقصورا لوزرائه ، وعمرت المدينة بعد ذلك بالمدارس والقنادق والأسواق ^(٥) . ولقد أجرى يعقوب المياه إليها عن طريق وادى الجواهر وغدير الحص الذي يفيض ماءؤه من الموضع المعروف برأس الماء غربي هذه البلدة ، اختط به أبو يوسف يعقوب قصرا مشرفا على محل خروجه ^(٦) .

(١) التذكرة السنية ، ١٨٦ ، ١٨٧

(٢) السلاوي ، ج ٣ ص ٤٤

(٣) التذكرة السنية ص ٩٩

Goris Maslow, les mosquées de Fès et du Nord du Maroc, (٤)

Paris 1937, pp. 38 - 53

(٥) قس المرجع ص ١٨٨ - روضة النرين ص ٢٠

(٦) روضة النرين ، ص ٢٠

وقد مدح ابن الخطيب بالاشتراك عليه فاس الجديد بقوله : « وأما مدينة الملك فيضاء كالصباح ، أفق للفرر الصباح ، محقر لا يوانها إيوان كبرى ، وترجع العين حمري ، ومقاعد الحرس ، وملاعب الليث المفترس ، ومنايا الدوح المفترس ، ومدرس من درس أو درس ، ومجالس الحكم الفعيل ، وسقائف الترس والنصل ، وأهداف الناشبة أولى الحصيل ، وأواوين الكتاب ، وخزائن مخولات الافئاب ، وكراعى الحجاب ، وعصر الأمر العجائب .. » (١).

ووصفها ابن أبى زرع فى عصر بنى مرين فذكر محاسنها بقوله : « وهى الآن قاعدة ملوك بنى مرين أطال الله أيامهم ، وأعلى أمرهم ، وخلد سلطاتهم ، فهى منهم فى المحل الرفيع والشكل البديع ، وقد جمعت مدينة فاس بين عذوبة الماء ، واعتدال الهواء ، وطيب التربة ، وحسن الثرة ، وسعة المحرث ، وعظيم بركتها ، وقرب المحطب ، وكثرة عوده وشجر وشجرة ، وبها منازل موفقة ، وبسانين مشرقة ، ورياض مورقة ، وأسواق مرتبة منتسقة ، وعيون منهرة ، وأنهار متدفعة متحدرة ، وأشجار ملتفة ، وجنات دائرة بها مجتمعة ، وقالت الحكماء ، أحسن مواضع المدن أن تجمع خمسة أشياء وهى : النهر الجارى ، والمحرث الطيب ، والمحطب القريب ، والصور الحصين ، والسلطان إذ به صلاح حالها ، وأمر سبلها ، وكف جبارتها ، وقد جمعت مدينة فاس هذه المحصل التى هى كمال المدن وشرفها ، وزادت عليها بمحاسن كثيرة ، فلها المحرث العظيم سقيا وبهلا ، على كل جهة منها ما ليس هو على مدينة من مدائن المغرب ، وعليها المحطب فى جبل بنى هلول الذى فى قلبها يهيج كل

(١) ابن الخطيب . مشاهدات لسان الدين بن الخطيب فى المغرب والاندلس ، تحقيق

يوم على أبوابها أحمال حطب البلوط والفحم ما لا يوصف كثرة ، ونهرها يشقها بنصفين ويتشعب في داخلها أنهارا وجداول وخليجانا ، فتخلل الأنهار ديارها وبساتينها وجنتها ، وشوارعها وأسواقها وحماماتها ، وتطعن به أرحاؤها ، ويخرج منها وقد حل أنفها وأقذارها ورماداتها (١) .

ولقد أهتم سلاطين بني مرين بإنشاء الحمامات ، فأنشئت حمامات خولان ووشقانة وأبي يعقوب . وكانت بفاس دار صناعة لإنشاء القوارب والسفن للصغار بالموضع المعروف بالمبالات قرب ملتقى وادي فاس ، كان قد أنشأها عبد المؤمن ، وفي هذه الدار أمر السلطان أبو عنان المريني بإنشاء جنتين بمزحل خولان أحدهما شيطى يجر مائة وعشرين محاربا ، والثاني شلير يجر ستين محاربا ، ودفعوا بوادي سبو إلى أن وصلا إلى سلا سنة ٧٥٦ هـ (٢) .

وظلت فاس قاعدة بني مرين حتى ضمنت دولتهم ، وظهرت دولة الأشراف السعديين على أنقاض دولة بني مرين ، وأخذ سلطانهم محمد الشيخ يستولى على مدن المغرب ، فاستولى على مراكش في سنة ٩٤٦ هـ ، واكتسب محمد الشيخ حبة أهل المغرب لجهاده ضد البرتغاليين ، ونجاحه في افتتاح حصن فونقي وحصن آسفي وآزمور ، فاخط مرسى أغادير بأسسوس الأقصى في سنة ٩٤٧ هـ ، واستولى على مكناسة الزيتون في سنة ٩٥٥ هـ ، وأخذ يلتهم مدن بني مرين الواحدة بعد الأخرى ، ثم تقدم في سنة ٩٥٦ هـ لمحاصرة فاس ، وتمكن من الاستيلاء عليها ، وفر قائد جيش بني مرين وهو أبو حسون الوطاسي

(١) ابن أبي زرع ، نس وارد بكتاب : Extraits des historiens arabes ص ٢١

— ٢٢ — الجزائى ، ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) الجزائى ، ص ٢٦ ، ٢٧

إلى نغر الجزائر ، حيث استنجد بالأتراك ، ونجح بفضلهم في استرجاع فاس في سنة ٩٦٩ هـ ، ولكن الأتراك تصرفوا تصرف الفاتحين ، فانهكوا الحرقات ، وعانوا في البلاد ، واضطر أبو حسون إلى صرفهم من خدمته ، وإخراجهم من فاس ، ووجد نفسه بعد إخراجهم وحيدا دون نصير . وكان محمد الشيخ قد استنصر القبائل واستنفرها ، وعيا الأجناس ، فزحف إلى فاس ، ودخلها في ٢٤ شوال سنة ٩٦٩ هـ ، وقتل أبا حسون ، وتلقب بالخلافة ولكنه لم يتخذ فاسا عاصمة له ، وآثر مدينة مراکش لهذا الغرض (١).

وفي عهد دولة الأشراف العلويين بالمغرب ، استرجعت فاس عظمتها ، وأصبحت حاضرة للمغرب في عهد مولاي الرشيد سنة ١٠٧٧ هـ ، وقد زودها بمنشآت كثيرة منها قنطرة وادي سبو القائمة على أقواس أربعة ، شيدها في سنة ١٠٨٠ هـ بالقرب من مدينة فاس ، والقصبة الجديدة التي أسسها في سنة ١٠٨٩ بفاس بالي ، كما أعاد قصبة الخميس بالبلدة نفسها (٢) : أما ابنه مولاي إسماعيل فقد فضل مدينة مكناس واتخذها حاضرة له . وأصبح للمغرب عاصمتان : فاس في الشمال ، ومكناس في الجنوب ، ثم استعادت فاس عظمتها في عهد مولاي سليمان (١٢٠٦ - ١٢٣٨ هـ) الذي أنشأ فيها أبوابا كثيرة ، ومساجد جديدة . وظلت فاس منذ ذلك الحين المدينة الأولى في المغرب .

(١) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ج ٢ ص ١٧٩

André Julian, histoire de l'Afrique du Nord depuis
la conquête arabe Paris 1952

الفصل السابع

دولتا الرستميين بـناهرت والمدرارين بسجلهاسه

(١) أولية الرستميين

- ١ - انتشار دعوة الإباضية في المغرب الأدنى والأوسط
- ب - عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت
- ج - عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين
- د - إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهبية عند الإباضية

(٢) خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

- ١ - خلافة الإمام أفلح
- ب - الإمام أبو بكر بن أفلح
- ج - إمامة أبي اليقظان محمد
- د - إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد
- هـ - إمامة اليقظان بن أبي اليقظان ونهاية دولة الرستميين .

(٣) علاقة الدولة الرستمية بجيرانها

- ١ - علاقة الدولة الرستمية بولاية إفريقية
- ب - علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس
- ج - علاقة الرستميين بمصر
- د - علاقة الدولة الرستمية بدولة بني واسول بسجلهاسه
- هـ - علاقة الدولة الرستمية بالسودان

(٤) حفارة الرستميين في تاهرت

أ - الحياة العلمية

ب - الحياة الاقتصادية

ج - الحياة الفنية

(٥) دولة بني المدرار بسجلماسة

أ - نشأة سجلماسة وقيام دولة بني واسول المدراريين

ب - خلفاء الياسع بن أبي القاسم سمغون الملقب بالمدرار

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدرايين بسجلماسة

(١)

أولية الرستميين

١ - التشنار دعوة الاباضية في المغربين الأدنى والوسط :

كانت السياسة الجائرة التي جرى عليها خلفاء وبنى أمية قد جعلتهم في نظر كثير من أتقياء المسلمين منحرفين عن تعاليم الإسلام ومبادئه القائمة على العدل والمساواة والشورى ، فقد استأنروا بالخلافة ، واستبدوا برئاسة الدولة ، ولم يطبقوا نظام الشورى في اختيار الخلفاء ، وحادوا عن العدل والمساواة بين المسلمين ، وانحرفوا عن الاشتراكية التي نادى بها الإسلام ، وتقوم على التزام العدل وإنفاق مال الدولة في مصالح المسلمين ، وأصبحت الأموال في العصر الأموي تنفق على الشهوات واللذات ، ودلى الأولياء والآنصار وللؤيدين . أدت هذه السياسة الفاشية إلى قيام جماعات في العراق تنادى بتطبيق مبادئ الإسلام القائمة على المساواة والعدل ، والرجوع إلى الشورى في اختيار الإمام ، فظهر الاباضية ، وهي فرقة خارجية تنسب إلى داعية منهم هو عبد الله بن إباح للري التميمي ، ومن أمتهابها أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي العماني ، الذي يعتبر لأؤسس الحقيقي لهذه الفرقة ، وكان من أعظم علماء عصره بالشريعة والفقه الإسلامي ، متبخرًا في أصول الفقه ، أخذ العلم من كثير من الصحابة ، وكان مما قاله على نفسه اعتزازًا وتحدثًا

بمنحه الله عليه : « أدركت سبعين رجلا من بدر ، فجوينا ما عندهم من العلم إلا البحر الآخر (يقصد عبد الله ابن عباس) » ، وكان ابن عباس يمتدح علمه فيقول : « أسألو جابر بن زيد ، فلو سأله من المشرق والمغرب نوسعهم علمه » ، ولما توفي جابر عير مالك بن أنس عن خسارة الإسلام بفقده بقوله : « مات اليوم أعلم من في الأرض » (١) . ومن تلاميذ جابر ، أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة ، وضام بين السائب ، وحيان الأعرج ، وأبو حمزة الأشعث ، وأبو نوح صالح الدهان ، وعمرو بن دينار . وكان جابر بن زيد ينادى بالقضاء على بدعة الملك الذي اصطنعه الأمويون ، والرجوع بالإسلام إلى نظام الشورى والعدل والمساواة بين المسلمين المعروف في عصر الخلفاء الراشدين ، لذلك حاربه بنو أمية ، ونفاه الحجاج إلى عمان ، فأقام بها مدة ، ثم عاد إلى البصرة لاستكمال رسالته ، وظل يعمل جاهدا لإنشاء الجمهورية الإسلامية العادلة ، إلى أن توفي في سنة ٩٣ هـ . وخلفه على إمامة الإباضية أبو عبيدة مسلم ، وكان مثالا للورع والتمسك بالدين ، عالما من أبرز علماء عصره ، شديد التمسك بمبادئ أستاذه ، فسجنه الحجاج مع جماعة من الإباضية ، ثم أفرج عنه في خلافة سليمان بن عبد الملك . وأدرك عبيد الله صعوبة الدعوة للمذهب الإباضي في المشرق الإسلامي ، ورأى أن ينطلق الإباضية بدعوتهم إلى أطراف الدولة الإسلامية ، وعلى الأخص بلاد المغرب . فاختار رجلا من تلامذته معروفًا بحماسة للإباضية ، وعلمه الغزير ، وتقرأه وورعه مع بلاغته وفصاحته لسانه هو سلمة بن سعد ، بعثه إلى المغرب لنشر دعوة الإباضية . وبوفود سلمة بن سعد في أول القرن الثاني للهجرة

(١) أبو الريح سليمان الباورقي ، مختصر تاريخ الإباضية ، تونس ، ١٩٣٨ م ٢٩

إلى سرت ، انتشر المذهب الإباضى على نحو تجاوز كل تقدير فى الحسبان ،
وعند ذلك العهد بدأ دعاة الإباضية يتوافدون على المغرب لنشر الدعوة تمهيدا
لإنشاء دولة إباضية . وقد ساعد على انتشار الإباضية ، وتوافد دعاتها أن
الدولة العباسية كانت أشد وطأة على الخارجية من الدولة الأموية ، فاستبد
العباسون بالدولة ، وداسوا على مبادئ الإسلام الكريمة ، ورفعوا السيف
على كل من ناوأ سلطانهم . وكان المغرب الإسلامى يغلى سخطا على ولاية
الأمويين والعباسين لظالمهم ، وكان إقبال البربر على الإباضية سريعا ، فلم
تلبث هذه الشرارة الأولى أن أشعلت نارا احترق لها فى المغربين الأدنى
والأوسط فى طرابلس وإقليم قسطنطينية ، ومعظم بلاد المغرب الأوسط من
مليانة إلى وهران .

وأراد البربر التعمق فى دراسة مذهب الإباضية ، فقد شوقهم سلمة بن سعد
إلى شد الرحال إلى المشرق لتلقى علوم هذا المذهب على الإمام أبى عبيدة (١) ،
فرحل فريق من علمائهم إلى البصرة للأخذ على هذا الإمام ، وكانوا أربعة
هم : عبد الرحمن بن رستم الفارمى ، وعاصم السدراقى ، وأبو داود القبلى
النفزاوى ، وإسماعيل بن ضرار القدامسى ، وانضم إليهم عند أبى عبيدة
مسلم تاجر آخر هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمع الماعزى الذى اختاره
أبو عبيدة لرئاسة الدولة الإباضية التى بنى البربر إقامتها فى المغرب ، لوزارة
علمه ، وتفهمه العميق للدين ، ومهارته فى الاستنباط . وعاد حملة العام الخامسة
إلى المغرب الإسلامى ، بعد إقامة دامت خمس سنين فى البصرة ، عادوا إلى
المغرب وهم يشتعلون حماسا لإنشاء دولة على مذهبهم الإباضى ، وتمت مبايعة

(١) أبو الريم سليمان البارونى ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٥

أبى الخطاب بالإمامه ، و أعلن قيام الدولة الإباضية في محرم سنة ١٤٠ هـ في موضع يعرف باسم صياد غربي طرابلس ، وتمكن الإباضية بعد مبايعة أبى الخطاب من الاستيلاء على طرابلس واتخذوها مقرا لهم (١) . ودانت لأبى الخطاب البلاد بالطاعة لما شاع عنه من الرفق بالرعية ، والعدل بين الناس ، فعظم شأنه فيهم ، وامتد سلطانه شرقا إلى برقة ، وغربا إلى القيروان ، وجنوبا إلى قران (٢) . واختار أبو الخطاب عبد الرحمن بن رستم رفيقه في العلم قاضيا بطرابلس (٣) .

وفي هذه الامتلاء كانت قبيلة ورفجومة النفزية بقيادة عاصم بن جميل ، وكانت من غلاة الصفرية قد دخلت القيروان ، واستحلت فيها المحارم ، وارنكت الكباثر ، وأساء رجالها إلى الاسلام ، فقدر بطوا دوابهم في المسجد الجامع ، وعانوا عينا شديدا في مدينة القيروان (١) . ولا علم أبو الخطاب بما أصاب القيروان ، بكى رحمة باهلها ، ودفعته غيرته على الاسلام إلى استنفار الناس لمقاتلة هؤلاء المتوحشين ، وخرج بجيش من أتباعه عدته نحو ستة آلاف في سنة ١٤١ هـ ، وانتص قابس ، ومنها سار إلى القيروان ، واشتبك مع ورفجومة في قتال عنيف ، في صفر سنة ١٤١ هـ انتهى بانتصار الإباضية ، وقتل عبد الملك بن أبى الجعدى اليفرنى ، قائد عاصم بن جميل ، ودخل أبو

(١) محمد على دبود ، تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ص ١٣٥ - ٢٠٩

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ، ٣٣

(٣) تلمس للمرجم ص ٣٥ - سليمان بن عبد الله البارونى النوسى : مكناب الأزار

الرباضية في أئمة وملوك الإباضية ، دبود تاريخ ، ص ٨٦

(٤) ابن عذارى ، ج ٨١ - مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٣٣

الخطاب مدينة القيروان ، وحسرها بذلك من الصيرفة المتطرفين . ثم علم أبو الخطاب وهو بالقيروان بعزم محمد بن الأشعث ، الخزاعي ، عامل بني العباس على مصر على تسير حملة إلى طرابلس بقيادة أبي الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي . فولى عبد الرحمن بن رستم القارمي ، قاضي طرابلس ، وأحد زعماء الإباضية ، على إفريقية ، وقسم من بلاد المغرب الأوسط كان سكانه من الإباضية ، يمتد من جزائر بني مزغنة إلى وهران . وعاد أبو الخطاب إلى طرابلس . وفي سنة ١٤٢ هـ أقبل الجيش العباسي بقيادة أبي الأحوص العجلي ، فزحف إليه أبو الخطاب بمجموع الإباضية من البربر والعرب ، والتقى الجيشان في مغمداس ، فانهزم أبو الأحوص وجيشه ، وعاد إلى مصر . ولم يسكت أبو جعفر المنصور على هذه الهزيمة ، ورأى في ضياع قفوذ بني العباس بالمغرب تهديدا مباشرا لمصر والشام ، فعزم على القضاء على دولة الإباضية ، وإعادة بسط النفوذ العباسي على إفريقية ، وأخذ يعي كل طاقات الدولة وإمكاناتها لهذا الغرض ، فولى إفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي ، عامله السابق على مصر ، وأعد جيشا ضخما عدته أربعون ألف مقاتل ، يقودهم عشرة من أعظم قواد دولته نخس بالذكر منهم الأغلب بن سالم التميمي ، والمহারب بن هلال ، والمخارق بن غفار الطائي . وزحف هذا الجيش إلى برقة . وأمام هذا الخطر الذي يهدد الإمامة الإباضية القتية ، خرج أبو الخطاب في جيش هائل عدته مائتي ألف مقاتل ، عسكريهم في أرض سرت . وأمام هذه الكثرة الهائلة أحجم ابن الأشعث عن لقاء الإباضية ، فظاهر بالانسحاب إلى مصر ، ثم دهم معسكر أبي الخطاب في تاورغا فجأة في صفر سنة ١٤٤ هـ ، فانهزم الإباضية ، وقتل أبو الخطاب في جملة من خيار

أصحابه يبلغ عددهم ١٧ ألفاً^(١). وكان عبد الرحمن بن رستم يتأهب لنجدة أبي الخطاب، فسمع وهو في طريقة إليه نأ الهزيمة الشنقاء التي منى بهاجيثه، وآثر أن يترك المغرب الأدنى وشأنه، ويمضى إلى المغرب الأوسط حيث لا يصل نفوذ العباسيين، وحيث يتركز جمهور الإياضية الذين انتصروا لأبي الخطاب وله، فيمكنه هناك أن يؤسس دولة إياضية على نسق دولة أبي الخطاب.

ب - عبد الرحمن بن رستم وأسس فاهرت :

أجمع المؤرخون على أن عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي، وذكر بعضهم أنه من أعقاب رستم قائد جيش الفرس في موقعة القادسية (٢)، بينما يرفع بعضهم نسبه إلى بهرام كور كسرى فارسي (٣). وكان ابن رستم هذا مولى لعثمان بن عفان (٤)، ثم وفد إلى المغرب مع العرب الفاتحين (٥)، ويبدو أنه قدم في أواخر العصر الأموي، واستقر بالقيروان، وأخذ في يدها العملية الزاهرة على كبار علمائها، وكان من بين العلماء الأربعة الذين

(١) ابن عذاري، ص ٨٣ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٤١١ - مختصر تاريخ الإياضية،

ص ٣٤

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٦

(٣) البكري، معجم ما استعجم، مادة فاهرت - ياقوت، معجم البلدان، مادة

فاهرت - ابن عذاري، ج ١ ص ٢٧٧

(٤) ابن عذاري، ج ١ ص ٢٧٧ - ياقوت، معجم البلدان، مادة فاهرت، ج ٢ ص ٨

(٥) ابن خلدون، ج ٦ ص ٢٤٦. وتدل أن أباه رستم بن بهرام قدم مكة بزوجه

وابنه هج فاهت بها، فتزوجت زوجته رجلا من القيروان، فأقبل مع أمه ذلك القيرواني

(دبوز، ص ٣٠١ نقلًا عن الصنهاجي صاحب السير).

وقع عليهم اختيار الإباضية البربر للأخذ على أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي البصري ، ولما عاد إلى المغرب مع رفاقه ، وقامت إمامة أبي الخطاب ، ولما عاد على قضاء طرابلس ، وكان عبد الرحمن بن رستم أكبر أعوانه في إدارة دولته وتصريف أموره ، وفي حل المشكلات التي يستعصى عليه حلها (١) ، وكان أبو الخطاب قد عاين قدرته وكفايته وحنن سياسته ما جعله يستخلفه علي القيروان والمغرب الأوسط ، قبل أن يمضي هو لمحاربة المسودة ، ولما قتل أبو الخطاب ، وتمكن ابن الأشعث من القضاء على الولايات الإباضية بطرابلس ، وزحف بجيشه لاسترداد القيروان ، وجند ابن رستم أن من الأسلم له ولا تباعه النجاسة إلى المغرب الأوسط ، حيث يستطيع بفضل أنصاره هناك أن يعيد إنشاء دولة على المذهب الإباضي ، على نسق دولة أبي الخطاب في طرابلس . فخرج مستخفيا قاصدا للمغرب ، ولم يكن معه شيء إلا ما خف من ماله ولم يكن يرافقه إلا ابنه عبد الوهاب ومباركه (٢) ، فوجهوا إلى قبيلة لاية البرية وذلك لحلف قديم كان قائما بينه وبينهم (٣) . وقطعوا في سيرهم مسافة غير قصيرة ، ولكنهم فوجئوا بموت فرس عبد الرحمن ، فدفنوه حتى لا يعلم بموته أحد من حزب عبد الرحمن بن حبيب فيقطع فيهم ويتبع أثرهم ، ولما كانت المسافة إلى لاية طويلة ، فقد كان من الطبيعي أن يحس عبد الرحمن بن رستم بالتعب ، لكبر سنه وشيخوخته ،

(١) محمد بن دبور ، ج ٣ ص ٢٥١

(٢) الأزهاري الرضاوية في أئمة وملوك الإباضية ج ٢ ص ٢ — مختصر تاريخ الإباضية ،

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٧

فاضطر ابنه عبد الوهاب ، وعبدّه إلى حلة على ظهرها بالتناوب (١). ويدو
أن عبد الرحمن سلك في سيرة الطريق الجنوبية للمارة بقسطيلية. وذكر
الاستاذ دبو ز أنه اخترق شمال وادي سرف، وسار مغرباً على شمال تيفورت
ومدينتي القرارة وبيربان من وادي ميزاب إلى مدينة الاغواط ، فاجتاز
جبال بني راشد غرباً، ثم انحرف شمالاً ، شرق مدينة آفلو ، وغربي وادي
شلفت حتى نزل على وادي سوفجيج الذي ينبع من سفح جبل سوفجيج ،
ويقع بين مدينتي سلالة شرقاً والسو فر غرباً (٢)، وجنوبي مدينة تاهرت .
ويعتقد الاستاذ دبو ز أن هذا الجبل هو نفس الجبل المعروف اليوم بجبل
سوقفيف . وكان هذا الجبل في غاية المنعة والحصانة لصعوبة مرقاه ، فزله
عبد الرحمن ، وتحصن فيه ، وكان حاصراً بالاباضية ، فأدركوه ، وأزروه
بينهم ، وسمع به وجوه الاباضية وعلمائهم ، فقصده من كل النواحي حتى
اجتمع لديه من طرابلس وجبل نفوسة من العلماء وحدم ما يزيد على ستمين
من كبار أهل العلم والفضل والرأى (٣) . وتسارعت قبائل هواة ولواته
ولاية الانضمام إليه ، والالتفاف حوله . ولما علم ابن الأشعث في القيروان
بتمكن ابن رستم من القرار إلى المغرب الأوسط ، واجتماع قبائل البربر
إليه ، والتفافهم حوله ، جهز جيشاً ، وسار به إلى هذا الجبل بقصد استئزال
عبد الرحمن بن رستم قبل أن يستفحل أمره ، فلما تقدم بجيشه عسكري في
سفح الجبل ، وجفر خندقاً حول معسكره خوفاً من أي هجوم قد يقوم به
الاباضية على معسكره ، ثم طوق الجبل من كل ناحية ، واستمر محاصراً له

(١) الأزهار الرياضية ، ٣ - مختصر تاريخ الاباضية ، ص ٣٦

(٢) دبو ز ، ج ٣ ص ٢٥٦

(٣) الأزهار الرياضية ، ص ٣ - مختصر تاريخ الاباضية ، ص ٣٦

مدة حاول خلالها بكل الوسائل عبثا الوصول إلى معقل ابن رستم ، ولما طال الحصار ، سُم جنده البقاء ، واتفق أن فشا بينهم وباء الطاعون ، فهلك منهم عدد كبير ، وقد اضطر لذلك إلى فك الحصار والعودة إلى القيروان ، وعبر عن صعوبة فتح الجبل بقوله : « إن سوفيج لا يدخله إلا دارع ومدجج » (١) . وأقام عبد الرحمن هناك حتى اجتمع إليه عدد كبير من فعلاء الإباضية وكبارهم ، وأجمع هؤلاء على مبايعة عبد الرحمن بن رستم برئاستهم ، وكان لابد لمؤسس دولة الرستميين أن يؤسس مدينة يزل فيها هو وأتباعه وأنصاره ، تكون مقرا لدولته على نحو ما فعله أبو القاسم صفهون ابن واسول المكناسي الصفري عندما اختط سجلماسة سنة ١٤٠ هـ (٢) ، فتطلع عبد الرحمن بعد أن بوج بزمامة الإباضية إلى إنشاء مدينة تكون جديدة بمركز هذه الدولة الفتية . وكان يهدف إلى اختيار موضع منيع تحوطه الجبال ، لتكون درعا طبيعيا لهذه المدينة ، موقع اختياره على للموضع الذي تقوم عليه مدينة تاهرت القديمة ، وكانت حصنا لبرفجامة ، وشرع في بناء دورها . ويذكر البكري « أنهم لما أرادوا بناء تاهرت ، كانوا يننون النهار ، فإذا جن الليل ، وأصبحوا ، وجدوا بنيانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى ، وهي الحديثة ، وهي على خمسة أميال من القديمة » (٣) . ويمتاز موقع هذه المدينة الرسمية بأنه على سفح جبل جزول المرتفع ، وتكتنفه غابة ملتفة بالأشجار ، يمكن أن تكون أرضا صالحة للزراعة ، وتنبع

(١) الأزهار الرياضية ، ص ٣

(٢) ابن هارزي ، ج ١ ص ٢٨٢ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٢

(٣) البكري ص ٦٧ - ياقوت ، معجم البلدان ، مادة تاهرت ، ص ٨

فيها الميون الطبيعية ، ويجرى فيها نهر لا ينقطع مائه اسمه نهر مينة (١) ،
ويكتنف المدينة بأعلى المناطق الجبلية غابات خضراء رائعة الجمال .

والواقع اختيار عبد الرحمن على هذا الموضع لبناء مدينته المقبلة ، وأعجبه
مناخه المعتدل ، اشتراه من أصحابه ، وهم بربر من صنهاجة ومنداسة ، بعد
أن اتفق مع أصحابها على أن يؤدي إليهم خراجا معلوما يأخذونه من غلاتها ،
واتبع الإباضية في تطهير الغابة وإزالتها نفس السبيل الذي اتبعه عقبة بن
نافع من قبل في تطهير الفيضة التي أقيمت عليها القيروان ، فأحرق الأشجار ،
فلما محدت النيران ، قام أتباعه بتنقية هذه الأشجار وتجهيز الأرض ،
وأصبحت بذلك صالحة للعمارة عليها . ثم شرع في تخطيط تاهرت الجديدة ،
وحفر أسس أسوارها سنة ١٤٤ ، وأسس مسجد الجامع ، وكان يتألف
من أربع بلاطات (٢) . وكان لهذا الجامع مصلى للجنازة (٣) على نحو جامع
الزيتونة وجامع القرويين بفاس . ثم أقبل الناس على بناء الدور والقصور ،
والحمامات ، والفنادق ، والحوانيت ، والأسواق ، والأرحاء ، فأصبحت
تاهرت في أمدوجيز مدينة عامرة ، تجارتها زاهرة ، وقومها مياسير . وكان
لها عدة موانئ منها مرمى فروخ ترسو فيه مراكبها ، ومرسى تلس ،
ومستغانم ، ووهران ، وهذا المرسى الأخير كان يربط الدولة للناشئة
بالأندلس . وقصدها الناس من كل الأقطار الإسلامية ، وانتجعوها من
كل مكان ، فازدهر اقتصادها ، ونالفت الحضارة فيها . وأصبحت تاهرت

(١) الاستيعار ، ص ١٧٨

(٢) ابن عذاري ، ص ٢٧٧

(٣) ابن الصبغ المالكي ، سيرة الأئمة الرستبيين ، باريس ١٩٠٧ ، ص ٤٤

على هذا النحو مقصد الرحلات ، ومركز الحجرات ، لما شاع من عدل عبد الرحمن بن رستم في رعيته وحسن سيرته فيهم ، ففتحت أبوابها لكل من طرّقها من الخارجين على الدولة العباسية ، ومن ضاقت نفوسهم بعسف خلفاء بني العباس واستبدادهم . وكان من جملة الوافدين عليها طائفة من الفرس . وقام الوافدون على تاهرت بالبناء والعماره وغرس البساتين وإجراء الأنهار واتخاذ الرحي والمستغلات وغير ذلك ، فأتسع لذلك عمران المدينة حتى « لانرى داراً إلا قيل هذه لفلان الكوفي ، وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي » (١) .

وقد وصف اليعقوبي مدينة تاهرت في القرن الثالث الهجري بقوله : « والمدينة العظمى تاهرت جليلة المقدار ، عظيمة الأمر ، تسمى عراق المغرب ، لها أخلاط من الناس تغلب عليها قوم من الفرس ، يقال لهم بنو محمد بن أفلح بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم الفارسي ... » (٢) . ووصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بقوله : « تاهرت هي اسم القصبية أيضا هي بلخ المغرب ، قد أحرق بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ، وغابت في البساتين ، ونبت حولها الأعين ، وجل بها الإقليم ، واتشمش فيها الغريب ، واستطابها اللبيب ، يفضّلونها على دمشق وأخطأوا ، وعلى قرطبة وما أظنهم أصابوا ، هو بلد كبير كثير الخير ، رحب رفيق ، طيب ، رشيّق الأسواق ، غزير الماء ، جيد الأهل ، قديم الوضع ، محكم الرصف ، عجيب الوصف ... بها جامعان على ثلثي البلد ، قد بنيا بالحجارة ،

(١) الأذهار الرياضية ، ص ٤٧

(٢) اليعقوبي ، ص ١٥٣

قريبان من الاسواق . ومن دروبها المعروفة أربعة : باب مجانة ، درب المعصومة ، درب حارة القفير ، درب البساتين ^(١) . ووصفها ابن حوقل في القرن الرابع الهجرى أيضا فقال : « و تاهرت مدينتان كبيرتان ، إحداهما قديمة أزلية ، والاخرى محدثة ، والقديمة ذات سور ، وهى على جبل ليس بالعالى ، وفيها كثير من الناس ، وفيها جامع . وفى المحدثه أيضا جامع ، ولكل إمام وخطيب ، والتجار والتجارة بالمحدثه أكثر ، ولهم مياه كثيرة تدخل على أكثر دورم ، وأشجار وبساتين ، وحمامات وخانات . وهى أحد معادن الدواب ، ولماشية ، والغنم ، والبغال ، والبراذين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الفلات » ^(٢) . ويصفها البكرى في القرن الخامس فيقول : « ومدينة تاهرت مدينة مسورة لها أربعة أبواب : باب الصفا ، وباب للنازل ، وباب الاندلس ، وباب المطاحن . وهى فى سفح جبل يقال له جزول ، ولها قصبة مشرفه على السوق تسمى للمعصومة ، وهى على نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة ، وهو فى قبلها ، ونهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى تاتش ، ومنه شرب أهلها وأرضها ، وهو فى شرقها ، وفيها جميع الثمار . وسفرجلها يفوق سفرجل الآفاق حسنا وطعما ، وحشيا ، وسفرجلها يسمى بالفارسى . وهى شديدة البرد كثيرة الغيوم والتلج » ^(٣) .

ويصفها صاحب الاستبصار فى القرن السادس الهجرى بقوله : « ومن

(١) للندى ، أحسن التماس لمرفة الاقاليم ، ليدن ، ١٩٠٧ س ٢٢٨

(٢) ابن حوقل ، سورة الأرض و ط . بيروت ١٩٦٢ ، ٨٦

(٣) البكرى ، ص ٦٦

مدن المغرب الأوسط المشهورة مدينة تاهرت ، وهى مدينة مشهورة قديمة كبيرة ، عليها سور صخر ، ولها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة . ومدينة تاهرت فى سفح جبل يسمى قرقل ، وهى على نهر كبير بأنتها من ناحية المغرب يسمى منية ، ولها نهر آخر يجرى من عيون تجتمع يسمى نانس ، ومنه تشرب أرضها وبساتينها ، وكان لها بساتين كثيرة فيها جميع الثمار ، فيها سفرجل يفوق سفرجل جميع البلاد حسنا وطعما ورائحة » (١) . وفى تاهرت يقول أيضا باقوت : « هى مدينة جلييلة ، وكانت قديما تسمى عراق المغرب ، ولم يكن فى طاعة صاحب إفريقية ، ولا بلغت عساكر المسودة إليها قط ، ولا دخلت فى سلطان بنى الازغلب ، وإنما كان آخرماني طاعتهم مدن الزاب ... وهذه تاهرت الحديثة ، وهى على بحيرة أميال من تاهرت القديمة ، وهى حصن ابن بخانة ، وهو شرق الحديثة ، ويقال إنهم لما أرادوا بناء تاهرت القديمة كانوا يبنون بالنهار ، فإذا جن الليل ، وأصبحوا وجدوا بليانهم قد تهدم ، فبنوا حينئذ تاهرت السفلى وهى الحديثة ... » (٢) .

ح - عبد الرحمن بن رستم اعلم الرستميين :

لم يابح الاباضية ابن رستم بالإمامة إلا فى سنة ١٦٠ هـ بعد أن رست قواعد الدولة ، ورست دعائمها ، وتوطدت أركانها ، وامتدت جذورها ، وأصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها ، وبعد أن غظم مؤسسوها صغوفهم ، وأذابوا مشاكلهم . وأم هذه المشاكل التى صادفتها الدولة قبل سنة ١٦٠ هـ

(١) الاستبصار ، ص ١٧٨

(٢) باقوت ، معجم البلدان مجلد ٢ ص ٨

مشكلة الاتحاد مع صليبة تلمسان في ضرب العباسيين الذين كانوا يهدفون إلى القضاء على الصفرية والإباضية بالمغرب . كذلك لم يكن إباضية طرابلس قد ألقوا سلاحهم ، بعد استشهاد إمامهم أبي الخطاب في سنة ١٤٤ ، فظلوا يخوضون للمباركة مع العباسيين ، متخذين من جبل نقوسة حصنا ومقلا يحمون فيه . ففي ولاية الأغلب بن سالم ، سكنت زناتة البترية في تلمسان من جمع شملها تحت لواء أبي قسرة بن دوناس اليفرنى الصفرى ، وكان الأغلب ينوي الاصطدام مع زناتة الصفرية ، ولكنه ، أصيب في موقعة حدثت بينه وبين الحسن بن حرب ، بسهم أوداه قتيلا في سنة ١٥٠ هـ . وخلقه على إفريقية عمر بن حفص ، وكان يهدف إلى تحصين طبنة ، واتخاذها مركزا لشن غاراته على الإباضية والصفرية ، لما كان يخرج إلى طبنة في سنة ١٥٤ هـ ، وتخلو إفريقية من عسكر العباسيين حتى تار بها البربر باتفاق مع الصفرية في تلمسان والإباضية في تاهرت وطرابلس وجنوب إفريقية . هاجم البربر الجنيد بن بشار الأسدى ، عامل عمر بن حفص على إفريقية . واجتمع الإباضية في طرابلس ، وبايعوا أبا حاتم بمقرب بن حبيب الإباضى بالإمامة في سنة ١٥٤ . ولما هوجم الجنيد ، استنجد بممر بن حفص في طبنة ، فأمدّه بمسكرو لمواجهة الموقف . ولكن قوات الإباضية أبادتهم ، وفر فلهم إلى قابس ، فحاصروهم أبو حاتم بها ^(١) . وتجمعت حشود الخوارج من كل ناحية ، حتى قيل أن عدد جيوشهم بلغ ١٢ جيشا ، توجهوا جميعا إلى الزاب . واشترك عبد الرحمن بن رستم في المعركة المقبلة بجيشه ، ولكنه رابط في تهوذه استعدادا للتدخل عند الحاجة إليه . وقد رأينا كيف نجح عمر بن حفص في إغراء جماعة من

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ٣٢

اليربر بماله للتغلب على أبي قرة ، ثم تمكن بذلك من فك الحصار ، ووجهه
عسكره إلى ابن رستم ، فانهمز ابن رستم إلى تاهرت . وعلى الرغم من انتصار
إباضية طرابلس بقيادة أبي حاتم ، على حمز في القيروان ، فقد انتهى أمر
هؤلاء بالمزمنة على أيدي قوات يزيد بن حاتم في جبال نفوسة في ربيع الأول
سنة ١٥٥ هـ ، وقتل أبو حاتم هو وصغوة قواده (١) .

عاد ابن رستم إلى تاهرت بعد هزيمته على يد عمر بن حفص ، فاهتم بتنظيم
بلادته ، وأجمع أهل الحل والربط من الإباضية على مبايعته بالإمامة في سنة
١٦٠ هـ ، كما اشترك في مبايعته إباضية طرابلس ، فأنشع سلطانه بين القبائل
العديدة التي دخلت في طاعته ، وعلى رأسها نفوسة . وساد الأمن والسلام
ربوع بلادته ، إذ كان يسلك في الناس سبيل العدل والإنصاف ، وكان
لا يستبد برأى ، وإنما كان يصطنع أهل الرأي في مجلس الشورى ، وانتشرت
في المشرق الاسلامي سيرته العطرة ، فكثرت أنصاره ، لا في البلاد الغربية
فحسب ، بل في العراق ومصر وخراسان ، واعتز إباضية البصرة بهذه الدولة
التي تحققت بها أمنيتهم في قيام إمامة إباضية تطبق فيها مبادئ مذهبهم . ولم
يتردد هؤلاء الإباضية في البصرة عن مساعدة هذه الإمامة الثنية بالأموال ،
ويذكر ابن الصغير أن إباضية البصرة وغيرها من بلاد المشرق الاسلامي جمعوا
أموالا عظيمة وبعثوا بها مع نفر من ثقاتهم لتسليمها إلى عبد الرحمن بن رستم ؛
عندما يتبين لهم صدق ما يشاع عنه من حسن السيرة والعدل . ففضى هذا
الوفد البصري حتى وصلوا إلى تاهرت ، ونزلوا المصلى ، فأخاخوا جملهم
ودخلوا تاهرت من باب الصفا ، ودلهم الناس على دار الإمام عبد الرحمن ؛

« فوجدوا عند بابها غلاما يعجن طينا ، فيناوله رجلا على سطح الدار يصلح شقوقا فيه . فسلموا على الغلام ، فرد السلام . فقالوا : أهذه دار الإمام ؟ -
 تعجبا من بساطتها ، وظنا أن لا تكون هي دار الإمام ، إذ كانوا يظنون أن
 يجدوا داره قصرا منيفا - فقال الغلام نعم . فقالوا له : استأذن لنا منه ،
 واعلمه إننا نرسل إخوانه إليه من البصرة . فرفع الغلام رأسه إلى سيده ، وقد
 علم أنه سمع كلامهم . فقال : قل للقوم يصبرون قليلا . ثم أقبل على ما كان
 من إصلاح السطح حتى انقضى ، والقوم ينظرون إليه ، وهم شاكون فيه ،
 هل هو صاحبهم أم لا . فزل من سطحه إلى داره ، ففسل ما كان بيديه من
 أثر الطين ، ثم توضأ وضوء الصلاة ، فأذن للقوم فدخلوا عليه ، فوجدوا
 رجلا جالسا على حمير فوقه جلد ، ولبس في بيته سوى وبادته وسدنه التي
 يتام عليها وسيفه ورمحه ، وفرس مربوط في ناحية من داره . فسلموا عليه ،
 وأعلموه أنهم رسل إخوانه إليه . فأمر غلامه باحضار طعامه ، فأتاه بمائدته
 عليها قرص ساخن ومن وشى من ملح . فأمر بذلك القرص فهشم ، وأمر
 بالسمن فلت به . ثم قال : على اسم الله ادنوا واكلوا ، فأكل معهم . فلما
 انقضى طعامهم ، جدد الترحيب بهم ، فسألهم : ما مرادكم ، وما جاء بكم ؟
 فقالوا له : نريد أن تأذن لنا فندخلوا بأنفسنا ، ثم نكلمك بعد ذلك ، فقال :
 افعلوا . فنهض لتواضعه ، فأخلى لهم المجلس ، فجلسوا نجيا ، فقال بعضهم
 لبعض : يكفينا من السؤال عنه ما رأينا منه من إصلاحه لداره بنفسه ، ومطعمه
 وملبسه وحليته بيته ، لما نرى إلا أن ندفع إليه المال ، ولا نشاور أحدا فيه .
 وكان الذي معهم من المال ثلاثة أحمال من المال ، ست غرائر ، فأجمع رأيهم
 على حمل المال إليه . فرجعوا إليه . » (١) . ثم أبلغوه بأمر مساعدة إباحية

(١) ابن الصغير المالكي ، ص ١٠ - الأزهاري الرياضية ص ٨٥ وما يليها

المشرق له في تمكين دولته بهذا المال ، فزم ابن رستم على عقد مجلس الشورى من وجوه القبائل في المسجد الجامع . فلما اجتمع أعضاء المجلس قرروا قبول هذه المساعدة لحاجة الإمامة الفتية إلى ما من شأنه أن يقوى دعامها ، على أن يقدم ثلث هذا المال للكراع ، وثلثه للسلاح ، وثلثه للفقراء والضعفاء . فشرع الإمام في شراء الكراع والسلاح ، وتحسنت أحوال الناس ، وأنسوا من أنفسهم قدرة على توسيع نطاق العمران فشرعوا ، في إجراء الأنهر واتخاذ الأرحاء والمستغلات . ولم يمض ثلاث سنين على هذه المعونة المشرقية حتى عاد وفد إباضية البصرة يحملون عشرة أحمال من الذهب لإمارة الإمامة من جديد حتى تنقوى وتتمكن بذلك من الوقوف أمام مطامع العباسيين . ولكنهم شاهدوا مدينة تاهرت قد تبدلت ، إذ أقيمت فيها « قصور مشيدة ، ودور منظمة ، وأبنية مبهجة ، وقباب مرتفعة ، وأسواق مزدهرة ، ومساجد متعددة بمئذنات عالية ، وحمامات متقنة ، ويحيط بالعاصمة بستين متنوعة ، ومطاحن منتصبة ، على الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها القروش والستائر المزخرفة والخيل المسومة ، وتنوع اللبس وتعددت اللغات والأزياء ، ورأوا ما لم يخطر لهم ببال » (١) ، ولكنهم رأوا دار الإمام على ما كانت عليه من البساطة وسذاجة البناء . فلما قابلوا عبد الرحمن بن رستم ، جمع مجلس الشورى كالمرة السابقة لاستشارة أصحابه ، فذكروا له أمر التصرف في هذه الأموال . فأمر عبد الرحمن أعضاء الوفد البصرى ، بأرجاع هذه الأموال إلى أصحابها ليستعينوا بها في جهادهم مع العباسيين ، فهم أولى من للرستمين بذلك ، بعد أن أثرت الدولة الرستمية ، وقوت دعامها ، وعبثا

حاول البعريون إقناع الإمام بوجوب قبوله لما ، ولكنه أصر على رأيه^(١).
 نجح عبد الرحمن بن رستم في أمد وجيز للغاية في أن يؤسس دولة قوية ،
 هاجر إليها ، وانصلوا به يطلبون صداقته ، ويسعون إلى خطب مودته وموادعته .
 وهاجر إليها كثيرون من أهل المشرق والمغرب والأندلس ، ونزلوا بها ،
 وقعدوها التجار ، والكتاب ، والعلماء ، ورجال الصناعة والذخ ، وأرباب
 الحرف من سائر أنحاء العالم الإسلامي . وقد كان لذلك أكبر الأثر في
 تطور عمرانها ، ونمو تجارتها ، واتساع مواردها الاقتصادية ، وشهد المغرب
 الأوسط في عهد عبد الرحمن بن رستم سنتين من الهدوء والأمن لم يعرفها
 من قبل ، بينما كان المغرب الأدنى يضطرم بنار الفتن والثورات .

ولما أحس عبد الرحمن بدنو أجله ، اقتدى بعمر بن الخطاب ، فاختر
 سبعة من خيرة رجال الدولة الرستمية ، ممن كان يتوسم فيهم الصلاح والزهد
 والعلم ، وهم : مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ،
 وعمران بن مروان الأندلسي ، وأبو الموفق سعدوس بن عطية ، وشكر
 ابن صالح الكتاني ، ومصعب بن سدمان ، ويزيد بن فندي وأوصاهم
 بالاجتماع والتشاور فيما بينهم لاختيار إمام من بينهم . ثم توفي عبد الرحمن في
 سنة ١٧١ هـ^(٢) ، وقيل سنة ١٦٨ هـ^(٣) ، وتاريخ سنة ١٧١ أولى بالثقة .

(١) الأوهام الرياضية ، ص ٩٠ ، ٩١ - مختصر تاريخ الإياضية ص ٣٨

(٢) نفس المرجع ص ١٠١ - مختصر تاريخ الإياضية ص ٣٨

(٣) ابن عذاري ، ص ٢٧٧ - زاباور ، معجم الأنساب والامرات الحاكمة في

التاريخ الإسلامي ، ج ١ ، القاهرة ١٩٥١ ص ١٠٠

د - امامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات للذهب عند الإباضية :

بعد أن توفي عبد الرحمن بن رستم، اجتمع المرشحون للإمامة، وطال اجتماعهم شهرا، واتفقوا أخيرا إلى اختيار عبد الوهاب بن عبد الرحمن، ويوحى له بالإمامة في جامع تاهرت. ولكن اختيار عبد الوهاب لم يتم باجماع الآراء، فقد كانت كفة مسعود الأنديلى أكثر رجوحا، وكان القوم يميلون إليه، إذ كانوا لا يقبلون مبدأ الوراثة من أصله. وكادت الإمامة تخرج عن عبد الوهاب، لولا تأييد زناته له، لأن أمه كانت بفرنية من زناته، ولولا تأييد القرس له أيضا باعتباره من أصل فارسي (١)، ولولا زهد مسعود الأنديلى عن تولي الإمامة وعزوفه عن هذا المنصب الخطير. ويذكر الشيخ سليمان البارونى النفوس أن عامة الإباضية كانوا يميلون إلى اثنين من السبعة المرشحين للإمامة، وهما عبد الوهاب ومسعود الأنديلى. ثم أجمعا أخيرا على مسعود الأنديلى، إما لأن مبدأ الإباضية كان يقضى بالشورى دون الوراثة، أو لأن مسعود كان أعلم من عبد الوهاب، ولكن مسعود الأنديلى كان ينفر من الرئاسة ويزهّد فيها، فاستمر أن يتخلى عنها لعبد الوهاب، فلما تقرر عقد المجلس في دار الإمامة، توارى عن الأنظار، فلما بحثوا عنه لم يجدوه، فاجتهدوا عبد الوهاب لمبايعته، وبينما كانوا يتأهبون لذلك فوجئوا بوجود مسعود في مقدمة المبايعين (٢).

(١) محمد بن تاوريت، دولة الرستمين أصحاب تاهرت، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية

في مدريد، مجلد الخامس، ١٩٥٧، ص ١١٣

(٢) الأرحار الإباضية ص ٩٩

وكان يزيد بن فندين يطمع في الإمامة لنفسه ، فلما وجد إجماع الناس على مبايعة عبد الوهاب حاول أن يفسد على عبد الوهاب مبايعة الناس له ، فأعلن في الجامع أنه مستعد لمبايعة عبد الوهاب على أن يجعل معه في الإمامة جماعة لا يقطع في أمر دون مشورتهم ^(١) . ولكن مسعود الاندلسي ، عارضه في ذلك بقوله « لا نعلم شرطا في الإمامة غير أن يحكم بيتنا بكتاب الله وسنة نبيه عليه السلام ، وآثار الصالحين قبله ^(٢) » ، وعلى أثر ذلك تمت مبايعة العلماء لعبد الوهاب ، وحمل إلى دار الإمامة في موكب غصت به طرق تاهرت ، وتمت له المبيعة العامة . ولكن ابن فندين لم يسكت على ذلك ، ففي أول ولاية عبد الوهاب قام يزيد بن فندين في تاهرت باتارة الفتنة ، وطعن في إمامة عبد الوهاب ، وذلك لأنه كان يطمع في الظفر بأحد المناصب الخطيرة في الدولة ، فلما لم يظفر بشيء منها نغم على عبد الوهاب ، ولم يجد ما يحاربه به في أول الأمر غير إتارة الفتنة والتليس على من اتبعه ؛ فطالبه بإقامة هيئة استشارية لا يصدر الإمام في أمر من الأمور إلا عن رأيها ، ثم تدرج إلى إنكار إمامة عبد الوهاب من أصلها بدعوى أن في المسلمين من هو أعلم منه ^(٣) ، وأدى ذلك إلى حدوث انقسام مذهبي عند الإباضية إلى نكارية ووهابية ، وكان الوهابية هم جمهور الإباضية ، كذلك أدى إلى استغناء الفريقين لعلماء الإباضية وفقهاءهم في المشرق . وفي هذه الاثناء دبر ابن فندين مؤامرة لقتل عبد الوهاب في غرفة نومه ، ولكن المؤامرة فشلت من أساسها

(١) المرجع السابق ص ١٠٠ - دبر ' ٣ ' ٤٥٦

٢ نفس المرجع ' ص ١٠٠ - دبر ، ص ٤٥٢

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ' ص ٣٩

فزادت نقمة للتآمرين من النكارية على عبد الوهاب ، وقامت المعارك في المدينة ، وانتهت بانتهزام فرقة النكارية ، هزيمة شتاء ، وقتل منهم نحو ١٢ ألفا ، كان من بينهم ابن فندين صاحب الحركة نفسه (١) . وأعقب هزيمة ابن فندين وأتباعه ، وصول رسل الاباضية من المشرق بصحة ولاية الإمام عبد الوهاب ، ففضب النكارية أصحاب ابن فندين لذلك ؛ وعبروا عن غضبهم وسخطهم بقتل ميمون بن عبد الوهاب ، والتثيل بجثته (٢) . وقد تمكن أحد أبناء ميمون من التعرف على قتلة أبيه ، وقاتلهم هو وجده الإمام عبد الوهاب في الجبال ، وقتل منهم عددا كبيرا .

ولم تنته حركة النكارية عند هذا الحد ، إذ انضم إليهم الواصلية المعترلة ومعتظم من زناة ، وخرجوا على عبد الوهاب لعدة أسباب منها : أنه قتل ابن فندين ، ولأن إدريس بن عبد الله بن الحسن كان قد غزا محمد بن خزر الزناتي أمير تلسان سنة ١٧٣ هـ ، فانفسوى ابن خزر تحت لواء الإدارة ، وأقره إدريس على تلسان ، ولما سعى يوسف محمد بن خزر نقوذه أخذ يحرض قومه الزناتيين في شمال تاهرت على الثورة والاتصال عن الرستميين ، وكان معظمهم من الواصلية . ولأن اسحاق بن محمد الأوربي كان زهيا الواصلية في وليلى ، وهو الذي فاصر الإدارة وأسس دولتهم ، وكان بطمع في مد نفوذهم على كل بلاد المغرب ، فعمد إلى إثارة الواصلية في تاهرت على الإمام ، وحرضهم على الاتصال عن الثورة الرسعية .

وكان الواصلية يؤلفون حزبا قويا في شمال تاهرت ، فقد ذكر ياقوت

(١) الأذهار الرياضية ، ص ١١١ - مختصر تاريخ الإبانة ، ص ٢٩

(٢) نبي الرحيم ص ١١٢

أن جمعهم كان قريبا من تاهرت، وكان عددهم يبلغ نحو ثلاثين ألفا، وكانوا يعيشون في بيوت كيوت الاعراب يحملونها^(١)، وكانوا ينتشرون في شمال تاهرت من مستغانم إلى وهران، وفي جنوبها في تيلقمت وفي الصحراء، وفي وادي ميزاب، كما انتشر مذهبهم في شمال غربي المغرب الأقصى في ولبلى ونواحيها^(٢). وكان هؤلاء الواسلية يدعون إلى الإمامة الإسلامية باللسان، ولذلك لم يختلفوا مع الأباضية في الدولة الرستمية، بل التقوا معهم في الاتجاه للذهبي العام، وعاشوا في كنف الرستميين، إلى أن واتهم القرصة للاتصال عن الإمامة الرستمية، فاضطر الإمام عبد الوهاب إلى محاربتهم بالسيف، وقضى على تمردهم^(٣).

وفي إمامة عبد الوهاب حاولت قبيلة هواة المخرج على طاعة الإمام، وشرعت أولا في محالفة قبيلة لوانة عن طريق المصاهرة، ولكن عبد الوهاب تنبه إلى ذلك، فحارب قيام هذا الحلف بنفس الوسيلة، وأصهر من شيخ لوانة، وتزوج ابنته التي كان قد خطبها أمير هواة. وبذلك انحازت إليه قبيلة لوانة^(٤).

وساد الهدوء بلاد الرستميين بعد ذلك، واستقر الأمر لعبد الوهاب، وازدهرت تاهرت في ظل هذه الحياة الآمنة المأمنة، فعزم عبد الوهاب على أن ينضم حياته بالهج إلى مسكة براحق يمر بقبيلة نقوسة. فاستخلف ابنه

(١) يانوت، معجم البلدان ج ٢ ص ٨

(٢) الأزهار الرياضية ص ١١٦ وما يليها - ديور، ج ٣ ص ٤٨١

(٣) نفس المرجع ص ١٨٨ - ديور ص ٤٨٣

(٤) نفس المرجع ص ١٢٥ - محمد بن تاروت، دولة الرستميين، ص ١١٤

أفلح على القيروان وامتطى صهوة جواده ، ومضى شرقا وفي صحبته زوجته وجمع كبير من رجاله ، وسلك عبد الوهاب الطريق الصحراوية المارة بقسطنطينية وجبل دمر الواقع إلى الجنوب من قابس ، وإلى الشمال الغربي من جبل نفوسة ، وكان جبل دمر تسكنه قبائل من دمر الزناتية ، ومع أنهم كانوا إباضية إلا أن استقرارهم قريبا من إفريقية جعلهم يؤثرون الاستقلال عن الدولة الرستمية حتى لا يتعرضوا لضربات العباسيين . وعلم أهل دمر بقسودم الإمام ، فاحتفلوا باستقباله ، ودعاهم الإمام للانضمام إلى إخوانهم بالدولة الرستمية ، فبايعوه ، وانضموا إلى دولته ، فولى عليهم شيخا صالحا يقوم بشؤونهم اسمه مدرار (١) . ومضى بعد ذلك إلى جبل نفوسة ، فزل في مدينة شروس عاصمة هذا الجبل ، وأقبل إليه أهلها وأهل الجبل ، ومنعوه من متابعة السير إلى مكة إشفافا عليه من الوقوع في أيدي العباسيين فيقتلوه (٢) .

وأقام الإمام في جبل نفوسة سبع سنين تولى فيها شؤون القوم ، وانتقل إلى مدينة جادو مقر ولاية الرستميين في هذا الجبل ، وأقام في قرية منها تعرف باسم ميري ، وبني فيها مسجدا ، وكان يولي في خلال هذه السنين التي قضها في نفوسة ، التدريس في مسجدها (٣) . ويبدو أن إقامة عبد الوهاب بن رستم في جبل نفوسة شجعت قبائل هوارة الخاضعة لأمر إفريقية على إعلان ثورتها على العباسيين بطرابلس ، وأعلنت استقلالها في سنة ١٩٦ هـ ، فاستنجد عاملها بإبراهيم بن الأغلب ، فسير ابنه أبا العباس عبد الله إلى رأس

(١) المرجع السابق ص ١٣٧ - ديور ص ٥٠٢

(٢) الأزهار الرياضية ص ١٣٨

(٣) نفس المرجع ص ١٤٢ - ديور ، ج ٢ ص ٥٠٢

جيش عدته ١٣ ألف فارس ، فانهزم الليبر ، وتمكن ابن الاغلب من دخول طرابلس ، وبنى سورها (١) . فاستغاثت هواره بالامام عبد الوهاب ، فلم يتردد في نجدها ، وزحف إلى طرابلس بجيش ضخم ، فتحصن عبد الله الاغلبى داخل أسوار طرابلس وعندئذ حاصره الرستميون محاصرة محكمة وكان عبد الله بن ابراهيم قد أغلق أبواب المدينة ، ولم يترك منها مفتوحا إلا باب هواره ، وذلك لكي يخرج منه لقتال الرستميين (٢) . وواصل عبد الوهاب ابن عبد الرحمن حصاره حول طرابلس إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان ، فقد علم عبد الله ب وفاة أبيه ابراهيم بن الاغلب في ٢٠ شوال سنة ١٩٦ هـ ، فعزم على العودة إلى القيروان للظفر بالامارة الاغلبية قبل أن يختصمها منه أحد من إخوته ، فاصططح مع عبد الوهاب على أن تكون أعمال طرابلس كلها للدولة الرستمية بينما يحتفظ الأغلبية بمدينة طرابلس والساحل (٣) . وعلى هذا الاساس رفع عبد الوهاب الحصار عن طرابلس ، وعاد إلى نفوسة بعد أن امتد سلطانه على صحراء طرابلس الواسعة . ثم عزم عبد الوهاب على العودة إلى تاهرت ، فأقام السمع بن أبي الخطاب عبد الاعلى ، أعز اصدقائه وقربهم إليه ، عاملا من قبله على جبل نفوسة وما يليه إلى ضواحي طرابلس وقابس ، ثم مضى عبد الوهاب بعد ذلك إلى تاهرت .

ولما توفي السمع بن أبي الخطاب أمرع كثير من العامة إلى مبايعة ابنه

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ص ١٥٦

(٢) قس المرجع ص ١٥٧ - الازهار الرياضية ص ١٤٤ - ديوز ، ص ١٢

(٣) قس المرجع - ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢١ - الازهار الرياضية ص ١٤٥ - ١٤٦

خلف بولاية الجبل ، وتابعهم في ذلك بعض إعيان الجبل ، ممن رأوا الاستقلال عن الدولة الرسمية . ولكن الإمام عبد الوهاب لم يرض عن ذلك ، فصمم على عزل خلف وتولية غيره من أهل الفضل ، فولى أيوبا بن العباس على الجبل (١) . فلما توفي أيوب ولى أبا عبيدة بن عبد الحميد ، وقد قامت بين خلف الناصر وأتباعه الذين عرفوا بالخلقية منذ أن بايعوا خلفا بالإمامة ، وبين هذين العاملين معارك طويلة ، انتهت بهزيمة خلف في موقعة حدثت في سنة ٢٢١ هـ في عهد الإمام أفلح بن عبد الوهاب ، على يدى أبي عبيدة عبد الحميد . ولم يتم القضاء نهائيا على خلف إلا على يدى العباس الذى أسند إليه أفلح ولاية الجبل فتمت قب خلفا ، وشئت شئت من بقى من أصحابه ، إلى أن توفي خلف ، وفر ابنه إلى جزيرة جربة (٢) .

وتوفي الإمام عبد الوهاب في سنة ٢١١ هـ . وقيل سنة ٢٠٨ هـ (٣) ، بعد أن وصلت الدولة الرسمية في عهده إلى درجة كبيرة من الاتساع .

(١) الأزهار الرياضية ص ١٥٢ — مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠

(٢) مختصر تاريخ الاباضية ص ٤٠

(٣) ديبوز ، ج ٣ ص ٦٢٤ . وذكر البارونى أنه توفي في سنة ١٠٩ هـ ، وفي ذلك خطأ

كبير لأن عبد الوهاب كان ما يزال حيا عندما حاصر قسوت ابن الاظف في سنة ١٩٦ هـ ، كما كان حيا عندما قام خلف بن السبع بالثورة عليه

(٤) انظر الانساب لزامبارو ، ودائرة المعارف الاسلامية ، مادة تاهرت لجورج

مارسيه — ومحمد بن تاويت ، دولة الرستينين ص ١١٨

(٢)

خلفاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

١ - خلافة الإمام الفلح :

كان أفلح قد مارس الحكم أثناء غياب أبيه في جبل تقوسة ، فلما توفي أبوه عبد الوهاب ، اجتمع أهل الشورى من علماء الدولة ، وأجمعوا على مبايعة أفلح بالإمامة ، إذ كان قد أظهر أثناء حياة أبيه من الورع والتقوى وحسن السيرة والعلم ما جعل الناس يتحسسون به إماما . فسار في العدل والإحسان سيرة أبيه ، وعنى بنشر الأمن في ربوع البلاد ، فتقدمت الحضارة الرسمية ، ووصلت الدولة في عهده إلى ذروة عظمتها ، ومنتهى ازدهارها .

ولم يقطع الهدوء الذي ساد بلاد الرستميين إلا استمرار حلف بن السمع بالنورة على الإمام ، وخروج فرج النفوس المعروف بنفات بن نصر عليه . أما ثورة خلف فقد رأينا كيف قضى عليها في عهد أفلح ، وأما فرج النفوس ، فقد شق عصا الطاعة على الإمام عندما عين أفلح سعداً بن أبي يونس مأملاً على قطرارة ، وكان سعد يطمع في أحد المناصب ، فأخذ يثير بعض المشاكل للذهبية ، منها إنكاره الخطبة في يوم الجمعة ، مدعياً أنها بدعة ، ومنها إنكاره استعمال الإمام العمال والسعاة لجباية الحقوق الشرعية . (١) وقد تولى أفلح نصحه في عدة رسائل ، حذره فيها من سوء العاقبة ، وأنذره أخيراً بمعاقبته إن لم يرتدع . فخاف نفات على نفسه ، وتوجه إلى بغداد . وقد كان نفات بعض التابعين الذين عرفوا باسم النفاثية .

ونجح أفلق في كسب الواصلية إلى جانبه ، فاتخذوه إماما لهم ، وكان أتباعه من الواصلية ، وخدم ثلاثين ألفا ظواعن يسكنون الخيام^(١) . وتوفي أبو سعيد ميمون الأفلق سنة ٢٤٠ هـ (٢) .

ب - خلافة الإمام أبي بكر الأفلق

كان أبو اليقظان بن أفلق وقت وفاة أبيه أسيرا عند بني العباس ، فقد قبض عليه حامل الحجاز وهو متوجه للحج ، فأودع السجن يفداده^(٣) . واتفق الخليفة الراضي كان غاضبا على أخيه للتوكل فسجنه كذلك ، فتصادق أبو اليقظان مع للتوكل أثناء مقامها بالسجن ، فلما ارتقى للتوكل إلى دست الخلافة ، أذن لأبي اليقظان بالمودة إلى بلاده ، فقدم إلى تاهرت في إمامة أخيه أبي بكر .

فلما توفي أفلق ، تولى ابنه أبو بكر الإمامة مع قلة كفائه ، إذ كان أخوه اليقظان أقدر منه على إدارة شؤون الدولة ، ولكنه كان ما يزال عند مسجونا يفداده ، وكان أخوه الثالث يعقوب حدثا صغير السن ، ولذلك بوج أبو بكر بالإمامة . وكان أبو بكر شابا أرعنا لم يحسن الإدارة ، كما أنه لم يكن دينيا عادلا يقطا كآبائه ، وإنما كان يميل إلى الراحة وحياسة الخمول ، فانغمس في الترف وأسرف في اللهو ، فلما عاد أخوه أبو اليقظان من بغداد بعد أشهر من إمامة أخيه ، أسلم إليه أبو بكر مقاليد الإمامة ،

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٤٨

(٢) الأحرار الإباضية ، ص ٢٢١ - مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٢٤٠ . ومجلد زامبارو

تاريخ وفاته سنة ٢٥٨

(٣) ابن الصغير المالكي ، سيرة الأئمة الرشيد ، ص ٢٧ - مختصر تاريخ الإباضية

وترك له مهمة القيام بشؤون الدولة وحل مشكلاتها ، واستغرق هو في حياة اللذات والشهوات ، واحتجب عن العامة ، ثم إن أبا بكر وكل إلى ضهره محمد بن عرفة ، وكان من أعيان تاهرت ، مهمة الاتصال بالرعية ، والنظر في قضاياهم ، وكان ابن عرفة شخصية لطيفة ، وكان يحسن إلى الناس ، ويسعى إلى حل مشاكلهم ، فافتنوا به ، وأحبوه ، وأصبح مقصدهم في العاصمة ، وأصبح له أشياع وأنصار يعجدهونه ، فأصبحت الإمامة الفعلية لمحمد بن عرفة ، والاسمية لأبي بكر (١) .

وكان قد وفد إلى تاهرت عدد كبير من جند القيروان الذين أعلنوا في مناسبات كثيرة تمردهم على بني الأغلب ، واستقروا بها ، وأسسوا لهمربضاً كبيراً في تاهرت ، سوروه حتى أصبح يبدو وكأنه مدينة عامرة ، وكان من الطبيعي أن يؤيده هؤلاء الجند الوافدين محمد بن عرفة ، ويناصروه ، لأنه عربي وقروى مثلهم وافد من القيروان (٢) . فلما أحس محمد بن عرفة بعلو مكانته ، وضيغامة شأنه ، ومشاهدة جمهور تاهرت له ، غلبه الفرور وملك نفسه ، فاستبد بالأمـر استبداداً كاملاً ، وأصبح لا يكثرث لأبي بكر ، ولا يهتم بشأنه . وكان أهل الشورى من علماء تاهرت وآل بني رستم يشاهدون ما يجري في الدولة وهم ساكتون ، فلما أسرف ابن عرفة في استبداده ، خافوا على إمامتهم من غروره واستبداده ، فشخصوا إلى أبي بكر بدار الإمامة ، وأطلـوه على اقتتان الناس بأبن عرفة ، وبينوا له سوء العاقبة إذا لم يتصرف تصرفاً سريعاً ، وحشوه على الخروج من ققمه وعزلته ، ومباشرة الأمر بنفسه . ولكن أبا بكر كان

(١) ابن الصغير ، ص ٣١

(٢) ديوز ، ج ٢ ص ٥٧١

بغى غضبا من ابن عرفة الذى استقل فقتله به، فمهد أبو بكر إلى أحد غلمانه بقتل ابن عرفة، فاحتاله الغلام، وأخفى جثته. وعندئذ اشتعلت نار الفتنة فى تاهرت، وثار أنصار محمد بن عرفة، ومشايخه على أبي بكر، وانقسم أهل تاهرت إلى فريقين: فريق يشايح الإمام ويتألف من نفوسة والعجم، والفريق الآخر من أنصار ابن عرفة، ويتألف من جند العباسيين وصنائعهم فى تاهرت، وعلى رأسهم محمود بن الوليلي، وخلف الخادم مولى الأغلب ابن سالم وغيرهم، وقد قام هذا الفريق بمهاجمة درب النفوسيين بتاهرت وإحراقه، واحتدمت نار الفتنة فى المدينة، فاضطر أبو اليقظان إلى الخروج من تاهرت هو وخاصته، وبابوه بالإمامة، واستقل محمد ابن مسالة المواري الاباضى فرصة قيام الفتنة وخروج أبي اليقظان وخاصته من تاهرت، واستولى عليها (١).

ج - امامة أبي اليقظان محمد :

بوج بالإمامة بعد قيام الفتنة، وقيل بعد موت أخيه أو بتسليم منه إليه (٢) سنة ٢٤١ هـ، وتمت بيعته وأحوال البلاد فى غاية السوء من الاضطراب والفتنة، ولكنه تمكن بفضل عزيمته وشجاعته من استئصال الثوار، فجيش الجيوش، واستنجد بسكان جبل نفوسة، فأمدوه بمبش كثيف تمكن بفضلهم من إخماد نيران فتنة أتباع ابن عرفة، ثم وجهه أبو اليقظان همه إلى استرجاع تاهرت بعد قتال عنيف، وحصار دام نحو سبع سنوات (٣).

(١) ابن الصخر ص ٣٧ - الأزهاري ص ٢٢٢، مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٥

(٢) مختصر تاريخ الإباضية ص ٤٥

(٣) المختصر ص ٤٥. ويذكر الأستاذ دبور أن محمد بن مسالة مال إلى السلم بعد أن نصحه النفوسيون بالترام الهدوء (دبور، ج ٣، ص ٥٨٥)

حكف أبو اليقظان بعد ذلك على إصلاح ما أفسدته الفتنة ، فبسط الأمن والعدل في البلاد ، فسادها الهدوء ، واطمأن الناس في حياتهم ومعاشهم ، وأحبه أهل جبل نفوسة إلى درجة الافتتان (١) . ومن الأحداث المشهورة في عهده ، قيام قائده أبي منصور إلياس النفوسي بهزيمة جيش العباس بن أحمد بن طولون في سنة ٢٦٧ هـ ، وتفصيل ذلك أن العباس اتهم فرصة غياب أبيه في بلاد الشام ، وخرج في عسكر كثيف قاصدا بلاد إفريقية للتغلب عليها ، فلما علم إبراهيم بن أحمد بن الازغلي بذلك سار إليه قائده أحمد ابن قره ب إلى طرابلس ، وهناك حشد ابن قره ب من أمكنه من جند طرابلس وبربرها ، ثم خرج إلى بلدة فدخلها قبل وصول العباس ، ثم قدم العباس من برقة والتقى جيشه مع جيش ابن قره ب على بعد خمسة عشر ميلا من بلدة ، فانهزم ابن قره ب وانسحب بفلوله إلى طرابلس ، فركب العباس في أنره حتى نزل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وظل يحاصرها ٤٣ يوما . ولكن بعض جنوده اعتدوا على حرم البوادي ، أتباع الدولة الرستمية ، فاستغاثوا بأبي منصور قائد أبي اليقظان ، وكان مقيا بجبل نفوسة ، وشاركهم في الاستغاثة أهل طرابلس ، فأغارهم بجيش هائل يتألف من ١٢ ألف مقاتل من رجال نفوسة ، واشتبك مع العباس بن أحمد بن طولون ، فدارت الدائرة على جيش العباس ، فانهزم ومضى منسجبا إلى برقة ، وترك النفوسيون ما خلفه الطولونيون وراهم من معدات وأموال وأسلحة ، زاهدين فيها ، متورعين عنها ، فأنهدها أهل طرابلس (٢) . ومات أبو اليقظان نحو من مائة سنة ، قضى منها في الإمامة أربعين عاما ، ثم توفي سنة ٢٨١ هـ .

(١) ابن الصغير ، ص ٤٦

(٢) ابن عذاري ص ١٠٨ - الباروني ، مختصر تاريخ الإباضية ، ص ٤٦

د - امامة أبي حاتم يوسف بن محمد :

بأية مجلس الشورى بالإجماع ، استجابة لرغبة الجمهور الأعظم من أهل تاهرت . وكان أبو حاتم حسن السيرة ، مصلحا ، محبا للعدل ، ورث عن أبيه ذكاه وشجاعته وعلمه ، وفي أول إمامته خرج عليه عمه يعقوب بن أفلح ، بجريص من بعض سكان تاهرت ممن لم يرضهم الإمام ببعض المناصب ، فأعلنوا الثورة عليه ، واستقدموا يعقوب من زواغة ، وبايعوه بالإمامة^(١) . فقامت الحرب الأهلية في تاهرت ، واحتدم القتال بين أنصار أبي حاتم وأنصار يعقوب ، ودامت الحروب بينهم أربع سنوات ، وانهت بانتصار أبي حاتم وإعادته إلى الإمامة ، وعودة عمه يعقوب إلى زواغة^(٢) .

وفي عهد الإمام أبي حاتم ، شق الطيب بن خلف عصا الطاعة عليه في حيز طرابلس وجبل نفوسة ، فعهد الإمام بتأديبه إلى أبي منصور إلياس ، وإلى طي الجبل ، فوجه إلى الطيب جيشا لمحارجه ، فالتجأ الطيب إلى زواغة معقل أنصار أبيه ، فقتلهم أبو منصور إلياس ، وطالب زواغة بتسليمه إليه ، ولكنهم أبوا ذلك ، فعاد بهم أبو منصور وهزمهم ، ففقد الطيب مع فريق ممن لم يقبل الدخول في طاعة الإمام إلى جزيرة جربة ، فطاردهم أبو منصور ، وحاصر جربة ، ثم دخلها وقبض على الطيب ، وحمله مقيدا إلى جبل نفوسة ، وحبس فترة ، ثم أخرجه بعد أن أعلن توبته ، وعاد إلى الولاء للإمام^(٣) . ولا توفي أبو منصور إلياس ، أسند الإمام ولاية نفوسة إلى أفلح بن

(١) الباروني ، مختصر تاريخ الأباضية ص ٤٧

(٢) الأزهاري ، ص ٢٧١ - المختصر ، ص ٤٧

(٣) الأزهاري ، ص ٢٧٢ - المختصر ، ص ٤٨

العباس ، ولم يكن لأفلح مهارة أبي منصور في قيادة الحروب ، فقد انهزم على أيدي الأغالبة في سنة ٢٨٤ هـ ، وذلك أن ابراهيم بن أحمد الأغلب عزم على أن يغزو الطولونيين بمصر . ففى سنة ٢٨٣ هـ ، زحف ابن الاغلب فى جيش كثيف بقيادة أبى بجر بن آدم (١) متجها إلى مصر لمحاربة أحمد بن طولون ، فاعترضته نفوسة بين قابس وطرابلس ، ومنعته من المرور ، فناصرهم الحرب قريبا من قصر مانو ، وكانت عدة النفوسيين ٢٠ ألف مقاتل يقودهم أفلح ابن العباس ، واشتد القتال بين الاغالبة والنفوسيين ، وانتهى بهزيمة أهل جبل نفوسة هزيمة شتاء ، وقتل من عامة نفوسة فى هذه الواقعة نحو ١٢ ألفا ، ومن علمائهم ٤٠٠ رجل . ومنذ ذلك العهد لم تعد نفوسة توافى الرستميين بالإمدادات ، وكان لذلك أعرق الاثر فى اضمحلال دولة الرستميين (٢).

ولم يكتب ابراهيم بن أحمد بذلك ، بل سير ابنه أبا العباس فى العام التالى إلى نفوسة ، وقتل منهم دودا كبيرا ، وأمر نحو ثلاثمائة ، أخذهم معه إلى القيروان حيث أمر ابراهيم بن أحمد بذبحهم ، واستخلاص قلوبهم ونظمها فى جبال نصبت على باب تونس (٣).

وكانت هذه المزائم كفيلة بسقوط هيئة الإمام ، وطمع بعض أقاربه فى الإمامة ، فتآمر عليه أبناء اليقظان ، وكان أخاه من أياه ، فقتلوه سنة ٢٩٤ هـ .

(١) ابن عذارى ، ص ١٧٣

(٢) الازهار ، ص ٢٨٠ - المختصر ، ص ٤٩

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ١٧٤

٥ - إمامة اليفظان بن أبي اليفظان ونهاية دولة الرستميين :

بوج اليفظان بعد مصر أخيه ، وقامت إمامته بين عوامل الانقسام والاضطراب . أما الانقسام فلأن شيوخ الدولة كانوا ساخطين عليه لانتهاكه بقتل أخيه ، وأما الاضطراب فلأن خطر الاسماعيلية قد اقترب من دولتهم ، وأصبح يهددها بالسقوط ، فقد تمكن أبو عبد الله الشيعي من احتلال الزاب ، والتغلب على دولة الأغابة ، ودخل رقادة سنة ٢٩٦ هـ . وأحس اليفظان بعجزه عن مواجهة الشيعة ، وأدرك قرب نهايته ونهاية دولته . وفي ١٥ رمضان خرج أبو عبد الله الشيعي من رقادة مصجها إلى تاهرت ، فدخلها بالأمان ، ولكنه قتل يفظان ومن ظفر به من بني رستم ، وأرسل رؤوسهم إلى أخيه أبي العباس وإلى أبي زاكى خليفة برقادة ، فطوف بالقرى والبلد ثم نصبت على باب رقادة (١) . ولم يكف الشيعي بذلك بل استباح أموال الرستميين ، وتوجه إلى المكتبة الكبرى للمعصومة ، وأخذ ما فيها من الكتب الخاصة بالرياضيات ، والمصناعات ، والفنون ، وأحرق ما عدا ذلك (٢) . إذ أن معظم كتبها خاص بالشريعة الإسلامية وبمذهب الإباضية وتاريخ الرستمية . وقضى الاسماعيلية بذلك على للدولة الرستمية ، ففر كثير من سكانها إلى جبل أوراس ، وجبال بني راشد ، وإلى واحة ورجلان في الصحراء ، وإلى جبل نفوسة ، وإلى جزيرة جربة .

ولقد حاول أحد الإباضية التكرارية وهو أبو يزيد الملقب بمصاحب

(١) ابن ططاي : ج ١ ص ٢٠٨

(٢) نحر تاريخ الإباضية ص ٤٩

الحار (١) أن يعيد إنشاء الدولة الإباضية على مذهب النكارية ، فخرج على الفاطميين في عهد المهدي ببجل أوراس سنة ٣١٦ هـ ، وكثر اتباعه في أيام القائم بالله أبي القاسم محمد بن المهدي ، ودعا للخليفة عبد الرحمن الناصر بالأندلس ، وأخذ يستولى على مدن المغرب مثل تيسة وعجانة والأربس وسيية وباجة ، ودخل رقادة ، وأخذ يتاوى نفوذ الفاطميين في المغرب ، ولكن الخليفة المنصور ، تمكن من القبض عليه بقلعة كتامة بعد أن سقط أبو اليزيد جريحا في رمضان سنة ٣٣٥ هـ ، فلما توفي أبو اليزيد في محرم سنة ٣٣٦ هـ أمر الخليفة الفاطمي بسلخ جلده وحشوه تبن ، وقيل قطنا ، واتخذ له قصفا ، فأدخل فيه مع قردين بلاعيانه (٢) .

أما جبل نفوسة ، فقد استقل بعد انقراض الدولة الرستمية . وتولى إمارته أحفاد من بنى أبي المنصور إلياس (٣) ، كما فر عدد كبير من الإباضية الرستميين إلى واحة ورجلان ، وأقاموا فيها حتى قدمت جيوش المرابطين ، فهاجروا إلى مزاب ، وحولوا الأقاليم الصحراوية هناك إلى واحات خضراء سميت فيما بعد باسم صبح مدن (٤) ، ومازال سكان إقليم مزاب إباضية حتى اليوم .

(١) سى كذلك لأنه كان يركب حارا أشهب الاول (ابن خلدون ج ٤ ص ٨٥)

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٣١٣ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٩٤

(٣) مختصر تاريخ الإباضية ص ٥٠

(٤) محمد بن تاويت ، ص ١٢٧

(٣)

علاقة الدولة الرستمية ببحيراتها

١ - علاقة الدولة الرستمية بولاية إفريقية :

رأينا من قبل كيف فشل ابن الأشعث في استئصال عبد الرحمن بن رستم بجبل سوفجج سنة ١٤٤ هـ ، وكيف اضطر إلى العودة إلى القيروان بعد أن طال حصاره لابن رستم ، ونفثى المرض في صفوف رجاله . فلما أسس عبد الرحمن مدينة تاهرت ، واتخذها حاضرة له ، واستقرت دعائم دولته لم يحاول ولاية إفريقية بعد ابن الأشعث مهاجمة هذه الدولة الناشئة ، وعلى الرغم من تمكن عمر بن حفص من إزلال الهزيمة بجيش ابن رستم بالقرب من تهودة سنة ١٥١ هـ ^(١) ، فإنه لم يفكر بعد في مهاجمة تاهرت ، فعاد إلى القيروان حيث قتل في إحدى معاركه مع قوات أبي حاتم يعقوب بن حبيب الإياضي ^(٢) . وبمرور الزمن استطاع ابن رستم أن يسير بدولته في طريق القوة والمنعة ، فهاهنا روح ابن حاتم ، ورغب في موادة عبد الرحمن بن رستم ، فوادعه وهادته سنة ١٧١ هـ ^(٣) ، كما وادع ابنه عبد الوهاب بن عبد الرحمن من بعده ^(٤) .

ولما قامت دولة بني الأغلب بدأ أمراؤها ينالزون الرستميين في

(١) ابن ططاي ، ج ١ ص ٨٩

(٢) قس المرجع ص ٩٠

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٨

(٤) قس المرجع ج ٤ ص ٤١٥

أملاكهم بسوسة ، فملك استغاثت قبيلة هوار بالامام عبد الوهاب بن عبد الرحمن سنة ١٩٦ هـ ضد أبي العباس عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب رحف عبد الوهاب بمشود هائلة من بربر نقوسة ، وضرب الحصار على طرابلس ، فاضطر ابن الأغلب إلى مهادته على أن يحفظ الأغلبة بمدينة طرابلس والساحل بينا بضغ الرستميون أيديهم على ضواحي طرابلس والمصحاء (١) .

وظلت العلاقات متوترة بين الرستميين والأغلبة ، وكانت تاهرت قد ازدهرت ازدهارا كبيرا في عهد أفلح بن عبد الوهاب ، وأصبحت بحق حاضرة المغرب كله ، إذ اجتذبت إليها الخارجين على دولة الأغلبة من النجد وأهالي القيروان ، وتضخم ملك الرستميين تضخما كبيرا ، وتآلق نجمهم في سماء المغرب ، وعندئذ عمد أبو العباس محمد بن الأغلب إلى عاربة للرستميين وذلك بإنشاء مدينة تجاور تاهرت ، كان القرض من إنشائها أن تحتل المكانة التي تشغلها تاهرت . ففي سنة ٢٢٧ هـ أسس مدينة بالقرب من تاهرت سماها العباسية ، فسكت عليه الإمام أفلح ، ولم يحاول أن يشفيه عن إقامتها وتخطيطها ، فلما تم بناؤها ، ونظمت أسواقها ، ونب عليها ببيوشه ، وأجلاسكانها عنها ، ثم أحرقها (٢) . ومع ذلك فقد لزم أبو العباس محمد الصمت ، ولم يعمل على عاربة الرستميي ، إذ لم يكن له طاقة بحربهم . وأخيرا تمكن إبراهيم بن أحمد من هزيمة جيش الرستميين بقيادة أفلح بن

(١) ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٥٧ - ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢١ ، ج ٦ ص ٢٤٨ هـ

الباروني ، الأضمار ص ١٤٥

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٢٢٩

العباس في واقعة قصر مانو سنة ٢٨٢ هـ ، وفي هذه الحركة ، استنفذ الطرفان قواهما ، وكان ذلك مقدمة لسقوط كل من دولتي الأغالة والرستميين على أيدي الشيعة العبيديين .

ب - علاقة الرستميين بالأمويين في الأندلس:

كان من الطبيعي أن يلتقي أمراء بني أمية في قرطبة بأئمة الرستميين في تاهرت ، وتقوم بينهم علاقات من الصداقة والمودة ، فإن العباسيين الذين كانوا يحاربون بني أمية في الأندلس ، كانوا أيضا أعداء للأغالية في تاهرت (١) ، فقامت بين الأندلس وتاهرت علاقات تجارية ، وكانت السفن تتردد بين وهران والمرية حاملة المتاجر والعلماء والمسافرين إلى كل من الثغرين . ويذكر الأستاذ دبور أن قيام دولة الرستميين هو الذي مكن

(١) ذكر الأستاذ الدكتور محمود علي مكي أن الإمارة الأموية في الأندلس كانت تعمل منذ عهد بعيد على محاربة أي دعوة غيبية في شمال إفريقيا ، فبذلك تكونت دولة الإدارة الشيعية في المغرب الأقصى ، « حمل أمراء بني أمية في الأندلس على توطيد صلاتهم ببعض الولايات المغربية حتى ما كان يخالفها في الناحية المذهبية كدولة بني رستم الحارضية في تاهرت ، وذلك حرصا على إضعاف جيرانهم الإدارة العلوية » (التتبع في الأندلس ، صحيفة المهد للصري بمغريد ، ١٩٥٤ ص ١٢١) وسنرى هذا أنه لم يجد أمام الأمويين في الأندلس من مثقل في المغرب سوى المغرب الأوسط ، لأن المغرب الأدنى كانت تقوم فيه دولة الأغالة المواليين للعباسيين ، والمغرب الأقصى كانت تقوم فيه دولة الإدارة الشيعية . كذلك كان من الطبيعي أن يجتأف عمر بن حفصون في الأندلس بعد خروجه على السلطة المركزية بقرطبة مع بني الأغلب ، فحين حيال يذكر أنه كاتب ابن الأغلب أمير إفريقية وأخيه بانه يصل لبني العباس ، ولاطفه بالهدايا ، فأجابه ابن الأغلب ، ورد على حديثه بديهة (ابن حيال) كتاب المختصر في تاريخ رجال الأندلس ، ج ٣ ، نقره الأثب لمختصر ، باريس ١٩٤٧ ، ص ٩٢)

دولة عبد الرحمن الداخل من الرسوخ ، وأتاح لها السبيل إلى الازدهار ، كما أن الدولة الرسمية كانت الجمر الذي يصل دولة بني أمية في الأندلس بالشرق الاسلامي ، لذلك كان أمراء بني أمية يهادون أئمة الرستمين تودداً لهم واكتساباً لصداقتهم (١) . وقد كثر وفود أهل الأندلس إلى تاهرت ، فكان منهم عمران بن مروان الأندلسي ومسعود الأندلسي اللذان رشحا عيد الرحمن بن رستم في جسيمة من اختارهم للإمامة من بعده . ويذكر ابن القوطية أن عمر بن حفصون فر إلى مدينة تاهرت ، فاشتغل مساعداً غياط أصله من زية ، وبينما هو « جالس في حانوته إذ أتاه شيخ معه ثوب يقطعه ، فقام إليه الغياط ، ووضع له كرسيًا بقعد عليه ، فسمع الشيخ كلام ابن حفصون ، فأكرهه عند الغياط ، فقال له : من هذا . فقال : غلام من جيرانى برية أتني ليعطي عندي ، فالتفت الشيخ إليه ، فقال له : متى عهدك برية ؟ قال : منذ أربعين يوماً . قال تعرف جبل ببشر ؟ فقال له : أنا ساكن عند أصله . قال له الشيخ : فيه حركة ؟ قال : لا . قال : قد آن له ذلك . ثم قال له : هل تعرف فيا يجاوره رجلاً يقال له عمر بن حفصون ، فذعر من قوله ، وأحد الشيخ النظر إليه ، وكان ابن حفصون أفضم الثنية ، فقال له : يا منحوس ، تحارب الفقر بالابرة . ارجع إلى بلدك ، فأنت صاحب بني أمية ، وسيلقون منك غيا ، وستملك ملكاً عظيماً ، فقام من فوره ، وذلك خوفاً من أن ينتشر الأمر وأن يقبض عليه بنو أبي البقلان وكانوا مالكي تاهرت ،

(١) Lévi - Provençal. Histoire de l'Espagne, t. II, p. 245 - 248

وولاًوم بنى أمية ، فأخذ خبزتين من الخباز ، وألقاهما في كفه ، وخرج ،
فأتى الأندلس ، (١) :

ونستخرج من هذه الرواية أمرين : الأول ، أن تاهرت كانت تضم جالية
أندلسية كبيرة ، والثاني أن العلاقات بين بنى أمية بالأندلس والرستميين
تاهرت كانت قائمة على الصداقة والمودة . ويذكر الباروني صاحب الأزهار
الرياضية أنه كان لأفلح بن عبد الوهاب مع ملوك الأندلس مواصلة
وارتباط ومودة ، يهادونه بالهدايا للنفسية ، ويهاديهم بمثلها ، وله عندهم مقام
رفيع ، ينظرونه بعين الإجلال والاعتبار (٢) . وعندما أحرق أفلح مدينة
العباسية ، وخرّبها سنة ٢٢٧ هـ ، كتب إلى الأمير عبد الرحمن الأوسط
بالأندلس يتقرب إليه بذلك ، فبعث إليه مائة ألف درهم (٣) .

وفي عهد أبي اليعقظان محمد بن أفلح ، دامت علاقات المودة والصداقة
بين تاهرت وقرطبة ، وكان أبو اليعقظان « لا يقدم ولا يؤخر في أموره
ومعضلاته إلا عن رأيه (أى الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط
٢٣٨ - ٢٧٣ هـ) وأمره ، وكذلك بنو مدرار بسجلماسة » (٤) .

ج - علاقة الرستميين بمصر :

كانت دولة الرستميين ترتبط ارتباطاً وثيقاً بمصر ، فقد كان كثير من

(١) ابن التوتية ، ص ٩١ ، ٩٢

(٢) الأزهار ص ١٨٦

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٤٢٩

(٤) ابن عسكاري ج ٢ ص ١٦١ - ابن الخطيب ، أمال الأعلام ، التسم الخامس

بالأندلس ، تحقيق ليلى بزوفال ، ص ٢١

أصل مصر على مذهب الإباضية ، وكان من بين علماء الإباضية في مصر شعيب المصري ، الذي كان يطلع في الإمامة الرستمية لنفسه ، فقدم إلى قاهرت عندما قامت الفتنة بين عبد الوهاب وابن فندين التي أدت إلى الانقسام الإباضي إلى نكارية ووهاية ، وأبد شعيب ابن فندين في نزاعه مع ابن رستم . فلما تغلب ابن رستم على خصومه عاد شعيب إلى مصر (١) . ويذكر الاستاذ دبور أن مصر فتحت دراعها للدولة الرستمية ، فتدفقت قوافلها للتجارة إليها ، وكانت هواره في شرق طرابلس وثقوسه تجوب صحراء مرت ذاهبة آتية بين المدن الرستمية في المغرب الأدنى والأوسط وبين مصر وقوافلها متقلة بالسلع الرستمية والمصرية (٢) .

د - علاقة الدولة الرستمية بدولة بني واسول للدرارين بسجلماسة :

كانت دولة بني واسول دولة صغرى معتدلة ، ولذلك التقت أهدافها مع أهداف الدولة الرستمية ، وتوطدت بينها أواصر المودة والصداقة ، وازدادت هذه الروابط وثاقة ، وإحكاما منذ أن زوج السبع بن إلياس ، وكان إباضيا صغريا (٣) ، ابنة مدرار من أروى ابنة عبد الرحمن بن رستم (٤) . وقد أنجب مدرار من أروى ولداً سماه ميمونا ، وكان يؤثره على بقية بنيه ، وقد لعب ميمون هذا دورا هاما في تاريخ دولة بني واسول بسجلماسة ، إذ تولى الإمارة في عهد أبيه ، ولكن أخاه ميمونا غلبه عليها (٥) .

(١) مختصر تاريخ الإباضية ص ٣٩

(٢) دبور ، ج ٣ ص ٣٥١

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ - الأزهاري ص ٩٤

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ - الأزهاري ص ٩٤

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٤٣

هـ - علاقة الدولة الرسمية بالسودان :

انضمت الدولة الرسمية بالسودان اتصالا تجاريا ، وذلك عن طريق القوافل التجارية التي كانت تخرج من ورجلان (ورجلة) قاعدة الرستميين التجارية في الصحراء ، وكان تجار الدولة الرسمية يحملون المنسوجات الصوفية والفطنية ، والكثانية . وأواني الزجاج ، والفخار والحزف ذي البريق المعدني ، والملح ، إلى بلاد السودان لتدرته عندهم ، فيبيعونه هناك بأسعار مرتفعة للغاية ، ويعودون محملين بالذهب والعاج وجلود الحيوانات . وكان أهل ورجلان يقودون هذه القوافل التجارية إلى بلاد السودان ^(١) . وكان الامام أفلح قد عقد مع ملك كوكو في السودان الشمالي الغربي علاقات من المودة ، فأهدى إلى هذا الملك هدية نفيسة ليوثق الصداقة بينهما ، ويشكره على ما يجده تجار بلاده من حسن معاملته لهم . وكان رسوله إلى ملك كوكو هو محمد بن عرفة ، وقد أعجب الملك بشخصية ابن عرفة وبصفاته وفرو سيته ولطفه ، وكان لذلك أكبر الأثر في توثيق عرى الصداقة بينه وبين الإمام أفلح (٢) .

(١) الأزهار الرباطية ص ١٨٤، ١٨٥

(٢) ديوز ، ج ٣ ص ٢٤٦، ٢٤٧

(٤)

حضارة الرستمين في تاهرت

١- الحياة العلمية :

كان أئمة الدولة الرستمية من العلماء الذين كرسوا حياتهم للعلوم ونشرها في كل طبقات المجتمع ، وقد شارك هؤلاء الأئمة العلماء مشاركة فعالة في الحركة العلمية في تاهرت بتشجيع الناس على طلب العلم ، فكانوا يقومون بالتدريس في جامع تاهرت وجامع جبل نفوسة . وكان عبد الرحمن بن رستم من كبار العلماء في عصره ، فكان بارعا في علوم الدين واللغة والفلك ، وكان محبا للعلم فأقبل على التأليف على قلة ما كان يجده من الوقت ، فصنف كتابا في التفسير لم يعمل اليه (١) . وكان الامام عبد الوهاب محبا للعلم ، تواقا إلى المعرفة ، وكان يبيع الأموال إلى العرائن لشراء الكتب ، ولا يعمل قراتها في شتاء أو صيف (٢) . وقد صنف كتابا سماه « نوازل نفوسة » وهو مجموعة من الفتاوى الشرعية كان علماء نفوسة يستفتونه فيها (٣) . وكان الامام أفلح طالبا في الحساب والفلك ، كما كان أديبا شاعرا ، ينظم الشعر ، وله قصيدة يشجع فيها على العلم ويحث على طلبه ، منها :

العلم أبهى لأهل العلم آثارا
يرك أشخاصهم روحا وأبكارا
حي - وإن مات - ذو علم وذو ورع
ما مات عبد قضى من ذاك أوطارا
و ذو حياة على جهل ومنقصة
كيت قد نوى في الرسم أعصارا

(١) ديوز ، ج ٣ ص ٣١٢

(٢) قس المرجع ، ص ٣٧٣

(٣) قس المرجع ، ص ٤٦١

وفي هذه القصيدة يدعو الامام أفلح إلى الاقبال على العلوم الدينية
فيقول : -

فاطلب من العلم مما تقضى الفروض به
واعمل بملك مضطرا وخيارا
وأطلبه ما عشت في الدنيا ومدتها
لموقف العرض أن لا تورث النارا
واجعله لله لا تجعله مفتخرة
ولا ترأى به بدواً وأحضارا

وكان طلاب العلم يحصلون في مساجد تاهرت وقوة على أيدي كبار
علماء الإباضية في أصول الدين والشريعة ، والرياضيات والطب والكيمياء .
وقد شاركت المرأة في هذه الحركة العلمية ، وساهمت بدور هام في ازدهار
الحياة العلمية في عصر الرستميين ، ومن نبغ في العلوم أخت الامام أفلح التي
برعت في علم الحساب والفلك والتنجيم . ومن المراكز العلمية الهامة في الدولة
الرستمية مدينة تاهرت ومدينة تروس بجبل نفوسة ، ومدينة جادو ، وقرية
أجتاون ، وجزيرة جربة ، وورجلان . ولقد حمل جبل نفوسة شعلة العلم في
عصر الرستميين ، فظهر من علمائه الشيخ مهدي النفوسي ، ومحمد بن يانس ،
وأبو الحسن الأبدلاني ، وعمر بن فتح ، ويعقوب بن أفلح ، وأبو
عبيدة عبد الحميد الجنائني ، ومحمد الجنائني وغيرهم ، وبرز من علماء تاهرت
ابن أبي إدريس ، وأحمد التيه ، وأبو العباس بن فتحون ، وعثمان بن الصغار
وأحمد بن منصور ، وأبو عبيدة الأعرج ، وقد ترجم لهم أبو العباس أحمد

الدرجيني في طبقاته ، وأحمد بن سعيد بن عبد الواحد الشاهي في كتابه
السير^(١).

واشتهرت تاهرت في عصر الرسميين بمكتبتها للمصومة التي كانت تضم
نحو ٣٠٠ ألف مجلد في مختلف أنواع العلوم والفنون ، وقد خربت هذه
المكتبة على أيدي الفاطميين ، بعد أن أخذوا منها ما اهتموا به من كتب
الرياضيات والفلك والهندسة والطب .

ب - الحياة الاقتصادية :

كان نفوذ الرسميين يشمل مناطق زراعية واسعة تخترقها الوديان ،
وتفجر فيها العيون ، وأهم هذه الوديان وادي شلف الذي يتفرع منه وادي
مينة ، ويمتد مجراه حتى يصل إلى تاهرت من جهة الجنوب ، ومنها وادي عين
سوفيج ، وهو واد يبلع من عين بجبل سوفيج ، ويتجه شرقا فيلتقي بوادي
القرعة ، ثم بوادي الوحش ويتألف من ذلك كله واد يمر جنوبي مدينة
شلالة . ويلتقي بوادي سوفيج من الشمال واد آخر يسمى قسن . هذه
الوديان ، بالإضافة إلى الأمطار الغزيرة ، كان لها أثر كبير في تكوين السهول
الخضبة في المغرب الأوسط ، وهي سهول أسرسوفي جنوب تاهرت ، وسهول
وادي شلف الغنية ، وسهول الساحل وفي هذه السهول كانت تزرع الحبوب
والقواكه ، وأخصها السفرجل الذي كان يفوق في طعمه سفرجل الآفاق .
وبالإضافة إلى هذه السهول النهرية والساحلية ، كانت بالمولد الرستمية
واحات خصبة في وسط الصحراء أهمها واحة ورجلان التي كانت تشتهر
بتخيلها وزيتونها .

وبإلى جانب هذه الثروة الزراعية التي أتاحها توافر المياه وخصوبة الارض ، كانت دولة الرستميين تعتمد اعتمادا خاصا على التجارة ، وكانت سفن الاندلس تصل إلى موانئها بنس ومستغانم ووهران ، مشحونة بالبضائع الاندلسية ، فتفرغها ، وتحمل منتجات البلاد الرستمية من منسوجات صوفية ومن العاج والجلود التي كانت تصل إلى المغرب الاوسط من بلاد السودان وغانة . وكانت الدولة الرستمية بحكم موقعها المتوسط بين المغربين الاذني والاقصى ، وبحكم علاقتها الحسنة مع بلاد السودان والاندلس وسجلاسة تحتل مركزا تجاريا ممتازا في بلاد المغرب كلها ، فكانت مركزا هاما للتجارة . وكانت القوافل التجارية تصل إليها من فاس والقيروان وسجلاسة وبلاد كوكو في شال السودان ، وكان الرستميون يصعدون إلى بلاد كوكو المنسوجات الصوفية والكتانية والحريز والقوارير الزجاجية ، والأواني الخزفية البراقة والملونة ، والاصواف والتحف المعدنية ، والافاوية والخطوط وكانت تستورد من السودان وغانة الذهب الخام والعاج وريش النعام وجلود الحيوانات . وكانت ورجلان أكبر قواعد الدولة الرستمية للتجارة الجنوبية ، ولذلك أترى تجار هذه المدينة تراه فاحشا بفضل ما كان يتدفق عليهم من أموال ، وينعكس هذا التراء في سائر مدن الدولة الرستمية ، وخاصة في حاضرتها تاهرت التي ازدهرت في ظل الرستميين ، ونما عمرانها نموا لفت أنظار الرحالة والجغرافيين . وقد وصلت إلينا أسماء لبعض الأثرياء في دولة الرستميين ، نخص بالذكر منهم يبيب بن زلفين المزاني ، وكان يملك من الابل ثلاثين ألفا ، ومن النعم ثلاثمائة ألف ، ومن الحمير اثني عشر ألفا (١) ، ومنهم ابن وردة القمارسي الذي اجتى تاهرت سوقا خاصا

له^(١). وكان أهل جبل قنوسة أيضا يشتغلون بالتجارة في الذهب مع بلاد السودان. وكان لازدهار الحياة الاقتصادية في دولة الرستميين أثره في اجتذاب كثير من تجار المسلمين وصناعهم، فوفد إليها الناس، وقصدوها من كل مكان، واستوطنوها واشتغلوا فيها بالتجارة والصناعة، وفي ذلك يقول ابن الصغير المالكي «وأنتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار، وأقاصي الأقطار، فقل أحد أن ينزل بها من الغرباء إلا استوطن معهم، وابتنى بين أظهرهم، لما يراه من رخاء البلد، وحسن سيرة إمامه، وعدله في رعيته، وأمانته على نفسه وماله، حتى ترى دارا إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري، وهذه لفلان القروي، وهذا مسجد القرويين ومربعتهم وهذا مسجد البصريين، وهذا مسجد الكوفيين، واستعملت السبل إلى بلاد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الائتمعة» (٢) وقد ظهر هذا الرخاء في تقدم العمران بتاهرت، وليس أدل على ذلك مما ذكره ابن الصغير عند اشارته إلى الوفود رسل البصرة الذين قدموا للمرة الثانية إلى تاهرت بقصد منح الامام عبد الرحمن بن رستم عشرة أحمال من الذهب يستعين بهم في تدعيم دولته الناشئة، فهاهم التطور الهائل الذي طرأ على عمران المدينة، فقد دخلوا المدينة، «فقرأوا هيئتها قد تبدلت، ولاح عليها رونق المدينة واليسار، وعلت وجوه أهلها سياء الحضارة والرفاهية وبدأت من عيام آثار النعمة والغنى، رازيبت المدينة بقصور مشيدة ودور منتظمة، وأبنية مبهجة، وقباب مرتفعة، وأسواق مزدحمة، ومساجد متعددة بمنازل عالية، وحمامات متقنة، ويحيط بالعاصمة بساتين متنوعة،

(١) ابن الصغير ص ٢٧

(٢) قس المرجع ص ١٢، ١٣ - الأرقام ص ٤٢

ومطاحن متصبة على الأنهار الجارية ، واتخذ أهلها القرش والستائر المزخرفة
والخيل المسومة ، وتنوع الألبسة ، وتعددت اللغات والأزياء ، وراوا
ما لم يخطر لهم ببال ، ولا شاهدوه في مجيئهم الأول ١٠٠٠ (١)

وفي عهد الامام أفلح تقدمت الدولة الرسمية تقدما سريعا ، ووصلت
إلى أوج عظمتها ، وبلغت في السؤدد متبى العز والترف ، فقد ابنتى الأغنياء
القصور الفخمة ، واتخذوا الضياع الواسعة ، واستكثروا من العبيد
والحشم ، واتسع نطاق التجارة اتساعا عظيما إلى حد أن بعض التجار أصبح
يملك سوقا قائما بذاته ، وعلى عهده كثر المسافرون إلى السودان عن طريق
الصحراء للتجارة واستجلاب اللب ، وضربه دراهم ودنانير للتعامل
واتخذه حليا (٢) .

ج - الحياة الفنية .

كان من أثر الازدهار الاقتصادى الذى شهدته دولة الرستميين أثر كبير
فى إقبال سكان هذه الدولة على تشييد القصور العظيمة والمباني الفخمة ، خاصة
فى عصر الإمام أفلح الذى بلغت فيه الدولة ذروة تقدمها فى مضمار الحضارة ،
فقد دُمِشِعَ فى ملكه ، وابنتى القصور ، واتخذ أبوابا من الحديد ، وبنى
الجفان ، وأطعم فيها الجبان ، وعمرت معه الدنيا ، وكثرت الأموال
وللسفلات ، وأتته الرفاق والوفود من كل الأمصار والآفاق بأنواع
التجارات ، وتنافس الناس فى البنيان حتى ابنتى الناس القصور والضياع

(١) للمرجع السابق ص ١٣ - الأزهار ص ٨٩ - ديوان ص ٣٠ ص ٤٤٢

(٢) محم . تاريخ الإياض ، ص ٤٢

خارج المدينة ، وأجروا الأنهار إليها ، فابتنى أبان وحموية القصرين المعروفين
بها بأملاق ، وابتنى عبد الواحد قصره الذى يعرف به اليوم ، (١) .

غير أنه لم يبق من هذه المنشآت الكثيرة التى زخرت بها تاهرت شئ . يذكر
فقد اضمحلت هذه المدينة عقب سقوط دولة الرستميين ، فهجروا علماءها ،
وكبار أعيان الدولة الرستمية ، ولكنها ظلت تفرأ لأعمال الشيعة الفاطميين ،
فوليها أيام المهدي أبو حميد دواس اللببسى ، ثم وليها مصالة بن حبوس
المكناسى . وفى ولاية حميد بن بصلى بن حبوس أقيمت قلعتها ، وبني
سورها (٢) . وظلت تاهرت تتحدر نحو النهاية بسبب المعارك التى كانت
تدور فى ساحتها بين المتغلبين عليها إلى أن كانت الضربة الكبرى التى أصابتها
فى أوائل القرن السابع الهجرى ، عندما خرج بنو غانية على الموحدى فى
ناحية قابس ، ومازال يحيى بن غانية يشن عليها الغارات مرات متعددة إلى
أن خرج عنها أهلها وهجروها تماما سنة ٥٦٢ هـ (٣) . ومنذ ذلك التاريخ
تخربت عمارتها ، واعتورت المصائب عمراتها ، وأصبحت اليوم أطلالا دارة .
وقد تبقى من هذه العاصمة آثار قصبتها التى شيدها الرستميون ، وجددها
الصنهاجيون ، واستخدمها الأمير الناصر عبد القادر الجزائرى فى القرن ١٩م
مركزا لقيادته . ويذكرنا نظام البناء فيها بالقصور الأيوبية التى شيدها خلفاء
بنى أمية فى بادية الشام ، مما لا يدع مجالا للشك فى أن الرستميين تأثروا
بالتقاليد المعمارية السورية (٤) . وسور هذه القصبة مستطيل الشكل ، يوجه

(١) ابن العثير ، ص ٢٦ - الأزهار الرياضية ص ٤٢

(٢) ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٢٦

(٣) ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٤٦

(٤) Marçais , l'architecture musulmane, p. 29

نشز له موقع استراتيجي رائع يسيطر على المدينة وما يحوطها من سائط ومروج . ويسبق سورها في الجانب الشمالي الشرقي سور أمامي صغير ، وفي الداخل فناء فسيح ، يشغل القسم الأعظم من القصبة ، وتلتصق بجدرانها من الداخل غرف مختلفة الانواع (١) .

غير أننا يمكن أن نشاهد عددا كبيرا من آثار الرستميين في سدراتة بالصحراء الجزائرية وذلك أنه لما سقطت دولة الرستميين ، لم تنقرض سلاتهم من الجزائر ، بل هاجرت أسراتهم من تاهرت ، إلى الصحراء التي لم تعرض لنزوح القاطمين ، فاستقرت هذه الأسرات في ورجلان ، ثم عمروا في القرن الرابع الهجري مدينة سدراتة وظلت هذه الأسرات الإباضية هناك حتى هاجمتها جيوش المرابطين ، فهاجرت من ورجلان إلى صحراء ميزاب ، وما لبث بقايا الرستميين أن حفرُوا الآبار في هذه البقاع الجذباء وعمروها . وبنوا من هذه الأماكن واحات خصبة سميت فيها بعد بامم سبع مدن (٢) . وتقع سدراتة على بعد ٦٠٠ كيلو مترا جنوب شرق الجزائر ، ١٤ كم . جنوبي واحة ورجلان ، وقد جددت سدراتة حضارة تاهرت ، ولكنها خربت بعد ذلك في القرن السابع الهجري بسبب للفتن المتوالية في الجنوب ، وطمرت الرمال آثار حضارتها إلى أن أسفرت الحفائر الأثرية التي أجراها علماء الآثار الفرنسيون في أرضها ، أمثال الاساتذة تاري ، وبول بلانشيه ، وفوشيه ، ومرجريت فان برشام ، عن كشف آثار بناء يعتقد أنه مسجد ،

(١) Ibid. - السيد عبد العزيز سالم ، روايت الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر ،

الطبعة ، عدد ٢٩ سنة ١٩٥٩ ص ٢٧

(٢) محمد بن تايوت ص ١٢٧

ويرى الاستاذ تارى أن بيت الصلاة في هذا المسجد كانت تعلوه قباب يضاويه الشكل ، يلتصق بعضها إلى بعض ، وأنه كان يشتمل على ثلاثة صفوف من الدعامات الاسطوانية ، وكان أحد جدرانه مزينا بطاقات حفرت فيها جوفات مقوسة تعلوها أنصاف قباب مسطحة ، إحداها مزين بضلوع بارزة كالتفصوص ، تشبه إلى حد كبير جوفات قصر الاخضر بالعراق ، أو طاقات كنيسة طيسفون ، مما يدل دلالة واضحة على مدى تأثير الفن الزخرفى عند الرسميين بالفن العراقى الفارسى ، كذلك أسفرت الحفريات الأثرية ، التى أجريت بأرض سدرانة ، عن كشف بقايا دور كانت مزينة بزخارف جصية رائعة ، تشبه زخارف سامراء فى العراق ، وقوامها العناصر الهندسية التى تتألف من مربعات وجامات مستديرة وفصوص ، والعناصر النباتية التى تقوم على القزوع الموجهة التى تتوزع فيما بينها التوريبات (١)

(١) السيد عبد العزيز سالم ، روائم الآثار الإسلامية ، ص ٢٨

Marçais, op. cit. pp. 55 — 60

(٥)

دولة بني اللددار بسجلامة

١ - نشأة سجلامة وقيام دولة بني واسول اللددارين :

انتشر المذهب الصفرى فى أقصى القسم الجنوبى والجنوبى الغربى من المغرب على أيدى أئمة من العرب الخوارج ، الذين لجأوا إلى هذه النواحي البعيدة عن النفوذ الأموى . ولذلك اعتنق أهل مواطن سجلامة من مكناسة الإسلام على المذهب الصفرى ، ثم انتزوا مع المنتزعين على الدولة الاموية على أثر قيام ميسرة بقتلته . وكان من زعماء الصفرية فى هذه النواحي عيسى ابن يزيد الاسود المكناسى الصفرى ، وكان صاحب ماشية يتتبع بها المراعى بجنوب بلاد المغرب ، وكثيرا ما كان يتتبع أرض سجلامة ويردد عليها (١) ، وكان موطئا براحا يجتمع الناس فيه من قبائل البربر المهاجرين له يسوقون فيه ، فزّل عيسى فى أرض سجلامة سنة ١٣٨ هـ ، وهناك اجتمع إليه كثيرون من زناته الصفرية ، وسكنوا معه فى خيام (٢) ، وكان عددهم يجاوز أربعة آلاف شخص ، فبايعه كبيرهم أبو القاسم صفون بن واسول المكناسى الزناتى ، وحمل قومه على طاعته ، فولوه عليهم ، فقام بأمرهم ، وشرح فى تخطيط مدينة سجلامة سنة ١٤٠ هـ فأكل بناءها ، وأتقن أسوارها ، وقسم مياهها فى خلجان بقدر موزون ، وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه ، وأمر بفرس النخل والاستكثار منه (٣) .

(١) ابن الخطيب ، القسم الثالث من كتاب أحوال الأعلام ص ١٣٨

(٢) ابن خلدون ، ج ١ ص ٢١٥

(٣) ابن الخطيب ، المرجع السابق ص ١٣٩

ويا وأن أهل سجلماسة أخذوا على عيسى بعض ما أخذ أنكروها عليه، فقبضوا عليه، وشدوا وثاقه إلى أصل شجرة في سفح الجبل، بعد أن طلوه بالصل، وتركوه حتى قتله الزناير والنحل سنة ١٥٥ هـ (١)، فسمى هذا الجبل لذلك باسم جبل عيسى، ويختلف ابن الخطيب وابن خلدون فيمن تولى بعده ومدة حكمه، فيذكر ابن الخطيب أنه تولى بعده أبو الخطاب الصفري (١٦٧ - ١٩١ هـ) بينما يتفق ابن خلدون وابن عذاري على أن أبا القاسم سمفون بن واسول المكنى الملقب بمدرار (١٥٥ - ١٦٧) هو الذي تولى أمر سجلماسة بعد عيسى، ويتفق معها السلاوي في ذلك (٢). ورأى ابن خلدون أولى بالثقة لأن أبا الخطاب المذكور كان قائما بإقليم طرابلس، وقد أشرنا إلى إمامته من قبل. ويذكر صاحب الاستبصار أن أبا القاسم سمفون هذا الملقب بالمدرار كان حدادا من جالية الربيض بقرطبة، خرج من الأندلس بعد وقعة الربيض، فزل منزلا بقرب سجلماسة، فأنشأ بمدرار خيمة، وسكنها فبنى الناس حوله، وظفر برئاسة البربر (٣). ويذكر ابن خلدون أنه كان إياضيا صغريا، وخطب في سجلماسة لمنصور وللهدي من بني العباس (٤). ولما توفي سنة ١٦٧ هـ خلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير، ولكن أهل سجلماسة ناروا عليه في سنة ١٧٤ هـ، وخلعوه، وأقاموا مكانه أخاه البسح بن أبي القاسم الملقب بأبي منهدر (١٧٤ - ٢٠١ هـ)، ويعتبر البسح بن أبي القاسم بن المدرار هذا المؤسس الحقيقي لدولة بني

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٧ - ويحتمل ابن الخطيب سنة ١٦٧

(٢) السلاوي، ج ١ ص ١٢٥

(٣) الاستبصار ص ٢٠١ - ابن الخطيب، ص ١٤٠

(٤) ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٦٨

واسول المعروفة بدولة بني مدرار . ففى عهده استفتح ملك بنى المدرار فى سجلماسة ، وهو الذى أتم بناءها وتشيدتها ، واختط بها المصانع والقصور ، وانتقل إليها فى سنة ١٩٩ هـ ^(١) ، وفيه يقول ابن عذارى :
 « وكان جبارا عتيذا ، فظفر بمن عانده من قبائل البربر ، وقهرهم وأذلهم ،
 وأظهر الصغرية ، وأخذ خمس معادن درعة ، وعظم قدره فى ذلك الوقت ،
 وكان موضع سجلماسة قد عمر بالديار دون سور ، ثم زاد ملك اللينع المذكور ، وأمر ببناء السور ، أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب ، فبيل أن
 بناءه كان من ماله ، لم يشاركه فيه أحد ، فسكن سجلماسة ، وتوفى سنة ٢٠٨ هـ
 فكانت مدته بها نحو أربع وثلاثين سنة » ^(٢) . وذكر ابن الخطيب أنه
 هدم سور المدينة الأول ، وبناء أعظم من البناء الأول ، وفتح فيه ١٢
 بابا محددة ، وقسم داخل المدينة على القبائل ^(٣) . وهكذا ازدهرت مدينة
 سجلماسة فى أيامه ، وأصبحت حاضرة لهذه الدولة . وتقع مدينة سجلماسة
 على نهر يسميه اليعقوبى بنهر زيز ، وليس بها عيون ولا آبار ^(٤) .

ويعتقها ابن حوقل فى القرن الرابع بقوله : « وسجلماسة مدينة حصة
 الموضع جليلة الأهل ، فاخرة العمل على نهر يزيد فى الصيف كزيادة النيل...
 فيزرع بمائة حسب زرع مصر فى الفلاحة ، وربما زرعوا سنة عن بذر ،
 وحصدوا مزارع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ، فكلما أغدقت تلك

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٦٨ — السلاوى ، ج ١ ص ١٢٥

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢١٥ ، ٢١٦

(٣) ابن الخطيب ، ص ١٤٣

(٤) الطوقى ، ص ٣٥٩

الأرض سنة في عقب أخرى ، حصوده إلى سبع سنين ^(١) ، يسيل لا يشبه سبلل الحنطة ولا الشعير ، بحب صلب المكسر ، لذيق المظم ، وخلقه ما بين القمح والشعير ^(٢) ، ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنة ، ولهم رطب أخضر من السلق في غابة الحلاوة ، وأهلها قوم مراة مباسير ، يباينون أهل المغرب في المنظر والخير ، مع علم ، وستر ، وصيانة ، وجمال ، واستعمال للبرودة ، وسماحة ورجاحة ، وأبنتها كأبنية الكوفة إلى أبواب ربيعة على قصورها مشيدة عالية ^(٣) . وذكر البكري أن أهل سجلماسة يعتمدون على التمر لقلة غلتهم ، وأشار إلى مهارة نساها في غزل الصوف وصناعة الأزر البديعة التي تفوق ما كان يصنع في مصر من القصب ، وكان ثمن الإزار الواحد منها يبلغ ٣٥ ديناراً ، ويتحدث البكري عن غنى أهلها ، وكثرة أموالهم ، لاשתغالهم بالتجارة إلى بلاد غانة والسودان ، وهي بلاد مشهورة بالذهب . ويؤكد الاصطخرى هذا المعنى بقوله : « وهي قرية من معدن الذهب ينشأ بها . وبين أرض السودان وأرض زويلة ، ويقال إنه لا يعرف معدن للذهب أوسع ذهباً ولا أصفى منه ، إلا أن المسلك إليه صعب ، والاستعداد شاق جداً » ^(٤) .

-
- (١) ذكر البكري ذلك بأن سجلماسة بلاد شديدة الحرارة ، وكانت الحرارة تشتق الأرض ، فإذا يبس الزرع تأثر به عند الحصاد ، فتساقط في الثوق ، فإذا كان العام الثاني حرت بلا بذر ، وكذلك في العام الثالث (البكري ، ص ١٤٨)
 (٢) أشار الخويي إلى أن أكثر مزارعات سجلماسة الفس والقرنة
 (٣) ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٩٠
 (٤) أبو اسحق ابراهيم بن محمد الفارسي الاصطخرى ، المسالك والممالك ، تحقيق الأستاذ محمد جابر فهد المال الحين ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٣٤٠

ويصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بقوله : « سجلماسة قصبة جليلة على نهر بعزل عنها ، يفرغ في تليها ، وهي طولانية نحو القبلة ، عليها سور من طين ، وسطها حصن يسمى المسكر ، فيه الجامع ودار الإمارة شديدة الحر والبرد جميعا ، صحيحة الهواء ، كثيرة التمور ، والأعناب والزبيب ، والفواكه والحبوب ، والرمان ، والخمرات ، كثيرة القرباء ، موافقة لهم ، يقصدونها من كل بلد ، ومع ذلك نهر فاضل ، برستانها معادن الذهب والفضة ، وهم أهل دقة ، وقوم جياذ ، بها علماء وعقلاء ، لها باب القبلى ، باب الغربى ، باب غدير الجزارين ، باب موقف زناته ، وغيرها ، وهي في رجال ، ولهم مياه » (١) .

وكانت سجلماسة في عصر الموحدين مركزا تجاريا هاما ، وكان يتولاهام أمير من أمراء الموحدين ، ويصفها صاحب الاستبصار بقوله : « ولدى مدينة سجلماسة ١٢ بابا ، ولها بساتين ، وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه ، وزبيب عنها للمرش الذى لا تناله الشمس لا بزبيب إلا فى الظل ، ويسمى الظلى ، وما أصابته منه زبيب فى الشمس ، وهي على نهري من عنصر واحد فى موضع يسمى أكلف ، وتمده عيون كثيرة ، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر فى حياض كحياض البساتين » (٢) . وقد اندثرت مدينة سجلماسة اليوم ، وقامت على أنقاضها تافيلت .

ب - خلفاء انيسع بن أبى القاسم سمعون الملقب بالمدبر :

تولى بعده ابنه مدرار الملقب بالمتنصر ، وهو الذى تزوج أروى ابنة

(١) المقدسي ، أحسن التقاسيم لمرق الأنايم ، مائة ليد ١٩٠٦ ص ٢٣١

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠١

عبد الرحمن بن رستم ، وأنجب منها ولده ميمون ، وكان له ولد آخر من امرأة تعرف بتقية اسمه ميمون أيضا ، وكان اليسع يميل إلى ابن الرستمية ولذلك تنازع الولدان في عهده ، وقامت بينهما الحرب ثلاث سنوات ، تغلب في نهايتها ابن أروى ، فلما استبد بالأمير وأساء السيرة خلعه أهل سجلماسة ، وأعادوا مدرار على ولايتهم ، ولكنه أخذ يميل من جديد إلى ابن الرستمية ، فخلعوه وقدموا على أنفسهم ميمونا ابن التقية ، وتوفي مدرار في سنة ٢٥٣ هـ وظل ابنه ميمون قائما بامارتهم حتى توفي سنة ٢٩٣ هـ .

وخلفه ابنه محمد بن ميمون بن مدرار وكان إياضيا ، ولم يطل عهده إذ توفي في صفر سنة ٢٧٠ هـ ، وولى بعده عمه اليسع بن مدرار سنة ٢٧٠ هـ . وفي عهده وصل عيد الله المهدى وابنه أبو القاسم إلى سجلماسة ، فحبسها ، إلى أن زحف إليه أبو عبد الله الشيعي ، وتغلب عليه وقتله ، ودخل سجلماسة في ذى الحجة سنة ٢٩٧ هـ ، وخلص المهدى وابنه ، وأقام على سجلماسة إبراهيم بن غالب الزاني ، من رجال كتامة (١) . وماكاد أبو عبد الله الشيعي يعود إلى إفريقية حتى تار أهل سجلماسة على طاعته عليهم ، وقتلوه بعد مضي ٥٠ يوما فقط من انصراف أبي عبد الله الشيعي ، وقدموا على أنفسهم الفتح بن ميمون بن مدرار ، الملقب بالرسول وذلك في ربيع الأول سنة ٢٩٨ هـ . وظل الفتح يقوم بأمر سجلماسة إلى أن توفي في رجب سنة ٣٠٠ هـ ، ثم خلفه أخوه أبو العباس أحمد على إمارة سجلماسة . واستقام أمره في البلاد ، غير أن المهدى لم يتركه بنعم بالإمارة ، فوجه إليه مصالة بن حبوس الصنهاجي على رأس جيش كثيف من بربر كتامة ومكناسة غاصر

(١) ابن عناري ج ١ ص ٢١٧ - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٦٩ - ابن الخطيب القس

سجلماة ، وافتتحها عنوة ، وقتل أبا العباس أحمد وارسل رأسه إلى عبيد الله المهدي في محرم سنة ٣٠٩ . ورأى مصالحة أن يقيم على سجلماة أميراً من آل مدرار حتى يحد بذلك من ثوراتهم ، فأقام للمعز بن محمد بن ساور بن مدرار ، وكان المعز هذا يدعو للفاطميين . ولما توفي في سنة ٥٣٢٩ خلفه ابنه محمد الملقب بأبي المنتصر ، واستقام ملكه عشر سنوات ، وتوفي في سنة ٥٣٤١ . ثم تولى ابنه المنتصر ، وكان صغيراً لا يتجاوز من العمر ١٣ سنة ، فوثب عليه ابن عمه محمد بن القتح بن ميمون بن مدرار في سنة ٥٣٣٧ ، وأخرج المنتصر من سجلماة ، وقطع الدعوة عن خلفاء الفاطميين ، ودعا إلى نفسه ، وتسمى بأسماء المؤمنين ، وتلقب بالشاكر لله (١) ، ورفض الخارجية ، وأخذ بمذهب أهل السنة ، واتخذ السكة اسمه ولقبه ، وكانت تسمى الدراهم الشاكرية (٢) . وكان مادلاً حسن السيرة ، وظل يقوم بأمر سجلماة وما يليها حتى زحف إليه جوهر الصقلي في خلافة المعز لدين الله الفاطمي سنة ٥٣٤٧ ، فحاصر سجلماة ثلاثة أشهر ، ففر الشاكر لله في جماعة من أهله وخاصته ، وتحصن بحصن من حصون سجلماة يبعد عنها بنحو ١٧ ميلاً . أما جوهر فدخل مدينة سجلماة . ويذكر ابن الخطيب أن الشاكر لله خرج من حصنه في نفر من أصحابه يتجسس الأخبار ، ودخل سجلماة متنكراً ، فقدر به قوم من مطهرة ، فقبض عليه جوهر ، وحسبه في قصص من الخشب ، وحمله إلى القيروان ، ثم سجن برقادة إلى أن توفي سنة ٣٥٤ . وبوفاته انقرض آل مدرار أمراء سجلماة .

(١) ابن الخطيب ، الرسم السابق ص ١٤٨

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٠

الفصل الثامن

المغرب في ظل الفاطميين

(١) قيام الدولة الفاطمية في المغرب

- ١ - دور أبي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة الفاطمية : ١ - مرحلة الاعداد ٢ - مرحلة الصدام المسلح
- ب - خلافة عبيد الله المهدي :

- ١ - التخلص من الشيعي وأصحابه
 - ٢ - القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس
 - ٣ - تأسيس المهديّة والتمهيد لبسط النفوذ الفاطمي على مصر أو الأندلس
 - ٤ - رد الفعل الأموي ضد مطامع الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في تحريكهم نحو مصر
 - ٥ - فتح برقة ومحاولة فتح مصر
- (٢) ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفراني الخارجي
- ١ - قيام الثورات في بداية عهد القائم
 - ب - ثورة أبي يزيد :
- ١ - المرحلة الأولى : (٣٢٢ - ٣٣٢ هـ)

٢ - المرحلة الثانية : (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ)

٣ - المرحلة الثالثة : (٣٣٣ - ٣٣٤ هـ)

٤ - المرحلة الرابعة : (٣٣٤ - ٣٣٦ هـ)

(٣) خلافة المعز لدين الله الفاطمي

أ - بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى

ب - استيلاء المعز على مصر وانتقاله إليها

الفصل الثامن

المغرب في ظل الفاطميين

(١)

قيام الدولة الفاطمية في المغرب

١ - دور أبي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة الفاطمية :

كان قيام الدولة الفاطمية في حد ذاتها ثورة وانتقلا في التاريخ الاسلامي، إذ أن نجاح الشيعة الاسماعيلية في إقامة خلافة لهم في المغرب جاء بعد محاولات طويلة فاشلة قام بها الشيعة منذ قيام الدولة الأموية، للظفر بالخلافة، وكان هذا الفشل نتيجة لانقسامهم على أنفسهم وتفككهم^(١). وكان لهذا النجاح الذي أحرزه الفاطميون آثار حاسمة في تقرير مصير بلاد المغرب لأمد بعيد، فان المغرب الاسلامي رغم انفصاله عن الدولة العباسية كانت تسود فيه المذاهب السنية، وذلك لأن المذهب الإباضي في تاهرت، وهو مذهب المعتدلين من الخوارج، كان لا يختلف كثيرا عن مذاهب أهل السنة، حتى أطلق عليه حديثا اسم المذهب الخامس، وهذا يفسر، وفقا لما يراه الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد وكيف أن إمارة سجلماسة الصفرية كانت تدن بالولاء للخلافة العباسية ببغداد، كما أن دولة الأدارسة في فاس، على

(١) حسن إبراهيم حسن وطه شرف، عبيد الله المهدي امام الشيعة الاسماعيلية،

الرغم من كونها دولة علوية، إلا أن الأُداسة كانوا معتدلين بشكل لا يفرقهم من أهل السنة، مما دعا إلى تسمية هذه الدولة بالدولة الهاشمية، شأنهم في ذلك شأن العباسيين، وعلى هذا قامت فاس وتاهرت وسجلماسة بنشر الإسلام السنّي في المغرب الأقصى والأوسط، وبذل حكام هذه العواصم الثلاث جهداً صادقاً في القضاء على هرطقات البربر في المناطق الجبلية بالمغرب الأقصى، وخاصة هراطقة برغواطة. فقيام الدولة الفاطمية في المغرب انقلاب خطير، أدى إلى قطع علاقة المغرب بالشرق، وبالخلافة العباسية ببغداد^(١)، مما دعا أمراء بني أمية في الأندلس بعد ذلك إلى التلقب بألقاب الخلافة في ذي القعدة سنة ٣١٩، بعد أن فقدت الخلافة العباسية هيبتها من جهة، ومتأوءة الخلفاء الفاطميين في المغرب من جهة ثانية.

وقبل أن نتحدث عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب لابد أن نذكر أن هناك مرحلتان لنشر دعوة الإسماعيلية في هذه البلاد: الأولى، هي مرحلة الإعداد للدولة، وتكوين الأنصار والمشايعين للمذهب الإسماعيلي في المغرب. والثانية، مرحلة الصدام المسلح مع الدويلات القائمة في المغرب.

١ - مرحلة الإعداد :

كانت بلاد اليمن مركزاً هاماً للديانة الشيعية، وذلك لبعدها عن مركز الخلافة العباسية، ومناعتها وصعوبة الطرق للوصول إليها، ولقرىها من الحجاز

(١) سعد زغلول عبد الحميد، فترة حاسمة من تاريخ المغرب، مجلة كلية الآداب والعلوم
بجامعة القاهرة، المجلد الأول ١٩٥٨، بتنازى، ص ٢١٩ - ٢٢١

يجمع الحجاج^(١). ولقد كان للقيام بالدعوة الاسماعيلية رجلا من الكوفة اسمه رستم بن الحسين بن فرج بن حوشب الذي عرف بمنصور البين لانتصاره على الوالي العباسي ، وعلى أمراء البين^(٢) . وكان ابن حوشب يرسل النداء إلى النجاة وعمان والبحرين ومصر والمغرب ، وجاء اختيار للمغرب موقفا كل التوفيق لبعده عن مركز الخلافة العباسية ، وتذمر البربر من الحكم العباسي ، ولهذا فقد كانت بلاد المغرب تربة خصبة للدعوات الشيعية^(٣). وكانت الامام جعفر الصادق قد أخذ إلى المغرب داعيين هما : الحلواني وأبا سفيان ، وقال لهما : « بالمغرب أرض بور ، فاذهبا واحرثاها حتى يجيء صاحب البذر » (٤). فزل أحدهما يبللة مراغة ، والآخر يبلد سوف حار من أرض كتامة ، فانتشرت الدعوة الشيعية في هذه النواحي ، ولما بلغ ابن حوشب نبأ وفاة هذين الداعيين ، عهد إلى أبي عبد الله الشيعي بالدعوة للاسماعيلية في بلاد المغرب ، فخرج أبو عبد الله إلى مكة ، والتقى هناك ببعض رؤساء كتامة ، ومنهم موسى بن حريث ، وأبو القاسم الوراقجي ، ومحمود بن عيسى بن ملال الساكني^(٥). وذكر ابن عذارى ، أنهم كانوا نحو عشرة

(١) أحد مختار البادى ، سياسى الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، صحيفة معهد الدراسات

في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧ ص ١٩٤

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٥ - السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ج ١

ص ١١٠

(٣) محمود على مكي ، التقييم في الأندلس ، صحيفة المعهد العربي في مدريد ، المجلد

الثاني ، ١٩٥٤ ص ٩٨

(٤) المقرئى ، انحاط الخلفاء بذكر الأئمة الخلفاء ، نشره الدكتور جمال الدين الشيال ،

القاهرة ، ١٩٤٨ ، ص ٥٧ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٥

(٥) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٦٦

من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم ، فسألم عن بلادهم ، فأخبروه بمصفتها ،
وسألم عن مذهبهم ، فصدقوه عنه ، فتكلم أبو عبد الله الداعي في المذاهب ،
فوجد الشيخ يميل في مذهب إلى مذهب الإباضية للنكارة ، فدخل عليه من
هذه الثلة ، ولم يزل يستدرجهم ، ويغلبهم بما أوتي من فضل اللسان ، والعلم
بالجدل ، إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه (١). فلما آن لهم العودة إلى بلادهم ،
سألوه عن مقصده ، فادعى أنه يريد مصر ليعلم بها ، فدعوه إلى بلادهم للقيام
بهذه المهمة ، ونزل ببلاد كتامة في منتصف ربيع الأول سنة ٢٨٨ هـ (٢) .
فزل على موسى بن حريث ببلده ، وسمى مكان منزله بفتح الأخيار ، وأخبره
بأن النص عنده من المهدي بذلك ، وأن اسمهم مشتق من الكتان (٣). وأخذ
أبو عبد الله الشيعي بضح لاهل كتامة من الأحاديث والتنبؤات بظهور
المهدي ، ويستخدم السحر والطلاسم ، الأمر الذي أثار حماسهم ، وجعلهم
يلتفون حوله ، ويعضدونه .

ولقد اعترضت أبا عبد الله الشيعي بعض الصعاب تمكن من التغلب عليها ،
ذلك أن وجوده أحدث انقساماً بين البدر ، انتهى بانتصار الفريق الذي كان
يساند ، والتمزت كتامة للطاعة له ، ودخلت قبائل كثيرة في دعوته ، فجعل
لهم ديواناً ، وألزمهم المجتدية ، وقال لهم : « أنا لا أدعوكم لنفسي ، وإنما
أدعوكم لطاعة الإمام المعصوم من أهل البيت » (٤) .

(١) ابن خلدون ، ج ١ ص ١٦٦

(٢) ابن خلدون ، ج ١ ص ٦٦ — أحمد مختار البادي ، سياحة الناطقين ، ص ١٩٤

(٣) نفس المربيع ص ٦٧

(٤) ابن خلدون ، ج ١ ص ١٧٢

استقام أمر أبي عبد الله الشيعي بكثامة وعجيسة وزواوة ، وكثر الداخلون في دعوته من البربر ، فقوى أمره ، واستفحل خطره ، وأحس بقوته ، فبدأ الأمير إبراهيم بن أحمد يخاف هذه القوة الجديدة ، ويعمل لها حساباً كبيراً ، وكان لابد له أن يسعى لتخفيفها قبل أن تحطمه . ويذكر ابن الخطيب ، أنه بعث إلى أبي عبد الله الشيعي من يخطف في تعرف خيره ، وسير غوره ، فلما دخل عليه قال له : « إن الأمير إبراهيم بن أحمد وجهي إليك يقول لك : ما حلك على التعرض لسخطي ، والثوب على ماني ، وإفساد رعيتي ، والمخروج على . فان كنت تبغى غرضاً من أغراض الدنيا ، فانك تجده عندي ، وإن كان قصدك غير ذلك ، فقد عرفت عواقب من سولت له نفسه ما سولت لك نفسك ، وإنما أردت الإعذار إليك ، وهذا أول كلامي لك وآخره . فانظر في يومك لذلك » . فرد عليه أبو عبد الله الشيعي بقوله : قد قلت فاسمع ، وبلغت فأبلغ : أما ما ذكرت من التهديد ، فما أنا بمن يروع بالأيام ، وأما تخويفك إياي برجال دولتك أبناء حطام الدنيا ، فان في أنصار الدين ، وحماة المؤمنين ، الذين لا تروعهم كثرة أنصار الظالمين ، مع قول الله (كَثُرَتْ خِصْلَةٌ غُلِبَتْ فِيهِ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) ، وأما ما أطمع به من دنياه ، فليست من أهل الطمع فيما عنده ، أنا بعثت رسولا لأمر حم ، وقرب ، وإنجاز وعد من الله سبق ، والله لا يخلف الميعاد . هذا جواب ما جئت به . ثم صرف الرسول على أحسن حال . فلما بلغ إبراهيم بن أحمد قوله ، ووصفت له صفته ، عرف أنه صاحب قطع دعوته ، وكان له علم عن الحدثان (١) . ويبدو أن إبراهيم بن أحمد لما تلقى هذا الرد الجري . أراد أن يرضى للعامة

ويستميل قلوب الخاصة بفعله ، فرد المظالم ، وأسقط القبالات (١) ، وأعلن توجهه ، وهنا تبدأ المرحلة الثانية من مراحل الدعوة الإسماعيلية .

٢ - مرحلة الصدام للسلح :

وتبدأ هذه المرحلة منذ سنة ٢٨٩ هـ وتنتهي باسقاط الشيعة الإسماعيلية لدولتي الأغالة والرسامين سنة ٢٩٩ هـ . شرع أبو عبد الله الشيعي في عام ٢٨٩ هـ في مصادماته الحربية مع الأغالة ، فقد زحف إلى طبنة ، وأغار عليها ، فسير إليه أبو العباس بن إبراهيم بن أحمد ابنه أبا عبد الله الاحول لمحاربه (٢) ، ولكنه انهزم مرتين (٣) . ثم استدعاه أخوه زياده الله من طبنة بعد أن تولى الإمارة عقب مقتل أبيه ، وقتله ، وانتقل من تونس إلى رقادة ، واستغرق في ملذاته . وفي هذه الاثناء كانت جيوش أبي عبد الله الشيعي ، قد انتشرت في البلاد . وفي سنة ٢٩٢ هـ حدثت موقعة كينونة ، وتفصيلها أن زياده الله سير إلى أبي عبد الله الشيعي حملة بقيادة إبراهيم بن حبشي ، فلما علم الشيعي بخروج المسكر إليه وكثرة من معهم من الرجال والمالديهم من العدة وآلات الحرب ، استنفر كتامة ، وتأهب للملاقاة إبراهيم بن حبشي . فلما اشتبك الجيشان ، دارت الدائرة على ابن حبشي ، وغنم أنصار الشيعي غنائم كثيرة ، وهي أول غنيمة أصابها أصحابه ، فلبسوا أثواب الحرب ، وتقلدوا السيوف المحلاة ، وركبوا بسروج الفضة واللجم للذهبة ، وكثرت لديهم الأسلحة . ثم كتب الشيعي إلى عبيد الله المهدي ، بسلمية من أرض حمص يخبره بما فتح

(١) ابن خلدون ج ١ ص ١٧٧

(٢) نفس المزمع ص ١٨٠

(٣) ابن خلدون ج ١ ص ٧٠

الله عليه ، فتذكر المهدي في زى تاجر ، وقدم إلى مصر ، ثم ارتحل منها إلى القهروان ، ثم مضى بعد ذلك إلى قسنطينة ، ثم توجه منها إلى سجلماسة فأكرمه أميرها الياسع بن مدرار ^(١) ،

وكان انتصار أبي عبد الله الشيعي في كينونه فاتحة انتصارات شيعية جديدة ، فقد زحف أبو عبد الله الشيعي إلى سطيف ، فحاصرها فترة ، فاستأن أهلها ، فأمّنهم ، ودخلها ، فهدمها . وفي سنة ٢٩٣ هـ استولى الشيعي على مدينتي بلزمة وطبنة ، وفي سنة ٢٩٤ هـ تمكن من الاستيلاء على باغاية بالأمان ، ثم افتتح قرطاجنة واستأن أهل تيفاش ، ثم سقطت تبسة في يده وتبعث القصرين من إقليم قمودة . وفي سنة ٢٩٥ هـ استولى الشيعي على قسنطينة ، وتوغل بعد ذلك إلى إقليم قسطنطينية ، فاستولى على تيجس ثم على قنصبة . وفي سنة ٢٩٦ هـ سقطت الأربس في يده ، وعلى أثر ذلك قر زيادة الله إلى مصر ، فدخل أبو عبد الله الشيعي مدينة رقادة في رجب سنة ٢٩٦ هـ ، وسقطت دولة الأغالبة باستيلائه أخيراً على القهروان .

وفي هذه الأثناء كان الياسع بن مدرار قد اكتشف أمر عيسى الله المهدي ^(٢) ، فسجنه هو وولده أبا القاسم ، فلما علم أبو عبد الله الشيعي بذلك هزم على السير إلى سجلماسة لتخليصها من السجن ، فاستخلف على إفريقية أخاه أبا العباس ، وأبازاكي تمام بن معارك ، ومر في طريقة إليها على

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٧١

(٢) ذكر ابن خلدون أن زيادة الله ، وميل المكتن الباسي ، كتب إلى عيسى الله مهدي الله ، وذكر له أنه المهدي الذي يدعو له الشيعي في كتابه ، فعبد الياسع ذلك (ابن

تاهرت حاضرة الرستميين ، فاستولى عليها ، وقضى على الدولة الرستمية .
 وولى على تاهرت أبا حميد دواس بن صولات ألبهسي ، وإبراهيم بن محمد
 الباني المعروف بالهوازي ، وكان يلقب بالسيد الصغير (١) . ثم تابع الشيعي
 بعد ذلك سيره إلى سجلماسة ، فحاصرها ، ودخلها ، وأخرج المهدي وابنه
 من السجن (٢) . ويذكر المؤرخون أنه عندما أبصر المهدي ، ترجل وخضع
 بين يديه من فرحة بهذا اللقاء ، ثم إنه مشى أمامه راجلا حتى أنزله بالخيم ،
 وسلم إليه الأمر ، وقال لمن معه : « هذا مولاي ومولاكم ، قد أنجز الله
 وعده ، وأعطاه حقه ، وأظهر أمره » (٣) .

وأقام أبو عبد الله الشيعي وعبيد الله المهدي بسجلماسة أربعين يوما ،
 ثم رحلوا نحو القيروان ، بعد أن ولى الشيعي على سجلماسة إبراهيم بن
 غالب المازني ، فوصلوا إلى رقادة في ربيع الأول سنة ٢٩٧ هـ ، وهناك خرج
 أهل القيروان من الفقهاء ووجوه المدينة لاستقبال المهدي ، فبنأوه بالوصول ،
 وسألوه تجديد الأمان لهم ، فأمنهم على أنفسهم ، ولم يذكر الأموال ،
 فعاود بعضهم وسألوه أن يؤمنهم على أموالهم ، فأعرض عنهم ، فخافه أهل
 القمل منذ ذلك الحين (٤) . ونزل عبيد الله المهدي في قصر الصحن ، بينما نزل
 ابنه أبو القاسم في قصر أبي الفتح ، ويوج للمهدي في رقادة البيعة العامة ،
 وتلقب بالمهدي أمير المؤمنين ، واستقام له الأمر ، فضربت السكة باسمه ،

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٠

(٢) يذكر المؤرخون أنها كانتا معتقلتين في غرفة عند مريم بنت مدرار (ابن عذاري)

ج ١ ص ٢١٠ - الاستبصار ص ٢٠٤)

(٣) ابن عذاري ج ١ ص ٢١٠

(٤) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢١٨

وأُسند المناصب إلى رجال يثق فيهم ، فولى بيت المال أبا جعفر الخزرى ، وعلى ديوان الخراج أبا القاسم بن العديم ، وعلى السكة أبا بكر الفيلسوف المعروف بابن الفهدى ، وعلى المعطاء عبدون بن حباشة ، وعلى قضاء رقادة أفلح بن هارون الملوسى ، ثم أقر على عمالة القيروان الحسن بن أبي خزيمة ، وعلى القضاء بها المروزى القاضى ، وبعث العمال على البلاد ، وجبى الأموال وذكر ابن عذارى ، أنه « أمر أن تقلع من المساجد والمآجل والقصور والكنائس أسماء الذين بنوها ، وكتب عليها اسمه ، وأظهر عبيد الله التشيع القبيح ، وسب أصحاب النبي (صلعم) وأزواجه ، حاشا طي بن أبي طالب والمقداد بن الأسود ، وعمار بن ياسر ، وسلمان الفارسي ، وأبي ذر الثفاري . وزعم أن أصحاب النبي (عم) ارتدوا بعده ، غير هؤلاء الذين يمينناهم . ومنع المروزى الفقهاء أن يفتى أحدهم إلا بمذهب زعم أنه مذهب جعفر بن محمد ، منه سقوط الخنث عن طلق بالبتة ، وإحاطة البنات بالميراث ، وأشياء يطول ذكرها . ومدحت الشعراء عبيد الله بالكفر ، فاستجازه » (١) .

ب ـ خلافة عبيد الله المهدي :

١ - الصلح من الشيعة وأصحابه :

كان عبيد الله المهدي ، منذ أن استقامت له الأمور في المغرب ، يهدف إلى تدعيم مركزه في بلاد المغرب ، وذلك باصطناع سياسة تركيز السلطات وجمعها في يده ، وكان لابد له أن يصطدم في ذلك مع أبي عبد الله الشيعي مؤسس دولته ، ويذكر ابن خلدون أنه « لما استقام سلطان عبيد الله المهدي

بافريقية استبد بأمرة ، وكفح أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس عن الاستبداد عليه ، والتحكم في أمرة ، فعظم ذلك عليها ، وصرح أبو العباس بما في نفسه ، فنهاه أخوه عبد الله عن ذلك ، فلم يعص إلا الله ، ثم استأله أبو العباس لئلا رأيته ، فأنجاه ، وبلغ ذلك إلى المهدي ، فلم يصدق ، ثم نهى أبا عبد الله عن مباشرة الناس ، وقال إنه مفسد للهيبة (١) . فأخذ أبو عبد الله منذ ذلك الحين يدعو الناس إلى خله ، ويطعن سرا في خلافة . وحاول أن يقتل الناس أنه ليس هو الإمام المعصوم ، وزعم لهم أن للمهدي الصحيح علامة ، وهي أن بين كفيه مكتوب « المهدي رسول الله » ، وحث أبو عبد الله رؤساء كتامة على امتحانه ، وذكروا أن شيخا من شيوخ كتامة ذهب إلى المهدي وقال له : « جئنا بآية على أمرك ، فقد شككتنا فيك » ، فقتله المهدي على الفور . وبلغ المهدي أن أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس وأبا زاكى تمام بن معارك وآخرين يأمرون عليه ، فعزم على قتلهم ، وبدأ بأبي زاكى ، فبعثه على طرابلس ، وفي نفس الوقت بعث إلى حاملها ماقتون الاجباي بأمرة بقتله ، فقتله فور وصوله . ثم أمر بقتل ابن التميمي وكان من أصحاب زيادة الله ، واستصفاه أمواله وعهد بعد ذلك إلى التخلص من أبي عبد الله الشيعي وأخيه ، فأمر عروبة بن يوسف وأخاه حباة بقتلها ، فترصدا لهما ، في موضع يمران فيه إلى القصر ، فلما مرا بهذا الموضع حملا عليه ، فلما هم عروبة بقتل أبي عبد الله قال له هذا : « لا تفعل يا ولدي » ، فقال له عروبة « أمرني بقتلك من أمرتي بطاعته ، وانخلعت له من الملك بعد نوطته (٢) » . ثم أجهز الفاتلان عليها في أول ذي الحجة سنة ٢٩٨ هـ ،

(١) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٦

(٢) ابن عذاري ج ١ ص ٢٢٨ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٧

وظلا صريخين على صف الحفير المعروف بالبحر إلى أن أمر المهدي بدفنها ،
فدفنا في الجنان .

وقد أثار مقتل أبي عبدالله الشيعي فتنة كبيرة قام بها أتباعه ، وذكر
المؤرخون أن من كان حول رقادة من كتامة أظهروا الخلاف على عبيد الله
وقدموا على أنفسهم حدثا يعرف بالمارطى ، واسمه كادو بن معارك وجعلوه
قبلة يصلون إليها ، وكتبوا كتابا فيه شريعة زعموا أنها أنزلت على أبي
عبدالله ، وزعموا أن هذا الطفل هو المهدي المنتظر ، فامتدت هذه الدعوة في
جميع بلاد الزاب ، وقوى أمر هذا المهدي ، واشتدت شوكته ، فسير عبيد
الله قوادا حاربوم ، فانضم إليهم قائد من جيش عبيد الله المهدي هو
صولات بن جندة في نحو مائتي رجل ، فاضطر عبيد الله إلى تسيير حملة قوية
بقيادة ابنه أبي القاسم إلى بلاد كتامة ، لمحاربة المارطى وأتباعه ، فانتصر
قسنطينة وغيرها من أرض كتامة ، وتمكن أبو القاسم من هزيمة الكتامين
في عدة مواقع ، وقبض على المارطى وجماعة من كبار أهل كتامة ، فطوفوا
بالقمير وان غلى الجمال وعليهم القلائس الطوال المشهرة بالقرون والمصافع ،
فقتلوا بمدينة رقادة ^(١) .

٢ - القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٨٣٠٠ هـ :

ثار أهل طرابلس في سنة ٨٣٠٠ هـ على ما قانون الإجابي حامل عبيد الله
عليهم ، فقرر ما قانون ، وامتنع أهل طرابلس داخل مدينتهم ، وقدموا على

(١) نفس المرجع ص ٢٣٣ . ويذكر ابن خلدون أن أبا القاسم مزم الكتامين ، وهزل
الطفل حتى نصبوه ، وعاد إلى القيروان (ابن خلدون - ص ٧٨)

أنفسهم محمد بن اسحق المعروف بابن القرنين (١) . فأرسل عبيد الله ابنه أبا القاسم لاسترجاع طرابلس وإخماد الثورة . ووجه إليها عبيد الله ١٥ مركبا حرية أحرقها أهل طرابلس . أما أبو القاسم ، فقد هزم أهل هوار ، ثم حاصر طرابلس ، وقطع عن أهلها المؤن والأقوات ، فاستسلموا لأبي القاسم على الأمان ، واشترط عليهم نظير ذلك أن يسلموا إليه ثلاثة من زعماء الثورة ، حلهم معه إلى رقادة ، حيث قتلوا ، كما أغرم أهل طرابلس مبلغا قدره ٣٠٠ ألف دينار (٢) .

— تأسيس المهديبة والتمديد لد النفوذ القاطمي إلى مصر أو الأندلس:

كان لقيام الثورات على عبيد الله أثر كبير في حمله على بناء مدينة يتخذها عدة عند الشدة ، ولماذا في أوقات الفتن (٣) . ويذكر ابن خلدون أنه قال : « بنتها لتحصن بها القواطم ساعة من نهار » (٤) . وكانت مدينة رقادة بوقوعها في وسط سهل فسيح عرضة لغزو من كل جانب ، فأثر أن يصخذ حاصنة تقع على البحر حتى تكون قاعدة لمحاولاته المستقبلية لغزو مصر أو الأندلس .

والواقع أن أهل المغرب خاب أملهم في المهدي ، إذ اتضح لهم أن الوعود التي وعدهم بها أبو عبد الله الشيعي عن انقطاع القساخ بخلافة المهدي ،

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٣

(٢) قس المرجع ، ج ١ ص ٣٣٤ - ابن خلدون ج ٤ ص ٧٨

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٥٠ - ابن خلدون ج ٤ ص ٩٩

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٧٩

وحلول عهد العدل والإنصاف والإصلاح لم تكن إلّا سرايا ، فبالإضافة إلى البدع الدينية الجديدة ، من إعلان عصمة الإمام وتقديسه ، وتناول بعض الشائعات أو الطقوس الدينية المتعارف عليها بالخذف والتغيير ، وتجريح كبار الصحابة وأئمة الاسلام - مما لا يمكن أن يقبله شعب نشأ على السنة ، وتعصب لمذهب مالك منذ أجيال - انتهج الفاطميون سياسة مالية متعسفة ، على عكس ما بشر به الداعي في أول الامر ، فاشتطوا في جمع الضرائب ، وتفتنوا في تنويعها ، حتى فرضوا على الحجاج جميعا أن يمرّوا بالمهدية حتى يدفعوا ضريبة الحج (١) ، بل إن إقدام المهدي على مكافأة مؤسس دولته وصاحب الفضل الأعظم في إمامته بالمغرب ، بالقتل ، كان له أسوأ الأثر في نفوس العرب ، مما حملهم على الثروة عليه كما رأينا ، إذ أصبح المهدي في نظرم شيئا بآبى جعفر المنصور الذي قتل أبا مسلم الخراساني سيف دولته . وعلى الرغم من نجاح قادة المهدي في إخماد نيران الثورات المشتعلة في كل مكان ، فقد أحس المهدي في قرارة نفسه بعدم الاطمئنان في بلاد المغرب ، وأدرك أنه إذا كان قد نجح هو في فرض سيادته على المغرب فإن خلفاؤه سيخفقون أو على الأقل سيواجهون متاعب كثيرة . فقد ذكر ابن خلدون « أنه لما ارتفع سور المهدية رمى فوقه سهم إلى ناحية المغرب ، ونظر إلى متناه وقال : إلى هذا الموضع يصل صاحب الحمار » (٢) ، ويعني به أبا يزيد محمد بن كيداد الذي سيثور على الفاطميين في خلافة أبي القاسم الملقب بالقاسم بأمر الله . لذلك كان من الطبيعي أن يفكر عبيد الله في أمرين :

(١) سعد زغلول عبيد الحميد ، فترة حاسمة ، ص ٢٢٢

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ٨٣

الاول : تأسيس مدينة بخصم بها ، وتكون مركزا لعملياته الحربية والبحرية المقبلة .

الثاني : محاولة فتح مصر أو الاندلس ، ونقل الخلافة الفاطمية إليها .

نخرج المهدي يرتاد موعضا لبناء المدينة المذكورة في سنة ٥٣٠٩ هـ ، فر بنونس وقرطاجنة ، حتى وقف على موضعها بين سفاقس والمنستير ، في جزيرة متصلة بالبر كصورة كف انصلت بزند ^(١) . وقد وصفها البكري بأن البحر يحيط بها من جميع جهاتها إلا الجانب الغربي ، وفيه بابها . وللمهدية بابان من حديد لا خشب فيها ، عليها رسوم حيوانية ^(٢) . وجلب عبيد الله إليها الماء من قناة تمتد ما بين قرية مشانس والمهدية ، وأقام لها مرمى للسفن متكور في صخر صلد ، يسع ٣٠ مركبا ، وشيد على المرمى برجين بينها سلسلة من الحديد يفلق بها بعد دخول السفن ، وذلك تحصينا لها حتى لا تطرقها مراكب الروم من صقلية وغيرها ^(٣) . وشيدها أيضا دارا للصناعة فقرت في الجبل تسع مائة سفينة حربية كبيرة ، وفيها قبوان كبيران لوتاية السفن من الشمس أو المطر ، وزود المدينة بالمواجل وصهاريج المياه والاهراء ، وبنى بها القصور ، فلما أسس المهدية قال : « أمنت اليوم على القواطع » ^(٤) . وقد اكتمل سور المهدية ، ونصبت به الابواب الحديدية

(١) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٧٩

(٢) شاهد ابن حوقل هذين البابين ، وذكر أنه لم يرها في الأرض شيه ولا نظير إلا بامى سور الراهنة ، وهي بلد متصل البناء بمدينة الرقة ، بناها أبو جعفر المنصور سنة ١٠٠٥ (ابن حوقل ، صورة الأرض ص ٧٣)

(٣) البكري ، ص ٢٩ ، ٨٤ ، ٨٥ — الاستبصار ، ص ١١٧ ، ١١٨

(٤) نفس المرجع — ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨٠

في ربيع الأول سنة ٣٠٤ هـ (١) . وانتقل إليها في ٨ شوال سنة ٣٠٨ هـ (٢) ، وأقام بها ، وعمرت المدينة بالأسواق ، وأصبح لها أرباض كثيرة طامة مثل ربحى وزويلة ، وكان أقرب أرباضها إلى قصر الخليفة ، وربض الحمة ، وربض قفصة (٣) . ثم أمر المهدي بعد ذلك ببناء مدينة بجوار المدينة سماها زويلة نسبة إلى إحدى قبائل البربر ، وجعل بين المدينة وزويلة ميدانا فسيحا ، وحوط زويلة بسور وأبواب وحراس ، وأسكنها التجار بأسرهم وعائلاتهم ، وقال : « إنما فعلت ذلك لأمن غائلتهم ، وذلك لأن أموالهم عندى وأهاليهم هناك ، فإن أرادوني بكيد ، وهم بزويلة كانت أموالهم عندى ، فلا يمكنهم ذلك ، وإن أرادوني بكيد وهم بالمدينة خافوا على حرمهم هناك ، وبنيت بيني وبينهم سورا وأبوابا ، فأنا آمن منهم ليلا ونهارا ، لأننى أفرق بينهم وبين حرمهم نهارا (٤) » .

أما الأمر الثانى الذى فكر فيه المهدي فهو محاولة فتح مصر أو الأندلس فقد رأى المهدي بعد أن امتد نفوذه فى بلاد المغرب أن هذه البلاد لا تصلح لأن تكون مركزا لدولته ، قفصلا عن ضعف مواردها كان يسودها الاضطراب ، وتشتمل فيها الثورات من حين لآخر (٥) ، فتطلع بنظره إلى مصر والأندلس لوفرة ثرواتها ، وأخذ المهدي يحس النبض ، ويأهب للهجوم

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٤٣

(٢) قس المرجع ص ٢٥٨

(٣) البكرى ، ص ٣٠

(٤) قس المرجع ص ٢٩ - ٣٠

(٥) جمال الدين سرور ، مصر فى عصر الدولة العاطية ، القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٢٧

إما شرقاً نحو مصر أو شمالاً نحو الأندلس (١) . فبدأ بتوجيه حملاته على مصر منذ عام ٨٣٠ هـ ، وقد كشفت الحملة الأولى ، على الرغم من فشلها ، عن ميل كثير من المصريين إلى الدعوة الفاطمية ، بفضل الجهود التي بذلها دعاة الإسماعيلية فيها كآبي علي الداعي . وفي نفس الوقت أرسل دعائه وعيونه إلى الأندلس . أما الدعاة فلنشر الدعوة الفاطمية هناك وتمهيد البلاد قبل فتحها لقبول المذهب الإسماعيلي ، وأما العيون فلاستطلاع أحوال الأندلس وتعرف مداخلها ومواطن الضعف فيها (٢) ، ومن هؤلاء العيون أو الجواسيس المشارقة الذين دخلوا الأندلس قبل قيام الدولة الفاطمية في المغرب ، ثم خدموا عبيد الله المهدي بعد ذلك ، وزودوه بكثير من المعلومات عن أوضاع الأندلس الاجتماعية وأحوالها السياسية ، أبو اليسر الرياضي (ت. سنة ٨٢٩ هـ) ، وابن هارون البغدادي الذي تولى الكتابة للمهدي بعد وفاة أبي اليسر الرياضي ، بالإضافة إلى منصب رئيس ديوان البريد (٣) . ومن الجواسيس الذين قاموا بدور هام في الأندلس ابن حوقل التنعيمي (ت. سنة ٨٣٧ هـ) ، وقد دخل الأندلس ليستطلع أحوالها . ويسجل ملاحظاته عن أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والعسكرية (٤) . ولكن هذه الجهود التي قام بها عبيد الله وخلفاؤه من بعده حتى عهد المعز ، لم يكتب لها نجاح كبير ، فإن الدعاة الفاطمية التي مارسها دعاة الفاطميين وعيونهم في الأندلس ، لم تجتذب إلا عدداً محدوداً من الأنصار والمشايعين من أهل

(١) عمود على مكى ، التشيع في الأندلس ص ١١١

(٢) عمود على مكى ، التشيع في الأندلس ، ص ١١٢

(٣) قس المرجع ص ١١٤

(٤) قس المرجع ص ١١٥ — مختار البادى ، سياسة الفاطميين ص ٢٠٥

الفكر الأندلسي ، نخص بالذكر منهم ابن أبي المنصور الذي ولي القضاء لاسماعيل المنصور (٢٣٤ - ٢٤٩ هـ) ، والشاعر الإليري ابن هاني الأندلسي (ت . سنة ٣٦٢) الذي طرد من الأندلس حين تكشفت ميوله الفاطمية ، فالتحق بخدمة المعز الفاطمي ^(١) ، ومنهم القائد علي بن حدود الجذامي المعروف بابن الأندلسي ، الذي قدم إلى المغرب ، وانصل بالمهدي وبابنه من بعده ، وقد عهد إليه عبيد الله ببناء مدينة المسيلة سنة ٣١٣ هـ ، وسمّاها الحمديّة في وسط أرض بني برزال وبني كهلان ، قريبا من هواة ^(٢) ، وقد عقد له القائم بالله على الحمديّة ، بعد اختطاطها ، فبناها وحصنها وشحنها بالاقوات ، فكانت مدداً للمنصور في حصار صاحب الحار أبي يزيد بن كيداد ^(٣) .

٤ - رد القمل الأموي ضد مطامع الفاطميين في الأندلس وأثر ذلك في

تحولهم نحو مصر :

كان عبد الرحمن بن محمد الأموي يتبع في تيقظ وانتباه المخطرات التي يخطوها الفاطميون لبسط سلطانهم مذهبيا وعسكريا على الأندلس ، فاضطر إلى الوقوف أمام مطامع الفاطميين في بلاده موقفا صارما ، وبدأ يحاربهم ليس بنفس السلاح الذي يحاربونه به فحسب ، بل بأسلحة أشد مضاه ، وبأعمال إيجابية حاسمة ، أثبتت أنه بحق من أعظم رجال السياسة في العصور الإسلامية الوسطى ، وتتلخص هذه الأعمال فيما يلي :

(١) بث العيون والوسطاء في أنحاء المغرب ، قد تمكن هؤلاء العيون من

(١) المرجع السابق ، ص ١١٥ ، ١١٦

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٨

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٢

تزويد حكومة قرطبة بمعلومات قيمة عن نوايا الاندلسيين الذين توطنوا المغرب منذ القرن الثالث . وقد كانوا من الحزب المعارض للفاطميين ، ولذلك تعرضوا لسيطرتهم ، ومنهم أبو جعفر محمد بن خير بن الأندلسي الماعري صاحب المسجد الشريف الذي أسسه بالقيروان في سنة ٢٥٢ هـ ^(١) ، وصاحب الفتادق المجاورة للسجن ، وقد أمر المروزي ، قاضي القيروان ، بقتله ^(٢) ، ومنهم أبو علي حسن بن مفرج التقي ، ومحمد الشذوي الزاهد ، وقد أمر عبيد الله المهدي بقتلها لتفضيلهما الصعابة على ^(٣) .

(ب) في سنة ٣٠٢ هـ ، وصل إلى الجزيرة المحضراء ، وضبط البحر ، ونظر في أساطيله ، واستكثر منها ، ومنع ابن حفصون من البحر ^(٤) . وأغلب الظن أنه وزع أساطيله على السواحل الجنوبية والجنوبية الشرقية من الأندلس حتى يمنع وصول الامدادات من القيروان إلى عمر بن حفصون الخارج عليه ، خاصة وأن ابن حفصون كان قد أرسل بيعته إلى المهدي ، وأخذ يدعو له في منطقة نفوذه بالأندلس ^(٥) . وقد اهتم عبد الرحمن بن محمد بالأساطيل البحرية اهتماما جديا ، فعمل على إنشاء أسطول قوى يدفع عن الأندلس الأخطار التي تتعرض لها من غارات النورماندين والغزو الفاطمي على السواحل ، وينازع به سلطان الفاطميين في البحر المتوسط . ويذكر

(١) ابن عفرى ، ج ١ ص ١٥٠

(٢) قس المرجع ، ص ٢٣٥

(٣) قس المرجع ، ص ٢٦٢

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٣٠٣

(٥) قس المرجع ، ص ٢٦٣

ابن خلدون أن أسطول الاندلس انتهى في أيامه إلى نحو مائتي مركب (١). وقد تولى قيادة هذه الأساطيل القائد ابن رماحس ، وكان مرقوها للحط والإفلاخ مدينة للربة ، القاعدة البحرية الرئيسية للاندلس ، وكانت دار الصناعة فيها تقوم بإنتاج السفن والمعدة والآلات اللازمة لها وما يقوم به الأسطول (٢). ويعتبر الخليفة عبد الرحمن بن محمد المؤسس الحقيقي للأساطيل الاندلسية ، فقد قام بإنشاء دور الصناعة والإنشاء في طر كونة ، ولربة ، والجزيرة الخضراء ، ومالقة ، وميورقة ، ولقنت ، وشلب ، واستخدم لذلك الغرض أخشاب الصنوبر بطرطوشة ، وهي أخشاب مشهورة بمجودتها وعدم تعرضها للتلف الناتج من السوس (٣). وكان لهذا الأسطول الفضل الكبير في استيلائه على طنجة ومليلة في سنة ٣١٤ هـ وعلى سبتة في سنة ٣١٩ هـ (٤). وعلى أثر ذلك أعلن موسى بن أبي الصافية ، أمير فاس والمغرب ، وكان مواليا للمهدي ، خروجه عن طاعة للمهدي ، وانضوائه إلى عبد الرحمن بن محمد ، وكتب إلى عبد الرحمن سنة ٣١٩ هـ مبدئيا لمرغبته في موالاته والدخول في طاعته ، على أن يستميل له أهواء أهل العدو المجاورين له (٥). وفي

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٧٨

(٢) ابن غالب الاندلسي ، كتاب فرحة الانس في تاريخ الاندلس ، طبعة نشرها

الدكتور لطفي عبد البديع ، مجلة معهد الحضارات العربية ، ١٩٥٦ ، ص ١٤

(٣) الحميري ، صفة جزيرة الاندلس من كتاب الروض المطار ، ص ١٢٤

(٤) ابن عذارى ج ١ ، ص ٢٨٣

Lévi - Provençal, la Potitica africana de Abd al-Rahman III, - al

Andalus, vol. XI, fasc. 2, 1946, p. 366 - Lévi - Provençal, Histoire
t. II, p. 96, t. III, p. 106

(٥) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٨٢

العام التالي طلب موسى بن أبي العافية من عبد الرحمن أن يساعده في افتتاح جزيرة أرشقول ، فاستجاب عبد الرحمن لرغبته ، وأمر أهل بجاية وغيرهم من أهل السواحل بإقامة خمسة عشر مركبا حربية مجهزة بالرجال والسلاح لمحاصرة جزيرة أرشقول التي لجأ إليها الحسن بن عيسى ابن أبي العيش ، ولكن الحملة فشلت ، وعادت السفن الأندلسية إلى المرية في شهر رمضان من هذه السنة ^(١) . ولا رأى عبيد الله المهدي انضواء موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن بن محمد ، سير قائده حميد بن يعلى أمير مكناسة وعامله على تاهرت لمحاربة موسى بن أبي العافية ، وذلك في سنة ٣٢١ هـ ، فكتب موسى بن أبي العافية إلى عبد الرحمن بن محمد يستنجد به ، فأخرج إليه عبد الرحمن قائده قاسم بن طلمس في العساكر والأسطول الأندلسي ، فوصل إلى سبتة ، وبلغه أن موسى هزم جيش حميد ، فعدل عن التدخل الحربي ^(٢) . وفي سنة ٣٣٣ هـ جاز الأسطول الأندلسي بقيادة أحمد بن إلياس ، ويونس بن سعيد مرسى الجزيرة ، واحتل العدو ، وحاصر أحمد بن أبي العيش بن عمر بن إدريس . ومنذ ذلك الحين أخذت الأساطيل الأندلسية تسدد ضرباتها إلى ممتلكات الفاطميين في المغرب الأقصى ^(٣) .

وفي سنة ٣٤٤ هـ أمر عبد الرحمن بن محمد بإنشاء مركب كبير ، لم يعمل مثله ، في دار الصناعة بالمرية ، وسير فيه أمة إلى بلاد المشرق ، فإلى في البحر مركبا يحمل رسولا من صاحب صقلية إلى الفز لدين الله الفاطمي ،

(١) البكري ، ص ٧٨

(٢) ابن خلدون ج ٤ ، ص ٣٠٦

(٣) عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٧٨٨

فقطع عليه بحريو للركب الأندلسى طريقه ، واستولوا على ما فيه ، كما استولوا على الكتب التى أرسلها الحسين بن على صاحب صقلية إلى الخز ، فلما بلغ إلى الخز ذلك ، عمر أسطولا بقيادة الحسين بن على صاحب صقلية ، وسيره إلى الأندلس ، فهاجم الأسطول القاطمى مدينة المرية فى نفس السنة ، ودخل المهاجمون مرسى المرية ، وأحرقوا جميع ما فيه من السفن . واستولوا على للركب الكبير ، وكان قد عاد من الاسكندرية وفيه أمتعة لعبد الرحمن وجوار ومغنيات . ثم دخلوا للمدينة وقتلوا ونهبوا ، وعادوا سالمين إلى المدينة (١) . وكان رد الفعل الأندلسى على هذه الغارة البحرية ، أن هاجم الأسطول الأندلسى بقيادة غالب القائد ، سواحل إفريقية سنة ٨٤٥ هـ فى سجن سينية ، وكان مرمى الخرز وساحل سوسة هدف هذه الغارة (٢) .

وزاد اهتمام الحكم المستنصر بالأسطول الأندلسى زيادة كبيرة ، فارتفع عدد قطعه من ثمانية (٣) سفينة إلى ستائة جفن غزوى وغيره (٤) ، وكان قائمه فى البحر عبد الرحمن بن رماحس .

(ج) تلقب الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموى فى ٢٨ ذى القعدة سنة

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ج ٦ ص ٣٤٩

(٢) ابن عذارى ، ج ٢ ص ٣١٨ -

Lévi-Provençal, Histoire, t. II, p. 108 - Torres Balbas, Alarazanas hispanomusulmanas, Al-Andalus, vol. XI, 1946, p. 180

(٣) ابن الخطيب ، الاساطير فى أخبار غرناطة ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عتار ،

ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥٥ ص ٤٨٧

(٤) ابن الخطيب ، آمال الأعلام ، القسم الخامس بالأندلس ، تحقيق لى برونسفال ،

ط . بيروت ص ٤٢

٣٩٩ هـ بألقاب الخلافة، ليدعم مركزه في داخل الأندلس وخارجه، وبغرض هيئته في نفوس أهل الأندلس حتى لا يتأثروا بالدعوة الاسماعيلية، وقد أصدر الناصر منشورا بذلك، وزعه عماله في النواحي المختلفة (١).

(د) وطد الناصر علاقته بأعداء الفاطميين، فتعالف مع هيو ج دى بروفانس (يسميه العزب أقوه، ملك الفرنجة وراء المغرب (٢).)، Hugues de province، الذى كان يحنق على الفاطميين لتدميرهم ميناء جنوة، كما تحالف مع امبراطور بيزنطة الذى كان يرى إلى استرجاع صقلية من أيدي الفاطميين (٣). ثم وطد الناصر علاقته بالإخشيديين في مصر، وعمل على إرسال الفقهاء المالكية من الأندلس إلى مصر لمحاربة المذهب الشيعي، ومن أمثال هؤلاء أبو اسحق محمد بن القاسم بن شعبان المعروف بابن القرطبي الأندلسي (٤).

(هـ) فحمت الأندلس أبوابها لأعداء الفاطميين في المغرب، ومنهم ابن الخراز اللبلي الذي كان قاضيا بمليلة، ذهب إلى قرطبة في سنة ٣٢٥ هـ خوفا من جنود الشيعة، فسجل له الناصر على قضاء بلده، وحكم بن محمد القيرواني القرشي، الذى تعرض لسجن عيسى الله المهدي بسبب مهاجمته

(١) Una cronica anonima de 'Abd al-Rahman III al-Nasir, ed. par Lévi-Provençal, Y. Emilio Garcia Gomez, Madrid, 1950, p.79

(٢) ابن خلدون، ج ٤ ص ٣١٠

(٣) Dozy, Histoire des Musulmans d'Espagne, t. II, p. 159

(٤) عمسود على مكي، التنميم ل الأندلس ص ١٢٤ - مختار الباعث، ص ٢٠٨

الفاطميين، ص ٢٠٨

لفاطمين ، وكان يتردد بين قرطبة والقيروان (١). كما وفد إلى قرطبة أيضا بنو سعيد بن صالح صاحب نكور بعد أن دخلها مصالة بن حبوس ، وقتل أميرها سعيد في ٣ محرم سنة ٣٠٥ هـ . وكان هؤلاء اللاجئين إلى الأندلس ثلاثة أبناء لسعيد بن صالح ، هم : صالح ، وإدريس ، والمختصم ، فمروا البحر إلى مالقة ، فقام الناصر بانزالهم ، والتوسع عليهم ، وبعث إليهم بضروب الكسوة وكل ما احتاجوا إليه من المرافق ، وخيرهم بين القدوم إلى قرطبة أو المقام بمالقة ، فاختاروا المقام بها ، لقربها من بلدهم ، وأملهم في العودة إليه . وكان مصالة قد استخلف على نكور رجلا يقال له ذلول ، وانصرف إلى مقر ولاجه بتامرت ، فعبر صالح وإخوته إلى نكور ، واسترجعها بعد أن قتل ذلولاً .



وقد سجل الناصر باحتفاله ببني صالح أصحاب نكور أول تدخل له في شؤون المغرب ، وحمل ذلك للمهدي فيما بعد على معاودة غزو مصر في سنة ٣٠٨ هـ (٢) ، والواقع أن عبد الرحمن الناصر اعتبر انتصار بني صالح على المهدي انتصارا شخصيا له ، فعبر عن اغتيابه بذلك الحدث الهام بأن أرسل إلى صالح الأخبية والآلات والبنود والطبول (٣) ، ورد عليه صالح بهدية من الخيل والجمال (٤) . ومنذ ذلك الحين أخذ الناصر يهتج أحداث المغرب

(١) المرجع السابق ص ١٢٤ ، ١٢٥

(٢) Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne, t. II p. 93

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٥٢

(٤) نفس المرجع ص ٢٤٥

بأهتمام كبير ، باجتماع من انصار له بين القبائل المعادية للفاطميين ، وتمكن من استئالة مفرأوة وبنو إفرن الزناتيين ، وكان محمد بن خزر يزعم قيسلة مفرأوة ، وأدرك المهدي خطورة السياسة التي ينتهجها الناصر ضده ، فأمر مصالة بن حبوس صاحب تاهرت بمحاربة الزناتيين سنة ٣١٢ هـ ، فخرج مصالة من تاهرت إلى قبائل زناتة الضاربة من وادي شلف حتى تلسان. واصطدم بقوات ابن خزر في معركة عنيفة انتهت بمقتل مصالة ، وانهزام جيشه في ٢٠ شعبان سنة ٣١٢ هـ^(١). وقد اعتبر الناصر انتصار ابن خزر انتصارا لسياسة الإفريقية على الفاطميين . وفي سنة ٣١٤ هـ أحرز ابن خزر عدة انتصارات على قوات الفاطميين في تاهرت نفسها^(٢) ، وقد استغل الناصر هذه الفرصة ليرفع القناع عن وجهه ، فاقض على مليلة في سنة ٣١٤ هـ ، واستولى عليها ، وحصن أسوارها^(٣). وأخذت الأحداث تتوالى بعد ذلك التاريخ في سرعة مذهلة ، فقد تمكن ابن خزر سنة ٣١٧ هـ من التغلب على إقليم الزاب كله ، فعمد موسى بن أبي العافية إلى مهاجمة نكور ، وحاصر أميرها المؤيد بن عبد البديع بن صالح ، وتغلب عليها وقتل المؤيد ، وهدم أسوارها^(٤) ، ثم حاصر الحسن بن عيسى المعروف بابن أبي العيش أمير جراوة ، ودخلها ، ففر الحسن إلى مدينة مليلة ثم إلى جزائر ملوية^(٥). وفي هذه اللحظة نزلت قوات عبد الرحمن الناصر بقيادة فرج بن عنبر على ساحل المدوة واستولت

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٦٦

(٢) نفس المرجع ص ٢٦٩

(٣) البكري ، ص ٨٩

(٤) البكري ، ص ٩٣ — ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٧٤

(٥) ابن الخطيب ، (القسم الثالث) ص ٢١١

على مدينة سبتة ، وشكها عبد الرحمن بالرجال ، وأتقنها بالبليان (١) . وأحدث سقوط سبتة صمدى عميقا في المغرب ، فقد تهايباً للناصر باستيلائه على سبتة تكوين قاعدة حرية بحرية على ساحل العدو تجاه ساحل الجزيرة الخضراء ، تمهيدا للسيطرة الفعلية على المغرب الأقصى ومحاربة موسى بن أبي العافية . وأدرك موسى بن أبي العافية تخرج مركزه ، فرأى أن يسالم عبد الرحمن الناصر الذى أصبح سيد الموقف في المغرب الأقصى ، فبادر بشق عصا الطاعة على المهدي ، وكان موسى يمثل في بلاد المغرب ، ثم أعلن دخوله في طاعة الخليفة الأموي ، وهكذا أثمرت سياسة الحذر والتدخل التي اتبعها عبد الرحمن الناصر ، وأصبح الجزء الأعظم من شمال المغرب الأقصى ، ومساحات واسعة من المغرب الأوسط في حماية عبد الرحمن الناصر ، بفضل انضواء كل من محمد بن خزر المغراوي ، وموسى بن أبي العافية المكتاسي تحت لوائه (٢) . ولما علم المهدي بذلك جهز جيشا إلى المغرب بقيادة حميد بن يعلى المكتاسي ، فالتقى معه جيش ابن أبي العافية في فحص مسون ، الواقع شرقي غازی ، فانهزم موسى أمامه ، وتمكن حميد من دخول فاس سنة ٣٣١ هـ ، واستغفل عليها حامد بن حمدان الحمذاني ، ثم عاد حميد إلى إفريقية . فثار عليه أحمد ابن بكر بن عبد الرحمن الحمذاني في سنة ٣٣٢ هـ ، عقب وفاة المهدي ، ومادت الدعوة في فاس باسم الخليفة الناصر (٣) . وظل النفوذ الأموي قائما على المغرب الأقصى وفاس حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس ، على الرغم

(١) ابن عسكارة ، ج ١ ص ٢٨٤

(٢) ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٠٦ - ٧٩ ، Lévi - Provençal, Histoire, t. II, p.

(٣) أوجع للفضل الخامس بمدينة فاس حاضرة الأندلس .

مما أقام به ميسور التقى في أيام القوائم بأمر الله من جهود للقضاء على هذا النفوذ عند استيلائه على خاس في سنة ٣٧٣ هـ ، وقرره لموسى بن أبي العافية ، وعلى الرغم من قيام جوهر للصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي ، بإعادة فتح بلاد المغرب وفاس سنة ٣٤٧ هـ . والسبب في فشل الفاطميين في القضاء على نفوذ الأمويين يرجع إلى احتفاظ هؤلاء بقواعدهم العسكرية في منطقة الريف .

٥ - فتح برقة ومحاولة فتح مصر :

حاول عبيد الله المهدي فتح مصر ثلاث مرات ، بعد أن تبين له استحالة فتح الأندلس ، ولكن هذه المحاولات باءت كلها بالفشل ، ولم يتم فتح مصر إلا في عصر المعز لدين الله الفاطمي ، بسبب ضعف الخلافة العباسية صاحبة السيادة على مصر ، وضعف الدولة الإخشيدية صاحبة السلطان الفعلي فيها^(١) .
في سنة ٣٠٩ هـ سار المهدي جبشاً ضخماً من المغاربة بقيادة حباصة بن يوسف ، فدخل مدينة سرت بالأمان ، ثم زحف إلى إجداية واستولى عليها بالأمان ، ثم دخل برقة ، وقتل من أهلها عدداً كبيراً بلغ نحو ألف رجل ، ثم أغرم أهلها مائة ألف مثقال . وفي أثناء مقام حباصة ببرقة ، قدمت إليه الجيوش العباسية من مصر ، فدارت بين الجيشين العباسي والفاطمي عدة معارك انتهت بهزيمة الجيش العباسي^(٢) . زحف حباصة بعد ذلك معجهاً نحو الاسكندرية ، وتطلب أثناء مسيره إليها على الحصون المنتشرة في الطريق إليها ، وأدركه

(١) انظر تفاصيل ذلك في بحث الأستاذ الدكتور جمال الدين الشيال ، من مصر في العصر الفاطمي ، في موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء السادس ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، القاهرة ١٩٦٣

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٢٣٦ - سعد زغلول ، فترة حاسية ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١

أبو القاسم بن عبيد الله بجيش كثيف قبل أن يدخل الاسكندرية ، فدخلها
معا في سنة ٣٠٢ هـ فألقياها خالية ، قد هرب أهلها في البحر ، ثم تقدم جيش
الفاطميين بقيادة أبي القاسم إلى الفيوم ، ولكن حباسة تخلف في الطريق
بسبب خلاف حدث بينه وبين أبي القاسم ، وعاد إلى المغرب في ثلاثين من
فرسانه ، فاضطر أبو القاسم إلى الانسحاب أمام قوات العباسيين بقيادة مؤنس
الثقفي (١) ، وكتب إلى أبيه بغير حباسة . فلما وصل حباسة إلى حيز برقة
قبض عليه وسجن ، وكان أخوه عروبة عاملا على تاهرت ، فلما بلغه خبر
القبض على أخيه ، هرب بما استطاع جملة من أموال ، ولكنه اعتقل بجبل
أوراس ، وقتل ، وأمر الخليفة بقتل أخيه حباسة كذلك .

وما كاد أبو القاسم يتصرف عن برقة إلى إفريقية حتى قام أهلها بالثورة
على الفاطميين ، وقتلوا من كان بها من الكتائب في ١٠ ذى القعدة سنة ٣٠٢ هـ ،
فسير إليهم عبيد الله الجيوش بقيادة أبي مدين بن فروخ اللببسي (٢) ، ويبدو
أن أبا مدين لاقى كثيرا من الصعوبات في فتح برقة ، لأنه لم يدخلها إلا في سنة
٣٠٤ هـ بعد حصار دام ١٨ شهرا ، قتل فيها من أهلها معظمهم ، ولما دخلها
استصنى أموال من قتل من سكانها ، وبعث بجماعة منهم إلى عبيد الله ،
فأمر بقتلهم (٣) .

وفي أول ذى القعدة عام ٣٠٦ هـ ، خرج أبو القاسم لنزو مصر للمرة
الثانية ، وخرج معه من قادة الفاطميين خليل بن اسحق ، وأبو غانم الكتائب ،

(١) المرجع السابق ص ٢٣٩

(٢) نفس المرجع ص ٢٤١

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٤

ومن الله بن الحسن بن أبي خنيزر ، وسليمان بن كافي . ولما اقترب أبو القاسم من الاسكندرية ، سار إليها سليمان بن كافي في جملة من رجال كتامة ، فاجأوا أهل الاسكندرية ، ودخلوها ، وانتهبوا أموال أهلها ، ثم سار ، أبو القاسم إلى القيوم ، ودخلها بالسيف ، ثم نزل الأثمنون . وفي هذه الأثناء تحرك الأسطول العباسي من سواحل الشام ، ونزل بالاسكندرية ، واشتبك في قتال عنيف مع الأسطول الفاطمي في رشيد ، انتصر فيه ثمل الفتي ، وتمكن من إحراق كثير من سفن الفاطميين ، وأسر عددا من كبار قوادم ، اقتادم معه إلى القسطنطينية ، ومنهم سليمان الخادم ، ويعقوب الكتاني ، ونتيجة لذلك تراجعت الجيوش الفاطمية إلى المغرب ^(١) .

وعلى الرغم من هذا الفشل التلاحق ، فقد ظل المهدي يتطلع إلى غزو مصر بعد أن أيقن باستحالة فتح الأندلس ، فأعاد الكرة للمرة الثالثة عندما اضطرت أمور العباسيين في المشرق الاسلامي بعد وفاة الخليفة المقتدر ، وانقسم الأتراك في بغداد على أنفسهم . فأعد حملة سيرها إلى مصر عام ٣٢٢هـ وبعد مفاوضات بين الاخشيديين والمغاربة ، أبرمت معاهدة للصلح في صفر سنة ٣٢٢ ، غير أن هذا الصلح لم يطل أمده ، فقد حدثت وقائع بين للمغاربة والابخيديين في الجزيرة وبلبيس ، ونجح محمد بن طنج الاخشيد في هزيمة للمغاربة ، سنة ٣٢٤ ، وأسر عددا كبيرا منهم ^(٢) .

(١) ابن خلدون ص ٢٨٥ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ١٦١

(٢) انظر التفاصيل في كتاب عبيد الله المهدي ، لدكتور حسن ابراهيم حسن ، ص ١٨١

(٢)

ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرنى الخارجى

١ - قيام الثورات فى بداية عهد القائم :

توفى عبيد الله المهدي فى ربيع الأول سنة ٣٧٢ هـ ، وبوفاته أحس أهل المغرب بزوال كابوسه الذى كان جائما عليهم ، فاستعدوا كثيرا من حرياتهم ، وأطلقوا العنان لثوراتهم التى أخذت برايتها تنفجر فى المغرب كله ، فاشتعلت البلاد من حمها ناراً فى أول ولاية القائم بأمر الله ، ذلك أن قبائل البربر وجدت فى اختفائه فرصة مواتية للتحرر من سلطان الفاطميين ، وأول هذه الثورات التى أعقبت وفاة المهدي ثورة رجل عربى يعرف باسم ابن طالوت القرشى بنواحي طرابلس ، فقد ادعى أنه ابن المهدي ، فاتبه البربر ، والتفوا حوله ، وزحف ابن طالوت إلى مدينة طرابلس وحاصرها ، ولكن حامية طرابلس تمكنت بمساعدة الأهالى من التصدى لهجوم هذا اللدعى ، واتضح لاتباعه كذبه ، فانقلبوا عليه وقتلوه ، وبعثوا برأسه إلى القائم بأمر الله^(١) . وفى فاس ثار أحمد بن بكر بن أبى سهل الجذامى على واليها حامد ابن حمدان الهمداني ، فاضطر القائم بالله إلى تسيير ميسور التقي إلى فاس ، لإعادة النفوذ الفاطمى على فاس والمغرب الأقصى ، فوصل ميسور إلى فاس فى سنة ٣٧٣ هـ ، وعذر بأحمد بن بكر ، إذ قبض عليه عندما قدم إلى مصكره ، فامتنع أهل فاس داخل أسوارهم ، وقدموا على أنفسهم حسن بن قائم اللواتى ، فحاصرم ميسور زهاء سبعة شهور ، ثم صالحهم على أن

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦ - ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨٣ - سعد

يأبىوا للقائم بالله ، ويسجلوا اسمه في السكة . وأقر ميسور عليهم حسن اللواتي ، ثم رحل إلى المهديّة ^(١) .

وفي سنة ٣٧٣ هـ بعث القائم بأمر الله عسكرياً إلى برقة بقيادة فائده زيدان ، وعامر المجنون ، وأبي زرارة ، وانضم إلى هذا العسكر جماعة من الجنود الكتابيين المرابطين ببرقة ، ولكن هذا الجيش انهزم على أيدي قوات الإخشيد . أما الثورة الكبرى التي كانت تشكل خطراً حقيقياً على كيان الدولة الفاطمية ، فهي ثورة أبي يزيد غلند بن كيداد اليفرنى الزناتى ، وقد شغلت عصر القائم بالله كله ، وعامين من عهد ابنه أبي العباس إسماعيل المنصور ، أى أنها استمرت نحو ١٤ سنة ، ومما يدل على خطورة هذه الثورة ، وأهميتها للقضاء عليها بالنسبة للدولة الفاطمية أن إسماعيل المنصور سجل انتصاره على أبي يزيد بإنشاء مدينة المنصورية في سنة ٣٧٧ هـ ^(٢) .

ب - ثورة أبي يزيد غلند :

١ - المرحلة الأولى (٣٧٢ - ٣٧٣ هـ)

صاحب هذه الثورة هو أبو يزيد غلند بن كيداد بن سعاد الله بن مغيث بن كرمان بن غلند من قبيلة يفرن الزناتية ^(٣) ، وكان أبوه كيداد من أهل توزر ، وكان يشتغل بالتجارة بين بلاد السودان وإفريقية ^(٤) ، ومن المعروف أن قوافل التجارة كانت تمر في العادة بمدينة ورجلان ، وكان سكان

(١) البكرى ، ص ١٢٨ - التفنيدى ، ج ٥ ص ١٨٤ - السرى ، ج ١ ص ١٨٩

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٥ ، مادة المنصورية

(٣) ابن حنبل ، ج ١ ص ٣٠٧ - ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٨٤

ورجلان من الإباضية وأكثرم من أهل تاهرت الذين رحلوا عنها بعد سقوط تاهرت في أيدي الفاطميين ، واستقروا في ورجلان . ولد أبو يزيد محمد بالسودان من جارية هوارية ، فأتى به أبوه إلى توزر ، فنشأ بها وتعلم القرآن منذ طفولته في نقطة ، ثم اتصل بالإباضية النكارية أتباع ابن فندين الذين أنكروا إمامة عبد الوهاب بن رستم ، فمال إلى مذهبهم وأخذه ، ثم رحل إلى تاهرت مركز الإباضية في العهد الأخير من الدولة الرستمية ، فأقام بها مشتغلا بتعليم الصبيان . فلما استولى أبو عبد الله الشيعي على تاهرت سنة ٢٩٦ هـ ، رحل منها إلى تقيوس من مدن قسطنطينية الكبار ، فاستقر به للمقام هناك أيام عبيد الله المهدي ، واشترى ضيعة ، واستمر يشغل بتعليم الصبيان القرآن والعلوم الدينية ، وأخذ يدعو هناك إلى تكفير الشيعة واستباحة الأموال والدماء ، والمخروج على سلطان الفاطميين الذين انحرفوا عن مبادئ الإسلام بسببهم لأبي بكر وعمر ، ووجد من الناس تجاربا معه ، فقد ضاقوا ذرعا بتشدد الفاطميين عليهم في تطبيق المذهب الاسماعيلي ، ثم أتجه في دعوته منذ سنة ٣١٦ هـ إلى تغيير المنكر ، فكثر أتباعه ، وقوى حزبه ، فلما توفي عبيد الله المهدي خرج من تقيوس لنشر دعوته للإباضية على مذهب النكارية ، ورحل إلى جبل أوراس الذي كان معقلا للنورات طوال عصور التاريخ . فانضم إليه عدد هائل من البربر الساخطين على الحكم الفاطمي ، فتلقب بشيخ المؤمنين . وكان من الطبيعي أن يعتمد في ثورته على إحدى الشخصيات المناهضة للفاطميين ، فلم يجد خيرا من الاستناد على عبد الرحمن الناصر الذي كان له أنصار عديدين في المغرب ، فاجتذب بذلك الأنصار والأتباع من البربر (٣) .

٧ - المرحلة الثانية (٣٣٢ - ٣٣٣ هـ)

لما عظم أمره، واستفحل خطره، وأحس بقوته جاهر بعدائه للفاطميين سنة ٣٣٢ هـ، ثم « هبط من جبل أوراس يدعو الحق بزعمه، ولم يعلم الناس مذهبه، فرجوا فيه الخمر والقيام بالسنة، فخرج على الشيعة، ودخل إفريقية » (١). واشتد أمره حتى أن القائم اضطر إلى الفرار أمامه من رقادة، وأقام في المهديّة، وسير إليه عامل مدينة باغاية، فزحف إليه أبو يزيد في جموع كثيرة من البربر، ودارت الموقعة بالقرب من باغاية، فانتهت بهزيمة جيش القائم وتراجعها، فزحف أبو يزيد على أثر انتصاره إلى باغاية وحاصرها. ولما طال الحصار، آثر أن يترك على حصارها جماعة من قبائل بني زناتة بضواحي قسنطينة، فحاصروها في سنة ٣٣٣ هـ، أما هو فمضى إلى تبسة فافتتحها صلحا، ثم افتتح مجانة كذلك وهدم سورها، واستولى بعد ذلك على مرامجنة، وأهلى إليه رجل من أهل مرامجنة حمارا أشهب اللون، فكان يركبه، ولذلك سمى بصاحب الحمار، وكان يلبس جبة من الصوف ضيقة اللكمين (٢). وزحف أبو يزيد إلى الأربس، فانهزمت عنها حاميتها الكتاميّة، ولم تلبث أن سقطت الأربس في يده، فأحرقها ونهبها، وقتل من لجأ من أهلها إلى المسجد الجامع، ثم وجه عسكرا إلى سبيبة فافتتحها، وقتل عاملها. وكان لابد للقائم أن يعمل على إيقاف هذا السيل المدمر، فجهز الجيوش، وبعثها إلى رقادة والقيروان بقيادة ميسور النقي، كما سير عسكرا بقيادة بشرى النقي إلى باجة، فزحف إليه أبو يزيد، وهزم

(١) ابن ططاي، ج ١ ص ٣٠٧

(٢) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٠٣ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٨٥

قوات بشرى في باجة ودخلها ، وأحرقها ، وقتل من بها من الأطفال ، وسبى النساء . واجتمعت إليه هناك حشود كثيفة من البربر ، وكان بشرى قد لجأ إلى تونس ، فثار عليه أهلها ، قرر بنفسه ، وتمكن أبو يزيد من دخول تونس ، وأمن على أهلها ، راسخ خلف عليها أحد أتباعه ، ثم مضى نحو القيروان . ولم يسكت القائم على هذه الهزائم المتوالية ، فسير بشرى في جيش من الكتامين لمحاربة أبي يزيد ، وتمكن بشرى في هذه المرة من التغلب على قوات أبي يزيد ، وقتل منهم نحو أربعة آلاف ، وجىء بأسرام وعددهم نحو خمسمائة إلى المهديّة ، حيث قتلهم العامة ^(١) . غضب أبو يزيد لهذه الهزيمة ، فسار في جيوش مجتمعة ، وعدتها نحو ٢٠٠ ألف مقاتل ، لمقاتلة الكتامين ، فهزم طلائعهم ، فانسحب الكتاميون إلى القيروان ، فطاردهم أبو يزيد إليها . ورأى أن يبدأ بالاستيلاء على رقادة ، وكان عاملها خليل ابن إسحق ينتظر وصول ميسور الفتي لنجدته ، ولكن أبا يزيد لم يمهله ، فهزمه ودخل رقادة ، فعاث فيها ، ووجه من هناك أحد رجاله وهو أيوب الزويني في عسكر إلى القيروان ، فدخلها في صفر سنة ٣٣٣ هـ ، ونهبها . ثم قدم أبو يزيد إلى القيروان ، فخرج إليه شيوخ القيروان ، فأمنهم ، ورفع النهب عنهم ، وأظهر الخير لأهلها ، ونرحم على أبي بكر وعمر ، ودعا الناس إلى جهاد الشيعة ، وأمرهم بقراءة مذهب مالك . فخرج الفقهاء والصلحاء في الأسواق بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى أصحابه وأزواجه ، حتى ركزوا بنودهم عند الجامع ، فلما كان يوم الجمعة اجتمعوا بالمسجد الجامع ، وركبوا مع أبي يزيد بالسلاح ومعهم البنود والطبول ، منها بندان

أصفهان مكتوب في أحدها البسملة ومحمد رسول الله ، وفي الآخر : نصر من الله وفتح قريب ، على يدى الشيخ أبى يزيد . اللهم انصر وليك على من سب أولياءك ، وبند آخر مكتوب عليه : قاتلوا أئمة الكفر ، الآية ، وبند آخر فيه مكتوب : قاتلوم بعذبهم الله بأيديكم ، وبخزم وينصركم عليهم ، وبند آخر مكتوب فيه ، البسملة أيضا : محمد رسول الله ، أبو بكر الصديق ، عمر الفاروق . وبند آخر وهو الساج عليه ما بلى : (لا إله إلا الله . لا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا) ، فلما اجتمع الناس وحضر الإمام وطلع على المنبر ، خطب خطبة أبلغ فيها ، وحرص الناس على الجهاد ، وأعلمهم بما لهم فيه من الثواب . ثم لمن عبيد الله ، وابنه ، ثم خرج الناس معه لقتال الشيعة (١) . وكانت جيوش ميسور الفتى قد قدمت لمحاربة أبى يزيد ، فأتخذل عنه بنو كلان ، وانضموا إلى أبى يزيد ، فخرج أبو يزيد للقائهم ، واشتبك الجبشان في معركة رهيبة بوادى الملح أسفرت عن هزيمة ميسور ، وقتله جماعة من بنى كلان ، وجاؤوا برأسه إلى أبى يزيد ، فأمر بأن يطاف به في القيروان (٢) ، وأصبح أبو يزيد متغلبا على معظم إفريقية . فلما بلغت القوائم أنباء هزيمة ميسور ومصرعه ، تأهب للحصار ، فأمر بحفر الخنادق حول المدينة ، والاستعداد لحصار طويل الأمد ، فشحن للدبنة بكل ما يلزمها من مؤن وأقوات . وأقام أبو يزيد سبعين يوما في خيم ميسور بث خلالها السرايا في كل نواحي إفريقية ، فافتتح سوسة عنوة ، وخرّب عمران

(١) ابن خلدون ، ج ١ ، ص ٣٠٨ ، ٣٠٩

(٢) المرجع السابق ص ٣١٠ - ابن الأثير ، ج ١ ، ص ٣٠٤ - ابن خلدون ، ج

إبريقية ، ثم زحف بجيوشه إلى المهديّة لحصارها ، وعندئذ استعبد القائم بزيري ابن مناد الصنهاجي زعيم قبيلة صنهاجة البربرية للولاية الفاطمية ، وقد كان لذلك أثر كبير في تغيير مصير المعركة لصالح الفاطميين ، ويذكر الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي أن هذا الانضمام « راجع إلى عداء تقليدي قديم بين صنهاجة وزناتة التي تناصر أبا يزيد ، فالحرب في ظاهرها كانت بين خوارج وشيعة ، ولكنها في باطنها بين أهل البداوة والرحل أو البربر البر و منهم زناتة ، وبين أهل الزراعة والاستقرار أو البربر البرانس ومنهم صنهاجة » (١).

٣ - المرحلة الثالثة (٣٣٣ - ٣٣٤) :

نزل أبو يزيد على بعد ١٥ ميلا من المهديّة ، وأخذ بشن الغارات على أطرافها ونواحيها ، فاتهب ماحولها من القرى ، ودمر ماصادفه من عمران ، واصطدم في هذه الأثناء بعسكر الكتامين ، فهزمهم ، ولكن وصول بزيري ابن مناد في جموع صنهاجة حول مجرى الأحداث ، فرجحت كفة الفاطميين ، وبدأت الهزائم تتوالى على عسكر أبي يزيد ، فاضطر إلى حفر خندق حول معسكره ، وبعث في طلب النجدة ، فاجتمع إليه حشد هائل من بربر قوصة والزاب وأقاصى المغرب ، وكان من جملة من انضم إليه محمد بن خزر الزناتي ، فضيق الخناق على المهديّة ، وزحف إليها في آخر جمادى الثانية ، ولكنه عجز عن اقتحامها ، وانهمز أمامها ، فاضطر إلى الكتابة إلى حاملي القيروان يستمدد ، فأمدّه بعسكر كثيف زحف بهم للمرة الثالثة في آخر رجب سنة ٣٣٤ ، ولكنه انهزم في هذه المرة أيضا ، وأعيد قسم كبير من

جيشه أثناء المعركة . وفي آخر شوال ، زحف للمرة الرابعة للهجوم على المهديّة ، ولكن نتيجة المعركة في هذه المرة لم تكن أحسن من المرات السابقة ، إذ انهزم مزعّة غزبة ، ورجع إلى معسكره مكتفياً بمحاصرة المهديّة .

واشتد الحصار على أهل المهديّة حتى أكلوا الدواب والليثة ، وخرج أكثر للسوق والتجار من المهديّة ، ولم يبق بها غير الجند ، وكان كل من خرج من المهديّة وقع في أيدي اليربر ، وأخذوا ماله ، وشقوا بطنه طلباً للذهب (١) . فاضطر القائم إلى فتح الأهرام التي كان المهدي قد أقامها في المدينة ، ووزع ما فيها من حبوب على رجاله (٢) . ويبدو أن بطناً من بطون كتامة الضاربة في الغرب الأوسط تأهب للمجيء إلى المهديّة ، وعسكرت قواته في قسنطينة ، فسير إليهم أبو يزيد عسكراً من ورفجومة وغيرهم ، فهزموا الكتامين ، واجتمع إلى أبي يزيد عقب ذلك حشد كبير من اليربر من كل ناحية ، فحاصر مدينة سوسة التي كانت قد خرجت عليه (٣) . ويطلب على الظن أن سياسة أبي يزيد القائمة على تفضيل فريق من أبناء اليربر على فريق آخر أغضبت جماعات كبيرة منهم ، فانفضوا عنه ، ولم يبق معه سوى هواة وأوراس وبنى كلان ، وثار عليه أهل القيروان ، وأعلنوا طاعتهم للقائم ، وكان على بن حدون في هذه الأثناء يث للغارات على المدن التابعة لأبي يزيد ، فهزم هواة ، ونفّاذ على مدينتي تيجس وباغاية (٤) .

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٥

(٢) ابن الأثير ج ٦ ص ٣٠٥ - ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٣) المرجع السابق - ابن خلدون ج ٤ ص ٨٨

(٤) ابن خلدون ج ٤ ص ٨٦

وفي جمادى الآخرة اتجه أبو يزيد إلى سوسة لمحاصرتها ، وبينما كان يحاصرها توفي القائم بالله ، وخلفه ابنه أبو الطاهر اسماعيل الملقب بالمنصور ، فكم موت أبيه حرصا على ألا يطلع عليه أبو يزيد وهو يحاصر سوسة ، فلم يغير الوضع عما كان عليه قبل وفاة أبيه .

٤ - المرحلة الرابعة (٣٣٤ - ٣٣٦ هـ) :

اشتد حصار أبي يزيد على سوسة ، فبعث اسماعيل المنصور الأساطيل من المهديّة إلى سوسة مشحونة بالمدد من المقاومة والامتنعة والميرة مع رشيق الكاتب ويعقوب بن اسحق ، فلما وصلت للثؤن والافوات إلى سوسة ، تقوى أهلها بالمدد ، وخرجوا مع عسكر المنصور لقتال أبي يزيد فهزموه ، واستباحوا معسكره نهباً وحرقاً ، ففر إلى القيروان ، فمنعه أهلها من الدخول ، وفاروا بهامله عليها ، فخرج إليه ، ورحلوا إلى سبيبة في أواخر شوال سنة ٣٣٤ (١) . وقدم المنصور على أثر ذلك إلى القيروان ، وأمن أهلها ، وأبقى على حرم أبي يزيد وأبنائه ، فأحسن إليهم .

ولما علم أبو يزيد بدخول المنصور القيروان قدم على رأس جيش كبير لمهاجمة المنصور ، فهزمه للمنصور أولاً ، ثم انتصر أبو يزيد ، وظل السكران يتبادلان النصر والهزيمة حتى حل شهر محرم سنة ٣٣٥ هـ ، والقتال متواصل ، فبعث أبو يزيد يطلب من المنصور حرمه وأولاده ، فبعثهم بعد أن اشترط عليه أن يرحل عن القيروان ، فلما وصلوا إليه نكت بوعده ، وقاتل للمنصور في ٥ محرم سنة ٣٣٥ هـ وهزم جيشه . وأمام هذه الهزيمة عبا للمنصور

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ - ابن خلدون ج ٤ ص ٩٠

عسكرا جرارا في منتصف محرم ، واشتبك مع أبي يزيد في معركة ضارية انهزم فيها أبو يزيد هزيمة شتاء ، وسحق عسكرة سحقاً ، فبلغ عدد القتلى من قواته عشرة آلاف ، وتعرف هذه الواقعة بواقعة يوم الجمعة ، وفر أبو يزيد مع من بقى من رجاله إلى باغاية ، فثمة أهلها من الدخول فيها ، فأقام يحاصرها ^(١) . وعندئذ خرج المنصور في ربيع الأول سنة ٣٣٥ لمطاردته بعد أن استخلف على المهديّة مرام الصقلي ، وأدرك أبا يزيد وهو يحاصر باغاية ، ففر أبو يزيد وجيوش المنصور تلاحقه من حصن إلى حصن ، فلما نزل المنصور مدينة طينة بالزاب جاءته رسل محمد بن خزر أمير مغراوة تعلن خضوعها إليه ، وانضمامها إلى جانبه ، ومازال أبو يزيد يتراجع من موضع إلى آخر حتى سلك الأوطار والمضايق ، وأصاب رجاله الجهد والإرهاق ، ولم يبق أمامه إلا المغازة المؤدية إلى السودان . وكان المنصور قد اعتل أثناء مطاردته لأبي يزيد ، فانتهاز أبو يزيد هذه الفرصة وسار إلى المسيلة (مدينة الحمديّة) وحاصرها ، فلما أبل المنصور من مرضه رحل في أول رجب سنة ٣٣٥ ، لاستئناف مطاردة أبي يزيد ، فرفع أبو يزيد الحصار عن المسيلة ، وأوغل في الجنوب بقصد الالتجاء إلى بلاد السودان ، فأبي بنو كلان مساييرته ، وأرغموه على العودة إلى جبال كتامة وعجيسة ، فتحصنوا بها ^(٢) ، فعزم المنصور على محاربته ، فانهزم أبو يزيد هزيمة نكراء ، وقتل من رجاله ما يزيد على عشرة آلاف ، وفر هذه المرة وهو مئتمن بالجراخ إلى قلعة كتامة ، فحاصرها المنصور حتى افتتحها ، وأضرم النيران في الشعراء

(١) ابن الأثير ، ج ٦ ص ٣٠٨ — ابن خلدون ج ٤ ص ٩١

(٢) نفس المرجع — ابن خلدون ص ٩٢

المحيطة بالتسر حتى يضىء ماحوله ، فينكشف من حائل القرار ، فقبض عليه ، وحمل إلى المنصور . وتوفي أبو يزيد بعد ثلاثة أشهر من هزيمته ، وذلك في محرم سنة ٣٣٦ هـ ، فأمر المنصور بسلخ جلده وحشوه تنبا .

وبوفاة أبي يزيد انتهت الثورة الكبرى التي صدعت دعائم الدولة الفاطمية في المغرب وكادت تقضى عليها . وقد سجل أبو الطاهر اسماعيل المنصور انتصاره على أبي يزيد ببناء مدينة صيرة المعروفة باسم المنصورية في سنة ٣٣٧ هـ لصق القيروان ، ولانبع عنها بأكثر من نصف ميل . فانتقل إليها ، واستوطنها ، ونقل إليها المعز لدين الله ابن المنصور أسواق القيروان كلها وجميع الصناعات . وكان لصيرة خمسة أبواب : القبلي والشرقي وزويلة وكنامة (شمالي) والفتوح . ولما أعاد المعز بن باديس بناء سور القيروان سنة ٤٤٤ هـ ، جعل السور يحيط بصيرة كالفصيل : حائطان يتصلان إلى مدينة صيرة ، وبينهما نحو نصف ميل ، ولا سبيل لتساجر ولا وارد أن يدخل القيروان إلا بعد جوازه على مدينة صيرة . وقد أثر بناء صيرة على عمران المهدية ، فخلت أكثر أرباضها ، وتهدمت وانحصر العمران عنها ^(١) .

(١) الكبرى ، ص ٢٥ - ابن عذاري ص ٣١٢ - معجم البلدان ، ج ٥ ص ٢٩١

(٣)

خلافة المعز لدين الله الفاطمي

١ - بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى :

شغلت ثورة أبي يزيد الفاطميين عن بسط نفوذهم في بلاد المغرب الأقصى ، فاستغل الأمويون بالأندلس هذه الفرصة ، ومدوا نفوذهم على طول الساحل الإفريقي حتى الجزائر ، كما أقاموا قواعد عسكرية في الثغور المطلة على جبل طارق مثل طنجة وسبتة ومليلة ^(١) . ونجح الخليفة عبد الرحمن الناصر في اجتذاب رؤساء البربر من زناتة ومغراوة ، فانضموا تحت لوائه .

ولما تولى أبو تميم معد الملقب بالمعز لدين الله الخلافة الفاطمية في سنة ٣٤١ هـ ، كان سلطان الفاطميين يمتد في المغرب الأوسط حتى إيفكان الواقعة فيها وراء تاهرت ، وكان يتولى تاهرت من قبله يعلى بن محمد اليفرنى ، كما كان يتولى أشير وأعمالها زيرى بن مناد الصنهاجى ، والمسيلة جعفر بن على الأنـدلسى ، وباغاية قيصر الصقلى . وإلى زيرى يرجع الفضل في بناء مدينة أشير عندما استقل بولاية الزاب سنة ٣٢٤ هـ ، كما جدد بناء مدينة مليانة القديمة وأسكنها ابنه بلكين ، وبنى مدينة جزائر بنى مزغنة والمدية ^(٢) . أما جعفر بن على بن حمدون المعروف بابن الأنـدلسى ، فقد خلف أباه على المسيلة والزاب كله ، وظل مقبلاً عليها إلى أن خرج عنها في سنة ٣٦٠ هـ في فتنة

(١) مختار العبادى ، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأنـدلس ، ص ٢٠٤

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٦٣ حاشية رقم

زيرى^(١). أما فاس فكان يليها من قبل المعز أحمد بن بكر بن أبي سهل المجذامى، فخرج أهل فاس على للمعز، وباعوا لعبد الرحمن الناصر، فولى عليهم محمد ابن الخير المغراوي الذى أقام على ولايتها عاما واحدا ثم ارتحل إلى الأندلس للجهاد، واستخلف على فاس ابن عمه أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن عثمان الزناتى^(٢). كذلك خرج على المعز يعلى بن محمد اليفرنى سنة ٤٤٧ هـ، ونقض طاعة الشيعة، وباع لعبد الرحمن الناصر (٣). ففضب المعز لخروج المغرب الأقصى من طاعته، وانضوانه إلى الخلافة الاموية بالأندلس. فسير جوهر الصقل على رأس جيش كثيف إلى المغرب لإعادة النفوذ الفاطمى على بلاد المغرب الأقصى. وخرج مع جوهر جعفر بن على صاحب لمسيلة، وزيرى بن مناد أمير أشير. ونجح جوهر فى الإيقاع بعلى بن محمد اليفرنى، وخرب إيفكان، ومضى إلى فاس، ثم تجاوزها إلى سجلماسة، فاستولى عليها، وقبض على أميرها الشاكرقة محمد بن الفتح من بنى واسوك للدرايين، ثم مآد إلى فاس، وأحكم عليها الحصار، وتمكن زيرى بن مناد من افتتاحها فى سنة ٣٤٨ هـ^(٤). وبذلك نجح جوهر فى مهمته، وأعاد النفوذ الفاطمى على القسم الأعظم من المغرب الأقصى. وفر كثير من أعداء الدولة الفاطمية إلى الأندلس، ومنهم بنو يعلى اليفرنى، وبقايا بنى إدريس، ووفدا من برغواطة، على رأسهم الأمير أبو صالح البرغواطى رسولا من أبى منصور عيسى بن أبى الأنصار، أمير برغواطة.

(١) ابن عذارى ج ١ ص ٣٠٦

(٢) الجزائى، ص ٢٦ - السلاوى ج ١ ص ١٩٧

(٣) ابن خلدون ج ٤ ص ٩٦

(٤) ابن الأثير، ج ٦ ص ٣٥٤ - ابن خلدون، ج ٤ ص ٥٧

ب - استيلاء المعز على مصر ، وانتقاله إليها :

استطاع المعز ، بفضل جهود قائديه جوهر الصقلي وزيري بن مناد الصنهاجي ، أن يمكن سلطانه من حدود طرابلس شرقا حتى المحيط الاطلسي غربا ، وكان فتح مصر أمنية خلفاء الفاطميين منذ أيام عبيد الله المهدي ، بعد أن استحال عليهم فتح الاندلس . وكانت مصر بالنسبة للفاطميين معقد آمالهم لثرائها ، وأهمية موقعها الجغرافي سياسيا وحربيا ، وقربها من بلاد الشام والحجاز . وازداد تطاعهم لفتحها بعد أن قضى اسماعيل المنصور على ثورة أبي يزيد . فلما خلفه المعز اشتدت رغبته في فتحها ، ولكنه لم يشأ أن يقدم على ذلك قبل أن يؤمن ظهره من الأتوميين وأنصارهم ، وينخضع بلاد المغرب الأقصى لسلطانه ، فلما تم له ذلك ، أخذ يتفرغ منذ عام سنة ٣٣٥ لهذه المهمة ، ورأى أن يعزز جيشه بكل الوسائل حتى يضمن لنفسه النصر . وساعدته الظروف السياسية في العالم الإسلامي وقتئذ على نجاحه في فتح مصر . فقد كانت أمور مصر قد انتهت بعد وفاة محمد بن طنجج الإخشيد سنة ٣٣٤ هـ إلى الضعف ، وعلى الرغم من استبداد كافور بالحكم دون ولدني الإخشيد ، ونجاحه في إخماد الثورات ، فانه لم ينجح في تحسين الأحوال الاقتصادية بمصر ، ففي سنة ٣٥٧ هـ ، قصر النيل في فيضانه ، وحدث بمصر غلاء شديد ، نتجت عنه مجاعة ظلت تسع سنوات ، قامى المصريون خلالها الشدائد ^(١) ، وساءت أوضاع مصر بعد وفاة كافور سنة ٣٥٧ هـ ، وانتشرت بها التوضى والاضطراب وعظم فيها القلاء ^(٢) . وفي ذلك يقول

(١) جال الدين الشيال ، مصر في العصر الفاطمي ، ص ٤٢٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ، ص ٩٩

المقرزى : « وكثر الاضطراب ، وتعددت الفتن ، وكانت حروب كثيرة بين المجد والامراء قتل فيها خلق كثير ، وانتهت أسواق البلد ، وأحرقت مواضع عديدة ، فاشتد خوف الناس ، وضاعت أموالهم ، وتغيرت نياتهم ، وارتفع السعر ، ونعذر وجود الأقوات حتى بيع القمح كل وية بدينار ، واختلف العسكر ، فلحق الكثير منهم بالحنين بن عبد الله بن طنج ، وهو يومئذ بالرملة ، وكاتب الكثير منهم المعز لدين الله الفاطمي ، وعظم الإرجاف بمسير القرامطة إلى مصر ، ^(١) . وبالإضافة إلى ذلك كانت ظروف الدولة العباسية قد ساءت إلى درجة كبيرة ، وكثرت الفتن في بغداد بين بختيار بن معز الدولة ، وابن عمه عضد الدولة ، وشغلت بغداد بهذه الفتن عن الاهتمام بشؤون مصر ^(٢) . يضاف إلى ذلك أن دعاة الشيعة الإسماعيلية في مصر نجحوا في اجتذاب عدد كبير من المصريين إلى هذا المذهب . وهكذا كان الجو في مصر مهيأ للغزو الفاطمي ، فلم يتردد المعز في تعبئة كل طاقاته وإمكاناته لغزوها ، وبدأ منذ سنة ٣٥٥ يتأهب لتسج مصر ، فجمع الأموال الوفيرة ، وكتب إلى عمال برقة لحفر الآبار في الطريق من إفريقية إلى برقة ، وإقامة للنازل على رأس كل مرحلة من هذا الطريق . فلما اجتمعت له حشود كتامة ، وتمت كافة الاستعدادات للسفر ، خرج جوهر الصقلي على رأس جيش عدته نحو مائة ألف من البربر في ١٤ ربيع الثاني سنة ٣٥٨ هـ ^(٣) ، في طريقه إلى مصر . ووصل جوهر إلى الاسكندرية

(١) المقرزى ، الحاشية الخامسة ، نزهة الدكتور محمد مصطفى زيادة ،

والدكتور جمال الدين النبال ، القائمة ١٩٤٠ م ١٢ ، ١٣

(٢) ابن خلدون ، ١ ، م ٩٩

(٣) جمال الدين النبال ، مصر في العصر الفاطمي ، م ١٣٠

فخرج إليه وفد من القضاة والتي به في تروجة، فأجابه إلى ملتصقهم، ودخل الاسكتندرية دون مقاومة (١). وتقدم جوهر نحو القسطنطينية، فاستعد الاخشيديون والكافورية لقتاله، والنقى الجيشان بالقرب من القسطنطينية : جيش الاخشيديين بقيادة تحرير الأرغلي، ويمين الطويل، والجيش الفاطمي بقيادة جوهر، وانتهت الموقعة بانتصار جوهر. وزال بذلك سلطان الاخشيديين والعباسيين عن مصر، وأصبحت مصر ولاية فاطمية. ودخل جوهر القسطنطينية في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ، ثم إنه نزل بمسكره إلى الشمال الشرقي من القسطنطينية، في الموضع الذي اختط فيه مدينة القاهرة، وهناك وضع أسس هذه المدينة العظيمة التي قدر لها أن تترجم العالم العربي حتى يومنا هذا، وبدأت أعمال الإنشاء في سرعة عظيمة، فلم يمض عامان حتى كان جوهر قد انتهى من تأسيس القاهرة، وبناء جامعها المعروف بالأزهر (٢).

وقبل أن يرحل للعزلين الله إلى عاصمته الجديدة أراد أن يبقى على النفوذ الفاطمي في بلاد المغرب مع أنه كان يدرك أن استمرار هذا النفوذ لن يدوم طويلا، لما كان يعرفه من شدة مراس البربر، وطبيعتهم الثورية. ويرى الدكتور مختار العبادي أنه رأى أن خير وسيلة للاحتفاظ بتبعية المغرب للفاطميين أن يعمل على إضعافه، بإثارة الفرقة والتنافس بين قبائله حتى تغل في حروب متواصلة، ولا يفكر أهل المغرب في الخروج من

(١) المقرئ، احتفال المنقذ من ١٢٧ - السيد عبد العزيز سالم، تاريخ الاسكتندرية

وحضارتها في العصر الاسلامي، الاسكتندرية ١٩٦١ م ص ٥٦

(٢) السيد عبد العزيز سالم، المغرب الإسلامي م ١١٣

طاعة الفاطميين (١) . فاستخاف لذلك أبا الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية ، ومضى إلى مصر بأمواله ورجاله ، وحمل توابيت آبائه وأجداده ، ودفنهم بقصره في القاهرة .

(١) مختار الباعدي ، سياسة الفاطميين ، ص ٠٩ :

الفصل التاسع

المغرب الأدنى والأوسط في ظل بني زيري

وبني حماد الصنهاجيين

(١) أمراء بني زيري منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين بالمغرب الأوسط

أ - دولة أبي الفتح يوسف بن زيري

ب - دولة أبي الفتح المنصور بن بلكين

ج - دولة نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور

د - انقسام دولة الصنهاجيين

(٧) علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية بمصر

أ - الدور الأول من اتصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية بمصر

ب - الدور الثاني

ج - الدور الثالث

د - الدور الأخير

(٣) انتقام المستنصر بالله الفاطمي: غزو عرب الحلالية وبني سليم لبلاد المغرب

أ - دخول قبائل بني هلال وبني سليم في أرض المغرب

ب - هزيمة جيوش المعزلي أيدي العرب

ج - نتائج غزو الهلالية للمغرب

(٤) استيلاء النورماندين على المهدية

١ - غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها

ب - سقوط المهدية في أيدي النورماندين .

(٥) انقراض دولة بني حماد

الفصل التاسع

المغرب الأدنى والأوسط في ظل بني زيري وبني حماد الصنهاجيين

(١)

أمراء بني زيري منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال الحماديين بالمغرب الاوسط .

١ - دولة أبي القتوح يوسف بن زيري :

ذكر المقرئ أن المعز قبل رحيله إلى مصر استقدم جعفر بن علي بن حمدون ، وعرض عليه أن يتولى إمارة المغرب نيابة عنه ، ولكن جعفر اشترط عليه لقبول هذا المنصب شروطا تتيح له الاستقلال الداخلي ، وقال له : « تترك معي أحد أولادك أو إخوتك يجلس في القصر وأنا أدبر ، ولا نسألني عن شيء من الأموال ، لأن ما أجبيه يكون بازاء ما أنفقه ، وإذا أردت أمر فعلته من غير أن أنتظر ورود أمرك فيه ، بعد ما بين مصر والمغرب ، ويكون تقليد للقضاء والمخراج وغيره إلى » . فرفض المعز ، وقال : « يا جعفر ، عزلتني عن ملكي ، وأردت أن تجعل لي فيه شريكا في أمري ، واستبددت بالأعمال والأموال دوني ، قم فقد أخطأت حظك ، وما أصبت رشداك » ، ثم أقصاه عنه ، واستقدم بلكين بن زيري بن مناد ، وعرض عليه ولاية المغرب ، ولكن بلكين قال له : « بامولانا ، أنت وآباؤك الأئمة من ولد الرسول (صلم) ما صفا لكم المغرب ، فكيف

يصفوني ، وأنا صنهاجى بربرى ؟ فقلتى يا مولانا بغير سيف ولا رمح ، (١) .
ومارال به للفرح حتى قبل ولاية المغرب نيابة عنه ، فولاه أمر إفريقية
والمغرب ماعدا صقلية التى كان يتولاها بنو أبى الحسين الكلبي ، وطرابلس
التي كان يتولاها عبد الله بن يحنف الكنتامي ، وسمى بلكن يوسف ، وكناه
أبا الفتوح ، ولقبه سيف العزيز بالله (٢) ، ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة .
ثم توجه المزم إلى قابس وقال بلكن وهو يودعه : « إن نسبت شيئا . . .
أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع
السيف عن البربر ، ولا تقول أحدا من إخوتك وبني عمك ، فانهم يرون أنهم
أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بالحضر خيرا » (٣) . وعهد إليه بأن
يشرع في غزو المغرب الأقصى لحسم دأئه ، والقضاء على النفوذ الأموي
منه (٤) . أثار تولية بلكن إمارة المغرب غيرة منافسه جعفر بن علي بن
حمدون أمير الزاب ، فشق على الطاطمين عصا الطاعة ، ورحل إلى
الأندلس ، ملتجئا عند الحكم المستنصر ، كما ثارت عليه قبيلة زناتة القائمة
بدعوة اللروانيين في الأندلس ، وخرج عليه أهل تاهرت .

فسار على رأس جيش كبير إلى تاهرت ، فدخلها وخربها ، ثم مضى
إلى تلسان ليقضى على جموع الزناتيين ، فتحاصرها ، ودخلها . وطاد إلى

(١) الفريرى ، اعطاء الخنساء ، ص ١١٣ - الفريرى ، الخطط ، طبعة بيروت ، مجلد

٢ ص ١٠٨

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣١٧ - ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ١٥

(٣) ابن خلدون ج ١ ص ٢٦٣ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣١٨ - ابن الخطيب ، ص ١٥

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣١٨

القمروان بعد أن وصله كتاب من المزيّن - أ - عن التوغّل في المغرب ، وفي سنة ٣٦٧ هـ عقد له العزيز بالله ولاية طرابلس وصرت وأجدانية زيادة على ولاية المغرب ، فاستخلف بلكين عليها يحيى بن خليفة الملياني (١) ، واستفحل ملك بلكين بما أصبح له من ولاية طرابلس وبرقة ، فخرج في هذه السنة لغزو المغرب الأقصى عندما بلغه أن خزرون بن فلفل بن خزر الزناتي قد زحف سنة ٣٦٦ هـ إلى سجلماسة في جيش كثيف وقتل أبا محمد المعتز بالله من أولاد الشاكر لله المدراري ، واستولى على سجلماسة ، وبعث برأس المعتز إلى قرطبة (٢) ، وبدأ أبو الفتوح بلكين بحصار سجة ، فاستعصت عليه لمناعتها ، فتركها إلى فاس ، فاستولى عليها في سنة ٣٦٨ هـ ، وقتل عاملها محمد بن أبي علي بن قشوش ، وعبدالكريم بن ثعلبة ، واستعمل على فاس محمد بن عامر المكنامي . ثم افتتح سجلماسة ، وقبض على ابن خزر أمير مفرّاة وقتله ، ففر ملوك زنّانة أمامه ، ومنهم بنو يعلى بن محمد الفيرني ، وبنو عطية بن عبد الله بن خزر ، وبنو فلفل بن خزر ، ويحيى بن علي بن حمدون صاحب البصرة ، إلى سبتة ، واستنجدوا بالمنصور بن أبي عامر (٣) . فطاردهم أبو الفتوح بلكين إلى سبتة مرة ثانية وحاصرها ، ولكنها استعصت عليه لحصانتها ، وصعوبة الوصول إليها إلا بالسفن ، فرجع عنها مرغماً . ومضى إلى البصرة مركز يحيى بن علي بن حمدون فهدمها وخرّب عمرانها ، وسار بعد ذلك إلى أصيلا ، ومنها إلى شالة مركز برغواطية ،

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٣٢٩

(٢) قس المرجع - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٧٣

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ٣١٩

فنزاهم ، وقتل أميرهم ابن عيسى ، وسبى من نساءهم وذرياتهم أعدادا كريمة (١) .

وتوفي أبو الفتح في سنة ٣٧٣ هـ في طريق عودته إلى إفريقية وذلك في بلدة وارلنغو الواقعة بين سجلماسة وتلمسان .

ب - دولة أبي الفتح المنصور بن بلكين :

كان واليا بأشيرة عندما بلغه خبر وفاة أبيه ، فخلفه على الإمارة في أوائل سنة ٣٧٤ هـ ، وقلده العزيز بالله أمر إفريقية والمغرب ، فعقد لعمه أبي البهار على تاهرت ، ولاخيه بطوفت على أشيرة ، وبلغ المنصور أن زيرى بن عطية الحزري المزاوي قد قام في المغرب ، واستولى على فاس وأصبح أمير زناتة كلها ، وكان يدعو لبني أمية في دولة هشام المؤيد ، فأمر المنصور في سنة ٣٧٤ هـ أخاه بطوفت بالمخرج على رأس جيش كنيف إلى مدينتي فاس وسجلماسة لاستردادها من الزناتيين ، فوصل إلى مدينة فاس ، وكانت يقوم بولايتها زيرى بن عطية الزناتي الملقب بالقرطاس (٢) . فلما علم زيرى بقدمه بادر بمواجهته بمجموع الزناتيين ، وهزمه هزيمة شنعاء ، وقتل من الصنهاجيين عددا كبيرا ، وقتل من رجال بطوفت قائدين هما ابن شعبان وابن عامل ، وحدث قتل جيش بطوفت في تاهرت ومنذ ذلك الحين لم يحاول المنصور معاودة الغزو إلى المغرب رزانة . ولكن فريقا من الزناتيين انضم إلى المنصور بن بلكين ، ومنهم سعيد بن خزرون الذي قدم إلى المنصور في

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

(٢) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٤١ - ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٠

سنة ٣٧٩ هـ ، فولاه على مدينة طيبة ، وزوج ابنته من وروا بن سعيد (١). وظل سعيد بن خزرون حاملا على طيبة إلى أن توفي رجب سنة ٣٨٢ هـ ، فولى المنصور ابنته فلفل بن سعيد على طيبة ، وأهداه ثلاثين حملا من المال ، وثمانين نخعا من أنواع الكسي ، وخيلا بسروج حملا ، وعشرة بنود مذهبة (٢) .

وفي عهد المنصور قامت ثورتان الأولى قام بها أبو الفهم الحراساني الداعي سنة ٣٧٦ هـ ، وأيدته قبائل كتامة ، فحاربه المنصور ، وخرب بلاد كتامة سنة ٣٧٨ هـ ، وتمكن من القبض عليه وقتله (٣) . والثانية ثورة أبي البهار بن زيري في تاهرت سنة ٣٧٩ هـ ، فزحف إليه المنصور إلى تاهرت ، ففر منها أبو البهار إلى المغرب حيث دخل في طاعة للمنصور بن أبي طامر ، فدخل عسكر أبي الفتح المنصور مدينة تاهرت ، وقتل من تصدى لهم من أنصار أبي البهار . ثم أمنهم بعد ذلك ، وولى على تاهرت أخاه بطوفت ، وعاد إلى أشير (٤) . ثم اخلف أبو البهار في فاس مع زيري بن عطية سنة ٣٨٢ هـ ، فعاد أبو البهار إلى قومه ، ووصل إلى المنصور في ١٥ شعبان سنة ٣٨٣ هـ ، فرحب به المنصور ، وخلع عليه (٥) . وتوفي المنصور في ٣ ربيع الأول سنة ٣٨٦ هـ ، ودفن بقصره الجديد بظاهر المنصورية .

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٤٩

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٣

(٣) نفس المرجع ص ٣٤٨

(٤) نفس المرجع ص ٣٤٩ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢١

(٥) نفس المرجع ص ٣٥٣ - ابن خلدون ص ٣٢١

ج - دولة نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنتصرون :

تولى إمارة إفريقية والمغرب الأوسط بعد وفاة أبيه ، وكان لا يتجاوز من العمر ١٢ سنة ، فأقر عمه بطوفت على ولاية تاهرت ، وأقر عمه حماد على ولاية أشير . ولما بلغ أمراء زناتة نبأ وفاة المنتصرون ، وولاية ابنه باديس ، استغلوا صغر سنه ، فزحف زيرى بن عطية فى جموع هائلة من زناتة سنة ٣٨٩ هـ إلى مدينة تاهرت ، وحاصره ، فكتب بطوفت بن يوسف إلى ابن أخيه باديس يستمده ، فبعث إليه جيشاً يقوده محمد بن أبي العرب الكاتب ، فسار هذا الجيش إلى أشير وانضم إليه صكر آخر ، بقيادة حماد بن يوسف ، ووصل الجيشان إلى تاهرت فى أول جمادى الأولى سنة ٣٨٩ هـ ، وكان زيرى بن عطية قد عسكر بجيش فى موضع يقال له آسار يقع قريبان تاهرت ، فخرج الجيش الصنهاجى إليه ، وكانت معركة عنيفة فى ٤ من جمادى الأولى ، انتهت بهزيمة الصنهاجيين هزيمة مخزية ، وانسحب حماد ويطوفت مع ابن أبي العرب إلى أشير ، وتركوا علاتهم ومضاربهم بما فيها من الأموال والسلاح ، واستولى عليها زيرى بن عطية ودخل تاهرت (١).

ولما بلغ نصير الدولة باديس خبر هذه الهزيمة ، خرج لمحاربة زيرى بن عطية فى ٢ جمادى الآخرة سنة ٣٨٩ هـ ، فلما وصل طبنة بعث فى طلب فقلل ابن سعيد بن خزرون الزناتى ، فبعث يعتذر له ويسأله أن يكتب له سجلاً بولاية طبنة ، فكتب له ، وبعث إليه ، ثم رحل باديس إلى أشير ، فاتهم فقلل فرصة رحيله عنه ، وأغار على ما حوله من النواحي . ثم واصل باديس زحفه حتى وصل إلى المسيلة ، فبلغه رجيل زيرى بن عطية من تاهرت إلى

فارس ، فعاد إلى أشير ، ودخل معه بطوفت تاهرت ، واستخلف عليها ابنه أبوب في أربعة آلاف فارس . ووصلت الأنباء إلى باديس بما قام به قفلل ابن سعيد ، فسير عسكريا من أشير لمحاربة قفلل ، ورحل هو بعدهم معه أبو البهار بن زيري ، فزلا بالمسيمة ، وبلغها أن ماكن وزاوي ومغنين شقوا عضدا الطاعة على باديس في أشير ، وأنهم قبضوا على بطوفت ، فرحل أبو البهار حاربا في بنيه ورجاله ^(١) . ويبدو أن باديس اتفق مع حماد على أن يتولى هو أي باديس محاربة قفلل بن سعيد ، بينما يتولى حماد محاربة أعمامه بني زيري ، فرحل باديس إلى إفريقية ، فلم وهو يلزمه أن قفلل قد تمادى إلى القيروان ، فسار إلى باغاية في طلبه ، والتقى معه في ١٠ من ذي القعدة بالقرب من باغاية ، فانهزم قفلل وتراجع إلى جبل الحناش ، وقد قتل من ورجاله نحو سبعة آلاف ^(٢) .

ولم يكف نصير الدولة باديس بهذا الانتصار ، فخرج في سنة ٣٩٠ هـ لمحاربة قفلل ، ففر قفلل مصحبا إلى الشرق لقلعة أنصاره ، وعاد نصير الدولة إلى إفريقية . أما قفلل فقد مضى إلى طرابلس حيث دخلها واستوطنها سنة ٣٩١ هـ .

أما حماد فقد ظل يحارب إخوته حتى تمكن أخيرا وبمدهروب طويلة من قتل ماكن بن زيري وولديه محسن وباديس في ٣ رمضان سنة ٣٩١ هـ ^(٣) . أما زاوي بن زيري وابنا أخيه ماكن : حباسة وحبوس و

(١) ابن عذاري ج ١ ص ٣٦٠

(٢) قس المرجع

(٣) قس المرجع ص ٣٦١

فقد نجحوا إلى جبل سبوة ، فنازلهم حماد أياها ، ثم عقد لهم السلم على أن يجهزوا إلى الأندلس ، فعبروا الزقاق إلى ساحل الأندلس ، ولادوا بعد الملك ابن المنصور (١) . واستقبلهم عبد الملك بن المنصور سنة ٣٩٢ هـ أعظم استقبال ، ووصلهم بصلاته الجلييلة ، ويذكر ابن بسام الشنقي ، أنهم : « استقلوا ما وصلهم به عبد الملك على كثرته ، وما استقروا الدار إلا على قلعة ، ولا حمدا معروفا ، ولا لبسوا أعلى المراتب السلطانية إلا على أجدال وعقرة ، ولا قطعوا أن المقام بالأندلس إلا بذكر الرحلة ، والتاس التبرج بكرة وعشية ، جهلا وفرط أفقة » (٢) وكان عبد الملك يرغب في رفع منزلة زاوي ابن زيري وإخوته وعشيرته ، فولاه الوزارة ، فرفضها زيري محتجاً بأن خطته لا تمدد الحرب ، وأن أقداره الرماح ، وصحافته الأجساد (٣) . وقد اشترك زاوي بن زيري وبنو ماكن بن زيري في الفتنة التي اشتعلت نيرانها بقرطبة بعد مقتل عبد الرحمن شنجول بن المنصور سنة ٣٩٩ هـ ، فأيدوا سنيان المستعين ضد المهدي محمد بن عبد الجبار ، فكافأ بني زيري بأن منحهم البيرة ، فاستأثروا بحوس بن ماكن بامارة البيرة وقرطبة بعد أن رحل زاوي بن زيري إلى إفريقية في سنة ٤٠٩ هـ (٤) ، وذلك بعد وفاة باديس (٥) ، فزها في دولة المعز بن باديس بعد أن ملك قرطبة نحو سبع

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٢

(٢) ابن بسام الشنقي ، القشة في حاسن أهل الجزيرة ، مجلد ١ قسم ٤ ص ٦١ ، القاهرة ، ١٩٤٥

(٣) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٣٨

(٤) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، قسم ثالث ، ص ٦٨ - الصفحة البيرية في أخبار الدولة النصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ص ٢٠

(٥) تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٥٩

سنوات ، واستخلف عليها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (١) . وظل بنو زيري يوارثون ملك غرناطة حتى سنة ٤٨٣ هـ عندما خلع يوسف بن عاشقين أمهم عبد الله بن بشكين بن باديس بن حبوس (٢) .

ظل نصير الدولة باديس على وفاق مع عمه حماد إلى أن تحركت قبائل زناتة في سنة ٣٩٥ هـ في نواحي المسيلة وأشير ، فسير إليهم باديس عمه حماد ، فنازل زناتة وهزمها ، ثم نزل مدينة تيجس من أحواز قسنطينة (٣) . ثم نزل بأبي طويل وهي قلعة بأحواز قلعة حماد ومنفذها على الساحل ، وهناك اختط مدينة القلعة وشيد القصور (٤) . وأخذ حماد يعمل على الاستقلال عن باديس .

وأحس باديس بما يتأهب له حماد ، فأراد اختبار طاعته ، فكتب إليه طالبا أن يزل عن عمل تيجس وقسنطينة ، فأبى حماد وأظهر الخلفاء (٥) .

د - انقسام دولة الصنهاجيين :

رأينا من قبل كيف بدأ حماد يعمل على الانفصال عن ابن أخيه ، فأسس مدينة القلعة ونزلها وجعلها مقرا له ، فأدرك باديس منه هذا الميل للاستقلال ، فأراد أن يختبر مدى ولاءه له ، فأمره بالزول عن عمل تيجس وقسنطينة لابته (المنصور بن باديس) فأبى ، وأعلن استقلاله بهذه الولاية . فسير إليه باديس إبراهيم بن يوسف سيف الدولة ولكن أخا حماد ، في

(١) ابن الخطيب ، اللسان البدرية ص ٢٠

(٢) قس المرجع

(٣) ابن الخطيب ، أمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٠

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٣

(٥) قس المرجع

شوال سنة ٣٩٥ هـ ، لما كاد يصل إلى القلعة حتى انضم إلى أخيه حماد ، فاجتمعت كلمتها ، وخلفا أيديهما عن الطاعة لباديس (١) ، بل إن حماد لم يكف بذلك ، فأعلن تبذره لطاعة القاطمين ، وذم للخلفاء العباسيين في سنة ٤٠٥ هـ (٢) . عندئذ عزم باديس على محاربة عميه ، فرحل بمسكوكه متجها إلى قلعة حماد في المحرم سنة ٤٠٦ هـ ، وانضم إليه في طريقه إليها عزم وقلقل ابننا حسون بن سقون وماكسن بن بلكنين ، وعدنان بن معلم ، في عدة من فرسان جيش حماد ، فخلع عليهم ، وأحسن إليهم ، وما زال نصير الدولة باديس يواصل سيره إلى أن وصل إلى تامدث ، فبلغه هناك وفاة ابنته الجندور عزيز الدولة ، فأقام بتامدث حتى ٦ من صفر ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى المحمدية ، ومنها تابع سيره ، فعبّر وادي شلف (٣) ، وهناك دخل في طاعته بنو توجين ، إذ كانوا ساخطين على حماد لقتله أميرهم دافلين (٤) . فسار باديس حتى قرب من جيش حماد وحشوده من زناته وغيرهم في العدو الأخرى من الوادي ، والتقى الجيشان في معركة انتهت بهزيمة حماد ، وفراره إلى القلعة تاركا مخيماته ، فنهبا جنود باديس . ومات باديس في ٢٧ ذي القعدة سنة ٤٠٦ هـ .

واتفق الجند بعد وفاة باديس على مبايعة ولده الحز ، واستنابة ابن عمه كرامة بن التصور حتى تتم مبايعة الحز البيعة العامة في المهديّة ، وتمت هذه

(١) ابن عسار ج ١ ص ٣٧٧ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٣

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥١

(٣) ابن عسار ج ١ ص ٣٧٩

(٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٣

البصرة في ٢١ ذي الحجة سنة ٤٠٦ هـ ، وهو ابن ثمانى سنوات . واستغل حماد فرصة موت باديس فدخل المدينة وأشير ، وحاصر باغاية ، وبلغ ذلك للمز ابن باديس ، فزحف إليه في سنة ٤٠٨ هـ ، فاضطر حماد إلى رفع الحصار عن باغاية واشتبك مع جيش المز بن باديس في معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة حماد ، وفراره إلى القلعة . ثم آثر حماد الصلح مع المز ، فاشترط عليه للمز أن يعث ولده إليه وتم الصلح بين المز وحماد ، وبمقتضاه يستقل حماد بعمل المدينة وطبنة والزاب وأشير وناهرت وما يفتح من بلاد المغرب . وعقد لابن حماد على طبنة والمسيلة ومقره ومرسى الدجاج وسوق حمزه وزواوة . وبذلك الصلح وضعت الحرب أوزارها ، وانقسمت دولة الصنهاجيين إلى دولتين : دولة آل المنصور بن بلكين أصحاب القيروان ، ودولة آل حماد بن بلكين أصحاب القلعة (١) ، ثم بجاية بعد ذلك (٢) .

ويستفد الأستاذ جورج مارسيه في كتابه « المغرب الاسلامى والمشرق في العصر الوسيط » أن هذا الاستقلال أمر طبعى ، فقيام الدولة الحمادية جاء نتيجة طبيعية للحوادث ، إذ أن المناطق التي كان يحكمها بنو زيري عند رحيل المعز لدين الله الفاطمى إلى مصر ، وكانت تعد مهمة ثقيلة بالنسبة لبلكين ، وابنه المنصور ، لأنها كانت تضم المغربين الأدنى والوسط ، فاضطر المنصور إلى أن يهد بولاية المغرب الأوسط إلى أخيه حماد بن بلكين ، وبطبيعة الحال طمع حماد في هذه الولاية لنفسه . فلما حاول باديس استرجاع هذه الولاية ، اعترضه حماد وخرج عن طاعته وعن طاعة الخليفة الفاطمى

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٤

(٢) ابن الخليل ، آمهال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٦

الحاكم بأمر الله في آن واحد، ويذكر ابن خلدون أن حمادا دعا للخلفاء
العباسيين، وقتل الرافضة وأعاد ولايته إلى المذهب السني، وترحم على
أبي بكر وعمر. ويذكر ماركسيه أنه لو صح ما ذكره ابن خلدون، لكان
حماد هذا أول من أعلن انفصاله السياسي عن الخلافة الفاطمية في مصر،
وأنه سبق في ذلك المعز بن باديس بنحو ثلاثين عاما حين شق عصا الطاعة
على الخليفة المستنصر بالله الفاطمي^(١).

(٢)

علاقة المنهاجيين بالخلافة الفاطمية

١ - النور الأول من انفصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية بمصر :

سادت العلاقات الودية بين الدولة الفاطمية فى مصر والدولة المنهاجية فى إفريقيا فى إمارة أبى الفتوح يوسف بلكين بن زيرى . ولما تولى ، وخلق له ابنه أبو الفتح المنصور أبدى ميلا صريحا إلى الانفصال الروحى والسياسى عن الخلافة الفاطمية ، وعبر عن ذلك بقوله لشيخ القيروان ووجوه الناس ممن قدموا إليه لتبنيته بالإمارة : « إن أبى وجدى أخذنا الناس بالسيف قهرا ، وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان ، وما أتانى هذا الملك ممن يولى بكتاب وعزل بكتاب ، لآتى ورثته عن آبائى وأجدادى ، وورثوه عن آبائهم وأجدادهم حمير » (١) . فالمنصور يستنكر بهذا القول أن يولى الإمارة بكتاب ، وعزل بكتاب ، ويرى أن بلاد إفريقيا والمغرب ملك ورثته عن آبائه وأجداده ، وفى ذلك تلميح بصعده للعزير باق الفاطمى .

ولاشك أن للعزير باق قد غضب لهذا القول ، وأحس بما يحتل فى نفس المنصور من نوايا الانفصال ، فعلم على إزطاجه وتأييد قبائل البربر عليه ، فأرسل داعيا له فى سنة ٣٧٦ هـ اسمه أبو القهم الخراسانى إلى قبائل كتامة لى يدعوهم إلى طاعته ، ويبدو أن العزير باق ، كان يهدف من وراء ذلك إثارة قبائل كتامة على ولاية إفريقية ، إضعافا لنفوذهم فى البلاد.

(١) ابن عسارى ، ج ١ ص ٣٤٣ - ابن الأثير ، ج ٧ ص ١٢١

فلما ظهر أبو الفهم الداعي في قبائل كتامة ، التفت حوله ، وألف منهم أبو الفهم جيشا جرارا زوده بالسلاح . وبلغ من نفوذ أبي الفهم في كتامة أنه صنع البند و ضرب السكة (١) . فكتب المنصور إلى العزيز بالله يبلغه بأمر أبي الفهم ، فأرسل إليه العزيز بالله رسولين بنهيانه عن التعرض له ومحاربة كتامة ، فغضب المنصور لذلك ، وأغلظ القول لها وللعزيز أيضا ، وأغلظ له ، فصمم على محاربة كتامة ، فزحف بجيوشه في سنة ٣٧٨ هـ إلى بلاد كتامة ، فغرب ميلة ، وهدم سورها ، ودمر كل ما قابله من حصون كتامة وقصورها حتى بلغ سطيف مركز أبي الفهم ، ثم اشتبك مع الكتامين في موقعة انتهت بانتصاره عليهم ، وهرب الناصر أبو الفهم إلى جبل وعمر (٢) ، فقبض عليه أحد أتباع المنصور ، وأمر به فلطم لطمًا شديدا ، وتفت لحيته حتى أشرف على الموت ، ثم أخذه بعض رجاله ، ونحمره وشق بطنه ، وقتل معه وإلى ميلة وجماعة من رؤساء كتامة (٣) . فلما رأى العزيز بالله فشل خطته ، أتمر أن يصطنع سياسة الللاطفة ، فأرسل في سنة ٣٨٤ هـ هدية جليلة إلى المنصور من بينها فيل كبير (٤) ، وتبعها في أيام الحاكم هدية أخرى بجيشا إلى المنصور في سنة ٣٨٨ هـ وتشتمل على جوهر وأعلاق نفيسة (٥) .

ب - الدور الثاني من انفصال بنى زيري عن الخلافة الفاطمية بمصر :

ظلت العلاقات الودية بين مصر والمغرب الأدنى سائدة في عصر نصير

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٢ ص ١٣٣

(٣) ابن عذارى ، ج ١ ص ٣٤٩

(٤) نفس المرجع ص ٣٥٣

(٥) نفس المرجع ص ٣٥٧

الدولة باديس، ولكن هذه العلاقات كانت في الواقع قائما زائفا يخفى وراءه ما كان قائما بالفعل بين الحاكم وباديس من حقد وعداء، فقد كان الحاكم يضمير في نفسه السوء لباديس، لانتجابه إلى الاستقلال عن الدولة الفاطمية، فأخذ يحبك له المؤامرات متبعا نفس الخطة التي كان يتبعها العزيز بالله من قبل، فقد أمر الحاكم يانس العزيزي واليه على برقة بالسير إلى طرابلس والاستيلاء عليها في سنة ٣٩٠ هـ، ولما كانت طرابلس تابعة لباديس، فانه لم يسكت على هذا الاعتداء السافر، ولم يتردد في الاشتباك مع قوات يانس في معركة أسفرت عن هزيمة الجيش الفاطمي ومقتل يانس، فبعث فلغل بن خزرون بذلك إلى الحاكم، فغضب الحاكم، وسير حملة ثانية بقيادة يحيى بن علي بن حمدون الذي كان قد فر إلى مصر بعض مقتل أبيه جعفر، ونزل على العزيز بالله في القاهرة^(١)، فوصل يحيى إلى طرابلس في ٩ ربيع الأول سنة ٣٩٢ هـ، واجتمع جيش يحيى بن علي بن الأندلس بجيش فلغل بن سعيد، وتقدم الجيشان إلى قابس في سنة ٣٩٣ هـ، ولكنهما لم يلبثا أن تراجعوا إلى طرابلس خوفا من الاصطدام مع جيوش باديس. ولما رأى يحيى اختلال الحال لديه، وعجزه عن محاربة باديس اضطر إلى العودة إلى مصر^(٢).

وأخيرا لجأ الحاكم بأمر الله إلى حث قبيلة زناتة على الاستيلاء على طرابلس، ونجح في ذلك، وتمكنت زناتة بقيادة فلغل بن سعيد من الزول بطرابلس، ونجح عن ذلك قيام الاضطرابات بين صنهاجة وزناتة في هذه المنطقة.

(١) ابن خلدون، ج ٤ ص ١٢٤

(٢) ابن حنبل، ج ١ ص ٣٦٨ — ابن الأثير، ج ٢ ص ٢١٨

ولما توفي فلفل في طرابلس سنة ٤٠٠ هـ ، وخلفه أخوه وروا ، زحف إليه نصير الدولة باديس في جيش كثيف ، ونزل بظاهر طرابلس في ٧ شعبان ، ودخلها ، ثم جاءته رسل وروا بن سعيد أخى فلفل ، تطلب منه الأمان والغفر ، فأمنهم وعفا عنهم ، وعاد إلى المنصورة مظفرا (١) . وهكذا تمكن باديس من القضاء على جميع مؤامرات الحاكم ضده ، فلما عين الحاكم ذلك ، لم يجد بدا من العودة إلى السياسة القديمة وهى سياسة التودد ، فأخذ يعمل على التماس مودة باديس ، ويذكر ابن عذارى ، أنه وصل إلى المهدي في سنة ٤٠٣ هـ مركب فيه هدية جارية من الحاكم إلى نصير الدولة باديس صاحب إفريقية ، وإلى ولده منصور عزيز الدولة ، فتلقاها المنصور مع أهل القيروان على قصر الماء بالبندول ، ووصلت سجلات منه إلى نصير الدولة باضافة برقة وأعمالها إليه (٢) . وفي العام التالى ، أرسل الحاكم سجلا إلى نصير الدولة يذكر فيه أنه جعل ولاية العهد فى حياته (أى فى حياة الحاكم) إلى ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس بدلا من ابنة أبى الحسن على الذى لقب فيه بعد بالظاهر لأعزازدين الله ، وقد غضب باديس على هذا الإجراء إذ رأى فيه خروجاً على المذهب الإسماعيلى وقال ولولا أن الإمام لا يترضى على تدبير لكانتبه ألا يصرف هذا الأمر من ولده إلى ابن عمه (٣) ، وسادت العلاقات الطيبة بين الحاكم وباديس بعد ذلك ، فقد رد باديس على هدية الحاكم له بهدية أخرى أرسلها إليه فى سنة ٤٠٥ هـ ، وكانت تضم مائة

(١) نفس المرجع ، ص ٣٧٢

(٢) نفس المرجع ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٧٥

فرس لها مروج حملاء ، شدت في ثمانية عشر حملاً ألقاصا ، وكان فيها ثمانية عشر حملاً من الخبز والسمور والمتاح السوسى المذهب النفيس ، وعشرون وصيفة ، وعشرة من الصقالبة ، كما وجهت السيدة أم ملال أخت باديس إلى السيدة أخت الحاكم هدية أخرى . ولكن هذه الهدية لم تصل إلى الحاكم وأخته ، إذ استولى عليها العرب في برقة (١) .

ج - الدور الثالث من انفصال بنى زيرى عن الخلافة القاطمية بمصر :

يحتد هذا الدور أهم الأدوار التي مرت بها حركة انفصال المغرب عن الخلافة القاطمية بمصر ، ويبدأ منذ أن تولى المعز بن باديس إمارة إفريقية . ويذكر ابن الأثير أن المعز بن باديس كان ماشياً في القيروان والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فاجتاز بجماعة كانت هناك ، فقبل له هؤلاء رافضة يسبون أبا بكر وعمر ، فقال المعز : « رضى الله عن أبي بكر وعمر » ، فأنصرفت العامة من فورها إلى درب الملقى بالقيروان ، وهو موضع يجتمع فيه الشيعة من كان يسكن فيه منهم (٢) . وذكر ابن عذارى أن المعز بن باديس تعلمت على وزيره أبي الحسن بن أبي الرجال ، وكان ورعاً زاهداً ، فعلمه وأدبه ، ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة ، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان ، فخرج المعز في بعض الأعياد إلى المصلى في زيبته وحشوده وهو غلام ، فكبا به فرسه ، فاستغاث بالشيخين أبي بكر وعمر ، فسمعت العامة فتاروا بالرافضة ووضعوا السيف في الشيعة وقتل منهم ما يليق على الثلاثة

(١) المرجع السابق ص ٣٧٥

(٢) ابن الأثير ، ج ٧ ص ٢٩٥

آلاف (١) . وبغيف ابن خلدون أنه قتل دعاة الرافضة يومئذ في سائر بلاد إفريقية (٢) .

ولم يكن المعز باضطهاد الشيعة في البلاد إلى درجة أن طائفة منهم يبلغ عددها نحو ٢٠٠ فارس خرجوا بأولادهم في سنة ٤٠٩ هـ إلى المهديّة للركوب منها إلى صقلية (٣) ، بل إنه أخذ يحمل الناس على اعتناق المذهب المالكي ونبت المذهب الإسماعيلي ، وكان يهدف من وراء ذلك إلى الانفصال المذهبي والسياسي بطبيعة الحال عن مصر . وذكر المؤرخون أن المعز اضطهد الشيعة في إفريقية ، وقتل منهم عدداً عظيماً ، وسميت هذه الحركة بحركة التطهير ، وفي ذلك يقول القاسم بن مروان الشاعر .

وسوف يقتلون بكل أرض

كما قتلوا بأرض القيروان

وقال أحد الشعراء :

يامعز الدولة عش في رفعة

وسرور واغتياب وجذل

أنت أرضيت النبي المصطفى

وعتيت في الملاعن الفحل

وجعلت القتل فيهم سنة

بأقاصي الأرض في كل الدول

(١) ابن عسار ، ص ٣٩٥ — ابن خلدون ج ٦ ص ٢٩

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٥

(٣) ابن عسار ، ج ١ ص ٣٨٨

ومع كل ما قام به المعز بن باديس للقضاء على الشيعة ، فان الخليفة الفاطمي الحاكم أغضى عن ذلك ، ولم يحاول أن يستثيره أكثر مما فعل ، بل نراه يحرص على استرضاء المعز ، ففي أواخر سنة ٤٠٧ هـ ، أي بعد مضي شهرين على مذبحة الشيعة ، وصل إلى المعز بن باديس سجل من الحاكم خاطبه فيه بشرف الدولة ^(١) ، وفي سنة ٤١١ هـ ، ورد على المعز أبو القاسم بن الزيد رسولا من الحاكم إليه ومعه من الهدايا سيف مكلل بنفيس الجواهر ، وخلعة من لباسه لم ير مثلاً ، كما قدم إلى المعز محمد بن عبد العزيز بن أبي كدية ومعه سجل من الحاكم وخمسة عشر علماً منسوجة بالذهب ^(٢) . وفي سنة ٤١٤ هـ قدم هذا الرسول من قبل الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمي بتشريف عظيم لشرف الدولة المعني ابن باديس ، وزاده لقباً إلى لقبه ، فسماه شرف الدولة وعصدها ، وبث إليه بثلاثة أفراس من خيل ركوبه مزودة بسروج نفيسة ، كما بث إليه أيضاً خلعة من نفيس ثيابه ومنجوقين منسوجين بالذهب على قصب فضة لم يدخل إفريقية مثلاً قط ، وعشرين بنداً مذهبة ومفضضة ^(٣) .

كل ذلك يعبر عن رغبة الحاكم بأمر الله وابنه الظاهر لإعزاز دين الله في تحسين العلاقات بين مصر وإفريقية بعد أن توترت على أثر أعمال العنف التي قامت في برقة وطرابلس بين جيوش مصر وإفريقية .

د - الدور الأخير من انفصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية بمصر :

ذكر ابن عذاري أن المعز أظهر في سنة ٤٣٣ الدولة العباسية ، وورد

(١) ابن عذاري ، ج ١ ص ٣٨٨

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٨٩

(٣) نفس المرجع ، ص ٣٩٢

عليه مهد الخليفة القائم بأمر الله العباسي (١) . وأتبع هذه الحركة بقطع الخطبة لتخلية المستنصر وبحرق بنوده الخضراء والدعوة على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب (٢) . ويختلف المؤرخون في تحديد تاريخ انفصال للمز بن باديس نهياً عن الدولة الفاطمية ، فابن عذارى وابن الأثير وابن خلدون يحددون له عام ٤٤٠ هـ (٣) ، وابن تغري بردي والمقريزي يجعلانه في سنة ٤٤٣ هـ (٤) . ويرجح الدكتور مختار العبادي حدوث الانفصال في سنة ٤٤٣ هـ استناداً على ما ذكره المقريزي في انعاظ الحنفا ، وعلى أن وزارة اليازوري - الذي كان خلّاه مع المز بن باديس سبياً مباشراً في هذا الانفصال - تبدأ في عام ٤٤٢ هـ (٥) . ولكننا ترجح سنة ٤٤٠ هـ تاريخاً لهذا الانفصال ، فإن وزير المستنصر الفاطمي قبل اليازوري وهو أبو القاسم علي ابن أحمد الجرجاني المتوفى سنة ٤٣٦ هـ (٦) كان قد باقاه ما أظهره المز ابن باديس في سنة ٤٣٣ هـ من التودد للخليفة العباسي القائم بأمر الله ، وما كان يقوم به المز من اضطهاد الشيعة الإسماعيلية والدعوة للمذهب المالكي ، فخطب المز محذراً وهو يراجع بالتمريض بخلفائه والقدح فيهم ، حتى

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩٧

(٢) نفس المرجع ، ص ٣٩٦

(٣) ابن عذارى ، ص ٣٩٩ - ابن الأثير ، ج ٨ ، ص ٥٥ - ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٢٥

(٤) ابن تغري بردي ، ج ٥ ، ص ٥١ - المقريزي ، انعاظ الحنفا ، نس نشره الدكتور مختار العبادي من النسخة المخطوطة بمكتبة سراي أحمد الثالث بأسطنبول ، ضحية لغاله :

سياسة الفاطميين ص ٢٢٢

(٥) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين ، ص ٢١٨ ، حاشية رقم ٢

(٦) ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٣٩٨

أظلم الجو بينه وبينهم (١). وأعتقد أن العلاقات ساءت للغاية بعد ذلك بين مصر وإفريقية، ومع ذلك فقد كان الخليفة المستنصر، رغم غضبه من سياسة المعز بن باديس، لا يرغب في أن تم القطيعة على يديه، ثم إنه كان يأمل في أن تتحسن العلاقات بينه وبين المعز، هذا بالإضافة إلى أنه كان مشغولاً وقتئذ بالأحداث الجارية في الشام، وقيام العرب في هذه البلاد بالحركات الانفصالية من الدولة الفاطمية، فقد تملك حسان بن مفرج فلنسطين، واستولى معز الدولة صالح الكلابي على حلب (٢). وكان الموقف السيامي يستلزم أن يقوم بطيف الجو بينه وبين المعز بن باديس، على نحو ما كان يفعل آباؤه من قبل وعلى الأشخاص الحاكم بأمر الله، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك، ولم يحاول أن يهادى المعز أو يهودد إليه، فازدادت هوة الخلاف عمقا، وتوترت العلاقات توترا أدى في النهاية إلى القطيعة والانفصال في سنة ٤٤٤ هـ. فلقد كان المعز بن باديس ينتظر فرصة مواتية لإعلان انفصاله عن الخلافة، وكان يطالع رغبة أهل القيروان الملحة في قطع الدعوة للخليفة الفاطمي، وكان هو نفسه يميل إلى المذهب السني كما رأينا من قبل، ولكنه لم يرض أن ينكث بعهود آباءه للفاطمين، وإنما كان يتوقع أن يقوم المستنصر بترضيته، ولما لم يفعل اعتبر هذا استخفافاً منه بأمره، واحتقاراً لشأنه، وعز عليه أن يعامل بمثل هذه المعاملة مع ما لديه من الإمكانيات الكثيرة التي تهيء له الانفصال عن الدولة الفاطمية نهائياً، ووجد في سكوت

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٥

(٢) ابن الفلاني، ذيل تاريخ دمشق، ط بيروت ١٩٠٨، ص ٧٢ وما يليها - ابن خلدون، ج ٤ ص ١٣٠ - جمال سرور، النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق، في القرنين الرابع والخامس بعد الهجرة، ١٩٠٩ ص ٥٦ وما يليها

المستنصر عن مخاطبته ذريعة لقطع الدعوة له ، وهو السلاح الذي كان يشهره دائما هو وآبائه في وجوه خلفاء الفاطميين في مصر منذ المرحلة الأولى التي تحدثنا عنها . ويذكر ابن خلدون أن المستنصر لما بلغه ما قام به المعز بن باديس من قطع الخطبة له والدعوة للخليفة القائم العباسي ، كتب إلى المعز يهدده (١) . ويذكر ابن خلكان أن المستنصر كتب إلى المعز يهدده بقوله : « هلا اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء » ، فردا لنسناجي يؤكده حتى لمصرته في الاستقلال ، فقال : « إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك العرب قبل أن تملكه أسلافك » ، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم ، ولو آخروهم لتقدموا بأسيا فهم » (٢) . وأمام تهديد المستنصر بالهـ له فقد كان من الطبيعي أن يصحده المعز بن باديس ، فيأمر في نفس هذا العام بلعن الفاطميين في الخطب (٣) ، ويأمر في العام التالي بسبك مالدية من الدنانير والدرهم والقطع التي تحمل أسماء بني عبد الله ، وإزالة أسمائهم من الرايات والعُزُر (٤) . ومع ذلك كله ، فلم يكن المعز قد شرع بعد في تغيير لون أعلام الفاطميين ، فظل محافظا على الشكليات . فلما تولى اليازوري الوزارة الفاطمية في سنة ٤٤٢ هـ ، اشتد الخلاف بينه وبين المعز بسبب إنزاع المعز من قدر اليازوري ، إذ كان يخاطبه دون ما كان يخاطب به من سبقه من الوزراء (٥) ، وكان لهذه التصحوة الجديدة أثرها في قيام المعز بإعلان

(١) ابن خلدون ج ١ ص ١٣١

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٤ ص ٣٢١ — سعد زغلول ، فترة حامية ص ٢٥١

(٣) ابن خلدون ج ١ ص ٤٠١

(٤) نفس الرسم ص ٤٠٢

(٥) ابن خلدون ج ٤ ص ١٣١ — المريزي ، احاطة الحفا ، ضحية بمقال سياحة

الفاطميين ص ٢٢١ ، ٢٢٢

انفصاله الروحي والسياسي نهائيا عن الخلافة الفاطمية ، وكان قد قطع في
السنين الثلاث السابقة شوطا كبيرا في ذلك حتى لم يبق إلا شكليات يسيرة ،
فأرسل رسولا إلى بغداد ليستحضر الخلع والالوية السوداء (١) ، واستجاب
الخليفة العباسي لرغبته ، فأرسل إليه أبا غالب الشيرازي رسولا من قبله ومنه
العهد واللواء الأسود ، فاتفق أنه مرييلاد الروم ، فقبض عليه الإمبراطور
البيزنطي ، وأرسله هو واللواء والعهد والمهدية إلى القاهرة ، فأمر المستنصر
بأحراق العهد واللواء والمهدية في حفرة بين القصرين (٢) . فاستعاض المعز
ابن باديس عن اللواء العباسي بتياب بيضاء أمر بإخراجها من فندق الكتان
بالقيروان ، وصبغها باللون الأسود الخالك ، وجمع الخطاطين وأمرهم بقطبها
أثوابا ، ثم جمع الفقهاء ، والقضاة إلى قصره ، وخطبى القيروان وجميع
المؤذنين ، وكساهم ذلك السواد ، وانصرفوا جميعا إلى الجامع ، وركب المعز
وراءهم حتى وصل إلى جامع القيروان ، « ثم صعد الخطيب » ، وخطب
خطبة أتى فيها على جميع الأمراء بأجزل لفظ وأحسن معنى ، ثم دعا لأبي
جعفر عبد الله القائم بأمر الله العباسي ، ودعا للسلطان المعز بن باديس ولولده
أبي الطاهر تميم ولي بعده من بعده ، ثم أخزى بني عبيد ولعنهم (٣) .
وبذلك انشق المغرب الأدنى نهائيا عن الخلافة الفاطمية .

ونستخلص مما سبق عرضه أن هذا الانفصال تم على مراحل مختلفة ،
وقد ساعد على حدوثه سياسة الخلفاء الفاطميين العدوانية نحو أمراء بني

(١) انماط المعاص ٢٢٢

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٣

(٣) ابن هداري ، ص ١٦٥

زيرى ، وإثارتهم المنافسة بين صنهاجة وزناتة ، ثم تدخل الوزراء منذ خلافة المستنصر بالله في هذا الخلاف ، وسوء تصرفهم في معاملة المعز بن باديس ، وأخيرا إسرار الخلفاء الفاطميين في الاستخفاف بالدين وسب الصحابة ، وادعاء الحاكم الالوية ودعوته الناس إلى عبادته . وأحدث خروج المغرب عن الفاطميين صدى عميقا في طرابلس ، فافتدى الناس بالمعز بن باديس وقام الفقيه أبو الحسن بن المتنصر بصحريض العامة على الشيعة ، واشترك معهم في قتلهم ، ثم قطع من الأذان عبارة « حى على خير العمل » ، وأذن أذان أهل السنة بنفسه (١) .

كذلك حذا أهل برقة حذو المعز بن باديس ، ففي سنة ٤٤٣ هـ قسما كتب الأمير جبارة بن مختار العري من برقة إلى المعز بن باديس يبايعه بالطاعة ، ويخبره بأنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يدعى عليها للعبيدية ، وأحرقوا أيمانهم ، وتبرأوا منهم ، ولعنوم على متابريهم ، ودعوا للقائم بأمر الله العباسي (٢) .

ونلاحظ أن المعز بن باديس تأخر عن حماد بن بلقين في الانعصال عن الدولة الفاطمية ، فان ابن خلدون يذكر أنه « خالف دعوة باديس ، وقتل الرافضة ، وأظهر السنة ، ورضى عن الشيخين ، ونفذ طاعة العبيديين جملة » ، وراجع دعوة آل العباس ، وذلك سنة خمس وأربعمائة (٣) .

(١) سعد زغلول ، فترة حامية من ٢٥٥ ، عن النيجاني في الرحلة ، طبعة تونس ١٩٢٧

(٢) ابن عذارى ج ١ ص ١٦٦

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٥١

ويطلق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد على انفصال المغرب عن الدولة الفاطمية بقوله : « عندئذ تحطم كل أمل في إيجاد تسوية مناسبة ، فقد مضى الزمن الذي كان يوحى فيه المعز بقتل الشيعة ويرسل بهداياه وآيات خضوعه إلى القاهرة ، فيزد الحاكم بسجلات التشريف ، ولا يذكر ما كان من تابعه إلى الشيعة من القتل والاحراق » (١) .

(٣)

انتقام المستنصر بالله الفاطمي : غزو عرب الهلالية وبنى سليم لبلاد المغرب

١ - دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم في أرض المغرب :

أصل قبائل بنى هلال وبنى سليم من مضر ، وكانوا ما يزالوا متبدين منذ قيام الدولة العباسية ، ثم تجمعوا إلى الحجاز ، فنزل بنو سليم مما بين المدينة ، ونزل بنو هلال في جبل غزوان عند الطائف (١) . وكانوا يطرقون العراق والشام في رحلة الشتاء والصيف ، فيغيرون على أطراف البلاد ، ويفسدون العمران ، وكان بنو سليم يغيرون على الحجاج أيام الحج بمكة وزيارة المدينة ، ولم تستطع الخلافة العباسية أن تضع حدا لغاراتهم . فلما ظهر القرامطة ، انضم إليهم بنو سليم في حملة من انضم من بنى ربيعة بن عامر ، ودخلوا في جيوشهم في البحرين وعمان ، وقدموا معهم إلى الشام ، فلما قلب المعز لدين الله الفاطمي ، والعزیز بالله على القرامطة ، انسحب هؤلاء إلى البحرين ، ونقل العزیز بالله حلقاءهم من عرب بنى هلال وبنى سليم إلى مصر ، وأنزلهم في العدو الشرقية من النيل ، فاستقروا هناك ، ولكنهم كانوا عنصرا هداما في البلاد ، فماتوا في الصعيد فسادا . وكانت قبائل بنى هلال تضم أحياء من جشم والأنبج وزغبة ورياح وربيعة وعدى . وكانت هذه القبائل في عصر المستنصر بالله في حرب مستمرة فيما بينها ، وقد عم ضررهم ، واحرق البلاد والدولة شررهم (٢) . فأشار الوزير أبو محمد الحسن بن علي

(١) الخريزى ، انماط الحما ، الرقم السابق من ٢٢٤ - ابن خلدون ، ج ١ ص ٢٧

(٢) ابن خلدون ، ج ١ ص ٣٠

اليازورى على انستصر باصطناعهم ، واستخدام مشايخهم ، وتولييتهم أعمالاً إفريقية ، ودفعهم إلى محاربة الصنهاجيين ، فإذا ما انقصروا عليهم أصبحوا أعواناً للدولة وعمالاً بلك البلاد ، وأمر عرب البادية أهون من صنهاجة الملوك ، وإذا هزموا فإنه بذلك يتخلص من عنصر مدمر في مصر ، دون أن يحكلف أى مشقة في محاربتهم أو محاربة الصنهاجيين . واقتنع الخليفة المستنصر بالله بوجاهة هذا الرأى ، وكان يتحرق شوقاً إلى الانتقام من بنى زيرى المارقين . فأحضر الوزير ، مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن ملهم بن دينار العقيلي أمير أمراء الدولة ، وكان معروفاً بكيافته ، وحسن رأيه ، وسيره إلى زغبة ورياح من بطون هلال بخلع سنية ، وإتمام كثيرة وأمره أن يصلح ما بينهما ، ويتولى دفع ما عليها من ديات^(١) . فلما تم له ذلك ، وصل حاميتهم بغير ودينار لكل فرد منهم ، وأباح لهم إجازة النيل ، وكان لا يسمح لهم بذلك ، فجاز منهم عدد كبير دون أن يوصيهم بشئ . ، ولعله أنهم لا يحتاجون لوصية^(٢) . وذكر ابن خلدون أن اليازورى قال لهم : « قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكن الصنهاجى ، العبد الآبق ، فلا تفقدونه ، ثم كتب إلى المعز : « أما بعد فقد أرسلنا إليك خيولاً وحملاً علينا رجالاً فحولاً ، ليقتضى الله أمراً كان مفعولاً^(٣) . وسارت هذه القبائل إلى برقة فوجدوها خالية ، إذ كان المعز قد آباد معظم سكانها من زفانة ، فزل العرب برقة ، واحترق المعز شأنهم ، واستكثر من شراء العبيد حتى كثر

(١) التزيرى ، اتباط المختار ، ضبة ص ٢٢٣

(٢) ابن عسارى ، ج ١ ص ١٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٤ ص ١٦١ ، ج ٦ ص ٣١

منهم فرقة يبلغ عددها ٣٠ ألفاً^(١).

وفي أثناء ذلك كتب العرب النازلون بيرة إلى إخوانهم بشرق النيل يرغبونهم في البلاد ، فأجازوا إليهم ، واستقر بنو سليم بيرة ، وخبروا المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا وسرت أما هلال فسار جميع بطونها إلى إفريقية « كالجراد المنتشر لا يمرون على شيء إلا أتوا عليه »^(٢) ، فوصلوا إليها في سنة ٤٣ هـ ، وكان أول من وصل من بني هلال مؤنس بن يحيى الرياحي أمير رياح ، فقدم على المعز ، وكان المعز قد سئم صنهاجة ، فأراد أن يستبدلهم بعنصر آخر ، فاستلطف مؤنسا ، وكان سيدا في قومه ، شجاعا حاقلا ، فاستدأه المعز إليه ، وزوجه من إحدى بناته ، وفأوضه في استدعاء حرب بن هلال من إطرابلس وحدود إفريقية ليستعين بهم على بني عمه^(٣) ، فصححه مؤنس بعدم التفكير في ذلك ، وعرفه بقلّة اجتماعهم على الكلمة ، وعدم انقيادهم إلى الطاعة ، ولكنه ألح عليه إلحاحا متواصلا ، وعلل امتناعه من استقدامهم إلى إفريقية بحسده لقومه ، فلم يسع مؤنس أمام هذا الإلحاح إلا أن يدعوهم .

ب - هزيمة جيوش المعز على أيدي العرب :

ما كاد عرب بني هلال يصلون إلى نواحي إفريقية حتى عاثوا فيها فساداً ، فغضب الأمر على المعز ، وظن أن مؤنس إنما دفعهم إلى ذلك ، فأمر بالقبض على أخى مؤنس وبشقات أولاده ، وختم على داره بالقيروان ،

(١) المرجع السابق ، ج ٤ ، ص ١٣١

(٢) نفس المرجع ج ٦ ، ص ٣١

(٣) ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٤١٧ - ابن خلدون ، ج ٦ ، ص ٣٢

وبعث يستنجد ببنى عمه بقلعة حماد، فبعث إليه القائد بن حماد كتيبة من ألف فارس، واستنفر المعز قبيلة زناتة، فقدم إليه المستنصر بن خزرون المفاوى في ألف فارس من زناتة (١)، وعزم المعز على المبادرة بمحاربة العرب قبل أن يستفحل خطرهم، فخرج بجيوشه من صنهاجة وزناتة والبربر والعبيد وبهايا عرب الفتح، فبلغ عدد جيوشه ثلاثين ألفاً (٢)، واشتبك مع عرب بنى هلال من رياح وزغبة وعدى بالقرب من حيدران من جهة قابس في ذى الحجة سنة ٤٤٣ هـ، ولكن العرب البلديين الذين كانوا في جيش المعز آثروا الانضمام إلى إخوانهم في الجنس، فأنحازوا إلى صفوف الهلالية، أما زناتة وصنهاجة فقد خذلوهم وفروا، فانهزم المعز هزيمة نكراء، وصمد أمام العرب إلى أن وصلت رماحهم إليه، وقتل من عبيده عدد كبير، فحرق نفسه وخاصة إلى القيروان، واقتضى عرب الهلالية على مضارب المعز ومخيماته، فاقبضوها، وكان فيها من الذهب والفضة والأمتعة والأثاث والكراع أعداد هائلة، وكان فيها من الأخبية ما يتجاوز عشرة آلاف، ومن الجمال نحو ١٠ آلاف

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٢

(٢) ذكر ابن عذارى نقلاً عن ابن شرف أن عسكر المزكاك يتألف من ثمانين ألف فارس ونحو ذلك من المشاة، وكان عدد فرسان عرب الهلالية ثلاثين ألفاً، وعدد مشاتهم نحو ذلك (ابن عذارى، ج ١ ص ١٢٠)، وأغلب الظن أن عدة جيش المعز لم تكن تتجاوز ثلاثين ألف مقاتل استناداً إلى قول علي بن رزق الرياحي بعد هزيمة المعز:

لقد زار دها من أمم خيال . . وأبدي الطامايا بالرميل مجال
وان ابن باديس لأفضل مالك . . لسرى ولكن ما لديه مجال
ثلاثون ألفاً منهم هزمتهم . . ثلاث آلاف وذلك ضلال

(ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٣)

ومن البغال مالا يحصى^(١). وقتل من الصنهاجيين وأتباع المعز على ما ذكره ابن خلدون ثلاثة آلاف، وثلاثمائة مقاتل^(٢). وفر معظم فلول جيش المعز في جبل حيدران، ثم توافدت على القيروان طلائع المنهزمين، وفي مقدمتهم ابن اللبواب، ووصل العرب إلى نواحي القيروان وشوا خيولهم إلى ضواحي المدينة وقراها، يفسدون مزارعها ويدمرون عمرانها، وفر سكان هذه المناطق إلى القيروان. فأمر المعز بأن يتقل أهل صيرة وسوقتها إلى القيروان، وأن يتقل جميع عسكره من الصنهاجيين إلى صيرة وينزلوا في أبييتها وأسواقها، ولما دخل العيد وعسكر صنهاجة صيرة، أساءوا استخدام ميانها، فخرت عمارتها العظيمة^(٣)، وأقبلت جيوش العرب إلى القيروان فحاصرتها، وخرج بعض الأهالي من القيروان بقصد محاربة العرب خارج باب تونس، فحمل عليهم فرسان العرب، وتمكنت منهم سيوفهم ورمحهم، فعمدوهم حصدا، وأبادوهم^(٤).

وأقام العرب يحاصرون القيروان وينهبون البلاد حتى أتوا على عمران إفريقية، وأدار للمعز على القيروان سورا داخلية سنة ٥٤٤٦ هـ (٥). وكان حرب بن هلال، قد استولوا على باجة وقابس وقسنطينة وتونس وبونة، فلما رأى المعز ضياع ملكه، صاهر بناته ثلاثة من أمراء العرب هم فارس بن

(١) ابن عسار، ج ١ ص ٤١٩

(٢) ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٣

(٣) ابن عسار، ص ٤٢٢

(٤) تلي المرجع، ص ٤٢٢

(٥) ابن خلدون، ج ٤ ص ١٣٢

أبي الفيث ، وأخاه عائذاً ، والفضل بن أبي علي المرداسي (١) ، وفي سنة ٤٤٨ بعث ابنه تميم إلى المهديّة ، وفي شهر رمضان من العام التالي ركب المعز مع مؤنس بن يحيى أمير رباح إلى المهديّة ونزلها ، ودخل العرب الفقير وان فاستباحوها ، وخرّبوا أعمرائها ومبانيها ، وعانوا في محاسنها ، وطمسوا معالمها ، وجردوا قصورها مما كانت تحتويه من روائع وتحف ، وشملوا بالعيث والنهب كل من بقى فيها من أهلها ، ففرق الناس في الأقطار (٢) .

وقضى المعز بن باديس السنوات الباقية من عمره حزينا في المهديّة ، إلى أن توفى في أوائل سنة ٤٥٤ هـ ، ودفن في رباط المنستير (٣) . وخلفه ابنه تميم ، الذي اقتصر ملكه على شريط ضيق من الساحل يحيط بالمهديّة ، ويشمل المهديّة وأحوازها وسفاس وقابس وجزيرة جربة (أنظر خريطة رقم ١٢٦١) .

ج - نتائج غزو الهلالية للمغرب :

١ - نتج عن انحسار ملك الدولة الصنهاجية في إفريقيا إلى الساحل ، بسبب الضغط الذي كانت تمارسه قبائل العرب على المدن الداخلية ، عناية الصنهاجيين بشؤون البحر ، فأسس تميم بن المعز أسطولا ضخما يدار للصناعة بالمهديّة ، وقام هو وابنه يحيى بن تميم من بعده بالفارات البحرية المتواصلة على جزيرة صقلية وعلى السواحل الإيطالية (٤) ، وكان دخول صقلية في فلك

(١) المرجع السابق ، ج ٦ ص ٣٤

(٢) نفس المرجع ، ج ٦ ص ٣٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٧٧

(٤) مختار الباعدي ، سياسة الناطقين ، ص ٢٢٠

النورمانديين قد دفع كثيرا من رجال البحر المسلمين إلى الهجرة منها إلى المهدية . واشتغالهم بأعمال القرصنة البحرية . وقد قام يحيى بن تميم بن المعز (٥٠١-٥٠٩) بدور كبير في هذه الغارات ، « فقد كانت له غزوات بحرية عملها إلى بلاد الروم إلى أن طلبوا سلمه » (١) . ففي سنة ٥٠٣ هـ جرد من أسطوله خمسة عشر غرابا لغزو بلاد الروم ، فأصيب منها ستة . ومادت السفن الباقية إلى المهدية (٢) ، وفي سنة ٥٠٧ هـ ، أغار أسطول المهدية على بلاد الروم وعاد بسبى كثير في ربيع الآخر ، وقد كان لهذه الغارات أثر كبير في قيام النورمانديين بتوجيه ضرباتهم إلى المهدية ، وانتهى الأمر باستيلائهم على جربة في سنة ٥١١ هـ ، وسفاقس في سنة ٥١٨ هـ ، وبونة والمهدية في سنة ٥١٣ هـ ، وزويلة في سنة ٥٥٢ هـ .

٢ - نتج عن تخريب العرب للبلاد وعيشتهم فيها قيام فترة من الاضطراب السياسي والاقتصادي في إفريقية والمغرب الأوسط ، فقد خرب للعرب العمران ، وأتوا على معالم الحضارة بإفريقية من زراعة وتجارة ومنشآت ، فخربت صيرة والقيروان وتونس وطينة والمسيلة وقلعة بني حماد ، واكتسحت كل بلاد إفريقية من طرابلس حتى حدود المغرب الأقصى موجة عاتية من الدمار ، تركت البلاد قاعا صفصفا (٣) .

٣ - كان لغزو المالكية للمغرب رغم مضاره ومساوئه الكثيرة فضل

(١) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، النسخ الثالث من ٨٠

(٢) ابن عذاري ، ج ١ من ٣٨

(٣) Marçais, la Berbérie musulmane, pp. 208-214

كبير في تعريب البلاد وتخفيف حدة اللهجات المحلية في القرى البرية التي لم تصل إليها بعد إشعاعات الحضارة العربية .

٤ - انقسمت بلاد المغرب إلى دول للطوائف على نحو ما حدث في الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية بقرطبة فقد استولى بنو هلال على المناطق الممتدة في الداخل من قابس إلى الغرب ، وظل بنو زيري يحتفظون بالمهدية وما يليها ، واستقر بنو حماد في بجاية ، واستقل حو بن ومليل البرغواطي ، الذي تحالف مع العرب من زغبة ورياح وعدى والابيج ، في سفاقس ، واستقل ابن خراسان بنونس سنة ٨٤٥٨ ، واستقل مومى بن يحيى بقابس ، واستقل حاكم قفصة الزيري بها بعد أن خرج على سيده واستعان بالعرب لتوسيع نفوذه في مقابل جزية سنوية.

(٤)

استيلاء النورماندين على المهديّة

١ - غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها:

سقطت صقلية في أيدي النورماندين عقب نزاع قام بين ابن الفتنه لللقب بالقادر بالله صاحب طرابنش Trapani وبين صهره القائد ابن الحواس على بن نعمة صاحب قطانية وسرقوسة ، فاستنجد ابن الفتنه بالنورماندين المقيمين بقلورية في كالابريا سنة ٤٤٤ هـ ، وسجل دخوله لهم على مسرح الاحداث بصقلية ضياع هذه الجزيرة ، من أيدي المسلمين ، وقد تمكن روجار النورمندی من بسط سلطانه على الجزيرة تدريجيا ، واستنجد أهل صقلية بالعزيز بن باديس ضد روجار ، فجمع الأمير عدداً من سفنه ، وأبحر قاصدا صقلية ، ولكن ماصفة عاتية أغرقت سفنه عند قوصره ، وكانت هذه الكارثة ضربة قاضية لآماله ، فقد استطاع النورمانديون السيطرة على معظم جزيرة صقلية ، بينما تمكن عرب المهلبية من التغلب على معظم إفريقيا . وحاول الأمير تميم استرجاع الجزيرة ، فأرسل ولديه أيوبا وعلياً إلى صقلية ، ولكن عبيدهما سببا قيام فتنة في الجزيرة ، فاضطر أيوب وعلي إلى العودة إلى المغرب ، سنة ٤٦١ هـ تاركين صقلية لاصهرها انعمس^(١) . وفي سنة ٤٦٤ خرج ابن الحراس بأهله وماله صلح ، وتملك روجار كل الجزيرة^(٢) ، باستثناء مدينتي قصر يانه وجرجنت ، اللتين حاصرهما النورمانديون حصاراً شديداً ،

(١) ابن الاثير ، ج ٨ ص ١٥٨

Marçais, la Berbérie musulmane, pp. 219-220

(٢) ابن خلدون ، ج ٤ ص ٤٥٠

حتى ضاق الأمر على أهلها فأكلوا الميتة ولم يبق لديهم ما يأكلونه، واضطر أهل جرجنت إلى التسليم . أما قصر بانة فظلت بعدها ثلاث سنوات ، فلما اشتد الأمر على أهلها أذعنوا إلى التسليم ، فتسلمها النورمانديون في سنة ٤٨٤ هـ (١) .

وقد ذكرنا من قبل كيف أرغمت الظروف خلفاء المعز بن باديس في المهدي على اصطناع سياسة بحرية ، وكيف كانوا يغيرون على السواحل الإيطالية ، وعلى جزر سرديانية وصقلية ، وكانت هذه الغارات البحرية نوما من الجهاد ضد النصارى ، وكانت الاعتداءات الزيرية على بلاد النصارى قد بلغت ذروتها في عهد تميم بن المعز ، بحيث اضطرت الدول التي تعرضت لغاراته إلى الاتفاق فيما بينها على القيام بعمل مشترك لتأديبه . وشجع البابا فكتور الثالث على تكوين طائفة من رجال البحر من البيزنطيين والجنوبيين للإغارة على السواحل الإفريقية ، ردا على غارات الزيريين : ففي سنة ٤٨٠ هـ قدم « أهل جنوة وبيشة » (٢) في أسطول يتألف من ٣٠٠ سفينة تحمل ٣٠ ألف مقاتل لمحاصرة المهدي ، فاستولوا على المهدي وزويلة ، وأحرقوا ديارما ، وقتلوا السكان فيها ، وبطل ابن عذارى دخولهم في هاتين المدينتين « بغية عسكر سلطانها عنها ، ومفاجأة الروم قبل استقدامه إليها ، وأخذ الأهبة للقائهم ، وخلو كافة الناس من الأسلحة والعدد ، وقصر الأسوار وتهدمها ، وتكذيب تميم بنحيم ، وسوء تدبير عبد الله بن منكور معول في أمور الدولة في قصده مخالفة قائد الأسطول في الخروج إليهم للقائهم في

(١) ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٥٩

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣١ - ابن الأثير ، ج ٨ ص ١٤٧ - ابن خلدون ، ج ٦

ص ٣٢٨ - ابن المطيب ، ص ٨٧

لئلا ومنعهم من النزول في البر ، فكان ذلك كله سبب تخليهم على اللدنيين
المهدية وزويلة ، ونهبهم إياها ، وقتلهم الناس فيها ، وإحراقهم بالنار ما هو
مشهور بالمهدية إلى الآن ، وقد استوعب ذلك أبو الحسن الجداد في قصيدته
التي أولها :

أني بلم الخيال أو يقف
وبين أجفاننا نوى الدنف
غزا حمانا المدو في عدد
هم الدين كثرة أو ألف
عشرون ألفا ونصفها ائتلقوا
من كل أوب وليت ما ائتلقوا
جاؤوا على غرة إلى قصر
قد جهلوا في الحروب ما عرفوا (١)

ولجأ تميم إلى قصر المهدي ، ثم فاضهم في الصلح ، واضطر إلى تقديم
مائة ألف دينار إلى الغزاة نظير تنازلهم عنها ، فدفع هذا المبلغ بين فاض
وأواني ذهب وقضبة ، فأقلعوا بذلك كله وبعدد عظيم من أسارى المسلمين
رجالا ونساء (٢) . وأحدثت هذه الغزوة الإيطالية دويا هائلا عند المسلمين .
وقد أطاد الروم الكرة مرة أخرى في سنة ٤٩٨ هـ ، فقدموا في أجفان كثيرة
جيرية تعرف بالشواني ، و ٢٣ مركبا ، ويذكر ابن عذارى أنهم كانوا

(١) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٣٢

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٨ - ابن الخطيب ، القسم الثالث من (أحوال الأعلام)

يهدفون إلى إيجاد فرصة لدخول للمدية كالمرّة السابقة ، و تقصدوا إلى باب دار الصناعة ليمنعوا أسطول للمدية من الخروج إليهم ، غلب ظنهم ، وخرج أسطول للمدية إليهم فهزموهم ، وقتلوا كثيرا منهم « (١) .

ولكن هذه الغزوات الرومية لم تعرقل حركة الجهاد البحري الإسلامي ، فقد صرف يحيى بن تميم هم « إلى غزو النصارى في الأساطيل البحرية ، فاستكثر منها ، واستبلغ في اقتنائها ، وردد البعوث إلى دار الحرب فيها حتى اتقته أمم النصرانية بالجزى من وراء البحر من بلاد الفرنجة وجنوة و سردينيا » (٢) .

ب - سقوط المدية في أيدي النورماندين :

كان تميم قد عقد بينه وبين روجار الأول هدنة في سنة ٩١٨ هـ ، وظلت هذه الهدنة قائمة في عهد تميم وابنه يحيى ثم على ، غير أن المناهضات التجارية بين صقلية والمدية أدت في النهاية إلى خرق الهدنة (٣) . وحدثت بين روجار وعلى بن يحيى بن تميم جفوة شديدة كان سببها خلافا حدث بين على ابن يحيى ورافع بن كامل بن جامع الرياحي ، بسبب رغبته في احتكار التجارة البحرية ، وقد أدى هذا الخلاف إلى خروج على لحصار رافع في قابس سنة ٩١٩ هـ ، ودون بعض قبائل العرب ، فاستعان رافع بروجار صاحب صقلية الذي أمد رافع بأسطول صقلي أغار به على المدية ، فتمكن على بن

(١) ابن خلدون ، ص ٤٣٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٢٩

(٣) Marçais, la Barbarie, p. 221

يحمي من هزيمة أسطول صقلية بساحل قابس^(١) ، وبدأ منذ ذلك الحين يدعم أسطوله ويقويه استعدادا للحرب . ولما كان على يدرك تماما عدم قدرته على مواجهة روجار وحده ، فند كاتب المرابطين بمراكش للاجتماع معه على الدخول إلى صقلية وكف روجار عما يعتزمه (٢) . ويذكر ابن عذارى أن رجار صاحب صقلية أرسل في سنة ٥٢٩ هـ رسولا إلى الأمير علي بن يحيى « يلتمس تجديد العقود وتأكيدها » ويطلب أموالا كانت له موقفه بالمهدية وذلك بعنف وغلظة ، فرد على رسوله دون جواب ، وجهه بالقول ، فزادت الوحشة بينه وبين رجار ، فأوسع شرا ، وحاول بعد ذلك مكرا ، (٣) .

وتوفي علي وخلفه ابنه الحسن آخر أسراء بني زيري ، وحدث في عهده أن قام أبو عبد الله بن ميمون ، قائد أسطول علي بن يوسف بن ناشفين بالانغارة سنة ٥٩٦ هـ على جزيرة صقلية ، فافتتح مدينة نقوطرة Nicotara ، من عمل رجار الثاني ، وسى نساءها وأطفالها ، وقتل شيوخها ، وسلب جميع ما وجد فيه ، فلم يشك روجار في أن المحرك لذلك والسبب له « هو أمير إفريقية الحسن بن علي ، لما تقدم بينه وبين أبيه من الوحشة العظيمة ، فاستنفر أهل بلاد الروم قاضية ، فالتأم له عالم يهد مثله كثرة ، فعلم بذلك الحسن بن علي ، فأمر بتسييد الأسرار ، وانخاذ

(١) ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٧٩ - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٠ ، ٢٤٢ - محمد المرزوقي

قابس ، القاهرة ١٩٦٢ ص ١٧٢

(٢) ابن عذارى ، ج ١ ص ٤٤٤ - ابن الأثير : ج ٨ ص ٢٧٩

(٣) ابن عذارى : ج ١ ص ٤٤٣

الأسلحة ، وحشد القبائل واستقدام العرب ، فجات الحفود من كل جهة
ومكان ، والناس متأهبون لما يطرقتهم منهم (١) .

اتخذت حملة روجار طابع الحملات الصليبية ، وأبحرت الحملة من ميناء
مرسالة بقيادة جرجى بن ميخائيل الأنطاكي وعبد الرحمن بن عبد العزيز ،
وكان جرجى نصرانيا هاجر من الشام بعد أن تعلم العربية ، وبرع في
الحساب ، فاصطنعه تيم ، فلما توفي تيم رحل جرجى إلى صقلية ، فاستخدمه
روجار على قيادة أسطوله ، فلما عزم روجار على حصار المهديّة ، بشه في
أسطوله سنة ٥١٦ المذكورة في ٣٠٠ جفن تحمل نحو ألف فارس ، ووصل
هذا الاسطول في أواخر جمادى الأولى سنة ٥١٧ هـ إلى ساحل إفريقية ،
فافتتح جرجى جزيرة قوصرة ، ثم قصد بأسطوله إلى ساحل المهديّة ،
واستولى على جزيرة الاحاسى وقصر الديماس في ٧ جمادى الآخرة ، ولكن
المسلمين تمكنوا من دخول الجزيرة وهزيمة الروم إلى أجفانهم ، وحاصروا
قصر الديماس ، فاضطر عسكر صقلية إلى طلب الأمان من الأمير الحسن ،
ولكن العرب الذين اشتركوا معه في تحرير الجزيرة رفضوا ذلك ، فخرج
الصقليين من القصر في منتصف جمادى الآخرة ، فأخذتهم السيوف ،
وأيدوا عن آخرهم (٢) . وأقلع الروم بمن فر من الجزيرة منهم في السفن
مائتين إلى صقلية .

أدرك رجار الثاني بعد هذه الهزيمة استحالة فتح المهديّة في ذلك الوقت ،

(١) المرجع السابق

(٢) نفس المرجع ص ٤٤٥ — ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣١

فأرجأ ذلك إلى فرصة مواتية ، وأخذ يعد العد للحملة أخرى . ولما أغار بنو حماد على المهديّة سنة ٥٣٠ هـ ، وحاصروها يحيى بن العزيز بالله صاحب بجاية بقواته برا وبحرا ، « صالح الحسن رجار ووصل يده به ، واستمد منه أسطوله » (١) ، فأمدّه رجار بعشرين ضفينة ، كما استنجد الحسن بأعراب بني هلال ، فقدوا لنجدته واضطرب يحيى بن العزيز إلى رفع الحصار عن المهديّة رغبا عنه ، والعودة بمحبته إلى بجاية . ومنذ ذلك الحين بدأ ملك صقلية يتطلع إلى الاستيلاء على مدن إفريقية التي خرجت على طاعة الحسن ابن علي ، فقد سير رجار أسطوله في سنة ٥٣٩ هـ إلى جزيرة جربة واستولى عليها (٢) ، وفي سنة ٥٣٩ هـ ، أغار جرجى الأنطاكي على مرسى المهديّة في ٢٥ غرابا ، واستولى على ما كان راسيا به من سفن (٣) ، وفي العام التالي ، أغار أسطول صقلية على طرابلس ، ولكن النورمان لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها لحصانتها وشدة دفاع أهلها عنها . وفي سنة ٥٣٨ هـ هاجم أسطول النورمان مدينة سفاقس واستولوا عليها ، وأصبحت سفاقس تابعة لملك صقلية ، وفي نفس هذه السنة استولى النورمان على بونة وجيجل ، وتمكنوا من الاستيلاء كذلك على برشك في العام التالي (٤) . ثم سار أسطولهم بعد ذلك إلى سواحل إفريقية وتمكنوا من الاستيلاء على جزيرة قرقة سنة ٥٤٠ هـ ، وقتلوا رجالها ، دسبوا حريمها . فأرسل الحسن إلى رجار يذكره بالعهود القائمة بينهما ، ويحثه على نقض هذه العهود ، فاعتذر

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣١

(٢) ابن عسارى ج ١ ص ٤٥٠

(٣) تقي المرحوم ص ٤٥١

(٤) ابن الأثير ج ١ ص ١٠

له رجار بأنه لم يهاجم إلا البلاد التي خرجت على طاعة الحسن ، وأنه مازال حافظا للعهود (١) .

ثم أعاد النورمان الكرة على طرابلس مرة ثانية في سنة ٥٤١ هـ وحاصروها بقيادة جرجى الأنطاكي . وأتفق أن دب الخلاف بين المدافعين عن المدينة ، فاستغل النورمان ذلك واستولوا عليها (٢) . وفي سنة ٥٤٢ هـ ثار أهل قابس على يوسف مولى محمد بن رشيد بن كامل بن جامع ، فاستنجد يوسف برجار ، فقدم أسطول النورمان إلى مدينة قابس ، وفي الوقت نفسه تدخل الحسن بن علي في النزاع القائم بين الأهالي ويوسف ، لمصلحة الأهالي ، وانتهى الأمر بمقتل يوسف . فاتخذ رجار من مقتل حليفه ذريعة لتفرض الهدنة بينه وبين الحسن ، ومهاجمة المهديّة ، وكان قد عقد مع الحسن صلحا لمدة سنتين ، ويذكر ابن الأثير أن رجار « علم أنه فاته فتح البلاد في هذه الشدة التي أصابهم ، وكانت الشدة دوام الفلاء في جميع المغرب من سنة سبع وثلاثين إلى هذه السنة (٥٤٣) . وكان أشد ذلك منه سنة ٥٤٢ ، فان الناس فارقوا البلاد والقرى ، ودخل أكثرهم إلى مدينة صقلية ، وأكل الناس بعضهم بعضا ، وكثر الموت في الناس ، فاغتنم رجار هذه السنة ، فعمر أسطوله ، وأكثر منه ، فبلغ نحو ٢٥٠ شنبيا مملوءة رجالا وسلاحا وقوتا ، وسار الأسطول عن صقلية ، ووصل إلى جزيرة قوصرة ، وهي ما بين المهديّة وصقلية ، فصدفوا بها مركبا وصل من المهديّة ، فأخذ أهله ، وأحضروا بين يدي جرجى مقدم الأسطول ، فسألهم من حال إفريقية ،

(١) تمس المرجع ص ١١

(٢) تمس المرجع ص ١٢

ووجد في المركب قصص حمام ، فسألهم : هل أرسلوا منها ، فحلفوا بالله أنهم لم يرسلوا شيئا ، فأمر الرجل الذي كان الحمام صحبته أن يكتب بخطه : إننا لما وصلنا جزيرة قوصرة ، وجدنا بها مراكب من صقلية ، فسألناهم عن الأسطول المخدول ، فذكروا أنه أفلح إلى جزائر القسطنطينية ، وأطلق الحمام ، فوصل إلى المهديّة ، فسر الأمير الحسن والناس ، وأراد جرجى بذلك أن يصل بغتة ، ووصل الأسطول النورمندی إلى المهديّة في أواخر سنة ٥٥٣ هـ ، وخادع أهلها بأنه إنما جاء مدداً للأمير ، ودخل النورمان المهديّة بدون مقاومة ، واحتل جرجى قصر الأمير فوجده كما هو بكل ما فيه من ذخائر ، فأمن الناس ، ثم أرسل من هناك أسطولا إلى سفاقس ، فاستولى عليها ، وأتبعها يسوسة ، وأصبحت بلاد الساحل كلها تابعة للملك صقلية (١) .

أما الأمير الحسن بن علي فقد خرج من المهديّة بحاشيته ، وتبعه أهل المدينة ، فاتجه إلى قلعة محرز بن زياد بقرطاجنة ، فلم يرحب به محرز صاحبها ، فعزم على الرحيل إلى مصر ، والإقامة في كنف الحافظ عبد المجيد (٢) . فترصد له جرجى الانطكاكي في البحر ، فاضطر إلى الرحيل نحو قسنطينة ، وكان بها سبع بن العزيز أخى يحيى صاحب بجاية ، فأرسله إلى جزائري مزغنة حيث أقام بها إلى أن فتح الموحدون الجزائر سنة ٥٤٧ هـ فأكرمه عبد المؤمن ، واشترك معه بعد ذلك في منازلة المهديّة ، فلما اقتصمها في ١٠ محرم سنة ٥٥٥ هـ ، أسكن بها الحسن (٣) .

(١) ابن الأثير ، ج ٩ ص ١٨ - ٢٠

(٢) كان يحيى بن تميم قد دخل في طاعة الميدين ، ووصلته الخاطبات والهدايا (ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٨) . وفي تهاديته على وصوله رسول الخليفة الناصر من مصر بالخطبات والهدايا سنة ٥١١ هـ (ابن عذاري ، ص ٤٤٢ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٩)

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٣

(٥)

انقراض دولة بني حماد

رأينا أن قبل كيف انقسمت دولة الصنهاجيين في المغرب منذ عهد نصير الدولة باديس بن المنصور بن بلكين سنة ٤٠٥ هـ إلى شعبتين : شعبة من آل باديس وكان مقرم المهديّة ، وشعبة من آل حماد بن بلكين ، وكان مقرم قلعة حماد ثم انتقلوا بعد ذلك إلى بجاية ، التي بنيت من جديد في عهد الناصر ابن علناس بن حماد سنة ٤٥٧ هـ . وقد رأينا أن المنصور بلكين كان قد عقد لأخيه حماد على أشير والمسيلة ، وكان يتداول ولايتها مع أخيه بطوف وعه أبي البهار ، ثم استقل بها سنة ٣٨٧ هـ في عهد باديس بن المنصور . وكان المنصور قد عهد إليه بحاربة زناته سنة ٣٩٥ هـ ، بالمغرب الأوسط نظير ولاية أشير والمغرب الأوسط وكل بلد يفتحه ، وقد بذل حماد جهودا موفقة في محاربة زناته ، واختط مدينة القلعة بجبل كتامة سنة ٣٩٨ هـ ، ونقل إليها جماعة من أهل المسيلة وأهل جراوة ، ومصر القلعة ، وشيد بيانيها وأسوارها ، فازدهرت في عهده وأصبحت مركز الرحلة . وغاية طلاب العلم ، وأرباب الصنائع (١) ، وظل حماد يفتح الحصون والبلاط ويضمها إلى ولايته ، فافتتح تيجس وقسنطينة وغيرها ، فلما طالبه باديس بالتخلي عن هاتين المدينتين ، أبي وخالف دعوة باديس ، ونفذ طاعة الفاطميين كذلك . وزحف إلى باجة واستولى عليها ، فحاربه باديس في سنة ٤٠٩ هـ ، وظل مقبلا على محاربه إلى أن توفي . فلما تولى المعز بن باديس الإمارة ، تم الصلح بينه وبين حماد ، على أن يستقل هذا المغرب الأوسط .

ولما توفي حماد في سنة ٤١٩ هـ ، خلفه ابنه القائد ، وكان القائد بن حماد شديد الرأي ، حسن السيرة ، فاستقام له أمر المغرب الأوسط ، وسار القائد على نهج أبيه حماد في الخروج على طاعة الفاطميين . وتوفي القائد في سنة ٤٤٦ هـ ، فخلفه ابنه محسن ، ولكن محسن لم ينعم بالامارة أكثر من تسعة شهور ثم قتل يده عمه بلكين بن محمد بن حماد ، وكان بلكين سفاكا للدماء ، فقتل وزير ابن أخيه محسن ، ثم قتل والي بسكرة لما أحس بخروجه عليه ، ثم قتل تاميرت بنت عمه علناس بن حماد . وقد حارب بلكين المرابطين ، واستولى على فاس سنة ٤٥٤ هـ ، ثم عاد إلى القلعة ، ولكنه قتل على يد الناصر بن علناس انتقاما منه لقتله أخته تاميرت (١) . وخلفه الناصر بن علناس الذي تنسب إليه مدينة الناصرية ، وهي بجاية ، وأقام الناصر بها قصرا رائعا خارج بجاية يعرف بقصر اللؤلؤة (٢) ، وانتقل إليها في سنة ٤٦١ هـ . واتسع ملك الناصر بن علناس اتساعا كبيرا ، فبايعه أهل القيروان سنة ٤٦٠ هـ . ولما توفي في سنة ٤٨١ هـ خلفه ابنه المنصور الذي عرف بولعه بالبناء ، فأسس جامع بجاية ، وجدد قصورها ، وتأثق في اختطاط المباني ، وتشيد القصور ، وإجراء المياه في الرياض والبساتين ، فبنى في القلعة قصر الملك ، وقصر المنار ، وقصر الكوكب ، وقصر السلام وغيرها (٣) . وقد حارب المرابطين ، وحاصر تلمسان ، ثم تركها صلحا . وفي أيامه قدم عز الدولة بن صامح إلى بجاية ، بعد أن دخل المرابطون المربة ، فأقطعه تدلس بالجزائر .

ولما توفي المنصور ، سنة ٤٩٨ هـ ، خلفه ابنه باديس ، الذي لم يطل به

(١) المرجع السابق ، ص ٣٥٣ - ابن الخطيب ص ٨٨

(٢) نفس المرجع ص ٣٥٧ - ابن الخطيب ص ٩٦

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٥٨

العهد في الإمارة ، إذ تولى في نفس السنة التي تولى فيها . وخلفه أخوه
العزیز ، وفي عهد العزيز هاجم العرب الملالية قلعة بني حماد ، فاكسحوا
عمرانها ، وعظم عيهم بنواحيها ، ثم تولى بعده ابنه يحيى سنة ٥٩٥ هـ ،
وقد قضى يحيى حياته بين العبيد والملمين والمضحكين ، وفي عهده اقرضت
دولة بني حماد ، إذ تمكنت جيوش عبد المؤمن بن علي من دخول بحاية في
سنة ٥٩٧ هـ ، واستولوا كذلك على قلعة بني حماد .

الباب الرابع

المغرب الاسلامي في ظل دولتي المرابطين والموحدين

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين في المغرب

(١) تأسيس دولة المرابطين

أ - أصل المرابطين

ب - رباط عبد الله بن ياسين

ج - انطلاق المرابطين إلى المغرب الأقصى

د - ظهور يوسف بن تاشفين

(٢) تأسيس مراكش وقيام دولة المرابطين

(٣) المرابطون في الأندلس

أ - أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين

ب - موقعة الزلاقة

ج - تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس

د - جهاد المرابطين في الأندلس منذ دخولها في فلك دولتهم في المغرب

(٤) أسباب ضعف دولة المرابطين وانهارها

(٥) منشآت المرابطين في المغرب

أ - دور المرابطين السياسي والحضري في المغرب

ب - دراسة لآدم مساجد المرابطين في المغرب

ج - جامع القرويين بفاس

د - آثار القلاع والأسوار

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين في المغرب

(١)

تأسيس دولة المرابطين

١ - اصل المرابطين :

أخذ المغرب الإسلام يعتمد على نفسه منذ أن أعلن المعز بن باديس الانفصال السياسي والمذهبي عن الدولة الفاطمية ، وبينا كانت إفريقية في صراع متواصل مع عرب بني هلال وبني سليم من جهة ، والنورمان الغازين لسواحلها من جهة أخرى ، كانت هناك قوة جديدة أخذت تنبثق في أقصى جنوب للمغرب : الأقصى ، لها وراء جبال درن ، وما لبت أن تولدت منها دولة المرابطين الكبرى التي شملت النصف الغربي من بلاد المغرب ، وأنتقدت الإسلام الذي كانت تهدده للمسيحية بإسبانيا ، ودام عهدها نحو قرن من الزمان ، من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن السادس الهجري .

في الوقت الذي قدمت فيه حشود القبائل العربية من مصر تدمر في طريقها عمران طرابلس وإفريقية ، وتقتضى على معالم الحضارة في هذه البلاد ، خرجت قبيلة لمتونة الصنهاجية من جوف الصحراء ، واستقرت في المغرب الأقصى حيث أسست دولة كبرى هي دولة المرابطين .

وأصل المرابطين من صنهاجة الجنوب الضاربة في الصحراء . وقد أرغمت الظروف قبائلها : لمتونة وجدالة ومسونة على التحالف فيها بينها ، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر هذه القبائل ، ويمتد الدكتور حسن محود أن هذا

الحلف كان يرمى إلى مدافعة ملك غانة في الجنوب ، والسيطرة على مسالك تجارة السودان إلى المغرب بالاستيلاء على مدينة أودغشت (١) الواقعة إلى شمال الشرقي من تمبوكتو شمال نهر النيجر . وآلت رئاسة قبائل صنهاجة في أوائل القرن الخامس الهجري إلى محمد بن نيفات اللطفي ، وكان من أهل الفضل والدين والجهاد ، واستشهد في واقعة بين قومه وبين أهل السودان (٢) . ولا توفي انتقلت الرئاسة إلى قبيلة جدالة التي كانت أقدر على محاربة السودان لأن ديارها كانت أقرب إلى ديار السودان . فتولى أمر صنهاجة يحيى بن إبراهيم الجدالي ، وكان يحيى هذا متعطشا إلى علوم الدين التي حرم منها هو وقومه في هذه البقاع الصحراوية ، فأراد أن يسعى إلى طلب العلم والوقوف على أصول الدين الاسلامي في مدارس القيروان وقاس ، والاستزادة من العلوم الدينية ، فخرج من بلاده في سنة ٤٢٧ هـ بعد أن استخلف عليها ولده يحيى (٣) ، الحج أولا ، ثم لارتداد المراكز الثقافية في المغرب بحثا عن فقيه يتولى توجيه قومه توجيها دينيا سليما . فلما عاد من الحج سنة ٤٢٨ هـ ، نزل بالقيروان ، وكانت القيروان في هذه الفترة قد نبذت للمذهب الشيعي ، ومادت إلى السنية ، واسترجعت مكانتها القديمة كقاعدة للمالكية في المغرب ، وأتيح ليحيى في القيروان سماع عالم من أعظم أئمة المالكية وعلوم الدين ، هو الفقيه أبو عمران موسى بن الحاج الفقيحي القاسمي (٤) ، ويدعو أن يحيى بن

-
- (١) حسن أحمد محمد ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ م ، ص ١٠١ - ١٠٣ .
 (٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ص ٢٢٦ . وورد اسمه في روض القرطاس لمحمد بن تيفات المعروف بتار شتا ، بينما ذكره ابن خلدون باسم أبي عبيدة بن تيفات المعروف بأشعث اللتوتوي (ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٣)
 (٣) ابن أبي زرع ، روض القرطاس ص ٧٦
 (٤) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٢٤ - ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ٢٢٦

إبراهيم تأثر بجمال أبي عمران ، واجتذبه سحر بلاغته وفصاحته وتفقهه في الدين ، فطلب منه أن يبعث معه إلى قبيلته من يثق فيه من طلبته لهدايتهم وتبصيرهم ، فوجد منه قبولاً واستجابة ، فوجه أبو عمران الدعوة لهذه المهمة الكبرى إلى طلبته ، ولكنهم زهدوا في قبول هذه المهمة لبعد مواطن لمتونة عز بلادهم . وكان لأبي عمران فقيه بربري من طلبته يكرس حياته لهذه الرسالة السامية ، هو وجاج بن زلو المظلي ^(١) ، ويسميه ابن خلدون محمد وكاك ابن زلو المظلي ^(٢) ، وكان مقبلاً برباط أقامه ببلدة نفيس من بلاد السوس ^(٣) ، وما إن تلقى وجاج رسالة أستاذه أبي عمران حتى انتدب ليحيى بن إبراهيم طالباً صنهاجياً الأصل من جزولة ، من أهل الدين والفقه والتقوى ، يعرف بأسم عبد الله بن ياسين الجزولي ، ولم يتردد ابن ياسين في قبول هذه المهمة إذ اعتبرها من صميم رسالته في الجهاد ونشر تعاليم الإسلام الصحيحة بين سكان هذه النواحي الذين حرموا من نعمة المعرفة والعلم .

ومضى يحيى بن إبراهيم ، أمير جدالة ، يصحبه عبد الله بن ياسين إلى مضارب لمتونة ، فأعجب به شيوخها ، واحتفلوا بقدومه ، وأقبلوا عليه للمباح والتعصيل ، وشرع عبد الله بن ياسين في تثقيفهم وإرشادهم إلى الأصول الصحيحة للدين والفقه ، ولم تقف تعاليمه إلى هذا الحد ، بل عمد إلى تقويم أخلاقهم ، وتطبيق حدود الشريعة ، وتغيير المنكر ، ومقاومة شهوات النفس ،

(١) اللؤلؤ المرتبة ، ص ٩

(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤

(٣) اللؤلؤ المرتبة ، ص ٩ - ابن الخطيب ، ص ٢٢٧ . ويذكر ابن خلدون أنه كان

وعندئذ زهد الناس بهذه الأحكام والحدود ، وبرموا بدعوته الإصلاحية
الاخلاقية التي تدعو إلى إزالة المنكرات واجتناب المحذورات (١) ، لما
ألتزمه من الإقبال على أعمال السلب والنهب . ومع تدهورهم من هذه
التعاليم ، فقد احتملوا وجوده رهبة من رعيهم يحيى بن إبراهيم ، فلما
توفي يحيى لم يستطع خليفته يحيى بن عمر أن يمنع صنهجة من الاعتزال عن
ابن ياسين ، وترك الأخذ عنه ، فعزم ابن ياسين على الرحيل .

ب - وباط عبد الله بن ياسين :

خرج عبد الله بن ياسين قاصدا بلاد السودان حيث يمكنه أن يؤدي
رسالته بين أقوام أقل ضراوة من اللتونيين الصناهجة (٢) . وأبى رئيس
صنهجة إلا أن يرافقه ، ورحل معها أبو بكر بن عمر ، شقيق يحيى بن عمر .
فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بها الماء من جهاتها ، فدخلوا في غياضها
منفردين برسم الانقطاع للعبادة (٣) . وذكر ابن الخطيب أنه صحبهم سبعة
رجال من جدالة (٤) . ومن المرجح أن هذه الجزيرة التي قصدها ابن ياسين
وأتباعه تقع في السنغال الأدنى (٥) ، وهناك أسس عبد بن الله ياسين رباطا ،
والرباط من المراقبة ، أي ملازمة الثغور للجهاد حيث ترابط خيل المجاهدين ،
من قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٢٧

(٢) Marçais, la Barbarie musulmane, p. 239

(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٢٧ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٤

(٤) نفس المرجع ص ٢٢٧

(٥) Marçais, la Barbarie, p. 239

به عدو الله وعدوكم». فالرباط في الأصل هو المكان القوي يجتمع فيه الخيل استعدادا لمقاتلة العدو، وترتبط الكلمة بواجبات الجهاد، وحينئذ يقصد بالرباط ارتباط الخيل إزاء العدو في الثغور، ومنها جاء تصريف مرابط، أي الملازم لثغر العدو أخذاً من قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون». والرباط هو بناء يجتمع فيه من تفرغ للعبادة من الزهاد والمصلحين استعداداً للجهاد في سبيل الله ضد أعداء الدين، فهو بناء يجمع بين الصفتين الدينية والحربية، ويسمى من يسكنه مرابطاً^(١). وقد كان بناء الأربطة من أهم الأعمال التي يقوم بها الأمراء والخلفاء، فالاسكندرية كانت تعتبر ثغراً من الثغور الإسلامية التي يجاهد فيها المسلمون، ولذلك قسم عمرو بن العاص أجناده قسمين: قسم أبقاء معه في القسطنطينية، وقسم وزعه إلى نصفين، نصف لرباط الاسكندرية وحدها، والنصف الثاني لسائر السواحل. وكان عمر بن الخطاب يبعث كل سنة غازية من أهل المدينة لرباط في الاسكندرية^(٢). كذلك أهتم عثمان بن عفان برابطة الاسكندرية. وقد وصف ابن رسته رباطات الاسكندرية فقال: «بالاسكندرية رباطات مع الساحل يضربها البحر حيطانها تسمى المحارس»^(٣). كذلك كانت سواحل الشام مزودة بالمحارس والأربطة المشحونة بالمقاتلة، وكان معاوية يوجه إلى هذه الأربطة جماعات كثيفة من

(١) Marçais, Ribat, dans l'Encyclopédie de l'Islam

(٢) السيوطي (جلال الدين)، حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، ج ١ ص

٧١، طبع مصر ١٣٢٧ هـ

(٣) ابن رسته، (أبو علي أحمد بن عمر): كتاب الأعلام النبوية، الجزء السابع من

المكتبة الجغرافية العربية، ليد ١٨٨١ م ١١٨

الهند يشحنها بهم للدفاع عنها إذا ما أغار عليها الروم من جهة البحر (١) .
ولقد اهتم العباسيون ببناء الاربطة على سواحل المغرب، اهتماما كبيرا، وقد
أشرفنا إلى ذلك عند حديثنا عن منشآت الاغالبية .

تسامع بعبد الله بن ياسين كثير من الصالحين والراغبين في تحصيل
العلوم الدينية، فتسايولوا إليه، وأخذوا عنه، ولم يمض زمن طويل حتى
كان رباط ابن ياسين يضم نحو ألف رجل . وقد أخلص له هؤلاء الرجال
وأطاعوه طاعة عمياء، وعرفوا بالمرابطين . نسبة إلى رباط ابن ياسين،
الذي تلقوا فيه تكوينهم الروحي والحربي، وحولهم من رطة جمال إلى
طبقة من المجاهدين (٢)، فهم أهل الرباط الذين آلوا على أنفسهم منذ
انضمامهم إلى ابن ياسين التفاني في سبيل النهي عن المنكر، وقيل أنهم سموا
بالمرابطين لشدة صبرهم وحسن بلائهم (٣) . وعرفوا أيضا باللمثمين،
لانخاذم ثامنا داكن اللون يغطي الجزء الأدنى من وجوههم على نحو ما يفعله
الطوارق اليوم، كما عرفوا باللثونيين، نسبة إلى قبيلة لثونة التي كانت
تنزل الرئاسة على سائر قبائل صنهاجة الضاربة فيا وراء الرمال الصحراوية
جنوبي جبال درن .

وكان ابن ياسين يفرض على من يخالف تعاليمه عقوبات رادعة، ولذلك
فلن تعاليم للمرابطين تشبه إلى حد كبير تعاليم الموحدين الا باضية . وقد استطاع

(١) السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الاسلامي،

مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية عدد ١٦، ١٩٦٢ - ١٩٦٣ ص ٤٩

(٢) Marçais, la Berbérie, p. 232

(٣) الخلل الموشية، ص ١٠

عبد الله بن ياسين ، في أمد وجيز ، أن يؤلف جيشا محاربا جعل على قيادته صاحبه يحيى بن عمر ، وكان يحيى هذا مخلصا لدعوة ابن ياسين ، متفانيا في الطاعة له ، وهكذا كون ابن ياسين جيشا قويا ، وعندئذ شرع في نشر تعاليمه بين قبائل صنهاجة .

ج - انطلاق المرابطين آل للفرب الاقصى :

لما اكتمل عدد أتباع ابن ياسين ألفا ، جمعهم وقال : إن ألفا لن تغلب من قلة ، وقد تعين علينا القيام بالحق والدعاء إليه ، وحمل الكافة عليه ، فاخرجوا بنا لذلك ^(١) . وكان ابن ياسين يأمر أتباعه بمجاهد من خالفهم من قبائل صنهاجة على أن يثبوا الإعذار والإنذار سبعة أيام ، فلما يش من إجابتهم ، شرع في الغزو ، وبدأ بمجدالة فأوقع فيهم واقعة قتل فيها منهم نحو ستة آلاف رجل وأسلم باقيهم إسلاما حسنا ^(٢) . ومرعان ما خضعت لتوثة ومسوفة وجدالة ولطة وغيرها من قبائل صنهاجة المضاربة في الشمال حتى نهر درعة ، وأذعنت صنهاجة لطاعته ، واستقاموا على الاسلام الصحيح ، فساهم بالمرابطين .

وبلغ عبد الله بن ياسين عن طريق العقبة وجاج اللدلى ، ما نال المسلمين من الصف والجور على أيدي بني وانودين للقرابين ، أمراء سجلماسة ، وقد حرصهم وجاج على تغيير أمورهم ^(٣) . فخرج المرابطون من الصحراء في سنة ٤٤٥ في أعداد ضخمة ، واتجهوا إلى درعة ، فاصطدموا بجيش مسعود ابن وانودين أمير مفرزة ، وصاحب سجلماسة ودرعة ، فانهزم هزيمة نكراء

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٥

(٢) ابن الخليل ، ص ٢٢٨

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٢٢٥

وقتل في المعركة ، ودخل الرابطون مدينة سجلماسة ، واصلحوا من أحوالها
وغيروا المنكرات ، وأسقطوا المغارم والمكوس ، وبغضوا عمالهم على
الصدقات .

ثم تدفق الرابطون في موجات كالسحة إلى الواحات المغربية الواقعة بين
نهر درعة الأوسط وتافيلت ، إلا أن زفاته ، لم تحمل غزو الصنهاجة ،
فثارت تافيلت ، وخرجت سجلماسة على الرابطين ، فأعلن عبد الله بن
ياسين الجهاد ، وسار إلى قتال زفاته ، ولكن قائده يحيى بن عمر قتل في إحدى
المعارك سنة ٤٤٧ هـ ، فخلفه على القيادة أخوه أبو بكر بن عمر ، ثم تدعت
جيوش الرابطين بانضمام جزولة ولطة ، وقاتل الرابطون الشيعة الرافضة في
تارودانت ، وتمكنوا من افتتاحها واقتراح ماسة ، وبذلك استولوا على
السوس بأسره سنة ٤٤٨ هـ . وبعث أبو بكر ابن عمه يوسف بن تاشفين إلى
واحات درعة فنجح في استردادها فيما بين عامي ٤٤٨ هـ ، ٤٤٩ هـ ، وتوغل
الرابطون في هذا العام في الحوز ، واجتازوا أطلس الغربي ، واحتلوا بلاد
جدميوة ، وأمدت فتوحهم حتى وادي تلسيف من بلاد رجرجة .

ثم ولي الرابطون وجوهم شطر المغرب الجنوبي الشرقي ، فدخلوا مدينة
أغمات ومايلها سنة ٤٤٩ هـ ، وفر أميرها لقوط بن يوسف بن علي المصراوي
إلى تادلا ، وتدقت جيوشهم على بلاد للمصامدة بجبال درن ، فجاسوا
خلالها ، ثم غزوا تادلا ، واشتبكوا مع بني يفرن أصحابها في سنة ٤٥٠ هـ ،
وقتل في هذه المعارك لقوط بن يوسف صاحب أغمات .

ثم دعا الرابطون إلى جهاد برغواطة بتامستا وأتفا والريف الغربي ،
واستشهد عبد الله بن ياسين في إحدى المعارك بالقرب من وادي كرفلة سنة

٤٥٠ هـ . وذكر ابن الخطيب أن ابن ياسين أصيب في هذه المعركة بمجرح مميت ، فلما أحس بدنو أجله جمع أشياء صنهاجة وقال : « يا معشر المرابطين ، أنا ميت في يومى هذا ، وأنتم في بلاد أعدائكم ، فإياكم أن تحتشوا وتقتلوا وتذهب ريحكم ، كونوا ألفة على الحق ، وإخوانا في الله ، وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا ، وإني ذاهب عنكم ، فانظروا من ترضونه لأمركم ، يقود جيوشكم ، وبغزو أعداءكم ، ويقسم فيكم زكائكم ، وأعشاركم » (١) .
ولما توفي ابن ياسين تولى زعامة المرابطين الروحية بعده فقيه اسمه سليمان بن عدو ، ولكنه توفي بدوره في عام ٤٥١ هـ ، ولم يخلفه رئيس آخر ، وإنما توارث سلطته فقهاء المالكية الذين واصلوا تعاليم ابن ياسين ، وكانوا يوجهون الأمراء ويمر كونهم ، وخاصة في عهد الأمير علي بن يوسف .

ويبدو أن المرابطين أخذوا يخفون من غلوم في حركة الإصلاح التي قاموا بها ، وتحولت هذه الحركة الدينية تدريجياً إلى حركة سياسية ، كان الغرض منها السيطرة على المغرب .

ثم نازل أبو بكر بن عمر مدينة لوانة وافتتحها سنة ٤٥٢ هـ ، وقتل من كان بها من الأندلسيين ، غير أن هذه الفتوحات لم يكتب لها الاستمرار ، فقد حدث في هذه السنة شقاق بين لتونة ومسونة ببلاد الصحراء ، « حيث أصل أعياصهم ، ووشائج أعراقهم ، ومنيع عددهم » (٢) ، فغشى أبو بكر أن تفرق كلمتهم وتشتت جموعهم ، وتتصدع صفوفهم ، ورأى ضرورة السفر إلى الصحراء ليصلح بين القيلتين ، ويربأ الصدع ، وعهد إلى ابن عمه يوسف بن تاشفين بقيادة جيوش المرابطين في المغرب ، وفوض إليه قتال زفانة ، ثم مضى إلى الصحراء .

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٣٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٧٧

د - ظهور يوسف بن تاشفين :

اتفق في هذا الوقت أن قام بلكين بن محمد بن حماد بغزو المغرب الأقصى، وافتتح فاس سنة ٤٥٤ هـ (١)، ثم أخذ بعض رهائن من أهلها، وعاد بهم إلى قلعة، وكان القنوح بن دوناس بن حماسة قد تنازل عن فاس إلى ابن عمه معنصر بن المعز بن زبرى بن عطية، فبايعته قبائل مفرودة بفاس وأحوازها في رمضان سنة ٤٥٥ هـ. ولما قتل الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء، أقام يوسف بن تاشفين بأطراف المغرب، في سنة ٤٥٤ هـ، وعمد إلى تأسيس عاصمة للرايطيين بدلا من أغمات، لتكون مركزا لقواته في جنوب المغرب، واختار موقعها على ضفاف نهر تنسيقت، بين مدينتي أغمات وتقيس، حتى يهيأ لها مراقبة المصامدة. ثم تحرك يوسف في سنة ٤٥٥ هـ ليستأنف فتوحاته بعد أن استعرض قواته، « فكانوا أربعين ألفا، عقدهم على أربعة من القوادوم محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المدحفي، ومزدك التلكاتي، وسير بن أبي بكر اللتوني » (٢)، ثم زحف إلى أحواز فاس، وأبدى أميرها معنصر شجاعة عظيمة في مقاومة الرايطيين، فصابرهم وانتصر عليهم في إحدى المواقف، ولكن يوسف تمكن من دخول فاس صلحا في سنة ٤٥٥ هـ بعد أن فر عنها معنصر، وخلف يوسف عليها عامله، ثم مضى لمحاربة غمارة، وفتح كثيرا من حصونها وقلاعها، فاتهز معنصر فرصة قيامه بمحاصرة قلاع بلاد فازان (٣)، ودخل مدينة فاس، وقتل حامل

(١) ابن الخطيب، ص ٨٨

(٢) ابن الخطيب، ص ٢٣٤

(٣) ابن بطوطة، ج ٦ ص ٣٧٩

يوسف عليها ومن كان بها من المرابطين ، ولما بلغ يوسف ذلك سمر المهدي ابن يوسف الجزنائي أمير مكناسة ، وكان قد بايع يوسف بن تاشفين بالإمارة ، إلى فاس ، فهاجمه معنصر وقتله سنة ٤٥٦ هـ ، وكان يوسف وقتئذ مشغولا بمحاصرة قلعة مهدي من بلاد فازاز ، فوجه بعض قواته لمحاصرة فاس ، أما هو فقد مضى بفتح الحصون والمعاقل ، فنزل بلاد بني مران ونزلاوة وورغة سنة ٤٥٨ هـ ، ثم مضى إلى بلاد غمارة سنة ٤٦٠ هـ . وكانت قواته المحاصرة لفاس قد قطعت عنها المرافق حتى اشتد الأمر على أهلها ، وقتل معنصر أثناء إحدى الاشتباكات سنة ٤٦٠ هـ ، فخلفه ابنه تميم . ولما فرغ يوسف من أمر غمارة سنة ٤٦٢ هـ ، زحف إلى فاس ، وحاصرها أياما ثم اقتحمها التتبع الثاني سنة ٤٦٢ هـ (١) ، ودخلها بالسيف ، وقتل من أهلها سبعة آلاف نسمة من جملة سكانها وعددهم ٤٣ ألفا (٢) . وقيل أنه قتل ثلاثة آلاف من أهلها (٣) .

وفي هذه الأثناء كان أبو بكر بن عمر قد وطمد الأمان في الصحراء ، وأزال الخلاف القائم بين قومه . ثم عاد إلى المغرب الأقصى لاستئناف فتوحاته . ولكنه وجد يوسف قد استبد عليه . ويذكر ابن الخطيب أن يوسف لما قابل أبا بكر بن عمر ، « تلقاه راكبا لم ينزل له وعامله معاملة مختصرة ،

(١) قصص المرجم ، ص ٣٨٠ . وذكر صاحب الملل الوثنية أنه فتحها في سنة ٤٦٢ هـ (الملل ص ١٦) ، بينما يذكر ابن الأثير أنه فتحها في سنة ٤٦٢ (الروض القرطاس ، ص ٩١)

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣٦

(٣) التفتنسي ، ج ٥ ، ص ١٨٨ - السلاوي ، الاستنفا ج ٢ ص ٢٢٥

واستظهر من جيوشه بما هاله عدده ، وقال له ما تصنع بهذه الجيوش يا يوسف ؟ فقال : أستعين بها على من خالفنى . ونظر إلى بعير موقورة خلفه ، فقال : وما هذه الإبل ؟ فقال : جئتك بها بكل ما عندى من مال وكساء وطعام لتستعين به على الصحراء . فعرف قصده فى استمساكه بالأمر ، وتورع عن هياجه ، وقعد معه على الأرض ، وقال له : يا يوسف ، اتق الله فى المسلمين ، ولا تضيع شيئا من أمورك ، فانك مسؤول عنهم ، والله خليفى عليك وعليهم (١) . ثم مضى إلى الصحراء فى سنة ٥٤٦٥ هـ (٢) حيث استشهد فى إحدى معاركه ببلاد السودان (٣) .

ولما دخل يوسف مدينة فاس حصنها وأتقنها ، وأمر يهدم الأسوار التى كانت تفصل بين المدينتين ، وردهما مصرا واحدا ، وأدار عليها الأسوار ، وأمر ببناء المساجد فى أحوازها وأزقتها وشوارعها ، فإذا اكتشف زقاقا لا يقوم فيه مسجد عاقب أهله . وبنى بفاس الحمامات ، والمناطق ، والأرحاء ، وأصلح أسواقها (٤) .

(١) ابن الخطيب ، ص ٢٣٣

(٢) الخلل الموثقة ، ص ١١

(٣) ابن الخطيب ، ص ٢٣٣

(٤) روض القرمطاس ، ص ٩١ - ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٠

(٢)

تأسيس مراکش وقيام دولة المرابطين

يذكر صاحب الحلال الموشية أن الأمير أبا بكر بن عمر اللمتوني شرع في بناء مراکش في سنة ٤٠٢ هـ ، وكان موضعها خلافاً لأنيس به إلا الغزلان والنعام ، ولا يثبت إلا السدر والحنظل ، ويذكر أيضاً أن الناس أقاموا دورهم فيها دون أن يحيطوا بالمدينة بسور . وبضيف صاحب الحلال إلى ما سبق أن يوسف بن تاشفين أقام بها في سنة ٤٦٣ هـ الحصن المعروف بحصن قصر الحجر برجة مراکش ، وجعله بأدنى السرور وحصنه (١) .

ويكاد يجمع المؤرخون على أن يوسف بن تاشفين اختط مدينة مراکش في سنة ٤٥٤ هـ ، ولكن ابن عذارى يشير إلى أن أبا بكر بن عمر اللمتوني هو الذي شرع في بنائها في سنة ٤٦١ هـ (٢) . ويذكر صاحب الاستبصار أن يوسف بن تاشفين أسسها في سنة ٤٥٩ هـ (٣) ، في حين يذكر باقوت أن يوسف بن تاشفين خططها في حدود سنة ٤٧٠ هـ (٤) . ومن هذه التواريخ المتعددة نستبعد تاريخ سنة ٤٠٢ الذي حذره صاحب الحلال للشروع في بناء مراکش ، لأنه تاريخ يسبق مبايعة المرابطين لأبي بكر بن عمر بالإمارة عليهم

(١) الحلال الموشية ، ص ٦ ، ١٣

(٢) ابن الخطيب ، ص ٢٣٤ — ابن خلدون ، ص ٦٤ — ٢٧٨ — روض القرباس ص ٨٩

(٣) ابن عذارى ، ص ٤٣٠ — اربعم ايضاً الى : أحمد بن عمار البادي ، دراسة حول

كتاب الحلال الموشية ، تطوان ، ١٩٦٠

(٤) الاستبصار ص ٢٠٨

(٥) باقوت ، معجم البلدان ، مادة مراکش ، جلد ٥ ، ص ٦٤

يصو ٤٥٥ عاما . وتاريخ سنة ٤٦٩ هـ الذى حدده ابن عذارى للشروع فى بناء مراکش تاريخ غير معقول لأن يوسف بن تاشفين لم يشرع فى فتح فاس وقلاع فازاز إلا بعد أن أسس قاعدة له فى الجنوب للسيطرة على جبل درن الذى يسكنه المصامدة ^(١) . كما نستبعد أيضا تاريخ سنة ٤٧٠ هـ الذى حدده ياقوت لخطيط المدينة فهو متأخر كثيرا . ويبقى لنا تاريخان هما سنة ٤٥٤ و ٤٥٩ هـ . أما سنة ٤٥٩ فهو التاريخ الذى حدده صاحب الاستبصار لتأسيس المدينة ، وينفرد به دون غيره ، وأما سنة ٤٥٤ هـ فهي سنة أجمع عليها عدد من المؤرخين للشروع فى تأسيس مراکش . ونعتقد أن مراکش أسست على يد يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٥٤ هـ أى فى الفترة التى غادر فيها الأمير أبو بكر بن عمر أرض المغرب إلى الصحراء ، ولا شك فى أن يوسف بن تاشفين هو الذى تولى بناءها ، لأن أبا بكر كان مشغولا فى هذا التاريخ بإزالة الخلافات القائمة بين قبائل صنهاجة ، ولما عاد بعد أن قضى تماما تحلى ليوسف عن الإمارة ، ونعتقد أن بناء المدينة استغرق خمس سنوات ، وأنه تم فى حدود سنة ٤٥٩ هـ التى ذكرها صاحب الاستبصار .

ويذكر ابن أبي زرع أنه اشترى موضع مدينة مدينة مراکش من جماعة من المصامدة ، فسكن الموضع بخيام من الشعر ، وأسس مسجدا للصلاة ، ونصبه صغيرة لحزن أمواله وسلاحه ، لعلها القصر المعروف بقصر الحجر ^(٢) . وعندما شرع فى بناء المسجد كان يحترم ويعمل فى الطين والبناء بنفسه مع الخدم والقلة تواضعا منه وتورعا ، ولم يؤسس يوسف بن تاشفين حول

(١) الاستبصار ، ص ٢٩ - ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٧٨

(٢) الملل الوثنية ، ص ١١

المدينة سورا ، ويخدد ابن أبي زرع الموضع الذي كانت تشغله مراکش في عهد يوسف من مدينة مراکش التي كانت على أيامه بالموضع المعروف في عصره بسور الحير ، إلى الشمال من جامع الكتبيين (١) .

وكانت مراکش في أرض صحراوية منخفضة ، فحفر لها يوسف الآبار ، وجلب إليها المياه (٢) ، ولم يكن يحيط بمراكش من الجبال سوى جبل صغير كانت تقطع منه الأحجار التي بنى على بن يوسف بها قصره ، أما عامة بناء مراکش فكان من الطوب واللين (٣) .

وسور مدينة مراکش من بناء الأمير على بن يوسف ، بناه في ثمانية أشهر في سنة ٥٢٦ هـ (٤) ، وقيل في سنة ٥١٤ هـ (٥) ، وكان لهذا السور عدة أبواب منها أبواب أغات ودكالة والداغين وينتان والصالحية والشرية والمخزن . وظلت مدينة مراکش معسكرا حريا ، وقاعدة عسكرية لقوات المرابطين إلى أن حاصرتها قوات الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن علي في الحرم سنة ٥٤٩ هـ ، فزل بجبل بغيرها يسميه صاحب الخلل بجبل الجبلين (٦) ، وصحبة الاسم جبل ايكليز (٧) وفقا لما ذكره البيهقي أو جبل الجليز على حد

(١) روض القفرطاس ، ص ٨٩

(٢) قس المرجع ص ٨٩

(٣) قس المرجع

(٤) قس المرجع

(٥) الاستبصار ص ٢٠٩ - ابن خلدون ج ٦ ص ٣٧٨

(٦) الخلل الموشية ص ١٠٢ - Léveï - Provençal, Extraits, p. 40

(٧) أبو بكر الصنهاجى المكتنى بالبيهقي ، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة

للموحدين ، نشره ليني بروفنسال ، باريس ١٩١٨ ، ص ١٠٢

ما ذكره صاحب اللؤلؤ في موضع آخر (١). وهناك ضرب عبد المؤمن للقبة الحمراء ، وبذكر صاحب اللؤلؤ أن عبد المؤمن أقام على هذا الجبل مدينة استند إليها ، وبني فيها مسجدا وصومعة وطويلة بشرف منها على مراکش (٢) ، ثم زحف الموحدون بمجموعهم إلى مراکش ، ووضع عبد المؤمن للكائن عند مدينته ، فخرج جيش المرابطين للقاء الموحدين ، فظاهر هؤلاء بالهزيمة ، ثم خرجت الكائن على فرسان المرابطين وسحقهم سحقاً ، وقتل منهم ما لا يحصى عدده ، وأتبع الموحدون قل المرابطين بالسيف إلى الأبواب ، وأحكوا عليهم الحصار . غير أن الليث الذي حضر دخول الموحدين مراکش يذكر أن القتال بين المرابطين والموحدين استمر أربعة أيام ، كان يخرج فيها من المرابطين الأمير اسحق بن يئتان (٣) ، ومحمد بن حواء ، ومحمد بن يانكالا ، وفي اليوم الخامس تمكن الموحدون من هزيمتهم ، وأتبعهم بالسيوف حتى باب الشرعة وهناك قتلوا منهم عددا هائلا (٤) .

وطال الحصار على أهل مراکش ، واشتد الجهد بهم ، ولكنة خيلهم ورجلهم نفذ طعامهم ، وفنيت مخازنهم ، حتى أكلوا دوابهم ، ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفا (٥) . وبذكر ابن خلدون أن الحصار استمر سبعة أشهر ، فلما طال على أهل المدينة ، وجهدم الجوع ،

(١) اللؤلؤ في موضع آخر ، ص ١٠٢

(٢) نفس المرجع

(٣) هو الأمير اسحق بن علي بن يوسف ، يوج له بالامارة وهو صبي ، بعد أن خلع شيوخ المرابطين ابن أخيه إبراهيم بن تاشفين (ابن خلدون ج ٦ ص ٢٨٩)

(٤) الليث ، ص ١٠٣

(٥) اللؤلؤ في موضع آخر ، ص ١٠٢ . وواضح أن صاحب اللؤلؤ قد بالغ في إحصاء عدد القتلى

برزوا إلى مدافعة الموحدين ، فانهزموا وتبعهم الموحدون بالقتل ، وفي ١٨ شوال سنة ٥٤٩ هـ ، انصل الروم ، الذين كانوا يؤلفون فرقة من جيش المرابطين ، بعد المؤمن ، واستأمنوه ، فأمنهم ، وانفقوا معه على أن يدخلوه مراکش من ثل باب المعروف بباب أنغات (١) ، فأمر عبد المؤمن بعمل السلام للأسوار ، فلما تمت وزعها على القبائل المحاصرة للمدينة ، وبفضل هذه السلام تمكن جنود الموحدين من تسلم الأسوار ، فدخلت هتاتة وأهل تينال من جهة باب دكالة ، ودخلت صنهاجة وعبيد الخـزن من جهة باب الدباغين ، ودخلت هسكورة مع القبائل من جهة باب بيتان ، فافتتحت مراکش ، ودخلها الموحدون بالسيف ، ودار القتال في المدينة ، وامتنع الأمير اسحق بن علي وجملة قاداته بداخل القصبة المعروفة بقصر الحجر وكان قصرا حصينا . ودار القتال حول القصر حتى الزوال ، ولم يتمكن الموحدون من دخوله إلا بعد أن ماتت فانو بنت عمر بن بيتان ، وكانت تقاتل في زى الرجال ، واستسلم الأمير وجملة من الأمراء ، فقتلهم الموحدون إلى جبل الجايز حيث قتلهم أبو الحسن بن واكاك (٢) .

وبقيت مراکش بعد أن دخلها الموحدون لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج ثلاثة أيام ، فقد أبي الموحدون دخولها لأن المهدي كان يقول لهم لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل المرحون فقهاءهم عن ذلك ، فأخبرهم بأن محارب مساجدها تمين إلى الشر : رضى في ذلك تتعرف عن القبيلة الصحيحة ، والتشريق والتحرير غير حائز في الإسلام ، ولا بد من تطهير هذه المساجد بهدمها وبناء مساجد أخرى ، فهدمت جوا مع مراکش لذلك السبب ،

(١) المرجع السابق

(٢) الينق ، ص ١٠٣ - الملل المونية ص ١٠٢ - ابن خلدون ج ٦ ص ٤٧٩

ومن بين المسجد الجامع الذى بناه على بن يوسف فى أدنى المدينة ، بدار الحجر ، فهدم بعضه (١) وأقيم الجامع المعروف بالكثبية . وتول عبد المؤمن مراکش ، واتخذها عاصمة لدولته ، وأقام فيها الدور ، واتخذ القصور (٢) ، وجلب إليها المياه من جهة أغوات لسقاية البساتين التى اتخذها فيها (٢) ، وأخذ فى البناء والقراءة وترتيب القصور (٤) . وقد أهتم خلفاء عبد المؤمن بمدينة مراکش اهتماما خاصا ، فأقاموا بها المنشآت العظيمة ، وأمروها بمختلف أنواع المبانى ، ونخص من هؤلاء بالذكر المنصور الموحدى الذى كان مولعا بفن البناء ، فبنى بمراكش بعد انتصاره فى الأرك بيارستانا من أعظم ما أقيم فى العالم الإسلامى سعى بدار الفرج (٥) ، وكان يقع إلى الشرق من المسجد الجامع المعروف بالكثبية ، وكان قد تمهد لبنائه ساحة فسيحة من أجل مواضع مراکش ، وأمر البنائين باتقان بنائه ، فزينوه بالنقوش البديعة والزخارف الرائعة ، وأمر الخليفة بأن يفرس فيه من جميع أشجار الفاكهة ، وأجرى فيه مياهها كانت تصل إلى جميع غرفه (٦) ، كما أقام به أربع برك فى

(١) الينق ص ١٠٥

(٢) المراكشى ، للمعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص ٢٠٧

(٣) باقوت ، معجم البلدان ، مادة مراکش ، مجلد ٥ ، ص ٩٤

(٤) المراكشى ، ص ٢٢٧

(٥) الاستبصار ، ص ٢١٠

(٦) أدرك البناء والمهندسون المسلمون السيرك والبحيرات الصنهاجية من أهمية فى بث الراحة وبث الهدوء فى النفس ، ولذلك اتجهوا إلى مزج الطبيعة بالصحارة ، وذكر المقرئى أن بناء بيارستان فلافون بالقاهرة فطنوا إلى أهمية السيرك والسقيات فى علاج المرضى ، فتولى الأمير علم الدين سنجر الشجاعى أمر عمارته ، فأقام بيارستانا يتألف من أربعة أبراجات بكل أبراج فزوان ، ويدير قاعها سفينة يجرى إليها الماء من الشافروانات .

وسط صحته إحداهما من الرخام الأبيض ، وأمر له من القرش النفيسة من أنواع الصوف ، والكتان ، والحبر ، والاديم ، وغيره بما يزيد على الوصف ، وبقى فوق الثمن ، وأجرى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما يتفق عليه خاصة ، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية ، وأقام فيه من الصيدلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال وأعد فيه للبرضى ثياب ليل ونهار النوم من جهاز الصيف والشتاء ، فإذا نقه المريض ، فإن كان فقيراً ، أمر له عند خروجه بمال يعيش به ربماً يستقل ، وإن كان غنياً دفع إليه ماله ، وترك وسببه ، ولم يقصره على الفقراء دون الإغنياء ، بل كل من مرض بمراكش من غريب حمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت ، وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله ، ويعود المريض ويسأل عن أهل بيت ، أهل بيت ، أهل بيت (١) .

كذلك اهتم المنصور ببناء قصبة مراكش ، وجامعها إزاهها ، وصومعته ، كما اهتم باتعام بناء منار جامع الكتبيين المشهور ، وذلك بعد انتصاره في الأرك (٢) . ولقد ازدهرت مراكش في عصر الموحدين ازدهاراً لم تشهد من قبل في عصر المرابطين ، فأنشع عمراتها ، وزادت مرافقها ، وعمرت بمختلف أنواع الأبنية والمنشآت التي تهتم خلفاء الموحدين بإقامتها ، وقد

== كما أجرى الماه في جيم مقامات اليازستان (انظر الميرزى الخطاط ، ج ٢ ص ٣٢١ - ٢٢٣ ، طبعه بيروت ١٩٥٩ وانظر أيضاً أثر مزج المنظر الطيب بالسارة في معاصرني : القيم الجمالية في فن السادة الاسلاميه ، بيروت ١٩٦٢ ص ٢١)

(١) المراكشي ، ص ٢٨٧

(٢) دوس القرماس ، ص ١٥١

وصفها ابن سعيد المغربي في هذا العصر بقوله : « وهي مما سكنت بها وعرفتها ظاهرا وباطنا ، ولا أرى عبارة تنى بما تحتوى عليه ، ويمكن أن كل قصر من قصورها مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك ، حتى إن الرئيس منهم يخلق بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج إليه ، ولا يخرج من بابه إلى خارج داره كحاجة يحتاجها ، ولا يشتري شيئا من السوق أو كل ، ولا يقرئ أولاده في مكتب وظاهرها مدينة اختطها المنصور بمقرب (١) ولخواصه بتامراكش ، وبها قصر الخلافة الذي بناه ، به دور عظيمة ، وبها بستان يعرف بالبحيرة طوله ١٧ ميلا ، به بركة عظيمة لم يعمل مثلها ، وبمراكش جامع جليل يعرف بالكثيرين طوله مائة وعشرة أذرع ، وعلى بابه ساعات مرتفعة في الهواء محسنة ذراعا كان يرى فيها عند انقضاء كل ساعة صنجة زنتها مائة درهم ، تحرك لثولها أجراس تسمع على بعد تسمى عندهم بالبجانة » (٢) .

ويصفها صاحب الاستبصار في أواخر القرن السادس الهجري بقوله : « ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا بما زاد فيها الخليفة الإمام ، وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب ، وخليفته أبو يوسف ، رضى الله عنهم ، فإن الخليفة الإمام بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته ، كان قصرا (٣) ، ورفع بينهما النار العظيم الذي لم يشيد في الإسلام مثله ، وأكله ابنه وخليفته أبو يعقوب رضى . وجلب الخليفة الإمام

(١) قصد النصب التي بناها للمنصور

(٢) التفتشدي ، ج ٥ ص ١٦٧

(٣) قصد بذلك أن الجامع أنيم على أنقاض قصر المجرع المراكشي

المياه من أودية درن ، وغرس بحيرة عظيمة بغربي المدينة قبل تقيس ، دورها ستة أميال ، وبني فيها وخارجها صهر يحسين عظيمين ، كنا في تلك المدة نعوم فيها ، فلا يكاد القوي منا يقطع الصهر يريج إلا عن شقة ، وكنا نتفاخر بذلك . وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب ، رضى ، بحائر مثلها في الفرس بل أجمل ، وجلب لها المياه ، وأخذها في صهاريج أعظم من للتقدمة ، وزاد في قبلة المدينة حصنا أقضه الآن ابنه الإمام الخليفة أبو يوسف ، رضى ، وزاد عليه مدينة أخرى تقارب الأولى في دورها ، وكانت بحائر عظيمة ، فبناها قصورا وجامعا وأسواقا وفنادق ، وجلب التجار إلى قيسارية عظيمة لم يبن في مدن الأرض أعظم منها ، وأمر بعمارتها أول سنة ٥٨٥ هـ . ومدينة مراکش أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعتاب وفواكه وجميع الثروات ، وكانت قبل ذلك يطير الطائر حولها فيسقط من العطش والرمضاء ، وأكثر شجرها الزيتون ، ففي مراکش اليوم من الزيتون والزيت ، ما يستغنى به عن غيرها من البلاد ، وتميز بلادا كثيرة . وكان زيتها قبل اليوم دهن المهرجان ، لأنه بلك البلاد كثير جدا ، وزجون مراکش أكثر من زيتون مكناسة ، وزجها أرخص وربما أطيب (١) .

وخلت مراکش عاصمة للموحدين حتى أيام الوائق بالله أبي العلاء إدريس المعروف بأبي دبوش ، فقد تحالف أبو دبوش مع بنى مرين ليتولى الخلافة ، نظير تخليه لهم عن مدينة مراکش . وكان المرتضى غافلا عن شأن أبي دبوش ، وكانت الاسوار خالية من حراسها ، وحاميتها ، فانتهز أبو دبوش هذه الفرصة ، وتسور مراکش من باب أغمت ، ودخلها على حين

فجأة، وقصد القصبه، فدخلها من باب الطبول (١)، ففر المرتضى من مراکش إلى
آزمور حيث مات قتيلا في سنة ٦٦٥ هـ، ولكن أبا دبوس نكث بعهده لبني
مرين، فاضطر الامير أبو يوسف يعقوب المريني إلى مهاجمة مراکش في سنة
٦٦٨ هـ، وانتهى الأمر بمقتل أبي دبوس إمام أسوار مراکش التي دخلها
جيش بني مرين في ٢ من المحرم سنة ٦٦٨ هـ (٢).

ولقد تأثر عمران مراکش بالفتن المتواصلة التي اشتعلت نيرانها في أواخر
أيام الموحدين، واستولى الهدم والخراب على معظم ديارهم بمراكش عند
سقوط دولتهم. ويذكر الوزير أبو الحسن بن سعيد العنسي أنه وجد على
بعض قصورها مكتوبا بالقصم :

ولقد مرت على رسوم ديارهم
فبكتها والربيع قاع صفصف
وذكرت مجرى الجور في عرصاتهم
فعلت أن الدهر فيهم منصف

فأخذ قطعة من البياض المتبقى من الجيار، وكتب تحت البيتين
السابقين :

لحق عليهم بعدهم بمنالهم
بأله قل لي في الوري هل يخلف
من ذا يجيب مناديا لوسيلة
أم من يجيب من الزمان وينصف (٣)

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠

(٢) أبو الوليد اساعيل بن الأحمر، روضة النرين في دولة بني مرين، الرباط ١٩٦٢،

ص ١٩

(٣) الحلال الموشية، ص ١٢٨

ولقد ضعف شأن مراکش في عصر بني مرين ، لاتخاذهم مدينة فاس
حاضرة لهم ، فتأثر عمرانها بذلك ، وانخفضت مكانتها السياسية. وقد وصف
ابن الخطيب أسوارها الحصينة ، وزيتونها وفواكهها في عصر بني مرين
بقوله : « اقتصت البسيط المديد ، واستظرت بتشيد الأسوار وأبراج
الحديد ، وبكى الجبل من خشيتها بعيون العيون ، فسالت المذائب كصفاح
القيون ، وقيدت طرف الناظر المفتون أدواح الشجرها وغابات الزيتون...
زيتها الزمن يعصر ، وخيرها يمد ولا يقصر ، وفواكهها لا تحصى ولا تحصر ،
فاذا تناصف الحر والبرد ، وتبسم الزهر وخجل الورد ، وكسا غدرانها
الحائرة الخلق السرد ، قلت انجز للمتقين من الجنة الوعد ، وساعد السعد ،
وما قلت إلا بالذي علمت سعد » . ثم يصف خرابها وتدهورها في عصر بني
مرين فيقول : « وخرابها موحش هائل ، وبعد الاقطار عن كثير من
الأوطار بها حائل ، وعدوها ينتهب في التفتن أقواتها ، وجرذان المقابر
تأكل أمواتها ، وكانت أولى المنازل بالاغنياء ، لو أنها اليوم معدودة في
الاحياء » (١) .

ثم استعادت مراکش مكانتها في عصر الاشراف السعديين كعاصمة
للبلاد ، وخاصة في عصر السلاطان أحمد بن محمد السعدي الملقب بالمنصور
الذمعي ، الذي أمهرها بأروع الانبئة التي أعادت ذكرى منصور الموحدين ،
واستحضر لعمارة قصوره عمالا وصناعا من سائر البلاد ، وجلب الرخام من
إيطاليا ، وشرع السلطان في بناء قصره المعروف بالبديع داخل قصبة

سبعين سنة ٩٦ هـ ، وكان قصرا مربع الشكل في كل جهة منه قبة ، وكان يزدان بالرخام المجزوع ، والمرمر الأبيض المفضض والأسود (١) ، وكل رخامة طلي رأسها بالذهب الدائب ، وموه بالنضار الوافي ، وفرشت أرضه بالرخام العجيب النحت ، الصافي البشرة ، وجعل في أصناف ذلك الزلاج (٢) ، المتنوع اللون حتى كأنه خيائل الزهر ، أو برد موشى ، وأما سقفه ، فتجسم فيها الذهب ، وطلعت الجدارات به ، مع بريق النقش ورائي الرقم بخالص الجلبص ... وفيه الأشعار المرقومة في الأستار ، والآيات المنقوشة في الخشب والزليج والجيص ما يسر الناظر ويروق المتأمل ويهر العقول (٣) . واتخذ المنصور لنفسه في مراکش بلاطا أقرب ما يكون إلى البلاطات الشرفية في الثرف والعظمة ، إذ كان يجلس في قصر البديع ، وقد مد فيه ، ومهد من فرش الحرير ، وصفة التبارق ، وتدل الأستار والكلل والحبال المخوضة بالذهب على كل قبة وحنابة (٤) .

* * *

كان تأسيس مراکش تدعيا لمركز المرابطين في المغرب ، ثم كان استيلائهم على مدينة فاس في سنة ٤٦٢ هـ سببا في اختلاطهم بالمضاربة الأندلسية المغربية ، ونجح يوسف بن تاشفين ، في إخضاع قبلي مكناسة

(١) ارجع الى أعمال المنصور الذهبي في كتاب « نزعة الحادى بأخبار ملوك القرون

الحادى » تأليف محمد الصغير ، نشره «وداس Houdas ، باريس ١٨٨٨ .

(٢) جم كلمة زليج ، ويعرف بالاسبانية اليوم باسم Azulejos ، وهو نوع من

الفسيفساء يسط به تاعات ديار أهل الأندلس ويشبه الفضى (الفسيفساء) ، وموذر ألوان

مينة يقيمونه مقام الرخام الملون (القرى ' فتح الطيب ج ١ ص ١٨٧ ، ١٨٨)

(٣) محمد الصغير كتاب نزعة الحادى بأخبار ملوك القرون الحادى .

(٤) محمد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ، ج ٢ ص ١٨١

ولواتة ، واستولى على أكثر بلاد المغرب الغربى ، ثم وجه ابن تاشفين جهوده بعد ذلك إلى ناحية الشمال الشرقى ، ففي سنة ٤٦٣ هـ زحف إلى وادى ملوية ، فافتتح بلادها ، وعلى حصون وطاط من نواحيها ، وأخضع قبيلة غمارة مرة أخرى ، وافتتح حصن علودان من حصونها (١) . وفي سنة ٤٦٧ هـ ، وجهه مرة إلى إخضاع غياثة بنى مكود بأحواز تازى ، وافتتح تازى . وقسم يوسف بن تاشفين المغرب بين أبنائه وذويه وشيوخ قومه وأمرائهم . ثم تطلع بعد ذلك إلى معبرى الاندلس طنجة وسبتة ، وكان يحكمها سكوت البرغواطى وعشيرته من أولياء الدولة الحمودية بسبتة . فاشتبك للراباطون بقيادة صالح بن عمران مع سكوت فى ظاهر طنجة ، فانهمز سكوت وقتل فى المعركة ، وتحصن ابنه ضياء الدولة بسبتة (٢) . ويبدو أن المعتمد بن عباد ملك إشبيلية أرسل سفارة برئاسة أبى بكر بن القصيرة إلى يوسف لينجده على الفونسو السادس ، وأبدى يوسف استعداداه لذلك ، إذا تهيأ له الاستيلاء على معبرى الاندلس ، طنجة وسبتة (٣) .

(١) ابن خلدون ، ج ٣ ص ٣٨٠

(٢) سكوت البرغواطى كان من سبى برغواطى فى زمن على بن حود ، ثم أتى إليه يحيى ابن على بجنايد سبته ، وأشركه معه فى عمالها مولى آخر من مواليه اسمه رزق الله ويكنى بأبى الطاف . وفى عهد لادريس بن يحيى ، تمكن سكوت من القضاء على شريكه فى سبته ، وأصبح منذ ذلك الحين أميراً مستقلاً بسبته ، وطلب بالمنصور المائى فى سنة ٤٥٣ هـ . ول سكوت قائماً بسبته وطلجة وأصبلا إلى أن سار إليه يوسف بن تاشفين ، قائده صالح بن عمران تنزل بموضع يعرف بالدمنة سنة ٤٧١ هـ ، واصطدم الراباطون بابنه ضياء الله فى طنجة ، فغلب الراباطون ، ودخلوا طنجة ، وقتل سكوت (انظر :

Joaquin Vallvé Bermejo, Suqat al-Bargawati, rey de Gouta, al-Andalus, vol. XXVIII fasc. 1, Madrid, 1963, pp. 171-209)

Ibid. p. 180 (٣)

وفي سنة ٤٧٢ هـ سار القائد المرابطي مزدئي التلكتاني على رأس جيش كثيف مغاربة مغراة ملوك تلسان في المغرب الأوسط ، وفي العام التالي قام يوسف بفتح المغرب الشرقي وساحل الريف ، فاستولى على مليلة ، وخرب نكور ، واستولى على وجدة وبلاد بني سنان ، واستولى بعد ذلك على تلسان وقتل أميرها العباس بن بنجي ، وأقام مكانه محمد بن تينمر ، وبذلك فقدت زناتة عاصمتها الأخيرة . وأقام يوسف مدينة جديدة هي تاكراوت بجوار أقادير القديمة ، وتوغلت جيوشه في المغرب الأوسط واستولت على قنس ووهران وجبيل وانشريس (١) ، ووصلت حتى الجزائر ، وتوقفت عند مدخل بلاد قبيلي من من أراضي صنهاجة الشرقية ، ولم يدخل المرابطون في صراع مع إخوانهم الصنهاجيين في الجزائر وتونس ، وهكذا انقسم للمغرب الإسلامي إلى قسمين : شرقي يحكمه بنو زيري وبنو حماد الصنهاجيين وغربي يحكمه المرابطون .

عاد يوسف إلى مراکش في سنة ٤٧٥ هـ ، وببدو أنه وصلته في ذلك الوقت كتب من أهل الأندلس يسألونه أن يتخذ الأندلس مما ألم بها من مصائب على أيدي الفشتالين ، وكان لابد له أن يحتاط للتدخل في الأندلس ، فوجه ابنه المعز في عساكر المرابطين إلى سبتة معبر الأندلس ، فنازلها برا ، وبذكر ابن خلدون أن أساطيل ابن عباد حاصرتها بحرا ، وتمكن المعز بن يوسف من الاستيلاء عليها عتوة في ربيع الآخر سنة ٤٧٦ هـ ، وقبض على ضياء السلوة وقتله بسيفه . وتفصيل ذلك كما ورد في الذخيرة لابن بسام أن المعتمد بن عباد سير إلى سبتة سفينة ضخمة كأنها قصر بناه على الماء ،

فهاجمت ميناء سبتة ، ثم قدم أسطول المرابطين في صفر سنة ٤٧٦ هـ لمهاجرة سبتة من البحر ، ولقيه العزيز بن سقوت ببقية جمته من أسطول طاللا أوسع البلاد شرا ، وملا فلوب أهلها ذعرا ، فكان لأول ذلك اليوم ظهر على أسطول المرابطين حتى أخذ منه قطعة جليلة للمقدار ، ظاهرة الحماة والآنصار ... وارتفعت محلة المرابطين لأخذ تلك القطعة حتى هموا بالإحجام ، وقوضوا بعض الخيام ، وغضب أمير المسلمين وناصر الدين رحمه الله إحدى غضبانه فكانت إياها ، ونفرت المنايا على سبتة ، وتقدمت تلك السفينة فأطلت على أسوارها ، ورفعت صوتها يوارها ، وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها (١) . وحاول العزيز بن سقوت الفرار في البحر ، ولكن المرابطين طاردوه ، فدخل دارا تعرف بدار تنوير بمدينة سبتة ، وهنالك قبض عليه .

(١) نرى ابن بطي في كتاب الأغنية ، نهره السيور غراكين فالتي sequia vallée

(٣)

المرابطون في الأندلس

١ - احوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين :

بعد أن وحد يوسف بن تاشفين بلاد المغرب ، وأقام دولة قوية تضم أقاليم القسم الغربي من المغرب لم يحاول أن يتلقب بالخليفة ، واكتفى بلقب أمير المسلمين ، وناصر الدين سنة ٤٦٨ هـ ، ودعا للخليفة العباسي ببغداد. ويزكر صاحب الحلل أن ابن تاشفين لما طالبه بعض أصحابه باتخاذ لقب أمير المؤمنين قال : حاشا لله أن يسمى بهذا الاسم ، إنما تسمى به خلفاء بني العباس ، لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، ولأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة . وأنا راجلهم ، والقائم بدعوتهم ^(١) . هذا اللقب خلصه يوسف ابن تاشفين على نفسه دون الرجوع إلى الخليفة العباسي ، فلما انتصر يوسف في موقعة الزلاقة ، وأسقط ملوك الطوائف ، كتب إلى الخليفة المقتدى بالله ، يطلب منه الخلع والأعلام والتقليد ، فلم يعترض الخليفة على ذلك ، ولكنه لم يخاطبه بلقب أمير المسلمين ، وقد نشر الأستاذ الدكتور حسين مؤنس نص رسالة من الخليفة عبد الله العباس المستظهر بالله العباسي إلى علي بن يوسف ، لم يخاطبه فيها بلقب أمير المسلمين ^(٢) . وقد استخدم المرابطون لذلك السواد شعارا لهم في ملابسهم وأعلامهم ^(٣) .

(١) الحلال المشية ، ص ١١

(٢) حسين مؤنس ، سيج وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، صحيفة المهد العربي لدراسات إسلامية بدمرد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤ م ص ٦٦ - ٦٨

(٣) أحمد مختار البادي ، نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في الصور الوسطى ، فصله من كتاب فلاحته الإسلام في المغرب العربي ، ص ١٥٦

وينا كان يوسف بن تاشفين يعمل لتأسيس دولة كبيرة في المغرب كانت الاحداث تطور تطورا مريحا في الأندلس ، فقد أدى انقسام الأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة إلى دوكلات للطوائف إلى ظهور العنصرية المدامة بين المسلمين عربهم وبربرهم وصقالبيهم ، واستعان بعضهم على بعض ، بتصاري الشمال الذين وجدوا في ذلك سيفا مسلطا على الإسلام ، وفرصة مواتية للقضاء عليهم ، فاستغل فرناندو الأول ، وتسميه للمصادر العربية فردلند ، ملك قشتالة وليون هذه الفرصة ، (١٠٣٥-١٠٦٥ م) واستولى على عدد من مدن الأندلس مثل بازو ، وقلمرية ، وأرغم ملوك الطوائف على شراء حمايته للاحتفاظ بعروشهم ، فلاندوا بالجزيات يدفعونها إليه ، إبقاء لشراء ، ودروا تهديداته ، ورغبة في خطب سلمه ومرضياته ، كما كانت وطأة ابنه الفونسو السادس أشد على المسلمين من وطأة أبيه فردلند ، فقد رأى أن يسدد الضربة الأولى في طليطلة . قلب الأندلس ، فأخذ بعد المدة ، للاستيلاء عليها ، وجأه لتحقيق هذا الهدف منذ سنة ٤٧١ ، وتمكن أخيرا من تحقيق أمنيته في سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، وازداد بذلك قوة على قوته ، « وأخذ يحوس خلال الديار ، ويستفتح الماقل والحصون » .^(١) وأحدث سقوط طليطلة في أيدي القشتاليين دوا هائلا في المغرب والأندلس على السواء ، وقرعت نواويس الخطر تنذر ملوك الإسلام في الأندلس بسوء المصير ، فأحسوا بضعفهم ، وتنبهوا بعد فوات الأوان إلى نهايتهم الوشيكة ، بل إن سقوط طليطلة ، كان نذيرا بالنهاية المحتومة لدولة الإسلام في الأندلس . وقد أدرك الشاعر عبد الله بن

فرج اليحصبي المشهور بابن الفصال هذه الحقيقة ، فانشد يقول :

يا أهل أندلس حثروا مطيكم
فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى
نوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدو لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات في سبط (١).

استفحل خطر الفونسو السادس على دويلات الطوائف ، وذاق حلاوة
الاتصار على المسلمين في طليطلة ، فعزم على فتح مدن الأندلس كلها ،
وعرض عليه رعيته أن يلبس التاج ويعيد عادة أسلافه القوط ، فأرجأهم في
ذلك حتى يستولى على دار ملك المسلمين بقرطبة (٢) ، إذ كان يحتكر طليطلة
نقطة دائره الأندلس (٣) . ثم عمد إلى استدلال ملوك الطوائف بفرض
الانارات والجزيات عليهم ، ثم إنه بدأ بالمعتمد بن عباد ، كبير ملوك الطوائف ،
فكتب إليه يطلب منه تسليم بعض حصونه وأعماله إلى رسالة وعمله ،
فكتب إليه بين ما كتبه : « من الأنطور ذى اللتين ، الملك المفضل الأدفش
ابن شاذية إلى المعتمد بالله سدد الله رأيه وبصره ، مقاصد الرشاد ، سلام عليك
من مشيد شرفه المعنا ، وثبت في المنى ، فاهترأه الرمح بعامله ، والسيف
يساعد حامله ، وقد أبصرتم مازل بطليطلة وأقطارها ، وما صار بأهلها حين

(١) المرحوم السابق ج ٦ ص ٨٤

(٢) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، التمهيد الخامس بالأندلس ، ص ٢٤٤

(٣) الملل الوثنية ، ص ٢٢

عاصرها بمن صار في هذه السنين ... (١) . فلما رأى ابن عباد ما رآه من إدار أمره ، وما يجرم على دولة الإسلام في الأندلس من أخطار ، شاور خاصته ، ووجوه دولته في الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، على القشتاليين ، فأشاروا بمداواة ألفونسو ، ومصانته ، وعقد السلم معه على ما يشتهي من شروط ، إذ كانوا يخافون من يوسف بن تاشفين أن يسلبهم ملكهم ، ويشقت شملهم ، وحذروه ، من مغبة الاستنجاد بيوسف بن تاشفين ، وقالوا له : « للملك عقيم ، والبيضان لا يجتمعان في غمد واحد » (٢) . ثم اخطى للمتعبد بآبته وولى عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، فقال له : « أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ، ليس فيهم نفع ولا يرجى منهم نصرة ، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل ، وهو اللعين أذففس ، وقد أخذ طليطلة من ابن ذي النون بعد سبع سنين ، وعادت دار كفر ، وها هو قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بطليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الرأى أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدو ، نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف لحاؤنا ، وتدبرت بل تبردت أجنادنا ، وأبغضتنا العامة والخاصة » . ولكن ابن الرشيد لم يقره على هذا الرأى ، فقال لآبيه : « يا أبت ، تدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكتنا ، ويدد شملنا » ، فقال : « أي ابني ، والله لا يسمع عني أبدا أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ،

(١) المرجع السابق ص ٢٣

(٢) الحميرى ، ص ٨٠

فقوم على القعة في منابر الإسلام مثل ما قامت على غيرى، وحرز الجمال،
والله، عندي خير من حرز الخنازير». فقال له: «يا أبا افضل ما أمرك
الله»، فقال «إن الله لم يلهمني بهذا إلا وفيه خير وصلاح لنا ولكافة
المسلمين» (١). فكتب من فوره إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين في
غرة جمادى الأولى سنة ٤٧٨ هـ (٢)، يستصرخه على ألقونسو، ويدعوه إلى
الجواز إلى الأندلس للجهاد وإحياء شريعة الإسلام. فاستشار ابن تاشفين
كاتبه عبد الرحمن بن أسباط في هذا الشأن، وكان أندلسيا من أهل للرية،
فأشار عليه بأن يشترط على ابن عباد أن يخلى له عن الجزيرة المحضراء
ليجعلها قاعدة لآزال قواته، فلما علم ابن عباد بذلك جاز إلى المغرب في
أسطول الأندلس في سنة ٤٧٨ هـ، بعد أن استخلف على إشبيلية ولده الرشيد،
وكتب لابن تاشفين عقدا يقضى بتسليم الجزيرة المحضراء إلى المرابطين في
ربيع الأول سنة ٤٧٩ هـ (٣). ويذكر عبد الواحد المراكشي أن يوسف بن
تاشفين عبر لابن عباد عن رغبته في الجهاد بقوله: «أنا أول متدب لنصرة
هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحد إلا أنا بنفسى» (٤)، وعاد ابن عباد
على أثر ذلك إلى إشبيلية، أما يوسف فقد أخذ يستنفر جيوشه، ثم رحل
إلى سبتة، للاشراف على نقل قواته إلى الأندلس في شهر جمادى الأولى من

(١) الملل الموشية، ص ٢٨ - ابن الخطيب، أعمال الأعلام، القسم الخامس بالأندلس،

ص ٢٤٥

(٢) ابن الخطيب، المرجع السابق - ويذكر صاحب الملل سنة ٤٧٩ تاريخا لمسكاتبه

ابن عباد لابن تاشفين

(٣) ابن خلدون، ج ٦ ص ٣٨٢ - ابن الخطيب، المرجع السابق ص ٢٤٦

(٤) المراكشي، ص ١٢١

السنه ، فاجتمع له نحو ٧ آلاف فارس عبر بهم البحر إلى الجزيرة الخضراء .
ويدعو أن القونسو لما بلغه اتصال ملوك الأندلس يوسف واعترائهم به
عليه ، واعتزام يوسف المجاز إلى الأندلس لنصرة إخوانه في الدين ، وتعمد
المعتمد بن عباد عليه في دفع الجزية ، أراد أن يحث يوسف على سرعة التقدم
إلى الأندلس أملا في إلحاق الهزيمة به ، والتفرغ بعد ذلك للقضاء على
ملوك الطوائف ، فأغار على البلاد حتى وصل إلى ساحل البحر عند الجزيرة ،
وكتب إلى الأمير يوسف مانعه : « من أمير النصرانية أدفونش بن
فردنسد إلى يوسف بن تاشفين : أما بعد فإني اليوم أمير المسلمين ببلاد
المغرب وسلطانهم ، وأهل الأندلس قد ضعفوا عن مقاومتى ومقابلتى ، وقد
أذلهم بأخذ الجزية منهم وبالقتل والسر والذل والقهر ، وأنا لا أقتنع
إلا بأخذ البلاد ، وقد وجب عليك نصرهم لأنهم أهل ملتك ، فاما أن تجوز
إلي ، وإما أن ترسل إلى المراكب أجوز إليك ، فإن غلبتني كان ملك
الأندلس والمغرب إليك ، وإن غلبتك انقطع طمع الأندلس من نصرك
إياهم ، فإن تقوسهم متعلقة بنصرتك هم » . فلما وصل هذا الكتاب إلى
يوسف أمر أن يكتب له على ظهر كتابه : « من أمير المسلمين يوسف إلى
أدفونش ، أما بعد فإن الجواب مانعك بعينك لامتصاصه بأذنتك ، واللام
على من اتبع الهدى » . وأردف الكتاب بيت أبي الطيب :

ولا الكتب إلا المشرفة رائدا

ولا رسل إلا الخيس العرمم (١)

والقارئ هذه الرسالة يشك في صحتها، ولكن الإسنادة ليفي بروفنسال،

وغربية جوث ، وأوليفر آسين ، نشروا رسالة كتبها يوسف بن تاشفين إلى الناصر نجم بن المعز بن باديس يذكر له فيها هزيمته لأنفونسو بالثرلاقة ، تضمنت هذه الحقيقة . يقول ابن تاشفين : « وكان قد تقدم إلينا بالعدوة من قبل الاذفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجسواز إلينا ، إذا عجزنا عنه ، وفرقنا منه ، نعطوه المراكب ونسلموا إليه الشواني والقوارب ليرد علينا ، ويقاتلنا في مامتنا ، فلم نلتفت إليه ، ولا عرجنا عليه » (١) .

ب - موقعة الزلاقة:

أجاز المرابطون البحر إلى الجزيرة الخضراء ، وتلقاهم المعتمد أحسن لقاء ، واستقبل المعتمد أميرهم يوسف بن تاشفين في وجوه أهل دولته ، وقدم إليه الهدايا والتحف ، ولما دعاه للزول إلى إشبيلية للراحة من الرحلة ، لم يد ابن تاشفين قبولا ، ولم يرحب بهذه الدعوة ، وقال : « إنما جئت ناويا جهاد العدو فحيثما كان العدو توجهت وجهه » (٢) . ثم أخذت قوات المرابطين تتقدم نحو إشبيلية ، وكان يقودها من قوادم الكبار سليمان بن دلود ابن مائشة ، وانضمت إليها قوات المعتمد ، وبعض قوات بعض ابن صهاح صاحب المربة (٣) . وسام في هذا الجيش الاسلامي المؤتلف عبد الله بن

Lévi-Provençal, Garcia Gomez, Oliver Asin: Novedades (١)
sobre la batalla llamada al-Zallaqa, al-Andalus, vol. XV, 1950, P. 112

(٢) انراكي ، ص ١٣٢

(٣) احتل ابن صهاح ليوسف من عدم استطاعته التفرغ بنفسه ، بسبب العدو الملاحق له بمصر ليطلب من عمل لورقة ، كما احتل بكبر السن من الضف (أنظر كتاب التبيين ، أو مذكرات الأمير عبد الله الزيري ، نشره ليلى بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ١٠٤) .
ويحتد الأستاذ امبروسيو اويشي ميغاندا أنه آخر البناء انتظار النتيجة المحركة الحقة (ارجع =

بلكين صاحب غرناطة وأخوه تميم صاحب مالقة ، وابن ذى النون . وبلغ القونسي السادس ، وهو مقسم على حصار مرسطة تجرّك القوات المغربية الأندلسية نحو إشبيلية ، فاضطر إلى رفع الحصار عن مرسطة وبدأ يحشد القوى النصرانية ، ويستنجد بأهم المسيحية ، فوفدت إليه مريبات من القريش من ولايات فرنسا الجنوبية من لانجدوك ، وجوينة ، وبرجونية ، وبروفانس ، وقد عقدت آمالاً كبيرة في الظفر بمغزم كبير . وتحالف القونسي مع سانشو راميرث ملك أرغون وصاحب بلبلونة ، والكونت برنجار ريموند ، وكان سانشو مشغولاً بمحاصرة طرطوشة ، بينما كان برنجار يأهب لثزو بلنسية ، فأنضم إلى القونسي السادس بجميع قواتها ، أما القونسي فقد حشد قوات هائلة من جليقية ، وليون ، وبسكونية ، وأشتوريس ، وقشتالة ^(١) . وكانت قوات المرابطين قد وصلت إلى إشبيلية ، وأقامت بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحلت إلى بطليوس ، فلقبهم المتوكل بن الأفطس بالقرب من بطليوس ، واحتفل لهم بالضييف والعلف والقرى الواسع ^(٢) . وسكرت قوات المسلمين شمال بطليوس ، بين بطليوس وقورية ، أي بين ضفتي وادي آنه ووادي تاجة . وتحركت قوات القونسي متجهة نحو بطليوس ^(٣) حتى وصلت على بعد ثلاثة أميال من معسكرات المسلمين ،

الـ: Ambrosio Huici Miranda, la invasion de los Almoravides y la batalla de Zalaca, Hesperis, t. XI, 1953, p. 40.)

(١) يوسف اشباخ ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة الأستاذ

عبد مبد الله متان ، القاهرة ١٩٥٨ م ص ٨٠

(٢) للعل الموشى ص ٣٤

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الثالث ، ص ٢٤٢

وضربت مخيماتها في حصص الزلافة (باللاتينية Sacralias) حيث قامت
 المعركة الكبرى الحاسمة بين جيوش الإسلام والمسيحية . وكانت معسكرات
 أهل الأندلس قد ضربت بأزاء غلات النصارى ، بينما عسكرت قوات يوسف
 ابن تاشفين وراءهم على أميال منهم (١) . وفي ليلة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ ،
 باغتت قوات القونسو معسكرات أهل الأندلس ، فانهزمت عند أول لقاء ،
 ودارت عليهم الدائرة ، وأبلى ابن عباد بالرغم من ذلك بلاء حسناً ، ثم أرسل
 كاتبه ابن القصيرة إلى يوسف بن تاشفين ، فركب يوسف من فوره على
 رأس قواته ، وقصد محلة القونسو ، « فافتتحها وأضرماً ناراً ، وضرب
 طبوله ، فاهتزت لها الأرض ، وتجاوبت الآفاق ، فارناعت قلوبهم ،
 وتخلخلت أكتفهم ، ورأوا النار تشعل في محلتهم ، وأتاهم العريخ بهلاك
 أموالهم وأخبيتهم ، فسقط في أيديهم نالوا أعتهم ورجعوا قاصدين محلتهم ،
 فالتحمت الفئتان ، واختلط اللتان ، واشتدت الكرة ، وعظمت الهجعات ،
 والحرب تدور على اللعين ، وتطحن رؤوس رجاله ، ومشاهير أبطاله ، وتقذف
 بنجيلهم عن يمينه وشماله ، وتداعى الأجناد والحشم والعييد للزوال والترحيل
 على ظهور الخيل ، ودخول المعترك ، فأمن الله المسلمين ، وقذف الرعب في
 قلوب المشركين ، وتعطوا بين عسكر ابن عباد وعسكر يوسف بن
 تاشفين » (٢) .

أرسل يوسف فرقة العبيد للمساهمة في القتال ، فدخلوا ساحة المعركة
 بالزوارق ، وانقضوا على قوات القونسو ، فدارت الدائرة عليه وعلى

(١) المرجع السابق ص ٢٤٣

(٢) الملل الموشية ، ص ٤٣

أصحابه ، وجرح القونسو جرحا بالفا ، إذ لصق به عيد أسود طعنه في
فخذة بخنجر ، قرر القونسو في جتح الظلام ، ولأذ هو وفلول جيشه بربوة ،
ثم تسللوا هارين إلى طليطلة . وعلى أثر انتصار المسلمين ، قفل يوسف
ابن تاشفين إلى المغرب ، إذ ورد عليه الخبر بموت ابنه أبي بكر (١) ، فترك
لسم بن أبي بكر مهمة مواصلة الجهاد . ويعتقد الدكتور حسن محمود ، أن
سنة ٤٨٠ هـ هي السنة التي توفي فيها أبو بكر بن عمر رئيس المرابطين ،
بدليل أن العملات المرابطية ظلت تضرب باسم أبي بكر بن عمر من ٤٥٠
إلى ٤٧٩ هـ ، فليس بعيد أن يكون الأمر قد اختلط على المؤرخين ، فقالوا
إنما رحل وفاة ابنه بدلا من ابن عمه (٢) . وهكذا عت قوات المرابطين
بقيادة يوسف بن تاشفين العار الذي لحق ملوك الأندلس ، من مذلة القونسو
السادس لهم .

ولقد كان لانتصار المسلمين في الزلاقة عدة نتائج هي :

١ - حرر سرقسطة وحماها من الوقوع في أيدي القشتاليين ، وكانوا
يحاصرونها عندما نزلت قوات المرابطين بالأندلس .

٢ - أحدث تغييرا مفاجئاً في مجرى حركة الاسترداد التي خططها
القونسو السادس ، فقد أرسل القونسو بعد هزيمته في الزلاقة طالبا للمعون
من أمراء الأقاليم الجنوبية بفرنسا ، مهددا لهم حالة في عدم مساعدتهم له

(١) المرجع السابق ص ٤٧

(٢) حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٢٨٧ . أرجع إلى تفصيلات هذه الحركة
في A. Huici Miranda ، op . cit. - الدكتور حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ،

مخالفة المسلمين ، فأخذ الفرنسيون يقتافسون في تنظيم حملة كبيرة . ولكن الفرنسيو عدل عن خطته في الاستعانة بالفرنسيين خشية أن يعقد ذلك من علاقته مع ملوك الطوائف بعد أن عاد يوسف بن تاشفين إلى مراکش . فأرسل الفرنسيو يستغنى عن خدمات من لم يعبر منهم جبال البرانس بعد . غير أن الوافدين منهم دخلوا في خدمة سانشو راميرث ملك أرغون ، وهاجموا تطيلة في شتاء سنة ٤٨٠ هـ ، وفشلوا في هذا الهجوم ثم تراجعوا .

٣ - صالح الفرنسيو السادس قائده السيد الكنييطور بعد أن احتاج إلى سيفه ، واستقبله في طليطلة في هذا العام ^(١) .

٤ - رفع من شأن المرابطين أمام الرأي العام الإسلامي ، وصورهم في صورة المجاهدين عن الاسلام ، المدافعين عن أراضيه ، الذابين عن نفوره .

٥ - أسقط من قدر ملوك الطوائف في نظر رعيتهن ، ومهد السبيل إلى إسقاط دويلات الطوائف ، وضم الأندلس إلى دولة المرابطين في المغرب .

ج - تغلب يوسف بن تاشفين على الأندلس :

جاء انتصار المسلمين في الزلاقة بعد سلسلة من الهزائم المتتالية على أيدي الغشتاليين ، لذلك بالغ المسلمون في تقديره ، وقارنوه بأيام الاسلام الكبرى . ويعبر صاحب الحلل الموشية عن ذلك بقوله : « وكان يوما لم يسمع بمثله من الهرموك والقادسية ، فياله من فتح ، ما كان أعظمه ، ويوم كبير ما كان

(١) ارجع الى رسالة الدكتوراه الانية Afif Turk, El Reino de Zaragoza en el siglo XI de Jesucristo, tesis para el grado de Doctor, Madrid, 1956 pp. 224 - 225.

أكرمه . فيوم الزلافة ثبت قدم الدين بعد زلاتها ، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها ، نقت مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بها رؤوس الأندلس ... ، ^(١) .

ولكن موقعة الزلافة لم تكن سوى صدمة أصابت القشتاليين لزم من قصير ، ثم أخذوا يفيقون منها ، فان هزمهم لم تكن عن ضعف وتخاذل ، وإنما ترجع إلى غرور الفونسو بنفسه ، واعتزازه بقوته وسوء تصرفه . فلم يكدهم بعض عام واحد على هزيمته حتى كان قد تمكن من استعادة قوامه ، فنقل ميدان نشاطه هذه المرة إلى شرق الأندلس ، إذ أن غربها كانت تقوم فيه مملكتان قويتان هما مملكتا إشبيلية وبطليوس ، تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف مقاتل ، تركها يوسف بن تاشفين تحت تصرف المعتمد بن عباد . أما للشرق فعلى الضد من ذلك كان ممزقا من الناحية السياسية ^(٢) ، بالإضافة إلى أن جيوش المرابطين لم تكن قد وصلت إليه بعد ^(٣) ، فبادر الفونسو السادس بمصالحة السيد الكنييطور (صاحب

(١) الملل الموتية ، ص ٤٧

(٢) كانت تقوم فيه دويلات صغيرة ضعيفة ، هي لاردة ، والهبله ، واليون ، وبلنسية ، ودانية ، ومرسية ، والرية . وكانت تتوسط قلعة متينة لا ترم لحمايتها هي قلعة ليبل التي كانت تتعصب حاميه يتراوح عدد رجالها ما بين ١٢،١٣ ألف مقاتل ، وكانت العصابات القتالية تتغير من هذا الحمن على المناطق الجاورة ، وتنتشر الدمار فيها . (ارجع الى :

Remiro (Mariano Gaspar) : Murcia musulmana, Zaragoza, 1960 p. 133.

Menendez Pidal (R.) : El Cid Campeador, Coleccion (٣) Austral, Buenos Aires, 1950, p. 133 - Menendez-Pidal, Espana del Cid, Madrid, 1947, t. I, p. 350

القنص (في طليطلة في ربيع سنة ٤٨٠ هـ (١٠٨٧ م) ، ففما عنه بعد ١٦ سنة قضاها السيد في خدمة ملوك سرقطة : المقتدر أحمد بن سليمان بن هود (٤٣٨ - ٤٧٤ هـ) ، وابنه المؤتمن يرسف بن أحمد (٤٧٤ - ٤٧٨ هـ) ، ثم ابنه أحمد المستعين الثاني (٤٧٨ - ٥٠٣ هـ) ضد القطلانيين حينا والأرغونيين حينا ، والقشتاليين حينا آخر ^(١) . ثم منحه إقطاعات واسعة ، منها حصنا قرماج الأموي ودونياس ^(٢) . وفي العام التالي اتجه الكنيغفور إلى سرقطة عند أصحابه بني هود ، ومن هناك بدأ يعمل على تنفيذ الخطة التي رسمها مع سيد الفونسو لضم شرق الأندلس ، وبالذات مدينة بلنسية ^(٣) ، بينما قام غربية خيمينث قائد حصن لبيط ^(٤) بشن غاراته المدمرة على إمارات الربة ومرسية ولورقة ، فنشر الخراب في هذه المناطق ، وحول أراضيها إلى صحارى قاحلة ، ونجح عن هذه الغارات الحوالة أن أصبحت إمارتي مرسية ولورقة مهددان بغزو قشتالي محتوم ^(٥) ، وافقد أهل الأندلس الأمن والسلام ، وساء الموقف في الأندلس من جديد . ولم يكن قد مضى على انتصار المسلمين في الزلاقة طمان . ففزع المسلمون بالشكوى ، واستعرجوا المرابطين للمرة الثانية ، فوفدت على يوسف بن تاشفين

(١) Afif Turk, op. cit. pp. 171 - 185

(٢) Menendez - Pidal, El Cid, p. 130

(٣) كان القائد بن لى النور ملك طليطلة قد تنازل لأفونسو عن طليطلة على أن يملكه بلنسية عوضا عنها ، وقد أولى له الفونسو بهذا الشرط وساعده في دخول بلنسية . فدخلها محمرا في سنة ٤٧٥ (ابن عذاري ، ج ٣ طبعه ليفي بروكسال ، ص ٤٠٤)

(٤) Codera, Decadencia y desaparición de los Almorávides (١) en España, Zaragoza 1899, p. 3 . Remiro, op. cit. p. 130

(٥) Ibid. p. 134

بمحاضرته مراکش حملة من أهل بنفسية ومرسية ولورقة ، فشكوا له ماحل بأهل بنفسية من قوات الكنيطور ، كما شكوا له ماحل بأهل مرسية وأعمال لورقة ويسطة من غارات حامية ليط القشتالية (١) . ثم قدم إليه المعتمد ابن عباد ، فلقاه ابن تاشفين أحسن قبول في مرضع بوادي سبو . وكان بجيشه لغرمين : الأول ، استرجاع نفوذه بمرسية بعد أن تغلب عليها ابن رشيق ، والثاني ، وضع حد لغارات القشتاليين المتواصلة على أملاكه في شرق الأندلس ، وعظم له شأن ليط ، وأنه في قلب البلد ، وأن لاراحة للمسلمين إلا بفقده (٢) . ولم يجد يوسف بن تاشفين بدا من استجابة رغبات أهل الأندلس ، في مقاتلة للقشتاليين ، فصر الزقاق للمرة الثانية ، وتوافت إليه جيوش الأندلس ، ممثلة لكل دويلات الطوائف . ولكن حصار المسلمين للحصن ، رغم طول أمده ، انتهى بالفشل ، لشدة مقاومة الحامية للقشتالية ، ولحصانة الحصن ومناعته ، واستعصاء نقيه ، ولاختلاف كلمة المسلمين . فقد شكى المعتمد بن عباد ابن رشيق صاحب مرسية ، القائل بها عليه ، إلى يوسف بن تاشفين ، وذكر اعتدائه عليه ، كما اختلف ابن صياد مع ابن عباد . وأخذ ملوك الطوائف يترشقون اتهم أمام ابن تاشفين ، ويحكمونه في منازلهم ، حتى ضاق بذلك ؛ وكان الحصار قد طال ، وتأنب الفونسو للزحف بجيشه لتجدة حامية ليط ، كل هذه الأسباب حملت يوسف على رفع الحصار ، والعودة إلى محاضرته مراکش عن طريق المرية (٣) . ثم بلغ ابن تاشفين وهو بمحاضرته في المغرب أن الامير عبد الله

(١) الحلل الموشية ، ص ٤٧ ، ٤٨

(٢) مذكرات عبد الله الزيري ، ص ١٠٨

(٣) Codera, op. cit. p. 3

الزيرى صاحب غرناطة اتفق مع البرهانى Alvar Hauez ، وكيل القونسو السادس فى جهات غرناطة والربية ، وتعاقد معه على نصرته نظير ٣٠ ألف دينار . وكان ابن رشيق قد ثبت تعاونه مع النصارى أثناء قيام المسلمين بحصار حصن لييط (١) . لذلك عزم ابن ناشفين عزمًا صادقًا على استئصال شأفة ملوك الطوائف ، والإطاحة بعروشهم ، بحجة أنه لا ينبغي لهم قتال الروم ، ويتركوا وراهم الأعداء ممن يواسى عليهم معهم (٢) . فجاز إلى الأندلس للمرة الثالثة فى سنة ٤٨٣ هـ ، وهو ينوى هذه المرة القضاء على دويلات الطوائف ، وتوحيد كلمة الأندلس ، وتأليف جبهة أندلسية مغربية متحدة لمواجهة خطر النصارى المتزايد . وبدأ يوسف بنكبة الأمير عبد الله الزيرى صاحب غرناطة ، فزله عن ملكه ، وقام إلى مكانة (٣) . ثم أردفه بأخيه تميم صاحب مالقة . وفى سنة ٤٨٤ هـ أرسل أربعة جيوش مرابطية إلى الأندلس لمنازلة ملوك الطوائف وحصارهم فى بلادهم ، فهد إلى ابن عمه الأمير سمر بن أبى بكر بمحاصرة إشبيلية ودخولها ، والقبض على المعتمد بن عباد وحمله أسيرًا إلى المغرب ، كما عهد إليه أيضا بالاستيلاء على بطليوس وإسقاط دولة التوكل على الله عمر بن المظفر بن الأقطس ، وقد تغذ سمر أمر يوسف ، فدخل المرابطون إشبيلية ، وسبق المعتمد أسيرًا إلى أغمات حيث توفى فى سنة ٤٨٨ هـ . أما التوكل ، فقد كان مصيره أسوأ من ذلك ، إذ قتل هو وابناه فى أواخر سنة ٤٨٨ هـ .

(١) كان يعوهم ويبيهم خرفانًا قد يحمل عليه بتقديم (مذكرات الأمير عبد الله الزيرى)

(٢) قس المرجع ص ١٧٥

(٣) الملل الموشية ص ٥١

كذلك عهد يوسف بن تاشفين إلى أبي عبد الله بن الحاج بفتح قرطبة ،
وإلى أبي زكريا بن واسنو بفتح المرية ، وإلى حور الحبشي بفتح رتدة ،
وإلى داود بن عائشة بفتح السهلة واللبوت ومرسية . وقد علل يوسف بن
تاشفين إسقاطه للملك الطوائف بقوله : « إنما كان غرضنا في ملك هذه
الجزيرة أن نستقذها من أيدي الروم ، لا رأينا استيلائهم على أكثرها ،
وغفلة ملوكهم ، وإهمالهم للفرو ، وتواكلهم ، وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ،
وإنما هم أحدهم كأس يشربها ، وقية تسمعه ، وهو يقطع به أيامه ،
ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى
المسلمين ، ولأملأها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لأعدهم بالسهة ،
ولا علم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرجه ، أو
سلاح يستعيده ، أو صريح يلبي دعوته ... » (١) .

ولم يستثن من ملوك الطوائف سوى المستعين بالله أحد بن هود ، صاحب
مرقسطة ، فقد كان لا ينازعه ما في يده ، « ولا تطرق لحمله ، قبولاً منه
للعفو ، وإقراراً بما بينه وبين العدو ، لا تجده مضايقته من تصيير ما بيده إلى
الروم ، فكان يلاطفه ، ووجه إليه ابن هود ولده عبد الملك (في صحيفة
وزيريه أبي الاصبح وأبي طامر) ، فقام بحقه ، وصرفه مكرماً ، وأصبحه
كتابه » (٢) . وكان ابن هود ، قد كتب إليه قائلاً : « نحن بينكم وبين
العدو سداً ، لا يصل إليه ضرر ، ومطاعين قطوف ، وقد قنعنا بمسالمتكم » (٣) .

(١) المراكشي ، ص ١٦٣

(٢) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخامس بالأندلس ، ص ١٧٣

(٣) الحلال الموشية ص ٥٤ ، ٥٥

فرد عليه يوسف بن تاشفين رسالة ذكر ابن الخطيب نصها الكامل (١) .

ويعتقد الأستاذ الدكتور عفيف ترك أن المستعين كان يهدف من وراء هذه السفارة اجتذاب المرابطين إلى مظاهرة الإسلام في الأندلس ، بعد أن ساء الوضع كثيرا عقب مقتل القادر بن ذي النون في بلنسية في ١٣ رمضان سنة ٤٨٥ هـ وماتلا ذلك من أحداث خطيرة ، حلت السيد الكنيطور على حصار بلنسية ودخولها في جهادى الأولى من سنة ٤٨٧ هـ . ولا يستبعد الدكتور عفيف ترك أن يكون المستعين بالله وبوسف بن تاشفين ، قد اتفقا على تطهير منطقة بلنسية من القشتاليين ، وتحريرها من احتلالهم ، ويذكر أنه قد « يكون من بين بنود المعاهدة أن يساعد يوسف المستعين بالله على استرجاع أراضى طرطوشة ولاردة من المنذر التجيبي ، وضمها إلى مملكة سرقسطة لتكون جبهة قوية مع المرابطين للوقوف أمام نوايا قاطونية وأرغون التوسعية . ومن المرجح أن تكون هذه السفارة اليهودية قد وصلت إلى مراكش عندما انتهى ابن عائشة المرابطى من التغلب على مرسية ودانية في الوقت الذى كان السيد فيه بضيق الخناق حول بلنسية في أواخر سنة ١٠٩٣ (٤٨٦ - ٤٨٧ هـ) (١) .

ولقد قامت العلاقات الودية بين ملك سرقسطة وبين يوسف بن تاشفين ، ففي سنة ٤٩٦ هـ قدم ابن تاشفين إلى قرطبة ، فأرسل إليه المستعين بالله ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة بهدية جليلة من حملتها ١٤ رجلا من آية

(١) ابن الخطيب ، المرجع السابق ، ص ١٧٢ ، ١٧٤

(٢) Afif Turk, op. cit. p. 232-235

للقضية مطرزة باسم المقتدر بن هود (١)، وظلت هذه العلاقات الودية قائمة في حياة المسلمين، إلى أن استولى المرابطون على مرسطة في عهد عبد الملك عماد الدولة في ١٠ من ذي القعدة سنة ٥٠٣ هـ.

• جهاد المرابطين في الأندلس منذ دخولها في فلك دولتهم في المغرب :

كانت رسالة المرابطين منذ بداية تدخلهم في شؤون الأندلس تهدف إلى إنقاذ الإسلام في الأندلس، ولقد بذلوا حقا في هذا السبيل جهودا جبارة، وقضوا السنين عاما التي دامت فيها دولتهم بالأندلس في جهاد ومثابرة ضد الفشتاليين والأرغونيين. فقد تمكن القائد إبراهيم بن اسحق اللتوني من هزيمة قوات النصاري بقيادة البرهانش في المدور جنوبي الأندلس، ونجح داود بن عائشة في استرجاع حصن ليط. وكان الكنييطور قد استولى على بلنسية في سنة ٤٨٨ هـ (٢)، كما كان بدرو بن سانشو راميرث المعروف في المصادر العربية بابن ردمير، ملك أرغون قد استولى على وشقة من بلاد المسلمين بالله أحمد بن هود سنة ٤٩٠ هـ. ولكن القائد المرابطي محمد بن مزدلي نجح في استرداد بلنسية سنة ٤٩٥ هـ بعد وفاة الكنييطور (٣). وتبع ذلك استيلاء المرابطين على مريطر والمثارة والسهلة وغيرها من الحصون الموزعة في شرق الأندلس ووسطها، وانتصروا على قوات القونسو السادس في قنسوجرة، وقونكة، وملجون في سنة ٤٩٤ هـ. وفي عهد الأمير علي بن يوسف، تمكن المرابطون بقيادة تميم بن يوسف من هزيمة

(١) ابن الخطيب، المرجع السابق ص ١٧٤

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب ج ٣، ص ٣٥٦

(٣) نفس المرجع، ص ٣٥٦ - القرى ج ٦ ص ١٩٨

قوات الفونسو السادس عند أقليمش Uclès في ١٧، شو ال سنة ٥٠١ هـ ، وفي هذه الواقعة قتل الأمير سانشو بن الفونسو السادس من زائدة المسجلة ، كنة المعتمد بن عباد ^(١) ، كما قتل عدد كبير من مقاتلة النصراني وكتابهم ، يبلغ نحو ٧٣ ألفا ، من بينهم سبعة قوامس : ولذلك عرفت الموقعة بموقعة القوامس السبعة « Batalla de los Siete Cordes » (٢) . وقد استولى المرابطون على أثر ذلك على مدينتي قونكة وويذة . وفي سنة ٥٠٣ هـ جاز على بن يوسف إلى الأندلس ، وخرب منطقة طابطة ، واستولى على بعض الحصون ، نخص بالذكر منها حصن مجريط Madrid ووادي الحجارة . وفي ذي القعدة سنة ٥٠٤ هـ غزا الأمير سير بن أبي بكر الغرب ، وتغلب على شترين وبطليوس وشترة وبرنقال وبابرة وأشبونة . أما بالنسبة للملكي أرغون وقطالونية ، فقد لقي المرابطون منها أشد العناء بسبب غزوات الفونسو المحارب ملك أرغون . ففي رجب سنة ٥٠٣ هـ ، هزم ملك أرغون المستعين بالله بن هود ، وقتله في واقعة بلنيرة ، واستولى على تطيلة ، ثم استردها منهم المرابطون . وفي سنة ٥١١ هـ هزم الفونسو المحارب قوات المرابطين أمام سرقسطة ، واضطروا إلى الانسحاب منها ، وفي سنة ٥١٢ هـ دخلها الفونسو المحارب ، واتخذها عاصمة له ، وضم بعد ذلك طركونة

(١) Lévi - Provençal, Islam d'Occident, Paris 1948, pp. 137-151

والترجمة العربية ، الإسلام في المغرب والأندلس ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٥١ - ١٦٤ .
وانظر أيضا : الترنيتي ، أسنى التاريخ في بيان أحكام من غلب على وطنه النصراني
ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، مجلة المهد المصري ، عدد ١٩٥٧ ،
ص ١٨٩ ، ١٩٠

(٢) Codera, op. cit p. 9

وقلعة أيوب . وفي سنة ٥١٤ هـ كانت هزيمة المرابطين في كتندة من حيز دروكة ، وتبع ذلك سقوط طرسونة ، وألجون ، ومدينة سالم ، ودورقة في أيدي الأرقونيين . وفي عام ٥١٩ هـ ، كانت غزوه القونسو المحارب الكبير التي اخزق فيها بلاد المسلمين غربا ومدمرا ما قباله من قرى وحصون ومرأكو عمراية ، حتى وصل بالقرب من غرناطة ، وانضم إليه المعاهدون من نصارى الأندلس ، وفي هذه الغزوة يقول صاحب الحلل الموشية : « وفي هذه السنة خرج الطاغية ابن ردمير إلى بلاد المسلمين ، بلاد الأندلس ، فصكرت له ربح الظهور ، وذلك أن النصاري المعاهدين بكورة البيرة خائبوه بلك الأقطار ، وتوالت عليه كتبهم ، وتواترت رسلهم ملحة في الاستدعاء ، معلمة بدخول غرناطة . . . فخرج إلى سرقسطة ، ومنها إلى بلنسية . وانضم إليه عدد من النصاري المعاهدين الذين يرشدون طريق سيرة ، واجاز إلى جزيرة شقر ، ثم إلى دانيصة ، فشاطبة ، فمرسية ، ثم برشانة ، ثم بسطة ، ووادى آش . . . ومازال في سيرة حتى يئانة واستجدة ، وهزم المسلمين في أليسانة ، ثم جاز على وادى مزييل ، وعاد من حيث أتى بعد أن قضى عاما كاملا وثلاثة شهور »^(١) . وفي سنة ٥٢٨ هـ تطلع القونسو

(١) الحلل الموشية ، ص ٦٦ - ٦٩ . وقد أورد ابن الخطيب خبر هذه الغزوة في شيء من من التفصيل . استنادا على ما رواه أبو بكر السدقي القرطابي صاحب كتاب « الأنوار الجلية في أخبار الدولة المرابطية » (أرجع إلى الإحاطة في أخبار غرناطة ، ص ١١٤ - ١٢٠) وقد أحس المسعودي بالخطر الذي يترتب له الأندلس بعد هذه الغزوة الجريئة ، فأقن نفسه أبو الوليد بن رشد ينهبهم إلى بلاد المغرب . وهناك وثيقة مرابطية كتبها أبو عبد الله ابن أبي الحجاج من علي بن يوسف بعد الشان (عمود على مكن) ، وقامق تاريخية من مصر المرابطين ، صجرتا عهد الفراسد الإسلامية . مدريد ١٩٥٩ ، المجلد السابع ص ١٦٢)

المحارب إلى الاستيلاء على لاردة وإفراغة ، ولكنهم انهزم هزيمة نكراء في
إفراغة على أيدي المرابطين ، وقوات ابن غانية وابن مردنيش بقيادة يحيى
بن علي^(١) ، وفيها قتل أكثر رجاله . واتفق الروايات على أن القونسو
المحارب لقي حتفه في هذه الموقعة (٢) .

(١) الحميري ص ٢٤

(٢) ابن الخليل ، أعمال الأعلام ، القسم الخامس بالأندلس ، ص ٢٥٩ - يوسف
أشباح ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ص ١٦٥

(٤)

أسباب ضعف دولة المرابطين وانهارها

لما توفي يوسف بن تاشفين في سنة ٥٠٠ هـ خلفه ابنه علي بن يوسف، وتلقب بلقب أبيه «أمير المسلمين»، فجري على سنن أبيه في إثارة الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد، وكان حسن السيرة، جيد الطوية، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم. وقد بلغ في ذلك مبلغاً كبيراً قرب به من الزهاد المتبطلين من الملوك المتغلبين (١). وكان على يقرب إليه أهل الفقه والدين، فلا يقطع بأمر من أموره دولته دون مشاورة الفقهاء، فأصبح للفقهاء في أيامه سطوة وصولة لم يبلغوها من قبل. ويذكر المراكشي أنه «لم يكن يقرب من أمير المسلمين، ويحتل عنده إلا من علم علم الفروع، أعنى فروع مذهب مالك، فنفت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونهذ ماسواها، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله، وحديث رسول الله صلعم، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بها كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بحكثير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكرهة السلف له، وهجرم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد، في أشباه هذه الأقوال، حتى استحکم في نفسه بعض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي - رحمه الله - المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم

بالوحيد الشديد من سفك الدم ، واستئصال المال إلى من وجد عنده شيء .
منها ، واشتد الأمر في ذلك ، (١) .

كانت دولة المرابطين إذ ذاك في أوجها ، فقد ترك يوسف بن تاشفين لابنه اميراطورية كبرى تمتد من بجاية شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، ومن السودان جنوبا إلى سرقسطة والنغر الأعلى في الأندلس شمالا ، ويبدو أن المرابطين أخذوا ينغمسون في الترف والرفاهية والرقعة على مرور الأيام ، وسادت الثقافة الأندلسية في مراكش ، وأقبل رجال الأدب والعلم من الأندلس إلى بلاط الأمير في مراكش ، ومن أمثال هؤلاء أبو القاسم بن الجدد ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبي الطحال ، وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون وغيرهم (٢) . غير أن هذا الإقبال على الترف ومظاهر الدنيا خفف من جفوة المرابطين وخشونتهم التي كان يعتز بها يوسف بن تاشفين عند مقارنتهم بالأندلسيين (٣) . وصرح أن هانس هؤلاء في غمرة هذه الحياة الجديدة المبادئ الأولى التي قامت عليها حركة المرابطين ، وبالتدريج فقد المثلثون الصفات التي جعلت منهم رجال حرب مظفرين ، فتدهور حال جيش المرابطين في الأندلس . ولكتنا لا يجب أن نبالغ في حكمنا على المرابطين ، فنسب هذا الضعف الذي اعترى دولة المرابطين إلى تراخي جنودهم في الدفاع عن الثغور الإسلامية ، ففي ذلك ظلم كبير ، وتجننى عليها ، والحقيقة أن هذا الضعف جاء أيضا ، وبصفة

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٢ ، ١٧٣

(٢) ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧

(٣) المراكشي ، ص ١٦٣

خاصة بسبب الضربات العنيفة التي كان يسدها نصارى إسبانيا إلى الأندلس، وتكفل ممالك قطلونية وأرغون وقشتالة والبرتغال ضدهم، كما لا ينبغي أن تغفل عاملا آخر في غاية الأهمية، وهو قيام المهدي بن تومرت بالثورة على المرابطين في بلاد المغرب، مما اضطرهم إلى صرف قسم كبير من جهودهم للقضاء عليها. والواقع أن المعارك المتواصلة التي خاضها المرابطون في شبه الجزيرة، وبالذات في شرق الأندلس والشرقية الأعلى - هي التي استنزفت قوى المرابطين، وقضت على كل مواردهم، فلما طالوا أهل الأندلس بمحبتهم هم تنكروا لهم، ولم يولوا عنهم، وطردهوا في نهاية الأمر ولاتهم عليهم، ودعوا الموحدين إلى دخول الأندلس. وقد بدت نذر الضعف الذي طرأ على دولة المرابطين في أواخر أيام يوسف بن تاشفين نفسه، وبكفي دليلا على ذلك ما رواه المقرئ من أن يوسف كتب إلى أهل المرية يطالبهم بالمعونة، فرد عليه قاضيا أبو عبد الله بن القراء بكتاب رفض فيه أن يمدد بالمال، وطلب منه أن يدخل الجامع بمراكش، فيقسم أمام الملائكة بأنه ليس هتده درهم ولا في بيت مال المسلمين: أسوة بما فعله الرسول صلعم، والخليفة عمر بن الخطاب، ثم وعده في النهاية بالنظر في معارضة إذا أثبت ذلك^(١). وقد اضطر المرابطون إلى فرض ضريبة على أهل المرية وغيرها من مدن الأندلس المسماة، تعرف بالتمنيب أو التعاييب، يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم ما هو من الأسوار القديمة^(٢)، وذلك عندما

(١) المقرئ، ج ٤ ص ٢٥٧

(٢) الإدريسي، ص ٢٠٠ - الحيدري، ص ٢٢٣ من الترجمة، ملحوظة ١

Torres Balbas, el Arte de al - Andalus bajo los Almoravides, al-Andalus, vol. XVII, 1952, p. 413 - Torres Balbas,

تعرضت الأندلس لغزوة الفونسو الأول المحارب سنة ٥١٩ هـ ، التي اخترق فيها كل بلاد الأندلس حتى غرناطة وشواطئ البحر المتوسط .

ولقد صرف على بن يوسف الجزء الاعظم من جهوده في متابعة شؤون الأندلس ، ومراعاة أحوالها ، فقدم بنفسه إليها أربع مرات ليتفقد بنفسه أحوالها ، ويسد خللها ، وشغل المرابطون في الأندلس بمقاومة النصارى ، والمخد من نشاطهم في التوسع على حساب دولة المسلمين في الأندلس ، وجندوا في سبيل ذلك كل طاقاتهم ، وسخروا جميع إمكانياتهم ، إلا أن العدو المتربص كان يشن هجموه في كل مكان في الأندلس ، فتعدت جبهات القتال ، وتوزعت قوى المسلمين في هذه الجبهات . وبالرغم من كل هذه الجهود العظيمة التي بذلها المرابطون للجهاد ونصرة الإسلام في الأندلس ، فقد تكسرت هذه الجهود أمام تقاعس أهل الأندلس عن مساعدتهم ، وتخاذلهم وتراخيهم في المساهمة في مدافعة النصارى ، بل كنا نراهم أكثر من ذلك يتحالفون مع النصارى ضد المرابطين ^(١) ، ويثورون عليهم للتخلص

= Almeria Islamica, al - Andalus, vol, XXII, 1957, p. 444.

وما يدل على قرامخ خزائن المرابطين ، واستتار أهل الأندلس بأمر الدفاع عن مدينتهم أن سور اشبيلية في عهد المرابطين كان يحتاج الى الترميم بعد سيل آف على جانب منه ، ولم يكن بأشبيلية يومئذ مال متوفر ، فرض القاضي أبو بكر بن عربي على الناس جلود ضحايا يوم عيد الاضحى ، فاحضروها كارهين ، ثم اجتمعت العامة السياه ، وثاروا عليه ونهبت داره ، فاضطر الى اقامة السور من ماله الخاص (المنرى ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥)

(١) من أمثلة ذلك انجياز عبد الملك بن أحمد المستنير الى جانب ملك تشالة ، وتسيه في ضياح سرسطة نهائيا من المسلمين ، سنة ٥١٢ هـ ، وتعلق ابنه أحمد القائم بفتر روطه بأديال ابن ردمير (الفونسو المحارب ملك أرغون) وتنازله عن روطه (ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بالأندلس ، ص ١٧٥ ، ١٧٦)

من تبعيتهم لهم^(١) . أما تحليل المراكشي لحالة الضعف التي أصابت دولة المرابطين بالاختلال الذي طرأ عليهم في آخر دولة علي بن يوسف ، نتيجة تخاذلهم ، وتواكلهم ، وطاعتهم للنساء ، فقالة ظالمة ، وتحامل صريح ، وتجاهل لحقيقة الأوضاع السياسية في الأندلس ، يبرره تحيز المراكشي للمصاعدة الموحدين ، وميله إلى قضيتهم .

ولما توفي علي بن يوسف في سنة ٥٣٣ هـ ، وخلفه ابنه ناشفين ، توالى عليه الهزائم في المغرب على أيدي عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين ، واستنل أهل الأندلس هذه الفرصة ، وأعلنوا ثورتهم في الأندلس ، فتمزقت البلاد من جديد بعد وفاة سنة ٥٣٩ هـ إلى دويلات للطوائف ، واستعان هؤلاء الثوار على المرابطين بجيوش قشتالية وبرغالية ، ومن بين هؤلاء الثوار ابن وزير ، وأبو محمد سدرى ، ويوسف البطروجي ، وليد بن عبد الله بشترين ، وأبو القمير بن عزوز بشرش ، وابن عياض بشرق الأندلس ، وطلى بن عيسى بن ميمون بقادس ، رشيد بن علي الحجام ببجليوس ، ومحمد بن المنذر بشلب ، وابن عنان بيابرة ، والقاضي ابن حمد بن بقرطبة ، والقاضي أبو الحكم بن حسون بمالقة ، والقاضي أبو مروان عبد الملك بن عبد العزيز ببلنسية ، ثم خلفه عبد الرحمن بن عياض ، فحمد بن سعد الجذامي المعروف بابن مردنيش الذي ضم إليه مرسية . ومن الثوار أيضا القاضي أبو أمية أحمد بن عاصم بأوريولة ، والقاضي يوسف بن عبد الرحمن بن جزى بجيان ،

(١) وأهل قرطبة على الأمير علي بن يوسف في سنة ٥١٥ هـ (الملل الموشية ، ص

٦٣) . وفي أواخر عصر دولة المرابطين قامت الثورات في سائر أنحاء الأندلس ضد المرابطين منها ثورة الصوفية أو الريديس في غرب الأندلس ورائدها ابن قسي بمرنلة .

وأحد بن ملحان بوادي آش أما المرة فقد نار أهلها كذلك على المرابطين، ودخلت في فلك دولة الموحدين، فتولى على جيوش الموحدين فيها عبد الله ابن سليمان الذي قتله البحريون (١). وكان أول ولاية الموحدين عليهما من قبل عبد المؤمن بن علي، والي يقال له يوسف بن مخلوف، فتار عليه أهل المرة وقتلوه، وعرضوا رئاستهم على قائد البحر محمد بن ميمون، فلم يقبل، فقدموا على أنفسهم أبا يحيى ابن الرميح ٢ فقبضوا عليه أن استولى عليها الفونسو السابع ريموند الملقب عند مؤرخي العرب بالسليطين ملك قشتالة (٣)، في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ، ودخلها عنوة (٤).

ونعود إلى الحديث عن أسباب ضعف دولة المرابطين فنذكر منها أيضا أن فقهاء المرابطين لم يولوا دراسة الحديث من الاهتمام ما يستحقه، فترام ينصرفون عنه ولا يرجعون إلى الأصول لكن يستنبطوا منها الأحكام، ويتخذوها مادة للدراسة، وإنما اكتفوا بذلك الأحاديث المجموعة في كتب القروع، وجعلوها مرجعهم الوحيد من غير تحفظ، كما أشرنا إلى ذلك. ويعلق الأستاذ لينى بروفنسال على ذلك بقوله: «وكان من أنسر حجر للفقهاء لدراسة الحديث وما يحصل به من مصادر أن ألقى علم أصول الفقه

(١) الأيذق، ص ١٢٦

(٢) المراكشي، ص ٢١٠ - القرى، ج ٦ ص ٢٠٦

(٣) مجموع رسائل موحدي من كتاب الدولة المؤنية، نشرها لينى بروفنسال، الرباط

١٩٤١، ص ٧٥ - القرى ج ٦ ص ٢٠٧

(٤) استنوت عليها قوات قشتالة ونبرة وطلانية وبيزية وبنوية مشتركة Codera, op. cit. n. ١٣٥ يوسف أتاباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين

والموحدين، ص ٢٢٥

الذى تستلزم بمقتضاه أحكام قد تكون جديدة ، وأدى الاعتداء على الفروع
التي تتضمنها كتب المذهب إلى تجرييد الدراسة من روح الكشف الجذابة ،
وانساق القوم وراء التقليد ، وانصرفوا عن النظر والاجتهاد ، وكان موقف
الدراسات الكلامية في موضعه من الجمود المشتبه عند ظهور دعوة ابن
تومرت ، ومن هنا لم يلبث هذا الناقد اليربى حين عاد من المشرق أن صدمته
العقيدة السائدة في المغرب ، وراح بناهضها بأقصى قوة ، إلا أن ذلك لم
يكن قط المأخذ الوحيد الذى أخذه المهدي المقبل على المرابطين ، بل كان
هناك ما هو أشد خطراً في رأيه ، ألا وهو التجسيم ، وكان منشأ هذا الخطأ
في نظره ، أن فقهاء المغرب في عهد المرابطين خلافاً لزملائهم في المشرق ، وقد
بلغوا حينئذ من التطور غاية فيما يتعلق بمباحث علم الكلام ، ظلوا يلتزمون
في الآيات القرآنية التي فيها ذكر لصفات الله النص الحرفي لها بما يفضى إلى
تجسيم للذات الإلهية ، وإلى إثبات صفات جسمية له تعالى ، كانت هناك
بطبيعة الحال عقبة كأداء بين هذه النظرية القائمة على التفسير الساذج لما تعبر
عنه النصوص الأصلية وبين النظرية القائلة بالتزيه المطلق على نحو ما تعلمه
ابن تومرت من أساتذته المشاركة ، واعتنقها في حماس كبير « (١) .

كذلك أثارت قراءة كتاب إحياء علوم الدين للغزالي في بلاد المغرب
موجة من الغضب عند فقهاء المرابطين ، لأن قراءة الناس لهذا الكتاب كانت
شواً على تقوُّذ المسائل ، إذ كان الغزالي قد فضح فيه نزعات الفقهاء في
دراساتهم الفقهية ، وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم في الحصول على للتأصب
الرفيعة ، وحسد العلماء والزهاد . ولم يكن العلم في نظره حرفة كالخرف

الأخرى ، أو مهنة دنيوية تعود على صاحبها بالرجع العاجل ، وإنما هو « عبادة القلب ، وصلاة السر ، وقربة الباطن إلى الله تعالى » (١) ، فاتخذ الفقهاء في المغرب قراراً أملاًه على السلطان علي بن يوسف سنة ٥٠٣ هـ ، وبقضى باحراق كتب الغزالي في أنحاء دولة المرابطين . وكان من الطبيعي أن يثور أهل المغرب على هذا التصرف ، ولكن الفرقة المسيحية التي استعان بها علي بن يوسف في المغرب ، وكان يقودها القائد القطلاني روبرتير كانت تحول دون قيام الأهالي بالثورة . ولذلك نبت الثورة من مصدر آخر هو ثورة المهدي بن تومرت (٢) .

(١) أبو حامد الغزالي ، أحياء علوم الدين ، ج ١ ص ٤٥ ، طبعة مصر سنة ١٣٠٢ هـ

(٢) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الاسلامي ، ص ١٣٨

(٥)

منشآت المرابطين في المغرب

١ - دور المرابطين السياسى والحضارى في المغرب :

لما تم ليوسف بن تاشفين فتح بلاد المغرب سنة ١٠٦٤ هـ ، استطاع الصنهاجيون أن يفرضوا نفوذهم في القسم الغربي من بلاد المغرب ، وهزموا أعداءهم الزناتيين الذين لم يتمكن الفاطميون ، أو أمراء بنى زيرى من التغلب عليهم ، وبذلك ربط المرابطون بين بلاد المغرب ، وألفوا دولة كبرى بربرية الأصل لا يحكمها مشاركة ، كما كان الحال في العهود السابقة ^(١) . ويرجع إليهم الفضل في تكوين الوحدة السياسية للمغرب الأقصى ، فلم يكن المغرب الأقصى حتى ظهور المرابطين دولة قائمة بذاتها ، فالى يوسف بن تاشفين يرجع الفضل في ضم الاراضى المغربية للمرة الأولى في وحدة وثيقة تحت لوا أسرة واحدة ، وستظل هذه الوحدة قائمة حتى العصر الحاضر .

أما من ناحية البناء الاجتماعى والاقتصادى ، فقد كان للمرابطين الفضل في قيام تجمعات عمرانية هامة مثل مكناس وتلسان ومراكش ^(٢) على الرغم من قضائهم على التكتل البرغواطى أساس قسوة السهول المغربية ، وتدميرهم للقرى والمجاشر أثناء صراعهم مع قبائل زناتة وبرغواطية .

ومن الناحية الدينية عمل المرابطون على نشر المذهب المالكى في البلاد فانتهى الأمر بالمغرب إلى ارتباطه بوحدة مذهبية وثيقة تقوم أساسا على

(١) Marçais, la Barbarie, p. 231

(٢) Terrasse, Histoire du Maroc, t. 1, p. 257

للمذهب المالكي . كذلك يرجع إلى المرابطين الفضل في رفع راية الجهاد ضد النصارى في إسبانيا ، فأنتقدوا بذلك الاسلام في إسبانيا من استرداد مسيحي وشيك .

أما من الناحية الفنية ، فالمرابطون هم الذين دفعوا الحضارة الأندلسية إلى الأمام ، وفتحوا أبواب المغرب ليتلقى فيها من التأثيرات الأندلسية التي بدأت تندفق في عصرهم على البلاد المغربية ، بعد أن كانت هذه الأبواب موصدة في العصور السابقة أمام هذه التأثيرات ، فلم تكن تنفذ منها إليها إلا ما كان يتسلل عن طريق منافذ فتحها الأمويون في سبتة وقاس . ولأول مرة ارتبط للمغرب والأندلس في وحدة فنية وثيقة ، وأصبحت الأندلس في المجال الفني أستاذًا للمغرب ، فساد الفن الأندلسي في المغرب ، وظهرت تقاليده واضحة وضوحًا تامًا فيما تخلف من آثار المرابطين في المغرب ^(١) .

وإذا كان يوسف بن تاشفين قد أبدى امتعاضه عند زيارته لاشبيلية من مظاهر الترف الأندلسي ، فإنه لم يلبث أن شجع شعراء الأندلس وأدباءها وأهل العلم منها إلى الوفود إليه ، بعد أن أسقط ملوك الطوائف ، فاصطنعمهم في بلاطه ، وفي ذلك يقول المراكشي : « فاقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحواله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم ، واجمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلافة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار » ^(٢) . ومن هؤلاء أبو بكر

(١) Tarrasse, Part Hispano mauresque, Paris 1932, p. 223-

Marçais, L'Architecture musulmane d'Occident, pp. 185 - 187

(٢) للمراكشي ص ١٦٣ - ١٦٤

المعروف بابن القصيرة ، كاتب المعتمد ، وكان من أهل البلاغة ، ثم الوزير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون ، وأبو القاسم بن الجند المعروف بالاحدب ، وأبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأخوه أبو مروان وغيرهم ^(١) . وعلى هذا النحو تبدل بلاط يوسف بن تاشفين دفعة واحدة من بلاط يتسم بالخشونة والبساطة إلى بلاط متألق متحضر ^(٢) ، وأخذ أمراء المرابطين منذ أيام يوسف بن تاشفين يستقدمون من الأندلس كثيرا من رجال الفن والبناء ، وبشر كونهم في الأعمال الفنية بالمغرب ، فقد ذكر الأندلسي أن علي بن يوسف عندما عزم على بناء قنطرة على وادي تنسيفت ، استقدم من الأندلس الخبراء في بناء القناطر ^(٣) . ويذكر الأندلسي أن حصن تاسفيموت الذي أقيم في سنة ١١٢٥ م في عهد الأمير علي بن يوسف تم بناؤه تحت إشراف مهندس أندلسي هاجر إلى مراكش ، اسمه الفلكي ^(٤) ، وإن كان اليزيد يذكر أن الذي بناه هو ميمون بن ياسين ^(٥) . ويذكر الجزنائي أن علي بن يوسف أمر قاضيه أبي محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الغرناطي بعمل منبر جامع القرويين بفاس ^(٦) . كذلك تدل الآثار المعاصرة الباقية في تلمسان

(١) قس المرجع ص ١٧٣ ، ١٧٤

(٢) ليني بروقتال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ٢٤٧

(٣) الأندلسي ، ص ٦٩

(٤) Terrasse, *Part hispano mauresque*, pp. 226, 227

(٥) الينقي ، ص ١٢٨

(٦) الجزنائي ، ص ٤٢

والجزائر ومراكش على ان فنانهم ومهندسين أندلسيين ساهموا مساهمة فعالة في بنائها وتزيينها بالزخارف على النحو الذي ستراه فيما بعد .

ب - دراسة لأهم مساجد المرابطين في المغرب :

احتّم المرابطون بناء المساجد اهتماما خاصا ، والدليل على ذلك أن يوسف ابن تاشفين عندما دخل مدينة فاس في سنة ٤٦٢ هـ « حصنها وأتقنها ، وأمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين ، عدوة القرويين وعدوة الأندلس وردها مصرا واحدا ، وأمر ببنائ المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأى زقاق لم يجد فيه مسجدا عاقب أهله وجهزم على بناء مسجد فيه ... » (١) . ولما هدم الأسوار الفاصلة بين مدينتي فاس ووحدتهما ، أصبح جامع القرويين الجامع الرئيسي بفاس ، ولذلك حظى هذا الجامع في عهد ابنه علي بن يوسف بزيادة كبيرة فيه ، بينما ترك جامع الأندلس على حاله حتى أضيف إليه في عصر محمد الناصر الموحدي سنة ٦٠٠ هـ . كذلك أسس يوسف بن تاشفين عددا من المساجد في جزائر بني مزغنة وفي ندرومة وفي تاكرارت بتلمسان ، كما أسس جامع مراكش ، وكان يعمل في الطين والبناء بيده مع القومة والفعلة . وقد أعاد ابنه علي بن يوسف بناء هذا الجامع بجموار قصر الحجر فشيده بناء فاخرا .

وجامع تلمسان بناء مستطيل « كأن طوله من الشمال إلى الجنوب ٥٥ مترا ، وعرضه من الشرق إلى الغرب ٥٠ مترا . وتاريخ بناء هذا الجامع مسجل في كتابة نسجية تدور بقاعدة قبسة المحراب ، وتشهد إلى الفراغ من بنائه في

سنة ٨٣٠ هـ ، أما اسم منشئ هذا الجامع ، وهو الأمير علي بن يوسف ، الذي كان مقروشا في الحص ، فقد شوهه الموحدون عند دخولهم المدينة . ويتألف المسجد من بيت للصلاة مستطيل الشكل ، وصحن مربع تكتنفه من الغرب محبة تتألف من أربع بلاطات ، الاثنتان المتطرفتان منها غير كاملة ، إذ تحدد شكلها بالبناء القسائم لصق الجامع من الجهة الغربية . أما المحبة الشرقية فتألف من ثلاث بلاطات تمتد امتداداً لبلاطات بيت الصلاة . ويشتمل بيت الصلاة على ١٣ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، وتستند عقود الجامع على خمسة صفوف من الدعامات تمتد بحذاء جدار القبلة ، كل منها يشتمل على ١٢ دعامة . هذه الصفوف من الدعامات تقسم سطح بيت الصلاة إلى ٦ أساكيب تمتد من الشرق إلى الغرب ، وبمعنى أصح إلى مجموعتين من الأساكيب كل منها بضم ثلاثة . وتفصل بين المجموعتين دعامات معلبة الشكل تقوم عليها بائكة من العقود المتعددة المفصوص ، تقطع المسجد عرضاً بحذاء جدار القبلة . أما العقود الأخرى المتجهة عمودياً على جدار القبلة فن النوع المنفرخ الذي يشبه حدوة الفرس . وسقف المسجد خشبي مسطح ، يحلوه سطح منشوري الشكل أو مسنن على النحر المتبع في جامع قرطبة . والبلاطة الوسطى تزيد في الانساع عن البلاطات الأخرى ، ويقطع سطحها قبتان ، يحلوهما جوسفان من الخارج ، واحدة منها تقع بأعلى الأسطوان الأوسط من القسم الشمالي من البلاطة الوسطى ، أي في نفس الموضع تقريباً الذي تقوم عليه القبة المخزمية الكبيرة بقبة فلافيوسا بجامع قرطبة . أما القبة الثانية فتتقدم المحراب ، وهي قبة من النوع القائم على الضلوع المتقاطعة ، تذكرنا بقباب المسجد الجامع بقرطبة وبقباب مسجد باب مردوم بطليطلة ، وتختلف عنها في أنها تقوم على جوفات ركنية مقربصة ، ويبت من القاعدة

للربعة للقبه ١٢ هكدا كبيرا بارزاً تقاطع فيها بينها تاركة في الوسط قببة مفرصة ، وتزدان القوافل الناشئة من تقاطع العقود جوارقات مفرغة في الجص ، ويجعل تقاطع العقود من الخارج أيضا . وكان يحيط بأسطوان المحراب ، أى بأدنى قاعدة هذه القبه مقصورة من الخشب ، حفظت أجزاء منها في متحف تلسان ، ويرجع تاريخ إنشائها إلى سنة ٥٣٢ هـ .

وبناء جامع تلسان مر بثلاث مراحل : المرحلة الأولى عند بنائه على أيام يوسف بن تاشفين في سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢ م) ، والثانية في سنة ٥٣٠ هـ عندما زينه على بن يوسف بالزخارف الرائعة التي يزدان بها خاصة في وجه المحراب وجداره والبلاطة الوسطى . ويعتقد الأستاذ مارسيه أن يضمراسن ابن زبان ، من سلاطين بني عبد الواد ، هو الذي أضاف إلى الجامع القسم الشمال من مسطح بيت الصلاة بما في ذلك القبه الثانية والصحن والمئذنة ^(١) . ونعتقد أن بيت الصلاة كان قائما في عهد علي بن يوسف بقبته اللتين ترتفعان في أعلى بلاطة المحراب ، وأن مهندس هذا الجامع تأثر في بنائه ببناء جامع قرطبة من هذه الناحية ، وفي هذه الحالة تصبح أعمال بني عبد الواد مجرد ترميمات لبناء كان قائما بالفعل منذ أيام علي بن يوسف . أما المسجد الجامع بالجزائر ، فقد أقيم أيضا في عهد يوسف بن تاشفين ، ويعتقد الأستاذ مارسيه أنه أسس في سنة ٤٩٠ هـ ، وهو التاريخ المسجل على منبر الجامع ^(٢) ، وإن كنا نعتقد أن هذا المسجد أقيم قبل هذا التاريخ فيما بين عامي ٤٧٣ هـ ، ٤٧٥ هـ . وبيت الصلاة في هذا المسجد يشتمل على ١١ بلاطة

Marçais, l'Architecture musulmane, p. 197 (١)

Marçais, l'Architecture musulmane, p. 191 (٢)

عمودية على جدار القبلة ، تخترقها خمسة أساكيب عرضية . ونلاحظ أن كل من بلاطة المحراب وأسكوبه تزيد في الانساع على البلاطات والاساكيب الأخرى . ويحيط بالصحن ثلاث مجنبات : الشرقية والغربية تشتمل كل منها على ثلاثة أروقة تمتد بامتداد بلاطات بيت الصلاة ، أما الشمالية فلا تنضم إلا رواقاً واحداً . وعقود المسجد العمودية على جدار القبلة من النوع المنفوخ المنكسر ، أما الموازية للجدار القبلي فمفصصة ، وترتكز هذه العقود كما هو الحال في جامع تلمسان على دعائم ، بعضها مستطيل الشكل والبعض الآخر منها مصلب الشكل (١) .

ومن أروع آثار المرابطين ، قبة البروديين بمراكش ، وترجع إلى عصر علي بن يوسف ، وتقع في وسط المدينة ، وكانت تؤلف جزءاً من ملحقات جامع علي بن يوسف ، وهي من أروع القباب المرابطية الباقية ، وتقوم في أركان المثلث الذي يقوم عليه عنق القبة جوفات تكسوها زخارف حصية رائعة ، من التوريفات الدقيقة التي تمثل أوراق الأكشس في تكوينات رائعة ، وتوسط الجوفات قواقع مروحية في غابة الروعة والجمال (٢) .

ج - جامع القرويين بفاس :

وأعظم آثار المرابطين على الإطلاق الجامع المعروف بالقرويين بفاس ،

Ibid. (١)

Boris Maslow, la Qoubba Barudiyyin à Marrakech, al- (٢)

Andalus, vol. XXII 1948 - Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 200

الذي يعتبر من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب ، وأكثرها شهرة ، باعتباره جامعة إسلامية قديمة يمكن مقارنتها بجامعة الأزهر في القاهرة . وقد كان لهذا الجامع أثر بالغ في مساجد فاس كلها ، إذ كان نظامه للقريد يؤلف طباعا انتشر في كثير من مساجد فاس ومكناس ومراكش حتى وقتنا الحاضر (١) . وقد وصل إلينا تاريخ بناء جامع القرويين بفاس مفصلا بفضل روايات أوردها ابن أبي زرع في روض القرطاس والجزئاني في زهرة الآس . ولقد مر بناء جامع القرويين بثلاثة أدوار : الأول عند تأسيسه سنة ٢٤٥ هـ (٨٥٩ م) ^(٢) ، والثاني عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥ هـ (٩٥٦) . والثالث عندما زيدت مساحته في عصر المرابطين في سنة ٥٣٠ هـ (١١٣٥ م) . ومن الثابت أن الزيادات التي أضيفت إلى الجامع القديم تمت من سائر الجهات .

ويذكر ابن أبي زرع أن الخطبة لم تزل « بجامع للشرفاء الذي بناه إدريس بسدوة القرويين ، وجامع الأشياخ من سدوة الأندلس طسول أيام

(١) Lambert, les mosquées de type andalou en Espagne et en Afrique du Nord, al - Andalus, vol. XIV, 1949

(٢) صر الأستاذ عبد الهادي التازي في الأرض التي كل يوم عليها المسجد الأول على لوحة تأسيسية للجامع تتضمن النص التالي: [هذا ما أسسه الإمام أحمد - الله داود بن إدريس أبنائه الله ونصره] ، ويستنتج الأستاذ التازي أن هذا المسجد أقيم في سنة ٢٦٣ في أيام إمام داود بن إدريس . (أنظر مقاله: نظرية جديدة في بناء جامعة القرويين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ١٩٥٨ ، ومقاله : الحروف المنقوشة بالقرويين في خدمة الآثار ، المؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٤٦٦) ، ولا كان هذا النص لا يشير إلى بناء معين فالأرجح أنه يشير إلى بناء ملحقة بالجامع وليس من الضروري أن يكون خاصا ببناء الجامع

الإدارة ، فلما اتسعت مدينة فاس ، ووفد إليها العرب والبربر من أنحاء المغرب والأندلس ، ضاق كل من الجامعين بالمصلين ، واستلزم الأمر بناء جامعين جديدين ، وكان في جملة هؤلاء الوافدين رجل عربي من القيروان اسمه محمد بن عبد الله الفهرى ، فأتى وترك أموالا كثيرة ورثتها ابتغاء : فاطمة المدعوة بأم البنين ، ومريم . وأبدت الابتسان رغبة صادقة في صرف قسم من هذا الإرث الكبير في عمل البر والخير ، ويبدو أنها سمعتا بضيق جامعي العدوتين ، عن الانساع لمجهر المصلين ، وقيام مشكلة بناء جامعين جديدين ، فشرعت فاطمة في بناء جامع القرويين في مستهل رمضان سنة ٢٤٥ هـ ، وكان في موضعه حقل يمتلكه رجل من هوارة ، فاشترته منه فاطمة وتطوعت بالاتفاق على البناء من إرثها . وتذكر الرواية أن جميع مواد بناء الجامع استخرجت من أرض المسجد نفسه ، وفي ذلك يقول الجزنائي : « فحفر في أرضه ، وأخذ منها التراب والكثبان لبنائه ، وحفر بها بئر لأخذ الماء لبنائه ، ونصبت قبلته على نحو قبلة جامع الشرفاء الذي أسسه الإمام إدريس » (١) . وكان هذا الجامع الأول يتألف من قسمين : بيت الصلاة والصحن ، وكان بيت الصلاة يشتمل على أربع بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب ، تنوسطها بلاطة وسطى أكثر ارتفاعا من البلاطات العرضية الأخرى . كان طول بيت الصلاة من الشرق إلى الغرب مائة وخمسين شبرا أي ما يعادل ٣٠ مقرا ، وجعلت فاطمة بئرا في موضع التراب الكبير الموجودة في المسجد في الوقت الحاضر ، وأقامت صومعة غير مرتفعة في

(١) ابن أبي ذرع ، روض القرطاس ، ص ٢١ - الجزنائي ، من ٣٥ - ابن الناقض ،

جلوة الانقباس عن ليني بروفسال Extrait ، ص ٢٢

موضع القبة التي تعلو العزة الحالية . وبذكر الأستاذ جورج مارسيه أن هذه المعلومات التي زودنا بها المؤرخان السابقان على جانب كبير من الأهمية لأنها أتاحا لنا تحديد المكان الذي كان يشغله بيت الصلاة القديم من جامع القرويين في صورته الحاضرة . ويؤكد الأستاذ مارسيه ، ويؤيده في ذلك الأستاذ لامير أن طول بيت الصلاة القديم كان يمتد من بداية البلاط الرابع من الصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالي ، وكان عرضه يشمل على العقود الاثني عشرة الوسطى المحصورة بين البلاطات المذكورة ، ويحدد هذا العرض صفان من العقود تقطع بيت الصلاة من الصحن حتى جدار القبلة . أما الصحن القديم فكان يشغل الأروقة الثلاثة الأولى ابتداء من العزة ، في حين كانت المئذنة تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد في محور المحراب ، شأنها في ذلك شأن مئذنتي جامع القيروان وجامع قرطبة ، ومئذنة العروس بجامع دمشق (١) .

وظل للمسجد على هذه الصورة القديمة حتى دالت دولة الادارسة ، فلما تولى بنو زناتة حكم البلاد ، واستقام أمرهم بالمغرب ، بنوا الاسوار حول أرياض العدوتين ، وزادوا في جامع القرويين زيادة كبرى ، وحدودها ظاهرة حتى اليوم ، تشمل بلاطات وصومعة ، وذلك حين كثرت الناس بغساس ، وانتابوها من كل صوب ، وأصبح جامع الشرفاء القديم ضيقا لا يتسع لكل من كان يؤمه من المصلين ويمكننا تحديد هذه الزيادة بالنسبة للمسجد الحالي على النحو التالي ، مد الأمير أحمد بن أبي بكر البلاطات العرضية مسافة خمسة

Marçais, l'architecture, p. 198 - Lambert, les mosquées de (١)

عقود شرقا وأربعة عقود غربا، ثم أضاف لبيت الصلاة ثلاث بلاطات
 غرضية جديدة شمالا، فشدت هذه البلاطات الجديدة المصحن القديم (١).
 وبطبيعة الحال قام لبيت الصلاة بعد اتساعه صحنًا جديدًا. أما المئذنة التي أقامها
 فتقوم فوق منتصف الرواق المثل على المصحن من المجنبة الغربية، وقاعدة
 هذه المئذنة مربعة، طول كل ضلع منها نحو خمسة أمتار، وارتفاعها أربعة
 أمثال طول قاعدتها، أي ما يقرب من عشرين مترا، وفقا للنظام المتبع في
 ما ذن الأندلس في العصر الأموي، وجعل بابها من جهة الجنوب على النحو
 المتبع في مئذنة جامع القيروان، وقد علق ابن أبي زرع على ذلك بقوله:
 « كذلك يجب أن تكون من جهة البناء والنظر الهندسي ». ولقد شرع
 الأمير أحمد في بنائها وتشييدها عام ٣٤٤ هـ، وفرغ منه في ربيع الآخر
 سنة ٣٤٥ هـ، وبني من الحجر المنجور المحكم، وركبت على رأسها نقاحات
 صغيرة موهة بالذهب، تنتهي بسيف الإمام إدريس بن إدريس الذي أقام
 عدوة القرويين تبركا به (٢).

ونلاحظ أن هذه المئذنة تشبه إلى حد كبير ما ذن قرطبة وإشبيلية في
 عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط، وإن كانت تغلب عليها البساطة. وفي
 داخلها درج حلزوني يدور حول دعيمة مربعة، وبجدرانها من الخارج
 فتحات ضيقة تشبه منافذ السهام، كان الفرض منها تزويد الدرج بالضوء،
 وبأعلى المئذنة نافذة على هيئة عقدتين توأمين متجاوئين، يستندان على عمود
 مشترك، ويحيط بهما إطار مستطيل على النحو الذي نراه في ما ذن الأندلس

(١) الجزء ١، ص ٣٦ - جفوة الاقياس، ص ٢٤

(٢) تقي المرج، ص ٣٧

كلها ، وفي أعلى نهاية جدار المئذنة شرفات هرمية . أما سطح المئذنة فتعلوه قبة ، يتوجها سفود بارز ركبت به التفاحات المذكورة (١) . ولم تحتفظ هذه المئذنة بمظهرها القديم في عصر بني أمية ، إذ كسيت بطبقة من الجص في سنة ٦٨٨ هـ (١٢٨٩ م) ، فقد أمر السلطان أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني قاضيه أبا عبد الله بن أبي الصير باصلاحها وتبييضها من أموال أعشار الروم ، فشرع في تبييضها ، وكسا المئذنة بالجص والجيار ، وسمر للسامر الكبيرة بين أحجارها ، ليثبت التليس والبناء ، ثم صقلها بعد ذلك حتى أصبحت كالآراء المصقولة ، بعد أن كانت الطيور تتخذ من بعض فتحاتها أو كرا (٢) . ولم يطرأ على المسجد تغيير يذكر حتى كانت أيام الخليفة الأموي هشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر ، فبنى بالمسجد قبة هي التي تعلو المئذنة الحالية أى في الموضع الذي كانت تشغله المئذنة القديمة ، ونصب على رأسها أعمدة من حديد ركبت فيها تماثيل وطلاسم . ولقد أجريت بالمسجد أعمال كثيرة في عهد المظفر عبد الملك بن المنصور ، فبنى البيلة والسقاية المستطيلة على يسار الخارج من باب الحفافة وهو باب مفتوح في منتصف الجدار الشمالى للمسجد ، وجلب إليها المياه من وادى حسن من جهة باب الحديد ، كذلك أقام عبد الملك بن المنصور منبراً من الأنثوس وشجر العناب ، وكان مكتوباً عليه « بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله

(١) فيما يخص بالآندل القرطبية ارجع الى المثال الأتى :

Torres Balbas, la primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946, pp. 425 - 436

وارجع الى بحث : تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٤٠١

(٢) الجزناى ، ص ٣٨

على سيدنا محمد وآله وسلم ، هذا ما أمر به الخليفة المنصور ، سيف الاسلام ،
جيد الله هشام المؤيد بالله ، أطل الله بقاءه ، على يد حاجبه عبد الملك المظفر
ابن المنصور بن أبي طاهر ، وفقهم الله تعالى ، وذلك في ثمان وثمانين
وفلانة (١) . ودام هذا المنبر حتى أمر على بن يوسف بعمل منبر جديد
من خشب الصندل والابنوس والتارنج والعناب وعظم العاج .

* * *

ازدهرت قاس في عصر الرابطين ، وكثر العمران بعدوة القرويين حتى
ازدحت المدينة ، واكتظت بسكانها ، وضاق جامع القرويين بالمصلين حتى
كان الناس يصلون في الأسواق والشوارع والطرق المحيطة بالجامع أيام الجمع ،
وكانوا يلاقون متاعب كثيرة لتعرضهم لحرارة الشمس أيام الصيف ،
فاجتمع الفقهاء والاشياخ ، وخطبوا قاضي القضاة في هذا الأمر ، فاستأذن
القاضي أمير المسلمين على بن يوسف في إجراء زيادة بالمسجد ، فاذن له
بالشروع فيها في سنة ٥٢٨ هـ (١١٣٣ م) ، وتمت في سنة ٥٣٨ هـ (٢) . وابتدأ
القاضي بترع ملكية الدور الملاصقة للجامع من جهة قبلته ومقدمها ، وأقام
مكانها ثلاث بلاطات عرضية ، أضيفت إلى البلاطات السبعة القديمة ، وزود
الجامع بمحراب جديد ومنبر أشرفنا إليه فيما سبق . وأعاد بناء الباب الغربي
الكبير المعروف بباب النخارين ، فسمى بباب الشعاعين . وكان يشرف على
البناء بنفسه . وأقام على الباب قبة بداخلها نقش ، ذكر ابن أبي زرع نصه
كالتالي : [صنعت هذا الباب والقبلة ركلف بالبناء والتركيب في شهر ذي

(١) المرجع السابق ، ص ٤٢

(٢) ولكن النقوش الكتابية بأعلى النافذة الوسطى التي تلو المحراب ، وفي الجهتين الشرقية
والغربية من القبة المستطيلة التي تلي قبة المحراب وعلى عتبة باب الجنائز ، تؤكد أن الفراغ
من التزيين تم في سنة ٥٣١ هـ (راجع المحرور ، المنشورة بالقرويين ص ٤٨)

حجة سنة ثمان وعشرين ومجسمائة [١]. وبنيت الزيادة بحجر الكاذبان ، وتألق في بنائها غاية التألق ، وكسيت أبواب المسجد جميعها بالنحاس الأصفر ، وأقيمت على كل منها قبة . وأقيمت على المحراب قبة من الجص المقرص ، بلغت للغاية في الروعة والجمال ، فقد زينت هي والمحراب بنقوش الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة ، فبهرت الناس بحسنها ولا لأنها (٢) ، وركبت في شہات القبة (التوافد المشبك بزخارف الجص) أشكال رائعة من الزجاج الملون (٣) :

وبذكر الأستاذ تراس أن هذه الأعمال الإنشائية تمت على أيدي فنانين استقدمهم الأمير من الأندلس (٣) . ففي زخارف هذا المسجد نشاهد مجموعات من المراحل التخيلية المعروفة والمختمة التي تشبه أوراق الأكش ، تفرم القسم الأعلى من البلاطة الوسطى ، وجوقة المحراب من أعلاها ، وأركان القباب ، وتذكرنا هذه الزخارف النباتية بنظائرها في قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة ، وبعض الآثار الزخرفية بقصبة المرية وجامعها ، من عصر الطوائف . ونشاهد في زخارف جامع القرويين كذلك عقودا متقاطعة ، وعقودا مفصصة ومتجاوزة ، وعقودا من النوع الذي تتناوب فيه الأقواس نصف الدائرية مع أقواس صغيرة مدببة ، تمثل حلقة الاتصال بين العقود التي نشاهدها في الجعفرية بسرقسطة ، والعقود الشائعة في عصر الموحدين . وزخارف جامع القرويين تجلو علينا عنصرا جديدا ظهر لأول

(١) ابن أبي زرع ، ص ٢٢

(٢) ابن أبي زرع ، ص ٢٣ - ٢٠

(٣) الجزائى ، ص ٨٠

(٤) *Terrasse, la reviviscence de l'Acanthe dans l'art*

hispano-mauresque, sous les Almoravides, al-Andalus, vol. XXVI, fasc. 2, 1961, p. 430

مرة في فن الزخرفة الإسلامية وهو نظام الزخرفة التعميمية الشكل « Serpentine » عند منابت العقود ، وهو نظام زخرفي شاع في عصر الموحدين ، ونشاهد هذا النظام الزخرفي في أبواب مسجد الجنائز الملحق بجامع القرويين ، وقد طبق على منابت العقود التوأمية المنفوخة ، ولكن هذه العقود دائرية من أعلى بينما نراها منكسرة في مساجد الموحدين (١).

كذلك ظهرت لأول مرة في الزيادة التي أضيفت في جامع القرويين في المرابطين ، قباب مقربصة ، تتمثل في مسجد الجنائز ، وفي البلاطة الوسطى المؤدية إلى المحراب (ست قباب مقربصة) . وقبة مسجد الجنائز تقوم على قاعدة مربعة من المقرصات ، رصعت بقيبتات صغيرة مفصصة (٢) . أما قباب البلاطة الوسطى فكلها مقربصة وتكسوها زخارف نباتية في غاية الروعة والجمال ، وكانت هذه الزخارف مغطاة بطبقة من الجص ، أزيلت عنها تدريجياً ، فظهرت هذه الزخارف للناظرين آية في دقة الاداء وجمال التكوين (٣) .

وبهذه الزيادة المرابطية اكتملت عمارة المسجد ، واشتمل على حدوده التي نراها اليوم ، ويمثل محور المسجد من الداخل بلاطة وسطى فسيحة ، تعلوها القباب للمقربصة الست التي أشرنا إليها ، ومن الخارج يقطع صفوف

(١) Terrasse, art almoravide et art almohade, al-Andalus, 1961, p. 440

(٢) Terrasse, l'art hispano-mauresque, p. 235

(٣) Terrasse, l'art de l'empire almoravide; ses sources et son évolution, dans : Studia Islamica, t. III, 1955, p.32

الأسقف المنشورية الشكل الممتدة بحذاء جدار القبلة ، جوسق منشوري الشكل ، عمودى على جدار القبلة ، يزيد ارتفاعه على ارتفاع هذه الأسقف^(١).

أما المنبر فقد أقيم على يدى القاضى أبى محمد عبد الحق بن عبد الله بن معيشة الفرائضى ، ولم يتم فى حياته فاتمه القاضى أبو مروان عبد الملك بن يضاء القيسى ، وقد صنع من عود الصندل والآبنوس والتارنج والعناب ، وطعم بالعاج ، وتولى صناعته وتركيبه الشيخ أبو يحيى العتاد^(٢) . ويعتبر هذا المنبر من أجمل منابر الإسلام ويشتمل على تسع درجات ويزدان جانبا بتشابكات رائعة متعددة الضلوع قوامها أشكال نجمية ذات ثمانية رؤوس ، ويشبه فى ذلك منبر جامع للكتيبة بمراكش الذى صنع بقرطبة . ويمسده التشابكات المذكورة أشربة من العاج ، وتزدان الحشوات النجمية بتوريقات نخيلية معروقة وغخمة وفقا للأسلوب الأندلسى الغربى. أما ظهر المنبر وعقده الأمامى فرصعان بالعاج والأخشاب الثمينة ذات الألوان الماددة ، وما زال هذا المنبر محفوظا حتى اليوم بجامع القرويين^(٣).

أما صحن الجامع فقد فرش الفقيه أبو عبد الله بن داود ، وصنع بكررا وأشرطة غليظة ركبها فى قلاع من شقائق الكتان فى سعة الصحن ، فاذا اشتدت حرارة الصيف شدت البكرات فتصعبت القلاع وظالت الصحن كله^(٤). ولما دخل الموحدون مدينة فاس فى ١٥ ربيع الآخر سنة ٥٤٠ هـ ، خاف

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 198

(٢) الجزائى ، ص ٤٢

(٣) طرد المنبر حول مدخله بكتابة نسخية من الصدق ، بينما قشت على جانبيه كتابات بالخط الكوفي من العاج (راجع المروءات المنشورة بالتقويم ، ص ٤٤٩)

(٤) ابن ابي ذرع ، ص ٣٥ ، ٣٦ - الجزائى ، ص ٥٦

فقهاء المدينة وأشياخها أن يأخذ الموحدون عليهم هذا الإسراف في النقش والزخرفة والتذهيب بالحراب والقباب ، « فأتى الحامون الجامع تلك البيلة ، فتمصبوا على ذلك النقش والتذهيب الذى فوق الحراب وحوله بالكاغيد ، ثم لبسوا عليه بالجص وغسل عليه بالبياض وذلك » ، فاخفت هذه النقوش وأصبحت يابضا (١) . ولكن هذه الكسوة الجمسية أزيلت فى سنة ١٩٤٩ فظهرت النقوش والزخارف بألوانها الزاهية الرائعة .

د - اثنتان القلاع والأسوار :

ذكر صاحب روض القرطاس أن يوسف بن تاشفين عندما أمر ببناء مراکش أقام قصبة صغيرة لحفظ أمواله وسلاحه فى موضع يعرف بسور الحمر من مدينة مراکش شمالى جامع للكتبيين (٢) . ولقد أسفرت الحفريات الأثرية التى أجريت حديثا فى الموضع الذى كان يقوم عليه جامع الكتبية القديم وما يليه من كشف أسس هذه القصبة ، وأثبتت الحفريات أنها كانت مقامة من قطع الحجر غير منتظمة للقطع ، ولكنها موضوعة فى صفوف منتظمة ، أما الحجر المصقول فكان يستخدم فى الأركان . هذه الطريقة تذكرنا بنظام بناء قصر البحر الحامدى وتحصينات المهديّة . ونظام بناء باب قصبة مراکش أيضا ، يملو لنا تأثيرات إفريقية واضحة المعالم ، فهو باب عممه مباشر ، على تقيض الأبواب الأندلسية فى هذه الفترة ، إذ كانت من النوع المزود بالرافق الدفاعية . كذلك نجد محفورا على البرجين اللذين يكتنفان المدخل جوفات نصف دائرية تذكرنا أيضا بنظامها فى فن

(١) المرجع السابق ، ص ٢٧ - الجزء دى ، ص ٨٠

(٢) نفس المرجع ، ص ٨٩

العمارة الزيرية والحمادية (١).

وفي عصر علي بن يوسف زودت مراكش بسور من الطابية على النظام الأندلسي ، وقد تم التقييب عن بابين من أبواب هذا السور القديم هما باب العروس ، وباب في الجهة الغربية لعله باب الخزن ، وقد ثبت أن أحدهما على الأقل كان مبليا على نظام المرافق (٢) . وقد أثبتت الحفريات الأثرية أيضا في قصر الحجر المجاور لجامع الكتبية ، أن أعمال علي بن يوسف في هذا القصر كانت مستوحاة من الفن الأندلسي سواء من ناحية التخطيط أو من ناحية الزخرفة ، فقد كشف عن بهو له ممران متعامدان على النحو الذي نراه في الأندلس في قصر متقوط Monteaugudo بمرسية (٣) . وقد استخدم في البناء الطابية والآجر ، وكسى البناء بطبقة من الجص مدهونة باللون الأحمر والأصفر ، وهي طريقة كانت شائعة في البناء في الأندلس في القرن الرابع الهجري . ولقد أقام علي بن يوسف أمام باب قصبة أبيه فوارة زينها بتشابكات هندسية رائعة ملونة على طبقة جصية ، ولا تختلف هذه الزخارف بأي حال من الأحوال عن زخارف قصبة متقوط بمرسية (٤).

وفي تلمسان اكتشفت آثار لسورها القديم الذي بناه يوسف بن تاشفين

(١) Meunier et Henri Terrasse, Recherches archéologiques - (١) iques à Marrakech, Paris 1952 - Terrasse, l'art de l'empire almoravide : ses sources et son évolution, pp. 27 - 29.

Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 224 - Marçais, (٢) l'architecture musulmane d'Occident, p. 219

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، دائرة المعارف العرب ، عدد ٦١ ، مادة مرسية

Terrasse, l'art de l'empire almoravide, p. 13 (٤)

عندما اختط تكرارات غربي أغادير القديمة ، عند باب القرمدين وما يليه ، وإن كان لم يتحقق بعد نسبة هذه الآثار المبنية بالطايبية إلى عصر يوسف ابن تاشفين (١) . كذلك ينظر سور أغادير القديمة بباب قديم يعرف باسم باب الإقباء ، وهو باب مفتوح في سور مشيد بقطع حجرية غير مهذبة القطع ، وعقد الباب من الآجر ، منفوخ متجاوز ، ويقوم على صفوف من الحجارة المصقولة على النظام الروماني ، ويشبه هذا الباب في نظام بنائه الباب الرئيسي بقلعة آمرجو (٢) .

ويذكر الليذق أن المرابطين أقاموا حصونهم « في مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكي ينتصروا بها على الموحدين أعزم الله » (٣) ، ومن هذه القلاع قلعة آمرجو وقلعة بني تاودا ، وقلعة ناسفيموت .

وقلعتا بني تاودا وأمرجو من القلاع المرابطية الأصيلة ، وقد بنيتا خصيصا لمراقبة سكان الجبال في منطقة الريف . أما قلعة بني تاودا فقد بنيت بقطع حجرية غير مهذبة القطع ترتبط فيما بينها بملاط شديد الصلابة ، ونظمت هذه القطع الحجرية في صفوف منتظمة ، وللأسف لم يبق من هذه القلعة إلا أجزاء يسيرة ، تقتصر على الأسوار ، وفي وسط القلعة آثار بناء لعله كان خاصا بالقصبة .

أما قلعة آمرجو فتقوم على مرتفع من الأرض يشرف على وادي ورغة لتضرع من وادي سبو جنوبي قلعة بني تاودا ، وهي من أروع أمثلة العمارة

(١) Ibid. p. 28

(٢) Marçais, op. cit. p. 220

(٣) الينق ، ص ١٢٨

الحرية في المغرب في عصر المرابطين . وفي بناء هذه القلعة تتداخل التقاليد المحلية مع التأثيرات الأندلسية ، التي تدفقت على المغرب الاسلامي في عصر علي بن يوسف ، والتأثيرات الإسبانية للمسيحية التي حملها النصراني المرتزقة في الجيش المرابطي (١) . وتنتجى هذه التأثيرات المسيحية في الأبراج المستديرة الشكل ، وفي السور الأمامي . والقلعة على شكل متعدد الأضلاع يميل إلى الاستطالة ، ويدعم سورها الخارجى ١٢ برجاً نصف دائرية ، تقوم في زوايا السور ، ويخترق أسوارها ثلاثة أبواب ، ويتنصب أمام السور الواقع في الجانب الشمالى الشرقى من القلعة برجان يمتد بينهما سور أمامي . وفي داخل القلعة ترتفع قصبة صغيرة مستطيلة الشكل تركز في أركانها أبراج نصف دائرية ، ويفتح في سورها بابان (٢) . والباب الرئيسى لقلعة آمرجو له عمر يحصل مباشرة بمدخلها ولا أثر فيه للتقاليد الأندلسية .

وقلعة تاسغيموت من أهم القلاع التي أسسها المرابطون لمداخلة الموحدين بناها ميمون بن ياسين ، وكانت تقيم بها حامية مرابطية من مائتى فارس ، وحسبانة من المشاة لحراسة بلاد هزرجة (٣) .

وتقع هذه القلعة على بعد ٣ كيلو مترات جنوب شرقى مراكش ، وعلى

(١) Terrasse, La forteresse almoravide d'Amargo, al-Andalus vol. VIII, pp. 389-400

(٢) Terrasse, l'art hispano - mauresque, p. 226

Marçais, l'architecture musulmane d'Occident, p. 219 - Terrasse, la forteresse almoravide d'Amargo.

(٣) الينق ، ص ١٢٨ . ويذكر الاستاذ تراس علا عن الحلل الوثنية أن الذى تولى بناء قلعة تاسغيموت رجل أندلسى اسمه العلكى . ارجع الى :
=

بعد نحو عشرة كيلومترات شرق أغمات ، على سطح هضبة أطرافها ذات
أجراف وعرة شديدة الانحدار ، يصعب على الفارين ارتقاؤها . وأسوارها
تمتد على حافة الهضبة كلها ، متتبعة تعرجاتها وتندمج قواعد هذه الاسوار
في صخور الهضبة نفسها (١) . ونشرف قلعة تاسغيموت على وادئ أغمات
أيلان المتفرع من وادئ تنسيقف الأعلى ، ومن هنا ندرك أن الغرض من
بنائها هو حماية عاصمة المرابطين : وينفتح الباب الرئيسى للقلعة ، وهو الباب
المعروف باسم باب الموحدين في الجهة الشمالية الغربية ، وهناك باب آخر في
الجهة الشمالية ، ولكنه باب صغير أقرب إلى أن يكون خوخة أو نقبة .
والقلعة من الداخل معسكر فسيح كانت ترابط فيه حامية كبيرة العدد ،
ولا أثر بداخله اليوم لبناء ثابت إلا في الجانب الغربي حيث تقوم بقايا بناء
واسع ، لعله كان حصنا يقيم فيه رئيس الحامية ، أو مخازن للبهائم والعدد .
وقد راعى بناء القلعة ، أن تكون مزودة بكل شيء ، استعدادا لحصار
طويل الأمد ، ولذلك زودت بالمياه من نبع في الهضبة ، حيث كانت تجرى
إلى خزان ضخم مازال قائما حتى اليوم (٢) . ولقد افتتح الموحدون هذه
القلعة في سنة ٥١٧هـ ، واخلعوا أبوابها ، وركبوها على باب الفخارين بمدينة
تيمنمل (٣) .

= Terrasse, l'art Hispano - mauresque, p. 227 - Terrasse et
H. Bassot, Sanctuaires et Forteresses almohades, Paris, 1932,
p. 379.

Terrasse et H. Bassot, op.cit. p. 382 (١)

Terrasse et Bassot, Sanctuaires et forteresses almohades, (٢)
p. 380

(٣) اليفن ، ص ٨٤ ، ١٢٨ ، ١٣١

الفصل الحادي عشر

المغرب في عصر الموحدين

(١) ظهور الموحدين :

١ - المهدي بن تومرت فقيه السوس ، وعبد المؤمن بن علي ضراج الموحدين

ب - الاشتباكات الأولى مع المرابطين

(٢) فتوحات عبد المؤمن بن علي

١ - المرحلة الأولى : إسقاط دولة المرابطين

١ - فتح تلمسان ووهران ٢ - فتح فاس ٣ - فتح مراكش

ب - المرحلة الثانية : فتح الأندلس

ج - المرحلة الثالثة : فتح المغربيين الأدنى والأوسط

(٣) عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

١ - الصعاب التي واجهته في المغرب والأندلس

ب - جهاده في الأندلس واستشهاده في شتتين

(٤) المنصور بطل الأرك

١ - حروبه مع بني غانية

ب - جوازه الأول إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب

ج - انحصار أبي يوسف المنصور في موقعة الأرك

د - غزوة طليطلة في سنة ٥٩٢ هـ.

هـ - الغزوة الثالثة .

(٥) محمد الناصر وهزيمة الموحدين في العقاب

١ - ثورات المغرب في عصر محمد الناصر

ب - هزيمة المسلمين في العقاب

ج - انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في العقاب

(٦) مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب والأندلس

١ - الأثر الأندلسي في الفن المغربي

ب - اهتمام الموحدين بالبناء

ج - مساجد الموحدين في المغرب والأندلس

١ - جامع الموحدين برباط تازي

٢ - جامع تينملل

٣ - جامع الكتبية بمراكش

٤ - جامع القصبة بمراكش

٥ - جامع حسان بالرباط

٦ - جامع الأندلس بفاس

٧ - جامع القصبة الكبير باشيلية

د - للشآت الحربية

١ - أسوار المدن

٢ - الأبواب ذات المرافق

الفصل الحادي عشر

المغرب في عصر الموحدين

(١)

ظهور الموحدين

١- المهدي بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن على سراج الموحدين :

هو محمد بن عبد الله بن تومرت (١) ، من أهل السوس ، وهي بلاد يسكنها بربر جفاة متقشفون في حياتهم ، خشنون في مظهرهم ، تغلب على طباعهم السذاجة ، وقوة الإيمان ، والاعتقاد في القوى الخفية ، وقل منهم من كان يرتفع في علمه إلى مستوى العلم الإسلامي الحق ، ويلج بالمسائل الكلامية على نحو يتجاوز معه ذو العلم بها ، ويستحيل إلى آلة تمرد وتردد ، وإلى عالم يلتزم في تفسيره للآيات النص الحرفي (٢) .

ولد ابن تومرت في عام ٤٨٥ هـ في ضيعة من بلاد السوس تعرف بإرجيليز (٣)

(١) لم يكن هذا هو اسم الأصل ، فقد كان يحمل اسما مختلفا ثم استبدل به اسم محمد بعد عودته من المشرق تيمنا باسم الرسول ، ثم رأى أن يكون اسم أبيه عبد الله ، ولم يكن هذا هو اسم أبيه الحقيقي ، إذ كان يسمى بتومرت بن جليل ، ولكن الاستاذ ليلي بروفسال يرى أن اسم تومرت هو اسم إحدى جدات المهدي طلب على نسب (ليلي بروفسال ، الإسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٦٥) . وكان جده لأبيه يسمى جليل ، وجده لأمه يسمى دابوركن ، وهي أسماء بربرية بمعنى (البندق ص ٣٠)

(٢) ليلي بروفسال ، المرجع السابق ص ٢٥٧

(٣) يسميها المراكشي المجل أن دارغن (المراكشي ص ١٧٨)

من قرى هرة الواقعة على سفح جبل إيجليز ، من قوم شرفاء (إيسر غين) . وكان أبوه أمصار (١) للقبيلة ، أى شيخها ، ففضى ابن تومرت طفولته يحفظ القرآن فى مكتب القرية . فلما اشتد عوده ، وأصبح شابا باعقا ، دفعه طموحه إلى الرحيل عن قريته ، لا للسعى وراء عمل فى السهول ولا لللاقاة فى مراكز حاضرة المرابطين رغم تألقها ، وإنما للدراسة والتحصيل فى المشرق الإسلامى ، مصدر العلوم ، ومنبع الحضارات ، ومهد جميع الأديان . فخرج من قريته فى طلب العلم عام ٥٠١ هـ ، وانتهى إلى بغداد ، ولقى فيها أبا بكر الشافعى ، فأخذ عنه شيئا من أصول الدين ، وسمع الحديث على المبارك بن عبد الجبار وغيره من المحدثين . وقيل أنه لقى أبا حامد الغزالى فى الشام (٢) . وذكروا أن الغزالى أحبط علما بما فعله المرابطون بكتبه التى وصلت إلى المغرب من إحراقها وإفسادها ، وكان ابن تومرت موجودا وقتئذ فى مجلس الغزالى ، فعلق الغزالى قائلا : « ليزهبن عن قليل ملكه (ملك على بن يوسف) ، وليقتلن ولده ، وما أحسب المتولى لذلك إلا حاضرا مجلسنا » (٣) . وأحس ابن تومرت أنه يعنيه ويومئ إليه بهذه العبارة ، وأن تمزيق دولة المرابطين سيتم على يديه .

قضى ابن تومرت ما يقرب من ١١ سنة يحوب عواصم المشرق الإسلامى ، فلما عزم على العودة إلى مسقط رأسه ، مر بمصر فى عهد الأمر بأحكام الله الفاطمى ، وطلب على الفتن أنه قضى بها بعض الوقت ، وكانت الاسكندرية

(١) المرجع السابق ، ص ١٧٨

(٢) نفس المرجع ، ص ١٧٨

(٣) نفس المرجع ، ص ١٧٩

وقتلته مدينة ازدهرت فيها الحياة العلمية ، فقد استوطنها في العصر الفاطمي
 جلة من العلماء كان لهم أثر كبير في نهضتها العلمية ، ومنهم فقيه الاسكندرية
 محمد بن ميسر ، والفقهاء عبد الرحمن بن عوف بن عمرو العلاف ، والإمام
 الشيخ أبو بكر الطرطوشي ، والمافظ المقدس (١) . وكان المهدي يختلف
 إلى مجلس أبي بكر الطرطوشي الفقيه ، وكان له رفاق في العلم في مصر .
 ويبدو أنه كان ساخطا على مظاهر الترف التي أقبل عليها أهل الاسكندرية ،
 فأحس ابن تومرت منذ ذلك الحين أن عليه رسالة لا بد من أن يقوم بحقيقتها
 في حاسة المقتنع الملهم ، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فأقضت
 به تعاليمه هناك إلى تقيته من المدينة (٢) .

ركب ابن تومرت سفينة متجهة إلى المغرب ، ويبدو أنه لم يفتقر أثناء
 رحلته البحرية من وعظ الركاب والسافرين ، واستنكار أعمالهم ، ويذكر
 المراكشي أن أهل السفينة ضاقوا بصالحه ، فآلقوه في البحر ، « فأقام أكثر
 من نصف يوم يجرى في ماء السفينة لم يصبه شيء ، فلما رأوا ذلك من أمره
 أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم في صدورهم ، ولم يزالوا مكرمين
 له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية » (٣) . ويذكر الاستاذ ليفي بروفنسال

(١) حسن عبد الوهاب ، الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب ، ١٩٤٦ ،
 ص ٣٨١ - ٣٨٢ - السيد عبد المزيذ سالم ، تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر
 الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦١ ، ص ١٧٨ ، وتخطيط الاسكندرية وعمرانها في العصر
 الاسلامي ، طبعة بيروت ١٩٦٤ ، ص ٧٨ - جمال الدين الشيال ، اعلام الاسكندرية في العصر
 الاسلامي ، القاهرة ١٩٦٥ : الطرطوشي ، ص ٥٠ - ١٠٠ ، والمافظ السلفي ، ص ١٣٠ - ١٥٩
 (٢) المراكشي ، ص ١٧٩ - السيد عبد المزيذ سالم ، المهدي بن تومرت ، دائرة
 معارف الشعب ، عدد ٧٠ ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٤٦٦
 (٣) نفس المرجع ص ١٧٩

قال عن المؤرخ ابن الفطمان أن « عصمته تجلت في هذه الرحلة ، فقد كسر جرات الحجر التي كانت موجودة على ظهر السفينة التي أقلته ، وصاح فيهم عندما أبصر أن أوقات الصلاة كانت تمضي دون أن يتم أى شخص بأدائها ، وكان القوم يهزون أكافهم حين يسمعون بدعوم في غير رفيق إلى الصلاة معه ، وكان لا بد أن تحدث معجزة ، فهب عاصفة ، واستطاعت دعوات الناقد وحدها أن تهدى من هياج البحر ، وتمت الرحلة بسلام بفضل هذا الولي الذي وجد منذ هذه اللحظة من يصفى إليه بانتباه على ظهر السفينة ، مكبرين له ، ناديين على ما بدر منهم نحوه » (١) .

ويقلب على الظن أن ابن تومرت نزل المهديّة في إمارة يحيى بن تميم بن المعز بن باديس ، وبدا له أن يقيم في المهديّة بعض الوقت ، فزل في مسجد من مساجدها في رفقة ثلاثة من أتباعه رافقوه في رحلته ، هم الحاج يوسف الدكالة ، والحاج عبد الرحمن ، وأبو بكر بن علي الصنمـاجي المكنى بالبيذق (٢) .

واجتمع إليه جماعة من أهل المدينة ، فقرأ عليهم كتابا في أصول الدين ، وكان إذا شاهد منكرا حاول تغييره بالقوة ، فتسامع الناس به ، وقصدوه ، واستهوتهم شخصيته .

ثم رحل ابن تومرت إلى المنتـبـد ، فأقام بها بضعة أيام ثم رحل إلى تونس ، وأخذ يعرف الناس هناك بالسنة وأصول الدين ، ثم مضى بعد

(١) ليلى بروهسال ، الاسلام في المغرب والاندلس ، ص ٢٦٩

(٢) اليلى ص ٥١

ذلك إلى قسنطينة ، فزل بهاءند الفقيه عبد الرحمن الميلي ، ويحيى بن القاسم ،
وعبد العزيز بن محمد ، وكان يليها في ذلك الوقت سج بن العزيز ، فأقام بها
عدة أيام ثم رحل إلى بجاية ، فزل بها في مسجد الرحانة ، وكانت بجاية
مدينة كبيرة ، اتخذها بنو حماد ، منذ عهد الناصر بن علناس سنة ٤٥٤ هـ ،
حاضرة لهم ، فكانت مركزا حضاريا متألعا ، فاقت القهروان وتونس ،
وفات من رقة الحياة في الأندلس وترفها قدرا كبيرا ، وظهر أثر ذلك في
الحياة الاجتماعية . فلما خرج ابن تومرت من المسجد لرؤية المدينة ، شرع في
نهي الناس عن « الافراق الزرارية ، وعمائم الجاهلية ، ولباس الفتوحات
للرجال ، ويقول : لا تزينوا بزى النساء لأنه حرام » (١) . وكان يسبح
الطيب للرجال والنساء أسوة بما كان يفعله الرسول ، في الحدود التي لا إثم
فيها . وكان الفقهاء يأتون لساعه في شهر رمضان ، فلما انتهى هذا الشهر
وأقبل العيد ، خرج الرجال والنساء لصلاة العيد في الشريعة (أى المصلى) ،
فلما رآهم ابن تومرت تناول عصاه ، وأخذ يضربهم بها يمينا وشمالا حتى
بدد جموعهم (٢) . ويذكر المراكشي أن صاحب بجاية أمره بالخروج منها
حين خاف عاديته ، فخرج متجها إلى المغرب ، فزل بضیعة يقال لها ملالة ٢
وهناك أقام مسجدا ، وأقبل الطلبة إليه من كل مكان . وكان يقضى يومه
في العبادة والتدريس لطلبته ، وينطلق بعد ذلك إلى رجة قرية ، فيجلس تحت
شجرة من شجر الخروب ، يتأمل ويفكر ، ويذكر الله في مهمة خافتة لا تنقطع

(١) اليفيق ، ص ٥٢

(٢) تنس للرجم

(٣) المراكشي ، ص ١٨٠

وهو ناظر إلى الطريق . وذات يوم سمعه الطلبة يقول : « الحمد لله الذي أنجز وعده ، ونصر عبده ، وأثبث أمره » ، وأقبل نحو المسجد ، وركع ركعتين ، ثم قال : الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ، يصلحكم غدا طالب ، طوبى لمن عرفه ، وويل لمن أنكره » (١) . وفي اليوم التالي ظهر عبد المؤمن بن علي الكومي (٢) الذي سيصبح خليفة الموحدين . وكان عبد المؤمن هذا متوجها إلى المشرق لطلب العلم ، في رقة عمه الذي كان يقوم له مقام الدليل . فلما وصلا إلى بجاية ، نزلا في مسجد الريحانة ، فلما صليا الصبح ، سمعا الناس يقولون : « سيروا بنا نحو الفقيه السوسي » ، ولما سمعهم عبد المؤمن يذكر صلاحه دينه ، ويشنون على علمه وفهمه لكتاب الله والسنة طلب من عمه أن يذهب معه لرؤيته وسماعه مع هؤلاء الداهيين (٣) . وما إن رآه ابن تومرت ، وقرأ

(١) البلق ، ص ٣٠

(٢) هو عبد المؤمن بن علي بن طوي بن علي بن علي بن حسن بن أبي نصر بن مقاتل ابن كوي ، وبعض المؤرخين ينسبه إلى علي بن أبي طالب .
(٣) يذكر البلق أن عبد المؤمن عندما وصل إلى متيجة رأى وهو قائم رؤيا غريبة وهي أنه يحمل على ركبته صخرة من طام بأكل الناس ذبا كافة . فلما أصبح قص على عمه الرويا ، فقال له اكتسها . فلما وصلا إلى بني زلسوى ، رأى النمامة بينهما مع اختلاف يسير في أن الصخرة على رأسه ، فأخبره بها ، فصعدا يتداناها . فلما نزلا ببجاية ، ونام عبد المؤمن رأى الرويا بينهما إلا أن الناس يابعونه . فلما أخبره بها نصحه بكتمال هذه الرويا ، فإن أمه رأت وهي حامل به كأن النار تخرج منها فتحرق المغرب والمشرق والقبلة والجوف ، فأخبرها المسجد بفساد أنه لا يد لهذه المرأة من مولود يسيطر على المغرب والمشرق والشمال والجنوب ، وأوصاها بأن تسكن ذلك ولا تنجب . ثم ذكر له عمه نبوءة أخرى ، وهي أن آل عبد المؤمن كانوا يحمدون الرب ، فعبت أم عبد المؤمن

على وجهه علامات الذكاء ونخائل النبوغ والمعرفة حتى ميزه عن بقية القوم، وعرف فيه « المختار ». يقول البيهقي: « فرغ المعصوم رضه رأسه ، فواقفه أمامه ، فقال : ادخل يا شاب ، فدخل . فأراد أن يقعد في جملة الناس ، فقال له الإمام المعصوم رضه : إذن يا شاب ، فلم يزل يدنو من الإمام ، والمعصوم يتربيه حتى دنا منه ، فقال له المعصوم : ما اسمك يا فتى . فقال : عبد المؤمن . فقال له المعصوم . وأبوك على ؟ . فقال : نعم فتعجب الناس من ذلك . فقال له ، يا شاب ، من أين إقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومية ، فقال له المعصوم . من تاجرا أم لا ؟ . فقال له : نعم . فزاد الناس تعجبا . فقال له المعصوم رضه . أين تريد يا فتى ؟ فقال : ياسيدي نحو المشرق التمس فيه العلم . فقال له المعصوم رضه : العلم الذي تريد اقتباسه بالمشرق وجدته بالغرب » (١) . ثم طلب منه ابن نورث أن يبيت عنده ، فأجاب به عبد المؤمن . ويضيف البيهقي إنه : « لما جن الليل أخذ الإمام المعصوم بيد الخليفة رضها ، وسارا ، فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم . يا أبا بكر ، ارفع لي الكتاب الذي في الوعاء الأحمر ، فدفعته له ، وقال : اسرج لنا سراجا ، فكان يقرأ على الخليفة من بعده وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين . فبكي الخليفة (يقصد عبد المؤمن) عند سماع هذا القول ، وقال : يا فتى ، ما كنت

= وكانت حاملا به ، فامت ، فأقبل بندان من محل فزلا عليها ، وتصادف أن أم عبد المؤمن لما ولده خرجت لحصاد سبل التبع ، وتركته نائما ، فاذا بالتعل يقبل على الطفل وهو قائم ، ثم يفرق منه فرقتين : واحدة إلى الشرق والأخرى إلى المغرب (انظر البيهقي ص ٤٠)

(١) البيهقي ، ص ٦٥

في شيء من هذا ، إنما أنا رجل أريد ما يطهرني من ذنوبي . فقال له
للمصوم ، إنما تطهرك صلاح الدنيا على يديك . ثم دفع له الكتاب ، وقال :
طوبى لأقوام كت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم . وآخرهم .
أكثر من ذكر الله يارك لك في عمرك ويهديك ويوصلك مما تخاف وتحذر .^(١)

استقر رأى عبد المؤمن على البقاء مع ابن تومرت ، ففضى أشهراً يقرأ
عليه ، وكان أكثر الطلبة فهماً ، ثم رحل ابن تومرت وطلبته وأتباعه من ملالة
إلى الغرب الأقصى ، فوصلوا إلى تلسان ، ونزلوا بأغادير في مسجد بظاها
يعرف بالعباد^(٢) . فاستراحوا بها فترة قصيرة ثم واصلوا السير مجددين إلى
وجدة (انظر خريطة رقم ١٣) ، ثم رحلوا منها متجهين إلى فاس ، فبروا بقرى
آجر سيف وآمليل وقلال والمقرمدة وعين الرقي حتى وصلوا إلى فاس .
وكان الطلبة يهرعون إليه في كل مكان حل به ، فلما وصل إلى فاس نزل
بمسجد ابن القمام ، ثم انتقلوا منه إلى مسجد ابن الملقوم ، فمسجد بطريانة ،
حيث استقروا في بيت صومعته ، واتخذ ابن تومرت للتدريس . وقام ابن
تومرت أثناء مقامه بفاس بمهاجمة حوانيت الآلات الموسيقية بزقاق يزقالة
من فاس ، وكانت هذه الحوانيت مملوءة بالدفوف والقرقر والزامير والبيدان
والروط والأرية والكيتارات ، فولى طلبته كسر هذه الآلات^(٣) .

ولما بلغ والي المدينة أمره ، جمعه مع نفر من فقهاء فاس للناظرة ،
فظهر عليهم وفاقهم ، فأشار الفقهاء إلى والي باخراجه من المدينة حتى

(١) المرجع السابق ص ٥٦

(٢) المراكشي ، ص ١٨٣

(٣) البيلقي ، ص ٦٥

لأبسد عقول العامة ، فأمره الوالي بالخروج من فاس (١) . فمضى هو وأتباعه إلى مراكش ، هارين بغيلة ، ومكناة ، ثم رحلوا منها إلى محبس فزارة ، ثم وصلوا إلى سلا ، فأقاموا بها أياماً ، وواصلوا السير إلى مراكش ، فدخلوها ، ونزلوا بها في مسجد صومعة الطوب . ويسدو أن ابن تومرت تناظر في مراكش مع جماعة من اللهباء ، فأفحمهم ، فتصحروا على بن يوسف بحبسه ، فأبى أن يفعل ذلك دون ذنب جناه ابن تومرت ، واكتفى باخراجه من مراكش (٢) . فخرج ابن تومرت هو وأصحابه من مراكش إلى أغمات أن وايلان ، ومنها إلى أغمات وريكة ، ثم مضى بسد ذلك إلى قريته إيجيليز من هرغة ، فزل داره في سنة ٥١٤ هـ (٣) ، وأقام رابطة للعبادة في سنة ٥١٥ هـ (٤) ، واجتمع إليه الطاية والقبائل .

وكان ابن تومرت في كل هذه البلاد التي طاف بها ينشر تعاليمه في التوحيد والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، فعارب فكرة التجسيم الشائعة عند أهل المغرب في عصر المرابطين ، وذهب إلى أن صفات الله من ذاته ، وأضاف ابن تومرت إلى هذه الآراء والتعاليم آراء أخرى في الفقه ،

(١) المراكشي ، ص ١٨٤

(٢) ذكر ابن الأثير أن ابن تومرت كان في طريقه في مراكش يوماً ، لذرأى أخت الأمير أبي الحسن علي بن يوسف في موكب من الجوارى المسلمات عدة كثيرة ومن سفرات ، وكانت هذه عادة المسلمين ، يسر نساؤهم وجوهرهم ، ويلتئم الرجاله فلما رأى ابن تومرت ذلك أنكره عليهم ، وأمرهم بستر وجوهرهم ، وضرب هو وأصحابه دوابهم ، فسقطت أخت علي بن يوسف عن دابعتها ، وكان ذلك سبباً في خروجه من فاس

(٣) التليق ، ص ٧٢

(٤) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٦٩

إذ كان يرى أن الشريعة الإسلامية يجب أن تقوم مباشرة على دراسة القرآن والأحاديث ، واستبعد في ذلك تمايل الفقهاء القائمة على القياس والاجماع .

ب - الاشتباكات الأولى مع الثراء بطين :

رحل ابن تومرت وأتباعه بعد ذلك إلى تينمل من السوس ، فبايعوه بها تحت شجرة خروب سنة ٥١٥ هـ (١) ، وكان أول من بايعه عبد المؤمن ابن علي ، ثم سائر أصحابه ، ونلقب بالمهدي ، وصرح بدعوى العصمة لنفسه ، وأنه المهدي المعصوم ، فأقبل إليه الأشياع والاتباع من سائر قبائل المغرب الأقصى ، وبايعوه مرة ثانية في سنة ٥١٧ هـ ، ولم تزل طاعتهم له تزداد ، وفتنهم به تشدد ، وتعظيمهم له يقوى وبأكد ، حتى بلغوا في ذلك إلى حد « لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء » (٢) . ومن تينمل قدر لدعوته القائمة على التوحيد أن تنطلق في ربوع المغرب كله . وقد سمي أصحابه بالموحدين لأنهم أول من تحدث في التوحيد وعلم الكلام في المغرب ، وسماهم أيضا بالمؤمنين لأنه ليس على الأرض من يؤمن إيمانهم . وقد قسم ابن تومرت أصحابه إلى طبقات ، فجعل منهم أهل العشرة ، وهم المهاجرون الأوائل الذين أسرموا إلى إجابته فسيما الجماعة ، وأولاد عبد المؤمن بن علي ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي ، وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمي ، وسليمان آحضرى كاتب رسائل المهدي ، وأبو محمد عبد الله بن حسن الوانشرشي ، وأبو حفص عمر بن يحيى المقتاني . ومنهم أهل خمسين وم الطبقة الثانية ، وقد كانوا

(١) وقيل يوم برباط مرغة

(٢) المراكبي ص ١٩١

يملئون قبائل مختلفة من البربر من هرغة ، وهناتة ، وجدمية ، وجفيسة ، وصنهاينة ، وهسكرة ، ومنهم المستدركون بعد التمييز . وقد تمكن ابن تومرت من تأليف جيش قوى من الصاعدة ، ثم غزا الموحدون سبع غزوات ، ولم تكن هذه الغزوات سوى اشتباكات خفيفة مع بعض القبائل الموالية للمرابطين ، وقد انتصر الموحدون في معظمها . وفي سنة ٥١٧ هـ تجددت الاشتباكات بين المرابطين والموحدين ، ونجح الموحدون بقيادة عبد الرحمن بن زجوى الاستيلاء على قلعة تاسفيموت ، وكانت من أعظم قلاع المرابطين ، وحلت أبوابها إلى تينمل (١) . وفي سنة ٥١٨ هـ افتتحت بلاد مافوسة ، وهناية على وادي نفيس ، وفي سنة ٥٢١ هـ استولى ابن تومرت عبد المؤمن بن علي إلى جزولة ، وهي أول غزوة تقابل فيها مع تاشفين بن علي بن يوسف ، والشليور الإبرتي Revartier قائد الروم في جيش المرابطين .

ومنذ سنة ٥٢٤ هـ (٢) أخذت هذه الاشتباكات تأخذ طابع الصدام المسلح مع جيش المرابطين ، ففي هذه السنة جهز المهدي ابن تومرت جيشا ضخما من الموحدين ، ووجهه إلى مراکش طاعة المرابطين ، وقال لهم : « اقصدوا هؤلاء المارقين المذبذبن الذين تسروا بالمرابطين ، فادعهم إلى إمامة المنكر ، وإحياء المرفوع ، وإزالة البدع ، والإقرار بالإمام المهدي المصوم ، فإن أجاؤكم ، فهم إخوانكم ، لهم مالكم ، وعليهم ما عليكم ، وإن

(١) البليق ص ١٣١

(٢) قس المرجع ص ٢٨ ، ١٣٣ . ويذكر المراكشي أن الحقبة حدثت في سنة ٥١٢ هـ

(المراكشي ، المسجب ص ١٩٢)

لم يفعلوا فقاتلهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم » ، ثم أمر على الجيش خليفته عبد المؤمن بن علي ، وقال : « أتم المؤمنون ، وهذا أميركم » فاستحق عبد المؤمن منذ ذلك اليوم لقب أمير المؤمنين (١) .

وخرج جيش الموحدين إلى مراکش في أربعين ألفا ، فوصلوا إلى موضع اسمه البحيرة ، يقع في ظاهر مراکش ، فخرجت إليهم جيوش المرابطين بقيادة الزبير بن علي بن يوسف من باب إبلان ، ونزل المرابطون قريبا من معسكر الموحدين ، فدعاهم عبد المؤمن إلى دعوة ابن تومرت ، وحاول قائد المرابطين أن يحذر عبد المؤمن ماقبة مفارقة الجماعة ، وينهاه عن القتلة ، فزاده ذلك طمعا في المرابطين ، واشتبك الجيشان في معركة ضارية ، انتهت بهزيمة الموحدين ، وقتل منهم عدد كبير ، من بينهم أبو عبد الله الوائشري ، وسليمان آحضرى ، وأبو عمران موسى الجديوى ، وأبو يحيى بن بجيت ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان ، وكلهم من أهل العشرة (٢) . ونجا عبد المؤمن بن علي في نفر من أصحابه وقد أصيب بجرح عميق في فخذه الأيمن ، فلما وصل الخبر إلى ابن تومرت قال : « أليس قد نجا عبد المؤمن ؟ قالوا نعم . قال : لم يفقد أحد » (٣) .

أحسن ابن تومرت بالمرض بعد أربعة أشهر من وقعة المرابطين بالموحدين سنة ٥٢٤هـ ، فدخل داره جينمل ، ولم يخرج منها إلا إلى قبره ، في المسجد الملاصق لداره ، حيث دفن به سرا في ٢٩ رمضان سنة ٥٢٤هـ ،

(١) المراكشى ، ص ١٩٢

(٢) اليلقى ، ص ٣٣

(٣) اليلقى ، ص ٧٩ - المراكشى ، ص ١٩٣

وأخفى أصحابه نبأ وفاته ثلاث سنوات ، قام الموحدون خلالها بشن الغارات على المرابطين ، ثم أعلنت وفاة المهدي رجباً في سنة ٥٢٧ هـ . فبوجع لعبد المؤمن في هذا التاريخ بفصل ثلاثة أشياخ من الموحدين هم : عمر أصناج ، وعبد الرحمن بن زجو ، وأبو إبراهيم اسماعيل المزرجي ، من أهل الجماعة (١) .

(٢)

فتوحات عبد المؤمن بن علي

١ - الرحلة الأولى : اسقاط دولة المرابطين :

١ - فتح تلمسان ووهران :

كانت مهمة عبد المؤمن بعد أن تولى خلافة الموحدين صعبة للغاية ، فقد كان عليه أن يقضى على دولة المرابطين ، ويضم بلاد المغرب الأدنى والأوسط إلى المغرب ، حتى يصبح المغرب كله خاضعا للموحدين ، ولم يكن تحقيق هذا الامر هينا ، خاصة ، وقد ذاق من قبل مرارة الهزيمة حين تجرأ على مهاجمة مراكش عاصمة المرابطين ، فتلا في الزول إلى السهل ، إلا في المناطق المقابلة للصحراء . وكانت القبائل الجبلية قد أطاعت عبد المؤمن ، وزاد أتباعه ، وانقضت القبائل على المرابطين في سائر بلاد المغرب ، فأرسل علي بن يوسف ابنه تاشفين لقتال الموحدين سنة ٥٣٣ هـ ، فاصطدم معه عبد المؤمن في معركة بموضع في بلاد حاحة ، وفيها انتصر عبد المؤمن ، وعاد تاشفين إلى مراكش منهزما ، وجرح من قواده الابرته ، قائد الروم . وفي سنة ٥٣٥ هـ اشتبك عبد المؤمن مرة أخرى مع الابرته في أجظور ، فانتهز عبد المؤمن في هذه المرة أيضا . وفي هذه السنة خرج عبد المؤمن في جيش كثيف غازيا المغرب الأوسط ، فأطاعه غمارة بشمال المغرب ، وفي أثناء هذه الغزوة ، توفي علي بن يوسف سنة ٥٣٧ هـ ، فخلفه ابنه تاشفين ، وحدث خلاف بين الخوفا ومسوفة من قبائل المرابطين ، فانضمت مسوفة إلى الموحدين (١) . ثم

حاصر عبد المؤمن مدينة سبتة ، ولكنها استعصت عليه ، فاضطر إلى تركها ،
وواصل زحفه شرقا إلى جبال غيطة وبطوبة ، فافتتحها . ثم مضى إلى بلاد
ملوية ، وتمكن من افتتاح حصونها ، ومن هناك واصل زحفه شرقا إلى
زفانة فأخضعها وأخضع معها قبائل مديونة ، ونازل تلمسان بعد ذلك في
سنة ٥٣٩ هـ . فقتل الأبرتير ، ونجح في دخول تلمسان .

تراجع تاشفين بن علي على أثر ذلك إلى وهران ، فعاصره الموحدون
بمحضتها ، وأشعلوا النيران على باب الحصن ، فعاول تاشفين الخروج بغرسه
من الحصن ، فتردى في بعض حافات الجبل ، ومات في ٢٧ رمضان سنة
٥٣٩ هـ . فبعث عبد المؤمن رأسه إلى تينمل ، ودخل الموحدون وهران ،
فقتلوا من كان بها من المرابطين ، وقد أمر عبد المؤمن ببناء سور تآكرارت
من تلمسان ، كما بنى مسجدها الجامع ^(١) .

٢ - فتح فاس :

تطلع عبد المؤمن بعد ذلك إلى فتح فاس ، فعزم على السير إليها ، واستولى
في طريقه على أجريسيف ثم المقرمدة . فلما علم يحيى بن أبي بكر بن يوسف
ابن تاشفين المعروف بالصحراوي ، قائد فاس ، بقدوم الموحدين خرج
لما تلائمهم ، فانهزم الصحراوي ، وانسحب إلى فاس (٢) . وفي اليوم التالي
نزل الموحدون بعدوة سيو في موضع يعرف باسم عقبة البقر (٣) ، وهناك
قسم عبد المؤمن جيشه إلى قسمين : قسم بقيادة قائده أبي بكر بن الحجير ، مع

(١) ابن أبي زرع ، روض الفرات ، ص ١٢٣

(٢) اليعنبي ، ص ٩٩

(٣) موضع شديد الانحدار في الطريق من فاس إلى تازي

صنهاجة ومسكورة ، وجهه إلى نوج لإيجران ، وهو موضع من فاس ، أما الخليفة فقد ارتقى مع بقية المسكر جبل العرض (١) . وأمر الخليفة رجاله بقطع الأشجار ، فقطعت ، ثم حلت إلى الوادي ، فسدها ، وأمر عبد المؤمن بصويل مجرى النهر إلى ناحية الأسوار ، وأطلق المياه في المجرى الجديد فجرفت المياه باب السلسلة وهدته (٢) ، وغمرت أحياء المدينة فأغرقت عددا كبيرا من دورها . واضطر الصحرأوى إلى الخروج مع فريق من رعيته لبناء السور المهدم ، فآتم بناءه . ثم أرسل عبد المؤمن فرقة استطلاعية (تيطاف بالبربرية) (٣) . سيرها إلى مكناسة ، فخرج عليهم بدر بن ولجوط وقتلهم جميعا ماعدا ثمانية من الفرسان . فلما علم عبد المؤمن بن علي بذلك غضب غضبا شديدا ، وزحف إلى مكناسة بصكر كثيف أثناء الليل تاركا أبا بكر بن الجبر على حصار فاس . فافتتح جميع أرباض مكناسة ماعدا تاجر لارت .

ولما طال الحصار على أهل فاس ، خرج أبو محمد الجبالي وإلى فاس خفيه إلى أبي بكر بن الجبر ، واتفق معه على أن يفتح له فاس . وفوجئ الصحرأوى في الصباح برؤية الموحدين على السور في ١٤ ذى القعدة سنة ٥٥٠ هـ . فركب الصحرأوى فرسه هو وبعض عسكره وجماعة من شيوخ لطة ، نجحوا بأنفسهم من باب التتوح ، واحتموا بنلة آمرجو ، ولكن الصحرأوى فر إلى الاندلس ، فخرج أبو يحيى بن الجبر إليهم ، وقبض عليهم ،

(١) هو جبل التوالش الحالي ويقع شرقي فاس

(٢) الزطاس ، ج ١ ص ١٢٣ - الحلل الوثبة ، ص ١٠١ ، ١٠٢

(٣) اليفق ، ص ١٠٠

وساقهم إلى فاس وقتلهم . وهكذا افتتح الموحدون مدينة فاس بعد تسعة أشهر من الحصار . ثم قدم عبد المؤمن إلى فاس ، وأقام بها بعض الوقت ، وأمر أثناء ذلك بسور فاس فهدمت فيه ثلاث كتلة كثيرة ، وقال : إننا لانحتاج إلى سور ، وإنما الأسوار سيوفنا وعدلنا ، فظلت بلا سور حتى حصر محمد الناصر من خلفاء الموحدين ، الذي أقام لها سورا جديدا في سنة ٥٦٠ (١) ، وأقام قسبة الوادي ، وبني باب الشريعة (٢) .

ثم ترك عبد المؤمن على مدينة فاس أبا عبد الله محمد بن يحيى الجديوى وأبا محمد الجياني (٣) ومضى بكل جيشه إلى مكناسة .

٢ - فتح مراکش :

توجه عبد المؤمن بمسكركه لحصار مكناسة ، ولكن قبيلة صنهاجة تيسرت أرسلت ، سنبله من القمع مع رسالة أخبروه فيها أن يادر بالظفر بزرج دكالة قبل . يدخل مراکش ، فلا يستطيع بعد ذلك أن يدخلها أبدا ، فصمم على السير إلى مراکش ، فعهد بمعاصرة مكناسة إلى قائده يحيى بن يومور ، ومضى هو بمعظم عسكره إلى مراکش عن طريق تادلاوى نادلا أمدته قبيلتنا هسكورة وصنهاجة بمسكرك ضخم ، هبط بهم عبد المؤمن إلى وادي أم الزبيج ، واستولى على آزموور ، ثم ضم صنهاجة آزموور إلى جيشه ، وانضم إليه أيضا أهل دكالة جيرانهم ، ودخلوا في طاعته لأول مرة . فسار بعد ذلك إلى مراکش ، (انظر خريطة رقم ١٣) وعبر نهر تلسيفت حتى وصل إلى

(١) دوح القرماس ، ج ١ ص ١٢٢

(٢) الجزاى ، ص ٣٧

(٣) راجع ما سبق أن كتبته عن مدينة فاس

تألف (١) ، ومنها اتجه إلى جبل إيجيلز الذي يشرف على مراکش، وضرب عنده القبة الحمراء (٢). وذكر صاحب اللؤلؤ أنه نزل بجبل إيجيلز، وبني عليه مدينة استند إليها، وبني فيها مسجدا وصومعة طويلة يشرف منها على مراکش، وذلك في محرم سنة ٥٤٩ هـ (٣). ثم خرج جيش المرابطين في مراکش بقيادة اسحق بن علي بن تاشفين الذي نصبه المرابطون أميراً عليهم بعد خلع إبراهيم بن عني بن يوسف، وقائدين من قواده هما محمد بن حواء ومحمد بن يانكلا لمقاتلة الموحدين وذلك في ٥ من المحرم، فهزمهم الموحدون عند أول لقاء، وتراجع المرابطون إلى باب الشريعة، وقتل منهم عدد كبير في المعركة وأثناء تساقبهم إلى دخول مراکش. وفي ١٨ شوال تمكن الموحدون من تسلق الأسوار بالسلام، واقتصر الموحدين ودخلوها، وقتلوا عددا كبيرا من أهلها، فامتنع الأمير اسحق في خلة من رجائه بالانصياع المعروفة بقصر الحجر، واستمر الموحدون يقاتلون حتى الزوال، وعجز انصهرون من مدافعة الموحدين، فدخل الموحدون بقيادة أبي الحسن بن وجاج الحصن، وقبضوا على الأمراء والقواد، وساقهم ابن وجاج إلى جبل إيجيلز، وحاول عبد المؤمن أن يمنع ابن وجاج من قتل اسحق وبعض أبناء الأمراء من الصبيان، فصاح به أبو الحسن بن وجاج: «وبوا وبوا الموحدين، اردد علينا عبد المؤمن يريد أن يربي علينا فراخ السبوعة» (٤). فانسحب عبد المؤمن من المجلس غاضبا، وأتبعه الموحدين ماعدا أبو الحسن والشيخ أبو

(١) مدينة صغيرة كانت تقع على مسافة قصيرة إلى الشمال من مراکش وقد اختفت اليوم

(٢) الينق من ١٠٢

(٣) اللؤلؤ، ١٠٢ ص

(٤) الينق ١٠٤ - اللؤلؤ، ١٠٢ ص

حفص. فبدأ أبو الحسن بقتل اسحق ، فضرب عنقه ، ثم جذب طلحة ليقطعه ، فسأله طلحة أن يفك وثاقه ، ليعطيه أسلحته ، وبينما انهمك أبو الحسن بفك وثاقه ، أسرع طلحة إلى خنجر في وسطه ، سدده إلى قلب أبي الحسن ، فقتله واخضع طلحة بذلك لنفسه وللأمير اسحق قبل أن يقتله الموحدون (١) . وأصبح عبد المؤمن بعد فتح مراکش سيد المغرب كله .

ب - للرحلة الثانية : فتح الأندلس :

كان عبد المؤمن قد تلقى عند خروجه من فاس لمهاجرة مراکش بيعة أهل سبتة له ، فولى عليهم يوسف بن مخلوف الهتاني (٢) . ولكن أهل سبتة انتفضوا على يوسف بن مخلوف ، وقتلوه هو ومن معه من الموحدين ، وجاز القاضي عياض ، واليهيم السابق ، إلى يحيى بن علي بن غانية السوفى وإلى الأندلس ، فلقبه بالجزيرة الخضراء ، وطلب منه واليا على سبتة ، فبعث معه يحيى بن أبي بكر المعروف بالصحراوي ، فقام بأمر سبتة ، وتحالف مع القبائل الخارجة عن طاعة الموحدين أمثال بزغواطة ودكالة ، فاضطر عبد المؤمن إلى محاربة هؤلاء الخارجين عليه ، فاستأصل شأقتهم حتى انقادوا لطاعته ، ثم عاد إلى مراکش . وتقدم الصحراوي بطلب العنوة ، ففسا عبد المؤمن عنه ، وراجع أهل سبتة طاعتهم ، وكذلك أهل سلا الذين كانوا قد انتفضوا عليه (٣) .

(١) الينق ، ص ١٠٤

(٢) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٤٧٩

(٣) كان قد خرج على عبد المؤمن قائمى جزوة من أهل سلا يعرف بسر بن الحياط

(الينق ص ١٠٦) ، ويسميه ابن أمي زرع وابن خلدون بمحمد بن عبد الله بن هود

ثم وجه عبد المؤمن نظره بهـ ذلك إلى الأندلس، فقد كان أهلها قد انتهبوا
فرصة ضعف تاشفين بن علي، وتوالى الهزائم عليه في المغرب على أيدي
الموحدين، وعلنوا الثورات في كل مكان بالأندلس، وزادت هذه
الثورات عتفا بعد وفاته في سنة ٥٣٩ هـ. وكان علي بن عيسى بن ميمون من
بين هؤلاء الثوار، فاستقل بقادس ودخل في طاعة الموحدين، وخطب أول
خطبة لهم في قادس سنة ٥٤٠ هـ. كذلك قام أحمد بن قسي الصوفي التأثير في
مرتلة، فلما استولى أبو محمد سدرای على مرتلة أجاز ابن قسي إلى عبد المؤمن
بمراكش في سنة ٥٤١ هـ، ورغبة في امتلاك الأندلس، فسعى عبد المؤمن معه
جيشا بقيادة براز بن محمد للمسوفي^(١) في شعبان سنة ٥٤١ هـ، ثم أمده بجيش
آخر بقيادة موسى بن سعيد، وجيش ثالث بقيادة عمر بن صالح الصنهاجي.
فلما عبروا الزقاق، ونزلوا بالأندلس، هاجموا أبا القمر بن عزوز المنتري
بشروش ورندة، فدخل في طاعة الموحدين، ثم قصدوا ليلة وأخضعوا
يوسف بن أحمد البطروجي، ثم مضوا إلى مرتلة، فدخلوها، وافتتحوا
بعد ذلك شلب، وقصدوا باجة وبطليوس، فدخل أبو محمد سدرای

(الترطاس، ص ١٢٤ - ابن خلدون، ج ٦ ص ٤٨٠) فارتد معه أهل حاحة ورجالية
وهزيمة وهكورة الوطاء ودكالة وبنو ورياغل، كما ارتد معه عن طاعة الموحدين أهل سبتة
وطنجة. فسار إليهم عبد المؤمن جيشا بقيادة يحيى بن أنسكار المروني، فانهزم، فسار
إليهم للمرة الثانية الشيخ أبا خض مسر بن يحيى وأشياخ الموحدين، فسار أبو خض إلى
هزيمة وهزيم، وبدد شملهم، ثم اتجه إلى رباط ماسة وهزم جزولة وقتل التأثير مسر بن
الليساط، ثم مضى إلى هكورة فنهزم، وحارب برغواطة. (انظر البليق ص ١٠٧ -
ابن خلدون، ج ٦ ص ٤٨٠)

(١) ابن خلدون، ج ٦ ص ٤٨٠. ويذكر ابن الخطيب أن أسد إبراهيم بن براك المسوفي

ابن وزير في طاعتهم ، كما انضوت إشييلية في سنة ٥٤١ هـ تحت لوائهم بعد أن اقتحموها برا وبحرا ، ثم دخلوا مألقة في هذه السنة . غير أن يوسف البطروجي لم يلبث أن نكث بطاعته للموحدين ، وحول الدعوة عنهم ، كما ارتد عن طاعتهم ابن قسي في شلب ، وعلى بن عيسى بن ميمون في قادس ، ومحمد بن علي بن الحججاء في بطليوس ، بينما بقي أبو القمير بن عزوز على طاعتهم في شريش ورندة .

اضطرت أحداث الأندلس عبد المؤمن إلى إرسال جيش إليها يقوده يوسف بن سليمان ، فزل يوسف بإشييلية التي اتخذها الموحدون حاضرة لهم في الأندلس ، وتمكن يوسف من بسط نفوذ الموحديين على بطليوس وشنتمرة وقادس وشلب ولبلبة ، ثم دخلت قرطبة وجيان في طاعة الموحديين سنة ٥٤٣ هـ . ولم تبدأ سنة ٥٤٥ هـ حتى كان رؤساء الأندلس الذين كانوا قد أعلنوا ثورتهم على المرابطين ، واستقلوا بمدنهم ، قد بايعوا عبد المؤمن بن علي وأعلنوا الدخول في طاعته . أما المربة ، فقد كان أهلها قد ثاروا على المرابطين أيضا ، ودخلت في فلك دولة الموحديين سنة ٥٤١ هـ ، وتولى على جيوش الموحديين فيها عبد الله بن سليمان الذي قتل البحريون رجالة القطاع^(١) ، ثم وليها من قبل الموحديين يوسف ابن مخلوف ، فثار عليه أهل المربة وقتلوه ، وقدموا على أنفسهم أبا يحيى بن الرميي^(٢) ، فضبطها إلى أن استولى عليها القونسو الساج ريموند الملقب في المصادر العربية بالسليطين ملك قشتالة^(٣) ، في ٢٠ جمادى الأولى سنة

(١) الينقي ، ص ١٢٦

(٢) المراكشي ص ٢١٠ - المقرئ ، ج ٦ ، ص ٢٠٦

(٣) مجموعة رسائل موحدة من كتاب الدولة المؤمنية ، نشرها إيلي بروهسال ، طرنا

١٩٤١ ، ص ٧٥ - المقرئ ، فتح الطيب ، ج ٦ ، ص ٢٠٧

٥٤٢ هـ ودخلها عنوة^(١). ويبدو أن المرة كانت قد دخلت قبل استيلاء النصارى عليها في طاعة محمد بن سعد الجذامي الملقب بابن مردنيش، صاحب شرق الأندلس^(٢). ويرجح إشباخ أنها كانت إمارة مستقلة، يحكمها القراصنة، ويذكر أن السبب في غزو النصارى لها اتخاذ القراصنة من مرساهوا كرا لسفنتهم يغيرون منه على شواطئ إسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا الجنوبية^(٣). وكان محمد بن سعد أمير بلنسية ومرسية وقت غزو القشتاليين للمرية مشغولا بمحاربة الموحدين والنصارى في آن واحد، فلم تنبأه فرصة الدفاع عنها، وأحاط النصارى بالمرية من البر والبحر ثلاثة شهور حتى استسلم أهلها لهم^(٤). وكان الموحدون قد فرضوا طاعتهم على قادس، وإشبيلية، وقرطبة، ومالقة، والجزيرة، ولبلة، وشلب، وشريش، ومرتلة، فحاولوا استرجاع المرية في سنة ٥٤٦ هـ^(٥)، وحاصروها، إلا أنهم فشلوا في اقتحامها وتخليصها من العدو بسبب حصانة أسوارها وإن كانوا قد نجحوا في اقتحام المرمى وحرق السفن والأجبان الراسية به، ووصلوا إلى المسجد الجامع^(٦).

وفي سنة ٥٤٩ هـ، تغلب الموحدون على غرناطة بعد أن خرج عنها ميمون بن بدر اللتوني، وتوطد نفوذهم في جنوب الأندلس. ثم تلقى

(١) دخلها توك قشتالية وقطلانية وجنوبية ونبرية.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، التسم للخاص بالأندلس، ص ٢٦٠، ٢٥٩.

(٣) إشباخ، ص ٢٢٤.

(٤) للفرى، ج ٦، ص ٢٠٦ - إشباخ، ص ٢٢٦.

(٥) القرطاس، ص ١٢٦ - الفرغ، ج ٦، ص ٢٠٦.

(٦) مجموعة رسائل موحدين، ص ١٠ - ١٣.

السيد أبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والى الجزيرة ومالقة وغرناطة ، أمر أليه بمحاصرة المربة برا وبحرا ، وتخليصها من النصارى ، فتقدم أبو سعيد إلى المربة للجهاد بصحبة أخيه أبى حفص ^(١) ، ونصب للموحدون المجانيق على القصبه بعد أن احلوا المدينة ^(٢) وحاصروها حصاراً محكما . فاستصرخ النصارى ملكهم الفونسو السلاج السليطين فأقبل إلى نصرتهم على رأس جيش من ١٢ ألف مقاتل ، وانضم إليه حليفه ابن مردنيش فى قوة من ٦ آلاف مقاتل ، اضطرب السيد أبو سعيد عثمان إلى استمداد الخليفة ، فوجه إليه القائد الكاتب أبا جعفر بن عطيه ، ومعه الامير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، والى إشبيلية ، فازدادت قوة الموحدين بقدمه ، وخجل ابن مردنيش من نفسه ، إذ رأى « العار على نفسه فى قتالهم مع كونهم يقاتلون النصارى ، فارتحل » ^(٣) . وولى عسكر الفونسو الأديار تاركين حامية قصبه المربة لمصيرها النفس ، ومات الفونسو فى طريقه إلى ياسة سنة ٥٥٢ هـ ، وخلال الجول للموحدين ، فشددوا الحصار على القصبه ، واستولوا عليها فى سنة ٥٥٢ هـ ، وهكذا استرد الموحدون المربة ، وقد تهدمت أبنيتها ، وتغيرت محاسنها ^(٤) .

وفى سنة ٥٥٥ هـ أمر عبد المؤمن ولده أبا سعيد عثمان ببناء جبل النتح

(١) المرقى ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٢) ابن الخطيب ، الاحاطة فى أخبار غرناطة ، ج ١ ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله

عنان ، ص ٢٧٩

(٣) المرقى ، ج ٦ ص ٢٠٧

(٤) الادريسي ، ص ١٩٨

وتحصننه ، قم بناؤه على يدى الحاج يعيش المهندس^(١) . وعلى أثر ذلك جاز عبد المؤمن من طنجة إلى الأندلس ، فزل بجبل الفتح ، وأقام شهرين أشرف خلالها على أحوال الأندلس ، ووفد إليه قوادها وأشياخها لتحيته ، ثم أمر بغزو غرب الأندلس ، فسمي الشيخ أبا محمد عبد الله بن أبي حفص من قرطبة ، ففتح حصن أطرفكش من أحواز بطليوس ، واستولى الموحدون على بطليوس وباجة وإبرة وحصن القصر ، ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى مراکش (٢) .

ج - للوحة الثالثة : فتح المغرب الأدنى والأوسط :

أخذ الموحدون يدخلون حريا في الأندلس منذ سنة ٥٤١ هـ ، وتمت لهم السيطرة على الأندلس في سنة ٥٥٦ هـ ، وبينما كانت قوات عبد المؤمن تعمل على بسط نفوذ الموحدين في الأندلس ، فتفتحت أمامه جبهة ثانية في المغرب الأدنى والأوسط ، فقد بلغه ما وصل إليه أمر إفريقية من اختلاف الأمراء ، وتطاول العرب من بني سليم وهلال عليها بالغيث والفساد ، كما بلغه استيلاء النورماندين على سواحل إفريقية ، فزحف في سنة ٥٤٦ هـ من مراکش قاصدا ملكة يحيى بن العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي ببجاية ، فدخل مدينة الجزائر على حين غفلة ، فخرج إليه الأمير الحسن بن علي بن يحيى بن تميم ، وكان قد انقل إليها بعد سقوط المهدي في أيدي النورمان ، فقدمه أهلها على أنفسهم ، فلما علم بقدم عبد المؤمن بن

(١) الحلال المرسية ، ص ١١٨

(٢) دوح الترطاس ، ص ١٣٠

علي ، خرج للقائه ، فتلقاه بحفاوة بالغة ، وصحبه في غزو إفريقية ^(١) .
ثم سار عبد المؤمن نحو بجاية ، فأخرج يحيى بن العزيز أخاه سبع للقاء
جيوش عبد المؤمن ، فانهمزم هزيمة نكراء ، ودخل الموحدون بجاية ^(٢) .
ولما رأى يحيى ألا طاقة له بمعاربة عبد المؤمن ، هرب في البحر إلى صقلية
بقصد الانتقال منها إلى بغداد ، وحل معه ما استطاع حمله من الذخائر
والأموال ، ثم عدل عن ذلك ، ونزل في بونة على أخيه الحارث ، ثم رحل
عنه إلى قسنطينة ، فثقل على أخيه الحسن . أما عبد المؤمن ، فقد سار إلى
قلعة بني حماد معقل الصنهاجيين الأعظم ، وحرزم الأمانج ، واقتحمها
عنوة ، فغربها ، وأضرم النار في مساكنها ، وقتل جوشن بن العزيز ، وابن
الشماس من الأتابج ، وبذكر ابن خلدون أن عدد القتلى بها بلغ
١٨ ألفا ^(٣) .

ولما استولى عبد المؤمن على الجزائر وعلى بجاية والقلعة وأعمالها ،
استعمل عليها ابنه عبد الله ، ورتب من الموحدين من يقوم بالدفاع عنها ،
وكر عائدا إلى مراکش ^(٤) . وكان يحيى بن العزيز قد نزل عن قسنطينة
لعبد المؤمن على أن يؤمنه ، فأمنه ، وأصبحه معه إلى مراکش في سنة ٥٤٧ هـ ،
وأسكنه بها ، ثم انتقل يحيى إلى سلا سنة ٥٥٨ هـ ، فسكن قصر بني عشيرة
إليه أن تولى في هذه السنة ^(٥) . أما الحسن بن علي فقد صاحب عبد المؤمن

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣٣

(٢) نفس المرجع ص ٣٦٤

(٣) نفس المرجع ، ج ٦ ص ٤٩١

(٤) المراسم ص ٢٠٧

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٦٤ - ابن الخليل ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص

بالأندلس ، ص ١٠٠

في غزوته الأولى إلى إفريقية ، كما صحبه في سنة ٥٥٤ في غزوته الثانية ،
فحاصر معه المدينة ، ثم دخلها ، وسكن بها ثمان سنوات إلى أن استدعاه
أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، فرحل بأهله إلى مراکش ، وتوفي
بها سنة ٥٦٣ هـ (١) .

كان عبد المؤمن في طريقه إلى مراکش عندما بلغه وهو في متيجة خبر
قيام عرب الأندلس ورياح وزغبة في سطيف بالثورة على ابنه عبد الله ، وعزمهم على
إعادة دولة بني حماد . فأرسل إلى ابنه مدداً ، والتقى عبد الله بن عبد المؤمن
بهم في سطيف ، فانهزم العرب ، وأعلنوا خضوعهم للوحدين ، وقدم إليه
وفد من كبارهم طائعين ، فأكرمهم ، ووصلهم ، وأعادهم إلى إفريقية
معززين . وكان لذلك أكبر الأثر في دخول العرب في طاعته ، فاتخذ منهم
جنداً ، وأقطع رؤسائهم بعض تلك البلاد ، ثم إنه استغفرهم إلى الغزو
بالأندلس ، فاستجاب له منهم جمع عظيم . فلما أراد الجواز إلى الأندلس في
سنة ٥٥٥ هـ ، أدخلهم بها ، وجعل بعضهم في نواحي قرطبة ، وبعضهم في
إقليم إشبيلية ، مما يلي شريش وأعمالها ، وقد استكثر منهم أبو يعقوب
يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور ، ويذكر المراكشي أن بالجزيرة في
أيامه من عرب زغبة ورياح وجشم وغيرهم نحو من ٥ آلاف فارس سوى
الرجال (٢) .

وفي هذه الأثناء كان عبد الله بن عبد المؤمن قد خرج في جيش كبير

(١) ابن خلدون ج ٦ ، ص ٣٣٤

(٢) المراكشي ، ص ٢٢٦

من للمصامدة والعرب ونزل على مدينة تونس في سنة ٥٥٢ هـ ، فعاصرها ، وأخذ في قطع أشجارها وتغيير مياهها ، وكان قد استغل بها عبد الله بن خراسان ، فخرج أهل تونس لمقاتلة الموحدين ، وانضم إليهم عمرز بن زياد أمير بني علي من بطون رباح هو وقومه من العرب ، فهزموا الموحدين^(١) ، وتوفي عبد الله بن خراسان أثناء ذلك ، خلفه علي بن أحمد بن عبد العزيز ابن خراسان ، وعاد عبد الله بقلول أصحابه إلى بجاية ، فكتب إلى أبيه بذلك (٢) . فخرج أبوه من مراکش في جيوش لا تخص في ١٠ شوال سنة ٥٥٣ هـ بعد أن استخلف علي مراکش أبا حفص بن يحيى ، وترك معه ولده السيد أبا الحسن (٣) . ثم زحف إلى مدينة تونس فافتتحها عنوة ، ثم واصل زحفه إلى المهديّة ، وضرب عليها الحصار . وكانت الإمدادات تأتي حاميتها من صقلية ، ولذلك طال الحصار إلى سبعة أشهر ، ثم انتصها عبد المؤمن بعد أن أمن حاميتها على أن يخرجوا منها إلى صقلية ، ودخلها في سنة ٥٥٤ هـ (٤) . وكان عبد المؤمن أثناء حصاره للمهديّة ، قد بعث ابنه عبد الله لماصرة قابس ، فاستولى عليها من بني كامل من رياح ، المتغلبين عليها ، كما استولى على قصبة من بني الورد ، وعلى طريقة من مدافع بن علال ، وجبل زغوان من بني حماد بن خليفة ، وشقنبارية من بني عماد بن نصر الله الكلاعي ، والاريس من بني فتانة العرب (٥) . ويذكر المراكشي أنه افتتح طرابلس

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٣٧

(٢) المراكشي ص ٢٢٨

(٣) الترطاس ، ص ١٢٩

(٤) المراكشي ، ص ٢٣٠ — الملل الموشية ص ١١٧

(٥) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٤

للعرب أبنا ، وافتتح بلاد الجريد كلها (١) . وعاد بعد ذلك إلى مراکش بعد أن أتم إخضاع إفريقية كلها وضمها إلى دولته ، وأصبحت دولة الموحدين تمتد من طرابلس شرقا إلى السوس الأقصى غربا ، لأول مرة في تاريخ المغرب منذ أن افتتحها العرب .

ثم عاد عبد المؤمن بعد ذلك في طريقه إلى حاضرتة مراکش ، مارا بجاية وتلمسان وتاجرا ، وأقام بمراكش بقية سنة ٥٥٥ هـ ، حتى سنة ٥٥٦ هـ . وبلغه أن ابن هشك وابن مردنيش ومدار الأفرع قد هاجموا إشبيلية مع حشود كبيرة من النصارى ، وأن ابنه أبا يعقوب قد خرج إليهم فهزموه ، وقتل في تلك الواقعة محمد بن عمر الصنهاجي ، ويحيى بن أبي بكر ابن الجهم ، وعمر بن ميمون المرغى من كبار قادة الموحدين ، كما بلغه هزيمة ابنه أبي سعيد عثمان في غرناطة ، فخرج عبد المؤمن إلى سلا ، وأعد جيشا ضخما للجهاد ، وجاز إلى جبل الفتح ، وسارت عساكره إلى غرناطة ، فهرب ابن مردنيش إلى محلته بحدرد ، وابن هشك إلى شقورة ، ودخل الموحدون غرناطة . ثم جاز الخليفة إلى سلا ، حيث مرض الخليفة ، وتوفي في ٢٧ من جمادى الآخرة من سنة ٥٥٨ هـ ، ودفن في تينملل بجوار قبر المهدي (٢) .

(١) للمصنف ، ص ٢٣٠

(٢) اليفق ، ص ١٢١

(٣)

عمر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

١ - الصعاب التي واجهته في المغرب والاندلس :

لما توفي عبد المؤمن بن علي خلفه محمد أكبر أبنائه ، وباع الناس له ، فتولى الخلافة ٤٥ يوما ، ثم عزل عنها لأمور أخذت عليه ، وأجمعت آراء شيوخ الموحدين على مبايعة أبي يعقوب يوسف ، وكان أبو يعقوب هذا قد تأثر برقة الحياة في الأندلس وحضارتها منذ أن كان واليا على إشبيلية من قبل أبيه ، فزال عنه جفوة البربر ، وكان قد درس على كثير من علماء الأندلس في اللغة والنحو والقرآن ، وكان محبا للجهاد في سبيل الله ، فجاز إلى الأندلس مرتين مرة في سنة ٥٦٩ هـ للنظر في ضبط الثغور وإصلاح حال البلاد ، ومحاربة القشتاليين والأرغونيين وبقايا العناصر التي مازالت موالية للرايبطين في الأندلس ، ثم جاز مرة أخرى في سنة ٥٧٩ هـ لمحاربة البرتغاليين .

اعترضت أبا يعقوب منذ توليته الخلافة عدة صعاب واجهها في شجاعة وعزم ، واستطاع أن يتغلب عليها ، ففي المغرب قامت فتنان : الأولى سنة ٥٦٢ هـ ، عندما ثار سبع بن منقاد بجبال غمارة على الخليفة ، وتابعت في الفتنة صنهاجة ، فسير إليه الخليفة قائدة الشيخ أبا حفص ، ولكنه لم ينجح في إخمادها ، فاضطر إلى الخروج بنفسه ، وهزمهم ، واستأصل شأقهم ، وقتل الثائر سبع . وفي سنة ٥٧٥ هـ ثار علي بن لعلز المعروف بالطويل من أعقاب بني الرند ملوك قفصة ، وتلقب ابن الرند هذا بالناصر لدين النبي (١) ، فسار أبو يعقوب إلى قفصة وحاصرها إلى أن استسلمه ، فقاد إلى

مراكش . وكانت هذه الثورات مقدمة لخطر وافد من المشرق وهو خطر
ممالك الغز للمصريين ، وعلى رأسهم شرف الدين ابن أخى صلاح الدين ،
فحالفوا عرب بنى هلال ، وأغاروا على الأطراف الشرقية لدولة الموحدين ،
وقد تمثل هذا الخطر فى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور ، إذ تحالف ممالك
مصر مع بنى غانية لليورقيين ، وأعراب بنى هلال ، ضد الموحدين (٢) .

أما فى الأندلس ، فانه لم يمس عامان على ارتقائه إلى دست الخلافة حتى
كان ابن مردنيش قد حشد قواته من المعادين للموحدين فى الأندلس ،
ومن حالفه من القشتاليين والأرغونيين ، وأغار على قرطبة ، فسيح إليه
أبو يعقوب السيد أباسعيد من غرناطة وأباصحفص ، فى جيوش ضخمة من
الموحدين ومن انضم إليهم من قبائل العرب زغبة ورياح والأفنج ، فالتقى
للموحدين مع جيش ابن مردنيش فى فخص مرسية ، فانهزم ابن مردنيش
وأصحابه ، وفر إلى مرسية ، ونازله الموحدون بها . ثم عاد السيدان أبو حفص
وأبوسعيد إلى مراكش فى سنة ٥٦٩ هـ بعد أن هدأت الأحوال فى الأندلس (٣) .

ب - جهاده فى الأندلس واستشهاده فى شبتين :

ثم بلغ أبابيعقوب قيام فرديناند ملك ليون بغزو منطقة وادى آنه ، بينما
أخذ الفونسو هنريكي ملك البرتغال يوسع حدوده الجنوبية والشرقية على
حساب أملاك المسلمين فى غربي الأندلس ، واستولى على ترجالة وبابرة
وحصى شبرينه وجلانية الواقعين إزاء بطليوس (٤) ، ثم سار بعد ذلك

(١) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٣٩٤ ، ٣٩٥

(٢) نفس المرجع ص ٤١٧

(٣) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٤٩٩

لحصار بطليوس . فسير إليه أبو يعقوب الشيخ أبا حفص في عساكر كثيفة من الموحدين ، وسار أبو حفص لاستنقاذ بطليوس من حصار القونوس هنريكي (وتسميه المصادر العربية « ابن الريق ») . فلما وصل إلى إشبيلية بلغه أن أهل بطليوس همزوا بالبر تغالين ، فعدل عن متابعة السير إلى بطليوس . وفي سنة ٥٦٦ هـ توافت عند أبي يعقوب بمراكش حشود هائلة من العرب قادمة من إفريقية في صحبة السيد أبي زكريا والي بجاية والسيد أبي عمران والي تلمسان ، فاستعرضهم وسائر عساكره ، ثم عزم على الجواز إلى الأندلس للجهاد ، واستخلف على مراكش أخاه أبا عمران ، ثم عبر الزقاق إلى الأندلس في صفر سنة ٥٦٦ هـ ، ونزل بعاصمته إشبيلية ، ثم كتب إلى أخيه عثمان والي غرناطة بالسير إلى مرسية قاعدة ابن مردنيش ، والتقى جيش الموحدين بجيش ابن مردنيش في موقعة الجلاب ، على بعد أربعة أميال من مرسية ، فانهزم ابن مردنيش ، وتحصن بمرسية ، فحاصره الموحدون . وفي أثناء الحصار ، تمكن الموحدون من الاستيلاء على لورقة وبسطة ، وتوفي ابن مردنيش وهو محاصر بمرسية في رجب سنة ٥٦٧ هـ ، قد دخل ابنه هلال في طاعة الموحدين ^(١) ، وسلم لهم حصون أبيه وهي بلنسية ومرسية ومربيطر وشاطبة ودانية ولقنت وشفرة ولورقة وقرطاجنة . ومكث أبو يعقوب في إسبانيا أربعة أعوام ، نظم خلالها عدة حملات ضد البر تغالين وللقشتاليين ، ففي سنة ٥٦٧ هـ خرج من إشبيلية إلى جنوب البر تغال في جيش ضخم ، وحاصر شتيرين ، ثم سار إلى القنطرة متبعا طريق بطليوس والبكر ك ، واستولى عليها ، ثم عاد إلى إشبيلية متغلا بالغنائم . وفي عام ٥٦٨ هـ ، ٥٦٩ هـ ، أغار على

(١) المراجعين ، ص ٢٤٩ - ابن خلدون ج ٦ ، ص ٥٠٠

فأحية قلعة رباح وأنخن في بلاد قشتالة ، ثم عاد إلى إشبيلية . وفي سنة ٥٧١ هـ ، غادر أبو يعقوب الأندلس ، إلى مراكش بعد أن أقام في ماصمته الأندلسية كثيرا من المنشآت الرائعة كالمسجد الجامع ، والجسر ، والقصبة ، والزقاق للسور ، والأرصفة على الوادي الكبير ^(١) .

غير أن الأحوال في الأندلس لم تلبث أن ساءت من جديد بعد قفول أبي يعقوب يوسف إلى مراكش ، ففي سنة ٥٧٢ هـ ، تمكن القشتاليون بمساعدة القونسو الثاني ملك أرغون من الاستيلاء على قونكة ^(٢) وأخذت ضربات القشتاليين والبرتغاليين والليونيين والأرغونيين تتوالى على بلاد الأندلس . وكانت مملكة البرتغال أشد هذه الممالك وطأة على بلاد المسلمين ، فعزم أبو يعقوب على الجواز إلى الأندلس للمرة الثانية وذلك في سنة ٥٧٩ هـ . ورأى المبادرة بمهاجمة مملكة البرتغال ، فزحف بجيوش لم تر الأندلس مثل كثرتها من قبل ، وسار إلى شترين ، وكانت من المعازل الكبرى في غرب الأندلس ، التي استولى عليها البرتغاليون في سنة ٥٤١ هـ ، وحاصرها حصارا شديدا ، ودمر مزارعها ، وخرب مروجها ، وشن الغارات على نواحيها ، وكان هنريكي ملك البرتغال قد تأهب لذلك الحصار فسلأها بالأقوات والسلاح وكان واقفا من حصانتها وشدة مناعتها ، فبالغ أبو يعقوب في التضييق عليها ، واتساف معاشها ، وقطع للواد والمعدن عنها ، لما زاد ذلك

(١) P. Antuna Melchor, Sevilla y Sus monumentos

arabes, el- Escorial, 1930. وارجع الى كتابي : المساجد والتصور بالاندلس ،

أثراً ، ١٩٠ ، ١٩٥٨ - كتاب الشعب عدد ٦١ ، ص ٢٠٠

(٢) انباج ، ص ٢٢١

أهلها إلا صرامة وشدة وجلدا ، و فخاف المسلمون هجوم البرد - وكان في آخر فصل الخريف - وخافوا أن يعظم النهر (نهر تاجه قرب مصبه) فلا يستطيعون عبوره ، وينقطع عنهم المدد ، فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشبيلية ^(١) . ويبدو أن الخليفة بئس من فتح شترين بعد بعد أن طال حصاره لما دون جدوى ، فأراد أن يحاصر مدينة أخرى غيرها هي مدينة أشبونه ، كما يبدو أن بعض رجاله عجل بقويض الأُخبية تمهيدا للرحيل ، وأحدث ذلك هرجا في معسكر المسلمين ، وعبر أكثر جنود المسلمين نهر تاجة متراجحين متسابقين ، ولم يبق إلا عدد قليل من العسكر ظل مرابطا بقرب خباء الخليفة ، فلما رأى البرتغاليون ذلك ، وشاهدوا رحيل معظم جيش أبي يعقوب أغاروا على معسكره ، فقتل عدد كبير من كبار رجال الجيش ، وأصيب الخليفة بسهم مسموم ، وتدارك الناس حين سمعوا صرخات الجنود ، وأقبلوا يحمون الخليفة ، فتراجع البرتغاليون إلى شترين ، بينما حمل الجنود خليفتهم جريحا على محفة ، فأت بعد ليلتين من هذه المعركة في ٧ رجب سنة ٥٨٠ هـ ، وحملت جثته إلى إشبيلية ، وأرسل منها في تابوت إلى تينملل حيث دفن بجوار أبيه عبد المؤمن ^(٢) .

(١) المراكبي ، ص ٢٥٨

(٢) قص المرحوم ، ص ٢٦١

(٤)

المنصور بطل الأرك

١- حروبه مع بني غانية :

واجه أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف كثيرا من المهام الصعبة في المغرب والأندلس معا ، ففي بداية عهده انتهز بنو غانية فرصة وفاة أبيه ، وخرج أميرهم علي بن اسحق بن غانية من جزيرة ميورقة قاصدا مدينة بجاية في حشود كثيرة من أتباعه ، فاستولوا عليها ، وأخرجوا من كان بها من الموحدين .

وبنو غانية من قبيلة مسوفة ، وكانوا يمتنون بصلة القرابة إلى بني تاشفين أمراء المرابطين ، وفي عهد المرابطين قام بنو غانية بولاية دائية ، فامتلكوا جزر البليار : ميورقة ومنورقة وباسة ، واستقل محمد بن غانية بحكم هذه الجزر ، وأقام فيها جاريا على أمر ملتونة ، داعيا لبني العباس ، وخلفه ابنه أبو ابراهيم اسحق ، وفتح بابه لمن وفد إليه من بقايا عناصر المرابطين في الأندلس ، وأقبل على الفزو ، وتوفي في سنة ٥٧٩ هـ . وقام بالأمر بعده ابنه علي فخرج بأسطول ميورقة إلى العدو ، وقصد مدينة بجاية حين راسله جماعة من أعيانها . وقد وجد الميورقيون لهم في إفريقية حلفاء جمعهم بهم للظروف السياسية وقتئذ وهم بنو هلال وسليم والماليك الفزوعي رأسهم قراقوش ، وكان مملوكا لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين ، وكانوا يعملون لحسابهم الخاص في المغرب ضد الموحدين ، وبطبيعة الحال انضم هؤلاء الماليك للسيوريين ، وأصبحوا حلفاء لهم خاصة بعد أن دعا علي بن اسحق للخليفة العباسي أبو العباس أحمد الناصر في الخطبة . ثم بعث علي بن اسحق

ابنه مع كاتيه عبد البر بن مرشان إلى الخليفة العباسي طلبا للخلع والاعلام السوداء . وكان انضمام ممالك مصر إلى بنى غانية ، أعداء الموحدين ، سببا في غضب أبى يوسف يعقوب على صلاح الدين سلطان مصر ، ويبدو أن ذلك كان سببا من أسباب رفضه لتجدة صلاح الدين في جهاده ضد الصليبيين ^(١).

وخرج على بن اسحق من بجاية بعد أن وطد سلطانه فيها ، وهاجم قلعة بنى حماد فاستولى عليها ، وعلى ما يجاورها من قلاع ، ثم تمكن على بن اسحق من الاستيلاء على كل إفريقية بما في ذلك قفصة وتوزر عدا تونس والمهدية ، كذلك استولى على الجزء الشرقى من المغرب الأوسط ابتداء من الجزائر حتى قسنطينة بما في ذلك مليانة والقلمة ^(٢) . وعلم أبو يوسف فى سبته بذلك عقب عودته من الأندلس ، ويذكر ابن خلدون أن السيد أبى زيد ابن عم الخليفة سبر لمحاربة ابن غانية ابنه السيد أبى حفص ، كما عقد لمحمد بن أبى اسحق بن جامع على الأساطيل ، بقيادة أبى محمد بن عطوش وأحمد الصقلى .

أما السيد أبو زيد فقد مضى إلى تلمسان لينتقد حصونها ، ثم مضى إلى مليانة ، وتنادى بالعفو عن الرعية ، فثار أهل مليانة على ابن غانية وأخرجوه ، وكانت الأساطيل الموحدية قد سبقت الجيش إلى الجزائر ، وتمكن الصقلى من الاستيلاء عليها ، وأسرى يحيى بن طلحة ويذر بن مائسة ، وتقديم القائد أحمد الصقلى بأسطوله إلى بجاية فدخلها ، وفر يحيى بن غانية إلى أخيه اسحق .

(١) - مد زغلول عبد الجيد ، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور ،

مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، المجلدان ٦ ، ٧ ، ١٩٥٨ ، ص ٨٤ - ١٠٠

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٥٧

وهو ما يزال يحاصر قسنطينة، فأقلع عنها ، ومضى إلى الصحراء ، وطارده
 الموحدون إلى مقره وقاوس من بلاد الزاب ، ثم عادوا بعد ذلك إلى بجاية (١).
 أما ابن غانية فقد زحف إلى قفصة ، واستولى عليها ، وحاصر توزر ،
 ولكنها استعصت عليه، فتركها ومضى إلى طرابلس حيث قابل قراقوش الغزي
 المظفري ، واتفق معه على أن يتحالف معه ضد الموحدين ، واستمال ابن غانية
 قبائل بني سليم من العرب ومن جاورهم بركة ، واجتمع إليهم من كان منحرفاً
 عن طاعة للموحدين من قبائل بني هلال مثل جشم ورياح والاتبيج ، كما
 انضم إليه أيضا فولول لتونة من أطراف البقاع ، فمضى إلى بلاد الجريد ،
 وافتتح كثيرا من مدنها وحصونها ، وأقام الدعوة العباسية فيها ، وافتتح
 قراقوش قابس ، وبلغ ابن غانية أن أهل قفصة خلعوا طاعته ، فحاصرها ،
 وظاهره قراقوش في استرجاعها ، ثم رحل ابن غانية إلى توزر وافتتحها
 أيضا . ولما بلغت المنصور هذه الأخبار خرج بنفسه من مراکش في سنة
 ٥٨٢ هـ . وهو عازم على القضاء نهائيا على بني غانية وحلفائهم من العرب
 والمماليك ، واسترجاع نفوذه على إفريقية ، فمر في طريقه إلى إفريقية بقاس
 ورباط تازي وتونس . وأقام جهنم ، وسير من هناك جيشا بقيادة السيد
 أبي يوسف يعقوب بن أبي حفص عمر بن عبد المؤمن ، ومعه عمر بن أبي
 زيد ، لمحاربة ابن غانية ، فاستقبل الجيشان في عمرة ، فانتهصر جيش بني غانية،
 انتصارا حاسما ، وهزموا الموحدين ، وقتل ابن أبي زيد وأبو علي بن يحمور ،
 وفر فولول الموحدون إلى قفصة ، فأثنى عليهم جنود بني غانية والمماليك قتلا،
 ونجا الباقون إلى تونس ، فلم المنصور شعهم ، وخرج بنفسه لمحاربة علي بن

غانية ، والتي معه في حامة دقيوش ، فانهزم ابن غانية ، وافلت بنفسه مع صاحبه قراقوش ، وتمكن المنصور من استرجاع قابس وتوزر وقصعة ، وهدم أسوار قصعة ، ثم قفل المنصور عائدا إلى الغرب ، فر بالهدية واتبع طريق تاهرت ، ومنها إلى تلمسان . أما ابن غانية فقد نزل في بلاد الجريد ، وملك في بعض حروبه مع أهل قزاوة سنة ٥٨٤ هـ . وخلفه أخوه يحيى بن أسحق ^(١) . فعاد إلى مناورة الموحدين ، وتمكن من الاستيلاء على بسكرة عنوة ، وحاصر قسنطينة وبجاية ، وكثر عيته في البلاد .

ب - جوازه الأول الى الأندلس واسترجاع للمسلمين لشلب :

كان البرتغاليون بعد انحصارهم على الموحدين في شترين قد توغلوا في غرب الأندلس ، وأخذوا يشنون الغزوات على أراضي المسلمين . فاضطر أبو يوسف يعقوب إلى العبور إلى الأندلس في ٣ ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ ، فسار مباشرة بجيشه إلى شترين وأشبونة ، لكي ينتقم لهزيمة أبيه ولقتله ، وعات في المروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان ، وسبي سبيا كثيرا . ثم عاد إلى المغرب ^(٢) . واستغل ملك البرتغال دون بدرو بن الفونسو هزيمته هذه الفرصة ، وعمل على افتتاح مدينة شلب ، مستعينا في ذلك بالفرنجة (الصليبيين الذين قدموا من إنجلترا وهولندا ورسوا قبالة أشبونة) ^(٣) . فزل الإفرنج على شلب من البحر ، وحاصرها بدرو من البر ، وتمكن من دخولها ^(٤) .

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٩٦ - ٣٩٧ ، ٥٠٩ - ٥١٠

(٢) الرطاس ، ص ١٤٤

(٣) اعيان ص ٣٣٠

(٤) للأراكي ص ٢٨٠

ثم أغار البرتغاليون بعد ذلك على غرب الأندلس . ويذكر ابن أبي زرع أن بدرو تمكن من الاستيلاء على باجة وبابرة سنة ٥٨٦ هـ (١) .

وصات أبناء هذه الاعتداءات البرتغالية على أراضي المسلمين إلى مراكش ، فغضب المنصور لذلك وبعث إلى رؤسائه الأندلسيون بفتحهم على تقاعسهم عن مدافعة النصارى ، فقام محمد بن يوسف واليه على قرطبة ، بغزو شلب بخيطة ورجاله ، وتمكن من افتتاحها ، كما افتتح قصر أبي دانس وباجة وبابرة ، ثم عاد إلى قرطبة في سنة ٥٨٧ هـ ، ويذكر ابن خلدون أن المنصور هو الذي افتتح شلب في سنة ٥٨٧ هـ (٢) .

ج - انتصار أبي يوسف للمنصور في موقعة الأرك :

بعد أن عاد أبو يوسف يعقوب من غزواته في الأندلس مرض مرضاً شديداً ، ثم أبل من مرضه ، وأشار عليه الأطباء بالاقامة بعض الوقت في فاس ، فسار إليها ، وأقام بها ستة أشهر حتى شفى تماماً ، فعاد إلى الرباط حيث أعجبه الإقامة بها ، وفكر في أن يتخذها حاضرة لدولته . ثم واصل سيره حتى وصل إلى مراكش ، حيث وجد رسل ملك قشتالة قد قدموا إليه للمفاوضة في تجديد المعاهدة ، في الوقت الذي كان ملك قشتالة يضرر في نفسه الكيد للمسلمين ، فلم يقبل أبو يوسف شروطهم ، وقطع المفاوضات ، وشيخهم من مراكش وهو عازم على التأهب لمহারبة ملك قشتالة (٣) .

(١) القزطاس ص ١٤٤

(٢) المراكشي ص ٢٨٠ - ابن خلدون ج ٦ ص ١١١

(٣) Huici Miranda, la Campana de Alarcos, Revista del

Instituto Egipcio de Estudios Islamicos de Madrid, vol. II, 1954, p.2

وفي سنة ٥٨٩ هـ أمر بأن يبنى له على نهر الوادي الكبير إزاء إشبيلية حصن يتخذ مقرًا للمجاهدين في الأندلس من أهل المغرب ، وهو الحصن المعروف بحصن القرج ، وهو اليوم قرية تعرف باسم San Juan de Aznalfarache . وفي أثناء ذلك ، وبعد أن فشلت مهمة ابن مقذ في أن يقوم للنصور بمساعدة صلاح الدين بأساطيله ، لمنازلة عكا وصور وطرابلس ، نوتر الموقف في إفريقية واضطرت أمور البلاد ، فبعد أن دخل قراقوش في طاعة الموحدين سنة ٥٨٩ هـ ، خلع طاعهم ، واستولى على طرابلس الغرب ، وتحالف مع يحيى بن غانية ، وأصبحت طرابلس وبلاد الجريد من جديد في أيدي التوار . وأمام هذه الظروف عزم أبو يوسف على الخروج بنفسه لمحاربة بني غانية وحلفائهم من العرب والمماليك الفز . وكان القونسو الثامن ملك قشتالة قد بلغه ما عزم عليه أبو يوسف يعقوب من التوجه إلى إفريقية ، وكان أمد الصلح مع ملك قشتالة قد انصرم ، فجمع أجناده وضرب لهم ميثاقا ارتبطوا عليه في شن الغارات على بلاد المسلمين ، فأغاروا على جميعها بالأندلس شرقا وغربا في يوم واحد ، وانتشرت الطائفة الواصلة إلى إشبيلية على جميع أقطارها ، وعانت في جهاتها ، وقانات بعض حصون شرفها ، وكادت تنهز فيه الفرصة لولا ندب من الموحدين من سبق إليه ، ودافع عنه ، فأقلعوا عنه بعد أن قتل عليه جماعة منهم ، وخيب الله سعيهم فيه ، فوردت الأنباء بذلك على أمير المؤمنين للنصور ، وهو على قدم الحركة إلى إفريقية : ورسول الطاغية عنده بالهبة للنصورة ^(١) .

(١) العريف الفرتا على : ولم الحبب المشورة في عاين النصورة : نس أورد الأستاذ لوبش مبراهنا في المقال السابق ، ص ٧٥

وامام هذه الاخبار التي بلغت لم يسمع أبو يوسف إلا ان يعدل عن مشروعه الأول وهو القضاء على بني غانية إلى الجواز إلى الاندلس لمحاربة القشتاليين . فعبر الزقاق إلى الاندلس في ٢٠ جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ، ونزل بطريف يوما واحدا ، ثم واصل سيره حتى وصل إلى ظاهر إشبيلية ، فزل بقصر البحيرة الواقع خارج باب جهور ، فخرج للملا من أهل إشبيلية لتحيته ، فاستقبل سادات المدينة من سائر الطبقات في ٢٧ من جمادى الآخرة ، وركب في اليوم التالي إلى حصن الفرج ، فأبدى إعجابه ببنائه ، ثم عاد في نفس اليوم ، فعلى في الجامع الكبير . ثم خرج في ٢٩ من جمادى الآخرة ، وأمر بعرض قواته بكامل عدتهم وأزيائهم ، ومشى مع الكتائب والوزراء ومن حضر من قرائه ، « وطاف عليهم في مواضعهم صفا صفا ، وقبلا قبلا ، وشكر استيوائهم واستعدادهم شكرا جزيلا ، وخرجت المربيات والبركات » (١) ، وأغدق عليهم بالأموال ووزع الأسلحة والخيول على الجند ، وأمر بإخراج من وسع الشرع في إخراجهم من السجون (٢) ، ثم خرج في ١١ رجب سنة ٥٩١ هـ ، بمحاذ الوادي الكبير حتى وصل إلى قرطبة في ١٩ رجب . ولم يزل يواصل السير حتى انتهى إلى الموضع المعروف بالأرك ، وهو موضع قريب من مدينة قلعة رباح . وكانت قد خرجت من قلعة رباح وماجاورها سرية من فرسان القلعة بقصد الوقوع على أخبار المسلمين والتجسس عليهم ، فظفرت بهم طائفة من طلائع عسكر الموحدين واستأصلوا هذه السرية بالقتل ، فاستبشر الموحدون بذلك خيرا (٣) .

(١) ابن عسار ، نس أورده الأستاذ اويش مع انشا في المقال السابق ، ص ٤٣

(٢) الشريف الفراتي ، ص ٥٨

(٣) الشريف الفراتي ، ص ٥٨ . يذكر ابن عسار أن سرية من خيل النصارى ظهرت =

وما كاد الفونسو يعلم بزول أبي يوسف إلى الأندلس حتى توجه إلى «ليبطة» حيث قضى بها أياما حشد خلالها جيشا ضخما لمنازلة الموحدين ، ثم مضى نحو الأرك . وكان الأرك هذا حصنا يقع على حدود مملكة قشتالة ، وتاهب الفونسو الملاقة للموحدين ، قبل أن يشرعوا في الإغارة على بلاده ، ثم نحو مافعله المنصور من قبل في حملته على البرغال . وكان الفونسو وانقا من النصر حتى أنه دخل المعركة دون أن ينتظر وصول جيش ملك ليون وجيش ملك نبرة ^(٢) . ويذكر الضبي في بقية الملتبس أنه أحضر معه جماعة من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين . ويذكر ابن أبي زرع أن المنصور عندما وصل إلى ميدان المعركة أمر باجتماع المسلمين ، فلما كلمت جموع المسلمين قام الوزير أبو يحيى بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص ، وقال : « يقول لكم أمير المؤمنين اغفروا له ، فإن هذا موضع غفران ، وتغافروا فيما بينكم ، وطيّبوا نفوسكم ، وأخلصوا لله نياتكم ، فبكي الناس ، وأعظموا

على قلعة رباح وماجاورها ، لينجسوا الأعداء ، فخرج إليهم من كان بالحصن ، فقفوا عليهم قضاء مبرما ، وتركوهم بتلك البطاحولائم للنور والعتاب (انظر نس ابن عذاري بمقال لويش ميراندا ص ٤٣) . ويرى الأستاذ لويش ميراندا أن قلعة رباح كانت في ذلك الوقت داخل أملاك قشتالة ، منذ أن استولى عليها الفونسو السابع سنة ١١٤٢ هـ (١١٤٧ م) وأن القشتاليين خرجوا عنها بعد انهزامهم في الأرك ، فاستولى عليها المنصور وشحنها بالعتاق ، بقيادة يوسف بن قادهس (انظر المقتال السابق ص ٤) . ويؤيد لويش ميراندا في ذلك قول الحميري أن قلعة رباح أول حصون أندلس في الأندلس « (ص ١٢) والواقع أن قلعة رباح المذكورة تقع على بعد نحو ٢٠ كم شمال شرق الأرك ، فليس من المستحيل أن يستولى عليها الموحدين قبل الأرك ، واستيلاء الموحدين عليها لم يتم إلا بعد انتصارهم على الفونسو الثامن وجيوته في الأرك بيومين .

ما سمعوه من المنصور . ثم قام القاضي أبو علي بن حجاج ، وخطب في المسلمين يحثهم على الجهاد ، ثم أمرهم أبو يحيى بن أبي عبد بن أبي حفص بلباس أسلحتهم ، والاستعداد من القد للقاء العدو ، فتركوا بالجملة أنفالمهم ، وزحفوا في بطن حتى دنوا من العدو ، وأصبح في مرأى بصرهم ، وأخذوا مراكزهم ، ونظموا صفوفهم ، « أسرابا تتلو أسرابا ، وأمواجا تعقب أمواجا » ، فهاجوا القلب حيث الأعلام ، بقيادة الوزير أبي يحيى بن أبي حفص ، ووراءها قنات الاندلسيين والعرب وزناتة والمطوعة ، وصمد قلب الجيش الموحدى ، وقاوم الوزير مقاومة عنيفة حتى استشهد ، ومال قوم من المطوعة وأخلط الناس إلى الميسرة ، وعندئذ ترك المنصور ساقية الجيش ومشى متفردا بين الصفوف يشجع رجاله ، ويحثهم على مهاجمة العدو ، فاشتد حماس المسلمين وغيرتهم ، وحلوا على القشتاليين حملة عنيفة ، وأخذت فرقة القواسم ترى العدو بالسهم ، فانهزم القشتاليون وولوا الأدبار ، وتحكمت فيهم سيوف الموحديين ، فقتل من فرسان نظام سانتياجو ثلاثة أساقفة ونحو ١٧ قسا ، كما قتل عدد كبير من فرسان قلعة رباح ، وقتل رئيس فرسان نظام يابرة ، واسمه جنتالوفيجاس ، ومن معه من مطوعة البرتغاليين . ونهب المسلمون مصكر النصارى ، وأفلت القونسو الثامن بنفسه إلى طليطلة ، وتعمن قل جيشه بمحصن الأرك . وكان عدد هؤلاء النصارى نحو خمسة آلاف مقاتل ، فتدخل بيطرة بن فرانس ، الموالي للمسلمين ، في الأمر ، وطلب من المنصور أن يملك حصارهم على أن يترك القشتاليون نظيرهم من أسرى المسلمين ، فوافق المنصور ، وأخذ معه إلى إشبيلية عددا من الأسرى رهائن ، ومرح الباقون ^(١) .

تمكن المسلمون بعد انصارهم في الارك من استرداد بعض حصون
النصارى مثل ماجون ورينافتي وكاراكيل وقنقر باح ، وكلها مدن وقلاع
تقع في دائرة تبعد عن الارك بنحو ٩ كم. ويذكر المراكشي أن المنصور
دخل في قلعة رباح ، وقد جلا عنها أهلها ، فأمر بتحويل كنيسها إلى
مسجد (١). ويعمل الأستاذ مراندا هزيمة الفشتالين بأن المنصور نجح في
اختيار الوقت المناسب للمعركة ، فقد كان الفونسو الثامن في عداة مستحكمة
مع ملك ليون وملك نبرة ، ولم تنجح جهود الكاردينال جريجوريوس لمحو
هذا العداة ، وكان الفونسو معتادا على شن الغارات على أراضي المسلمين
دون أن تقابله بمقاومة من جانبهم ، فظن أن من السهل التغلب على جيش
الموحدين ، ولم يفكر في مدى قوة جيش الموحدين ولم يعمل حساب حسن
قيادة المنصور وشجاعته ، وتشجيعه لجنوده ، وحسن توزيعه لقواته ، الذين
كانوا يتقنون طريقة الكر والفر ، ويجيدون الرماية بالسهم (٢). كذلك
يعزى هزيمة الفونسو إلى سوء تقديره لقوى الموحدين ، وعدم استمداده
لمواجهة التفوق العددي للموحدين ، ولم يفكر في احتمال انضمام عدوه اللدود
بدرو فرنانديث دي كاسترو (يطرة ابن فرانس) إلى الموحدين (٣).

عاد المنصور إلى إشبيلية ظافرا ، فدخلها في ٢٧ من شعبان سنة ٥٩١ هـ ،
فأكمل بناء الجامع الكبير وصومعته ورنع بأعلاها التنافيع المذهبة في عمود
من الحديد في ١٩ ربيع الآخر سنة ٥٩٢ هـ (٤). وفي هذه السنة انتقل المنصور

(١) المراكشي ، ص ٢٨٣

Huici Miranda, op. cit. p. 24 (٢)

نس ابن عذاري في المال السابق، ص ٤٦ (٣)

Antuna Melchor, op. cit. p. 139 (٤)

إلى حصن الفرج بتاج الشرف ، وأكل غرس البحيرة التي أمر بإنشائها أدناه ، وأمر بعمل نواعير على شاطئ النهر بأدني الحصن (١) . ووفد عليه سفراء مملكة ليون لعقد معاهدة تحالف مع الموحدين ، كذلك أبدى ملك نبرة رغبته في كسب صداقة الموحدين للدفاع عن مملكته الصغيرة من أطباع ملك قشتالة . عندئذ وجد المنصور الفرصة سانحة لإعداد حملة ضد مملكة قشتالة (٢) . وكان ملك ليون قد قطع علاقته مع الفونسو الثامن لتقصه معاهدة نوردى هو موس Tordohumos ، وأخذ يطالب الفونسو الثامن بأن يسلم إليه حصون ألبه ولونا وبورتيا وغيرها مما أخذه وفقا لهذه المعاهدة ، ولكن الفونسو أبى أن يسلمه هذه الحصون ، وبدلا من أن يعرض ملك ليون مشكلته على الكاردينال ، قطع علاقته نهائيا مع الفونسو . كذلك وجد دوث بدرو فرنانديث دى كاسترو (ييطرة بن فراندس) في ذلك فرصة طيبة لمواصلة حربه ضد مملكة قشتالة ، فاتفق مع المنصور على شن هجوم عنيف في فصل الربيع على مملكة قشتالة ، ويقضي هذا الاتفاق بأن يتولى المنصور تخريب بلاد قشتالة جنوبي سيرا وادي رامة ، بينما يقوم الليونيون مع حلفائهم المسلمين بمهاجمة قشتالة من الشمال .

د - غزوة طليطلة (سنة ٥٩٢) :

كان فصل الشتاء قد انتهى ، وأقبل الربيع ، وهو أكثر فصول السنة ملائمة للجهاد ، فاستنفر أبو يوسف قبائل الموحدين من منازلهم ، وحشد قواته ، واستعرضها ، ثم خرج في منتصف رجب سنة ٥٩٢ هـ ، وزحف

(١) نس ابن عذارى في مقال الأستاذ اويش ، ص ٤٩

Huici Miranda, op. cit. p. 33 (٢)

بجيوشه في إقليم استراما دورة ، ثم قدم أبو يوسف جماعة من الأندلسيين إلى حصن منتانجش Montanchez ، وكان من المعازل المرتفعة المعروفة بالتنوع والامتاع ، فحاصره الأندلسيون في هذا اليوم ، وفي اليوم التالي وصلت قوات المنصور بأكملها ، فاستسلمت خامية الحصن ، وأمنهم الخليفة ، وأمر القائد أبا عبد الله بن صناديد بحوصيلهم إلى حيث يأمنون في أقرب المواضع إلى بلادهم ، ولكن ما كاد ابن صناديد يسير بهم مسافة فرسخ حتى غشيهم جماعة من العرب فوضعوا فيهم السيوف ، واستأصلوهم قتلا عن آخرهم ، وسبوا ما كان معهم من النساء والذرية (١) . فغضب أبو يوسف لجهل هؤلاء العرب بيهود المسلمين ، فقبض على بعضهم ، وسجنهم ، وجمع النساء والأطفال ، وأوصلهم إلى أول حدود بلادهم . ثم مضى أبو يوسف إلى ترجاله Trujillo فدخلها دون منازلة . ويعلق ابن عذاري على انتصارات الموحدين بقوله : « وهب ربح الفتح في تلك الكور الأخوذة والاقطار ، وبلغ العرب فيها ما لا تبلغه سمر الأسل وبيض الشفار ، وأتي عليهم الاستيصال والجللاء بالاضطرار ، وقنعوا من السلامة بالفرار ، واصطكت في هذه الحصون المذكورة دعوة الإسلام ، وتعرضت في أسبوع واحد من ملة الكفر بشرعة محمد عليه السلام » (٢) . ومضى الموحدون في زحفهم حتى نزلوا على بلفسية Plasencia التي كان قد أسسها القونوس الثامن في سنة ١١٨٩ م ، أي قبل ذلك بسبع سنوات ، واهتم بها وأنزل فيها جماعة من أهل الشمال ، فافتتحها المنصور ، وأسر قائدها مع مائة وخمسين من أعيانها

(١) نس ابن عذاري ، من مقال اويش مير اندا س . .

(٢) قس المرجع

فوجههم إلى المغرب حيث ساءموا في بناء جامع سلا الكبير (١) ، ويقصد به جامع الرباط ، وواصلت القوات الإسلامية زحفها بطول نهر تاجة حتى وصلت إلى طليعة «أكبر قواعد طليطة وأنراها» ، وأعظمها متعة وأعلاما (٢) ، فأمر المنصور بتخريب ماحولها ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يقيم عليها حصارا طويلا لنقص ما كان لديه من المؤن والأقوات ، وآلات الحصار والعرادات . وقيل أن يشرع في الإغارة على طليطة ، توغل في الشمال ، فغرب سانتا أولابا ، وإسكالونا ، وحاول الاستيلاء على مكادة ، دون أن يهبط له ذلك ، وأخيرا وصل إلى ساحة طليطة ، وقسم الجيوش على جنباتها ، وشن الغارات على سائر منطقة ، وأقام على حصارها عشرة أيام اشتبك خلالها عدة مرات مع المدافعين عنها ، وانتصف رجاله الزروع والعرمان فيما حولها . ثم بادر بالعودة إلى إشبيلية ، بعد أن أحس بسجوه عن افتتاحها .

٥ - الغزوة الثالثة (سنة ٥٩٣) :

قضى المنصور بإشبيلية شتاء عام ٥٩٢ هـ ، فلما أقبل ربيع سنة ٥٩٣ هـ ، عزم على الرحيل للغزو ، واستنفر قواته وخرج من إشبيلية إلى طليطة ، فزل أولا بقرطبة ، وأقام بها بعض الوقت ، واستكمل استعداداته ثم تحرك مصغدا طريق طليعة . وما كاد المنصور يدخل في أراضي قشتالة حتى بعث إليه القونسورس له في طلب المهادنة والسلام ، فصرفهم المنصور من غير

(١) المسمى م ١٣

(٢) نس ابن عذارى من مقال لويش ميغاندا م ٥٠

جواب إلا وانتظر ستان ، وصارم قضاب ^(١) . فلما وصل إلى طليطلة بعد أن فشل في الاستيلاء على مكدة أثناء مسيره إليها ، عمد إلى إتلاف ماحولها من مزارع وتخريب العمران ، وبلغه وهو يحاصرها أن ملك أرغون قد اتفق مع ملك قشتالة على أن يزوده بالجيوش ، وعلم أنها بمحتمل بمحصر مجريط ، فعزم المنصور على محاربتها ، وأحاط جيشه بمجريط ، ولكنه عجز عن افتتاحها فقد أبلى دون ديسجو لوبث دى هارو بلاء حسنا في الدفاع عنها ، فضى المنصور إلى وادى الحجارة وهو يخرب كل ما يقابله من مراكز صمرانية ومزارع ^(٢) .

ثم رحل المنصور إلى قرطبة ومنها إلى إشبيلية في أول شوال سنة ٥٩٤ هـ . ولا رأى ملك قشتالة ماحل بيلاده من أضرار وتخريب ، سعى من جديد لطلب السلم والمهادنة ، فأجابه المنصور إلى ذلك بعد أن اشترط عليه عدة شروط ، وهادنة لمدة عشرة أعوام ، ثم أجاز إلى بر العدة في أول جمادى الآخرة سنة ٥٩٤ هـ ، وتوفي بمراكش في ٢٧ ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ .

(١) نس ابن هداري من مقال اوبى ميراثنا ص ، ٥٥

(٢) قس المرجع ص ٥٦ .

(٥)

محمد الناصر وهزيمة الموحدين في العقاب

١ - ثورات المغرب في عصر محمد الناصر :

لما توفي المنصور بوج ابنه وولي عهده أبو عبد الله محمد بالخلافة ، وتلقب بالناصر لدين الله . ولقد واجهته في أول خلافته مشكلات كثيرة : فيحيى بن اسحق بن غانية كان قد استولى على أكثر بلاد إفريقية مستغلا اشتغال الموحدين عنه بمحاربة القشتاليين في الأندلس ^(١) . وظهر بالمهدية قائم يدعى محمد بن عبد الكريم الركراكي ، وتسمى صاحب قبة الأديم ، ودعا لنفسه بالخلافة ، وتلقب بالمتوكل على الله ، وفازع ابن غانية والموحدين الأمر ، فتأزل تونس ، وعات في قراها سنة ٥٩٦ هـ ، وحارب ابن غانية بقابس ، فامتنع عليه ، ولكن ابن غانية تمكن من هزيمته في قفصة ، وحاصره في المهدية ، ثم دخلها في سنة ٥٩٩ هـ ، وقتله ^(٢) . ودخل ابن غانية تونس بعد ذلك في نفس هذا العام ، وأطاعه أهل بونة ، وبزرت ، وبسكرة ، وشقبنارية ، والأربس ، والقيروان ، وتبسة ، وسفاس ، وقابس ، وطرابلس .

وكان الناصر أثناء الفتنة القائمة بإفريقية في أول خلافته قد عقد للسيد أبي الحسن بن أبي حفص على بجاية ، ولكن أبا الحسن لم يابث أن انهزم أمام ابن غانية في سنة ٥٩٩ هـ بالقرب من قسنطينة ، فسير الخليفة السيد أبا

(١) المراكشي ، ص ٣١٢ ، ٣١٤

(٢) ابن خلدون ، ج ٦ ص ٥١٧

زيد بن أبي حفص إلى تونس لصد ثغورها ، وأردفه بالسيد أبي سعيد بن أبي حفص ، فلما استولى ابن غانية على تونس سنة ٥٩٩ هـ ، قبض على أبي زيد ، وبلغ الناصر استبداد ابن غانية في إفريقية وطرابلس ، فعزم على السير لمحاربه ، فخرج من مراكش في ٦٠١ هـ ، وأرسل الأسطول الموحدى بقيادة أبي يحيى بن أبي زكريا المزرعى إلى تونس ، فدخلها الموحدون ، وقتلوا من كان بها من أتباع ابن غانية . ثم نازل الناصر مدينة المهدية بعد ذلك وحاصرها أربعة أشهر ، وأرسل الناصر أبا محمد بن الشيخ أبي حفص الملافة ابن غانية ، فالتقى الجيشان في ناجرا من نواحي قابس ، ودارت الدائرة على ابن غانية ، وغنم الموحدون من أسكره غنائم هائلة ، وتمكن ابن غانية من النجاة بأهله وولده . وفي نفس الوقت استسلمت المهدية ، وعاد الناصر بعد ذلك إلى تونس في سنة ٦٠٣ هـ ^(١) .

ولم يسكت ابن غانية على هذه الهزائم ، فقد كان يتبع طريقة العرب في الفر والكر ، فعزم على قتال الموحدين بتونس ، وجمع لهذا الغرض حشودا هائلة من العرب الدواودة من رياح وغيرهم من أعراب بني سليم ، فاشتبك معهم أبو محمد بن أبي حفص ، فانهزموا ، واستولى الموحدون على محلاتهم ، فلجأ ابن غانية إلى إقليم طرابلس . وظل ابن غانية يتناوى سلطان الموحدين في إفريقية وطرابلس طوال عصر الناصر ، وكان أبو محمد ابن أبي حفص يهزمه في كل مرة يحاول فيها ابن غانية الاستيلاء على إفريقية . فلما توفي أبو محمد في سنة ٦١٨ هـ ، وخلفه السيد أبو العلاء إدريس ، عاد ابن غانية إلى الظهور ، وزاد عينه في البلاد ، فخرج عليه السيد أبو العلاء .

ونزل في قصر العروسين ، وسمر ابنه السيد أبا زيد ، قطارده إلى غدامس وودان والزاب وبسكرة ، واصطدم معه بظاهر تونس في سنة ٦٢١ هـ ، فانهزم ابن غانية هزيمة نكراء . وبلغ السيد أبا زيد نبأ وفاة أبيه بتونس في شعبان سنة ٦٢٠ هـ ، فعاد إلى تونس ، وخطب المستنصر الموحدى بمقتل أبيه أبي العلاء إدريس ، وكان المستنصر قد عزل السيد أبا زيد عن ميورة ، واتفق أن المستنصر توفى أيضا في سنة ٦٢٠ وخلفه عبد الواحد المخلوع ، فكتب إلى أبي زيد بالبقاء في عمله بتونس . فلما توفى المخلوع ، وتولى العادل الخلافة من بعده ، كتب إلى أبي زيد بالقدوم ، فقدم إليه في سنة ٦٢٣ هـ ، وتولى أبو محمد عبد الله بن محمد بن أبي حفص على إفريقية . ومنذ ذلك التاريخ استقل بنو حفص بإفريقية ودافعوا ابن غانية ، وشرده في أقطارها إلى أن توفى في سنة ٦٣١ هـ في بلاد الزاب ^(١) .

وبالإضافة إلى حركة ابن غانية قامت في المغرب الأقصى بعض الثورات ، ولكنها كانت أقل خطورة من ثورة بني غانية . فقد ثار في بداية خلافته تاجر من غمارة يدعى علودان القماري ، فخرج الخليفة في أول جمادى الأولى سنة ٤٩٥ هـ قاصدا مدينة فاس ، فأقام بها بعض الوقت ، وسار منها إلى جبال غمارة ، فأخذ العتنة هناك ، وعاد إلى فاس مرة أخرى ، فأقام بها ، وبني قصبته وأسوارها التي كان قد خربها عبد المؤمن بن علي عند استيلائه عليها ، فتم بناؤها في سنة ٥٠٠ هـ ، وأنشأ محمد الناصر دار الوضوء والساقية بإزاء جامع الأندلسيين فيها ، وجلب إليها الماء من العين الواقعة خارج باب

الحديد ، كذلك قام الناصر ببناء الباب الكبير المدرج المشرف على صحن الجامع . ولم تقف أعمال الناصر إلى هذا الحد ، فقد جدد معلى عدوة القرويين من فاس . وظل الخليفة مقياً بفاس حتى سنة ٥٩٨هـ ، وفي أثناء مقامه بها ثار بالسوس رجل يدعى أبا قعببة عبد الرحمن ويعرف بابن الجزارة ، وذلك في سنة ٥٩٧هـ ، فدعا إلى نفسه ، وهاجم حامية الموحدين هناك ، وتمكن من الانتصار عليهم ، فبعث إليه الناصر جيشاً يتألف من الموحدين والممالك الفز والعرب ، فانهزم ابن الجزارة وقتل (١) . وفي سنة ٦٠٠هـ ثار عليه رجل من سلالة الفاطميين في مصر اسمه محمد بن العاضد ، بجبال ورفقة ، فقبض عليه الخليفة وقتله ، وأمر باحراق جنته ، فأحرقت أمام باب الشرية من أبواب مدينة فاس ، فسمى هذا الباب باب محروق ، وهو أحد الأبواب التي أمر الناصر بإقامتها في سور فاس (٢) .

ب - هزيمة المسلمين في العقاب :

لم ينس الفونسو الثامن هزيمة الموحدين له في الأرك ، فظل يفكر في نحو آثار الهزيمة ، وبدأ يحصن قلاع بلاده الواقعة على الحدود الإسلامية ، وعقد مع ملكي نيرة وأرغون عهود الصلح والحلف . وفي سنة ٦٠٧هـ قص القشتاليون الهدنة القائمة بينهم وبين الموحدين ، وأغاروا على بلاد المسلمين ، وخرّبوا أراضي جيان وبياسة وأندوجر ، ووصلوا إلى أحواز مرسية . فلما بلغ الناصر ذلك انزعج ، وأبدى غضبه ، وكتب إلى الشيخ أبي محمد ابن أبي حفص يستشيره في الفزو ، فنهجه بعدم خوض الحرب في هذه الآونة ،

(١) المراكبي ، ص ٣٠٥ ، ٣١٦

(٢) الجزا ئي ، ص ٣٣ - الاستقصا ج ٢ ص ٢١٩

فصالحه الناصر ، و فترق الأموال على القواد واللاجناد ، وكتب إلى جميع بلاد إفريقية والمغرب وبلاد القبلة يستنفر المسلمين لغزو الكفار ، فأجابه خاق كثير ، وألزم كل قبيلة من قبائل العرب بحصة من الخيل والرجال تخرج للجهاد ، فتقدمت عليه الجيوش من سائر الأقطار ، وتسارع الناس إليه خفافا وثقالا من البوادي والأمصار ^(١) . ثم جاز إلى الأندلس في ١٩ من ذي القعدة سنة ٦٠٧ هـ ووصل إلى إشبيلية ، وأقام بها للراحة ، والاستعداد للغزو . وقسم جيوشه إلى خمس فرق : فجعل للعرب فرقة ، وزناتة وصنهاجة والمهامة وغمارة وسائر قبائل المغرب فرقة ، وجعل المتطوعة فرقة ، وجعل جند الأندلس فرقة ، والموحدين فرقة . ولما انتهى من تنظيم جيشه تحرك في أوائل سنة ٦٠٨ هـ إلى بلاد قشتالة ، فزل على قلعتين هما اللج وشلبطرة فحاصرهما ، وضيق عليهما ، واستولى على حصن القلج أولا ، ثم حاصر شلبطرة ، وهو حصن منيع قائم بأعلى جبل ، فزل عليه الناصر ، ونصب عليه أربعين متجنيقا ، فحرب أرباضه ، ولكنه عجز عن فتحه ، وطال حصاره له ، وأعياه أمره ، فعزم على رفع الحصار إلى حصن آخر ، ولكن وزيره أباسعيد بن جامع أشار عليه بالبقاء على محاصرته ، فأقام عليه الحصار ثمانية أشهر فنت فيها أزواد الناس ، وقتل عوقاتهم ، وكلت عزائمهم ، وفست نياتهم ، واطتعت الأمماد عن المحلة ، فقلت بها الأسعار ، ودخل فصل الشتاء ، فاشتد البرد ، وأصاب المسلمين كل ضرر ^(٢) .

(١) الاستعصار ، ص ٢٢٠

(٢) نفس المرجع ص ٢٢٢ - René Millot, les Almohades, Paris, 1923,

ومازال الناصر يواصل محاصرة الحصن حتى استسلمت حاميته، وتخلب عليه ، وعاد إلى إشبيلية ظافرا .

وأحسن ملك قشتالة بما يديره الموحدون من خطط لغزو بلاده، وأدرك نيتهم في مهاجمة طليطلة عاصمة مملكة قشتالة ، وتبين له أن انتصار الموحدين قد يؤدي إلى تحطيم قوى النصرانية في إسبانيا كلها ، فاستغاث على حد قول الحميري « بأهل ملته ، وحثهم على حماية دينهم ، فاستجابوا ، واتفقوا عليه من كل مكان » (١) . والواقع أن انتصار الموحدين في موقعة الأرك كان إنذاراً لدول إسبانيا المسيحية، إذ أصبحت طليطلة وقونكة مهددتان بغزو وشيك . وأثار ذلك عوامل الدعر الملح في نفوس النصارى . فاستغل ذلك أسقف طليطلة رودريجو خيمينث دى رادا هو وأسقف بلنسية تيوتيدى مينس . ويعتبر رودريجو خيمينث المذكور من أشهر شخصيات العصر الوسيط في إسبانيا المسيحية ، فلم يكن هذا الأسقف رجلاً دين وإدارة فحسب : بل كان أديبا ومؤرخا ، وهو الذي دعا إلى ضرورة اتحاد الولايات للمسيحية ، وإلى فتح أبواب حرب ضليعة دولية داخل إسبانيا ، وبهذا أخذ يعد للعدة للرد على انتصار الموحدين في الأرك (٢) ، فأخذ يسعى جاهدا منذ سنة ١٢٠٣ م (١٢٠٦ م) للتوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية وتوحيدهم ، واجتاز جبال البرت إلى فرنسا وإيطاليا ، داعيا فيها إلى محاربة المسلمين ، فاجتمع إليه عدد كبير من غلاة المسيحية من فرنسا وإيطاليا . وأثمرت جهوده في التوفيق بين ملوك إسبانيا المسيحية ، فقد زار الملك سانشو السابع ملك نبرة (١١٩٤-١٢٣٤ م) القونسو الثامن ملك قشتالة سنة ١٢٠٤ م (١٢٠٧ م)

(١) الحميري ، ص ١٣٧

في مدينة وادي الحجارة ، واتفق الطرفان على عقد هدنة لمدة خمس سنوات ، كما تعهد القونسو الثامن للملك نبرة بالتوسط لدى بدرو الثاني ملك أرغون (١١٩٦ - ١٢١٣ م) للوصول إلى اتفاق بين مملكتي نبرة وأرغون . كذلك عقد القونسو ملك ليون (١١٨٨ - ١٢٣٠ م) عهد صلح مع القونسو الثامن في وادي الحجارة ، وأظهر سانشو ملك البرتغال (١١٨٥ - ١٢١١ م) كذلك استعدادا تاما لتقديم كل ما يطلبه منه ملك قشتالة من مساعدات .

ولما استولى الناصر على شلبطرة ، أرسل القونسو الثامن ملك قشتالة الأسقف جيراردو من مدينة شقوية سفيرا من قبله لدى البابا اينوسنت الثالث ، الذي لم يسهه أمام استيلاء الموحدين على شلبطرة ، للمقلد الأعظم لنظام ستر الحرب ، إلا أن يتوجه إلى سائر أساقفة فرنسا وبروفانس ، داعيا إلى حملة صليبية واسعة النطاق داخل إسبانيا . وبارك البابا عددا كبيرا من الفرسان الواقدين من إيطاليا وألمانيا والبرتغال وقطالونيا ، ممن دفعهم حماسهم الديني إلى الاشتراك في هذه الحملة الصليبية ^(١) .

وقبل أن ينتهي عام ١٢٠٨ هـ ، اجتمعت في طليطلة عاصمة قشتالة جشود هائلة من الصليبيين . وفي بداية عام ١٢٠٩ هـ ، عاد رودريجو خيمينث وفي صحبته جموع كبيرة من الفرنسيين ، وانضم إليهم فرسان قلعة رباح وسانياجو الاستبارية والداوية . واجتمع القوامس وفرسان قشتالة إلى الملك النونسو الثامن في أكل هيئة وسلاح . ومن بين الفرسان القشتاليين قوامس أسرة دي لارا ، ويرأسهم القومس ديجولوبث دي هارو ، ولوبي

Aguado Bleye, Manuel de historia de España, t. I, Madrid, (١)

دياث دى هارو ، وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميث وامير يث ، وتقدم فرسان سانتياجو بدرو آرياس ، ويرأس الاستبارية ابن جوتير وهرم مخلدو ، وقدم من أساقفة فرنسا ، أسقف برديل وأسقف نانت وأسقف أربونة ، وعدد كبير من رجال الدين الفرنسيين من ليوج ، سانتونج وبرى ، وبواتو ، وأنجو ، وبريطاني (١) .

وزحفت جيوش التصارى من طليطلة في ٢٠ يونيو سنة ١٢١٢م (٥٦٠٩) بعد أن توزعت إلى ثلاثة جيوش :

الجيش الأول: يقوده فارس قشتالة دون ديجو لوبث دى هارو ، وعدته نحو مائة ألف مقاتل ، ويقود وحداته المختلفة أسقف أربونة وأسقف برديل وأسقف نانت وغيرهم .

الجيش الثاني : يتألف من الأرغونيين والقطالين وفرسان الداوية ، ويقوده الملك بدرو الثانى .

الجيش الثالث : يتألف من القشتاليين والليونيين والبرتغاليين ، وفرسان قلعة رباح ، وفرسان سانتياجو ، والاستبارية ، ويقوده الفونسو الثامن ملك قشتالة ، ويقود وحداته الأمير الليونى سانشو فرنانث والأمير البرتغالى بدرو ، والأسقف رودريجو خيمينث (٢) .

تقدم جيش ديجو لوبث إلى ملجون ، واستولى عليها ، وقتل القشتاليون جميع سكان هذه المدينة ، ثم واصل هذا الجيش زحفه حتى وصل إلى قلعة

(١) ألتباخ ، ص ٣٠٦ - ٣٦٠

(٢) قس المرجع ص ٣٦١

رباح ، التي تقع على بعد ميلين من ملجون، وهناك اجتمع هذا الجيش بجيش قشتالة وأرغون ، وضربت هذه الجيوش الحصار على المدينة ، فكتب أبو الحجاج يوسف بن قادس ، عامل قلعة رباح إلى الخليفة يستمده ، ولكن رسائله كانت تقع بين يدي ابن جامع الوزير فيخفيها عن الخليفة . فلما طال الحصار على المدينة ، ورأى ابن قادس استحالة المقاومة مع فناء القوات وقلّة السلاح ، ويش من إمداد الناصر له بالعدة والقوات ، وخاف على سكان المدينة ، صالح القونسو على تسليم الحصن له على أن يخرج المسلمون آمنين على أنفسهم ^(١) . ووافق القونسو على ذلك ، لرغبته في الاحتفاظ بقلعة رباح سليمة حتى يستطيع استخدامها بعد ذلك ضد جيوش المسلمين . أقام بدرو الثاني بعض الوقت في قلعة رباح انتظارا لوصول سانشو السابع ملك نبرة ، بنا زحف القونسو الثامن إلى الأرك ، فاستولى على حصنها ، وسقطت كرموبل وبنافتي ويطروبوينه في يده ، ثم مر بقلعة شبطرة ، ولم يحاول الاستيلاء عليها لما كان يعرفه من مناعتها .

ولما علم الناصر بخروج جيوش المسيحية مجتمعة واستيلائها على قلعة رباح تألم كثيرا ، وعزم على مقابلتهم ، فاستنفر الناس من أقاصى البلاد ، فاجتمعت إليه جيوش كثيفة ، ووفد عليه باشييلية أبو الحجاج يوسف بن قادس ، فأمر بقتله بسبب تسليمه قلعة رباح للتماري دون أن يسمع حجتة في ذلك وأثار مقتله غضب الكتائب الأندلسية ، فغيروا عليه ، وفسدت نياتهم ، وبذكر الحميري أن الناصر أخرج حشودهم من الجيش غضبا عليهم ^(٢) . ولكن هذا القول مبالغ فيه ، فقد ورد ذكر الكتائب الأندلسية

(١) الترطاس ص ١٥٧ - الاختصاص ص ٢٢٢

(٢) الحميري ص ١٢٢

أنهاء المعركة ، وتخاذلم وفترهم في القتال، وأغلب الظن أنه اكتفى بحزل
قوادم من الجيش وأبقى على الكتائب . ثم خرج من إشبيلية في شهر محرم
سنة ٦٠٩ هـ على رأس جيش لم تلتق أهدافه ، فقد كان العدد الأعظم من رجاله
لا يرغب في الغزو بسبب تقيده عليهم ، فقابلوا العدو بفتر وعدم مبالاة .
كذلك أخطأ الناصر خطنا فاحشا بعزل قادة الكتائب الأندلسية ،
من جيشه ، وكانوا قد تعودوا على قتال النصارى في الأندلس ، وعرفوا
خطتهم في القتال ، وفي ذلك يقول صاحب الذخيرة السنية : « فان رجال
الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخف بهم الناصر ووزيره ، فشنع
بعضهم ، ففسدت النيات ، فكان ذلك من تحت الإفرنج » ^(١) . وصل الناصر
إلى قرطبة ثم سار بعد ذلك إلى مدينة جيان ، وواصل سيره في اتجاه بياسة
وأبدة ، ونزل في الفحص المعروف بفحص البلوط الواقع بين جيان وقلعة
رباح .

أما قوات الفونسو ، فقد زحفت جنوبا ، فاخترقت جبال سيرا مورينا
في ١٢ صفر سنة ٦٠٩ هـ (١٤ يوليو سنة ١٢١٢ م) وانسابت في أحد
الوديان الواقعة بين الجبال نفسها وهضبة لينارس ، بالقرب من بلدة تولوسا ،
ويطلق النصارى على هذه الوديان اسم نافاس ، ولذلك عرفت الموقعة عندم
باسم لاس نافاس دي تولوسا Las Navas de Tolosa ، ويسمى مؤرخو
العرب هذا الموضع بالعقاب نسبة إلى حصن أموى قائم بالقرب من الفحص
الذي دارت فيه الموقعة .

(١) الذخيرة السنية في أخبار الدولة المرينية ، بتحقيق محمد بن أبي شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠

وأول خلفاء الموحدين الضعاف المستنصر بالله أبو يعقوب بن محمد الناصر الذي بوج بالخلافة وعمره ١٦ سنة ، وتوفي في سنة ٦٢٠ هـ ، وفي عهده انبعثت الثورات والفتن ، وكثر الخارجون عليه في أنحاء البلاد . ولا توفي اضطرب الأمر ، واجتمع الناس على تقديم عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن ، وفي عهده تفرق أمر الموحدين ، وازدادت مطامعهم في الخلافة ، فاستقل أبو محمد عبد الله بن يعقوب المنصور بالاندلس ، وتلقب بالعدل وأيده بعض أعيان الموحدين ، فخلعوا عبد الواحد ، وقتلوه بعد أشهر من ولايته . كذلك لم يطل عهد العدل بن المنصور ، إذ انتهى الأمر بمقتله سنة ٦٢٤ هـ وخلفه أخوه أبو العلاء إدريس بن المنصور ، فبوج بالخلافة في إشبيلية ، مقر ولايته ، أيام أبيه المنصور وأيام أخيه العدل ، وتلقب أبو العلاء بالمأمون ، وبايعه أهل الاندلس . وفي الوقت الذي بايعه فيه أهل الاندلس بوج أبو زكريا يحيى بن الناصر بالخلافة في مراكش ، وتلقب بالعتصم ، وقام صراع عنيف بين خليفة الموحدين في الاندلس وخليفتهما في المغرب ، ولم ينته هذا الصراع إلا بوفاة أبي العلاء إدريس في سنة ٦٣٠ هـ . وكان أبو العلاء قد استعان بفرقة من النصاري المرتقة ، أدخلهم في جيشه ، فأدخلهم مراكش ، وبنى لهم فيها كنيسة ^(١) . وبينما كان المأمون مشغولا بمحاربة للعتصم ، قام عليه أخوه أبو موسى في سبتة ، وتلقب بالمويد ، ومنذ ذلك الحين أصبح المغرب مسرحا للقتال بين خلفاء الموحدين ، وقامت للثورات في كل مكان .

لحراسته وتلقى الضربات ، وكان فرسه يادنا ، فلم يطق الحركة ، فزُلَّ له أحد فواد الرب عن فرسه ، وكان الناصر قد أمر أبا بكر بن عبدالله بن أبي حفص بالوقوف تحت الراية ، وظن النصارى أن الناصر تحت هذه الراية ، فحملوا عليها ، ووضعوا السيف فيمن واجبها ، فقتل أبو بكر بن عبدالله الحفص ، وقتل كل من دافع عن الراية ، وانهزم المسلمون هزيمة نكراء ، واستولى العدو على جميع المحلة وأكثر مضاربها (١) . وما زالت بعض أعلام للموحدين وخيمهم في العقاب محفوظة حتى اليوم بدير لاس إيبلجاس في مدينة برغش ، ومن بينها سجادة خيمة الخليفة محمد الناصر أو لعلمها علما من الأعلام الموحدية ، وهي قطعة من النسيج المصنوع من الدياج المحلى بخيوط الذهب ، وألوانها حمراء وزرقاء وبيضاء وخضراء وصفراء . وتتألف زخارفها من جامة مركزية ، بداخلها زخرفة هندسية من تشابكات تحيط بها طرز مربعة ، ويحيط بالسجادة شريطان من الكتابة النسخية ، وبأدناها شريط من دوائر متصلة (٢) .

قضى النصارى المنتصرون يومين التماسا للراحة بعد المعركة ، وفي اليوم الثالث ، انقضوا على المدن الأندلسية المجاورة لحصن العقاب ، فاستولوا على بانيس ، وكاستروفرات ونولوسا ، ثم استولوا على يباسا ، وأحرقوا للمسلمين الذين لا ذوا بمسجدهم ، ثم حاصروا أبدقواستولوا عليها ، واستولوا كذلك على بسطة . ثم عاد الفونسو الثامن إلى طليطلة بعد أن اكتفى بما

(١) الحميرى ص ١٢٨

(٢) Gomez Moreno, el Pantéon Real de las Huelgas de Burgos, (٢) Madrid, 1946 pp. 81 et sqq. - Torres Balbas, Ars Hispaniae, t. IV, 1949 السيد عبد العزيز سالم ، الفنون والصناعات بالأندلس ، دائرة معارف التنب ، ج ٢ ص ١٩٢ ، القاهرة ١٩٥٩

أحرزه من انتصارات بحيث استقبله شعبه هناك بمواكب من الموسيقى والأناشيد . أما الناصر ، فقد عاد إلى إشبيلية متظاهرا بعدد الاكثارات لهذه الهزيمة ، ثم عبر الزقاق إلى مراكش ، وهو حزين لهذه الهزيمة ، واحتجب الخليفة بعد ذلك في قصره بمراكش بقية سنة ٦٠٩ هـ . وتوفي في ٤ شعبان من سنة ٦١٠ هـ أى بعد سبعة أشهر من هزيمته في العقاب .

ج - انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في الارك :

يمر المؤرخون العرب مرا سريعا على معركة العقاب ، ويذكرون أنها الواقعة المشؤومة التي لم يقم للمسلمين بعدها قائمة محمد ، ولم تستقل الأندلس بعدها العثرة ^(١) ، لأن النصارى استولوا بعدها على أكثر مدن الأندلس . ويسجل تاريخ وفاة محمد الناصر بداية انهيار دولة الموحدين التي امتدت على الرغم من ذلك حتى سنة ٦٦٨ هـ ، وهي السنة التي قتل فيها أبو دبوس أمام أسوار مراكش التي دخلها بنو مرين . ولقد أعان على انهيار دولة الموحدين عدة عوامل منها : ١ - الضعف الحربي والسياسي والنفسى الذي منيت به بعد هزيمتهم في موقعة العقاب .

٢ - فوضى الإدارة وتفكك وحدة قبائل الموحدين ٣ - الاضطراب الذي أحدثته العرب الحلالية ، والممالك الغز في البلاد ، وغاراتهم المستمرة في نواحي دولة الموحدين ٤ - التوسع المسيحي في إسبانيا الإسلامية منذ النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، واستنفاذ قوى الموحدين في إيقاف مدم ٥ - حركة بني غانية في المغرب وهي حركة بعثت قوى الموحدين واستهلكتها . ٦ - ضعف الخلفاء الذين تولوا بعد محمد الناصر ، وازدياد تقوذر رجال الإدارة والولاة ، والصراع بين أمراء بيت عبد المؤمن من أجل الظفر بالخلافة .

(١) ابن الخطيب ، أفعال الأعلام ، التسم الخامس بالأندلس ، ص ٢٧٠

اشتبك الجيشان في ١٥ صفر ، في قتال عنيف سرعان ما انجلي عن سيطرة
النصارى على المركة ، ويعصف السلاوى هذه الموقعة فيذكر أن الناصر ،
ضرب قبة الحمراء المعدة للقتال على رأس ربوة وجلس أمامها على درقه وفرسه
قائم بأزائه ، ودارت العبيد بالقبة من كل ناحية ، ومعهم السلاح التام ،
ووقفت الساقات والبند والطبول أمام العبيد مع الوزير ابن جامع ، وأقبلت
جموع الفرنج على مصافها كأنها الجراد المنتشر ، فقدمت إليهم للمتطوعة ،
وحلوا عليهم أجمعون ، وكانوا مائة وستين ألفا ، فهابوا في صفوفهم ،
وانطبقت عليهم الفرنج ، فاقتلوا قتالا شديدا ، فاستشهد المتطوعة عن
آخرهم ، هذا وعسكر الموحدين والعرب والأندلس ينظرون إليهم ، لم
يحرك إليهم منهم أحد ، ولما فرغ الفرنج من المتطوعة حلوا بأجمعهم على عسكر
الموحدين منهم والعرب حملة منكزة ، فلما انتشب القتال بين الفريقين ،
فرت قوات الأندلس وجبوشها لما كانوا قد حققوه على ابن جامع في قتل
ابن قادس أولا ، وتهديد وطرده لهم ثانيا ، فجروا الهزيمة على المسلمين ،
ولاحول ولا قوة إلا بالله ، وتبعهم قبائل البربر والموحدون والعرب ، وركبتهم
لفرنج بالسيف ، وكشفوهم عن الناصر حتى انتهوا إلى الدائرة التي دارت
عليه من العبيد والحشم ، فألقوها كالبنائف المرصوص ، لم يقدروا منها
على شيء ، ودفع للفرنج بجيولهم المدرعة على رماح العبيد وهي مشرعة إليهم
فدخلوا فيها ، والناصر قاعد على درقه أمام خبائه يقول : صدق الرحمن ،
وكذب الشيطان . حتى كانت الفرنج تصل إليه ، وحتى قتل حوله من عبيد
الدائرة نحو عشرة آلاف (١) .

ولم يبق أمام الناصر سوى الفرار ، فركب فرسه وحوله ثلة من العبيد

كذلك شهدت الأندلس في هذه الآونة فترة مشهورة بالاضطرابات العنيفة، وأخذ رؤساء الأندلس - بعد أن اتفقت أمر للموحدين - يفترون بنواحي الأندلس، وقامت الفتنة الثالثة في تاريخ الأندلس، واشتعلت نار الثورة واحتدمت في سائر مدنه، وكان المحرك الأول لهذه الثورات محمد بن يوسف ابن هود الجذامي الثائر بمرسية^(١). وقد تمكن ابن هود من التغلب على شرق الأندلس كله، وفرض سلطانه على مرسية وقرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة والريّة والجزيرة الخضراء وماردة، وأيقن أهل الأندلس أن إمارته ستكون مخرجاً لهم من حالة الفوضى والاضطراب التي شملت بلادهم في ذلك الحين، ولكن جهود هذا الأمير اصطدمت بمحركات معضادة من جانب أبي العلاء إدريس من جهة، والقشتاليين والأرغونيين من جهة ثانية، وبعض خصومه من رؤساء الأندلس من جهة ثالثة، ونخص بالذكر منهم محمد بن يوسف بن نصر صاحب حصن أروجة الذي تمكن من الاستيلاء على جيان وشرش في سنة ٦٣٠ هـ، وعلى إشبيلية في سنة ٦٣٧ هـ، وعلى غرناطة ووادي آش وبسطة في سنة ٦٣٥ هـ. وانهز القشتاليون والأرغونيون فرصة قيام الحرب الأهلية بين المسلمين في الأندلس، واستولوا على بعض المدن الأندلسية الهامة، وكان القشتاليون قد اغتصبوا القسم الأعلى من الأندلس حتى أندوجر منذ بداية الفتنة حتى سنة ٦٣٣ هـ؛ بينما أتم الليبريون فتح إقليم اسقوامادورة. فلما اتحدت مملكتا قشتالة وليون تحت تاج واحد في ظل الملك فرناندو

(١) محمد بن هود من سلالة بني هود الجذامين أصحاب مرسطة في عصر الطوائف، ويسمى الأسيان في مدوناتهم التاريخية باسم Zafadola أي سيف الدولة وهو له الذي تطلب به.

الثالث الملقب بالقديس، أتيح له الاستيلاء على ياسة وأبدة في سنة ٦٣٣ هـ، وعلى قرطبة حاضرة الخلافة الأموية في الأندلس في سنة ٦٣٦ هـ (١)، وعلى إشبيلية، حاضرة الموحدين، في سنة ٦٤٦ هـ. وتمكن أخيراً من ضم قادس وولبة وجميع المدن الواقعة بالقرب من مصب الوادي الكبير. أما في شرق الأندلس، فقد كان خطر خايمي الأول ملك أرغون أعظم من خطر فرناندو، إذ تمكن من الاستيلاء على ميورقة والجزر الشرقية فيما بين عامي ٦٢٧، ٦٣٥ هـ، واستسلمت له بلنسية في سنة ٦٣٦ هـ، ونجس في سنة ٦٤٥ في الاستيلاء على جزيرة شمر ومدينة شاطبة. أما مرسية فقد تمكن فرناندو الثالث من الاستيلاء عليها في سنة ٦٤٩ هـ (٢).

وظلت الفوضى ضاربة أطنابها في المغرب والأندلس في عهد خلفاء الموحدين الضعاف حتى كانت أيام المرتضى أبي حفص بن اسحاق الذي تولى بعد وفاة المعتضد بن المأمون سنة ٦٤٦ هـ، في موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان، غير أن عهد المرتضى لم يطل كثيراً، إذ خرج عليه أمير من أمراء الموحدين هو أبو العلاء إدريس الثاني المعروف بأبي دبوس. وانقرضت دولة الموحدين بمصرع أبي دبوس على أسوار مراکش، ودرست آثارها، واستولى الحراب والدمار على معظم ديار مراکش.

(١) كال سقوط قرطبة في أيدي التتالين ضربة تديعة أمابت الاسلام في الاندلس، وكان ماملا رئيسيا في انهيار سلطان الموحدين نهائيا في الاندلس.
 Terrasse, Histoire du Maroc, t. I, pp. 349 et sq. (٢)

(٦)

مساجد الموحدين ونحسيناتهم في المغرب

١ - الأثر الأندلسي في الفن الموحدي :

أسرة الموحدين من الأسرات الإسلامية التي اهتمت خلقاؤها بالبناء والتعمير ، وليس في بلاد المغرب كلها آثار تعادل في الكثرة وفي العظمة والجمال آثار الموحدين ، والموحدون أصحاب مدرسة في فن العمارة وفي الزخرفة من أم تماثيلها التبسيط بقدر الإمكان من التكوينات الزخرفية ، وتجريد التوريقات من عناصرها الحية ، وطبعها بطابع من الورع الذي يعكس اتجاههم الإصلاحى . ولقد تأثرت فنون الموحدين في العمارة والزخرفة ، تأثرا عميقا بالحضارة الأندلسية ، وتمكنت الأندلس من غزو المغرب فنيا وعليا في نفس الوقت الذى غزا المغرب في عصر الموحدين بلاد الأندلس عسكريا . وعصر الموحدين هو العصر الذى توفقت فيه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ، وانتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب ، وظهرت في جميع الأبنية التى أقامها خلفاء الموحدين في المغرب مثل جامع الكتبية بمراكش ، وجامع القصبة بنفس المدينة ، وجامع حسان برباط الفتح وقصبة رباط الفتح . ويذكر ابن سعيد المغربي ، « أن حضرة مراكش هى بغداد المغرب ، وهى أعظم ما فى بر العدو ، وأكثر مصانعا ومبانيها الجميلة وبساتينها إنما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن ، وكانوا يجلبون لها صنائع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم إلى الآن ، ومدينة تونس بأفريقية قد انتقلت إليها السعادة التى كانت فى مراكش بسلطان إفريقية الآن أبى زكريا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، فصار فيها من المبانى والبساتين والكروم ماشايت

بـ بلاد الأندلس وعرفاء صناعه من الأندلس وتماثله التي يحض عليها ، وإن
كان أعرف خلق الله باختراع شاسن هذا الشأن ، فأما أكثرها من أوضاع
الأنداسيين ، وله من خائمه تنبيهات وزبادة ، ظهر حسن موقعها ، ووجوه
صنائع دولته لانتكاد تجدهم إلا من الأندلس ،^(١)

ولقد ازداد الأثر الأندلسي في فنون المغرب في عصر الموحدين ومن
تبعهم في المغرب من بنى مريم وبنى زيان وبنى حفص بسقوط معظم قواعد
الأندلس مثل قرطبة وبلنسية وجيان وغيرها ، وفي ذلك بقوله ابن خالط
الأندلسي : « ولما نفذ فضاء الله تعالى على أهل الأندلس بمخرج أكثرهم
عنها في هذه الفتنة الأخيرة المنيرة ، تفرقوا يبلد المغرب الأقصى من بر
المدوة مع بلاد إفريقية ، فأما أهل البادية فالوا في البوادي إلى ما اعتادوه ،
وداخلوا أهلها ، وشاركهم فيها ، فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ،
وأحدثوا الأرحى الطاحنة بالماء وغير ذلك ، وعلوم أشياء لم يكنوا
يعلمونها ولا رأوها ، فشرفت بلادهم ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستفلاتهم ،
وعمتهم الخيرات ، فهم أشبه للناس باليونانيين ... وأما أهل الحواضر فالوا
إلى الحواضر واستوطنوها ، فأما أهل الأدب فكان منهم الوزراء والكتاب
والعمال وجباة الأموال والمتمصلون في أمور المملكة ، ولا يستعمل بلدى
مارجد أندلسي ، وأما أهل الصنائع ، فانهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا
معاشهم ، وأحسوا أعمالهم ، وصيروهم أتباعا لهم ، ومتصرفين بين أيديهم ،
ومتى دخلوا في شغل عملوه في أقرب مدة ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق

والشجود ما يعملون به النفوس إليهم، ويصير الذكر لهم^(١). هذه المقتطفات توضح لنا كيف انتقلت التأثيرات الأندلسية إلى المغرب الأقصى في عصر الموحدين وماتلاه من عصور .

وإذا تتبعنا الآثار الأندلسية في فنون المغرب وجدنا أنه يرجع إلى أيام عبد المؤمن بن علي الذي أحاط نفسه بعدد من أدباء الأندلس ، واستخدم بعضهم كتاباته ، من أمثالهم : أبو جعفر أحمد بن عطية ، وأبو محمد عياش ابن عبد الملك القرطبي ، ومن قضاته عبد الله بن عبد الرحمن المالقي ، ومن شعرائه الأصم السرواني الشاعر ، وابن سيد الملقب بالص ، وأبو عبد الله محمد بن غالب البلنسي المالقي . أما أبو يعقوب يوسف فكان على حد قول المراكشي ، « أعرف الناس كيف تكلمت العرب وأحفظهم لأيامها وما أثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام ، صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بانشيلية واليا عليها في حياة أبيه ، ولقي بها رجالا من أهل علم اللغة والنحو والقرآن ، منهم الأسعاذ اللغوي المتقن أبو اسحق ابراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون ، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه ... وكان أحسن الناس إلقاها بالقرآن ، وأسرعهم نقود خاطر في غامض مسائل النحو ، وأحفظهم للغة العربية ، وكان شديد الملوكة ، بعيد المهمة ، سخيا جوادا . استغنى الناس في أيامه ، وكثرت في أيديهم الأموال ، هذا مع إثاره للعلم شديد ، وتسلسل إليه مفرط ... وكان له مشاركة في علم الأدب ، واتساع في حفظ اللغة ، وتبحر في علم النحو حسيا تقدم . ثم طمع به شرف نفسه ، وعلو همة إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيرا من أجزاءها وبدأ من ذلك يعلم

الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك الى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي^(١) ، وكان ممن صحبه من العلماء الأندلسيين أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل العنسي الوادي آتسى الفيلسوف ، وأبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ، وأبو بكر محمد بن أبي مزوان عبد الملك بن زهر ، طيب إشبيلية .

وكما تأثر خلفاء الموحدين بعلوم الأندلس وأدبائها فقد تأثروا أيضا برجال الفن الأندلسيين ومهندسيهم ، ونخص بالذكر منهم مهندسين اشتركوا في تشييد معظم آثار بني عبد المؤمن ، وهما أحمد بن باسة عريف البنايين في الأندلس ، والحجاج يعيش الملقب^(٢) : الأول تولى بناء جامع إشبيلية ، والثاني اشترك في بناء حصن جبل طارق (٣) .

ب - اهتمام الموحدين بالبنايا :

اهتم من خلفاء الموحدين بالبنايا الأربعة العظام : عبد المؤمن بن علي ، وأبو يعقوب يوسف ، والمنصور ، والناصر . أما عبد المؤمن فقد اهتم بالعمارة والتشييد اهتماما خاصا ، فهو الذي أمر ببناء سور تراكارت أو

(١) المراد كتي ، ص ٢٣٨

(٢) P. Antena Melchor, Sevilla y sus monumentos arabes, (٧) pp. 131 - 133

(٣) الخلل الموشية ، ص ١٠٨

Torres Balbas, Arquitectos andaluces de las épocas almorávide y almohade, Al-Andalus, 1946, fasc. I, pp. 214 - 224

تاجرارت من تلسان في سنة ٥٤٠ هـ ، وبناء مسجدھا الجامع (١) ، وهو الذي أمر ببناء حصون جبل الفتح في سنة ٥٥٥ هـ (٢) وأقام به القصور (٣) ، وهو الذي قام ببناء جامع تينملل ووسع المدينة عند زيارته لقبر المهدي في سنة ٥٤٨ هـ (٤) ، وبناء القصور في مراکش (٥) ، وبناء المساجد وإصلاحها في جميع بلاده سنة ٥٥٠ هـ (٦) . وعبد المؤمن هو الذي أسس جامع الكتبيين بمراكش بفصر الحجر المرابطى بعد أن هدم جامع علي بن يوسف .

أما ابنة أبو يعقوب يوسف فكان مولعا بالعمارة ، محبا لها ، فاليه يرجع الفضل في الشروع في ببناء مدينة رباط الفتح ، وعاقه الموت عن إتمامها فاتمها ابنه المنصور (٧) ، واليه يرجع الفضل في إنشاء الجسر الموصل بين إشبيلية وربضها القبلى طرانة ، وقصور البحيرة الواقعة خارج باب جهور بإشبيلية ، والقصور للقمامة خارج باب الكحل من أبواب هذه المدينة ، وقنوات المياه المحمولة على القناطر والحنايا من قلعة جابر إلى باب قرمونة من أبواب إشبيلية . وأهم دائمي أبي يستوب من أعمال البناء قسبة إشبيلية وجامعها الكبير . وقد استحضر لذلك الفرض عرفاء أهل الأندلس وعرفاء مراكش وقاس وشرع في بنائه في سنة ٥٦٧ هـ ، وتم في ٥٧١ هـ ، ونقلت إليه

(١) القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) المربع السابق ، ص ١٣٠ - الخلل ، ص ١١٨

(٣) المراكشى ، ص ٢١٣

(٤) القرطاس ، ص ١٢٦

(٥) المراكشى ، ص ٢٢٧

(٦) القرطاس ، ص ١٢٧

(٧) المراكشى ، ص ٢٢٦

الخطبة من جامع ابن عدس في سنة ٥٧٧ هـ (١). أما المنصور فهو أكثر خلفاء
الموحدين ولما بالعمارة والبناء ، وقد ضرب الرقم القياسي في بناء المساجد
والقصور والتحصينات ، فهو الذي أسس حصن القصر من إشبيلية بقيابه
المشرفة على نهر الوادي الكبير (٢) ، وهو الذي أسس بمراكش إيبارستان
الكبير ، وأجرى المياه إلى قاطاته (٣) ، وهو الذي أتم بناء جامع إشبيلية
وأقام له الصومعة والتفانيج المركبة على العمود الحديدى بأعلاها في سنة
٥٩٣ هـ ، وهو الذي أتم بناء منار جامع الكتبية بمراكش وقعبة مراكش
وجامعها ، ومدينة رباط الفتح من أرض سلا ، وجامع حسان (٤).

وإلى الناصر نسب الزيادة بجامع الأندلس بفاس (٥) ، وأسوار
مدينة فاس التي كان قد هدها جده عبد المؤمن في سنة ٥٤٠ هـ (٦).

ثم اتجه خلفاء الموحدين الضعفاء في الأندلس بوجه خاص إلى تشييد
الفلاع والحصون أمام الدفع السريع للاسترداد الإسباني ، قال أبو الصلاء
إدريس ينسب برج الذهب بإشبيلية الذي أمر بتشييده في سنة ١٢٢١ م ،
كما ينسب إليه أيضا السور الأمامى المعروف بالحزام البراني أمام أسوار
إشبيلية (٧).

(١) Antuna Melchor, op. cit. p. 130 - 138

(٢) المراكشي ، ص ٢٩٢ - نس ابن عذاري بحال اوبنى ميرندا ، ص ٤٢ -

الفرطاس ، ص ١٥١

(٣) المراكشي ، ص ٢٨٧

(٤) الفرطاس ، ص ١٥١ - ١٥٢

(٥) الفرطاس ، ص ٤٦ - الدخيرة السنية ، ص ٤٠

(٦) الفرطاس ، ص ١٢٣

(٧) السيد عبد العزيز سالم ، المارة الحربية بالأندلس ، دائرة معارف الشعب ، عدد

٦٤ ، ص ١٥٦ ، ١٥٨

ج - أهم مساجد الموحدين وحصيناتهم في المغرب والاندلس :

١ - جامع الموحدين برباط تازي :

أصبحت تازي منذ قيام دولة الموحدين أهم مركز حربي في القسم الشرقي من المغرب الأقصى ، فقد اتخذها عبد المؤمن بعد أن اختصها في سنة ٥٢٧ هـ ^(١) قاعدة للحملات التي كان يوجهها إلى المغرب الأوسط الذي كان يحتله المرابطون وبلاد الريف . ولقد حلت تازي لمدة طويلة محل مدينة تينمل التي أصبحت متطرفة بعد أن اتسعت أملاك الموحدين في المغرب ، ولم تعد تشغل إلا الموضع الثاني من الأهمية ^(٢) . ولقد عمل عبد المؤمن على تحصين تازي ، ففي سنة ٥٢٩ هـ أمر ببناء رباط تازي فبنيت ، وحصن سورها ^(٣) . وكانت رباط تازي على حد قول صاحب الاستبصار « مدينة كبيرة في سفح جبل مشرفة على بساطته ، تشقها جداول المياه العذبة ، وعليها سور عظيم وقد بنى بالجير والحصى يبقى مع الدهر ، وهي في فسحة على ٩ أميال ما بين جبال ، ينصب إليها من تلك الجبال مياه كثيرة ، وأنهار تسقى جميع بساطتها في أعلاها وأسفلها ، ولها نظر كبير ، كثير الزرع وجميع الثواكه والخيرات » ، ويذكر صاحب الاستبصار أن هذه المدينة أسست في سنة ٥٦٨ على الطريق المار من بلاد المغرب إلى بلاد المشرق ، وكانت تسمى مكانة تازي نسبة إلى قبيلة مكانة ^(٤) .

(١) البلاوي ، الإختصاص ج ٢ ص ١٠٩

(٢) Terrenze, la grande mosquée de Taza, paris, 1943, p. 17

(٣) البلاوي ، المرجع السابق ، ص ١١٠

(٤) الاستبصار ، ص ١٨٦ ، ١٨٧

وإلى عبد المؤمن برجع الفضل في تأسيس جامع تازي الذي يؤلف جزءا من الجامع الحالي ، وكان جامع الموحدين تازي يشتمل على ٩ بلاطات عمودية على جدار القبلة ، وكان البلاط الأوسط أكثرها اتساعا ، وكان يحرق هذه البلاطات حصة أساكيب ، الأسكوب الأول المهادي للقبلة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى ، وكانت تعلوه ثلاث قباب : واحدة أمام المهراب ، واثنان في نهاية طرفي هذا الأسكوب . وكانت لصحن الجامع مجنبتان كل منهما تشتمل عن بلاطين هما امتداد لبلاطات بيت الصلاة المتطرفة شرقا وغربا . وكانت المنذنة تقع في الركن الشمالي الشرقي من المسجد . وبشبه تخطيط هذا المسجد تخطيط المسجد الجامع يتنمّل كل الشبه ، ويمكننا أن نميز تخطيط المسجد الذي أسسه الموحدون في تازي من مجموع بناء الجامع الحالي من أعلى سطحه ، فإن الأسطح المنشورية التي تعلو بيت الصلاة تقف بعد الأسكوب الرابع ، وعلى هذا فإن الزيادة المربنية بالجامع نشبه في وضعها بالنسبة للمسجد الأول ، زيادة الحكم المستنصر في جامع قرطبة من حيث استقلالها عن سائر البناء (١) . كذلك تتميز الزيادة المربنية بداخل بيت الصلاة عن البناء الموحدي الأول ، فإن أساكيب هذه الزيادة أكثر اتساعا من الأساكيب الأخرى ، كما أن عقود هذه الزيادة المربنية من النوع المنفوخ المتجاوز ، في حين أن عقود جامع عبد المؤمن من النوع المنفوخ المنكسر الذي يشبه عقود جامع الكتبية بمرآكش .

٢ - جامع تينمل :

تعتبر تينمل قاعدة الدعوة الموحدية ، فمنها انطلقت فتوحات الموحدين

في المغرب ، وفيها دفن المهدي وخلفاؤه عبد المؤمن وأبو يعقوب يوسف وأبو يوسف يعقوب المنصور . ولم تكن تينمل في أيام المهدي تزيد عن كونها قرية كبيرة ، فلما أصبحت مركز دعوة الموحدين ، لم تعد تقسح لحشودم الكثيرة ، فاضطر المهدي إلى توسيعها وزيادة عمرانها ، وحوطها بالأسوار ، وأسس بها مسجدا جامعا ، في نفس الموضع الذي يقوم عليه الجامع الحالي^(١) . والجامع الحالي من بناء عبد المؤمن ، أقامه تقريبا في نفس الوقت الذي أقام فيه جامع الكتبية ، وذلك عند زيارته لقبر المهدي في سنة ٥٤٨ هـ . وفي هذا الجامع الجديد يتجلى مدى التقدم الفني الذي أحرزته الدولة القبية في أمد وجيز .

ويقع الجامع في الطرف الغربي من المدينة ، ويفتلى مساحة مستطيلة الشكل ، طولها ٤٨ مترا وعرضها ٣٦ مترا . والجامع يقسم بالانسجام والتناسق في تخطيطه ، وفي زخارفه ، فالمحراب يقسم بيت الصلاة إلى قسمين متعادلين في البناء والزخرفة بصورة تظهر لأول مرة في العمارة المغربية^(٢) . وصنع الجامع صغير بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، وتحف به عيجتان شرقية وغربية ، كل منها تشتمل على رواقين . ويفتح بجدار المحراب على جانبيه فستان ، ويضم بيت الصلاة تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة ، البلاطتان المتطرفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، وتشتمل كل من هذه البلاطات على خمسة صفوف من الدعائم تقسم هذه البلاطات أربعة إلى أساكيب ، ويسبق

(١) H. Terrasse et R. Basset, Sanctuaires et forteresses

almohades, p. 18

Ibid. p. 48 (٢)

المحراب أسكوب فسيح يماثل في اتساعه بلاطة المحراب الوسطى، ويقوم على نقطة تقاطع بلاطة المحراب بأسكوبه قبة، ويعلو الأسطوانتين المتطرفتين على أسكوب المحراب قبتان أخرتان. ولا شك أن وضع هذه القباب يختلف عن وضع قباب مساجد المرابطين، التي لم تعرف نظام القبتين اللتين تكتدان قبة المحراب، وكل ما كانت تعرفه هو قبة المحراب، وأحيانا قباب تتوزع على البلاطة الوسطى.

هذه القباب الثلاثة مكسوة كلها بالمقريصات، ويعتقد الاستاذ مارسيه أن نظام وضع هذه القباب الثلاثة على أسكوب المحراب متأثر بنظام قباب جامع الحاكم بأمر الله بالقاهرة الذي يتضمن حلا مماثلا^(١).

وللمسجد سبعة أبواب: اثنان يفتتحان في كل من الجدار الشرق والجدار الغربى ليت الصلاة، وواحد في كل من جدارى المحبتين الشرقية والغربية، والباب السابع صغير يفتح في الواجهة الشمالية للمسجد إزاء المحراب. وتتميز أبواب جامع تينمل بأن مداخلها كلها، باستثناء الباب الشمالى، تقع بين كتلتين بارزتين من البناء، وقد يكون هذا النظام متأثرا بنظام أبواب للمساجد القاطمية في المهديّة والقاهرة، إذ لا نشاهد له أمثلة في عمائر المرابطين ولا في عمائر الأمويين في الأندلس. ويكتنف المحراب إلى اليمين واليسار بابان ضيقان: أحدهما باب الإمام، والآخر باب المنبر، ويمثل هذان البابان نظائرها في مسجدى الكتبية بمراكش والقرويين بفاس^(٢)، وأصل هذا النظام ابدع في جامع قرطبة.

Marçais, *l'architecture musulmane*, p. 302 (١)

Basset & Terrasse, *Sanctuaires et forteresses*, p. 48 (٢)

ومثذنة تينملل ، من حيث الموقع ، ومن حيث الشكل ، تختلف عن ماذن
الموحدين الأخرى ، ولكنها أقرب من حيث زخارف القاعدة إلى مثذنة جامع
الكتيبة . والمثذنة مستطيلة الشكل (٩٧ × ٥٧ مراً مربعاً) ، وتلتصق بالمحراب
من الخارج وترتفع بأعلاه ، بحيث تبدو من الخارج بارزة عن جداره . ويذكر
الاستاذ تراس أن بسلا مثذنة صغيرة ، يبدو أنها ترجع إلى عصر الموحدين ،
مستطيلة الشكل ، وترتفع على سطح المسجد بأعلى المحراب (١) .

ودعائم بيت الصلاة متنوعة الشكل ، فإن الكتل المربعة تزدان في جوانبها
الشمالية والجنوبية بأصناف أعمدة صغيرة محفورة في الجص ، ويسود هذا
النوع من الدعائم في سائر مساجد الموحدين . وعقود الجامع متنوعة للغاية ،
فإن عقود البابين الصغيرين اللذين يحفان بجوف المحراب ، وكذلك عقود
النوافذ نصف دائرية منكسرة من أعلى انكساراً طفيفاً ، أما العقود الفاصلة
بين البلاطات ، وعقود المنحنيات المغنلة على النصحن ، فمن هذه النوع ، وإن
كان انكسارها أكثر حدة ، بحيث تبدو أقرب إلى أن تكون منقوشة ممدية .
أما العقود التي تؤلف قاعدة القباب الثلاثة فعقود مفصصة تتداخل في فصوصها
مقرصات من النوع الذي تتداخل فيه الخطوط المستقيمة والمنحنيات .

أما محراب الجامع فيعتبر من أجمل المحاريب المغربية في عصر الموحدين ،
وفيه تمثل القيم الجمالية في الزخرفة الإسلامية من التناسق والانسجام في
سائر تشكيبات الزخرفية (٢) . وعقد جوفه اعراب منقوشة منكسرة انكساراً

Ibid. p. 51 (١)

Terrasse, et Jean Haniout, les arts décoratifs au Maroc, (٢)

Paris, 1925, p. 66

طينها ، ويحيط به عقد زخرفي منفصص ، وظيفته الإيهام بضخامة المحراب ، ويشغل بليقي المحراب قومتان تمتد منها دوائر تشبه رؤوس المساج . ويحيط بطرة المحراب إفريز واسع مستطيل الشكل يدور حولها ، تملؤه زخارف هندسية تتناوب فيها مربعات ومستطيلات ذات رؤوس نجمية . ويكتنف هذا الإفريز الزخرفي إطار آخر صغير زخارفه أقل ثراء من زخارف الإفريز المذكور . وتقل الزخارف في جدار المحراب كلما ارتفعنا حتى تصل إلى قاعدة القبة ، ثم تبدأ من جديد تنفتح كالزهرة ، حيث تقوم في الأركان مقربصات رائعة تمتد على جوانب القاعدة ، وعلى جانبي كل من المقربصات الزكنية بقاعدة القبة شمسيات عبارة عن شبكات من التوربقات مفرغة في الجص في غاية الروعة والجمال ، تمثل فيها مراوح تخيلية بسيطة ومزدوجة ، تشبه نظائرهما في باب أجتاو بمراكش ، وتميز هذه الزخرفة عن تأثير كبير بالزخارف الأندلسية ^(١) . أما قباب الجامع لمقريصة ، وللأسف لم يبق منها في حالة جيدة سوى قبة المحراب والقبة الشرقية ^(٢) .

٣ - جامع الكتبية بمراكش :

لما دخل عبد المؤمن بن علي مراكش بقيت ثلاثة أيام لا يدخلها داخل ولا يخرج منها خارج ، « وأبى للوحدون دخولها لأن المهدي كان يقول لهم : لا تدخلوها حتى تطهروها ، فسأل للوحدون الفقهاء عن ذلك فقالوا لهم : تبينوا أتم مسجدا آخر ، فكان ذلك » ^(٣) . فأمر عبد المؤمن ببناء

(١) Terrasse, Sanctuaires, p. 68, 67

(٢) لدراسة هذا المسجد ارجع إل : Terrasse, op. cit. pp. 41-83

(٣) الملل الموشية ، ص ١٠٨

جامع آخر في قصر الحجر ، وهدم الجامع الذي كان قد بناه علي بن يوسف بأدنى المدينة . فلما أكل بناءه ، جعل فيه ساباطا يتردد عن طريقه بين القصر والجامع ، ونقل إليه متيرا عظيما كان قد أمر بصنعه في الأندلس من العود والصندل الأحمر والأصفر ، وصفاحه من الذهب والفضة ، وأقام للمسجد مقصورة من الخشب لها ست أضلاع تسع أكثر من ألف رجل ، وكان الذي نوله صنع المقصورة والمنير ، الحاج بهيش المالقى (١) .

ويذكر صاحب الاستبصار أن عبد المؤمن « بنى فيها جامعا عظيما ، ثم زاد فيه مثله أو أكثر في قبلته ، كان قصرا ، ورفع بينها المنار العظيم الذي لم يشيد في الإسلام مثله ، وأكمله ابنه وخليفته أبو يعقوب » (٢) . ونظم من هذا النص أن عبد المؤمن أقام مسجدين جامعين للكتيبة بمراكش ، أحدهما بعد الآخر ، ويطلب على الظن أن الجامع الأول كانت قبلته متعرجة عن الاتجاه الصحيح نحو مكة ، فكانت تميل كثيرا إلى الشرق . فاضطر عبد المؤمن إلى بناء جامع آخر صحيح القبلة إلى الجنوب من الجامع الأول ، وبطبيعة الحال أمر بهدم الجامع الأول فيما بعد ، عندما أتم بناء الجامع الثاني ، وماتزال آثار الجامع الأول ظاهرة ، وزخارف محراب هذا الجامع الأول تشبه كل للشبه زخارف محراب جامع تينملل ، مما يقطع بأن هذه الآثار ليست آثار جامع علي بن يوسف ، الذي أمر عبد المؤمن بهدمه عند دخول المرحدين مراكش .

أما عن تاريخ بناء جامع الكتيبة الأول فأغلب الظن أن بناءه تم قبل

(١) المرجع السابق

(٢) الاستبصار ، ص ٢٠٩

بناء جامع تينمل ، عقب دخول الموحدين مدينة مراكش في سنة ٥٤٩ هـ ، فهو بذلك يلى في القدم جامع رباط تازى الذى أسس في سنة ٥٢٩ هـ . أما الجامع الثانى فهو معاصر تقريبا لجامع تينمل ، يؤكد ذلك ، ما ذكره المقرئ تولا عن ابن رشيد الذى يقول : « فبدى به بناءه ، وتأسيس قبلته في العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسة ، وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وأفسح المساحة ، وأبعد البناء والتجارة » (١) . كذلك يذكر السلاوى في هذا التاريخ قصة (٢) .

أما الصومعة ، فقد شرع في بنائها في عهد عبد المؤمن بن على ، وأتم المنصور بناء القسم الأعلى منها ، وهى لذلك النموذج الذى احتذاه بناء صومعنى إشبيلية والرباط (٣) .

وجامع الكتبية الحالى ضخم المساحة ، وهو مستطيل الشكل ، جانبه الشمالى المشترك مع الجدار القبلى لجامع الكتبية الأول منحرف إلى الشمال الشرقى . وتصميم الجامع هو تطور منطقى ومتناسق لتصميم جامعى تازى وتينمل ، فعلى جانبى بلاط المحراب نجد عدداً من البلاطات يعادل ضعف عدد بلاطات هذين الجامعين ، مع اختلاف يسير هو أن البلاطات الأربعة الأخيرة من كل جانب منها أقل في الاتساع من البلاطات الأربعة الموزعة

(١) القرى ، ج ٢ ص ١٤٥

(٢) السلاوى ، الاستقصا ، ج ٢ ص ١٢٨

على يمين ويسار بلاط المحراب مباشرة (١) . ويصلو أسكوب المحراب خمس قباب : واحدة أمام المحراب ، واقتنان على كل من الأسطوان الرابع التالى على يمين أسطوان المحراب ويساره ، على النحو الذى رأيناه فى جامعى تازى وتينمل ، ثم قبتان يعلوان الأسطوانين المتطرفين فى نهاية أسكوب المحراب شرقا وغربا . ويفصل بلاطات الجامع التسعة عن الزيادة الجانبية دعائم مصلبة الشكل ، تحدد تخطيطا لبيت الصلاة بمائل تخطيط بيت الصلاة فى الجامعين المذكورين .

وكما تضاعف عدد البلاطات المجاورة لبلاط المحراب ، تضاعف عدد الأساكيب كذلك ، وزاد بذلك اتساع بيت الصلاة . وفلاحظ أن الدعائم التى تحمل القباب الستة بأعلى البلاطة الوسطى ، والقباب الخمسة بأعلى أسكوب المحراب ، والدعائم التى تفصل السحن وأروقة المجهنتين الشرقية والغربية مما يلى الصحن عن بيت الصلاة ، كلها مصلبة الشكل ، باستثناء الدعائم الملتصقة بجدار القبلة فقطاعها مستطيل الشكل . أما الدعائم التى تنتهى بها صفوف البلاطات فأنصاف مصلبة ، فى حين أن الدعائم التى ترتكز عليها عقود المجهنات الدائرة بالصحن فتتميز بأنها مستنة لها زوايج قاعيتين على جانبي وجهها البارز المائل على الصحن ، شأنها فى ذلك شأن الدعائم المحيطة بصحن جامع تينمل والكتيبة وإشبيلية (٢) . ومع أن معظم عناصر الجامع المعارية من جدران وقباب مشيدة بقطع الحجارة غير المهذبة ، فإن أبواب الجامع فى الجهة الشرقية مبنية بالآجر ، أما الأبواب الغربية فتخطط فيها قطع الحجارة

Ibid p. 85 (١)

Ibid p. 86 (٢)

بالآجر. وثبت كذلك أن قباب البلاطة الوسطى كلها من الآجر ، بينما شيدت القباب القائمة على أسكوب انحراب بقطع الحجارة . والحدار الشرق للجامع مشيد بقطع حجرية مصقوفة تصنيفا رائعا ، وينتهى البناء من أعلى بصقوف من الآجر. أما دعائم بيت الصلاة والصحن والعقود المشيدة بالآجر^(١).

ومئذنة الجامع تلتصّب في الركن الشالى الشرقى من الجامع ، بين الجامع القديم والجامع الحالى ، وتعتبر هذه المئذنة بحق من روائع فن العمارة الإسلامية على الرغم من بنائها بقطع الحجارة غير المهذبة ، وزخارف المئذنة تختلف من وجه إلى آخر ، وتحكم الفتحات والنوافذ التى زودت بها أوجه المئذنة فى توزيع الزخرفة^(٢). ونلاحظ أن هذه الفتحات قد أملاها تدرج السلم الداخلى للمئذنة. وتنوع العقود التى تزدان بها هذه الفتحات تنوعا يشهد بعقوبة الفنانين الذين تولوا بناءها وزخرفتها ، فمن عقود منقوشة إلى عقود مقصصة إلى عقود مقبوضة ، إلى عقود بمقاطع فيها بينها مؤلفات فى بيت المؤذن شبكة من المعينات تشبه نظائرها فى مآذن مساجد القصبة والرباط وإشبيلية. ويبلغ ارتفاع المئذنة ٩٧٧ مترا حتى أعلى التفافيح الثلاثة المتوجة لقبتها (ذكر ابن سعيد أن ارتفاعها بلغ ١١٠ ذراعا) (٣) ، وطول كل جانب منها ١٧٧ مترا ، ولقد قام الأستاذان تراس وباسيه بدراسة هذه المئذنة دراسة وافية شاملة^(٤).

(١) Terrasse, Sanctuaires, pp. 87 - 90

(٢) Marçais, L'architecture musulmane, p. 244

(٣) الحمرى ، ج ٢ ص ٩٩

(٤) Terrasse, op. cit. pp. 107 - 182

٤ - جامع القصبية بمراكش :

قبل أن يدير للنصور المجاز إلى الأندلس، في غزوته المعروفة بالأرك، كان قد أمر ببناء قصبية مراكش والجامع الواقع بازائها وصومعته . فلما عاد من غزوته مظفرا منصورا في سنة ٥٩٤ هـ وجد كل ما أمر به من البناء قد تم (١). ونصميم جامع القصبية بمراكش غريب الشكل ، فصحنه عظيم الاتساع بالنسبة لبيت الصلاة الذي يضم ١١ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، تحترقها ثلاثة أساكيب ، ويقوم على أسكوب المحراب ثلاث قباب ، واحدة أمام المحراب ، والاخرتان على الأسطوانتين المتطرفتين منه ، ويدور حول الصحن رواق في سعة بلاطة ، ويختلف هذا المسجد عن غيره من مساجد الموحدين في أنه يحف بصحنه إلى اليمين واليسار صحنان آخران يفصلها بلاط مواز لجدار القبلة ، فيصبح حول الصحن الكبير أربعة صحنون صغيرة ، تنوسطها فسقيات مستديرة مفصصة (٢) . ومحراب الجامع يقوم على عضادتين ، ترتكز كل منها على عمودين ، وجوقة المحراب تعلوها قبوة مقربعة ، جدد الأشراف السعديون بنائها . ومثدنة الجامع ليست في كبر صومعة الكتبية ، ونزدان الصومعة ابتداء من ارتفاع السطح بشبكة زخرفية من الفصوص المتقاطعة ، مؤلفة شبكة رائعة من زهرة الزنبق ، وبتنهي الجزء الأعلى من الصومعة بافريز عظيم من الزليج ، ويعلو المثدنة بيت للمؤذن تسقفه قبة مفصصة (٣).

(١) القرطاس ، ص ١٥١ ، ١٥٢ . ويذكر صاحب الاستبصار أن النصور هو الذي

مر ببناء هذه القصبية بكل مرافقها في أول عام ٥٨٠ هـ (الاستبصار ، ص ٢١٠)

(٢) Terrasse, op. cit. p. 278

(٣) Terrasse et Basset, Sanctuaires, pp. 294 - 310

٥ - جامع حسان بالرباط:

ذكر المراكشي أن المنصور شرع في بليان مسجد عظيم بالرباط « أكبر المساحة ، واسع الفناء جدا ، لا أعلم في مساجد المغرب أكبر منه ، وعمل له منذنة في نهاية الملو ، على هيئة منار الاسكندرية ، يصعد فيه بغير درج ، تصعد الدواب بالطين والآجر والحصى وجميع ما يحتاج إليه إلى أعلاها ، ولم يتم هذا المسجد إلى اليوم لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يوسف^(١) . وكانت دولة الموحدين بعد انتصارهم في الأرك قد بلغت ذروة قوتها وعظمتها ، وكان من الطبيعي أن يعتز بطل الأرك بانتصاره ، ويكتب عنه بلغة العمران والبناء ، وجامع حسان بالرباط ، بمساحته الهائلة (١٨٠ × ١٤٠ م) عبر لنا عن هذا الاتجاه نحو العظمة ، والإسراف في التفتيح .

وتخطيط جامع حسان غريب عن تخطيط المساجد الإسلامية الجامعة بوجه عام ، فيت الصلاة فيه يتألف من قسمين : قسم أمامي يشتمل على ٢١ بلاطة عمودية على جدار القبلة ، البلاطة الوسطى والبلاطتان المتطرفتان منها أكثر اتساعا من البلاطات الأخرى ، ويخترق هذه البلاطات عرضا سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة . ثم يتعمد التخطيط بعد ذلك تعقيدا شديدا ، فإن البلاطات الإحدى عشر الوسطى تمتد جنوبا على ١١ أسكوبا ، ويكتنف هذه البلاطات شرقا وغربا صحنان مستطيلان الشكل ، وإلى الشرق وإلى الغرب من هذين الصحنين بلاطتان تمتدان بطول البلاطات الأخرى . أما القسم الثاني فيشتمل على ثلاثة أساكيب ممتدة بعرض المسجد كله بحذاء جدار القبلة . ونلاحظ أن الأعمدة في الأساكيب الثلاثة والبلاطتين

المسطرفين في بيت الصلاة ، تزيد في الارتفاع من أعمدة البلاطات الأخرى في بقية أجزاء المسجد ، وليس في إمكاننا تحليل هذه الظاهرة بسبب حالة التخریب التي يقسم بها الجامع في الوقت الحاضر ^(١) . ومئذنة الجامع لم تصل إلینا كاملة ، فارتفاعها الحالي يصل إلى ٤٤ مترا ، وهي مشيدة بالحجر المصقول ، ويدور حول مركز المئذنة من الداخل طريق متعذر ، عرضه متران ، على نحو ما هو متبع في مئذنتي جامع إشبيلية ، وجامع الكتبية بمراكش ، ويشتمل مركز المئذنة من الداخل على غرف موزعة على طوابق ستة كما هو الحال في جامع الكتبية بمراكش ، ويصلو هذه الغرف قبوات مختلفة الاشكال ، منها القبوة المقربصة والقبوة المضلعة والقبوة نصف الكروية .

٦ - جامع الأندلس بفاس :

هذا الجامع شرع في بنائه سنة ٢٤٥ هـ من أموال مريم بنت محمد الفهري ، في نفس العام الذي بنى فيه جامع الترويين ، وقد سمي بجامع الأندلس ، لأنه أقيم في عدوة الأندلسيين ، ولأنه المسجد الجامع في هذه العدوة ، وإنما لأن جماعة من أهل الأندلس ، كانوا يعيشون حوله ، ساهموا في بناءه ^(٢) . وقد ظل جامع الأندلس كما هو منذ بنائه إلى أن رفعت الخطبة من جامع الأشباخ ، وانتقلت إليه في عام ٣٢٩ هـ بأمر حامد بن حمدان والي فاس من قبل عبيد الله المهدي ، وقد أفاد هذا الجامع من النزاع السياسي بين الفاطميين بالهدية ، وبين الأمويين في سنة ، ويتجلى هذا النزاع في المنبر الذي وصل إلینا من هذا العصر وعليه نقشان كتابيان يسجلان

(١) Marçais, l'architecture, p. 209

(٢) الجزاوي ، ص ٨١

تاريخيين مختلفين ، ولكنها متقاربان . وفي جمادى الأولى سنة ٨٣٤٥ ، زود هذا الجامع مثل قبرته جامع القرويين بمذبة مربعة الشكل هي التي نراها اليوم ، ولكن هذه المذبة تبدو أقل نراء من مثذبة القرويين ولقد زاد أبو اللباس أحمد بن أبي بكر الزناتي والى فاس بجامع الاندلس زيادة كبيرة ، فأصبح يتألف من ست بلاطات تتجه من الشرق إلى الغرب ، وكانت تطرد هذه البلاطات تقوم على أعمدة من حجر الكذان ^(١) ، وقد استبدلت بهذه الأعمدة الحجرية دعائم من الآجر في الزيادة الأخيرة التي قام بها الخليفة محمد الناصر الموحد في سنة ٨٦٠ هـ .

ويذكر الجزنائي أن المسجد ظل على حاله منذ أعمال أحمد بن أبي بكر الزناتي فيه ، إلى أيام الخليفة محمد الناصر ، راجع خلفاء الموحدين ^(٢) ، فلم يضاف إليه على بن يوسف أى إضافة لسبين : الأول أنه كان يود أن يفضى المنافسة التقليدية بين هذين الجامعين ، بانتصاره لجامع القرويين ، خاصة وأن عدوة للقرويين كانت قد تفوقت همرانيا على عدوة الاندلس . والسبب الثاني كما يذكره الأستاذ تراس ، هو أن تعادل ميزان هذين الجامعين كان مضادا لسياسة المرابطين الدينية ، التي كانت تدعو إلى عدم تعدد العبادة الجامعة في مصر واحد يوم الجمعة ، وهذا يفسر قيام يوسف بن تاشفين بهدم الأسوار الناصلة بين العدوتين ، وردهما إلى مصر واحد ^(٣) . وهكذا يعضى عصر المرابطين دون أن يحظى جامع الاندلس باهتمام أولى الأمر منهم ،

(١) البكري ، ص ١١٦

(٢) الجزنائي ، ص ٨١

(٣) Terrasse, la Mosquée des Andaloux à Fes, t. I, Paris 1942 (٢)

ويفتح عبد المؤمن بن علي مدينة فاس في سنة ٥٤٠ هـ ، فيأمر بهدم أجزاء من سورها (١) ، ويختار مدينة مراکش حاضرة لدولته ، ويمر النصف الأول من عصر الموحدين دون أن يعنى أحد من خلفاء الموحدين بهذا الجامع . فلما تولى محمد الناصر الخلافة بعد أبيه المنصور ، زار مدينة فاس ، وأقام فيها بعض الوقت ، وتولى في أثناء إقامته إعادة بناء أسوار المدينة الحالية ، كما أعاد بناء جامع الأندلس كله ، ولم يترك من الجامع القديم سوى المنذنة الأمامية والمنبر ، وحتى هذا المنبر نفسه لم يستثن من أعمال الترميم ، فلقد كسا الناصر كتفيه بجنايين جديدين ، ويقول ابن أبي زرع ، في بيان أعمال هذا الخليفة : « وأما جامع عدوة الأندلس ، فلم يزل على ما بنى عليه أولا ، ولم يزد فيه أحد زيادة إلى سنة ستائة ، فأمر أمير المؤمنين أبو عبد الله الناصر ببنائه وإصلاحه وتجديد ما تهم منه ، وأمر بفتح الباب الكبير الجوفى للدرج الذى بصحنه ، وجعل بأسفله بيعة من رخام أحمر ، وأمر بعمل السقاية والميضآت » (٢) . ويحدثنا الجزنائي في شيء من التفصيل عن الباب الجوفى الكبير ، وعن البيعة التى أقامها الناصر بجوار هذا الباب ، وعن الباب الذى فتحه إلى مقصورة النساء ، وعن القبة المقریصة التى تعلوه ، وعن المصرية (٣) التى أقامها بأعلى هذا الباب لاثمة المسجد ، وعن دار الضوء التى بناها على الجانب الآخر من الطريق المقابل للباب الكبير (٤) ، ولكنه لم يحدثنا عن تفاصيل ما أجراه

(١) القرطاس ، ص ١٢٣

(٢) نفس المرجع ، ص ٤٦

(٣) المصرية غرفة مطلة على الشارع بأعلى البناء ، وهذه المصرية المنارة التى تخربت في

عصر متأخر

(٤) الجزنائي ، ص ٨١ ، ٨٢

الناصر في بيت الصلاة من تغيير . ويعتقد الأستاذ تراس أن بيت صلاة هذا الجامع قد بنى من جديد على يدى هذا الخليفة . ومواد البناء التى استعملت فى بنائه فقيرة للغاية ، فأغلب جدران الجامع مبنية من الطابية ، أما الدعائم والقوود وعضادات الأبواب فكلها من الآجر ، وقد رمم هذا الجامع بعد ذلك وأضيفت إليه إضافات ثانوية فى عصر بنى مرين .

وتخطيط جامع الأندلس يؤهم بأنه من بناء المرابطين ، إذ أن من يرى بلاطاته بعقودها ودعائمها لا يخطر بباله قط أنها من بناء الموحدين ، فالتصميم غير متناسق ، والبناء غير منظم الشكل ، وبلاطات الجامع غير عمودية على جدار القبلة كمساجد الموحدين ، وأسقفه غير متناسقة ، ولا تقوم على بلاطته الوسطى قباب مقربصة كمساجد الموحدين . ولاشئ يربط جامع الأندلسيين بهذه المساجد إلا نسبة الصحن بالنسبة لمسطح بيت الصلاة ، فانها تخضع إلى حد ما للقاعدة التى تسم عليها مساجد الموحدين بمراكش وتبلمل .

وبتألف بيت الصلاة من سبعة بلاطات عرضية تمتد من الشرق إلى الغرب بمحذا جدار القبلة على خمسة عشر عقدا ، فى كل بلاط . ويغترق هذه البلاطات جميعا بلاطة وسطى ، مثلها ارتفاعا ، ولكنها تزيد عنها اتساعا ، بعكس نظيرتها فى جامع القرويين . وعلى الرغم من انعدام روح التناسق فى تخطيط الجامع ، فانه لا يخلو من أصالة معمارية تتجلى بأوضح صورة فى الباب الشمالى للجامع ، وهو الباب الذى فتحه الخليفة الناصر الموحدى ، ويشف بناء هذا الباب عن براعة هندسية ، وجذقى فى الزخرفة ، فهو بنوق فى ارتفاعه أسقف الجامع ، ويطل على منظر خارجى فى غاية الروعة والجمال . وقد نجح مهندس هذا الباب فى الجمع بين المارة والنظر الطيعى ، وهى نفس

الطريقة التي اتبعها مهندسو قصر الحمراء بقرطبة فيما بعد ، ونجحوا في تطبيقها في قصور بني نصر كلها . ويبدو هذا الباب من عدوة القرويين كقوس نصر فخم ، تتقبال بجانبه مثذنة الجامع مع ارتفاعها عنه (١) .

وعقود بيت الصلاة كلها متجاوزة منكسرة ماعدا عقود بلاطة المحراب، متجاوزة على هيئة حدوة القرس ، وتتكى هذه العقود على مناكب بسيطة تخرج دعائم أكثر ارتفاعا من العقود ، ويحيط بالعقود طرر مستطيلة بارزة . أما العقود المتجاوزة بالبلاط الأوسط ، فأكثر تجاوزا من عقود جامع قرطبة ، وتتكى على دعائم قطاعها يشبه زهرة ذات أربع ورقات نصف دائرية ، وهو طراز من الدعائم كان شائعا في العمارات المسيحية بإسبانيا . وصحن الجامع شبه منحرف ، تنوسطه خصة مقصصة من الرخام الأبيض ، تحيط بها فسقية مربعة ، مزينة بالفسيفساء ، وتدور حول هذه الفسقية قناة رفيعة . وعقود مجنات الصحن غير متساوية الارتفاع والاتساع ، ويوسط المجنبة الشمالية عقد خشبي منقوش ، يحمل ظلة (رفر) خشبية قائمة على كوابيل خشبية ، ويسود المجموع طابع أندلسي خالص (٢) .

٧ - جامع القصبة الكبير بأشبيلية:

لم يبق من مساجد الموحدين الجامعة في الأندلس سوى آثار المسجد الجامع بـ القصبة إشبيلية ، وهو الجامع الذي أمر ببنائه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن في سنة ٥٦٧ هـ ، وشرع في بنائه في رمضان من هذه

(١) Terrasse, la mosquée des Andalous à Fes

(٢) Ibid. - السيد عبد العزيز حاتم ، بيوت اقماساجد ومعاقد ، م ٢ ص ١٨٦-١٩٧

السنة ، فهدمت الديار في داخل القصبة لذلك الفرض ، وحضر شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل إشبيلية وجميع عرفاء أهل الاندلس ، مع من قدم من عرفاء البنائين بمراكش وفاس والمعدوة (١) . وهذا يوضح لنا كيف أن بناء الجامع وزخارفه قد جمعا بين بساطة الفن الموحدى وبين الفلوازخرفى الذى اتم به الفن الاندلسى ، فأسس الجامع من الماء بالآجر والجيار والحصى والأحجار ، وامتدت أسس الدعائم فى جوف الأرض . واستمر بناء الجامع حتى كل بالتسقيف ، وأصبح يقارب فى الانساع جامع قرطبة . وكان جامع إشبيلية مثل جامع الكتبية بمراكش يضم ١٧ بلاطة تتجه من الشمال إلى الجنوب ، وتتسع هذه البلاطات لأربعة عثر أسكوبا ، كل بلاطة يصل عرضها إلى ٤٠مترًا . أما البلاطة الوسطى المؤدية إلى المهراب فيصل عرضها ٧٧٠مترًا . كذلك كان أسكوب المهراب فى مثل انساع البلاطة الوسطى (٢) . ومن المرجح أن عقود جامع إشبيلية كانت تستند على دعائم أو أرجل من الآجر على نفس صورة دعائم المصحن . أما العقود فكانت متجاوزة منكسرة انكساراطيفيا ، وكانت مخارجها تنطلق من مناكب الدعائم كما يتجلى ذلك فى عقود المصحن . وكانت أسقف بلاطات بيت الصلاة هياكل هرمية تقوم على سماوات مسطحة بين جوائز السقف . ويقاب على الظن أن قبابا ثلاثة كانت تقوم فوق الأساطين الثلاثة الناشئة من تقاطع البلاطات الثلاثة الواسعة بأسكوب المهراب ، وكانت هذه القباب مربعة كما فى جامع

Antonia Molchor, Sevilla y sus monumentos arabes, p. 134 (١)

Elsayed Abdel Aziz Salem, l'Architecture à Seville sous les (٢)

Almohades, Thèse du Doctorat des-Lettres, présentée à l'Université de Paris en 1957 (sous presse)

الكتيبة بمراكش استنادا على القبو المقربة القائمة اليوم بالمدخل الشرقى للصحن، واستنتاجا من قول ابن صاصب الصلاة: « واهتبل العرفاء ، واستغرقوا ، وتحذقوا إلى بناء القبة التي على محرابه أعظم الاهتبال في العمل بصنعة الجبس » (١) ، أو كانت على النحو الذي نشاهده في مقصورة سان فرناندو بجامع قرطبة ، كما يرجح الأستاذ توريس بلباس (٢) ، واستنادا على قول ابن صاحب الصلاة : « وعقد الأقواس منه بالأقباء » (٣) . وكان يحف بالمحراب إلى اليمين باب معقود يؤدي إلى قبو كان يحفظ فيه المنبر، وإلى اليسار باب آخر معقود للسباط الموصل إلى القصر (٤) . وكان يدعم الجدران الخارجية ركائز ضخمة للدفع ، تماثل ما نشاهده منها اليوم في الجدار الشمالي للجامع . وكانت تفتح في جدران الجامع الخارجية ثلاثة أبواب تؤدي إلى مجنبات الصحن: واحد في امتداد محور بيت الصلاة يعرف اليوم بباب القفران Puerta del Pardon ، وبابان آخران في المجنبتين الشرقية والغربية ، تبقى منها اليوم الباب الشرقي فقط ، وهو باب يليه أسطوان تعلوه قبو مقربة من نفس طراز قبوات جامع الكتيبة بمراكش (٥) ، وبطل على الصحن بوائك من عقود آجرية متفوخة منكسرة ، ويحيط بها عقود أخرى

(١) Antuna Malchor, op. cit. p. 133

(٢) Torres Balbas, Ars Hispanica, t. IV, p. 168 - Torres Balbas, la Mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra Madrid, 1932, p. 166

(٣) Antuna, Mekhor, p. 136

(٤) Ibid. p. 135

(٥) عبد العزيز سالم ، المساجد والقصور بالاندلس ، القاهرة : ١٩٥٨

بارزة ، من أرجل العقود إلى رؤوسها الأمر الذي يكسب دعائمها شكلا مصلبا .

وما حفظ من زخارف جامع إشبيلية قليل ، ومع ذلك فهو بالغ الأهمية إذ يكشف عن اتجاه الزخرفة الأندلسية المغربية في عصر الموحدين ، ويقتصر على بعض الزخارف المحفورة في الجص بباطن العقد الداخلى لباب الغفران ، والعقد الكبير المطل على الصحن في امتداد هذا الباب . وزخارف عقد هذا المدخل قوامها أشرطة بارزة ترسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، وهى طريقة بزنطية الأصل لما نظاثرها بجامع قرطبة ومدينة الزهراء . أما الشريط الأوسط من زخارف هذا العقد فيتألف من مراوح التخييل الملساء التى تنحدر من السيقان ، تطوقها خطوط محزوزة ، وأطرافها تنحدر فى تجمعات ، وتتلاحم فى تناسق وإيقاع . وترسم فى بعضها خطوط لولبية محزوزة ، وقد حفررت التوربقات على طبقتين ، مما يضفى عليها نوعا من التباين الشديد بين الظلمة والضوء ، وقد سمى الأستاذ مارسيه هذا اللون من الزخرفة باسم الزخرفة الكثيفة « decor compact » (١) ، وتشبه إلى حد كبير زخرفة محراب جامع توزر بأفريقية ، وهو مسجد ينحدر فى سلك الفن الأندلسى ، ويعاصر المسجد الجامع بإشبيلية ، إذ بنى فى سنة ٥٦٠ هـ .

أما صومعة الجامع المعروفة اليوم باسم لآخر لدا La Girnlda ، فقد تم بناؤها بعد انتصار الموحدين فى موقعة الأرك ، وارتفعت فى رشاقة ، مشرفة على فحش إشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة باسم الشرف . وقد

كانت تتألف من طابقين - الأول وهو الجزء الأعظم منها ينتهى بالإفريز
الافنى الذى تعلوه فتحات النوافيس ، والثانى برج صغير الحجم يعلو البرج
الافنى فى امتداد نواته الداخلية . وكانت تملأ هذا الطابق بدوره قبيبة
مقرمدة يترجها سفود بارز ، ركبت فيه تفافيسح أربعة تتدرج فى الصغر
كلما ارتفعت ، فتتناسق تماما مع القبيبة ، ونفصح عن إيقاع وتناسق ، تؤكد
رشاقة اللذة وسموها ، وتدعم اتجاهها الصاعد الذى يزداد قوة بالتقسيمات
الثلاثية الرأسية لزعرفة المعينات . وتتألف هذه المعينات من ثلاث شبكات
تقوم كل منها على نفثة عقود . وقاعدة الصومعة مربعة الشكل ، طول كل
جانب عنها ١٣ر٦٥ مترا ، بداخله نواة مربعة الشكل ، يبلغ طول الجانب منها
٦ر٢٥ مترا ، يدور حولها طريق منحدر صاعد مؤلف من ٣٥ مقطع ،
وتعلوه قبوات متقاطعة صغيرة متصلة ، خمسة منها فى كل مقطع ، وتشغل
النواة الداخلية للبرج سبع غرف ، مربعة الشكل . وزخارف الجدران الدا نعيم عن
فن يختلف عن فنون المغرب المعاصرة له ، فقد أثرت عناصر أندلسية وفدت
عليها من قرطبة وسرقسطة والمرية ومالقة (١) .

ب - اللشآت الحربية :

١ - أسوار المدن :

كانت الأسوار الأولى التى أسسم ' الموحدون فى بعض مدن المغرب مثل
رباط تازى وتينملل ما تزال تخضع من حيث طريقة البناء والأسلوب للنظام
الذى كان سائدا فى عصر المرابطين ، فالسور الغربى من تازى يتألف من

(١) ارجع الى مقال : لآخر الدا باشيلية ، المجلد ، العدد التاسع ١٩٥٧

صنوف مبنية من قطع حجرية ضخمة غير مهذبة للقطع ، تتخللها قطع من الحجارة مسطحة ، هذا النظام يشبه نظام البناء في قلعة أرمجو . ونلاحظ أن عرض السور في العادة يبلغ ١٩٠ قرا ، وعرض عشاء الأعلى ١٣٠ قرا ، وترتكز عليه أبراج مستطيلة الشكل تبرز عنه بنحو ثلاثة أمتار ، ويصل طولها إلى خمسة أمتار تقريبا . هذا السور جوج حافة أخذود ميق . ويتصعب في الزاوية الجنوبية الغربية برج أسطوانى الشكل مرتفع ، تضيق جدرانته قليلا كلما ارتفع (١) . ويتغير نظام البناء في الواجهة الجنوبية من السور ، فيصبح من الطابية ، ويمتد بمحاذاة هذا السور من أدناه خندق منقور في الصخر . ويعتقد الأستاذ تراس أن هذا السور متأخر من البناء الحجري ، ويرجح أنه من عصر بني مرين ، ويرى أن الجزء الباقى من أسوار الموحدىن لا يبدو الواجهة الغربية من باب الريح حتى البرج . أما الأسوار الأمامية في السور الغربى الموحدى ، وفي السور الشرقى فتخرج إلى عصر بني مرين (٢) .

أما سور مدينة تينمل ، فالمعروف أنه من إنشاء المهدي ابن تومرت ، ولكن عبد المؤمن أعاد بناءه وجده ووسع المدينة في سنة ٥٤٨ هـ (٣) . ولم تكن المدينة تحتاج إلى نظام دفاعى معقد إذ أن أطرافها كانت مزودة بحصينات طبيعية رهيبة ، فهي تقوم على الضفة اليسرى من وادى شيس ، عند مدخل السهل الأعلى ، وفي موضع يضيق فيه هذا السهل للقاء ، ثم إنها

(١) Marçais, l'architecture musulmane, p. 221, 222

(٢) Tenreiro, la grande Mosquée de Taza, p. 17, Note 2, p. 19, Note 1

(٣) القوطى ، ص ١٢٦

تستند من التلال على الجبل، ومن الجنوب على الوادى الذى تلتصّب في صفته المقابلة أجراف متوعدة شديدة الانحدار، ولذلك فإنها لم تزود في هذه الناحية بأسوار. ولم يبق من أسوار تينملل اليوم سوى آثار قليلة، ومن هذه الآثار استطعنا أن نلم بجخطيط أسوارها، فقد كانت هذه الأسوار مستقيمة، وكانت ترتكز عليها أبراج بين كل ثلاثين أو خمسة وثلاثين مترا. هذا السور مبنى حتى ارتفاع قامة من قطع الحجارة غير المهذبة، أما بقية السور من أعلى لمن الطابية (١). وينفتح في سور تينملل باب واحد مرتفع، يتحنى في شكل المرفق، والباب مثل باب قلعة آمرجو عقده من الآجر منقوش، ويكتنفه من الجانبين بدنتان بارزتان من الحجارة.

* * *

ثم أخذ بناء الأسوار في عصر الموحدين يتجه نحو البناء بالطابية، وهى طريقة عرفتها الأندلس منذ القرن الرابع الهجرى، وكانت هذه الطريقة معروفة في المغرب أيضا قبل عصر الموحدين، ولكن إذا كانت بعض المناطق الجنوبية من المغرب قد اعتادت منذ عهد بعيد البناء بالتراب، فإن استخدام الطابية القوية التى تدخل فيها الجيار والنورة كان يعتبر من طرق البناء التى نقلت إلى المغرب من بلاد الأندلس (٢). ولكن البناء بالطابية لم يتم دون مقدمات، فإن رباط تيط الذى بناه مولاي عبدالله من أسرة إسماعيل الأمغار للمجاهدين، ويقع على ساحل المحيط الأطلسي، على بعد نحو ١٢ كم. جنوب غربي الصويرة (٣)، قد زود بأسوار تجمع بين طريقتي البناء

(١) Terrasse, sanctuaires et forteresses, p. 38

(٢) Terrasse, l'art hispano-mauresque p. 202

(٣) يبدو أنه أنتم في منتصف القرن السادس الهجرى، لتصدى لغزوات النصارى =

المذكورتين . فالأسوار من الطاية تقوم على قواعد من الحجر ، بينما أقيمت الأبراج جميعا من الحجر . ويمتاز رباط نيط بوجود أسوار أمامية وبرج براني مثنى الشكل قائم على البحر ، يحصل بالسور الرئيسي للرباط عن طريق ستارة من البناء ، والبرج مع كونه مثنى الشكل ، إلا أنه يقوم على قاعدة نصف كروية (١) . ويفتح في السور ثلاثة أبواب ، جدرانها مكسوة بلوحات من الحجر المعقول: منها بابان يتقدمها سور أمامي ، والباب الثالث يتبع في مدخله طريقة المرفق .

أما في مراکش فأسوار المدينة كلها من الطاية ، وفي الرباط يسود البناء بالطاية باستثناء واجهة الأبواب التي أقيمت من الحجر . وفي فاس أقيمت الأسوار الموحدية في عصر محمد الناصر من الطاية . ونلاحظ أن الطاية التي كان يستخدمها الموحدون في الأسوار تتميز بصلابتها الشديدة .

٢ - الأبواب ذات المرافق :

تعتبر أبواب المدن من التحصينات الهامة في عصر الموحدين ، فقد كانت الأبواب القديمة تتبع النظام البيزنطي وقوامه عقدان متقابلان أحدهما يفتح إلى داخل المدينة ، والآخر يفتح إلى خارجها ، ولكن المرابطون ابتدعوا نوعا آخر من الأبواب ، وهي الأبواب ذات المرافق ، وتعنى بذلك أن المر الواصل بين فتحي الباب ينحني بزاوية قائمة في شكل المرفق ، ويمتاز

= على الساحل الغربي . وكانت تيط قبل ذلك مركزا للجهاد ضد برغواطة المرابطة حتى أيام عبد المؤمن (أنظر البيهقي ١٠ ص ١١١) ولكن بناء هذا الرباط أقاموه لحراسة البحر خوفا من نزول النصارى بهذا الجزء من الساحل .

(١) Terrassa, Sanctuaires et forteresses almohades, p. 349

Marçais, l'architecture, p. 222

هذا النظام بأنه يضع العراقل والمقبات وراء الحائط المرامم المهاجمين، وقد عقد الموحدون من هذا النظام، إذ أنشأوا أبوابا ذات مرفقين وأخرى ذات ثلاثة مرافق، ولم يسبقوا أجزاء من المرات الواقعة بين مداخل الأبواب وخارجها حتى يساعد ذلك المدافعين على قذف المهاجمين بالنبال أو النار الإغريقية^(١).

ومن بين أبواب الموحدين ذات القيمة الدفاعية الكبرى سواء من حيث التصميم أو الزخرفة باب الرواح بمدينة رباط الفتح التي اختطها أبو يعقوب يوسف على المحيط الأطلسي، وأكملها المنصور، ولا يفصلها عن سلا العتيقة سوى وادي الرمان (٢)، وهو الوادي المعروف الآن بيو رجرج. هذا الباب مبني من قطع حجرية متوسطة الحجم، منتظمة للشكل، ويؤلف الباب نظاما دفاعيا شديداً، إذ يكتنفه برجان مربعان يحيطان بمدخله، ويحصرا الدخول إلى المدينة على ممر ذي مرفقين. وعندما يجتاز للمرء هذا المدخل قادما من خارج المدينة، يصل إلى الأسطوان الأول، وهو دهليز مربع الشكل تعلوه قبة مضلعة قائمة على جوفات مقببة بأنصاف قنوتات متعارضة، ويحصل بهذا الدهليز المربع دهليز ثاني مربع الشكل أيضا، تعلوه قبة نصف كروية، ويؤدي هذا الدهليز بدوره عن طريق ممر إلى دهليز ثالث، مكشوف من أعلى، يحترق عنده المهاجمون لقذائف المدافعين بأعلى سطح الباب، ويحصل هذا الدهليز الثالث بدعليز رابع، تعلوه قبة نصف

(١) السيد عبد العزيز سالم، وسائل الدفاع الإسلامي في العصور الوسطى، مجلة الميثاق

عدد ٨٧، ١٩٥٨ - المجاهد والصور بالاندلس، ص ٤٣

(٢) المراكشي، ص ٣٥٩

كروية ، ينتهي منها الداخل الى المدينة (١) . وكان يعين لاثانة هذه الأبواب ذات المرافق المزدوجة زيادة سمك الجدران (٢) .

وكان يقوم فيما بين معصب وادى سورجرج والبحر رباط قديم كانت مهمته محاربة برغواطة ، ثم تحول عند بناء مدينة الرباط إلى قعبة سميت بقعبة الودايا نسبة إلى عرب ودى وهم بطن من بنى العقل الهلاليين ، وكان تاسلطان مولاي أبو النصر اسماعيل العلوى (١٠٨٣ - ١١٣٦هـ / ١٦٧٢ - ١٧٢٧ م) قد استخدم من الودايا العرب فرقة في جيشه (٣) ، وهذه القعبة تعد من أروع أمثلة القلاع الحربية في المغرب الإسلامى . وأهم ما تبقى منها باب يعرف باسم باب قلعة الودايا ، وهو باب من الحجر المصقول . ومدخل الباب يكتنفه بدنتان صغيرتان ، وعقد المدخل منفوخ منكسر ، يوجه عقد زخرفى مفصص ، قد تجاوز نصف الدائرة تجاوزا قليلا ، وتتأوب فيه فصوص صغيرة مديبة الرؤوس ، وأخرى نصف دائرية ، وتزينه شبكة زخرفية من معينات متصلة ، وتزدان بنقشاته جوريقات رائعة تنوسطها في كل بنيقة محارة زخرفية في غاية الجمال . وعندما يجتاز المرء مدخل هذا الباب ، يصل إلى ممر طويل من ثلاث غرف مربعة الشكل ، متصلة فيما بينها ، يعلو الغرف الأولى منها قبة على جوفات مقوسة ، والثانية تعلوها قبة على جوفات مثانة ، والثالثة تعلوها قبة نصف أسطوانية ، وعلى الجانب الأيمن من كل من الغرفتين الثانية والثالثة ، يفتح باب مقوود بعقد متجاوز منكسر

(١) Marçais, l'architecture p. 223

(٢) Terrasse, l'art hispano-mauresque, p. 295

(٣) السيد عبد العزيز سالم ، المغرب الإسلامى ج ٢ ص ١٨٨ ، ١٨٩

ويؤدي كل من هذين البابين إلى داخل قلعة الودايا (١).

وبقصة مراکش باب يسمى ياب أجتاو ، ومظهر هذا الباب من الخارج رائع للغاية ، وهو يشبه إلى حد ما في زخارفه باب الودايا المذكور ، ولكنه فقد بدنيته .

خاتمة

ورثة الموحدين في المغرب

- ١ - بنو مرين في المغرب الأقصى
- ب - بنو عبد الواد في المغرب الأوسط
- ج - بنو حفص في المغرب الأدنى

خاتمة

ورثة الموحدين في المغرب

شهد المغرب الإسلامي في القرن السابع الهجري انقساماً سياسياً جديداً إلى ثلاثة دول بربرية مستقلة، وبذكرنا هذا الانقسام ننظره في القرن الثاني الهجري، ويرجع سبب قيام هذه الدول إلى انهيار دولة الموحدين، فقد استغل بنو حفص المصامدة، ولاة إفريقية في عصر الموحدين فرصة احتضار هذه الدولة، وأعلنوا استقلالهم عنها في أيام أبي زكريا الحفصي، واعترف بسلطته أهل طنجة وسبتة وبعض مدن الأندلس، بينما اقتسم بنو مرين وبنو عبد الواد الزناتيين بقية بلاد المغرب فيما بينهم، فاختص بنو مرين بالمغرب الأقصى، بينما استغل بنو عبد الواد بالمغرب الأوسط. وتم انفصال المغربين الأدنى والأوسط عن دولة الموحدين دون جهد كبير بذلوه في هذا السبيل، بينما دفع بنو مرين ثمن ارتقاؤهم إلى السلطان غالياً، فكان عليهم أن يخوضوا مع خلفاء الموحدين في عصر الاضمحلال حروباً ومعارك طاحنة استغرقت ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وانتهت بدخول بني مرين في النهاية مدينة مراکش.

١ - بنو مرين في المغرب الأقصى :

قامت دولة بني مرين منذ أن تمكن السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق من دخول مدينة مراکش عاصمه الموحدين في سنة ٩٦٨ هـ .
وتصل نسب أبي يوسف يعقوب هذا عمر بن ورتاجن بن ماخوخ الزناتي،
وكن مركزهم بأرض الزاب من جبل يقال له ايكجان وقد سميت

دولتهم بالدولة المربنية حينما نسبة إلى مريـن هذا ، وبالدولة الوطاسية حينما آخر نسبة إلى وطاس بن فجوس بن جرماط بن مريـن . وكان أمير بنى مريـن في عهد يعقوب المنصور هو أبو خالد محيو بن أبي بكر بن حمامة بن محمد ابن ورزير بن فجوس بن جرماط بن مريـن ، وقد ساهم بنو مريـن في غزوة الأرك عندما استنفرهم أبو يوسف يعقوب إلى الجهاد ، فشهدوا هذه الغزوة ، وأبوا فيها بلاه حسنا ، وأصيب محيو بن أبي بكر إصابة قاتلة أدت إلى وفاته في صحراء الزاب في سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) ، فخلقه على رئاسة بنى مريـن ابنه عبد الحق ، وفي عهده دخل بنو مريـن بلاد المغرب الأقصى ، وأقاموا يـلاد الريف في سنة ٦١٠ هـ عندما لمسوا ضعف خليفة الموحدين يوسف المنصور ، وسوء تديره واختلال حال الدولة ، وتهاون أمراء الموحدين في الدفاع عن الثغور ، فأخذوا يغيرون على النواحي ، ويهاجمون بوادي المغرب ، ويشتون في البلاد فسادا ، وشكا الناس إلى المنصور الموحدي ، فعزم على محاربتهم ، وأعد لذلك القرض جيشا يتألف من عشرين ألف فارس يقودهم أبو علي بن وانودين وأبو إبراهيم بن يوسف بن عبد المؤمن والى مدينة فاس . والتقى هذا الجيش بجيش بنى مريـن بوادي تـكور في سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ، فدارت الدائرة على الموحدين ، وامتلات أبدى بنى مريـن بالأسلاب والغنائم . وزحف الأمير عبد الحق بمجموع هائلة من بنى مريـن إلى رباط تازى ، وانتصر على جيوش الموحدين فيها ، فضاقت قوس بنى عسكر بن محمد من عشرينهم لانتصارات بنى مريـن المتواليه ، وأكلت الثغرة صدورهم ، فخالقوا الأمير عبد الحق وظاهروا الموحدين وأتاعهم من عريب رباح أشد قبائل المضرب قوة ، ونالوا

معه ضد عبد الحق في جوع بني مرين ، والبق الفريقان بالقرب من وادي
سبر على بعد أميال من تافرطاست سنة ٦١٤ هـ (١٢١٧ م) ، وفي هذه
المرقة قتل الأمير عبد الحق وابنه الأكبر إدريس . ففضب بنو مرين
لذلك ، وأقسموا على الثأر له ، وما زالوا يقاتلون بني رباح حتى انصروا
عليهم ، واستولوا على ما كان في محلهم من السلاح والخيول . ثم خلف
عبد الحق ابنه أبو سعيد عثمان . واستغل عثمان ضعف الموحيدين وأخذ يدعو
قبائل المغرب إلى الدخول في طاعته ، فبايعه من قبائلهم هواره وزكارة
ونسول ومكناسة وبنو بوية وفشتالة وسدراتة وبهلولة ومدبونة ، ففرض
عليهم الخراج ، ووزع عليهم العمال ، وألزم أهل فاس ومكناسة وتازي
وقصر كتامة بضريبة معلومة يؤدونها إليه في كل سنة انقائه لغاراته . واغتيل
أبو سعيد عثمان في سنة ٦١٨ هـ (١٢٤٠ م) وخلفه أخوه أبو معرف محمد ،
فاقتنى أثره في مقاتلة الموحيدين والتغلب على بلاد المغرب وجباية للفساد ،
واشتبك مع الموحيدين في عدة مواقع ، وانتصر على جيش الرشيد بن المأمون
بقيادة أبي محمد بن وانودين بالقرب من مكناسة . فلما تولى السعيد بن
المأمون خلافة الموحيدين سنة ٦٤٠ هـ صرف جهوده لمحاربة بني مرين ، وأعد
لذلك جيشا ضخما يتألف من المصامدة والعرب والروم ، والتقى مع جيش أبي
معرف في أحواز فاس سنة ٦٤٢ هـ ، فانهزم بنو مرين وقتل أميرهم أبو معرف ،
ولادوا ببجبال غيانة من نواحي تازي .

وفي إمارة أبي بكر بن عبدالحق تمكن بنو مرين من التغلب على مكناسة
في سنة ٦٤٣ هـ ، وافتتحوا أعمال وطاط وحصون ملوية سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م)
وانتزعوا مدينة فاس من الموحيدين ودخلوها في ٢٦ ربيع الآخر سنة ٦٤٦ هـ ، ولم

تلبث مدينة رباط تازى أن سقطت في أيديهم . ولكن أهل فاس اختبزوا فرصة غيابه عن المدينة وانتفضوا عليه ، وقتلوا عامله عليها ، وبايعوا المرتضى الموحدي ، فقدم اليهم أبو بكر ، وحاصر المدينة في سنة ٦٤٨ هـ . فلما يس أهل فاس من نجدة المرتضى لهم ، استأمنوا أبا بكر على أنفسهم ، فدخل فاسا وقتل الخارجين عليه ، فانقادت له البلاد ، وأذعن الناس له بالطاعة . ثم تابع فتوحاته بعد ذلك فاستولى على سلا ورباط الفتح سنة ٦٤٩ هـ وأقام عليها ابن أخيه يعقوب بن عبد الله بن عبد الحق ، ثم افتتح سجلماسة ودرة سنة ٦٥٣ هـ . وأقام بفاس ، واتخذها حاضرة لدولته .

ولما توفي أبو بكر في سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) خلفه عمه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق ، وفي عهده حادى النصارى الإسبان الاستيلاء على سلا فردم عنها ، ونى سورها الغربي . وتمكن أخيرا من افتتاح مراکش سنة ٦٦٨ هـ (١٢٦٩ م) . ويعتبر استيلاء بنى مرين على مراکش بداية لتاريخهم كدولة ، وقد ركز بنو مرين نشاطهم بعد ذلك في مجالين كتب لهم فيهما النصر : مجال الأندلس حيث خفوا لمساعدة بنى نصر أصحاب غرناطة ضد الفشتالين ، ومجال المغرب الأوسط والأدنى حيث حدثت بينهم وبين بنى هيد الواد ، والحفصيين حروب كثيرة .

ولعب بنو مرين دورا هاما في مساعدة بنى نصر ، فخرج السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٦٨ هـ من فاس وجاز إلى الأندلس ، واكتسح بجيوشه القصور والزرورع ، ووزع كتابته في البساط والوديان تنسف الزروع وتخرب العمران ، وعاد إلى فاس في سنة ٦٧٤ هـ . وفي هذا العام شرع يعقوب في بناء المدينة البيضاء لعرق فاس وجعلها مقرا لسلطته وجاز

إلى الأندلس للمرة الثانية سنة ٩٧٦ هـ وحاصر إشبيلية ، وبث سراياه في كل نواحي الشرف ، ودخل حصن قطنية وجليانة والقلعة عنوة ، وغزا شربش ، واكتسح حصن روطه وحاصر قرطبة ، وخرب حصن بركونة وأرجونة وهاجم مدينة جيان . ثم جاز للمرة الثالثة سنة ٩٨١ هـ (١٢٨٢ م) وللمرة الرابعة في سنة ٩٨٤ . وفي هذه الفزوة الأخيرة مرض مرضا شديدا وتوفي بخصره في الجزيرة الخضراء في أول محرم سنة ٩٨٥ ، ودفن بجامع شالة من رباط الفتح . وبويع ابنه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب .

جرى أبو يعقوب يوسف على سنن أبيه في العدل وفي الجهاد ، وأجاز إلى الأندلس عدة مرات ، وغزا تلسان . ثم خلفه ابنه أبو ثابت عامر (٧٠٦-٧٠٨ هـ) وإليه ينسب بناء مدينة تطاوين .

وفي سلطنة أبي سعيد عثمان بن يعقوب استطاع بنو مرين الاستيلاء على المغرب الأوسط ، إذ سار على رأس جيش إلى تلسان سنة ٧١٤ هـ ، وانزعها من موسى بن عثمان بن يعمر سن سلطان بن عبد الواد بها ، كما أجاز إلى الأندلس حين انتصره سلطان غرناطة . وتوفي أبو سعيد عثمان سنة ٧٣٩ هـ (١٣٣٠ م) ، وخلفه ابنه أبو الحسن علي بن عثمان الذي امتلك تلسان سنة ٧٣٧ من ابن أبي تاشفين سلطان بن عبد الواد ، كما استولى على تونس وهزم أميرها أبا يحيى الحفصى في جمادى الآخرة سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧) ، وانصل ملكه ما بين برقة إلى السوس الأقصى والمحيط الأطلسي واستمرت سيادة بنو مرين على المغرب الأوسط . والأدنى قائمة في عهد ابنه أبي عثمان بن أبي الحسن ، الذي استولى على بجاية وقسنطينة عقب تنازل الأمير محمد بن أبي زكريا الحفصى عنها .

ثم ضعفت دولة بنى مرين ، وتولى الحكم سلاطين ضعاف ، ففقدت الدولة للربلية المغرب الأدنى ، ثم فقدت بعد ذلك المغرب الأوسط ، وعادت إلى حدودها الأولى ، وكان استيلاء البرتغاليين على مدينة سبتة سنة ٨١٨ هـ (١٤١٥) نذيرا بانتهيار دولة بنى مرين . وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين ، وتحولت الحرب للقدسة من أرض الأندلس إلى أرض المغرب ، وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب ، واحتلوا أصيلا سنة ٨٧٦ ، وصافى وأزمور وطنجة سنة ٨٦٩ هـ . وهكذا اختلت دولة بنى مرين ، واقتصرت أملاكها على فاس ، بينما خرجت مراکش وتافيلالت ودرعة والسوس والريف عن طاعتهم ، ولم تلبث دولة بنى مرين أن سقطت على أبدى الأشراف السعديين ، بسقوط مدينة فاس سنة ٩٥٦ هـ .

ب - بنو عبد الواد في المغرب الأوسط :

كان بنو عبد الواد في الأصل من أمراء القبائل الرحل التي تجوب في صحراء المغرب الأوسط ، ثم أتاحت لها الظروف الاستقرار وتكوين دولة استمرت ما يقرب من ثلثة سنة تقريبا . فلقد رحلت هذه القبائل إلى سواحل المغرب الأوسط ، وهي منطقة لم تتأثر كثيرا بغزوات بنى هلال ، وفرض بنو عبد الواد أنفسهم فرضا على أهالي هذه البلاد ، وما لبثوا أن أصبحوا سادة هذه البلاد وحماتها ، واتخذوا تلمسان حاضرة لهم .

وقد لعب يغمراسن بن زيان دورا هاما في تأسيس هذه الدولة ، إذ تم له ذلك بموافقة الموحدین أنفسهم ، فلقد كان بنو عبد الواد وأقاربهم من

القبائل الأخرى يتركون الصحراء ، ويستقرون في سهول وهران ، ويضعون رجالهم في خدمة عامل الموحدین بلمسان . وبمرور الزمن ساهم بنوزيان مساهمة فعالة في الدفاع عن منطقة وهران ، وتلقوا نظير ذلك بعض الامتيازات ، إذ عين خليفة الموحدین منهم بغيراسن بن زيان عاملا على تلمسان وبلاد زناته سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) واستقل هذا الحاكم بالبلاد عقب سقوط دولة الموحدین . والواقع أن استقلال بنى عبدالواد ، بالمغرب الأوسط لم يكن كاملا من جميع الوجوه ، فلقد كان الخطر يحدق ببلادهم شرقا وغربا ، وكان لموقع المغرب الأوسط أثره في التنبؤ بمصيرهم ، فلقد كان العرب يسيطرون على وديان الساحل الشمالى للجزائر ، وبغرضون الاناوات على سكانه ، ولم تكن حكومة الجزائر بالقوة التى تمكنها من إخضاعهم ، وبينما كانت هذه الصعوبات الداخلية تكاد تشل نشاطها ، كان خطر جيرانها من الشرق والغرب يهدد استقلالها ، فمن الشرق كان بنو حفص جونس يزعمون أنهم ورثة الموحدین ، وأن لهم الحق في بسط نفوذهم على المغرب الأوسط ، وما فعلوا اضطروا زعيم بنى عبد الواد إلى الاعتراف بسيادتهم ، وأصبحت البلاد الجزائرية تحت وصاية بنى حفص . ومن الغرب أخذ بنو مرين يترقبون الفرصة المواتية للتدخل في المغرب الأوسط ، وضمه إلى حوزتهم ، وقدمت جيوش بنى مرين إليه من فاس في عهد أبى سعيد عثمان ، وحاول انتراع تلمسان من صاحبها موسى بن عثمان بن بغيراسن ، ولكنه لم يفلح أمام أسوار تلمسان الحصينة . وفي سنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦ م) سار أبو الحسن على بن عثمان إلى تلمسان وشدد عليها الحصار ، وأقام معسكرا تابعا أمام تلمسان يكون قاعدة هامة لعملياته الحربية ،

واتسع نطاق هذا المسكر فيما بعد فأصبح مدينة كبيرة سميت بالمنصورة واستمرت جيوش بني مرين تحاصر تلمسان حتى سقطت في سنة ٨٣٨ هـ (١٣٣٧ م) في أيدي بني مرين ، وتمكن أبو الحسن المريني من قتل الأمير ابن أبي تاشفين.

وظلت تلمسان مدة ١١ عاما مركزا للحكومة مربية ، ثم خرجت سنة ٨٥٧ هـ من سلطان بني مرين ، واستعادها بنو عبد الواد . ولم يلبث أن قام أبو عنان بن أبي الحسن المريني بالاستيلاء عليها في سنة ٨٧٥ هـ . ولم يدم ملك بني مرين بتلمسان ، إذ شق أهلها عصا الطاعة على سلطان بني مرين ، فدخلها السلطان أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن بالامان سنة ٨٧٦ هـ (١٣٥٩ م) ، وأقر أميرها بأزيان من أحفاد بني عبد الواد وعاد إلى فاس . ثم تولى أبو حمو على بن أبي زيان إمارة تلمسان ، وأخذ يحكم المغرب الأوسط أمراء من تلمسان خاضعين للحكومة فاس ، وازدهرت مدينة تلمسان في عهدهم رغم هذه العواصف والأنواء ، وكانت تحظى بموقع ممتاز ، وكان مياهها التجارية فضل كبير في إحاطتها بالجنان واليساتين ، فاستعادت بذلك مجدها القديم ، وكانت مركزا تجاريا هاما يقصده تجار المسلمين والمسيحيين على السواء ، كما كانت مركزا للقوافل التي تمر بها إلى تافيلت والسودان . واجتث فيها بنو عبد الواد وبني مرين القصور والمدارس . ثم بدأ عهد من الاضطراب والفوضى منذ أواخر القرن التاسع الهجري ، فقد تغلب السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أحمد الحفصي على السلطان الوائي بالله ملك تلمسان ، واستمر غزو بني حفص لتلمسان في عهد السلطان أبي عمرو عثمان بن محمد الحفصي . ففي سنة ٨٧٠ هـ (١٤٦٥ م) نجح عثمان بن محمد في هدم

أسوار تلمسان ، ومع ذلك فقد ظلت حكومة بنى عبد الواد متهاكة ، إلى أن ظهر الإسبان على المسرح السياسي ، وكانت حركة الاسترداد الإسباني للأندلس وقتئذ على أشدها ، فدفعت غارات القراصنة المسلمين على سواحل إسبانيا الشرقية الإسبان إلى الاستيلاء على بعض المدن الساحلية بالمغرب الأوسط ، فسقطت بجاية في أيديهم سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) ، ثم استولوا على وهران سنة ٩١٤ هـ ، ثم سعوا بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدينة الجزائر . وعاشت هذه المدينة تحت تهديد المدافع الإسبانية التي كانت تصيها من قلعة بنيون المشيدة في جزيرة مجاورة للساحل الجزائري ، وفكر أهل الجزائر إلى الاستنجاد بمروج أحد القراصنة الأتراك المشهورين ، وأخيه خير الدين بربروسة . ولم يمض وقت طويل حتى خضعت الجزائر لبربروسة الذي كان السبب في دخول الأتراك الثمانين بلاد المغرب .

ج - بنو حفص في المغرب الأدنى :

ينسب بنو حفص إلى الشيخ أبي حفص يحيى بن عمرو المتأني من هتانة أعظم قبائل معدودة ، وكان للشيخ أبي حفص مكانة سامية في دولة الموحدين لما جتهد في الجهاد ، وكان لأولاد أبي حفص من بعده هذه المكانة ، فقد تداولوا الرئاسة ، وتقلبوا في مناصب الإمارة في المغرب والأندلس .

ويعتبر أبو زكريا يحيى الحفصى المؤسس الحقيقي لدولة الحفصيين بتونس ، فقد استقل بآماره إفريقية في سنة ٩٧٥ هـ بعد أن عزل أخاه أبا محمد عبد الله ابن أبي محمد بن أبي حفص . وكان سبب استقلاله بإفريقية استيلاءه بما قام به المأمون الموحدي من قتل الموحدين بمراكش ، وخاصة هتانة وتينمال ومن

بينهم أخوا للأمن أبو محمد عبد الله المخلوع وإبراهيم، ومن طعن لعصمة
المهدي، وتغيير لرسوم الدعوة الموحدية .

وقد حكمت دولة بني حفص زهاء ثلاثة قرون ونصف على الرغم من
الأحداث الخطيرة التي اجتازتها . وقد بايع أهل شرق الأندلس وإشبيلية
والمرية الأمير أبي زكريا ، عندما ركبت ريج الموحدين فيها ، وإليه وجه
الأديب أبو عبد الله بن الأبار قصيدته السنية التي يستصرخه فيها للمسلمين
ومنها الآيات الآتية :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا
إن السيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت
فلم يزل منك عز للنصر ملتصا
وحاش مما تمنيه حشاشتها
فطلا ذافت البلوى صباح ما
بالجزيرة أضحى أهلها جزرا
للنائبات وأمسى جدما تصا
في كل شارقة المام باقعة
بعود مآتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة إحجاف فائبة
بقي الأمان حذاراً والسرور أسا
تقاسم الروم لانات مقاسمهم
إلا عقائلها المحجوبة الانسا

وفى بلسية منها وقرطبة
 ما يذهب النفس أو ما يرف النفس
 مدائن حلها الإشرار مبتها
 جذلان وارنحل الإيمان منها
 وضوئها العوادي عاكثات بها
 يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
 ما للمساجد عادت للصدى يما
 وللسداه يرى أثناءها جرسا
 لحفا عليها إلى استرجاع قائمتها
 مدارسا للثاني أصبحت درسا

فأجاب الأمير أبو زكريا داعيتهم ، وبعث إليهم أسطولاه مشحونا
 بالآقوات والأسلحة. وقد تأثرت حضارة بن حفص في إفريقية في عهده بالحضارة
 الأندلسية ، وفتح أبو زكريا أبواب مدنه للمهاجرين من أهل الأندلس ،
 وقد بلغ تأثير الأندلس في الدولة الحفصية ذروته في عهد أبي عبد الله
 المستنصر خليفة أبي زكريا يحيى ، وكان من أعظم بناء هذه الأسرة ،
 وكان بلاطه يزخر بأهل الأندلس الذين هاجروا إلى جواره ، وفي عهده
 أقيم قصر الطاية فيا بين عامي (٦٤٧ - ٦٧٥ هـ) ، وكانت بساتين هذا
 القصر تتبع نظام بهو السباع بقصر الحمراء . وإلى المستنصر الحفصى تنسب
 جنة أبي فهر وتبعد كيلو مترا واحدا جنوبي تونس ، وإليه ينسب أيضا
 بناء مسجد باب الدرب بالمستنير ، وكل أبيته تأثرت بالأسلوب الأندلسي .
 وفي عصر المستنصر توطدت العلاقات التجارية بين تونس وبرشلونة ومرسيليا

وجنوة ويزا وصقلية والبندقية ، وأنشئت الفنادق الأجنبية بتونس . وفي
 أواخر عهده تعاقبت الفتن على البلاد بسبب طمع بعض الأمراء السيطرة على
 السلطنة ، وقد أضعفت هذه الفتن من مركز السلاطين ، وتولى بعد وفاته
 في سنة ٩٧٥ الأمير أبو عبيدة . وبوفاته خرج الحكم في تونس من فرع
 أبي زكريا ، فقد حكم أخ ثالث للمستنصر هو أبو حفص ، ثم ابن عم له
 هو أبو يحيى بن اللحياني ، وأخيرا استقر السلطان في أعقاب ابن من أبناء
 أبي زكريا هو أبو اسحق إبراهيم . وازداد ضعف بني حفص بانقسامهم
 وخروج بجاية عن طاعتهم . واستغل بنو مرين فرصة ضعف الحفصيين ،
 واستولوا على تونس في عصر السلطان أبي عثمان المريني ، ومع ذلك فقد
 حاول أبو اسحق إبراهيم إعادة وحدة البلاد بعد أن خرج جنوبها عن
 سلطانه ، وظهرت دويلات مستقلة في تلك النواحي مثل بني يملول في
 توزر ، وبني الخلف في نفطة ، وبني مكى في قابس ، وبني ثابت
 في طرابلس .

وفي عهد أبي العباس استعادت الدولة الحفصية بعض عظمتها ، وتصدى
 الأمير جماعة من النصاري هاجموا المهدية في سنة ١٣٩٠ م ، وهزمهم ، وقام
 ابنه أبو فارس بالاغارة بحرا على مالطة وجربة ، واستطاع أن يستولى على
 تلسان . ولقد عرفت دوله بني حفص في عهده بازدهارها وقوتها ، وتمكن
 أبو فارس من ضم الإمارات التي كانت قد استقلت في حياة أبي العباس ،
 ففي سنة ١٣٩٨ ضم مدينة طرابلس إلى دولته ، وفي سنة ١٤٠٠ م (٨٠٣ هـ)
 استولى على توزر وقفصة ، وفي سنة ١٤٠٧ استولى على بسكرة ، ونجح
 في سنة ١٤١٠ في الاستيلاء على مدينة الجزائر . وفي عهد أبي فارس قدمت

السفارات من سائر أنحاء العالم إلى تونس نهاده وتخطب مودنه، ومن هذه السفارات : سفارة سلطان غرناطة ، وسفارة سلطان قاس ، وسفارة سلطان مصر . وتوفي أبو قارس في سنة ١٤٣٤ م وخلفه ابنه الأصغر المستنصر، وكان شابا عيلا تغلبت عليه الامراض فمات بعد ١٤ شهرا من توليه الامارة وفي عهد أخيه أبي عمرو عثمان اشتعلت نيران الفتن في البلاد بسبب طمع أعمامه في السلطان ، ونجح أبو عمرو في القضاء على هذه الثورات سنة ١٤٤٦ م بعد أن هزم معه أبا الحسن .

وازدهرت البلاد التونسية في عهد ازدهارا تشهد به المعاهدات التجارية التي عقدها من ملك فرنسا لويس الحادي عشر ، كما عقد معه سلاطين مصر والاندلس معاهدات مماثلة ، لكن هذا الازدهار لم يطل أمده بعد وفاة أبي عمرو عثمان ، فما لبثت وحدة الدولة الحفصية أن تمزقت بعد وفاته بسبب انتفاض القبائل عليها ، ومهاجمة الألبان للسواحل التونسية انتقاما من القراصنة الأتراك الذين اتخذوا هذه السواحل أو كارا لهم .

مراجع الكتاب

أولا - المصادر العربية

ثانيا - المراجع العربية الحديثة والأوربية العربية

ثالثا - المراجع الأوربية

أولا : المصادر العربية

- ١ - ابن الأثير (أبو عبد الله محمد) : كتاب الحلة السراء ، جزءان ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ١٩٦٣
- ٢ - ابن أبي دبنار القيرواني : المؤنس في تاريخ إفريقية وتونس ، تونس ، ١٢٨٦ هـ
- ٣ - ابن أبي زرع (علي بن محمد العامي) : الأنيس للطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، نشره تورنبرج ، Tornberg ، أسال ١٨٤٣
- ٤ - ابن الأثير (علي بن أحمد بن أبي الكرم) : كتاب الكامل في التاريخ ، بولاق ، ١٢٩٠ هـ والقاهرة ، ١٣٥٧ هـ
- ٥ - ... : أسد الغابة في معرفة الصحابة ، القاهرة ، ١٢٨٠ - ١٢٨٦
- ٦ - ابن الأثير (أبو الوليد إسماعيل) : روضة النسر في دولة بني مرين تحقيق الأستاذ عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦٢
- ٧ - ابن الخطيب (لسان الدين محمد) : الملححة البدرية في الدولة النصرية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ
- ٨ - ... : الإحاطة في أخبار غرناطة ، الجزء الأول ، تحقيق الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥
- ٩ - ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بوج قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، نشره ليفي بروفسال ، بيروت ١٩٥٦
- ١٠ - ... : كتاب أعمال الأعلام ، فيمن بوج قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، القدم الثالث ، تحقيق الدكتور أحمد مختار

العبادي ، والأستاذ محمد إبراهيم الكتاني ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤

١١ - ابن الخطيب : مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب
والأندلس ، مجموعة من رسائله ، نشرها وحققها الدكتور مختار
العبادي ، الاسكندرية ، ١٩٥٨

١٢ - ابن الصغير المالكي : سيرة الإمامة الرسعيين ، باريس ، ١٩٥٨

١٣ - ابن التقي الهمداني (أبو بكر أحمد بن إبراهيم) . مختصر تاريخ
البلدان ، لندن ، ١٨٨٥

١٤ - ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة) : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨
١٥ - ابن القوطية القرطبي (أبو بكر محمد) : تاريخ افتتاح الأندلس ، نشره
دون خليان ريبا ، مدريد ، ١٩٢٦

١٦ - ابن بسم (أبو الحسن طي الشنتريني) : كتاب التذخيرة في محاسن أهل
الجزيرة ، القسم الأول ، الجزء الرابع ، القاهرة ، ١٩٤٥

١٧ - ابن بطي (الأمير عبد الله الزيري) : مذكرات الأمير عبد الله
الزيري ، المسماة بكتاب التبيين ، نشره وحققه الأستاذ ليني
بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٥٥

١٨ - ابن نفري يردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة في ملوك مصر
والقاهرة ، نشر دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٩ - ابن حبيب (عبد الملك) : أخبار في فتح الأندلس نشرها الدكتور
محمود علي مكي في مقاله :

Egipto y los origines de la historiografía arabigo-Española,

صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

٢٠ - ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد) : جبهة أنساب العرب ، تحقيق
الاستاذ ليفي يروفسال ، القاهرة ، ١٩٤٨

٢١ - ابن حوقل النصبي : صورة الأرض ، طبعة بيروت ، ١٩٦٢

٢٢ - ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) : التعريف بابن خلدون ، ورحلته
غربا وشرقا ، تحقيق محمد بن تاووت الطنجي ، للقاهرة ، ١٩٥١

٢٣ - ... : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، سبعة أجزاء ،
طبعة بولاق ، ١٢٨٤ هـ (١٨٧٠ م) وطبعة بيروت ، منشورات
دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨

٢٤ - ابن خلكان (أبو العباس أحمد بن ابراهيم) : وفيات الأعيان ،
وأبناء أبناء الزمان ، نشره الاستاذ محمد عبي الدين عبد الحميد ،
القاهرة ، ١٩٤٨

٢٥ - ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) : كتاب الأملاق النفيسة ، نشره
دني غويه ، لندن ، ١٨٨١ - ١٨٨٢

٢٦ - ابن صاحب الصلاة ، مدونة عن أعمال خليفة الموحدين أبي يعقوب
يوسف ، وأبي يوسف يعقوب المنصور ، نشرها الألب أنطونية

ملشور بعنوان : Sevilla y sus monumentos arabes

الاسكوريال ، ١٩٣٠

٢٧ - ابن طباطبا (محمد بن علي) : كتاب الفخرى في الآداب السلطانية ،
طبعة بيروت ، ١٩٦٠

٢٨ - ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله) : فصوص مصر والمغرب ،

تحقيق الأستاذ عبد المنعم حامر ، القاهرة - ١٩٩١ ، وطبعة

Conquête de l'Afrique du Nord et عنوان Albert Godeau

l'Espagne ، الجزائر ، ١٩٤٧

٣٩ - ابن عذارى (أبو العباس أحمد) : البيان المغرب في أخبار المغرب ،

تحقيق ليفى بروفنسال وكولان ، جزآن ، لندن ١٩٤٨ - ١٩٥١

وطبعة دار صادر ، جزآن ، بيروت ، ١٩٥٠

٣٠ - ... : البيان المغرب في أخبار المغرب ، الجزء الثالث ، باريس ١٩٣٠

٣١ - ابن قتيبة الدينوري (أبو محمد عبد الله بن مسلم) : كتاب الإمامة

والسياسة ج ٢ ، القاهرة ٧ - ١٩ ، والنص الخاص بفتح الاندلس

من كتاب الإمامة والسياسة الوارد في كتاب « تاريخ افتتاح

الاندلس » لابن القوطية ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ، ١٩٢٦

٣٢ - أبو العرب تميم : طبقات علماء إفريقية ، طبعة ابن شنب ، الجزائر ،

١٩١٥

٣٣ - أبو الفداء (اسماعيل بن علي) : المختصر في أخبار البشر ، بيروت ١٩٥٦

٣٤ - الإدريسي (الشريف أبو عبد الله محمد) : صفة المغرب والاندلس

مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشره دي

غويه ودوزي ، لندن ١٨١٦ ، ونسخة بعنوان صفة المغرب

وأرض السودان ومصر والاندلس ، لندن ١٨٩٤

٣٥ - الاصطخرى (أبو اسحق ابراهيم بن محمد) : المسالك والممالك ، تحقيق

الأستاذ محمد جابر عبد العال الحين ، القاهرة ١٩٦١

٣٦ - البكري (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) : المغرب في ذكر بلاد

إفريقية والمغرب ، نشره دي سلان de Slane بعنوان :

Description de l'Afrique Septentrionale ، الجزائر ، ١٩١١

٣٧ - ... : معجم ما استعجم ، مادة تاهرت

٣٨ - البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) : كتاب فتوح البلدان ، تحقيق

الدكتور صلاح الدين المنجد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٥٦

٣٩ - البيهقي (أبو بكر الصنهاجي) : كتاب أخبار المهدي بن تومرت ،

تحقيق الاستاذ ليفي بروفنسال ، باريس ، ١٩٢٨

٤٠ - الجزنائي (أبو الحسن علي) : كتاب زهرة الآس في بناء مدينة فاس ،

نشره الفريد بيل ، الجزائر ، ١٩٢٢

٤١ - الحميدي (أبو عبد الله محمد بن فتوح) : جذوة المقتبس في ذكر

رجال الأندلس ، حققه محمد بن تاووت الطنجي ، القاهرة ، ١٩٣٧

٤٢ - الحميري (ابن عبد المنعم) : صفة جزيرة الأندلس ، من كتاب الروض

المعطار في خير الأقطار ، ليفي بروفنسال ، القاهرة ، ١٩٣٢

٤٣ - الدباغ (عبد الرحمن الأنصاري) : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ،

تونس ، ١٩٠١

٤٤ - السلاوي (أبو العباس أحمد بن خالد الناصري) : الاستقصا لأخبار

المغرب الأقصى ، الدار البيضاء ، ١٩٥٠

٤٥ - السيوطي (جلال الدين) : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،

جزءان ، مصر ، ١٣٢٧ هـ

٤٦ - الصغير (محمد) : كتاب نزعة الحادى بأخبار ملوك القرن الحادى ،

نشره Houdas ، باريس ، ١٨٨٨

٤٧ - الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الأمم والملوك ، للقاهرة ١٩٣٩

٤٨ - الطرابلسى (أبو عبد الله محمد بن خليل) : تاريخ طرابلس الغرب

المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ،

نشره الأستاذ الطاهر أحمد الزاوى ، القاهرة ، ١٩٤٩ هـ

٤٩ - عبيد الله بن صالح : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، نشره الأستاذ

لينى بروفنسال ، وعلق عليه الدكتور حسين مؤنس ، فى صحيفة

المعهد المصرى للدراسات الإسلامية بمديره ، ١٩٥٤

٥٠ - الغزالى (أبو حامد) : إحياء علوم الدين ، ج ١ ، طبعة مصر ، ١٣٠٧ هـ

٥١ - الفلقشندي (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ،

ج ٥ ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩١٣ - ١٩١٩

٥٢ - المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله) : كتاب رياض النفوس ،

تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١

٥٣ - مجهول : أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، نشره دون لافونتي القنطرة

Lafuente Alcantara ، مدريد ، ١٨٦٧

٥٤ - مجهول : كتاب الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية ، طبعة

تونس ، ١٠٢٩ هـ

٥٥ - مجهول : كتاب الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية ، تحقيق محمد

ابن أبي شنب ، الجزائر ، ١٩٢٠

- ٥٦ - مجهول : كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار لكتاب المراكشي من كتاب القرن السادس الهجري . نشره وعلق عليه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ، ١٩٥٨
- ٥٧ - مجهول : فتح الأندلس ، نشره دون خواكين جنثالث ، الجزائر ١٨٨٩
- ٥٨ - مجهول : مدونة تاريخية عن عصر عبد الرحمن الناصر ، تحقيق الأستاذان ليني بروفنسال وغرسيه جومت . مدريد ، ١٩٥٠
- ٥٩ - المقدسى (شمس الدين أبي عبد الله) : أحسن التقاسيم لمعرفة الأقاليم ، لندن ، ١٩٠٦
- ٦٠ - المراكشي (محي الدين عبد الواحد بن علي) : كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق الأستاذان محمد سعيد العريان ، ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٢٩
- ٦١ - المسعودي (أبو الحسن علي) : كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق الأستاذ محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٥٨
- ٦٢ - المقرئ (أحمد بن محمد) : نقح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، تحقيق الأستاذ محمد محي الدين عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٢٩
- ٦٣ - المقرئ (محي الدين أحمد بن علي) : الخطط المقرئية ، المسماة بالمواظع والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بيروت ، منشورات مكتبة العرفان .
- ٦٤ - ... : انماط الخطا بذكر الأنظمة الخلفاء ، نشره الدكتور جمال الدين الشيبان ، القاهرة ، ١٩٤٨

٦٥ - المغربي : 'إغاة الامة بكشف الغمة' ، نشره الدكتور محمد مصطفى

زيادة ، والدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ، ١٩٤٠

٦٦ - النويرى (أحمد بن عبد الوهاب) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ،

القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٢٣

٦٧ - الواقدى : فتوح الشام ، ج ١ ، طبعة القاهرة ، ١٣٦٨ هـ

٦٨ - ... : فتوح إفريقية ، ج ١ ، طبعة تونس ، ١٣١٥ هـ

٦٩ - الونشريشى : أسنى التاجر فى بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى

ولم يهاجر ، تحقيق الدكتور حسين مؤنس ، صحيفة المعهد المصرى

بدمرد ، ١٩٥٧

٧٠ - ياقوت (شهاب الدين أبى عبد الله الحموى) : معجم البلدان ، مجلدات

بيروت ، ١٩٥٥ - ١٩٥٨

٧١ - اليعقوبى (أحمد أبى يعقوب بن جعفر) : كتاب البلدان ، ليدن ١٨٩١

ثانيا : المراجع العربية الحديثة والأوربية المعربة

٧٢ - آدم (الأستاذ على) : المنصور بن أبى عامر ، مقال بدائرة معارف

الشعب ، عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩

٧٣ - أرسلان (الأمير شكيب) : تاريخ غزوات العرب ، مصر ، ١٣٩٢ هـ

٧٤ - أشباخ (يوسف) : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ،

ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ، ١٩٥٨

٧٥ - البارونى (الشيخ أبو الريح سليمان بن عبد الله) : مختصر تاريخ

الإباضية ، تونس ، ٨ - ١٩

٧٦ - ... : كتاب الأزهار الرياضية فى أئمة وملوك الإباضية ، بدون

تاريخ

٧٧ - بالثيا (أنخل جنتا) : تاريخ الفكر الأندلسى ، ترجمة الدكتور

حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥

٧٨ - التازى (الأستاذ عبد الهادى) : نظرية جديدة فى بناء جامعة القرويين ،

صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ، مدريد ، ١٩٥٨

٧٩ - ... : الحروف المنقوشة بالقرويين فى خدمة الآثار ، المؤتمر

الثالث للآثار فى البلاد العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦

٨٠ - حسن (دكتور حسن إبراهيم) وشرف (الأستاذ طه) : عيد الله

المهدى ، إمام الشيعة الإسماعيلية ، القاهرة ، ١٩٤٧

٨١ - حسن (دكتور حسن إبراهيم) : تاريخ الدولة الفاطمية ، القاهرة ١٩٥٨

٨٢ - دبوز (الأستاذ محمد على) : تاريخ المغرب الكبير ، ج ٣ ، القاهرة ١٩٦٤

٨٣ - الرشيد (الأستاذ اسماعيل بن محمد) : جلاء الظلام الدامس فى موجز

تاريخ المغرب إلى عصر محمد الخامس ، مطبعة فضالة ، ١٩٥٧

٨٤ - الزاوى (الأستاذ الطاهر أحمد) : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا ،

القاهرة ، ١٩٦٣

٨٥ - زامباور : معجم الأنساب والأمراء الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ،

ج ١ ، القاهرة ، ١٩٥١

٨٦ - زيادة (دكتور قولا) : الجغرافية والرحلات عند العرب ، بيروت ، ١٩٦٢

- ٨٧ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز) : طارق بن زياد ، مقال بدائرة
معارف الشعب عدد ٦٧ ، القاهرة ١٩٥٩ - مرسية ، مقال بدائرة
معارف الشعب عدد ٦١ - المهدي بن تومرت ، مقال بدائرة
معارف الشعب رقم ١٩٦٠ - الفنون والصناعات بالأندلس ،
مقال بدائرة معارف الشعب ، عدد ٦٤
- ٨٨ - ... : المسجد الجامع بالقريوان ، وجامع الزيتونة بتونس : مقالان
بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد ، القاهرة ١٩٦٠ ، كتاب الشعب
عدد ٧٨
- ٨٩ - ... : المساجد والقصور بالأندلس ، سلسلة إقرأ ، عدد ١٩٠ ،
القاهرة ، ١٩٥٨
- ٩٠ - ... : أثر الفن الخلافي بقرطبة في العمارة المسيحية بإسبانيا وفرنسا ،
المجلة ، العدد ١٤ ، ١٩٥٨
- ٩١ - ... : مسجد المدجنين بطليطلة ، مقال بمجلة كلية الآداب ، جامعة
الاسكندرية ١٩٥٨
- ٩٢ - ... : روائع الآثار الإسلامية بجمهورية الجزائر العربية ، المجلة ،
العدد ٢٩ ، ١٩٥٩
- ٩٣ - ... : المغرب الإسلامي ، كتاب الشعب عدد ١٣٨ ، ١٣٩ ، القاهرة ، ١٩٦١
- ٩٤ - ... : المآذن المصرية ، نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح
العربي حتى الفتح العثماني ، القاهرة ، ١٩٥٩
- ٩٥ - ... : تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الاسلامي ، الاسكندرية
١٩٦١

- ٩٦ - سالم (دكتور السيد عبد العزيز): تاريخ المسلمين وآثارهم في
الاندلس ، بيروت ، ١٩٦٢
- ٩٧ - ... : طرابلس الشام : تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي ، مجلة
كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٦٣
- ٩٨ - ... : القيم الجمالية في فن العبارة الإسلامية ، من محاضرات الموسم
الثقافي بجامعة بيروت العربية ، ١٩٦٢ - ١٩٦٣
- ٩٩ - ... : تخطيط مدينة الاسكندرية وعمراتها في العصر الإسلامي ،
مكتبة المدن الإسلامية ، العدد الاول ، بيروت ، ١٩٦٤
- ١٠٠ - ... : إحدى روائع الفن العالمي : لآخر الدا باشيلية ، المجلة ، العدد
التاسع ، ١٩٥٧
- ١٠١ - ... : وسائل الدفاع الإسلامي في المصور الوسطى ، مجلة الجيش ،
عدد ٨٢ ، ٨٣
- ١٠٢ - ... : الآثار الإسلامية في دير سانت كاترين بطور سيناء ، مجلة
العلوم ، العدد الاول ، يناير ١٩٦٥ ، ص ١ - ٩
- ١٠٣ - سرور (الدكتور جمال الدين) : مصر في عصر الدولة الفاطمية ،
القاهرة ، ١٩٦٠
- ١٠٤ - ... : النفوذ الفاطمي في بلاد الشام والعراق في القرنين الرابع والخامس
بعد الهجرة ، القاهرة ، ١٩٥٩
- ١٠٥ - الشرفاوي (دكتور محمد عبد المنعم) ، الصياد (دكتور محمد محمود) :
ملاح المقرب العربي ، الاسكندرية ، ١٩٥٩
- ١٠٦ - الشيبال (دكتور جمال الدين) : مصر في العصر الفاطمي ، بحث في
موسوعة تاريخ الحضارة المصرية ، المجلد الثاني ، الجزء السادس ،
القاهرة ١٩٦٣

١٠٧ - الطنجي (الاستاذ محمد بن تاووت) : دولة الرستميين ، صحيفة المعهد

المصري بمديره ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧

١٠٨ - العبادي (دكتور أحمد مختار) : سياسة الفاطميين نحو المغرب

والاندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمديره ،

مديره ، ١٩٥٧

١٠٩ - ... : الصقالية في إسبانيا وعلاقتهم بحركة الشعبية ،

مديره ، ١٩٥٣

١١٠ - ... : نظام الخلافة في المغرب الإسلامي في العصور الوسطى ،

فصلة من كتاب فلاسفة الإسلام في المغرب العربي .

١١١ - ... : مؤلفات لسان الدين بن الخطيب في المغرب ، مقال في مجلة

Hesperis, 3e, 4e trimestres, 1959

١١٢ - ... : دراسة حول كتاب الحلسل الموشية في ذكر الاختيار

المراكشية ، وأهميته في تاريخ المرابطين والموحدين ، مجلة نطوان ،

العدد الخامس ، ١٩٦٠

١١٣ - العبادي (الاستاذ عبد الحميد) : المجلد في تاريخ الاندلس ، سلسلة

المكتبة التاريخية ، العدد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٨

١١٤ - عبد الحميد (دكتور سعد زغلول) : العلاقة بين صلاح الدين وأبي

يوسف يعقوب المنصور ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية

المجلدان السادس والسابع ، ١٩٥٨

١١٥ - ... : فترة حاسمة من تاريخ المغرب ، مجلة كلية الآداب والتربية

بالجامعة الليبية ، المجلد الأول ، بنغازي ، ١٩٥٨

١١٦ - عبد الحميد (الدكتور سعد زغلول) : فتح العرب للمغرب بين الحقيقة التاريخية والاسطورة الشعبية ، مقال في مجلة كلية الآداب ، جامعة الاسكندرية ، العدد ١٦ ، ١٩٦٢ ، ١٩٦٣

١١٧ - عبد الوهاب (الأستاذ حسن حسنى) : خلاصة تاريخ تونس ، القاهرة ، ١٩٦٠

١١٨ - عبد الوهاب (الأستاذ حسن) : الاسكندرية في العصر الاسلامي ، مجلة الكتاب ، ١٩٤٦

١١٩ - فشل (ولتر ج .) : نشاط ابن خلدون في مصر المملوكية ، مقال في كتاب دراسات اسلامية ، ترجمة الأستاذ أنيس فريجة وآخرين ، بيروت ، ١٩٦٠

١٢٠ - فكري (دكتور أحمد) : المسجد الجامع بالقديوان ، القاهرة ، ١٩٣٦

١٢١ - ... : مساجد القاهرة ومدارسها (المدخل) الاسكندرية ، ١٩٦١

١٢٢ - الكعك (الأستاذ عثمان) : مراكز الثقافة في المغرب ، مطبوعات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨

١٢٣ - لويس (أرشبالد) : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط ، ترجمة الأستاذ أحمد محمد عيسى ، القاهرة ، ١٩٦٠

١٢٤ - ليفي بروفنسال : مجموعة رسائل موحدة ، من كتاب الدولة المؤتمنة ، الرباط ، ١٩٤١

١٢٥ - : نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مقال بصحيفة المهدى المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤

- ١٢٦ - لينى بروفنسال : الإسلام في المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمي ، القاهرة ١٩٥٨
- ١٢٧ - ماجد (دكتور عبد المنعم) : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ج ٢ ، القاهرة ١٩٦٠
- ١٢٨ - محمود (دكتور حسن أحمد) : قيام دولة المرابطين ، صفحة مشرفه من تاريخ المغرب في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧
- ١٢٩ - المرزوقي (الأستاذ محمد) : قابس ، القاهرة ١٩٦٢
- ١٣٠ - المشرقي (الأستاذ محمد محي الدين) : تاريخ إفريقيا الشمالية ، الرابط ، ١٩٥٠
- ١٣١ - مكي (دكتور محمود علي) : التشيع في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثالث ، ١٩٥٤
- ١٣٢ - ... : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد السابع ، العدد ١ ، ٢ ، ١٩٥٩
- ١٣٣ - مؤنس (دكتور حسين) : فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧
- ١٣٤ - ... : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس ، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدير ، المجلد الثاني ، ١٩٥٤
- ١٣٥ - ... : فجر الأندلس ، القاهرة ١٩٥٩
- ١٣٦ - النجار (الأستاذ عبد الوهاب) : الخلفاء الراشدون ، القاهرة ١٩٦٠

ثالثا - المراجع الأوربية الحديثة

1. Bermejo (Joaquin Vallvé) : Suqut al-Bargawati, rey de Ceuta, al-Andalus, vol. XXVIII, 1963.
2. Bloye (Aguado) : Manuel de la historia de Espana, t. I, Madrid, 1947.
3. Boigues (Francisco Pons) : Ensayo bio-bibliografico sobre los historiadores y géografos arabigo espanoles, Madrid 1898.
4. Codera (Francisco) : Limites probables de la conquista arabe en la cordillera pirenaica, en Estudios criticos de la historia arabe espanola, VIII, Madrid, 1919.
5. Codera (Francisco) : Decadencia y desaparicion de los Almoravides en Espana, Zaragoza, 1899.
6. Creswell (K.A.C.) : A short account of early muslim architecture, Pelican Books, 1958.
7. Diehl (Charles) : Histoire du moyen âge, t. III, Paris, 1932.
8. Dozy (R.) : Histoire des Musulmans d'Espagne, ed. Lévi-Provençal, Leyde, 1932.
9. Fikry (Ahmad) : La mosquée Az-Zaytouna à Tunis : recherches archéologiques, dans Egyptian Society of historical studies, II, le Caire, 1952.
10. Julian (André) : Histoire de l'Afrique du Nord (Jusqu' à la conquête arabe), Paris, 1961.
11. Julien (André) : Histoire de l'Afrique du Nord (depuis la conquête arabe), Paris, 1952.

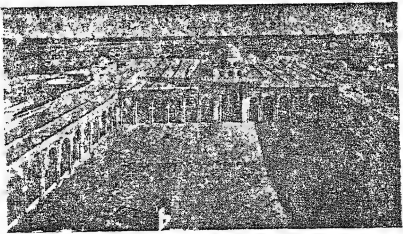
12. Lambert (Elie) : l'Architecture musulmane du Xe siècle à Cordoue et à Tolède, dans Gazette des Beaux arts, t. XII, 1925.
13. ... : Les coupôles des grandes mosquées, de Tunisie et d'Espagne, au IX e et Xe Siècles, Hesperis, t. XXII, fasc. 2, 1936.
14. ... : Les Origines de la croisée d'ogives, Offices des Instituts d'Archeologie et d'histoire d'art, No 8-9, 1936 - 1937.
15. ... : Les mosquées de type andalou en Espagne et en Afr que du Nord, al-Andalus, vol. XIV, 1949.
16. ... : La grande mosquée de Cordoue et l'art byzantin, Actes du VI e Congrès International, Paris 1951.
17. ... : L'art de l'Islam Occidental, Annales de l'Université de Paris, 1953.
18. Lavi-Provençal (E.) : La politica africana de Abd al - Rahman III, al-Andalus, vol XI, fasc. 2, 1948.
19. ... : Islam d'Occident, Paris, 1948.
20. ... : Extraits du historiens arabes du Maroc, Paris, 1948.
21. ... & Garcia Gomez et Oliver Asin : Novedades sobre la Batalla llamada al-Zallaqa, al-Andalus, 1950, vol. XV, fasc. 1.
22. ... : Histoire de l'Espagne Musulmane, 3 vols., Leiden-Paris, 1950.

23. Lévi-Provençal & García Gómez : Una Cronica anonima de
Abd al Rahman III al-Nasir, Madrid, 1950.
24. Makki (Mahmud) : Egipto y los origides de la historiagra-
fia arabe espanola, revista del Instituto de Estudios
Islamicos en Madrid, vol. V, 1957.
25. Marçais (Georges) : Article Ribat, dans l'Encyclopédie de
l'Islam.
26. ... : Coupoles et Plafonds de la grande mosquée
de Kairouan, Tunis, 1926.
27. ... : Les faiences à reflets metalliques, de la
grande mosquée de Kairouan, Paris, 1926.
28. ... : La Barberie musulmane et l'Orient au Moyen
âge, Paris, 1946.
29. ... : L'architecture musulmane d'Occident, Paris, 1954.
30. Maslow (Boris) : La Qoubba Barudiyyin a Marrakech, al-
Andalus, vol. XII, 1948.
31. Millet (René) : Les Almohades Paris, 1923.
32. Miranda (Ambrosio Huici) : Invasion de los Almoravides y
la batalla de Zallaka, Hesperis, 1-2 trimestres. t. XI, 1953.
33. ... : Al Hual al-Mawaiyya, cronica arabe de las
dinastias almoravide, almohade y benimerin, Tetuan, 1953.
34. ... : La Campana de Alarcos, revista del Instituto
Egipcio de Madrid, vol. II, 1954.
35. Moreno (Manuel Gomez) : El Panteon Real de las Huélgas
de Burgos, Madrid, 1946.

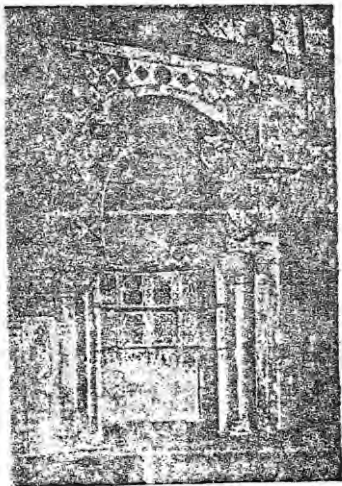
36. Moreno (M.G.) : *Ars Hispaniae*, t. III, arte español, hasta los Almohades, Madrid, 1951.
37. Pellegriin : *Histoire' de la Tunisie*, Tunis, 1942.
38. Pidal (Ramon Menéndez) : *Espana del Cid*, 2vols., Madrid 1947.
39. ... : *El Cid . Campeador*, Coleccion Austral, Buenos Aires, 1950.
40. Remiro (Mariano Gaspar): *Murcia musulmana*, Zaragoza, 1905
41. Saavedra (Edouardo) : *Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana*, Madrid, 1892.
42. Salem (Elsayed Abdel Aziz) : *L' architecture à Seville sous les Almohades*, Thèse du Doctorat ès-Lettres, présentée à l'Université de Paris, 1956 (sous presse).
43. Terrasse (Henri) : *Les Arts décoratifs au Maroc*, Paris, 1925
44. ... : *L'art hispano-mauresque, dès origines' au XIIIe Siècle*, Paris, 1932.
45. ... & Basset : *Sanctuaires et forteresses almohades*, Paris, 1932.
46. ... : *La grande mosquée des Andalous à Fès*, Paris, 1942
47. ... : *La grande mosquée de Taza*, Paris. 1943.
48. ... : *Histoire du Maroc dès origines à l'établissement du Protectorat français*, Casablanca; 1949.
49. ... & Meunié : *Recherches archéologiques à Marra-kech*, Paris, 1952.
50. ... : *La forteresse almoravide d'Amargo al Andalus*, vol. XVIII, fasc.2, 1953.

51. Terrasse : L'art de l'empire almoravide, ses sources et son évolution, dans *Studia Islamica*, t. III, 1955.
52. ... : art almoravide et art almohade, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.
53. ... : La reviviscence de l'Acanthe dans l'art hispanomusulman sous les almoravides, al-Andalus, vol. XXVI, 1961.
54. Torres Balbas (Leopoldo) : Arquitectos Andaluces de las épocas almorávide y almohade, al-Andalus, 1946.
55. ... : Atarazanas hispanomusulmanas, al-Andalus, vol. XI, 1946.
56. ... : La primitiva mezquita mayor de Sevilla, al-Andalus, vol. XI, 1946.
57. ... : Ars Hispaniae, t. IV : arte almohade, Nasiri et Mudejar, Madrid, 1949.
58. ... : La mezquita de Cordoba y las ruinas de Madinat al-Zahra, Madrid, 1952.
59. ... : El arte de al-Andalus bajo los almorávides, al-Andalus, vol. XVII, 1952.
60. ... : Almería Islámica, al-Andalus, vol. XXII, 1957.
61. Le Tourneau (Roger) : Fès avant le Protectorat, Casablanca 1949.
62. Turk (Afif) : el Reino de Zaragoza en el siglo XI, de Jesu cristo, tesis para el grado de Doctor, presentada en Madrid, 1956.

الصـور



(شكل ١) المسجد الجامع بالقيروان : منظر عام من أعلى للمئذنة
(عن كروزل)



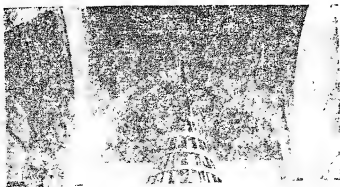
(شكل ٢) المسجد الجامع بالقيروان : جوفه المهراب
(من كرزول)



(شكل ٣) المسجد الجامع بسوسة : منظر عام
(عن كرزول)



(شكل ٤) المسجد الجامع بسوسة : منظر لمقود بيت الصلاة أدنى القبة
(عن كرزول)



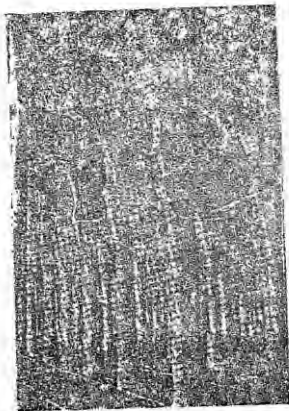
(شكل ٥) المسجد الجامع بسوسة . أحد العقود التي
تزين عليها الفسيفساء (عن كرزول)



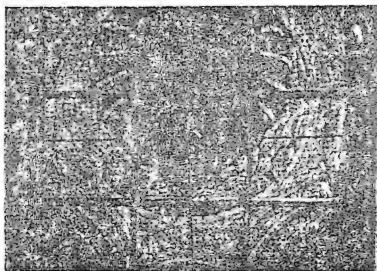
(شكل ٦) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
تفصيل لرخايف واجهة المدخل (عن كرزول)



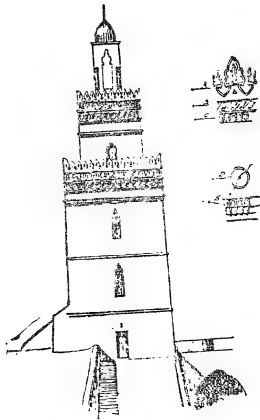
(شكل ٧) مسجد الابواب الثلاثة بالقيروان
منظر عام للواجهة (عن كرزول)



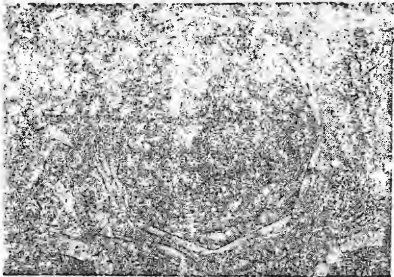
(شكل ٨) جامع الزيتونة بتونس :
 عقود بيت الصلاة (عن فكري)



(شكل ٩) جامع الزيتونة بتونس : قبة المهراب من الداخل
(من فكرى)



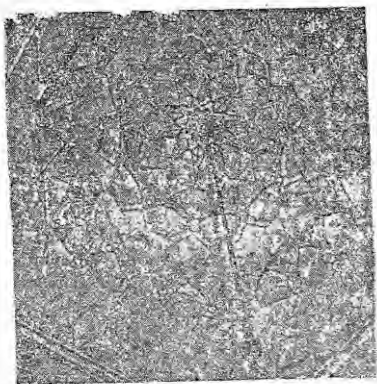
(شكل ١٠) المسجد الجامع بسفاس
رسم للشذنة (عن مارسيه)



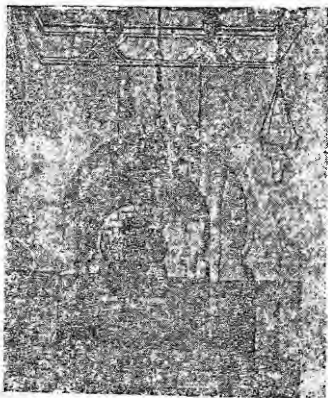
(شكل ١١) قبة اليروديين بمراكش (عن مارسيه)



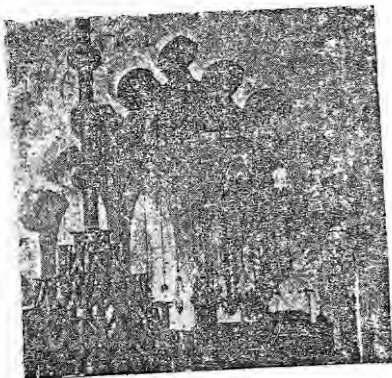
(شكل ١٢) قبة اليروديين بمراكش (عن مارسيه)



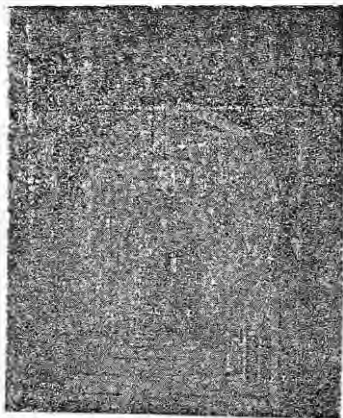
(شكل ١٣) جامع القرويين بفاس : قبة المهراب
(عن مارسيه)



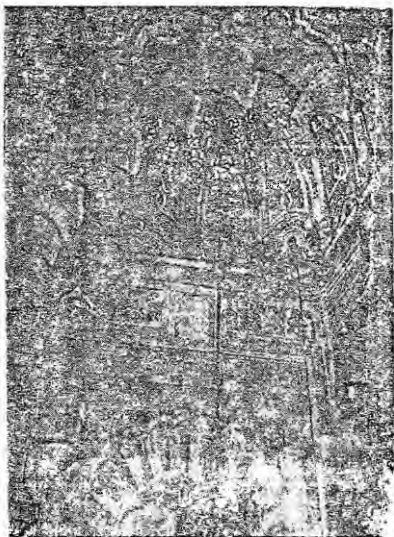
(شكل ١٤) جامع القرويين بفاس : البلاطة الوسطى
(من ماسيه)



(شكل ١٥) المسجد الجامع بتلستان : البلاطة الوسطى
(عن مارسيه)



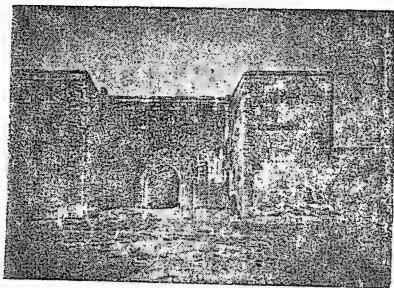
(شكل ١٩) المسجد الجامع بالجزائر: عقود بيت الصلاة
(عن مارسيه)



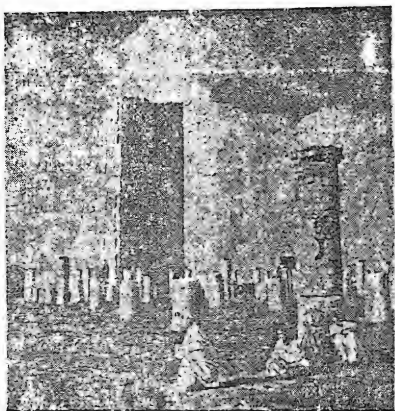
(شكل ١٧) للسجد الجامع ببلقان : واجهة المحراب وجانب من القبة
(عن ماريه)



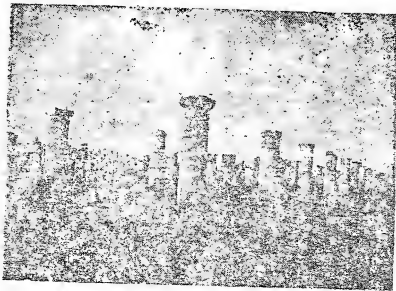
(شكل ١٨) جامع الاندلسين هاس مع الصحن والمذمعة
(ص ١٨١)



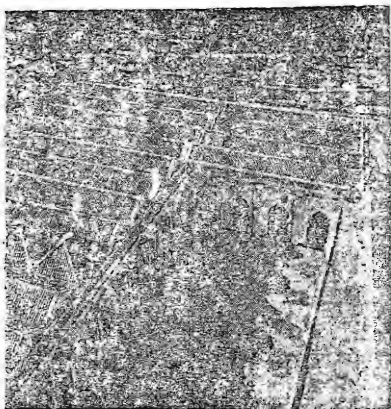
(شكل ١٩) باب الرواح بمراكش
(عن مصلحة الآثار)



(شكل ٧) المسجد الجامع برقاط الفتح والصومعة
(عن مكتب السياحة المرفق بالرفاق)



(شكل ١٠) المسجد الجامع برباط الدنج أعمدة بيت الصلاة
(عن مصلحة الآثار)



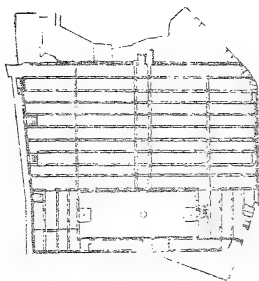
(شكل ٠٠) جامع الكتيبة عمراكثر . الاسقف والصحن
(من مكتب السياحة للقرى بالراماط)



(شكل ٢٣) جامع الكتبية مراكش : السوامة
(للمؤلف)

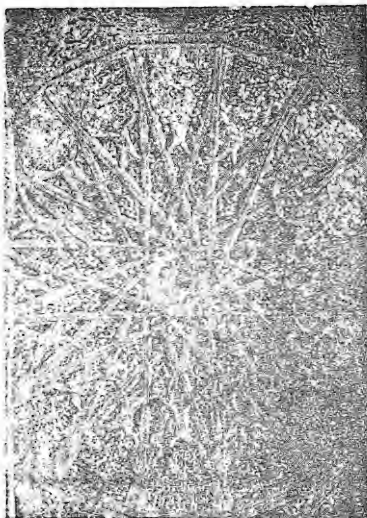


(مکتب ۳۸ : جامع الفردوس عباسی قلعہ حسن
(من مصاحف الآثار)

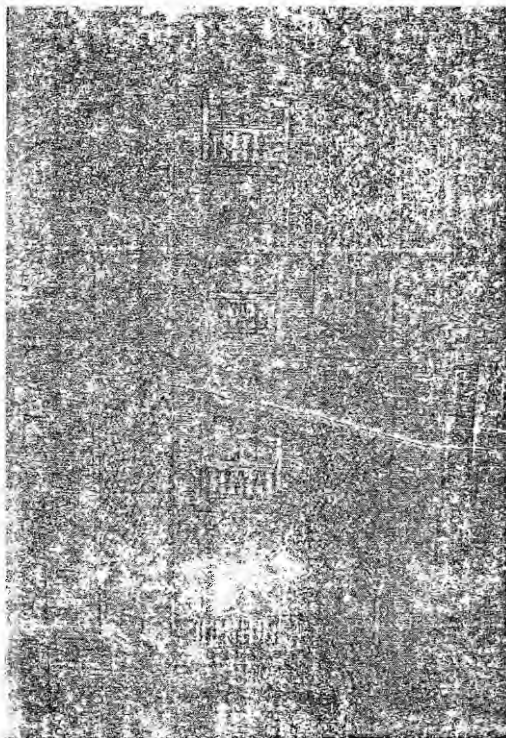


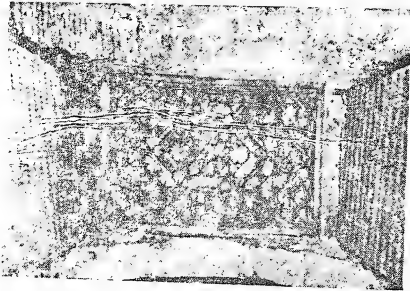
(شكل ٢٥) تخطيط بناء مع القروى بن عباس

(عن مرسية)

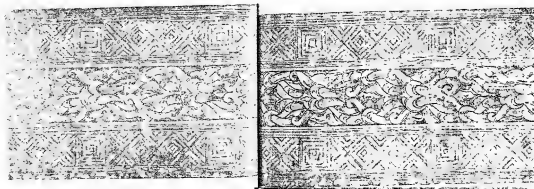


(شکل ۲۹) جامع ، رابط ناری فیه المهراب
(من جو. پس خام)



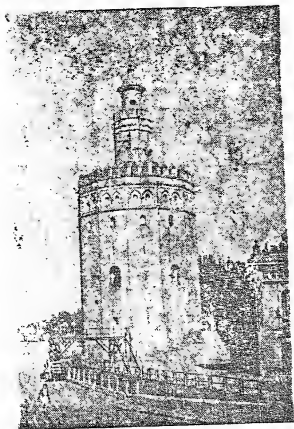


(شكل ٢٨) المسجد الجامع بدمشق : مقبرة بأعلى أسطوان المدخل الشرق
(المؤلف)



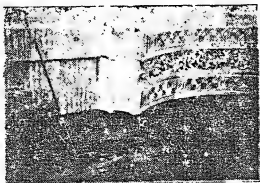
الأسفل عند الداخل إلى المعبد
(من رسم التوليد)

(شكل ١٠٩) مسجد الجامع بدمشق - بجانب من الشرق



(شكل ٣٠) برج الذهب باشمونية

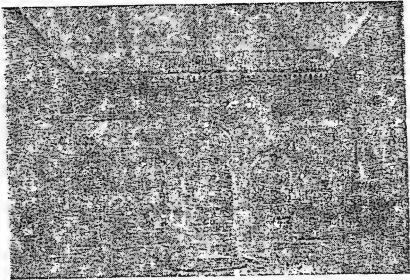
(للمؤلف)



(شكل ٣١) المسجد الجامع باشبيلية :
زخارف تملا* بواطن عقد المدخل الى صحن الجامع (للؤاف)

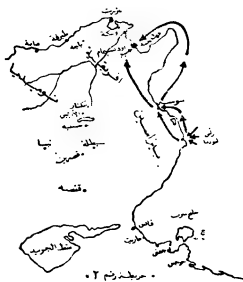


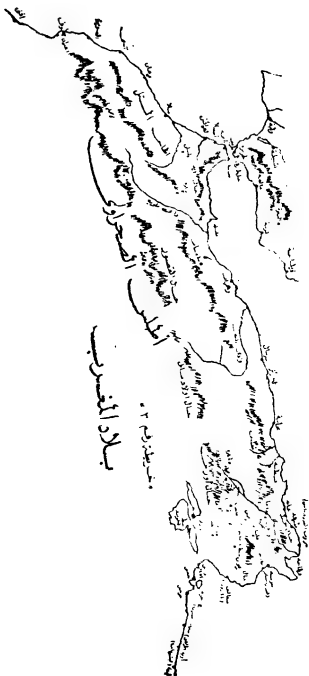
(شكل ٣٢) سوق مقاربه ماشبيله
(للؤاف)



(شكل ٣٣) صحن المدرسة بوعنانية بفاس
(للمؤلف)

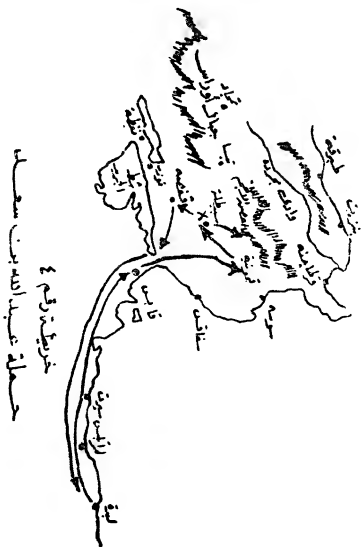
الخـرائـط

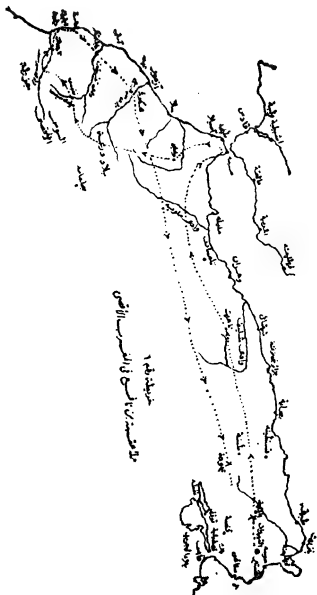




بلاد المضرغیب

و سیطره رقم ۲۰









فهرس موضوعات الكتاب

فهرس

١٠٠٠

١-ز

مقدمة

القسم الأول

المغرب في العصرين الوندالي والبيزنطي

الفصل الأول

تقريب في ظل الوندال

- (١) جنسريك مؤسس دولة الوندال في المغرب (٤٧٧ - ٤٢٨) ١
- ١ - غزو الوندال للاندلس وتطلمهم لغزو المغرب ... ١
- ٦ - عبور الوندال الزقاق إلى المغرب ... ٦
- ١٠ - غزو الوندال لتوميديا وإفريقية ... ١٠
- ١٤ - التفوق الحربي للوندال على الرومان ... ١٤
- (٢) خلفاء جنسريك ... ٢٩
- ٢١ - هونيريك خليفة جنسريك (٤٧٧ - ٤٨٤) ... ٢١
- ٢٣ - عصر جتاموندو (٤٨٤ - ٤٩٦) وتراساموندو (٤٩٦ - ٥٢٣) ... ٢٣
- ٢٧ - نهاية عصر الوندال في المغرب ... ٢٧
- (٣) نظم الوندال في الحكم ببلاد المغرب ... ٣١
- ٣١ - النظام الإداري ... ٣١
- ٣٣ - النظام الحربي ... ٣٣
- ٣٤ - النظام القضائي ... ٣٤

صفحة

- د - النظام الإقطاعي ... ٣٤
هـ - سياسة الوندال نحو الكاثوليك وأهل البلاد ... ٣٥

الفصل الثاني

بلاد المغرب في العصر البيزنطي

- (١) استرجاع جستنيان لبلاد المغرب ... ٣٨
أ - مواقف جستنيان أمام تحدى جليار ... ٣٨
ب - تحرك القوات البيزنطية نحو المغرب ... ٤٢
ج - استرجاع البيزنطيين للمغرب ... ٤٤
(٢) المشاكل التي واجهها البيزنطيون في المغرب ... ٥١
أ - ثورات البربر ... ٥١
ب - النزاع الديني ... ٥٣
(٣) ولاية بزنطة في المغرب في عصر جستنيان ... ٥٧
أ - صولومون (٥٣٤ - ٥٣٩) ... ٥٧
ب - ولاية جرمانوس (٥٣٩ - ٥٣٩) ... ٦٠
ج - ولاية صولومون الثانية (٥٣٩ - ٥٤٤) ... ٦١
د - ولاية مرجيوس وأريو بندر رياسة تحكّم الفرضى في البلاد ... ٦٣
هـ - جان تروجليطة وإخماد الثورة (٥٤٧ - ٥٦٣) ... ٦٥
(٤) اضمحلال النفوذ البيزنطي في المغرب بعد جستنيان ... ٧٠
أ - في عصر الامبراطور جستين الثاني (٥٦٥ - ٥٨٧)
وطيبريوس (٥٧٨ - ٥٨٢) ... ٧٠

منه

- ب - في عصر الامبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢) ... ٧١
- ج - للمغرب قبيل الفتح العربي (فيما بين ٦٠٢ - ٦٤٧) ... ٧٣
- (٥) نظام البيزنطيين الإداري والدفاعي في المغرب ... ٧٩
- ١ - النظام الإداري ... ٧٩
- ب - للنظام الدفاعي ... ٨٠
- مراجع المصريين الرومان والبيزنطيين ... ٨٤

القسم الثاني

المغرب في العصر الاسلامي

تمهيد

دراسة لأهم مصادر تاريخ المغرب في العصر الاسلامي

- أولا : الآثار الاسلامية في المغرب ... ٣
- ثانيا : أهم المصادر العربية ... ٦
- ١ - مصادر تاريخ الفتح العربي للمغرب ... ٦
- ب - أهم المصادر العربية في تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ١٤
- ج - بعض المصادر العربية في وصف مدن المغرب ... ١٥

الباب الاول

فتح العرب لبلاد المغرب

الفصل الأول

للرحلة الاولى من فتح المغرب

- (١) صعوبة البحث في تاريخ الفتح العربي للمغرب ... ٢٥

منه

- (٢) جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية ٣٩
- ١ - حدود إفريقيا والمغرب ٣٩
- ب - جغرافية بلاد المغرب الطبيعية والسكانية ٤١
- (٣) مرحلة الفارات (٢١ - ٤٩ هـ) ٥٥
- ١ - المحاولات الاولى في زمن عمرو بن العاص : غزو برقة ٥٥
- ب - حملة عبد الله بن سعد : غزوة سيطة ٦٦
- ج - حملة معاوية بن حديج على إفريقية سنة ٤٥ هـ ٨٨

الفصل الثاني

مرحلة الفتح للنظم

- (١) الفترة الاولى (٥٠ - ٦٤ هـ) ١٠٥
- ١ - عقبة بن نافع قبل توليته إمارة إفريقية ١٠٥
- ب - تأسيس القيروان وأثره في تثبيت قواعد الفتح ١١١
- ج - عزل عقبة بن نافع وتولية أبوالمهاجر دينار (٥٥ - ٦٤ هـ) ١٢٤
- د - ولاية عقبة الثانية (٦٢ - ٦٤ هـ) ١٣١
- (٢) الفترة الثانية (٦٩ - ٩٠ هـ) ٢٣٠
- ١ - انسحاب العرب من القيروان في سنة ٦٤ هـ ١٤٤
- ب - حملة زهير بن قيس واسترجاع العرب للقيروان ١٤٧
- د - حملة حسان بن النعمان الاولى ، وتخريب قرطاجنة ١٥٤
- هـ - موسى بن نصير واستكمال فتح المغرب ١٦٥

سنة

الباب الثاني

المغرب الاسلامى فى عصر الدولتين الأموية والعبادية

الفصل الثالث

المغرب فى ظل الدولة الاموية

- (١) فتح المسلمين للاندلس ١٧٧
- أ - مقدمات الفتح ١٧٧
- ب - الدور الذى قام به بربر المغرب فى فتح الاندلس ... ١٨٤
- ج - عودة موسى بن نصير إلى المشرق ١٩٥
- (٢) ولاية المغرب بعد موسى بن نصير ٢٠٢
- أ - جهود محمد بن يزيد (٩٧-١٠٠ هـ) واسماعيل بن عبيد الله ٢٠٢
- ب - سياسة الاستبداد مع البربر ونتائجها ٢٠٧
- ج - مقدمات ثورة البربر على العرب فى المغرب (موقعة الاشراف سنة ١٢٢ هـ) ٢١٥
- د - ثورة البربر فى المغرب (موقعة بقدورة على وادى سبو سنة ١٢٤ هـ) ٢٢٠
- هـ - ثورة البربر فى الاندلس وقيام الصراع بين البلديين والشاميين ٢٢٩
- (٣) المغرب فى السنوات الخمس الاخيرة من عصر الدولة الاموية ٢٣٤

مقدمة

- ١ - فشل حنظلة بن صفوان في مواجهة الفتن في المغرب
 وخروجه إلى المشرق ٢٢٤
 ب- ثورات البربر في المغرب في ولاية عبدالرحمن بن حبيب
 القهري ٢٢٧

الفصل الرابع

للمغرب في فترة الانتقال بين سقوط الدولة الأموية
 وقيام الدولة العباسية

- (١) الفراع بن بني عبد الرحمن بن حبيب ٢٤٥
 أ - مقتل عبد الرحمن بن حبيب وولاية إلياس ٢٤٥
 ب- انقراض بني حبيب القهري في المغرب ٢٤٨
 (٢) الصراع بين الخوارج الإباضية في تونس والصنقرية في إفريقية
 أ - غلبة الخارجية على المغرب ٢٥٢
 ب- موقف الخلافة العباسية من الخوارج في المغرب ٢٥٥
 ج - ولاية إفريقية في العصر العباسي حتى قيام دولة بني الأغلب ٢٦٠

- ١ - الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي
 (١٤٨ - ١٥٠ هـ) ٢٦٠
 ٢ - أبو جعفر عمر بن حفص بن عتيق بن قيسمة
 المعروف بجزار مرد ٢٦٤
 ٣ - يزيد بن حاتم وقضاؤه على ثورة البربر الإباضية
 ٢٧٠
 ٤ - روح بن حاتم بن قيسمة ٢٧٢

٣١٢	٥ - أبو الفرائق محمد بن أحمد (٢٥٠ - ٢٦٦ هـ)
٣١٣	٦ - إبراهيم بن أحمد (٢٦٦ - ٢٨٩ هـ)
٣١٦	٧ - أبو العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٨٩ - ٢٩٠ هـ)
	٨ - زيادة الله بن عبد الله آخر أمراء بني الأغلب
٣١٧	(٢٩٠ - ٢٩٦ هـ)
٣٢١	(٣) ازدهار الحياة الاقتصادية في المغرب الأدنى في عصر الأغالة
٣٢٩	(٤) سكان إفريقية في عصر الأغالة
٣٢٩	١ - العرب
٣٣١	٢ - المعجم الفرس
٣٣٢	٣ - الجير
٣٣٢	٤ - الروم والافارقة
٣٣٤	٥ - الفتيان والعبيد
٣٣٦	(٥) منشآت الأغالة في إفريقية
٣٣٦	١ - العبارة الدينية
٣٣٦	٢ - المسجد الجامع بالقيروان
٣٣٦	تاريخ المسجد
٣٤٠	تخطيط الجامع
٣٤٤	قباب الجامع
٣٤٨	زخارف الجامع
٣٤٩	٢ - جامع الزيتونة بتونس

٤٠١	مدينة فاس حاضرة الإدارة
٤٠١	١ - مشكلة تاريخ تأسيس مدينة فاس
٤٠٧	الأدلة للمادية
٤٠٨	الأدلة التاريخية
٤١٥	ب - تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين
٤١٥	١ - فاس في عصر الإدارة
٤١٨	٢ - فاس في عصر موسى بن أبي العافية
٤٢٠	٣ - سيطرة زفاته على فاس ومولاتها لخلقاء بني أمية
٤٣١	بقرطة
٤٣٨	٤ - فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين
٤٣٨	٥ - فاس عاصمة بني مرين

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت والمدرايين بسجلماسة

٤٤٧	(١) أولية الرستميين
٤٤٧	١ - انتشار دعوة الاباضية في المغربين الأدنى والوسط
٤٥٢	ب - عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت
٤٥٩	ج - عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين
٤٧٥	د - إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية ظهور الانقسامات المذهبية عند الاباضية
٤٧٢	(٢) خلقاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم

ملحة

- (٣) مدينة فاس حاضرة الإدارة ٤٠١
- ١ - مشكلة تاريخ تأسيس مدينة فاس ٤٠١
- الأدلة للمادية ٤٠٢
- الأدلة التاريخية ٤٠٨
- ب - تاريخ مدينة فاس منذ تأسيسها حتى نهاية عصر بني مرين ٤١٥
- ١ - فاس في عصر الإدارة ٤١٥
- ٢ - فاس في عصر موسى بن أبي العافية ٤١٨
- ٣ - سيطرة زقاته على فاس ومولاتها لخلقاء بني أمية
- بقرطة ٤٢٠
- ٤ - فاس في ظل دولتي المرابطين والموحدين .. ٤٣١
- ٥ - فاس عاصمة بني مرين ٤٣٨

الفصل السابع

دولتا الرستميين بتاهرت وللدراوين بسجلماسة

- (١) أولية الرستميين ٤٤٧
- ١ - انتشار دعوة الاباضية في المغربين الأدنى والوسط ٤٤٧
- ب - عبد الرحمن بن رستم وتأسيس تاهرت ٤٥٢
- ج - عبد الرحمن بن رستم إمام الرستميين ٤٥٩
- د - إمامة عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وبداية
- ظهور الانقسامات المذهبية عند الاباضية ٤٧٥
- (٢) خلقاء عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم ٤٧٢

٤٧٢	١ - خلافة الامام أفلح
٤٧٣	ب- خلافة الامام أبي بكر بن أفلح
٤٦٥	ج- إمامة أبي اليقظان محمد
٤٧٧	د - إمامة أبي حاتم يوسف بن محمد
٤٧٩	هـ - إمامة اليقظان بن أبي اليقظان ونهاية دولة الرستميين
٤٨١	(٣) علاقة الدولة الرستمية بجزائرها
٤٨١	١ - علاقة الدولة الرستمية بولاية إفريقية
٤٨٣	ب- علاقة الرستميين بالامويين في الأندلس
٤٨٥	ج- علاقة الرستميين بمصر
					(٤) علاقة للدولة الرستمية بدولة بنى واسول والمدرايين
٤٨٦	ب- سجلماسة
٤٨٧	هـ - علاقة الدولة الرستمية بالسودان
٤٨٨	(٤) حضارة الرستميين في تاهرت
٤٨٨	١ - الحياة العلمية
٤٩٠	ب- الحياة الاقتصادية
٤٩٣	ج- الحياة الفنية
٤٩٧	(٥) دولة بنى المدرار بسجلماسة
٤٩٧	١ - نشأة سجلماسة وقيام دولة بنى واسول المدراريين
٥٠١	ب- خلفاء اليسع بن أبي القاسم سمعون الملقب بالمدرار

صفحة

الفصل الثامن

الغرب في ظل الفاطميين

- (١) قيام الدولة الفاطمية في المغرب ٥٠٧
- ١ - دور أبي عبد الله الشيعي في تأسيس الدولة الفاطمية ٥٠٧
- ١ - مرحلة الاعداد ٥٠٨
- ٢ - مرحلة للصدام المسلح ٥١٢
- ب- خلافة عبيد الله المهدي ٥١٥
- ١ - التخلص من الشيعي وأصحابه ٥١٥
- ٢ - القضاء على ثورة الإباضية بطرابلس سنة ٣٠٠هـ ٥١٧
- ٤ - رد الفعل الأندلسي ضد مطامع الفاطميين في ٥٢٣
- ٥ - فتح برقة ومحاولة فتح مصر ٥٢٢
- (٢) ثورة أبي يزيد محمد بن كيداد اليفرنى الخارجى ٥٢٥
- ١ - قيام الثورات في بدايه عهد القائم ٥٢٥
- ب- ثورة أبي يزيد محمد ٥٢٦
- ١ - المرحلة الأولى (٢٢٢ - ٣٣٢هـ) ٥٣٦
- ٢ - المرحلة الثانية (٣٣٢ - ٣٣٣هـ) ٥٣٨
- ٣ - المرحلة الثالثة (٣٣٣ - ٣٣٤هـ) ٥٤١
- ٤ - المرحلة الرابعة (٣٣٤ - ٣٣٦هـ) ٥٤٣
- (٣) خلافة المعز لدين الله الفاطمي ٥٤٦

صفحة

- ١ - بسط نفوذ الفاطميين على المغرب الأقصى ... ٥٤٦
 ب - استيلاء المرز على مصر ، وانتقاله إليها ... ٥٤٨

الفصل التاسع

المغرب الأدنى واللاوسط في ظل بني زيري

وبني حماد الصنهاجيين

(١) أسراء بني زيري منذ قيامهم بأمر المغرب حتى استقلال

- الحاديين بالمغرب الأوسط ... ٥٥٥
 ١ - دولة أبي الفتح يوسف بن زيري ... ٥٥٥
 ب - دولة أبي الفتح المنصور بن بلكين ... ٥٥٨
 ج - دولة نصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور ... ٥٦٠
 د - انقسام دولة الصنهاجيين ... ٥٦٢
 (٢) علاقة الصنهاجيين بالخلافة الفاطمية ... ٥٦٧

١ - الدور الأول من اتصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية

- بمصر ... ٥٦٧
 ب - الدور الثاني من اتصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية
 بمصر ... ٥٦٨
 ج - الدور الثالث من اتصال بني زيري عن الخلافة الفاطمية
 بمصر ... ٥٧١

ملحة

د - الدور الأخير من اتصال بنى زيرى عن الخلافة الفاطمية

... .. بمصر

(٣) انتقام المستنصر بالله الفاطمى : غزو عرب الملالية وبنى سليم

٥٨٠ لبلاد المغرب

٥٨٠ ١ - دخول قبائل بنى هلال وبنى سليم فى أرض المغرب

٥٨٢ ب - هزيمة جيوش المعز على أيدي العرب

٥٨٥ ج - نتائج غزو الملالية للمغرب

٥٨٨ (٤) استيلاء النورماندين على المهديّة

٥٨٨ ١ - غارات الزيريين على سواحل إيطاليا وصقلية وآثارها

٥٩١ ب - سقوط المهديّة فى أيدي النورماندين

٥٩٧ (٥) انقراض دولة بنى حماد

الباب الرابع

المغرب الاسلامى فى ظل دولتي المرابطين والموحدين

الفصل العاشر

قيام دولة المرابطين فى المغرب

٦٠٤ (١) تأسيس دولة المرابطين

٦٠٤ ١ - أصل المرابطين

٦٠٧ ب - رباط عبد الله بن ياسين

صفحة

٦١٠	ح- في المرابطين إلى المغرب الأقصى
٦١٢	د- ظهور يوسف بن تاشفين
٦١٦	(٢) تأسيس مراکش وقيام دولة المرابطين
٦٢١	(٣) المرابطون في الأندلس
٦٣١	١- أحوال الأندلس عند قيام دولة المرابطين
٦٣٧	ب- موقعة الزلاقة
				د- جهاد المرابطين في الأندلس منذ دخولها في فلك
٦٤٨	دولهم في المغرب
٦٥٢	(٤) أسباب ضعف دولة المرابطين وانهارها
٦٦٠	(٥) منشآت المرابطين في المغرب
٦٦٠	١- دور المرابطين السياسى والحضارى في المغرب
٦٦٢	ب- دراسة لأهم مساجد المرابطين في المغرب
٦٦٦	جامع القرويين بفاس
٦٦٧	آثار الاقلاع والاسوار

الفصل الحادى عشر

المغرب في عصر المرينيين

٦٨٢	(١) ظهور المرينيين
					١- المهدي بن تومرت فقيه السوس وعبد المؤمن بن علي
٦٨٢	مراج المرينيين

صفحة	
٦٩٢	بعد الاشتباكات الأولى مع المرابطين
٦٩٦	(٧) فتوحات عبد المؤمن بن علي
٦٩٦	١ - المرحلة الأولى : إسقاط دولة المرابطين
٦٩٦	١ - فتح تلمسان ووهران
٦٩٧	٢ - فتح فاس
٦٩٩	٣ - فتح مراكش
٧٠١	ب - المرحلة الثانية : فتح الأندلس
٧٠٦	ج - المرحلة الثالثة : فتح المغربين الأدنى والوسط
٧١١	(٨) عصر أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن
٧١١	١ - المعاب التي واجهته في المغرب والأندلس
٧١٢	ب - جهاده في الأندلس واستشهاده في شترين
٧١٦	(٩) المنصور بطل الأرك
٧١٦	١ - حروبه مع بني غانية
٧١٩	ب - جوازه الأول إلى الأندلس واسترجاع المسلمين لشلب
٧٢٠	ج - انتصار أبي يوسف المنصور في موقعة الأرك
٧٢٦	د - غزوة طليطلة (سنة ٥٩٢ هـ)
٧٢٨	هـ - الغزوة الثالثة
٧٣٠	(١٠) محمد الناصر وهزيمة الموحدين في العقاب
٧٣٠	١ - ثورات المغرب في عصر محمد الناصر

صفحة

٧٢٢	ب- هزيمة المسلمين في العقاب
٧٤٢	ج- انهيار دولة الموحدين بعد هزيمتهم في الأرك
٧٤٦	(٦) مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب
٧٤٦	١- الأمر الأندلسي في الفن الموحدى
٧٤٩	ب- اهتمام الموحدين بالبناء
٧٥٢	ج- أهم مساجد الموحدين وتحصيناتهم في المغرب والأندلس
٧٥٢	١- جامع الموحدين برباط تازى
٧٥٣	٢- جامع تينملل
٧٥٧	٣- جامع الكتبية بمراكش
٧٦٢	٤- جامع القصبية بمراكش
٧٦٣	٥- جامع حسان بالرباط
٧٦٤	٦- جامع الأندلس بفاس
٧٦٨	٧- جامع القصبية الكبير باشيطة
٧٧٢	المنشآت الحربية
٧٧٢	أسوار المدن
٧٧٥	البواب ذات المرافق

خاتمة

ورثة الموحدين في المغرب

٧٨١	١- بنو مرين في المغرب الأقصى
-----	-----	-----	-----	-----	------------------------------

منحة

- ب- بنو عبد الواد في المغرب الاوسط ... ٧٨٦
ج- بنو حفص في المغرب الادنى ... ٧٧٩

مراجع الكتاب

- أولا - المصادر العربية ... ٧٩٧
ثانيا - المراجع العربية الحديثة والاورية المعربة ... ٨٠٤
ثالثا - المراجع الاورية الحديثة ... ٨١١

فهرس الصور

- (١) المسجد الجامع بالقديوان : منظر عام من أعلى المئذنة ... ٨١٩
(٢) المسجد الجامع بالقديوان : جوفة المحراب ... ٨٢٠
(٣) المسجد الجامع بسوسة : منظر عام ... ٨٢١
(٤) : : : منظر لمقود بيت الصلاة أدنى القبة ٨٢١
(٥) : : : أحد العقود التي تقوم عليها القبة ٨٢٢
(٦) مسجد الاواب الثلاثة بالقديوان : تفصيل لرخار فواجهة
المدخل ... ٨٢٢
(٧) : : : منظر عام للواجهة ... ٨٢٣
(٨) جامع الزيتونة بجونس : عقود بيت الصلاة ... ٨٢٤
(٩) : : : قبة المحراب من الداخل ... ٨٢٥
(١٠) المسجد الجامع بسفاقس : رسم للمئذنة ... ٨٢٦
(١١) قبة الهيروديين بمراكش : ... ٨٢٧
(١٢) : : : ... ٨٢٧

- ٨٢٨ (١٣) جامع القرويين بفاس : قبة المحراب ..
- ٨٢٩ (١٤) ... : البلاطة الوسطى ...
- ٨٣٠ (١٥) المسجد الجامع بتلمسان : البلاطة الوسطى ...
- ٨٣١ (١٦) المسجد الجامع بالجزائر : عقود بيت الصلاة ...
- ٨٣٢ (١٧) المسجد الجامع بتلمسان : واجهة المحراب وجانب من القبة
- ٨٣٣ (١٨) جامع الأنديسين بفاس : محببة الصحن والصومعة ...
- ٨٣٤ (١٩) باب الرواح بمراكش ...
- ٨٣٥ (٢٠) المسجد الجامع برباط الفتح والصومعة ...
- ٨٣٦ (٢١) المسجد الجامع برباط الفتح : أعمدة بيت الصلاة ...
- ٨٣٧ (٢٢) جامع الكتبية بمراكش : الأسقف والصحن ...
- ٨٣٨ (٢٣) ... : الصومعة ...
- ٨٣٩ (٢٤) جامع القرويين بفاس : الصحن ...
- ٨٤٠ (٢٥) تخطيط جامع القرويين بفاس ...
- ٨٤١ (٢٦) جامع رباط تازي : قبة المحراب ...
- ٨٤٢ (٢٧) المسجد الجامع باشيلية : الصومعة ...
- ٨٤٣ (٢٨) ... : قبوة بأعلى أسطوان المدخل الشرق ...
- (٢٩) ... : جانب من الزخارف التي تحف بعقد ...
- ٨٤٤ المدخل إلى الصحن ...
- ٨٤٦ (٣٠) برج الذهب باشيلية ...
- ٨٧٤ (٣١) المسجد الجامع باشيلية : زخارف تملأ بواطن عقد المدخل
- ٨٤٧ (٣٢) سور مقارنة باشيلية ...
- ٨٤٨ (٣٣) صحن المدرسة بوغانية بفاس ...

